

أرنولد توينبي مختصر دراسته للتاريخ

الجزء الثاني

ترجمة: فؤاد محمد شبل
مراجعة: محمد شفيق غربال
تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة
علي مولا

1715

مختصر دراسة للتاريخ
(الجزء الثانى)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1715
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثاني)
- أرنولد توينبي
- فؤاد محمد شبل
- محمد شفيق غربال
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. II)

By: Arnold J. Toynbee

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثاني)

تأليف : أرنولد توينبي
ترجمة : فؤاد محمد شبل
مراجعة : محمد شفيق غربال
تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلية



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثانى) / تأليف: أرنولد توينبى،
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غريال.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٥١٢ ص، ٢٤ سم

١- التاريخ

(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)

(ب) غريال، محمد شفيق، ١٨٩٤-١٩٦١ (مراجع)

٩٠٧، ٢

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٤٩٦٩ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : 978-977-704-485-1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية
المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات
أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

للمترجم

- ١ - تقرير غرفة الإسكندرية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧
- ٢ - النظام المالى الإسلامى
- ٣ - عصب الحرب
- ٤ - الدستور السوفيتى
- ٥ - المدينة الفاضلة
- ٦ - السياسات الاقتصادية الدولية
- ٧ - دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى (ترجمة)

تحت الطبع

اقتصاديات القارة الإفريقية

تقديم

انتهى المطاف بالأستاذ توينبي في الجزء الأول من هذه الدراسة التاريخية ، إلى بحث أسباب انهيار الحضارة التي يُجملها في إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة .

ويتطور الحال بهذه الأقلية بعد إصابتها بالعمى والقصور ، إلى التحول إلى مجرد أقلية مسيطرة . وتردُّ أغلبية المجتمع على تحكم أقليته ؛ بعلوها عن بذل الولاء لها والابتعاد عن السير وراءها ، ومحركاتها في أعمالها . ويتلو تضعضع العلاقة بين أقلية المجتمع وأغليته ، انهيار وحدة المجتمع الاجتماعية .

ويرى المؤلف أنه يجب - من الناحية المثالية - على كل طاقة اجتماعية جديدة تُطلقها الأقليات المبدعة ، أن تُوجدُ نظاماً جديدة تستطيع بوساطتها تأدية رسالتها في المجتمع الذي تتولى قيادته . فإن فرض وعجزت الأقلية المسيطرة عن إنجاز رسالتها وأصرّت على استخدام النظم البالية القائمة على استخدام القوة الغاشمة التي أثبتت التجارب فسادها وضررها بالمجتمع ؛ لاستتبع ذلك تفكك النظم القائمة .

ثم يبحث الأستاذ المؤلف مسألة تحليل الحضارات . وعنده أن المجتمع ينقسم وقت تحليله إلى كسور ثلاثة :

أقلية مسيطرة - بروليتاريا داخلية - بروليتاريا خارجية .

ولا يقتصر المؤلف على بحث العوامل المادية لتحلل الحضارات ، بل يبحث كذلك أسبابه الروحية .

ويمتاز هذا الجزء بالتحليل الرائع لأطباع اليهود ، وردّها إلى جنورها الأصلية في صورة علمية جذابة . فإن الصهيونية لن تقنع بفلسطين وحدها ،

(و)

يل إن هدفها النهائي تكوين إمبراطورية . مركزها القدس وتتحكم في أقدار
العالم الاقتصادية والسياسية . وقد أصبح تحقيق هذه الأطماع عملياً ؛ قوام
العقيدة اليهودية منذ الأسر البابلي .

ويجد القارئ الكريم في هوامش هذا الجزء طائفة من التفسيرات ،
لعلها تساعد على الإلمام المنشود بآراء المؤلف وأفكاره .
والله تعالى أسأله التوفيق والرشاد .

فؤاد محمد سبيل

١٤ يولييه سنة ١٩٦١

الفصل السادس عشر

إخفاق تقرير المصير

(١) آلية المحاكاة

قائدنا - حتى الآن - بحثنا عن علة انهيارات الحضارات ، إلى رتل من الاستنتاجات السلبية :

الأول : ليس الانهيار الحضارى من فعل القضاء والقدر ؛ بالمعنى الذى يعنيه رجال القانون .

الثانى : لا يعتبر الانهيار إعادات عابثة لقوانين الطبيعة الجامدة .

الثالث : لن يتيسر رد انهيارات الحضارات إلى فقدان السيطرة على البيئة ؛ طبيعية كانت أم بشرية .

الرابع : لا يرجع الانهيار إلى انحطاط فى الأساليب الصناعية أو التكنولوجية .

الخامس : لا يرد الانهيار إلى عدوان مهلك ، يشنه خصوم دخلاء .

وهكذا ، لما فصل بعد إلى هدف بحثنا ؛ بسبب صدوفنا عن قبول هذه التفسيرات ، الواحدة بعد الأخرى .

على أن البحث قد هبأ لنا بالفعل - بمحض الصدفة - دلالة فى شخص آخر المغالطات التى سردناها : تكشفت لنا وقمنا كنا نقيم الحجة على أن الحضارات المنهارة ، لم تواجه الموت على يد قاتل . إذ لم نجد سبباً لإثبات الزعم بأنها ضحايا العنف . وقادتنا عملية الاستنفاد المنطقي فى كل حالة تقريباً ، إلى العودة إلى الفكرة القائلة بأن « الانتحار » هو علة « الانهيار » .

وبالأحرى يتحوّل مناظ غاياتنا إلى استخدام هذا الاستدلال فى تحقيق

شيء من التقدم الإيجابي في سياق بحثنا . وثمة بصيص من الأمل في أن يوفقنا هذا الرأي إلى غايتنا .

ولكن تكهن شاعر غربي^(١) في هدية وقادة بالنتيجة التي توصلنا نحن إليها ، بعد نهاية بحث شاق بعض الشيء :

في مأساة الحياة ، أدرك الله

عدم ضرورة الشرير ، أن الانفعالات هي التي تحيك الأحبولة
إننا خدعنا بما هو مزيف في داخلها .

على أن « وميض الفراسة » هذا ، لم يكن كشفاً جديداً . إذ يمكننا العثور عليه في مراجع أسمى وأقدم . إنه يتبدى في الخطوط الأخيرة من الملك جون لشكسبير :

إن إنجلترا هذه لم يسبق لها أبداً ، ولن تفعل في المستقبل
أن تنحني على قدم فاتح فخور
ولكن وقما كادت في بدء الأمر أن تطعن نفسها
لا شيء مطلقاً يجعلنا نندم
إن استكانت إنجلترا لنفسها حقيقة .

كذلك تبدى الفكرة في كلمات السيد المسيح^(٢) :

« ألا تفهمون بعد ؛ أن كل ما يدخل الفم ، يمشى إلى الجوف ويندفع إلى المخرج . وأما ما يخرج من الفم فن القلب يصنبر . وذلك ينجس الإنسان . لأن من القلب تخرج أفكار شريرة : قتل ، زنى ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، تجديف . هذه هي التي تنجس الإنسان .

هنا نتساءل عن نقطة الضعف التي تعرض حضارة نامية إلى خطر العثرة والوقوع في منتصف حياتها الجارية ، وفقدان وثبتها البروميشية^(٣) .

(١) نقلاً عن ديوان « عشق القبر » من نظم ميرمديث . (المؤلف)

(٢) انجيل متى الإصحاح ١٥ وآيات ١٧ - ٢٠ : الترجمة العربية . (المترجم)

(٣) نسبة إلى بروميثوس الذي كان يعتبر إله العلوم والمعرفة عند اليونانيين . (المترجم)

لا بد وأن الضعف كامن أصيل . لأنه وإن كانت كارثة الانهيار تُعتبر عرضاً وليست يقيناً إلا أنه ظاهر أن المخاطرة تُتخذ بأوخم العواقب . فإننا نواجه حقيقة مدارها ؛ أن من بين الواحد والعشرين حضارة التي ولدت على قيد الحياة واستمرت في نموها ؛ ثمة ثلاث عشرة حضارة قد ماتت وووريت التراب ، وأن سبعة من الثمانية في طريق الانحلال كما هو ظاهر . أما بالنسبة للثامنة - أى الحضارة الغربية - فلعلها - وفقاً لعلما - قد بلغت ذروتها .

ويُبدى الاستقصاء التجريبي ، أن خط سير الحضارة النامية مُفعم بالخطر . ويمكن هذا الخطر - باستخدامنا تحليل الارتقاء مرة أخرى - في نفس طبيعة السبيل الذى يُقيّض للحضارة النامية سلوكه .

وما الارتقاء إلا فعل صادر عن الشخصيات والأقليات المبدعة . لكنها ذاتها تقعد عن التحرك إلى الأمام ، إلا إن تحايلت على حمل رفاقها معها في طريق تقدمها . ولن يتيسر لجمهرة البشرية الساحقة العاطلة عن الإبداع ، أن تشكل جميعها وأن ترتفع إلى وضع زعمائها في ملح البصر^(١) . وهذا يستحيل تحقيقه من الناحية العملية . لأن الفيض الروحاني الداخلى الذى يتخذه ويمضى القربان المقدس لإضرام نفس خامدة لترتفع إلى مرتبة القديسين ، يندر وجوده إلى أعظم حد ؛ ندرة المعجزة التى جادت بالقديسين إلى الوجود .

وبالأحرى ؛ ينصرف واجب الزعيم ، إلى تحويل زملائه إلى أتباع له . وفى وسع جمهرة البشرية التحرك صوب هدف أبعد عن متناولها ، باتخاذ وسيلة واحدة ؛ مدارها تجنيد صفة المحاكاة البدائية والعالمية لخدمة الهدف المنشود . فإن المحاكاة هى ضرب من التدريب الاجتماعى . فإذا كانت الآذان الكلية تضم عن سماع موسيقى قيثارة « أورفوس العلوية » ، فإنها تتجاوب مع الأمر الذى يصدره معلم التدريب . ألم يحدث فى عهد فردريك وليم ملك

(٣) يعنى الأستاذ المؤلف ، ارتفاع جمهرة الناس إلى مرتبة المبقرى الذى يوحى بالفكرة المبدعة فى لحظة لا تطول عن ملح البصر .
(المترجم)

بروسيا أن كانت أغلبية الحاضرين تقف في بلاده وتتحرك حركة آلية أثناء إيقاع زمار هاملين Hamelin ، إلى أن حاكى بمزمارة صوت الملك ، فاندفع الناس جميعاً في نشاط عارم ؟

ومن ثم فإن التطور الذي أحدثه الزمار بإيقاعه لم يفلح إلا في تحريكهم حركة بليدة . أى أنهم عجزوا عن التجاوب معه وفشلوا في اللحاق به ، إلا بعد أن سلك بهم طريقاً قصيراً يقود إلى غايته .

ولن يتأني لهم بحال ؛ السير المنتظم ، إلا بالانتشار على الطريق الواسع الذي يقود إلى الدمار . وعندما يقتضى مطلب الحياة وطء طريق الدمار ، لا يستغرب إذاً ، أن ينتهى المطلب نفسه بكارثة .

وفضلاً عن ذلك ؛ فإن ثمة ضعفاً في مباشرة المحاكاة مباشرة واقعية ، مع صرف النظر تماماً عن الوسيلة التي قد تستغل بها ملكة المحاكاة . وذلك لأنه لما كانت المحاكاة نوعاً من التدريب ، فإنها بالتالى ضرب من توجيه حياة البشر وحركتهم توجيهاً آلياً .

وإذ نتكلم عن « الميكانيكية المبتكرة » أو الميكانيكى الحاذق » ؛ توجى الكلمات بفكرة انتصار الحياة على المادة ، وانتصار المهارة البشرية على الصعوبات المادية . وتشير أمثلة معينة إلى نفس الفكرة : من القونوجراف^(١) أو الطيارة ، حتى نرجع القهقري إلى أول عجلة أو تكون من خشب مقور . لأن هذه المحترعات قد وسّعت قدرة الإنسان على السيطرة على بيئته ، بفضل تمرّسها على أشياء جامدة إلى أن أصبحت تنفذ الأغراض البشرية ، على غرار قيام مخلوقات البشرية المطبوعة على التفكير الآلى ، بتنفيذ أوامر الجندي المدرب . فإن الجندي إذ يدرّب شرذمة ، يستطيع بوساطتها أن يغدو برباروس^(٢) ، الذى كانت أيديه وأرجله المائة تطيع إرادته بسرعة . والمثل

(١) أنرت استخدام الاصطلاح المؤلف المستعمل للتعبير عوضاً عن كلمة (الحاكى) لأنها لا تمثل في نظري حقيقة الاصطلاح . (المترجم)

(٢) تذكر الأساطير اليونانية أنه كان جباراً ذا مائة ذراع . ويطلق على الإنسان ذى السلطان الواسع . (المترجم)

يقال عن التلسكوب ، فإنه امتداد لمجال البصر البشرى ، والبوق امتداد للصوت البشرى ، والركزة^(١) امتداد للساق البشرية ، والسيف امتداد للذراع البشرى .

ويبدو كما لو أن الطبيعة قد أطرت الإنسان على فراسته ، بواسطة تنبؤها باستخدامه الأساليب الميكانيكية . لأن الطبيعة ذاتها قد استخدمتها على نطاق واسع في أعظم مآثرها « الجسم البشرى » . ومصدقا لذلك نجد أنها تشيد في القلب والرئتين آليتين منظميتين تنظيماً ذاتياً تعتبران أنموذجين لنوعيهما .

ولقد تيسر تخليص حدود طاقتنا من إسار الواجبات الرتيبة المتكررة التي تؤدها أعضاء الجسم ؛ بفضل قيام الطبيعة بتنسيق وظائفها لتعمل في صورة آلية ؛ فأمكن والحالة هذه إطلاق سراح هذه الطاقات لتتحرك وتتحدث . وبكلمة جامعة انطلاق واحدة وعشرين حضارة إلى الوجود . إن الطبيعة قد نسقت حوالى التسعين في المائة من وظائف الجسم ، بحيث تسيّر وحدها . أى بأقل جهد يبذل . وعندئذ يتيسر تركيز أقصى كمية ممكنة من الطاقة الباقية على العشرة في المائة التي فيها تتلمس الطبيعة طريقها صوب تقدم غض . وحقاً يتكوّن الكيان الطبيعى — مثلاً يتكوّن المجتمع البشرى — من أقلية مبدعة وأغلبية من « الأعضاء » غير المبدعين . ونجد في الجسم النامى السليم ، مثلاً نجد في المجتمع السليم ؛ أن الأكثرية تدرب لتتبع قيادة الأقلية ، بصفة آلية .

يبد أننا إذ نضل الطريق في غمرة الإعجاب بهذه الانتصارات الميكانيكية الطبيعية والبشرية ، فإن ذهننا يتشوش عند ما ننبه إلى وجود عبارات أخرى تتصل بالسلع التي تصنعها الآلات ، السلوك الآلى . فإن مفهوم كلمة « آلة » في هذه العبارات ، نقىض ما قدمناه . فإنها لا توحى

(١) إحدى خشبتين بهما نثرون للمشى بهما . (المترجم)

بانتصار الحياة ، على المادة ولكن بانتصار المادة على الحياة . وذلك لأنه على الرغم من أن الآلة قد صممت لتكون 'عبداً' للإنسان ، يحتمل كذلك أن يغدو الإنسان عبداً للآلة . وبالحرى يصبح للجسم الحى الذى يكون الطابع الآلى منه تسعين فى المائة من كيانه ؛ فرصة أو قدرة متاحة للإبداع ، أعظم مما يتيح لجسم يكون طابعه الآلى ، نسبة خمسين فى المائة من كيانه فقط . فلوم يضطر سقراط إلى تجهيز طعامه بنفسه ، لتوافر له وقت أطول وفرصة أعظم لكشف سر الكون . على أن الجسم الذى تكون نسبة الآلية فيه تسعين فى المائة ، إن هو إلا مجرد « إنسان ميكانيكى » .

وهكذا فإن مخاطرة النكبة ، سليقة فى استعمال ملكة المحاكاة التى هى عجلة التحول الآلى فى علاقات البشر الاجتماعية . وتغدو هذه المخاطرة — كما هو ظاهر — أشد وقعاً ، وقتاً توضع المحاكاة موضع التنفيذ ، فى مجتمع فى حركة ديناميكية ؛ عنها لو وضعت فى مجتمع فى حالة هجوع .

ويكمن ضعف المحاكاة ، فى كونها عملية استجابة لإيعاز يفد من الخارج . ومن ثم ؛ ما كان لينجز الفعل المنجز لو ترك أمر إنجازه إلى رغبة الشخص الذى تولى أمر الفعل .

وبالتالى ؛ فإن فعل المحاكاة ، فعل غير مستقل يخططه . ويلزم لضمان إنجازه ، وجوب بلورة ملكة المحاكاة فى العادة أو العرف — كما هو حادث بالفعل فى المجتمعات البدائية التى لا تريم عن حالة البن^(١) . بيد أنه عندما تُقطع « قرصة العادة » ، يعاد توجيه ملكة المحاكاة — التى ظلت توجه حتى هذا الوقت إلى الخلف ، صوب المسنين أو الأجداد ، باعتبارهم تجسيدا للتقليد الاجتماعى الغير المتغير — صوب الشخصيات المبدعة التى تهوى قيادة رفاقها معها صوب أرض الميعاد^(٢) . ويلتزم المجتمع الآخذ فى الارتقاء من الآن فصاعداً ، بأن يعيش حياة تحمل طابع المجازفة .

(١) حالة السكون . (المترجم)

(٢) أى صوب الارتقاء إلى حالة أفضل . (المترجم)

وفضلاً عن ذلك ؛ فإن المخاطرة وشبكة الوقوع دوماً . ما دام الشرط المطلوب للاحتفاظ بالارتقاء ، يتسم دوماً بالمرونة والتلقائية . في حين يتمثل الشرط المطلوب لتحقيق المحاكاة الفعالة — التي هي ذاتها ضرورة لازمة للارتقاء — في توافر درجة جوهرية من ذاتية الحركة الشبيهة بالآلة . ولقد كان ثاني هذين الأمرين في ذهن والتر باجهوت ؛ وبقياً أنبأ قراءه الإنجليز بطريقته التكمية ، بأن قدراً كبيراً من نجاحهم النسبي كأمة « يرجع إلى غيائهم » . أما إن الزعماء أخيار فنعم ، إلا أن الزعماء الصالحين لن يتوافر لهم أتباع صالحون ، إن اعترمت جمهرة هؤلاء الأتباع أن تفكر لنفسها . على أنهم لو كانوا جميعاً أغبياء ، فأين موضع الزعامة ؟

وحقاً تُعرض الشخصيات المبدعة التي تنصدر الحضارة والتي استنجدت بالمحاكاة الآلية ، تعرض نفسها لخطورة العجز في ناحيتين :

الأولى : سلبية ؛ ويتمثل احتمال عجزها في أن الزعماء قد يصيبون أنفسهم بأنفسهم ، يعلو النوم المغناطيسي الذي بثوه هم في أتباعهم . وعندئذ يحصل الأفراد على صفة القراة بضمن جائج مداره فقدان القادة عنصر الإقدام . وهذا مصداق لما حدث للحضارات المتعطلة ، وما حدث في كافة فترات توازيخ الحضارات الأخرى التي تعتبر فترات ركود . ومع ذلك لا يعدّ هذا العجز السلبي عادة نهاية القصة . فإنه عندما يتوقف القادة عن القيادة ، يتحول سند قوتهم إلى تعسف . هنا يتحوّل أفراد الناس فيسعى القادة إلى استعادة النظام باستخدام إجراء صارم . والآن يناضل أورفوس — الذي فقد قيثارته أو نسي طريقة العزف بها — نضال الأبطال ، ومعه كرباج أجزركسيس .

الثاني : إيجابية ، تنتج عن استخدام القادة العنف للاحتفاظ بقيادتهم . إذ يحدث ذلك صباحاً ، يستحيل التكوين العسكري معه إلى فوضى . ولقد سبق لنا المرة بعد المرة ، استخدام اسم آخر للعجز الإيجابي هو « تحلل الحضارة » المنهارة الذي يعلن عن نفسه في « انشقاق البروليتاريا » عن عصابة من الزعماء الذين تملّكوا إلى « أقلية مهيمنة » .

ولقد يُعتبر انفصال جمهرة الناس عن الزعماء ، بمثابة انتفاء التماسك بين الأجزاء التي تؤلف مجموع المجتمع بأسره . وأن انتفاء التجانس بين الأجزاء في أى مجموع يتألف من أجزاء ، يقتضى من المجموع بأسره ثمناً يتجلى في صورة خسارة مطابقة لتقرير المصير . وأن خسارة تقرير المصير هذه ، هي القاعدة النهائية لتقرير المصير . وأن فقدان تقرير المصير هذا ، هو قاعدة انهيار الحضارة بصفة نهائية .

وأخيراً انتهى بنا النقاش في قسم سابق من هذه الدراسة ؛ إلى نتيجة مؤداها أن ارتقاء صوب تقرير المصير هو قاعدة الارتقاء .

وعلينا الآن أن نفحص طائفة من النماذج التي يتبدى فيها فقدان تقرير المصير بسبب انتفاء التجانس .

(٢) خمر جديدة في زقاق عتيقة

١ - تعديلات وثورات وانحرافات :

ينبنى على إقحام القوى الاجتماعية الجديدة في مجتمع من المجتمعات ، إحداث تنافر في النظم التي يتألف منها هذا المجتمع : سواء تألفت تلك القوى من ميول أو انفعالات أو آراء ؛ لم تكن النظم القائمة قد هيئت في الأقل لتقبلها . ويشير قول من أشهر الأقوال التي تُعزى إلى السيد المسيح إلى النتيجة المدركة لهذه المقارنة القاصرة للأشياء ؛ جديدها وقديمها :

« ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق . لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ . ولا يجعلون خمرأً جديدة في زقاق عتيقة ؛ لئلا تنشق الزقاق ، فالخمر تنصب والزقاق تتلف . بل يحملون خمرأً جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً^(١) .

ويتأتى - بلا ريب - تنفيذ الشيء المحسوس حرقاً في الاقتصاد المنزلى الذى اقْبَس منه هذا التشبيه . بيد أنه تتقلص كثيراً قوة الرجال على تنظيم

(١) الإصحاح التاسع آيتا ١٦ و ١٧ من الترجمة العربية من إنجيل متى . (المترجم)

شؤونهم وفقاً لإرادتهم ، على أساس خطة مطابقة للعقل في اقتصاد الحياة الاجتماعية . طالما أن المجتمع ليس ملكاً لملك واحد ، مثل زق الحمر أو الثوب . فإن المجتمع هو الميدان الذى يضم الكثير من ميادين الفعل الإنسانى . ولهذا السبب يعتبر المحسوس - الذى يتفق عقلاً مع الاقتصاد المنزلى ومع الحكمة العملية في الحياة الروحية - أسمى مراتب العدالة القدسية في الشؤون الاجتماعية .

ولا ريب أن المثالية تتطلب أن يصحب القوى الديناميكية الجديدة ، إعادة تشييد مجموعة النظم القائمة بأسرها : وأن يُعاد في أى مجتمع في حالة نمو فعلى تنظيم المفارقات التى تتسم بالنشور أكثر من غيرها ؛ تنظيماً مستمراً . لكن قوة القصور الذاتى^(١) تنحو في جميع الأوقات إلى الاحتفاظ بمعظم جوانب الكيان الاجتماعى كما هى . وذلك على الرغم من عدم مجانستها - بصورة متزايدة - مع القوى الاجتماعية الجديدة التى تفد إلى الفعل على الدوام . وتستطيع القوى الجديدة في ظل هذا الموقف أن تنجز عملها بطريقتين متضادين ، متعارضين من ناحية تزامنها^(٢) .

الأولى : تحقق عملها الخلاق بوساطة النظم القديمة التى واءمتها مع غايتها . وتحقيقاً للصالح العام للمجتمع ، تنجّه تلك النظم إلى إسالة نفسها في هذه القنوات المنسّقة .

الثانية : تنضوى هذه القوى كذلك في نفس الوقت - بغير تمييز - تحت أية نظم يتصادف وقوعها في طريقها . مثلها مثل نوع من هامة بخار قوية شقت طريقها إلى موضع المحرك ؛ فإنها قد تندفع صوب بناء أى محرك قديم يتصادف إقامته هناك .

وفي مثل هذه الحالة ، تنجّه أى من هاتين النكبتين المتعاقبتين نحو أحد سبيلين :

الأول : يتسلف ضغط هامة البخار الجديدة المحرك القديم إرباً .

Vis inertiae (١)

(٢) التزامن : الحدوث في نفس الزمن . (المترجم)

الثاني : يتجه المحرك القديم بطريقة ما إلى تماسك أجزائه ويشرع في العمل بأسلوب جديد يُحتمل أن يدلل على أنه مدمرٌ ومخيفٌ معاً .

فإن ترجمنا هذه الرموز إلى مصطلحات الحياة الاجتماعية ، تبين لنا :

أولاً : ترمز انفجارات المحركات القديمة التي تعجز عن الصمود للضغط الجديدة ، أما انفجارات القنينة التي لا تصمد لتخمر النبيذ القديم ، فإنها ترمز إلى الثورات التي تباغت النظم المتناقضة ، في بعض الأوقات .

ثانياً : ترمز الأفعال الضارة التي تُحدثها المحركات التي صمدت لمجاهدة أعمال ألزمت بالقيام بها ، إلى الانحرافات الاجتماعية التي يولتدها في بعض الأحيان تناقض النظم المحافظة .

وقد توصم الثورات بأنها معوقة ، وأنها أفعال محاكاة عنيفة في تطابقها . ويعتبر عنصر المحاكاة من جوهر ذاتها . لأن لكل ثورة ، إسناداً إلى شيء حدث فعلاً في مكان آخر .

ومن المعروف دائماً — عند ما ندرس ثورة من الثورات في وضعها التاريخي — أن نشوبها لا يحدث بنفسه ، ولكن يستثيره دور سابق لقوى غريبة . ويطالعنا في هذا الشأن مثال واضح هو ثورة ١٧٨٩ الفرنسية التي استمدت إلهامها — من ناحية — من الأحداث التي جرت قبيل ذلك الوقت في المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية^(١) . وهي أحداث ساعد على إيجادها ، النظام الفرنسي القديم ، فكأنه بهذا كان يقدم على الانتحار . كما استمدته — من ناحية أخرى — مما حققته إنجلترا ، أو أشاعه في فرنسا جيلان من الفلاسفة : من مونتسكيو وما بعده .

وبالمثل ؛ نجد عنصر التقصير من جوهر الثورات . وهو المسئول عن العنف الذي يعتبر أظهر سمات الثورات . وترجع روح العنف في الثورات

(١) هي الولايات الثلاث عشرة التي أصبحت بعد ذلك نواة الولايات المتحدة الأمريكية

(المترجم)

إلى أنها الانتصارات المختلفة لقوى اجتماعية قوية جديدة على نظم قديمة
مترتبة ، تعارض بحكم طبيعتها تعبيرات الحياة هذه ، وتغرق سيرها فترة
من الزمن . وكلما طال أمد الإعاقة ، كلما عظم ضغط القوة بفعل سدّ منفذ
انطلاقها . وكلما عظم الضغط ، كلما اشتدّ عنف الانفجار الذي ينطلق في نهاية الأمر
من خلال القوة المتحجرة .

أما بالنسبة للأفعال الاجتماعية الشاذة التي تعتبر بديلاً للثورات ؛ فما هي
إلا الجزاءات التي ينبغي على المجتمع أداؤها ، حين لا يقتصر الأمر على تعويق
فعل المخاكة بل يبطل كلية . وهذا الفعل أجبر به أن يجعل النظام القديم
متجانساً مع القوة الاجتماعية الجديدة :

فواضح - من ثم - وجود ثلاث نتائج تنتصب أمام المجتمع القائم ،
ليختار إحداها ، إن تعرض نظامه لتجدد قوة اجتماعية جديدة :

الأولى : إجراء تعديل في كيان المجتمع ليتسق مع القوة الاجتماعية
الجديدة .

الثاني : نشوب ثورة تعتبر بمثابة تعديل مؤجّل ، يتسم بتنافر أوضاعه :

الثالث : إتيان أفعال اجتماعية تتسم بالشذوذ .

وظاهر كذلك احتمال تحقق أى من هذه الاختبارات في أقسام مختلفة من
نفس المجتمع - في دول قومية مختلفة مثلاً - إن كان ذلك هو النمط الذي
يرتبط بوساطته المجتمع . فإذا سادت التعديلات المتجانسة ، يستمر المجتمع
في الارتقاء . فإن تغلبت الثورات ، يتعرض ارتقاء المجتمع لخطر مزيد .
فإن سادت الاتجاهات الاجتماعية الانحرافية ؛ نستطيع أن نستشف من ذلك
إمارات انهيار المجتمع :

وسنسوق طائفة من الأمثلة تفسر القاعدة التي أوردناها :

٢ - ضغط الصناعية^(١) على الرق :

انطلقت قوتان اجتماعيتان ديناميكيتان جديدتان من عقلمها في غضون القرنين الأخيرين :

الصناعية ، والديمقراطية . ولقد كان الرق أحد النظم القديمة التي اصطدمت بها هاتان القوتان .

والرق نظام خبيث ، ساهم إلى أبعد مدى في انحدار المجتمع الهليني وسقوطه . على أنه فشل تماماً في أن يحقق لنفسه مركزاً ثابتاً في المواطن الأساسية للمجتمع الغربي ؛ وإن كان قد شيد لنفسه مراكز في طائفة من المناطق الجديدة فيما وراء البحار منذ القرن السادس عشر وما تلاه . بيد أن الرق لم يستفحل أمره كثيراً وتشتد وطأته ، إلا بعد انقضاء وقت طويل .

ولما أخذت القوى الجديدة للديمقراطية والصناعية تشع من بريطانيا العظمى إلى بقية العالم الغربي منذ نهاية القرن الثامن عشر ، كان الرق ما يزال محصوراً من الوجهة العملية في المستعمرات النائية . بل إنه حتى هناك ، كان ظلّه في المساحة التي يشيع في أرجائها في انحسار متصل . ولم يقتصر ساسة مثل واشنطن وجفرسون ممن كانوا أنفسهم مالكي أرقاء على التوجّع لبقاء النظام ، بل إنهم نزعوا إلى التفاؤل باحتمال القضاء على النظام سلمياً خلال القرن التالي .

على أن سؤرة الثورة الصناعية في بريطانيا العظمى قد كبحت جماع هذه النظرة المتفائلة ؛ باستثارتها إلى مدى هائل ، الطلب على المواد الأولية التي كان العمل المسترق يقوم على إنتاجها . وبالأحرى هيأ ضغط الصناعة ، فترة حياة جديدة لنظام الرق الذابل الذي تسوده روح التناقض . فأصبح على المجتمع الغربي بالتالي ؛ أن يختار بين اتخاذ أنجع السبل للقضاء على الرق فوراً ،

(١) الصناعية : اصطلاح وضع ليبر عن اتجاه المجتمع صوب استخدام الأساليب الآلية

في الإنتاج . ويقابله بالإنجليزية كلمة Industrialism . (المترجم)

أو ترك خطر هذه الآفة الاجتماعية العتيقة يستثنى إلى أن تستحيل بفعل قوة الصناعية الدافعة ، إلى خطر يهدد حياة المجتمع .

إزاء ذلك انبعثت في كثير من مختلف دول العالم الغربي القومية ؛ حركة تناهض الرق ، ظفرت ببضعة مكاسب سلمية . بيد أن ثمة منطقة هامة عجزت الحركة المناهضة للرق أن تشق طريقها فيها سلمياً ؛ تلك هي « المنطقة القطنية » في الولايات الجنوبية من الاتحاد الأمريكى الشمالى . إذ لبث دعاة الرق يتسمنون زمام الحكم طوال جيل بأسره . في حين استنفج أمر نظام الرق الشاذ في الولايات الجنوبية واتسع نطاقه اتساعاً مريعاً خلال هذه الفترة القصيرة بين عامى ١٨٣٣ (عام تحريم الرق في الإمبراطورية البريطانية) وعام ١٨٦٣ (عام إلغاء الولايات المتحدة الرق فيها) . بيد أنه أمكن الحد من قوة هذا المسخ وتدميره في النهاية ، وأن تطلب القضاء عليه ثمناً ، تمثل في ثورة عارمة ، ما تزال نتائجها ماثلة للعيان في الوقت الحاضر . وهذا لعمري هو ثمن التقصير الذى صاب ملكة المحاكاة :

ولعله ما يزال على المجتمع الغربى أن يهين نفسه ، فإنه رغماً عن اقتضاء هذا الثمن ، أزيلت آفة الرق الاجتماعية من آخر حصونها الغربية : وعلينا واجب لإزجاء الشكر لقوة الديمقراطية الحرة التى وفدت إلى العالم الغربى لتحقيق هذه المرحلة قبل انبعاث النزعة الصناعية بقليل : وأن الشهرة التى أسبغت على لينكولن المنشئ الأساسى لفكرة القضاء على الرق واعتباره بحق أعظم الساسة الديمقراطيين ، أمر ليس من قبيل المصادفة ،

وإذا كانت الديمقراطية هى التعبير الأساسى عن مذهب تقديس « الطبيعة البشرية » ، وإذا كان هذا المذهب هو والرق عدوين لدودين كما هو ظاهر ؛ فإن الروح الديمقراطية الجديدة ، قد بثت في الحركة المناهضة للرق ، قوة دافعة ؛ في نفس الوقت الذى كانت الصناعية الجديدة تبث في الرق قوة دافعة كذلك .

ولولم تكبح دفعة الديمقراطية إلى حد كبير ، دفعة الصناعية ؛ إبان الصراع ضد الرق ، لما تيسر للعالم الغربي أن يتخلص من الرق بسهولة .

٣- ضغط الديمقراطية والصناعية على الحرب :

من تحصيل الحاصل القول بأن صدمة الصناعية قد ضاعفت من أهوال الحرب ، مثلما ضاعفت من أهوال الرق .

والحرب نظام قديم آخر يتسم بتناقضه . وتُستنكر الحرب لأسباب معنوية ، على نطاق يكاد أن يباثل مع ما هو حادث بالنسبة للرق . وثمة كذلك مدرسة فكرية واسعة النفوذ تستخدم حججاً عقلية بحجة للدلالة على أن الحرب - مثل الرق - لا تُكسب شيئاً ، حتى لهؤلاء الذين يعتقدون بأنهم يستفيدون من ورائها . ويؤيد ذلك ما كتبه أحد الجنوبيين عشية نشوب الحرب الأهلية الأمريكية ويدعى هـ . و . هلبير في كتاب عنوانه « أزمة الجنوب الوشيكة ^(١) » ، ليبرهن على أن مالكي الأرقاء لا يفيدون شيئاً من أرقائهم . بيد أن الطبقة التي سعى إلى تبصيرها بمصالحها الحقيقية قد تحاملت عليه لأسباب لا يصعب تفسيرها . وكذلك كتب نورمان أنجل Norman Angel عشية نشوب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ كتاباً عنوانه « وهم نظرة أوروبا » ؛ برهن فيه على أن الحرب تجلب خسارة قاتلة للمتصرين والمهزمين على السواء . لكن الكتاب لم يكن له من تأثير سوى استنكار قسم كبير من الرأي العام ، لما ورد به من آراء . رغماً عن أن رغبة الجميع في السلام ، لم تكن تقل عن رغبة المؤلف الذي اعتبروه مارقاً .

ما هو إذن سبب إخفاق مجتمعتنا حتى الوقت الحاضر في التخلص من الحرب ، مثلما وُفق في التخلص من الرق ؟

الرد واضح : فإن قوتى الصناعية والديموقراطية الدافعتين ؛ قد وجهتا في وقت واحد ، ضغطهما ضد الرق ، عكس الأمير بالنسبة للحرب .

وإذا أرجعنا فكرنا القهقري إلى حالة العالم الأوربي عشية اتبعات الصناعية والديمقراطية ؛ سنلاحظ أن الحرب كانت في منتصف القرن الثامن عشر ، في نفس وضع الرق . بمعنى أنها كانت في أفول ، لا لأن الحروب كانت أقل شيوعاً - وإن تيسر التدليل على تلك الحقيقة نفمها من الوجهة الإحصائية^(١) ، ولكن لأنها كانت تُدار بروح أكثر اعتدالا . ولقد كان مفكرون الأحرار خلال القرن الثامن عشر ينظرون بازدياد إلى الماضي القريب ، وقما كانت الحروب تُثار في إفراط خيف بسبب حملة تحريض التعصب الديني . وما إن طرح هذا الشيطان جانباً خلال القسم الآخر من القرن السابع عشر ؛ حتى كانت النتيجة العاجلة ، الحد من شر الحرب إلى حد أدنى لم تبلغه قط في أي فصل من فصول التاريخ الغربي ، سواء قبل هذا التاريخ أو بعده .

وانتهى في ختام الثامن عشر عصر هذه الحروب المتحضرة نسبياً ، عندما أخذت الحروب تُستثار بفعل حملة الديمقراطية والصناعية . وإن ساءلنا أنفسنا عن أي من هاتين القوتين قد قامت بالنور الأكبر في اشتداد الحرب خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة ؛ ربما يخطر على بالنا للوهلة الأولى أن أعظم الأدوار شأناً تعزى إلى الصناعية . لكننا في ذلك نخطئين .

إذ تجلّت أول الحروب الحديثة بهذا المعنى ؛ في دوره الحروب التي أفتتحها الثورة الفرنسية ؛ ولقد كان ضغط الصناعية على هذه الحروب ، لا يؤبه له . ويُعتبر من الناحية الأخرى ضغط الديمقراطية - أي الديمقراطية الفرنسية - من الأهمية في أعلى مكان . فإن نجاح الجيوش الفرنسية في النفوذ - نفوذ السكين في الزبدة - في أساليب الدفاع القديمة التي كانت تملكها

(١) رنما عن أن ب . إ . سوروكين P.A. Sorokin - من ناحية الدليل الإحصائي الذي صنّفه - يجد أن حدوث الحرب في العالم الغربي كان أخف في مجموعه أثناء القرن التاسع عشر منه في القرن الثامن عشر . (المؤلف)

دول القارة الأوروبية التي لم تتأثر بالثورة والتي ظلت محتفظة بأسلوب القرن الثامن عشر ، لا يردّ إلى عبقرية نابليون الحربية وحدها ولا إلى حماس الجيوش الفرنسية الجديدة وحده ؛ بل إن مرده قبل أى شىء آخر ، مبادئ الثورة الفرنسية التي حملتها معها الجيوش الفرنسية إلى جميع جهات أوروبا . فإذا احتاج هذا القول إلى دليل ، فإنه يكمن في حقيقة مدارها أن جموع الجيوش الفرنسية الفجة قد حققت قبل ظهور نابليون في الميدان ، أعمالاً أصعب كثيراً من الأعمال التي حققتها جيوش لويس الرابع عشر المحترقة .

وعسانا أن نذكر أنفسنا كذلك بأن الرومانيين والآشوريين وغيرهم من الدول ذات الطابع الحربى العنيف في العصور الماضية ، قد حطمت الحضارات من غير مساعدة أى جهاز صناعى . ولكن في الواقع باستخدام أسلحة تبدو أثرية ، لحامل البندقية ذات الرناد خلال القرن السادس عشر .

ويكمن السبب في أن حروب القرن الثامن عشر كانت أقل شناعة عما كانت عليه قبل ذلك العهد ، إلى انتهاء استخدامها سلاحاً للتعصب الدينى . كما لم تكن قد أصبحت بعد ، أداة للتعصب القومى . إذ اعتبرت وقتذاك مجرد « هو الملوك » . ولقد يكون استخدام الحرب لهذه الغاية السخيفة ، مما يزيد من النفور منها ، بيد أنه لا يمكن نكران تأثير ذلك في التخفيف من حدة أهوال الحرب . إذ كان « اللاهون المملكون » يعلمون جيداً مقدار الترخيص الذى يسمح لهم به رعاياهم . فكانوا — من ثم — يحرصون أوجه نشاطهم في نطاق تلك الحدود . ولم تكن جيوشهم تبعاً بطريق الخدمة العسكرية الإجبارية ولم تكن هذه الجيوش تعيش بعيداً عن البلد الذى يحتلونه مثل الجيوش المستخدمة في الحروب الدينية . كما لم تكن تُزِيل من الوجود أعمال السلم ، مثلما تفعل جيوش القرن العشرين . وكان الملوك يراعون قواعد ملهاتهم الحربية ويضعون لأنفسهم أهدافاً متواضعة ويتعففون عن فرض شروط

ساحقة على خصومهم المنهزمين . وإن حدث - في حالات نادرة - أن انتهكت حرمة هذه العهود ، كما حدث وقتما اجتاحت لويس الرابع عشر الإمارة البلاطينية^(١) خلال عامي ١٦٧٤ ، ١٦٨٩ ميلادية ، فإنها تصبح موضع استنكار الرأي العام الأوربي - سواء ضحايا العدوان أو المحايدون - مثلما حدث منه استنكار فظائع الجيش الفرنسي استنكاراً عاماً .

ويعتبر ما كتبه جيون ، الوصف التقليدي لهذه الحالة :

« تقوم الجيوش الأوربية خلال الحرب بمخاضات غير حاسمة تنسم بالاعتدال . ويستمر ميزان القوى يتأرجح . وقد تروج رفاهية مملكتنا أو الممالك المجاورة أو تكسب من الجهة الأخرى . بيد أن هذه الأحداث الجزئية لن تضير من ناحية الجوهر حالة هئائنا العامة ، ولا نظام الفنون والقوانين والعادات التي تمنحنا ميزة على بقية العالم : أي على الأوربيين ومستعمراتهم^(٢) » .

ولقد امتد العمر بمؤلف هذه العبارة التي تفيض رضا وثلاً لتزكيانه بداية دورة تحروب جديدة ، جعلت رأيه لا محل له .

وكما قاد استفحال الرق إلى شن حملة ضده ترجع أصولها إلى ضغط الصناعية ، ترتب كذلك على استفحال الحرب بفعل ضغط الديمقراطية وما تبعه بعد ذلك بالطبع من ضغط الصناعية - إلى ظهور حركة تناهض الحرب .

إلا أن تجسد الحركة لأول مرة في عصبة الأمم بعد نهاية الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ ، لم يُنقذ العالم من حرب عامة أخرى إبان ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

(١) إمارة كانت تقع أصلاً جنوب شرق ألمانيا وتكوّن في الوقت الحاضر جزءاً من إقليم الراين وبافاريا . (المترجم)

(٢) Ollbbon E. : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire Ch. XXXVIII ad finem.

ولقد حصلنا بثمن هذا المحنة الجديدة ، على فرصة أخرى لمحاولة تحقيق المشروع الصعب المثال المتصل بإلغاء الحرب ، بفضل إنشاء نظام تعاوُن في لحكم العالم ، عوضاً عن ترك دورة الحرب تسير في طريقها حتى تنتهي في زمن متأخرو مع الأسف الشديد ؛ بأن تقيم نوعاً من دولة تظل بعد الكارثة ، دولة عالمية . أما عن مدى توفيقنا في عالمنا في تحقيق ما لم توفّق فيه حضارة أخرى حتى الآن فإنه موضوع رهن بإرادة الله .

٤ — ضغط الديمقراطية والصناعية على السيادة الإقليمية :

لماذا كان للديمقراطية التي يجهر المعجبون بها بأنها نتيجة الدين المسيحي والتي أظهر موقفها في الرقي أنها جديرة بتلك التسمية ، تأثيراً ضاراً ؟

مناطق الرد على هذا السؤال حقيقة مبناها أن الديمقراطية قد اصطدمت بنظام السيادة الإقليمية قبل أن تصطدم بشرعية الحرب . وقد تولّد عن استجلاب القوتين الدافعتين الجديديتين للديمقراطية والصناعية ، إلى نظام الدولة الإقليمية القديم ؛ نظامان توأمان قبيحان : العصبية القومية السياسية والعصبية القومية الاقتصادية . فكان أن بثّت الديمقراطية قوتها الدافعة في الحرب — بدلاً من أن تعمل ضدها — في هذا الشكل الاشتقاق الفظ الذي انبعثت فيه روح الديمقراطية الأثرية ، من انتقالها عبر وساطة دخيلة .

كان المجتمع الغربي في وضع سعيد إبان القرن الثامن عشر ، وهي الفترة التي سبقت عصر ظهور القومية . إذ لم تكن الدول ذات السيادة الإقليمية في العالم الغربي — خلا استثناء أو اثنين هامين — قد تطورت إلى أدوات لتنفيذ الإرادة العامة لمواطنينا . فلقد كانت تلك الدول تعتبر — افتراضياً — أملاً كلاً خاصة للأسرّات المالكة . وبالأحرى كان يتم عن طريق الحروب الملكية والزيجات الملكية ، انتقال ملكية هذه الأملاك أو أجزاء منها ، من أسرة مالكة إلى أخرى . وظهر أن طريقة الزيجات الملكية ، كانت تفضّل الحروب . ومصدّقاً لذلك ، قامت سياسة بيت هابسبرج على العبارة

المشهورة « دغ الآخرين يشنون الحروب ، أما أنت أيها النحسا السعيدة ، فتزوجي » (١) . وتوحى نفس أسماء الحروب الثلاث الرئيسية التي نشبت النصف الأول من القرن الثامن عشر : حروب الوراثة الأسبانية والبولونية والنمسية ؛ بنشوب الحروب في حالة تردى ترتيبات الزواج الملكي في مازق معتد .

ولاشك في وجود شيء من التفاهة والدناءة — إلى حد ما — بالنسبة لهذه الدبلوماسية القائمة على التريجات الملكية . فإن عهداً ملكياً تنتقل بمقتضاه المقاطعات وسكانها ، مثلها مثل الضياع بما عليها من مواش ؛ فكرة تثير مشاعر عصرنا الديمقراطية .

يبد أنه كان للقرن الثامن عشر معاوضاته التي تتمثل في أنه إذا كان ذلك القرن قد انتزع ضياء الوطنية ، إلا أنه قد أخذ منها لسعها في نفس الوقت . وهذا ما تُبَيِّننا به عبارة مشهورة تماماً وردت في كتاب ألفه « سترن » تحت عنوان « رحلة عاطفية » ذكر فيها المؤلف أنه سافر إلى فرنسا آمناً ناسياً أن بريطانيا العظمى وفرنسا كانتا مشتبكتين في حرب السنوات السبع ؛ وبعد شيء من المضايقة مع البوليس الفرنسي ، مكثه صنيع قبيل فرنسي — لم يكن يعرفه قبل ذلك — من متابعة رحلته دون حدوث مكدر آخر . ولما أصدر نابليون أوامره بعد ذلك بأربعين سنة — عقب نقض معاهدة أميين Amiens — بضرورة اعتقال كافة المدنيين البريطانيين الذين تراوح أَسنانهم بين الثامنة عشر والستين والذين يتصادف وجودهم بفرنسا وقت صدور تلك الأوامر ؛ اعتبر ذلك مثالا للوحشية الكورسيكية ، وصف بمقتضاه ولنجتون نابليون بعبارة المأثورة « أنه ليس سيداً مهذباً » . علي أن نابليون الخمس لمسلكه المعاذير . بيد أن ما فعله وقتئذ يعتبر أقل ما تلجأ إليه أكثر الحكومات الحديثة إنسانية وأوسعها حرية ،

باعتباره عملاً مشروعاً منطقياً في ظل تلك الظروف . فإن الحرب الآن « حرب شاملة » ، بسبب صيرورة الدول ذوات السيادة الإقليمية ، ديمقراطيات قومية .

ونعني بالحرب الشاملة ، حرباً لا يعتبر فيها المتحاربون مجرد « ييادق الشطرنج » المختارة التي تدعى جنوداً ومحارة ، ولكنها تشمل كافة سكان البلاد المتحاربة .

فأين نجد بدايات هذا المنظر الجديد ؟

لعلنا نعرّ عليه في المعاملة التي حددها أهالي المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية ، لمن آثر منهم الإخلاص لوطنهم الأم إبان الثورة الحربية التي اندلعت في تلك المستعمرات . فما إن وضعت الحرب أوزارها ، حتى طُرد هؤلاء المخلصون لقضية الإمبراطورية المتحدة بقضيمهم وقضيضهم — رجالاً ونساءً وأطفالاً — من دورهم^(١) . وتمايزت هذه المعاملة مع ما اتسمت به معاملة بريطانيا للفرنسيين الكنديين ، ولما غزت كندا قبل الثورة الأمريكية بعشرين سنة . إذ لم تكفّ بالسماح لهم بالاحتفاظ بدورهم ، بل إنها سمحت لهم كذلك باستبقاء نظامهم القضائي ونظامهم الدينية . ولهذا المثال الأول « للتنظيم الجماعية » مغزاه ؛ لأن المستعمرين الأمريكيين قد أضجوا أول أمة ديمقراطية للعالم الغربي .

أما بالنسبة للروح العصبية الاقتصادية التي تطورت إلى آفة ضخمة ، فإن مثلها مثل العصبية السياسية التي تولدت عن شذوذ طراً على الصناعية ، يعمل في نطاق نفس الروابط القابضة للدولة الإقليمية .

(١) ثمة بالفعل مثال حدث قبل ذلك : قيام السلطات البريطانية بطرد سكان نوناسكوشيا

(كندا) من الفرنسيين في مطلع السنوات السبع . لكن كانت هذه المسألة محصورة النطاق .

وإن اعتبرت فظة وفقاً لمقاييس القرن الثامن عشر . وتوجد أسباب عسكرية لهذا الإجراء .

(المؤلف)

ولم تكن المطامح الاقتصادية والمنافسات ، مجهولة في السياسات الدولية خلال الفترة السابقة للعصر الصناعي . حقيقة تلقت القومية الاقتصادية تعبيرها التقليدي في مبادئ التجارين التي شاعت إبان القرن الثامن عشر . وتضمنت جوائز حروب القرن الثامن عشر أسواقاً واحتكارات ، وهذا ما أظهره القسم المشهور من معاهدة أوترخت Utrecht التي عينت لبريطانيا العظمى احتكار تجارة العبيد في المستعمرات الإسبانية في أميركا . بيد أن المنازعات الاقتصادية خلال القرن الثامن عشر ، لم تؤثر إلا في طبقات صغيرة ومصالح محدودة النطاق . ذلك لأنه في عصر يغلب عليه طابع الزراعة - وقما كانت كل دولة بل كل قرية تنتج تقريباً كافة ضروريات الحياة - يمكن أن تدعى الحروب الإنجليزية في سبيل السيطرة على الأسواق « رياضة التجار » ، كما كانت تدعى حروب القارة بحق « رياضة الملوك » .

ولقد ترتب عن تقدم الصناعة ، الإخلال الشديد بهذا الوضع العام للتوازن الاقتصادي القائم على بذل جهد قليل وعلى نطاق قليل الأهمية . لأن الصناعة - كالتيمقراطية - هي في جوهرها عالمية في تأثيرها . فإذا كان جوهر الديمقراطية - وفقاً لما تخيلها الثورة الفرنسية - روح إخاء ، فإن حاجة الصناعة الجوهرية - إن كان لها أن تحقق كافة جهدها كاملاً - تتمثل في تعاون دولي على نطاق عالمي .

ولقد سبق لرواد التكنولوجيا الحديثة الذين ظهوروا في القرن الثامن عشر ، المناداة صادقين بالتوزيع الاجتماعي - الذي تتطلبه الصناعة - في كلمة سرهم المشهورة « دعه يعمل ودعه يمر »^(١) ، أي حرية الصناعة وحرية التبادل . ولما وجدت الصناعة العالم منقسماً إلى وحدات اقتصادية صغيرة ، أخذت منذ مائة وخمسين عاماً مضت ،

تعمل على إعادة تشييد كيان العالم الاقتصادى بوسيلتين تعملان كلاهما فى طريق يقود إلى وحدة العالم .

الأولى - تسعى إلى الإقلال من عدد الوحدات الاقتصادية مع تكبير حجمها .

الثانية - ترنو إلى خفض العوائق بين تلك الوحدات .

وإذا ما ألقينا نظرة على تاريخ هذه الجهود ، سنجد أن ثمة نقطة تحول فيها حدثت حوالى عام ١٨٦٠ و عام ١٨٧٠ . فكانت الديمقراطية وقتذاك تعاون الصناعية حتى التاريخ الأخير فى جهودها للإقلال من عدد الوحدات الاقتصادية ، ولخفض العوائق القائمة بينها . بيد أن الصناعية والديمقراطية ، قد قلبتا سياستهما بعد ذلك التاريخ ، فوجهتاها وجهةً عكسياً .

وإذا وازنا فى البداية ، حجم الوحدات الاقتصادية ؛ نجد أن بريطانيا فى نهاية القرن الثامن عشر ، أضخم منطقة للتجارة الحرة فى العالم الغربى . وتلك حقيقة تذهب بعيداً فى تفسير سبب بدء الثورة الصناعية فى بريطانيا العظمى دون غيرها . بيد أن المستعمرات البريطانية السابقة فى أميركا الشمالية ، أمكنها بفضل تطبيقها دستور فيلادلفيا عام ١٧٨٨ ، أن تلغى من غير رجعة ، كافة الحواجز التجارية التى كانت قائمة بين ولايات الاتحاد . فأنشأت من ثم ما أصبح بعد ذلك بفضل التوسع الطبعى ، أوسع منطقة للتجارة الحرة ؛ ترتب عليها مباشرة ، انبعاث أقوى جماعة صناعية فى العالم فى الوقت الحاضر .

ثم ألغت الثورة الفرنسية بعد ذلك ببضعة سنوات ، كافة تعريفات الحدود بين الأقاليم الفرنسية وبعضها بعضاً ؛ وهى التى كانت إلى ذلك الوقت تلمر وحدة فرنسا الاقتصادية . وحقق الألمان فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، الاتحاد الاقتصادى^(١) الذى أثبت أنه بشير الوحدة السياسية .

(١) أى الزلفرين Zollverein

وضمن الإيطاليون في الربع الثالث ، الوحدة الاقتصادية في نفس الوقت الذي حققوا فيه وحدتهم السياسية .

فإن استشهدنا بنصف البرنامج الثاني - أى خفض التعريفات وغيرها من العقبات الإقليمية في طريق التجارة الدولية - نجد أن بت Pitt^(١) - الذي نادى بنفسه مريداً لآدم سميث^(٢) - تزعم حركة حرية الاستيراد ، ثم سار بها في طريق الكمال في السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر : بيل وكوبدين وجلادستون . وسبكت الولايات المتحدة طريق التجارة الحرة من ١٨٣٢ إلى ١٨٦٠ عقب تجربتها تطبيق التعريفات العالية . كما سلكته فرنسا وإبان حكم لويس فيليب ونابليون الثالث . واتبعت ألمانيا نفس الاتجاه قبل عصر بسمارك .

ثم تحول التيار . فإن الديمقراطية القومية التي وحدت الدول الألمانية والإيطالية ، في دولتي ألمانيا وإيطاليا ؛ نصبت نفسها لتفكيك وحدة الدول المتعددة القوميات مثل إمبراطورية هابسبرج ، والإمبراطوريتان العثمانية والروسية . فكان أن انقسمت في نهاية الحرب العالمية ١٩١٤/١٩١٨ وحدة التجارة الحرة للمملكة الدانوبية^(٣) إلى عدد من الدول التي خلقتها ؛ يستमित كل منها في تحقيق الاستكفاء الاقتصادي الذاتي . كما أقام عدد عديد من الدول الجديدة نفسه بين ألمانيا وروسيا المتوترتين . بما تضمنه ذلك من إقامة أقسام اقتصادية جديدة .

وجدير بالذكر اشتداد ساعد الحركة المناهضة للتجارة الحرة شيئاً فشيئاً ، قبل ذلك بحوالى جيل في البلد تلو الآخر . حتى بلغت موجة « مذهب التجاريين »^(٤) العارمة بريطانيا العظمى نفسها .

(١) ولم بت (١٧٥٩ - ١٨٠٦) كان من خيرة سادة إنجلترا . (المترجم)

(٢) الاقتصادي البريطاني المشهور وطلبة الاقتصاديين أصحاب المذهب الحر .

(المترجم)

(٣) أى إمبراطورية النمسا والمجر . (المترجم)

(٤) Mercantilism مبادئ قوامها الحد من حرية التبادل بنية حصول الدولة على المعادن

القيمة التي كان أصحاب هذا المذهب يعتبرونها جماع قوة البلد الاقتصادية . (المترجم)

ومن اليسير إدراك أسباب التخلي عن التجارة الحرة . فإنها قد وافقت مصلحة بريطانيا وقما كانت « مصنع العالم » . كما أنها وجدت هوى في نفوس الولايات المتحدة للقطن التي كانت تهيمن إلى حد كبير على حكومة الولايات المتحدة خلال الفترة ١٧٢٠ - ١٨٦٠ . ويبدو كذلك أنها وافقت مصالح فرنسا وألمانيا لنفس الأسباب ، خلال الفترة السالفة الذكر . ولكن ما إن تقدمت الصناعة في الأمم الواحدة بعد الأخرى ، حتى أصبحت مصالحها الإقليمية القصيرة النظر ، تفرض عليها اتباع سياسة المنافسة الصناعية القاتلة مع جيرانها جميعاً . ومن ذا كان يستطيع الاعتراض على تلك السياسة في ظل نظام الدولة الإقليمية ؟

لقد أساء كوبدن^(١) ومريدوه التقدير إساءة كبيرة . إذ تطلعوا ليشاهدوا شعوب العالم ودوله ، يسوقهم إلى وحدة اجتماعية ؛ نسيج من العلاقات الاقتصادية العالمية الواسعة النطاق محبوك الأطراف لم يسبق له مثيل ؛ قامت على نسجه بلا تبصر ، الطاقات الصناعية الفنية المنبعثة من عقدة بريطانية . بيد أنه من الإجحاف لأصحاب كوبدن أن تُلَفَظ حركة التجارة الحرة البريطانية التي سادت في عصر الملكة فيكتوريا ، لمجرد أنها إحدى إمارات مبدأ المنفعة الذاتية المستتيرة . فلقد كانت التجارة الحرة تعبيراً عن فكرة معنوية ، وعن سياسة إنشائية دولية الطابع . ولقد رنا أقطاب المدافعين عنها إلى أن تصبح بريطانيا العظمى المسيطرة على السوق الدولية . كما أملوا تعزيز التطور التدريجي لنظام سياسي عالمي يشند فيه ساعد النظام الاقتصادي الجديد ؛ وإيجاد جو سياسي يتم في رحابه تبادل السلع والخدمات على نطاق دولي في ظل السلام والأمن . ويتضاعف بسبب الأمن ويجلب معه في كل مرحلة ، ارتفاعاً في مستوى المعيشة للعالم بأسره :

(١) ريتشارد كوبدن (١٨٠٤ - ١٨٦٥) عالم سياسي نادى بحرية التجارة وامتناع الحكومة عن التدخل في شئون الأفراد . (المترجم)

وتكمن إساءة كوبدن التقدير ، في حقيقة مبنائها أنه فشل في التنبؤ بنتيجة ضغط الديمقراطية والصناعية على منازعات الدول المحدودة . فإنه افترض بقاء هذين الماردتين ساكنين خلال القرن التاسع عشر - مثلاً كانا إبان القرن الثامن عشر - إلى أن يتاح الوقت للعناكب البشرية التي كانت تنسج في عصره نسيجاً صناعياً ذا نطاق عالمي ، من اصطادهما كليهما في قيودهما المصنوعة من الشاش . فإنه قد اتكل على التأثيرات الموحدة والمملطة الكامنة في طبيعة الديمقراطية والصناعية ، لتشر في محيطها وفي مظاهرها الطليقة . حيث تقوم الديمقراطية مقام الإخاء ، والصناعية مقام التعاون .

ولم يحسب كوبدن حساباً لاحتمال مبناه أن نفس هذه القوى إذ تدفع « قوتها البخارية » إلى الحركات القديمة للدول الإقليمية ، تمهد طريق التصدع والفوضى العالمية . ولم يدرك في خلده أن يُفصى مبدأ الإخاء الذي بشر به الناطقون بلسان الثورة الفرنسية ، إلى أول حرب من الحروب القومية الحديثة الكبرى . ولعل كوبدن قد افترض أن هذه الحرب لن تكون الأولى ، بل الأخيرة من نوعها كذلك . ولم يدرك أن المظاهر الأوليغاركية^(١) في مبادئ التجارين إبان القرن الثامن عشر ، إذ كانت قد أججت الحروب بغية تعزيز تجارات السلع الترفية ذات الأهمية المحدودة ، التي كانت قوام التجارة الدولية لعهدهم . فإن الأمم التي اعتنقت الديمقراطية سيقاتل بعضها بعضاً من باب أولى وإلى أقصى حد في سبيل تحقيق غايات اقتصادية إبان عصر حولت فيه الثورة الصناعية ، التجارة الدولية من تبادل السلع الترفية إلى تبادل ضروريات الحياة .

وصفوة القول أساءت مدرسة مانستر^(٢) فهم الطبيعة البشرية ،

(١) الأوليغاركية ، اصطلاح يعنى حكم القلة أو المحيد لهذا الضرب من الحكم .
(المترجم)

(٢) أصحاب المذهب الإقتصادي ومنهم كوبدن هذا .
(المترجم)

وعجز أصحابها عن إدراك استحالة تشييد النظام الاقتصادي العالمي نفسه على قواعد اقتصادية مجتة . ولم يتبينوا - رغما عن مثاليهم الأصلية - أن الإنسان يعجز عن العيش بالخبز وحده . ولم يرتكب هذا الخطأ المميت ، جريجورى الكبير وغيره من مؤسسى المسيحية الغربية الذين استنبطت منهم فى النهاية مثالية إنجلترا فى العصر الفيكتورى . فإن أصحاب مدرسة ما نشستر قد نذروا أنفسهم عن إخلاص لتحقيق هدف قدسى ، فأنحصرت غايتهم الدنيوية فى تحقيق مطمح مادى ، قوامه الإبقاء على حياة الناجين من سفينة المجتمع العارقة .

وإذا كان صرح الحياة الاقتصادية الذى أقيم ، ضرورة ممضة انبعثت من روح الكفر ؛ فإن جريجورى الكبير ورفاقه ، اعتبروه بكل صراحة وسيلة موقوتة . وعنوا فى إقامتهم له ، بتشبيده على صخرة دينية ، لا على قواعد اقتصادية واهية . فأمكن بفضل أعمالهم ، إرساء كيان المجتمع الغربى على أسس دينية صلبة . وهكذا انفسح مجال هذا المجتمع الذى بدا بداية متواضعة فى ركن من الأرض قصى ، ليصبح مجتمعاً كبيراً ينتشر فى عصرنا فى كل ركن من أركان المعمورة .

فإن كان بناء جريجورى الأصيل قد تطلب إرساؤه على دعائم دينية راسخة ، لا يتوقع فى هذا العرض أن يكفل إقامة النظام العالمى - الذى يقع علينا اليوم عبء تشييده - دوماً على قواعد واهية تتمثل فى المصالح الاقتصادية المجردة .

٥ - ضغط الصناعية على الملكية الخاصة :

تتوطد الملكية الخاصة فى المجتمعات التى تكون فيها العائلة أو الأسرة ، وحدة النشاط الاقتصادى المألوفة . ولعلها فى مثل هذا المجتمع ، هى أكثر النظم ملائمة لتنظيم توزيع الثروة المادية . بيد أن العائلة الواحدة أو القرية الواحدة أو الدولة القومية بمفردها ؛ لم تعد

وحدة النشاط الاقتصادى الطبيعية ؛ إذ اتسعت حتى غدت تشمل جيل البشرية الحى بأسره . ولما كان الاتجاه الصناعى فى الاقتصاد الغربى الحديث قد سما عن نطاق العائلة ، فإنه بالتبعية المنطقية ، يسمو على مجال الملكية الخاصة ، وهى نظام عائلى ، كما تقدم ؛ وإن كان النظام القديم قد ظل سارى المفعول من الوجهة العملية . وبالأحرى استودع الاتجاه الصناعى فى الملكية الخاصة « طاقته الاندفاعية » الهائلة . فكان ذلك إيداناً برفع قدرة القوة الاجتماعية للملكية الشخصية . وسيظل الأمر على ما هو عليه إلى أن يتمكن نظام من تلك الأنظمة التى تنقسم بحيويتها والتى سبقت العصر الصناعى ، من استيعاب الكثير من مظاهر الملكية الخاصة ، تلك الآفة الاجتماعية .

وبالأحرى ؛ يحابه مجتمعنا الحاضر فى ظل هذه الظروف ، مشقة تعديل نظام الملكية الخاصة القديم ليوائم علاقة تنسق مع قوة الاتجاه الصناعى الجديد . ويتم التوفيق المنشود بطريقة سلمية عن طريق مناهضة سوء توزيع الملكية الخاصة الذى أبرزته الصناعية عمداً بإتاحتها سبيل السيطرة لطبقة :

ويتأتى مناهضة سوء توزيع الملكية الخاصة بإعادة توزيعها بوساطة لإدارات الدولة التى تستطيع بفضل هيمنتها على الصناعات الرئيسية ، أن تحدد من استفحال سيطرة طبقة الملاك على مقادير غيرها من الناس . سيطرة تظل تقوم ما تركت تلك الصناعات ملكاً خاصاً لها . ويتيسر التلطيف من آثار الفقر الوخيمة ، بفضل بذل الخدمات الاجتماعية التى تموّلها الضرائب الضخمة المفروضة على الثروات الخاصة . ولهذه الطريقة منفعة اجتماعية عرضية مبناها أنها تنزع إلى تحويل الدولة من جهاز لشن الحرب — وكان هذا أكثر أعمالها شيوعاً فى الماضى ، إلى إدارة للخدمة الاجتماعية العامة .

فإن فرض وأثبتت هذه السياسة عدم كفايتها ، فلا شبهة فى مباغنة الوسيلة الثورية لنا فى شكل نوع من الشيوعية يختزل الملكية الخاصة إلى نقطة العدم .

ولقد يبدو هذا الإجراء هو الحل العملي الوحيد لتسوية الموقف . لأن سوء توزيع الملكية الخاصة بوساطة ضغط الصناعية ، ينقلب إلى شذوذ لا يطاق ، إن لم تُلطف حدته الخدمات الاجتماعية والضريبة العالية .

بيد أن علاج الشيوعية الثورى - كما تشهد بذلك التجربة الروسية - قد يُثبت أنه أقل قليلاً من المرض نفسه في خطورته القتالة . لأن نظام الملكية الخاصة ، قد بلغ من شدة ارتباطه بكل ما هو حسن في الميراث الاجتماعي السائد قبل حركة التصنيع ؛ بحيث يترتب على مجرد إلغائه ، تصدع تقاليد المجتمع الغربى الاجتماعية تصدعاً خطيراً .

٦ - ضغط الديمقراطية على التعليم :

يعتبر نشر التعليم ، من أجل التغيرات الاجتماعية التي قيصتها الديمقراطية . إذ أتاح نظام التنقيف الإجبارى العام المجانى فى البلاد المتقدمة ، التعليم حقاً مشاعاً لكل طفل من وقت ولادته . وهذا نقىص دور التعليم فى العصر السابق للديمقراطية وقتما كان احتكاراً للأقلية المميزة . ولقد غدا هذا النظام التعليمى الجديد أحد المثل الاجتماعية الأساسية لكل دولة تهفو إلى تبوؤ مركز مشرف فى جماعة أمم العالم الحديث .

ولقد رحبَ الرأى العام الحر بتطبيق نظام التعليم العام لأول مرة ، وعدّه الأحرار نصراً للعدالة والاستنارة ، وتوقعوا أن يصاحبه عهد جديد من السعادة والرفاهية للبشرية . بيد أنه تمكن الآن تبيان حقيقة مدارها تخلف عديد من العقبات لم تكن فى الحسبان على هذا الطريق العريض الذى ظن أنه يقود إلى عصر طويل مزدهر^(١) . فلقد ثبت فى هذه المسألة - كما يحدث فى غالب الأحيان - أن العوامل الغير المنظورة هى أعظم العوامل أهمية . ويطلبنا من تلك العبقات ما يلى :

(١) فى الأصل : العصر الألى ، ويعنى عصرا حكم المسيح ألف سنة على الأرض ، يقيد خلالها الشيطان . (المترجم)

الأولى - الإفقار الحتمى فى نتائج التعليم وقتما أصبح متاحاً للجماهير على حساب فصله عن أساسها الثقافى التقليدى . إذ لا يتوافر لنوايا الديمقراطية الطيبة ، القوة السحرية لإنجاز معجزة الأرغفة والأسماك . بمعنى افتقار الغذاء الثقافى المنتج على نطاق واسع ، إلى المذاق وإلى الفيتامينات .

الثانية - سريان روح النفعية وقتما يصبح التعليم فى متناول كل أمرى . وتفسير ذلك أنه فى ظل النظام الاجتماعى الذى يضيق فيه نطاق التعليم ، نجد التعليم منحصراً؛ إما فى هؤلاء الذين ورثوا الحق فيه باعتباره ميزة اجتماعية ، وإما فىمن برهنوا على أحقيتهم فيه بفضل مواهبهم الاستثنائية بالنسبة للذكاء والانكباب على العمل . وبالأحرى يغدو التعليم إما كلؤلؤة طرحت أمام الخنازير وإما لؤلؤة غالية الثمن يبذل المستكشف للحصول عليها جميع ما فى حوزته . وليس التعليم فى كلتا الحالتين إلا وسيلة تقود إلى غاية مدارها تحقيق الطموح الدنيوى أو ملهاة طائشة .

وحقاً ، لم تبرز إلى الوجود إمكانية تحويل التعليم ليغدو وسيلة لتسليية الجماهير - وربحاً للأشخاص العاملين فيه الذين يتم عن طريقهم سير الملهاة - إلا بعد تقرير التعليم الابتدائى العام .

الثالثة - ترتبت على العقبة السابقة ، عقبة تعتبر أخطر العقبات جميعها ، ومبناها أن خبز التعليم ما إن يطرح فى الماء حتى يطفو من الأعماق سرب من سمك القرش يلتهم خبز الأطفال تحت بصر المعلم نفسه :

ومصدقاُ لذلك نجد الحقائق تتكلم بنفسها فى تاريخ التعليم الإنجليزى . فلقد استكمل قانون فورستر Forster الصادر عام ١٨٨٠ بناء صرح التعليم الابتدائى تقريباً . فكان أن استحوذت الصحف الصفراء بعد ذلك عشرين سنة - أى بعد ما حصل الجيل الأول من الأطفال المتخرجين من المدارس الأهلية على قوة شرائية ، كافية بضربة عبقرية غير مسئولة دفعها

إلى التكهّن بأنّ التعليم القائم على عطف المحسن على العمل قد يصبح مصدراً ربيع عظيم لصاحب الجريدة .

ولقد اجتذبت ردود الفعل المشوشة هذه على ضغط الديمقراطية على التعليم ؛ أنظار حكام الدول القومية التي تعتنق نظاماً جماعية . فإذا كان في وسع أصحاب الصحف أن يجنوا الملايين بفضل تزويدهم أنصاف المتعلمين بالتسليّة الفارغة ، فإن في مكنة عتاة السياسة استخلاص القوة لا الثروة ، من نفس المصدر . وفي الواقع نزع الطغاة الحديثون أصحاب الصحف عن سلطانهم وأحلوا مكان التسليّة الخاصة الفجة المنحطة ؛ نظاماً للدعاية تهيمن عليه الدولة ، لا يقل سخافة وانحطاطاً عن تلك التسليّة .

وهكذا غدا حكام الدول التي باتت تستخدم هذه المناحي الذهنية التي تعزّزها السينما والإذاعة ، يهيمنون على الجهاز المحكم الفنّ الذي ابتكره مبدأ المنفعة الخاصة ، في ظلّ النظامين البريطاني والأميركي القائمين على مبدأ حرية التبادل والعمل . ويستخدمونه لاستبعاد جبهة عقول أشباه المتعلمين . ومصدّقاً لذلك ، خلف هتلر نورثكليف^(١) ؟ وإن لم يكن هتلر الأول من نوعه .

وبالأحرى ؛ نجد الناس في البلاد التي طبّق فيها النظام الديمقراطي ، في خطر الوقوع تحت ربة طغيان نقائي . دبّره : إما الاستغلال الخاص ، وإما السلطة العامة . فإن كان سيقدّر لنفوس الناس الخلاص ، فإن سيبله الوحيد رفع مستوى التعليم العام إلى درجة يغدو الذين يتلقونه محصّنين — بصفة عامة — ضدّ مختلف أشكال الاستغلال والدعاية البلديتين . ومن تحصيل الحاصل القول بصعوبة إنجاز هذه المهمة . على أنه يوجد لحسن الحظ بضعة هيئات تعليمية هامة محررة من الغرض ، تصارع اليوم في العالم

(١) كان نورثكليف من أصحاب الصحف البريطانيين . (المترجم)

الغربي لتحقيق هذا الهدف : ومن قبيل هذه الهيئات : اتحاد التعليم للعمال ،
وهيئة الإذاعة البريطانية . بالإضافة إلى الجهود الغير العادية التي تبذلها
الجامعات في كثير من البلاد .

٧ - ضغط الفاعلية الإيطالية على حكومات ما وراء الألب :

كانت جميع أمثلتنا حتى الآن ، مستخلصة من المرحلة الأخيرة للتاريخ
الغربي . ولن يحتاج الأمر منا إلى تذكير القارئ بالمشكلة التي أبرزها ضغط
قوة جديدة على نظام جديد ، في فصل مبكر من نفس ذلك التاريخ :
ذلك لأننا قد اخترنا قبل الآن ، ذلك المثال في موضع آخر . وكان جماع
المشكلة ، كيفية إجراء تسوية متناسقة لموضوع ضغط الفاعلية السياسية التي تولدت
في المدن الإيطالية إبان عصر النهضة ، على الملكيات الإقطاعية في بلاد ما وراء
الألب . ويمثل أبسط الحلول ، في دفع الملكيات نفسها لتتحول إلى نظم
استبدادية أو تحكم حكما مطلقا على غرار المدن الإيطالية التي حكمت بنفس
الأسلوت ، فتهاوت بالفعل . أما أصعب وسيلة وأحسنها ، فكان مدارها تطوير
مجالس الطبقات التي كانت شائعة إبان القرون الوسطى في الممالك الواقعة
وراء الألب ؛ إلى هيئات للحكومة النيابية ، يتوافرها من الفاعلية مثلا
توافر للحكومات الاستبدادية في المدن الإيطالية . وأن يتيح للحكم في
نفس الوقت - على نطاق قومي - وسيلة للحكم الذاتي تنسم بالحرية مثل
تلك التي اتسمت بها نظم الحكم في نظم المدن الإيطالية ، إبان ما كان أزهى
عصورها ، من الوجهة السياسية على الأقل .

ولقد أمكن إنجلترا إيجاد حل يتسم بحسن تناسقه إلى أبعد حد ، لأسباب
ذكرناها في موضع سابق . فأصبحت تبعا لذلك الرائد - أو الأقلية المبدعة -
خلال الفصل التالي من التاريخ الغربي ، كما كانت إيطاليا في فصله السابق :
ولأنه وإن تطورت الملكية الإنجليزية في ظل حكم آل تيودور الوطني

المتمسك بالخلق ، إلى نظام استبدادى ؛ إلا أن البرلمان فى عهد آل ستورس
السيى الحظ ، قد حقق مساواته بالتاج ، ثم أصبحت له السيادة أخيراً .
يبد أن ذلك الأمر لم يأخذ سبيله إلا بعد نشوب ثورتين وجّهتا - إن
قورنتا بمعظم الثورات - توجهها معتدلاً رصينا .

وظلت النزعة الاستبدادية فى فرنسا زمناً أطول كثيراً ، وسارت فى
طريقها شوطاً بعيداً . فكان أن تولدت عنها ثورة أشد من الثورتين
الإنجليزيتين عنفاً . وصاحبها فترة تقلقل سياسى ، ما برحت نهايته
لا تلوح للنظر حتى الآن .

وامتد الاندفاع صوب الطغيان فى اسبانيا وألمانيا إلى وقتنا الحاضر .
ووجدت نفسها الحركات الديمقراطية المناهضة للديكتاتورية فى البلدين - وهى
حركات تأخرت تأخرًا يتسم بالتشوش تتورط فى جميع التعقيدات التى رسمتها
خطوطها فى الأقسام السابقة من هذا الفصل .

٨ - ضغط الثورة الصولونية^(١) على المدن الهلينية :

نجد للفاعلية السياسية الإيطالية التى مارست ضغطها على بلاد العالم العربى
الواقعة وراء جبال الألب ، إبان الفترة الواقعة بين الفصل الثانى والثالث من
التاريخ الغربى ، ما يشبهها فى التاريخ الهلنى : نجد فى الفاعلية الاقتصادية
التي بدت ثمارها فى طائفة من مدن العالم الهلنى خلال القرنين السابع والسادس
قبل الميلاد ، بفعل ضغط المشكلة المالتوسية . ولم تنحصر هذه الكفاية
الاقتصادية الجديدة فى أثينا وغيرها من المدن التى انبعثت فيها . إذ انطلقت
إشعاعاتها خارجها ، فانبثت عليها فى عالم من المدن الهلينية ضغوط على المناحي
السياسية المحلية والدولية على السواء .

ولقد سبق لنا وصف هذا التحول الاقتصادى الجديد الذى يمكن أن

(١) نسبة إلى مولون المشرع الأثينى . (المترجم)

يطلق عليه اسم الثورة المصولة. وجوهر هذه الثورة، تحول من الزراعة لسد احتياجات الطعام، إلى زراعة المحاصيل النقدية^(١) التي صاحبها ارتفاع التجارة والصناعة.

وتطلب هذا الحل للمشكلة الاقتصادية التي ترتبت على ضغط السكان على مساحة محدودة من الأرض ؟ بروز مشكلتين إلى العيان :

الأولى : مشكلة الطبقات الاجتماعية الجديدة . إذ أبرزت الثورة الاقتصادية طبقات : العمال التجاريين والصناعيين في المدن وأصحاب الحرف والبطارة . واقتضى الأمر إيجاد مكان لهم في النظام السياسي .

الثانية : نهاية عزلة المدينة سياسياً . إذ أفسحت فكرة « عزلة المدينة عن غيرها » ، مكانها لفكرة التكافل الاقتصادي . وما إن غدا عدد من المدن يعتمد اقتصادياً بعضه على البعض الآخر ، حتى أصبح يستحيل عليها بعد ذلك أن تظل سياسياً في عزلتها الساذجة ، وإلا أصابها كارثة .

وتشابه المشكلة الأولى ، المشكلة التي تولت إنجلترا في العصر الفيكتوري حلها بفضل إصدار البرلمان سلسلة من التشريعات الإصلاحية . أما المشكلة الأخرى ، فإن إنجلترا وقفت إلى حلها بواسطة حركة حرية التجارة .

وسنعرض لهاتين المشكلتين كل على حدة ، وبالنظام الذي اتبعناه فيما سبق :

تضمن منح حق الانتخاب للطبقات الجديدة في الحياة السياسية الداخلية للمدن الهليفية ، تغيراً أساسياً في أسس الارتباط السياسي . إذ تطلب الحال إحلال الحقوق السياسية القائمة على الملكية ، مكان قاعدة القراية الطبقية . ولقد أجرى هذا التعديل في أئنا في يسر في معظم الأحوال وبصورة فعالة ،

(١) المحاصيل النقدية هي المحاصيل التي يبيعها الفلاح ولا يستهلكها في الغالب . ومثل المحاصيل النقدية المشهورة ، القطن والكتان . ومثل المحاصيل الاستهلاكية الخضروات .

(الترجم)

في سلسلة من التحسينات الدستورية إبان الفترة الواقعة بين عصرى صولون وبزكليس ، ويُستدل على سهولة الانتقال وقوة تأثيره — نسبياً — من ضالة الدور الذى قام به « الطغاة » فى التاريخ الاثينى . فلقد كانت القاعدة العامة فى التاريخ الدستورى للمدن الهلينية ، أنه عندما تتلكأ بدون مبرر عملية ملاحظة خطوات الرواد ، يبنى على ذلك نشوب « حرب طبقات » . وهى حالة لن يتأتى علاجها إلا بوساطة انبعاث « طاغية » أو ما يسمى فى الاستعمال الحديث المقتبس من روما « ديكتاتور » .

ولقد برهن النظام الديكتاتورى فى أثينا كما برهن فى غيرها ، على أنه مرحلة لازمة فى عملية المواءمة . بيد أن طغيان « بيسستراتوس Peisistratus ^(١) » وأولاده ، لم يكن هنا أكثر من فصل إضافى يقع بين إصلاح صولون وكليسيران Cleistherean ^(٢)

أما عن المدن اليونانية الأخرى ، فإنها أنتجت التعديلات اللازمة فى أنظمتها ، بشكل أقل انسجاماً مما قامت به أثينا . فنجد كورنث تخضع لديكتاتورية طويلة الأجل ، وتعانى سيراكوز ديكتاتورية مرددة . ولقد خالفت صفحات توكليديس فظاعة « جالة الحرب » .

وعسانا أخيراً أن نبحت حالة روما . وهى جماعة اجتذبت إلى حظيرة العالم الهلنى نتيجة توسع الحضارة الهلينية الجغرافى إبان فترة ٧٢٥ ق . م . ولم يسبق لروما حتى هذا التحول ، أن سلكت سبيل التقدم الاقتصادى والسياسى الذى كان خطة السير المألوفة للدولة الهلينية أو التى

(١) كان سياسياً أثينياً مشهوراً (٦١٢ - ٥٢٧ ق . م) . وعين طاغية Tyrant لأثينا ثلاث مرات بين عامى ٥٦٠ و ٥٢٧ ق . م واشتهر حكمه المطلق بالاعتدال وقاله له للدولة . على أنه عمل على ضمان تعيين أفراد عائلته فى مناصب الدولة العالية . (المترجم)

(٢) مصلح أثينى ترأس الحزب الديمقراطى . ولقد عارضه التلاوة معارضة شديدة . وفى طلبه إصلاحاته ، إلقاء نظام القبائل الأربعة القديم وإعادة تطبيق نظام الانتخاب بالقائمة . (المترجم)

تأثرت بالهلينية ، فكانت روما تبعاً لذلك تميز في هذا الفصل عبر كل مرحلة ،
وهي متأخرة في الزمن بحوالى المائة والخمسين سنة ، عن الزمن المقابل في
تاريخ أثينا . ولقد اقتضى روما هذا التأخر الزمني اقتصاداً يتجلى في
مرورها بفترة اضطراب مرّة وشديدة الوطأة نشب خلالها صراع بين طبقة
النبلاء المحتكرة للسلطان والقوة على أساس النسب ، وبين المطالبين بالسلطان
من العامة ، سلطان يستند على الثروة والعدد .

ولقد استطاع هذا « التأزم » الروماني ، فلقد لبث من القرن الخامس
قبل الميلاد حتى القرن الثالث وقاد إلى انسحاب طبقة العامة من المدينة
انسحاباً جغرافياً يتمثل في إقامتها دولة منفصلة مستكملة نظمها الخاصة
وجماعاتها وموظفيها داخل نطاق الدولة الأصلية .
ولم تنجح سياسة روما عام ٢٨٧ ق . م في معالجة هذا الشذوذ الدستوري
الجسيم إلا تحت الضغط الخارجي . إذ دفعها إلى الجمع بين المناصرين للدولة
ومناهضيها ، في وحدة سياسية عاملة . ثم تكشف للعيان سريعاً ، طابع المخرج
المؤقت لتسوية عام ٢٨٧ ق . م ، بعد انقضاء قرن ونصف قرن من الاتجاه
الاستعماري الظاهر الذي تلا تلك التسوية . فإن النظم التي تقيّلها الرومانيون
لدستورهم المفكك ، جمعت بين التناقض : فهي هشة وصلبة ، ونبيلة
وسوقية . وقد تبين أنها أداة سياسية تقسم بالبلادة لعجزها عن تحقيق
التعديلات الاجتماعية الجديدة . فكان أن فتحت بسببها أعمال جراكس
القاسية ، دورة أخرى من الأزمات (١٣١ - ١٣ ق . م) شرأ من الأولى .
وانهارت دعائم الكيان السياسي الروماني هذه المرة بعد انقضاء قرن من
التمزق الذاتي لديكتاتورية مستديمة . وكانت الجيوش الرومانية قد استكملت
وقتها غزوها العالم الهليني . وهكذا أتاحت - عرضاً - ديكتاتورية أغسطس
وخلفائه للمجتمع الهليني دولته العالمية .

إن قصور الرومانيين المستمر ، يتجلى في ترددهم إزاء مشكلاتهم

المحلية . وهي صورة تناقض تماماً كفايتهم التي لا تبارى في إنجاز فتوحاتهم الأجنبية وتنظيمها والحفاظ عليها . ومن الملاحظ أن الأثينيين الذين لم يكن ليزبهم أحد في توفيقهم في تجنب سياستهم الداخلية « حالة التأزم » ، قد فشلوا خلال القرن الخامس قبل الميلاد فشلاً واضحاً في إيجاد التنظيم الدولي الذي كانت الحاجة تمس إليه فعلاً . وهذا ما نجحت روما في إقامته - بصورة ما - بعد ذلك بأربع مائة سنة .

كان هذا الهدف الدولي الذي فشلت أثينا في القيام به ، ثاني مشكلتين جابهتا التسوية التي أقامتها الثورة الصولونية . فلقد كان نظام سيادة المدينة الماثورث ، هو العقبة القائمة في سبيل توفير الأمن السياسي الدولي الذي اقتضى رواج التجارة المحلية الدولية وجوده . ويمكن تكييف حملة بقية التاريخ الهليني منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد وما تلاه ، في نطاق السعي للحد من سيادة المدينة ، وفي المقاومة التي يثيرها هذا السعي . وإلى الغالب في مقاومة هذا السعي قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، يعزى انهيار الحضارة الهلينية . وإذا كانت روما قد حلت المشكلة بصورة ما ، لكنها لم تحلها في الوقت المناسب بحيث تنبش الحيلولة دون تفكك المجتمع الهليني ، وسلوكه سبيله إلى الانهيار النهائي .

وتمثل الحل الثالث للمشكلة ، في الاهتمام إلى تحديد دائم لسيادة المدينة بوساطة إقامة التعاقد الاختياري بين المدن نفسها . بيد أنه تعطلت لسوء الحظ أعظم تلك المحاولات ذبوعاً : حلف ديليان League . وهو حلف أقامته أثينا وحلفاؤها في بحر إيجه في غضون هجومهم المضاد الموفق ضد فارس . ويرد فشل الحلف : إلى التثبث بالتقليد الهليني القديم عن « الزعامة » ، بما تعنى من استغلال العضو الزعيم للتحالف الاضطرابي . ولقد تطور حلف دالي إلى إمبراطورية أثينية استتارت الحرب البلونينية . ثم وقعت روما بعد انقضاء أربعة قرون على هذا الحدث ، فيها فشلت فيه أثينا . لكن العقاب باستخدام

السياط (١) التي أوقعها الاستعمار الأثيني على غلمه الصغير ، لا يعتبر شيئاً إلى جانب العقاب باستخدام العقارب التي أوقعها الاستعمار الروماني على مجتمع هلبني أوسع رقعة أو متأثر بالهلينية ، إبان القرنين اللذين أعقبا حرب هانيبال وسبقا فترة السلام الذي فرضته إمبراطورية أوغسطس .

٩ - ضغط الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية :

بينما كان المجتمع الهلبي يهز بسبب إخفاقه في التسامح - في الوقت المناسب - على نزعة الإقليمية العارمة ، أتحق المجتمع الغربي - بما يحمل ذلك بين ثناياه من نتائج ما ترال في طيات المستقبل - في الاحتفاظ بتضامن اجتماعي ، ربما يكون أكثر جوانب ذخيره الأصيل نقاسة .

إذ يعتبر انبعاث النزعة الإقليمية خلال فترة الانتقال من فصل العصور الوسطى إلى الفصل الحديث من التاريخ الغربي ، من أبرز السمات الخطيرة للتغير الاجتماعي السائر . ولا يتيسر لنا إجمالاً إصدار حكم نزيه على هذا التغير ، نظراً للرزايا الحسيسة التي جلبها علينا في عصرنا نفسه ، وقمنا تطور إلى مفارقة باقية . بيد أن في وسعنا مشاهدة الكثير مما يقال في صالح نبذنا مجامع القرون الوسطى الكنسية منذ خمسة قرون . فإنه رغماً عن جلالها المعنوي ، تعتبر شبحاً من الماضي ، تراثاً للدولة العالمية للمجتمع الهلبي . وكان ثمة تنافر فظ بين سمو الفكرة النظرية لعقد المجمع الديني ، وبين فوضى تطبيقها عملياً إبان القرون الوسطى .

على أية حال نجحت الإقليمية في أن تعمل وفقاً لأقل مطالبها طموحاً . ومهما يكن من أمر ذلك ، انتصرت القوة الجديدة انتصاراً كانت مظاهره :
أولاً : في النواحي السياسية ، في صورة تعدد الدول ذات السيادة .

(١) أي استخدام أثينا للقوة في سبيل توحيد العالم الهلبي وإقامة الدولة العالمية الهلينية المنشودة . (المترجم)

ثانياً : في الآداب ، على شكل أعمال أدبية . تستخدم اللغة الوطنية .

ثالثاً : في ميدان الدين ، في شكل تصادم بكنيسة القرون الوسطى الغربية .

ويعزى عنف هذا الاصطدام الأخير إلى حقيقة مبناها أن الكنيسة - وقد نُظِّمَتْ تنظيمًا محكمًا في ظل السلطة الدينية البابوية - قد اعتُبرت النظام الرئيسي في ناموس القرون الوسطى . ولقد تساهلت الكنيسة وقتها كانت البابوية في عفوان قوتها ، في موضوع تسوية علاقاتها الخارجية . مثال ذلك أن كنيسة روما واجهت الاندفاع في استخدام اللغات الدارجة للأغراض الكنسية عوضاً عن اللاتينية ، بمنح الكرواتيين الإذن بترجمة الطقوس الدينية إلى لغتهم الوطنية . ولعلها سلّمت بذلك لأن روما ألقت نفسها في هذه المقاطعة الواقعة على الحدود ، تواجه منافسة خصمها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي كانت لا تُصرّ بحال من الأحوال على ضرورة استخدام معتنقي مذهبها الديني من غير اليونانيين ، اللغة اليونانية في الطقوس الدينية ، فأظهرت سياسة مرنة تجاه ترجمة طقوسها الدينية إلى كثير من اللغات .

ويضاف إلى موضوع استعداد كنيسة روما للتساهل ، ظهور مطالب ملوك إنجلترا وفرنسا وكاستيل وغيرهم من ملوك الدول المحلية ، للإشراف على النظام الكنسي في نطاق حدود ، بلادهم . بيد أنه يلاحظ أن البابوات قبلوا ذلك أثناء خوضهم معركة الحياة أو الموت ضد مطالب أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في المجامع المقدسة .

وبالحرى ؛ لم يكن الكرسي البابوي ساذجاً ، وقتها أعطى « ما لقيصر لقيصر » . إذ تطورت الأحوال تطوراً دفع كل من الدول الإقليمية صاحبات السيادة الإقليمية إلى العمل على استكمال ذاتيتها الخاصة . ولقد سارت البابوية - خلال القرن الذي سبق ما يدعى بعصر الإصلاح - شوطاً بعيداً في طريق مباحنة الحكام السياسيين لعقد اتفاقيات معهم بشأن الإشراف على السلطة الدينية في بلادهم . وهي المسألة التي كانت تفرق بين روما وحكام

الدول . ويعتبر نظام الاتفاقيات البابوية هذا ، النتيجة الغير المقصودة لمجالس المجامع الدينية المقدسة الفاشلة التي عقدت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر في كونستنزا . (١٤١٤ - ١٤١٨ ميلادية) وفي بازل (١٤٣١ - ١٤٤٩) .

وتعد حركة عقد المجالس ، محاولة مشمرة لتوحيد تلك السلطة غير المسئولة التي كان يسمى استعمالها « نائب المسيح ^(١) » ، الذي كيف سُلطانة نفسه بنفسه . وتمثلت تلك المحاولة في إدخال نظام على غرار المجامع الدينية على نطاق محدود هو النظام البرلماني الكنسي . وهو نظام ثبتت فائدته خلال العصر الإقطاعي ، إذ كان وسيلة للإشراف على مناحي نشاط ملوك القرون الوسطى . لكن البابوات الذين واجهوا حركة عقد المجالس قد ثبتوا قلوبهم ، فدلل العناد البابوي على نجاحه المخرب ، بنجاحه في القضاء على حركة عقد المجالس ، فأعرض بذلك عن الفرصة الأخيرة للتسوية . وكان أن قضى على المسيحية الغربية أن يمزقها الخلاف الداخلي : بين التراث القديم للمجامع المقدسة ، وبين نزعاتها الإقليمية .

ونتج عن ذلك الخلاف نشوب الثورات وحديث الانحرافات . ولن نحتاج هنا للتدليل على قولنا ، إلى ذكر انقسام الكنيسة العنيف ، إلى عدد من الكنائس المتنازعة بينهم كل منها الآخر بأنها عصاة المسيح الدجال . ودفعت تلك الكنائس إلى الحركة ، دورة بأكملها من الحروب والاضطهادات . ويطالعا من قبيل الانحرافات ، اغتصاب الحكام العلمانيين الحق « الإلهي » الذي كان يفترض وراثته البابوية له . وما يزال هذا « الحق الإلهي » يقوم بعمل تخريبي في العالم الغربي في شكل عبادة وثنية متجهة لنظام الدولة القومية ذات السيادة . فإن الوطنية التي وصفها الدكتور جونسون وصفاً شاذاً نوعاً ما بقولها إنها « الملجأ الأخير للاتفاق » - وإن

كانت تورس كافيلاً قد اعتبرت في نظرة أعمق إدراكاً ، هذا الوصف كافياً . قد حلت محل المسيحية ، عقيدة للعالم الغربي .
ومهما يكن من الأمر ، يصعب تصور تناقض أشد حدة سواء بالنسبة للتعالم الأساسية للمسيحية أو بالنسبة لجميع الأديان الكبرى كذلك ، مما يضيء بين طياته ، هذا الناتج المريع المتمثل في ضغط الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية .

١٠- ضغط الإيمان بالوحدانية على الدين :

لم تعد « الأديان العليا » ذات الرسالة إلى كافة البشر ، إلى مسرح التاريخ البشري إلا في زمن حديث نسبياً . ولم يقتصر الأمر على جهل المجتمعات البدائية وحدها بها ، بل إنها كذلك لم تتبع بين المجتمعات التي تسير في طريق الحضارة ، إلا بعدما انهار عدد من الحضارات وسار في طريق التحلل شوطاً بعيداً .

ويرد انبعاث هذه الأديان الكبرى ، إلى الاستجابة للتحدي الذي أبرزه انحلال الحضارات . إذ تنقيد نظم حضارات الطبقة غير الملحقة بأخرى - مثل تلك المجتمعات البدائية - بالنظم الغير الدينية لتلك المجتمعات ، ولا تتطلع إلى أبعد منها . ويبدو قصور مثل هذه الأديان واضحاً للعيان إن نظر إليها من خلال وجهة نظر روحية أسمى . لكنها تستحوذ على ميزة سلبية الطابع ، تتجلى في اعتناقها مبدأ « عش ودع الغير يعيش » بين دين وآخر . وبالحري وجد العالم تعدد الآلهة والعقائد في ظل تلك الظروف ، شيئاً ملازماً لتعدد الدول والحضارات .

وتجهل النفوس البشرية في هذا الوضع البدائي ، مبدأ كلية وجود الله واقتداره تعالى . إلا أنها - من الناحية الأخرى - في حصن من إغراء الردى في خطيئة التعصب في علاقاتها مع غيرها من أفراد البشر الذين يعبدون الله تعالى تحت أشكال وأسماء مختلفة : وإن من سخریات التاريخ

البشرى ، أن ينبعث التعصب والاضطهاد ، عن الاستنارة التي بثت في الدين إدراكاً حسيّاً بوجود الله وأخوة الجنس البشرى .

ومناط التفسير ؛ وما تبثه فكرة التوحيد - إذ تطبق على الدين - في معتقديها من الرواد الروحيين ، من روح بلغت درجة رفيعة من السمو تستأهل المجازفة في سبيل سلوك طريق قصير يكفل سرعة نقل فكرتهم إلى عالم الحقيقة . وأياً ما تكون الحال ، فإنه حيناً ووقتاً يشتر باى دين ذى سموروحانى ، تبدت حيناً وذيلة التعصب والاضطهاد هذه عن خلقها البغيضة .

ومصدّقاً لذلك ، استطار هذا المزاج التعصبى إبان محاولة أخناتون العقيمة لفرض إلهامه بالوحدانية على الدنيا المصرية ، خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد .

كذلك ائتم ظهور اليهودية وتطورها باتجاه تعصبى مكفهر . فإن الزوْحانية التي أضفيت على ياهوى الإله المحلى لليهود فجعلت من عبادته عقيدة توحيد - وتعتبر المأثرة الروحية المحيدة للأتنياء العبرانيين - هي نقیض ذلك الاتجاه التعصبى .

وتنفجر نفس روح التعصب المرة بعد الأخرى في تاريخ المسيحية في انقساماتها الداخلية ، وفي تصادمها مع العقائد الغريبة عنها على السواء .

وينزع ضغط الإيمان بالوحدانية على الدين - وفقاً لهذا الغرض - إلى إيجاد انحراف روحانى ، في مكنة فضيلة التسامح مجابهته عن طريق إجراءات تسوية معينة . وجماع التسامح ، الاعتراف بأن جميع الأديان هي استطلاعات تهدف إلى إدراك غاية روحية مشتركة . بل لعل بعض هذه « الاستطلاعات » في بعض الأديان أكثر تقدماً وتقوم على قواعد أسلم من غيرها . وبالحرى ، فإن قيام دين يقال عنه إنه دين حق باضطهاد دين يدعى بأنه باطل ، أمر يناقض في صميمه طبيعة العقيدة الدينية . لأن الدين « الحق »

إذ يلجأ إلى سلاح الاضطهاد ، يضع نفسه في المكان الباطل ، ويتخلى عن مقوماته .

وثمة حالة على الأقل ناهية الذكر لهذا التسامح المنشود ، يفرضها نبي على أتباعه وهو في موضعه الجليل . فإن محمداً قد أمر أتباعه بالتسامح الديني تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامي . فقدّم محمد بذلك لقاعدة التسامح ، تفسيراً قوامه أن أفراد هاتين الجماعتين الدينتين غير المسلمين هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم . وليس أدلّ على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ بدايته ، من أن المسلمين قد طبقوا مبدأ التسامح الديني على أتباع زرادشت الذين خضعوا للحكم الإسلامي ، وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه .

أما عن فترة التسامح الديني التي ولجتها المسيحية الغربية إبان النصف الثاني من القرن السابع عشر ، فإنها تستمد أصولها من مزاج يتسم بشراسته . إنها فترة يمكن إطلاق لقب « التسامح الديني » عليها ، من ناحية تسامحها تجاه الأديان . إذ لو تأملنا بواعث التسامح لكان أحرى أن يوصف التسامح إلى حد ما ، بأنه تسامح لا ديني . ذلك لأن قسماً المسيحية (الكاثوليكية والبروتستانتية) قد نبذا فجأة - نوعاً ما - منازعاتهما ، لا بسبب اقتناعهما بخطيئة التعصب ، ولكن لإيمانهما بعجز أحدهما عن الإيقاع بالآخر . ولعلهما في نفس الوقت لم يعودا يهتمان الاهتمام الكافي بالنزاع على الموضوعات اللاهوتية الناشبة بينهما ، ولا يستمرتان بذل مزيد من التوضيحات في سبيلها .

وبالأحرى ، جحد أتباع الكاثوليكية والبروتستانتية فضيلة الحمية الدينية (التي تعني بروح الاشتقاق أن يفعم المرء بروح الله) ، واعتبروها من ذلك الحين رذيلة . وبهذه الروح وصف أسقف إنجليزى في القرن الثامن عشر أحد المرسلين الإنجليز في ذات الوقت والعصر بأنه « مجنوب حقير » .

ومع ذلك فإنه ، مهما يكن من أمر الباعث على التسامح ؛ فإنه تزيق
 فعّال ضد التعصب الذي ينزع إلى استيلاده ، ضغط الإيمان بالتوحيد على
 الدين . وتعتبر نقمة غياها ، بمثابة الاختيار بين شلوذ الاضطهاد ، وبين
 التغير القجاني الثورى ضد الدين ذاته . ولقد عبّر عن مثل هذا التغير
 القجاني في عبارة مشهورة للوكريتيوس Lucretius هي « فظاعة الشر هذه ،
 هل الدين يجرّض على إتيانها^(١) » . كما نجدّها في عبارة لفولتير . « حطّموها
 المرذول » . وفي عبارة جامبتا « نفوذ الكهنة ، ذلك هو العدو » .

١١ - ضغط الدين على الطبقة :

لعل في حوليات^(٢) التاريخ السندى ما يفرّز وجهة نظر لوكريتيوس
 وفولتير القائلة بأن الدين هو شر بذاته ، ولعله الشر الأساسى في الحياة
 البشرية^(٣) . إذ نجد للدين في هاتين الحضارتين تأثيراً مشثوماً يتمثل في
 الطبقة التي ما تزال قائمة لا تريم .

ومدار النظام الطبقي ، تحقيق الفصل الاجتماعي بين فريقين (أو أكثر)
 من البشر يشتركان في الوطن . ويزرع ذلك النظام من الناحية الأخرى ،
 إلى ترسيخ نفسه بواسطة السماح لجماعة بشرية بأن تنصب نفسها سيدة على
 جماعة أخرى ، وهي لا تستطيع في نفس الوقت أو لا تريد إبادة الجماعة
 الخاضعة ، أو استيعابها في الكيان الاجتماعي للجماعة صاحبة السيادة :

مثال ذلك : التقسيم الطائفي في الولايات المتحدة الأمريكية بين الأغلبية
 المسيطرة البيضاء والأقلية الزنجية ، والتقسيم الحاصل في إفريقيا الجنوبية بين
 الأقلية البيضاء المسيطرة والأغلبية الزنجية . ولعل النظام الطبقي الهندى قد

(١) Tantum religio patuit stuanere malorum

(٢) ملونات تاريخية تكتب حوليا . . (المترجم)

(٣) لا يترف الإسلام أبداً بالطائفية الدينية ، والمؤمنون لديه سواسية . وهذا ما أشاد

به الأستاذ المؤلف في موضع آخر . (المترجم)

نشأ في شبه القارة الهندية من خلال إغارة الرحل الآريين الأوراسيين على المجال السابق لما يدعى بالثقافة الهندية ، في سياق النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد .

ويتبين من ثم ، عدم وجود علاقة جوهرية بين الطبقة والدين . ومضاداً لذلك ، ينعكس الانقسام العنصري في الولايات المتحدة وفي إفريقيا الجنوبية - حيث نبذ الزنوج عقائدهم الدينية المتوارثة واعتنقوا مسيحية الأوربيين المستعمرين - على الكنائس ؛ فيعزل الأعصاء البيض عن السود في صلواتهم الدينية ، على غرار ما يتبع في غير ذلك من ضروب النشاط الاجتماعي . ويختلف الحال تماماً في النظام الطبقي الهندي ، فلقد تميزت الطبقات بعضها عن البعض الآخر منذ بدء الأمر عن طريق الاختلافات الدينية . على أنه يبدو أن هذا التمايز الديني ، قد اتخذ شكله المألوف بالفعل ، وقتما حشرت الحضارة السندية عن مقصدها الديني الذي أورثته خلفها .

وظاهر بالإضافة إلى ما تقدم ، أن ضغط الإحساس الديني على النظام الطائفي ، لا بد وأنه قد ضاعف من حدة سوء طوية النظام . إذ توشك الطائفية أن تنقلب إلى شنوذا اجتماعي ، يتضخم تضخماً مروعاً ، أن استثيرت بإضفاء التأويل والعقاب الدينيين عليها .

وحقيقة الأمر ، جلب اصطدام الدين بالطبقة معه إلى الهند ، ظلماً اجتماعياً لا نظير له ؛ يتجلى في طائفة المنبوذين . ولا توجد ثمة أية حركة فعالة تقوم بها طائفة البراهمة للقضاء على نظام المنبوذين أو حتى التخفيف من حدته . والبراهمة هم الطائفة المقدسة القائمة على الطقوس الدينية للنظام الطبقي الهندي بأسره . وما يزال الشنوذا الاجتماعي قائماً ، إلا حيث تولت الثورة تغييره (١) .

(١) يتطور النظام الطائفي الهندي تدريجياً بفضل حكمة القائمين على شئونها الذين أدركوا أنه بخالف روح العصر ، ولا يتفق مع ما يرجون لهند من قوة وعزة في المجال الدولي .
(المترجم)

وأول الثورات المعروفة على الطائفية ؛ تلك التي قادها ماهاتيرا مؤسس الجاينية ، ثم ثورة البوذا . فقد اندلعت كلتاها عام ٥٠٠ ق . م . ولو كان التوفيق قد جالغ البوذية أو الجاينية في استهواء العالم السندي ؛ لثم القضاء على الطبقة . على أنه لما أقصيت هاتان الديانتان ، قامت الهندوكية بدور العقيدة العالمية إبان الفصل الأخير من انحلال المجتمع السندي وسقوطه . وتضم الهندوكية أشتاتاً من أشد آراء التسمح الديني المحدث المهجورة ؛ منها القديم والجديد . فلقد كانت الطبقة هي أحد الأشياء القديمة التي بثت فيها الهندوكية روحاً جديدة . ولم تكف بالمحافظة على هذا الظلم القديم ، بل قد أحكمت مظاهره كذلك . وبذلك وقع على الحضارة الهندوكية منذ بدايتها ، عبء الطبقة ، على صورة أشد ثقلًا بكثير مما وقع على الحضارة التي سبقتها^(١) .

ولقد أعلنت الثورات ضد الطائفية عن نفسها في تاريخ الحضارة الهندوكية ، في انشقاقات عن الهندوسية بفعل إغراء بعض النظم الدينية الغريبة عن الهند . وترجم بعض هذه الانشقاقات المصلحون الهناكة الذين شيدوا عقائد دينية جديدة تجمع بين صبغ مهبية من الهندوكية وعناصر أجنبية . ويطالعنا كثال : استعارة نانك (١٤٦٩ - ١٥٣٨ ميلادية)^(٢) عناصر من الإسلام ؛ وأقام رام موهان روس (١٧٧٢ - ١٨٣٣) عقيدة براهموساماج من امتزاج الهندوكية والمسيحية . وتنقسم كلتا العقيدتين باستبعاد الطبقة من قواعدهما .

وفي حالات أخرى تخلص المنشقون من الهندوكية من عقيدتهم تخلصاً تاماً . فاعتنقوا الإسلام أو المسيحية . واتخذت مثل هذه الهدايات سبيلها على أوسع نطاق في المناطق التي تضم نسبة عالية من أعضاء الطوائف الدنيا والطبقات المحزونة

(١) الحضارة السندي . (المترجم)

(٢) مؤسس عقيدة السيخ . (المترجم)

هذه هي المناقضة الثورية للشنود الاجتماعي المتصل بنظام المنبوذين الذي استثاره ضغط الدين على الطبقة . وإذ كانت التأثيرات الغربية : من اقتصادية وثقافية ومعنوية من شأنها استفزاز جماهير الهند استفزازاً متصلاً ، يبدو أن مجرى التحول الديني يوشك أن يتحول إلى طوفان ، اللهم إلا أن تعدل نظام البلاد الديني الاجتماعي تعديلاً يقسم بانسجامه ؛ ويتولاه - في وجه معارضة البراهنة - أولئك الأعضاء من المجتمع الهندوكي الذين يمجّدون المثل الدينية والسياسية للبانيا Banya مهماً غاندى .

١٢ - ضغط الحضارة على تقسيم العمل :

لاحظنا قبل الآن أن تقسيم العمل لم يكن مجهولاً برمته في المجتمعات البدائية . إذ يوضحه تخصص الحداين والمنشدين والكهنة ورجال الطب . . . ومن في حكمهم . بيد أن ضغط الحضارة على تقسيم العمل ، يتزعج - بصورة عامة - إلى توكيد تقسيم العمل إلى درجة يهدد معها ، لا بتقليل الفوائد المرجوة منه فحسب ، ولكن ليصبح - في حقيقة الأمر - مناهضاً للمجتمع في سياق تأديته وظيفته . وتولد هذه النتيجة في حياقي الأقلية المبدعة ، والأكثرية العاطلة عن الإبداع على السواء . إذ يدفع المبدعون إلى الباطنية ، ويساق شراذم الناس إلى « الاعوجاج » .

والباطنية ظاهرة للإخفاق في أعمال الأفراد المبدعين . ولعلها توصف بأنها توكيد للحركة التمهيدية في إيقاع الانسحاب والرجع ، ناتجة عن فشل في استكمال الحول . ولقد ذم اليونانيون أولئك الذين يفشلون في هذا الطريق بنعمهم بكلمة « المعتوه » . وكان يقصد بالاستعمال اليوناني لكلمة « معتوه » خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، الشخصية المتعالية التي ترتكب المعصية الاجتماعية بأن تقوم على حياتها بنفسها ولنفسها ، عوضاً عن أن تضع مواهبها في خلمة خير الجماعة . وتبدى النظرة إلى مثل هذا التصرف

في أثينا. في عصر بروكلين من حقيقة مدارها أن اشتقاق الكلمة اليونانية ،
قد أصبح يعنى في لغاتنا الدارجة الحديثة « الأبله » .

يبد أنه لا يعثر على المعنويين الحقيقيين في مجتمعنا الغربي الحديث في
المصحات . فإن فريقاً منهم — من فصيلة الإنسان العاقل — قد تحول إلى
فصيلة الإنسان الاقتصادى ، فأصبح مدداً لديكنز^(١) يزوده بشخصيات مثل :
جرادجراند Gradgrind وباوندربى Bounderby يسخر منها في رواياته .
وتؤمن جماعة أخرى بأنها في واد آخر ، وتعد نفسها من بين أبناء المعرفة ،
في حين أنها تقع في الحقيقة تحت نفس الحكم . وهؤلاء هم المترفعون^(٢)
المثقفون وأصحاب الإحساس بالجمال ، وذوو الجباه العالية الذين يعتقدون
بأن فهم هو « في سبيل الفن وحده » ، وهم ما سخر جيلبرت^(٣) بهم في
رواياته . ولربما يصور الاختلاف في الزمن بين ديكنز وجيلبرت ،
حقيقة أن الجماعة الأولى هي أكثر الجماعتين ذبوعاً في إنجلترا في أوائل
العصر الفيكتوري ، بينما انتشرت الثانية في آخر هذا العصر . وتقع الجماعتان ،
في طرفي نقيض . بيد أنه يلاحظ بالنسبة للقطب الشمالى والقطب الجنوبى
من كوكبتنا ، أنهما رغماً عن تباعدهما العظيم ؛ فإنهما يعانيان نفس العيوب
المناحية .

يتبقى أن نناقش ما أسميناه : بـ « الاعوجاج » وهو نتيجة ضغط
الحضارة على تقسيم العمل في حياة الأكرية العاطلة عن الابداع .
إن قوام المشكلة الاجتماعية التى تنتظر المبدع مع رفاقه عند ما يؤوب

(١) الرواى الإنجليزي المشهور . (المترجم)

(٢) المترفع : من يأنف الاتصال بمن يعتبرهم أقل منه مدنية . (المترجم)

(٣) هو السير ولیم جيلبرت (١٨٣٩ - ١٩١٨) - قصصى مسرحى وناقد بريطانى ،
تنحدر كتاباته إلى الفكاهة والدعابة . وفي طلبية مسرحياته : قصر الحقيقة - بينجاليون وجلاتيا
- المشاق . وقد اشترك مع آرثر سويفت في وضع عدة أوبرات منها : قرصان بنزانس -
الميكادو . (المترجم)

من مجتمع جديد ، تتجلى في مشكلة النهوض بالمستوى المتوسط لعدد من النفوس البشرية المعادية ، إلى مستوى أرفع ؛ أى إلى المستوى الذى بلغه المبدع نفسه ؛ وما إن ينشئ برسالته ، حتى تواجهه حقيقة أساسها أن معظم أفراد العامة ، عاجزون عن الحياة بقلوبهم وإرادتهم ونفوسهم وقوتهم كلها ، في هذا المستوى العالى .

ولعل هذا الوضع يُغرى المبدع بمحاولة سلوك طريق قصير ، باللجوء إلى تدبير يقود إلى النهوض بأحد المواهب المفردة ، إلى مستوى أعلى دون أن يُلقى بالا إلى الشخصية بأكملها . ومعنى هذا - وفقاً للفرض - إرغام البشرية على تقبل ارتقاء غير متجانس . وتدرك مثل هذه النتائج بكيفية أكثر سهولة على سطح الأسلوب التكنولوجى الميكانيكى ؛ طالما تعتبر الميول الطبيعية تجاه الأساليب التكنولوجية الميكانيكية ، أسهل عناصر الثقافة قابلة للزل . فإنه لا يصعب تكوين ميكانيكى كفاء من شخص تظل كافة مناحى تفكيره بدائية همجية . بيد أنه يتأتى - بنفس الطريقة - توجيه الملكات الأخرى نحو التخصص والتماء المفرط . ولقد انصب نقد ماتيو آرنولد^(١) على أنه قد تخصص فيما أعتقد خطأ بأنه الدين المسيحى ، في حين أهمل الفضائل الأخرى - الهلينية - التى تعمل على تكوين شخصية تتسم كثيراً بتوازنها .

ولقد صادفنا هذا « الاعوجاج » قبل الآن عند استقصائنا الاستجابة

(١) آرنولد ماتيو Arnold Matthew (١٨٢٢ - ٨٨) يعتبر أشهر شعراء جيله في بريطانيا (بعد تينسون) وقد شغل فترة عشرة أعوام كرسمى الشعر بجامعة أكسفورد . وتمتاز مؤلفاته بروحها الفلسفية والدينية . وقد نشر ما أسماه مذهب « الروادى والضياء » وكان ينادى بضرورة قراءة الكتب المقدسة بروح الأدب والفلسفة لاعلى هوى الروح العلمية . (المترجم)

لتحدى النعمة الذى يتولد عن الأقليات التى حلت النعمة بها . فلاحظنا أن حرمان هذه لأقليات من حقوق المواطن ذى الرعية الكاملة - حرمانا تعسفيا - قد حفزها إلى البروز والتفوق فى مناحى النشاط التى سمح لهم بها . كما أننا قد دهشنا وأبدينا إعجابنا بطائفة كاملة من المآثر التى لبثت فيها هذه الأقليات صامدة ، صموداً تجلت فيه مناعة الجنس البشرى .

على أنه لا يمكننا - فى نفس الوقت - تجاهل حقيقة مدارها أن بعض هذه الأقليات - سكان الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط^(١) والفناريون والأرمن واليهود - تشتهر بأنها « ليست كبقية الناس » للشر والخير على السواء . ويطالعنا فى هذا الصدد ، المثال التقليدى على العلاقات بين اليهود والأمميين . فإن الأممى الذى يتقزز ويخجل من سلوك زميله من الجويم^(٢) ، تصيبه الحيرة إذ يجد نفسه ملزماً بالتسليم بأن ثمة شيئا من عنصر الحقيقة فى الكاريكاتير الذى يرسمه من يتصدى لمهاجرة اليهود . وبعد ذلك مبرراً لموحشيته . والواقع يكمن لب المأساة فى الحقيقة القائمة على أن النعمة التى تدفع أقلية أصابتها إلى الاستجابة الباسلة ، تنزع إلى الانحراف عن طبيعتها البشرية .

وكما يصدق ذلك هذه الأقليات التى أصابها الاقتصاص الاجتماعى ، ينطبق كذلك بوضوح على تلك الأقليات المتخصصة تخصصاً فنياً ، والتى نُعنى ببحثها فى الوقت الحاضر . وهذه نقطة ترد إلى الخاطر بملاحظة تواصل تغفل الدراسات الفنية فى المنهاج الدراسى الذى ظلت تسوده حرية البحث ؛ وإن كان غير عملى .

ولقد صك يونانيو القرن الخامس قبل الميلاد لصفة عدم الانتظام هذه ،

(١) Leventines : عرفوا فى الكتب العربية فى القرن الثامن عشر باسم اللاوندية وهم تحريريف Leventine . (المترجم)

(٢) الجويم لفظ يطلقه اليهود على ما عداهم . (المترجم)

كلمة « الحيوان الاجتماعى » ؛ « ينعت بها الشخص الذى يتسم نشاطه بالتخصص القائم على تركيز الجهد وفقاً لأسلوب معين ، على حساب تقاعسه فى النواحي الأخرى . وكان نوع الأسلوب التكنولوجى الذى ساور أذهان الناس وقتما استخدموا هذا الاصطلاح ؛ هو فى الغالب ضرباً من المهنة اليدوية أو الميكانيكية ، غايتها تحقيق الربح الخاص . على أن الازدراء الهليني لهذا المنوال من التخصص ، قد ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فغرس فى العقول الهلينية ازدراء نزعة الاحتراف بكافة مناحيه . وتصدق هذه النظرة على تركيز أسبرطة جهودها ناحية الحرب . بل إن سياسياً كبيراً ومنقذاً لبلاده ، لا يسلم من اللوم إن افتقر إلى معرفة شاملة بفن الحياة :

« دأب ثيمستوكليس فى المجتمع المهنى الرافى على أن يحاط بأناس معروفين بتعليمهم الحر (نظراً لافتقاره إلى المواهب) وطقق يدفع لإبداء دفاع رخيص نوعاً ما قوامه عجزه بالتأكيد عن استخدام آلة موسيقية . إلا أنه لو وضعت يديه مضائر بلد صغير مغمور ، فإنه العليم بكيفية تحويله إلى بلد كبير مشهور » (١) .

وفى وسعنا أن نعرض - نقيضاً لذلك المثال المعتدل عن التخصص - صورة لفينا فى عصرها الذهبى الذى ظهر فيه هايدن وموزارت وبيتهوفن ، وقتما كان من عادة إمبراطور من عائلة هابسبرج ومستشاره ، أن يشتركا فى ساعات راحتهما مع الموسيقيين فى عزف الرباعيات الوترية .

ويطالعنا مثالان لهذه الحساسية الهلينية تجاه التخصص المهنى فى نظام المجتمعات الأخرى :

الأول : الوظيفة الاجتماعية . ليوم السبت اليهودى ويوم الأحد المسيحى . فإنها ترمى إلى توكيد أن المخلوق وقد ضيق عليه التخصص المهنى الخناق

وأوثقه إليه طوال ستة أيام من الأسبوع في سبيل حصوله على معاشه ،
يفكر في اليوم السابع مع خالقه ويعيش حياة النفس البشرية الكاملة .

الثاني : تنظيم إنجلترا للألعاب وغيرها من أنواع الرياضة . إذ لم يكن
من قبيل المصادفة أن تشيع الألعاب الرياضية بين الشعب في غمار الحركة
الصناعية . لأن الرياضة هي محاولة شعورية لمواجهة أثر التخصص المهني
القاتل للنفس على نفوس الناس ، وهو الأثر الذي يتضمنه تقسيم العمل في
ظل الصناعة الحديثة . بيد أن هذه المحاولة لتكييف الحياة للاتجاه الصناعي
بوساطة الرياضة ، لم يقيض لها النجاح لسوء الحظ ، لأن شيمة الإيقاع
الذي تنسم به الصناعة قد اجتاحت الرياضة نفسها وأفسدها ، فأصبح الاحتراف
الرياضي في العالم الغربي يمتاز بالتخصص في أضيق نطاق . ويدر على أصحابه
أموالا طائلة أكثر مما يدره التخصص على الفنانين في الصناعة .

وبالأحرى يزودنا التخصص الرياضي بأمثلة مروعة للتخصص المهني في
ذروته . ويذكر كاتب هذه الدراسة أنه زار ملعبين لكرة القدم في حرم
كليتين في الولايات المتحدة . وكان أحدهما حافلا بالضيء ليتسنى إخراج
لاعبين يلعبون بالليل كما في النهار في نوبات متواصلة ، وكان الآخر مسقفا
ليستمر اللعب في أى جو . وقد قيل بأنه أضخم سطح في العالم وأن إقامته
قد تكلفت مبلغاً خيالياً . وصفت الأسرة حول الجوانب لاستقبال الأبطال
المهكين أو الجرحى . ولقد ألفت اللاعبين في كلا هذين الملعبين الأمريكيين
جانبا لا يؤبه له من مجموع الطلبة ، وقيل لي كذلك إن هؤلاء الطلبة
ينتظرون محنة المباراة بنفس الرهبة التي شعر بها إخوتهم الأسن منهم
وقدما توجهوا إلى الخنادق عام ١٩١٨ . وحقا لم تعد كرة القدم الانجلوسكسونية
هذه ، لعبة بأية حال من الأحوال .

ويتسنى بالنسبة للعالم الهليني ، تمييز بداية مطابقة . حيث حل مكان
الهواة الأرستقراطيين الذين كان يحتفل بانتصاراتهم الرياضية في أغاني

بندار ، فرق من المحترفين . على حين اختلفت الاستعراضات التي كانت تقيمها جمعية الفنانين المتحدين من بارثيا إلى أسبانيا إبان العصر التالي للإسكندر ، عن تمثيلات مسرح ديونيسوس نفسه في أثينا ، اختلاف استعراض يتم في صالة موسيقى عن التمثيلات الدينية الشائعة في القرون الوسطى . فلا بدع والحالة هذه ، أن يحلم الفلاسفة بتطبيق البرامج الثورية للقضاء على الرذائل الاجتماعية وقما تتحدى تلك الرذائل بهذا الأسلوب المشوّه ، توافق المجتمع وانسجامه .

وهكذا نجد أفلاطون يكتب خلال الجيل الأول بعد الانهيار الهليني ، باحثاً عن وسيلة لقطع جذور التخصص المهني عن طريق غرس مدينته الفاضلة في منطقة داخلية ، لا تيسر لها الوسائل لممارسة التجارة البحرية وليس فيها ما يغري بالقيام بأي نشاط اقتصادي عدا الفلاحة لسد الاحتياجات الأساسية . ونجد توماس جيفرسون مصوّر المثالية الأمريكية التي ضلت طريقها بشكل مخزن ، وتخيل نفس الحلم في مستهل القرن التاسع عشر وقما كتب : « إذا كان على أن أتوغل في نظريتي . . . فإنني أتمنى أن لا تمارس الولايات التجارة والملاحة ، ولكن أن تقف تجاه أوروبا نفس ما تفعله إزاء الصين^(١) . كذلك تخيل ضمويل بتلر أصحاب مدينته الفاضلة يدمرون معتمدين وبانتظام آلاتهم ، لتلافي استعبادها لهم :

٣ - ضغط الحضارة على نزعة المحاكاة :

يعني إعادة تنسيق ملكة المحاكاة بمنأى عن المسنين وصوب الراود - كما رأينا - إحداث تغيير في اتجاه هذه المحاكاة التي تصاحب انتقال مجتمع بدائي إلى طور حضاري . ومناطق الهدف المرتقب ، الارتفاع بالجمهرة العاطلة عن الإبداع إلى المستوى الجديد الذي بلغه الرواد . بيد أنه لما كان

(١) لاحظها وودور في كتابه عن التاريخ الأمريكي الحديث . (المؤلف)
انفلت الصين أبوابها في وجه التجارة الأوربية حتى اضطرت أن تفتحها تحت ضغط
الجيوش البريطانية عام ١٨٤٠ . (المترجم)

هذا الالتجاء إلى المحاكاة ، يعتبر بمثابة طريق مختصر أى بديل رخيص
للشئ الحقيقي ، فإن إدراك هذه الغاية يتجه إلى بطلان :

وفي الحقيقة لا تؤهل الجماهرة العاطلة عن الإبداع للدخول إلى « مجمع
القديسين »^(١) . فإن الإنسان البدائي الطبيعي^(٢) ، غالباً جداً ما ينسلخ إلى إنسان
عامى مقلد^(٣) . وفي مثل تلك الحالة يتولد عن ضعف الحضارة على المحاكاة
حشد حضري يتسم بالسفسطة الكاذبة ويمتاز عن أجداده البدائيين بانحطاطه
في كثير من النواحي .

إن أريستوفانيس^(٤) قد حارب كليون^(٥) مستخدماً سلاح السخرية على
سرح آتيكا ؛ لكن كليون انتصر بعيداً عن المسرح . وبالحرى فإن رجل
الشارع « الكلونى » الطابع الذى يُعتبر اعتلاؤه التاريخ الهليني قبل نهاية
القرن الخامس قبل الميلاد ، إحدى الدلالات التى لا تُخطئ عن الانحلال
الاجتماعى ، والذى فك في نهاية الأمر إसार نفسه بفضل إنكاره التام ثقافة

(١) مجمع القديسين : يعنى أصلاً أولئك الذين اشتركوا في العشاء الرباني الذى حضره
السيد المسيح . (المترجم)

Homointeger antiqua virtutis (٢)

Homo vulgaris north chiffii (٣)

(٤) أريستوفانيس Aristo Phanes (٤٥٠ - ٣٨٥ ق . م) هو أشهر كتاب
المسرح اليوناني على الإطلاق . ولد في أثينا حيث أمضى حياته . وينسب إليه تأليف أربع وخمسين
مسرحية كوميدية لم يتبق منها سوى إحدى عشرة . وتبدي مسرحياته الأولى روحاً سياسية
ساخرة . بينما تميل مسرحيات الطور الثاني من حياته إلى التحفظ . وتنزع المسرحيات التي
ألفها في آخريات أيامه إلى النقد الاجتماعي . (المترجم)

(٥) كليون Cleon (توفي عام ٤٢٢ ق . م) ديموقراطي أثيني كانت الدبابة صناعته
الأصلية ثم ذاع صيته في الحياة العامة كمعارض لبركلليس . ولقد نصب نفسه خلال الحرب
البولونية مدافعاً عن حقوق الشعب وزعيماً للسلام . ونال مجداً عظيماً عام ٢٤ ق . م بفضل
القائه القبض على الاسبرطيين في جزيرة سفاكتيريا . ومن ثم قلده الاثينيون قيادة جيشهم
لحاربة تراسيداس في مقدونية وثرافية . لكنه فشل وقتل تحت أسوار مدينة آمفيبوليس
ويصوره أريستوفانيس في كوميدياته بأنه إنسان مضلل للجماهير من أحمق نوع ، وإنه سافل
جاهل جبان نفعى . (المترجم)

أخفقت في إشباع جوعه الروحي ؛ لم يوفق إلا في حشو جوفها بالقشور .
ونظراً لأنه يمت إلى بروتاريات مخالفة ، نجده يقنعه من غفوة الروحية ويسعى
أخيراً إلى استكمال خلاصه بالتماس عقيدة أسمى من عقيدته .

ولعل هذه الأمثلة كافية لإيضاح الدور الذي أدته في انهيار الحضارات ،
عناد النظم القديمة تجاه الاقتراب من القوى الاجتماعية الجديدة . أو باستخدام
لغة الإنجيل الدور الذي قام به فشل الزجاجات القديمة في استيعاب
النيبذ الجديد .

(٣) آفة الإبداع — عبادة ذات فانية

١ — عكس الأدوار :

أنجزنا الآن بعضاً من دراسة مظهرين لذلك الإخفاق في تقرير المصير الذي
يبدو أنه علة انهيار الحضارات . وهذا ما دفعنا إلى موازنة فكرة آلية المحاكاة
وعناد النظم القديمة . وفي وسعنا أن نختم هذا الجزء من بحثنا بالتفكير في آفة
الإبداع الواضحة .

يبدو كما لو أن قيام أقلية بمفرها باستجابات إبداعية لتحديين متعاقبين
أو أكثر في تاريخ حضارة من الحضارات ، ليس من الأمور العادية . وفي
الحقيقة ينزع الفريق الذي يتميز بمعالجة تحد واحد ، إلى الإخفاق بشكل واضح
في معالجة التحدي التالي . ويعتبر هذا التحول المشوش لأقدار البشر — وإن
كان انتظامه واضحاً — أحد تصميمات الدراما في آتيكا ، التي ناقشنا أرسطو
في مؤلفه عن « الشعراء » تحت اسم « عكس الأدوار » . كما أن هذا التحول
هو بالمثل أحد الموضوعات الرئيسية في العهد الجديد .

فإن المسيح تنبذه — في درامة العهد الجديد — « مدرسة النساخ والفريسيين .
وهم الذين هرعوا إلى المقدمة قبل ذلك بيضعة أجيال ، ليتزعمو ثورة اليهود

الجريئة ضد زحف الهلينة الظافر . ولقد كانت بشارة المسيح على الأرض
هى المطابقة الحقيقية للأمنية اليهودية عن ظهور المسيح .

إن الفراسة والاستقامة اللتين دفعتا النساخين والفريسيين إلى المقدمة إبان
تلك الأزمة السابقة ، قد تخلتا عنهم الآن فى أزمة أعظم شأنًا . فكان قوام
اليهود الذين استجابوا للدعوة هم من أصحاب المواخير والمومسات ؛ بل وفد
السيد المسيح نفسه من « جليل الأميين » كما كان أعظم أوصيائه يهودى من
طرسوس^(١) ، وهى مدينة وثنية تأثرت بالهلينة فيما وراء الأفق التقليدى
لأرض الميعاد^(٢) . فإذا نظر إلى الدراما من زاوية مختلفة قليلًا وعلى مسرح
أوسع نوعاً ما ، يتيسر تخصيص دور الفريسيين كما ورد فى الإنجيل الرابع
 لليهودية فى مجموعها وإلى أصحاب المومسات وإلى الأميين الذين تقبلوا تعاليم
سانت بولص وقما نبذها اليهود .

وبالمثل فإن نفس « خطة عكس الأدوار » هى منهاج عدد من الأمثال
المضروبة والأحداث الفرعية فى قصة الإنجيل نجدها فى موضع الأمثال المضروبة
عن دافيس^(٣) وعازر ، وفى الفريسي وصاحب الماخورة والسامرى الطيب ؛
نقيض الكاهن واللاوى ، وفى الإبن المبذر نقيض أخيه الأكبر المحترم .
ويتبدى نفس المنهاج فى مصادمات السيد المسيح مع قائد المائة الرومانى ومع
المرأة السروفيينية^(٤) .

وإذا جمعنا العهدين القديم والجديد فى مضمون واحد ، نجد أن مأساة العهد

(١) يقصد الأستاذ المؤلف . القديس بولص . (المترجم)

(٢) أرض الميعاد هى فلسطين . (المترجم)

(٣) دافيس Dives اسم الرجل الثنى الذى نطق به السيد المسيح فى مثاله الذى ضربه عن
الرجل الثنى ، وعازر هو لازاريوس الذى مات وأمره السيد المسيح بالقيام من قبره فقام .
(المترجم)

(٤) نسبة إلى Syraphoenicia وكانت مقاطعة رومانية فى غرب آسيا شملت فينيقية

ودمشق وتدمر . (المترجم)

القديم عن عيساو الذى فرط فى حقه بالوراثة^(٥) ليعقوب ، قد فسرته فى الإنجيل فكرة « عكس الأدوار » ؛ وقتما فرطت ذرية يعقوب فى حقه بالوراثة بدورهم بإنكارهم السيد المسيح .

وتتكرر الفكرة بانتظام فى أقوال السيد المسيح :

كل من سيعلى من قدر نفسه سيذل

الآخر سيصبح الأول ، وسيغدو الأول الأخير

إن لم تتحول وتصبح طفلاً صغيراً ، لن تدخل مملكة السماء .

وطبق السيد المسيح الناحية الخلقية على رسالته باقتباس آية من المثل المائة والثامن عشر « إن الحجر الذى ينبذه البناءون يصبح نفسه رأس الزاوية » :

وتمتد نفس الفكرة بين ثنايا كافة الأعمال الأدبية الملهيية الكبرى ، ويعبر عنها باختصار فى الصيغة « الكبرياء يسبق السقوط » . ولقد أوضح هيرودوتس الدروس المستخلصة من سير اجزركسيس وكرويسوس وبوليكرانس . وفى الواقع يتيسر بحث موضوع تاريخ هيرودوتس بأسره على أنه « ارتفاع الإمبراطورية الأخيانية وسقوطها » . وكتب توكيديديس بعد ذلك بجمل ، مصوراً بطريقة أكثر إثارة وبروح إيجابية علمية أكثر وضوحاً ، منكرأ نزعة أ التاريخ المتعمدة الصريحة عن ارتفاع أثينا وسقوطها . ونادراً ما يحتاج الآن إلى ذكر المباحث الأثيرة فى المأساة الأتيكية التى تمثلت فى أجاممنون لأخيل ، وأوديبوس وأجاكس لسوفوكلس وبنثيوس لأوريبيديس .

ويعبر شاعر ظهر إبان الانحلال الصينى عن نفس الفكرة فى قوله :

هذا الذى يقف على طرف أصبع قلعه لا يقف ثابتاً

هذا الذى يستخدم أطول الخطوات لا يسير الأسرع

هذا الذى يفخر بما سيعمله ، لا ينجح فى شئ .

هذا الذى يعجب بعمله ، لا ينجز شيئاً يدوم^(١) .

وبعد ؛ تلك هى نقمة ، الإبداع . وإذا كانت حكمة هذه المأساة مما يتصادف حدوثه عادة ؛ وإن كان المبدع الموفق يجد فى الواقع أن مناط توفيقه بالذات فى أحد فصول المأساة ، يشكل عائقاً جديداً فى سعيه لمواصلة دور الإبداع فى الفصل الثانى ، بحيث تصبح الفرص - فى حقيقتها - ضد « المحلى^(٢) » ، دائماً وتوافق مصلحة « الحصان السباق^(٣) » . فواضح - من ثم - أننا قد دفعنا هنا إلى الأرض بعامل ذى تأثير قوى للغاية فى انهيار الحضارات . وفى وسعنا أن نشاهد أن هذه الآفة لا بد وأن تطرأ على الانهيارات الاجتماعية بطريقتين مميزين :

الأول : يختزل عدد المرشحين المحتملين لتأدية دور المبدع فى وجه أى تحد محتمل ، ما دام يترتب على الآفة ، استبعاد أولئك الذين استجابوا بنجاح إلى التحدى الأخير .

الثانى : يترتب على عجز هؤلاء الذين قاموا بدور المبدع فى الجيل السالف ، تبويب هؤلاء المبدعين السابقين ، تبويماً يجعلهم فى طليعة المعارضين لكل من يحتمل قيامه باستجابة ناجحة للتحدى الجديد . وهؤلاء المبدعون السابقون يشغلون ، فى الوقت الحاضر مراكز السلطة والنفوذ الرئيسية فى المجتمع الذى ينتسبون إليه وينتسب إليه كذلك المبدعون المحدثون الاحتماليون . ولن يتمكن المبدعون السابقون من معاونة المجتمع فى سيره نحو الأمام ، بل إنهم يصبحون كصاحب الجحافل الذى اتكأ على مجذافه .

The Tao-te King. CH. 24 (translation Waley, A, In the Way (١) and its Power.

(٢) المحلى : أى الأثير من غيل السباق . (المترجم)

(٣) الحصان السباق Dark Horse هو السابق المجهول ، أى حصان يربح شروط السباق.

على غير انتظار من غير أن يتوقع فوزه . (المترجم)

ولعل أصدق وصف لسلوك « المستريحين » اعتباره طريقة سلبية للاستسلام لآفة الابتداع . ولا تقوم سلبية هذا الوضع قرينة على انتفاء النقص المعنوى : فإن السلبية البلهاء إزاء الحاضر ، تنبعث عن الافتتان بالماضى . وهذا الافتتان هو خطيئة عبادة الأوثان التي قد تعرف بأنها تكريس العبادة من ناحيتها الثقافية والمعنوية للمخلوق عوضاً من تكريسها للخالق . وقد تأخذ شكل عبادة عابد الوثن ذاته ، أو عبادة مجتمع في مرحلة فانية يجتازها إبان تحركه الدائم القائم على التحدى والاستجابة صوب تجد جديد . وهذه الحركة هى جوهر البقاء على قيد الحياة . وقد تأخذ العبادة الشكل المحدود للافتتان بنوع معين من نظام أو أسلوب تكنولوجي ، هياً للعابد ذات مرة مركزاً مرموقاً .

وسيكون من المناسب فحص أشكال العبادة الوثنية هذه ، كل على حدة . وسنبداً بعبادة الذات ، لأنها ستهيئ لنا أوضح الصور عن الخطيئة التي نشعر الآن في دراستها ، إن كانت هى الحقيقة بالفعل :

أولئك الرجال قد ينهضون على معابر^(١)

من شخصياتهم المنيئة إلى أشياء أعظم^(٢)

وبالحرى فإن العابد الذى يرتكب جريمة معاملة نفس ميتة — لا كعبر — ولكن كمنصة شرف ؛ يبعد نفسه بذلك عن الحياة بشكل واضح . ويصبح مثله مثل الناسك العمودى^(٣) الذى يستنبد نفسه على عمود بعيداً عن حياة رفاقه .

وعسانا الآن قد مهدنا السبيل بشكل واف لبضعة أمثلة تاريخية تتصل بموضوعنا الحالى .

(١) Stepping-stones حجارة توضع للخطو فوقها حيث يكون الوحل أو الماء .

(المترجم)

(٢) من شعر تينسون الشاعر الإنجليزي في ديوانه « لاذكرى » . (المؤلف)

(٣) العمودى Stylite فئة نصرانية من الناسك ، عاش نياكها فوق العمدان اتباعاً

لسمعان العمودى . (المترجم)

٢ - اليهودية :

إن أقبح أمثلة عبادة الذات الفانية صيتاً ، يتمثل في خطيئة اليهود التي تتبدى في العهد الجديد . فإن شعب مملكتي إسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه . كانا ساميا إبان فترة من تاريخه الذي بدا في طفولة الحضارة السورية ، وبلغ الأوج في عصر الأنبياء . وأدرك موضع الرأس والمنكبين فوق الشعوب السورية المحيطة به ، بفضل اعتناقه فكرة وحدانية الدين .

سمح هذا الشعب الذي كان مدرگا لكنزه الروحي وفخوره به بحق ، لنفسه بأن تفتته هذه المرحلة الفذة ؛ وإن كانت انتقالية في ارتقائه الروحاني . وحقاً قد أوتى فراسة روحانية لا تبارى . لكن اليهود بعد أن تنبأوا بالحقيقة المطلقة الخالدة ، تركوا لأنفسهم العنان لتسيوهم حقيقة ناقصة ، نسبية وموقوتة . ومدار تلك الحقيقة اعتبارهم السمو الروحي الذي بلغوه بالعمل والكثرة امتيازاً خلعه الرب عليهم وحدهم بموجب عهد أبدي يجعل منهم شعب الله المختار .

وهكذا أضلهم الحقيقة الناقصة فأردتهم في خطأ مبيت .

وإن احتضان اليهود لصفة شعب الله المختار ، قد انحرفت بهم إلى العقم الفكرى وقادتهم إلى نبذ كنز أعظم قدراً ، هياهم لهم الله بمقدم عيسى الناصرى .

٣ - أثينا :

إن كانت إسرائيل قد استكانت لآفة الإبداع بعبادتها نفسها على أنها « شعب الله المختار » ، فإن أثينا قد استكانت إلى نفس الآفة بعبادة نفسها بحسبانها « معلمة هيلاس » .

إننا قد شاهدنا قبل الآن كيف أن أثينا قد نالت على هذا القلب المحيد حقاً عابراً ، بفضل ما حققته من مآثر خلال الفترة الواقعة بين عصرى صولون وبركليس . بيد أنه بدا ظاهراً للعيان ، نقص ما أنجزته أثينا - أوكان لامناص

من ظهوره - ويرد ذلك إلى ذات الباعث الذى جعل ابنها الأملعى يُضفى عليها هذا اللقب . إن بركليس قد صك العبارة فى خطاب رثاء جنازى ألقاه - كما يقول توكيديديس - سبح فيه محمد الموتى الأثينيين فى السنة الأولى للحرب . وهى الحرب التى كانت العلامة المرئية والظاهرة لانتهار داخلى وروحانى فى حياة المجتمع الهلينى ، وفى حياة أثينا بصفة خاصة .

ولقد تفجرت هذه الحرب المهلكة . إذ ثبت عجز طاقة الأثينيين المعنوية إبان القرن الخامس قبل الميلاد عن علاج إحدى المشكلات التى تخلّفت عن ثورة صولون الاقتصادية ، ألا وهى مشكلة إيجاد نظام عالمى سياسى هلينى . فإن هزيمة أثينا الحربية عام ٤٠٤ ق . م ، وانكسارها المعنوى الذى ابتلت به الديمقراطية الأثينية المستعادة نفسها بعد ذلك بخمس سنوات بحكمها على على سقراط بالموت ؛ قد استثار أفلاطون فى الجيل التالى استنارة جعلته يُنكر فضل أثينا فى عصر بركليس ، بل وجميع أعمالها تقريباً . بيد أن إشارة أفلاطون المتجنبة فى جانب والمتصنعة فى جانب آخر ، لم تنطبع فى ذهن زملائه المواطنين . فكان على الجيل الأقل كفاية ، الذى خاف الرواد الأثينيين الذين جعلوا مدينتهم « معلمة هيلاس » أن يسعى إلى الذود عن مطالبهم بلقب ضائع . فاستخدموا طريقة ملتوية دللت على عدم قابليتهم للتعليم مصداقاً لما أظهرته سياساتهم المتقلبة والعقيمة إبان ازدهار عصر السيادة المقدونية ؛ إلى أن حلت النهاية المرة للتاريخ الهلينى ، وقتما هبطت أثينا إلى غمرة الحمول بصيرورتها مدينة إقليمية فى الإمبراطورية الرومانية .

ومن ثمت ؛ فإنه عندما بزغت ثقافة جديدة فى ما كان وقت مادلو العالم الهلينى الحرة ، لم تكن أرض أثينا هى الأرض الصالحة لتقبل البذرة . وتوحي القصة الواردة فى أعمال الرسل عن التقاء الأثينيين بالقدّيس بولص ، إن الرسول الموفد إلى الأممين لم يكن جاهلاً بالخيطة الأكاديمية لمدينة أصبحت فى عصره ، أو كسفورد العالم الهلينى ، وأنه عندما خاطب « أعضاء

الجامعة « على « ربوة المريخ » قد بذل غاية جهده لمناقشة الموضوع من زاوية تُرضى هؤلاء النظارة بالذات. بيد أنه يبدو من سياق القصة أن تبشيره في أثينا قد ثبت فشله وأنه وإن وجد نتيجة لذلك فرصة لتوجيه الرسالات إلى عدد من الكنائس التي أنشأها في المدن اليونانية ، إلا أنه لم يحاول قط - وفقاً لعلمنا - أن يهدي بطريق القلم ، هؤلاء الأثينيين الذين وجدهم يستعصون على الكلمة المفلوطة .

٤ - إيطاليا :

إن كان لأثينا القرن الخامس قبل الميلاد أن تخلع على نفسها حقاً لقب « معلمة هيلاس » ؟ فإن للعالم الغربي الحديث أن يخلع على دول إيطاليا لقباً مطابقاً تستأهله بفضل ما حققته في عصر النهضة .

فإننا إذ نستقرئ تاريخ المجتمع الغربي إبان الأربعمئة سنة من الفترة التي تبدأ من الجزء الأخير من القرن الخامس عشر وتنتهى في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نجد أن كفايته الاقتصادية والسياسية الحديثة ، وكذلك ثقافته الذهنية وإحساسه بالجمال ، ترجع بشكل واضح إلى أصول إيطالية .

فإن الباعث الذي أبرزته إيطاليا ، هو الذي دفع هذه الحركة الحديثة في التاريخ الغربي . وتجلى هذا الباعث في إشعاع الثقافة إبان العصر السالف .

وفي الواقع قد يُرى من الملائم إطلاق اسم « العصر الإيطالي » على هذا الفصل من التاريخ الغربي ، تشبهاً بما دعى بالعصر الهليني من التاريخ الهليني ؛ وقما استطارت ثقافة القرن الخامس قبل الميلاد الأثينية إثار جيوش الإسكندر من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى الحد البري القصي للإمبراطورية الاخيمانية المغمورة^(١) .

(١) قد تكون كلمة أتيكى علامة مميزة أكثر دقة من الاصطلاح المألوف هليينسى ، يطلق على الثلاثة قرون التي تتخلل تغلب الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الاخيمانية وتأسيس أغسطس الإمبراطورية الرومانية . وكما أشار ادوين ييفان من أن التطبيق المناسب تماماً =

على أننا نجد أنفسنا محاطين مرة أخرى بنفس القیض . لأنه كما أن
أثينا قد قامت بدور يتسم بالتفاهة المتزايدة في العصر الهليني ، تعتبر مشاركة
إيطاليا في الحياة العامة للمجتمع الغربي إبان العصر الحديث - كما هو ظاهر -
أقل مما ساهم به مريدوها من البلاد الواقعة وراء الألب .

ولقد تبدى عقم إيطاليا النسبي في جميع دور الثقافة الإيطالية ومنازلها في
غضون هذا العصر الحديث ، في فلورنسا وفي البندقية وفي سينا وفي بولونيا
وفي بادوا . ولعل العُقبى في نهاية هذه الفترة الحديثة ، أكثر من ذلك لفتاً
للنظر . إذ غدت الأمم الواقعة خلف الألب قادرة حوالى نهاية هذا الفصل ،
على سداد الدين الذى تدنيه به إيطاليا القرون الوسطى : ومصدقاُ لذلك
شاهد دوران القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بداية إشعاع ثقافى جديد
عبر جبال الألب ، لكنه هذه المرة عكس الاتجاه . إذ كان تدفق تأثيرات
بلاد ما وراء الألب على إيطاليا ، هى العامل الأول في حركة البعث الإيطالية^(١) .

وكان اندماج إيطاليا الموقت في إمبراطورية نابليون بمثابة الاستئارة القوية
الأولى التى تلقها إيطاليا من الجانب الآخر من الألب . كما تمثلت الاستئارة
القوية الثانية ، في إعادة فتح طريق التجارة إلى الهند عبر البحر الأبيض
المتوسط ، ذلك الطريق الذى شق قناة السويس والذى برز عن طريق غير
مباشر منذ حملة نابليون على مصر . وطبيعى أن لا يترتب عن هاتين
الاستئارتين اللتين أبرزتهما بلاد ما وراء الألب ، تأثيرها الكامل إلا بعد
اتصالهما بالمندوبين الإيطاليين . بيد أن القوى الإبداعية الإيطالية التى عن

= قوصف المراد به « هليينسى » لن يكون أى فصل من تاريخ الحضارة الهلينية نفسها ،
وما يراد به المظهر العام للحضارتين اللتين تفرعتا عن المجتمع الهليني . وما وفقاً للاصطلاح
المستخدم في هذه الدراسة يطلق عليهما اسم الحضارة القديمة والحضارة الأرذوكسية المسيحية .
(المؤلف)

(١) يطلق على حركة البعث الإيطالية اصطلاح Risorgimento وتعنى أساساً قيام الشعوب
الإيطالية ضد السيطرة النموية وأسفر ذلك عن كل توحيد إيطاليا عام ١٨٧٠ . (المترجم)

طريقها نضجت حركة البعث الإيطالية ، لم تنهض على أساس إيطالى سبق له فى القرون الوسطى أن استولد محصولا للثقافة الإيطالية .

فى الميدان الاقتصادى مثلا : لم تكن البندقية أو جنوا أو بيزا ، الميناء الإيطالية الأولى التى فازت لنفسها محصة من التجارة البحرية الغربية الحديثة ، بل كانت ليفورنو التى خلقها غراندوق توسكانيا بعد عصر النهضة ، وأقام هناك مستعمرة ضمت أخلاطاً من اليهود المهاجرين من اسبانيا والبرتغال . ورغم أن نشوء ليفورنو فى نطاق بضعة أميال من بيزا فكان أولئك المهاجرون الأقوياء من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، هم الذين كونوا ثروات ليفورنو ؛ لا الخلف المسترخين لبحارة بيزا المعروفين إبان القرون الوسطى .

وبالنسبة للميدان السياسى : يعتبر توحيد إيطاليا متأثرة لولاية أصلها من وراء الألب ، لم يكن لها قبل القرن الحادى عشر مركز ثابت على الجانب الإيطالى من الألب وراء منطقة « فال داوستا Val d'Aosta التى تتكلم بالفرنسية . ولم يهدأ بال لمركز ثقل بيت سافوى على الجانب الآخر من الألب فى نهاية الأمر ، إلا بعد ما زالت على التابع حرية دول المدن الإيطالية وعبرية النهضة الإيطالية . ولم يقيض لأية مدينة إيطالية ممن كانت من الطبقة الأولى إبان العصر الكبير ، أن تصبح ضمن أملاك ملك سردينيا ، باعتباره حاكم أملاك بيت سافوى - كما كان يلقب - حتى وقت الاستعجاذ على جنوا بعد نهاية الحروب النابليونية . وكان طابع بيت سافوى ما يزال فى ذلك العهد غريباً على تقاليد المدينة ، حتى دأب أهالى جنوا على السخرية منه وهم فى ظل حكم صاحب الجلالة ملك سردينيا . وظل الحال كذلك حتى جاء عام ١٨٤٨ ، ففازت الأسرة المالكة بأتباع لها فى جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية بفضل وضعها نفسها على رأس الحركة الوطنية .

فى سنة ١٨٤٨ تهدد الحكم النمساوى فى لومباردى والبندقية على التوالى بغزوة قسمين من بيدمونت وبثورات فى البندقية وميلان والمدن الإيطالية .

الأخرى الداخلة في نطاق الأقاليم الإيطالية : ومن اللطيف أن نتأمل في اختلاف الأهمية التاريخية لهاتين الحركتين المناهضتين للنمسا اللتين حدثتا في نفس الوقت ، واللّتين يصوران كلاهما على اعتبار أنهما ضربتان سدّدتا في سبيل قضية التحرير الإيطالي المشتركة .

ولا ريب أن انتفاضتي البندقية وميلان بمثابة ضربات سُدّدت في سبيل الحرية ، لكن تمثل وحى الحرية الذي ألهم المدينتين ، في استعادة ماضى القرون الوسطى . فكانت هاتان المدينتان - من ناحية الجوهر - تستأنفان صراعهما ضد الهوهنشتاوفن ^(١) Hohenstanstanfen إبان القرون الوسطى . فإن قورن إخفاقهما الذي يتسم بالبسالة بلا جدال ، يالعمل الجريء الذي أنجزه أهالي بيدموند إبان ١٨٤٨/٤٩ ، فإن نجاح بيدمونت لا يعتبر مجلبة للفخر . فلقد عوقب البيدهونتيون على استهتارهم في انتهاك هدنة إقامت على أساس من التبصر ، بهزيمة نوفارا الفاضحة .

بيد أن العار الذي ببيدمونت بسبب هزيمتها ، كان على إيطاليا ، نقمة أعظم من دفاع البندقية وميلان الرائع ، إذ قد عاش جيش بيدمونت ليكفل انتقامه (بمساعدة خطيرة جداً أسداها الفرنسيون) في موقعة ماجينتا Magenta بعد هزيمتها تلك بعشر سنوات . فكان أن أصبح الدستور البرلماني ذو المظهر الإنجليزى الطريف والذي أصدره الملك شارل ألبرت عام ١٨٤٨ ، دستور إيطاليا الموحدة عام ١٨٦٠ .

ومن الناحية الأخرى لم تكرر ميلان والبندقية بعد ذلك ، تلك الأعمال الباهرة المحيطة التي أنجزتها عام ١٨٤٨ . ومن ثمت بقيت هاتان المدينتان

(١) بيت من الأمراء الألمان ، كان أفراد أباطرة أو ملوكاً لألمانيا خلال الفترة ١١٣٨ - ١٢٥٤ وكان أول عمدها هذا البيت فردريك فون بورين الذي مات في نهاية القرن الحادى عشر ، وأبنتى ابنه فردريك قلعة بمدينة Hohenstanfen وكان أن أطلق على نفسه هذا اللقب الذى تورأته عائلته . وأشهر أباطرة هذا البيت « الإمبراطور فردريك بارباروسا » .
(الترجم)

القديمتان في وضع سلبي في ظل الحكم النموسى الذى أعيد فرضه عليهما ولم يتيسر كفالة حريتها ، إلا بفضل جيوش بيدمونت وديبلوماسيتها .

ولعل مناط تفسير هذه الأوجه المتعارضة ، فشل مآثر البندقية وميلان : فإن القومية الحديثة لم تكن هي روح القوة الدافعة ، بل تجلّى الدافع في افتتان المدينتين بذاتيهما القانية . وأساسها مجدهما لما كانتا دولتين ، إبان القرون الوسطى : ومصدقا لذلك كان أهالى البندقية يقاتلون في سبيل استعادة جمهورية البندقية المطلقة . وقتما استجابوا لنداء مانين Manin عام ١٨٤٨ لا ليشاركوا في خلق إيطاليا المتحدة . أما أهالى بيدمونت - من الناحية الأخرى - فلم يكن ثمة ما يغريهم بالافتتان بذاتيتهم القانية ، إذ لم يزودهم ماضهم بالذاتية ، التى تجعلها موضع افتتان .

ويتبلور الاختلاف بين البندقية وبيدمونت ، في تباين شخصيتي مانين^(١) وكافور . فإن مانين بندقى بلا جدال ، لن يجد نفسه غريباً لو ظهر إبان القرن الرابع عشر . في حين لو قيض لكافور بلغتسه الفرنسية الأصيلة وطابعه الفيكتورى ، الظهور في دولة من الدول الإيطالية في القرن الخامس عشر ، لبدأ في هذا الوسط غريباً غاية الغرابة . ومثله في ذلك الشأن مثل معاصريه في البلاد الواقعة وراء الآلب : بيل^(٢) وتير^(٣) . وكان يحتمل أن تتجه مواهب كافور إلى الاشتغال بالسياسات البرلمانية والديبلوماسية ، وينصرف اهتمامه إلى الزراعة وبناء السكك الحديدية ، لو كان القدر قد جعل منه مالكا في إنجلترا أو فرنسا إبان القرن التاسع عشر ؛ عوضاً عن إيطاليا في نفس العصر .

(١) كان دانييل مانين (١٨٠٤ - ١٨٥٧) وقت نشوب ثورة ١٨٤٨ رئيساً لجمهورية البندقية ولقد أصبح منذ عام ١٨٣١ زعيماً معترفاً به للرأى العام الحرى البندقية . وكان الروح المشجعة لجميع سكان البندقية إبان دفاعهم الباسل عن المدينة طوال أربعة شهور تجاه حصار جيش النمسا ولما نجح النمسيون في الاستيلاء على المدينة طردوه منها فذهب إلى باريس حيث توفي عام ١٨٥٧ . (المترجم)

(٢) السير روبرت بيل سياسى انجليزى (١٧٨٨ - ١٨٥٠) . (المترجم)

(٣) لويس تير (١٧٩٧ - ١٨٧٧) سياسى فرنسى ومؤرخ . (المترجم)

ويتبين من هذا العرض ، أن دور نهضة ١٨٤٨/٩ في خدمة البعث الإيطالي ، كان سليماً في جوهره . ويعتبر إخفاق هذا الدور ، شيئاً ثميناً وتقدمة ضرورية في الواقع ، لكفالة أسباب النجاح إبان الفترة ١٨٥٩/١٨٧٠ .

ولقد دُكت في عام ١٨٤٨ قواعد الأوثان القديمة التي كانت شائعة في ميلان والبندقية إبان العصور الوسطى . وامتحت ، إلى درجة فقدت معها في نهاية الأمر سيطرتها القتالة على نفوس عابدها^(١) . وترتب عن إزالة الماضي الذي كان يعرقل التقدم ، أن مهّدت الأرض لتشييد قيادة دولة إيطالية واجدة ؛ لم تكن لتعرقل جهودها ذكريات القرون الوسطى .

٥ - كارولينا الجنوبية :

سنجد في تاريخ الولايات المتحدة إن وسّعنا مدى استعراضنا من العالم القديم إلى الحديث ، تفسيراً مماثلاً لآفة الإبداع .

فإذا عقدنا دراسة مقارنة لتواريخ الولايات المختلفة « للجنوب القديم » خلال فترة ما بعد الحرب ؛ تلك الولايات التي كانت أعضاء في « التحالف » خلال الحرب الأهلية (١٨٦١/١٨٦٥) وشاركت التحالف هزيمته ؛ نلاحظ اختلافاً مميزاً يدور حول مدى انتعاشها من النكبة المشتركة منذ ذلك الحين . وسنلاحظ أن الاختلاف - وهو على خط مستقيم اختلاف مماثل وذو طابع خاص بحت - قد ميز نفس الولايات إبان الفترة التي سبقت الحرب الأهلية : ففي وسع المراقب الأجنبي الذي تُقيّض له زيارة الجنوب القديم في العقد الخامس من القرن العشرين ، أن يتخير فرجينيا وكارولينا الجنوبية . هنا يتبين أنهما لا تحتويان على أضعف علامة الانتعاش أو بشائره . وسيددهشه أن يجد آثار هذه الكارثة الاجتماعية قد امتدت الزمن الطويل الذي امتدت ؛ حتى مع تسليمه بفداحتها .

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بالأوثان في هذه العبارة ، تثبيت الإيطاليين بالسيادة الإقليمية للندن التي يتمتعون إليها مثل ميلان وجنوا والبندقية . (المترجم)

وما تزال نكبة الحرب الأهلية حية في أذهان الجيل الحاضر في تلك الولايات ، كما لو كانت الضربة قد حلت بهم بالأمس القريب . فلا بدع أن تعني كلمة الحرب على شفاه الكثيرين من أهالي فرجينيا وكارولينا الجنوبية . . الحرب الأهلية ؛ رغماً عن نشوب حربين رهيبتين منذ ذلك الحين . وفي الواقع تعرض فرجينيا أو كارولينا الجنوبية في غضون القرن العشرين ، صورة ذهنية مؤلمة عن بلد وقفت فيه حركة الزمن بفعل ساحر .

وتعظم هذه الصورة في أذهاننا بزيارة الولاية الواقعة بين الولايتين ، إذ تغايرها تماماً . إذ سيجد الزائر في كارولينا الشمالية صناعات على أحدث طراز ، وجامعات في كل مكان ونسمة اندفاع وروحا دافعة تذكر الإنسان عادة بأمريكا الشمال . وسيجد الزائر بالإضافة إلى رجال صناعاتها النشطين الموفقين ، أن كارولينا الشمالية قد أنجبت خلال القرن العشرين سياسياً من طراز والتر بيج Walter Pige وودورس .

فا الذي يفسر رذاذ الربيع الذي يُزهر الحياة في كارولينا الشمالية ، في حين أن حياة جارتها ما تزال تذبل في « شتاء » من السخط يبس أن لانهائية له ؟

إذ ما ولينا وجهنا في سبيل الاستنارة شطر الماضي ، فإن حيرتنا تزداد إلى حين . إذ نلاحظ أن كارولينا الشمالية كانت حتى اندلاع الحرب الأهلية ، بلداً كالحا من الوجهة الاجتماعية . في حين كانت فرجينيا وكارولينا الجنوبية تنعمان بفترات من الحيوية الاستثنائية . فلقد كانت فرجينيا في غضون الأربعين سنة الأولى من تاريخ الاتحاد الأمريكي ، قائدة الاتحاد بلا جدال ، بفضل إنجازها رؤساء الجمهورية الخمسة الأولين ، وإنجازها كذلك جون مارشال الذي واءم أكثر من أي فرد آخر ؛ بين غوامض الميثاق الذي أقامه « عهد فيلادلفيا » وبين حقائق الحياة الأمريكية . ولولاه لبقى الميثاق قصاصة ورق . وإذا كانت فرجينيا قد تخلفت بعد عام ١٨٢٥ ، فإن

كارولينا الجنوبية تحت زعامة كالمون Calhun قد وجهت الولايات الجنوبية إلى المحررى الذى عانت فيه الهلاك إبان الحرب الأهلية .

وقلما كان يُسمع عن كارولينا الشمالية فى غضون هذا الوقت كله : فإن أرضها فقيرة وليست بها موانى . وقد انحدرت غالبية مزارعيها الصغار المعدمين من خشاش المهاجرين الذين فشلوا فى اكتساب شىء ، سواء فى فرجينيا أو فى كارولينا الجنوبية ؛ ولا تمكن مقارنتهم بالسادة من فرجينيا أو مزارعى القطن فى كارولينا الجنوبية .

ويتيسر تفسير إخفاق كارولينا الشمالية فى بداية الأمر ، بالمقارنة بجارتها على كلا الجانبين . لكن ماذا يقال عن إخفاقها التالى ثم نجاحها الذى تلا ذلك ؟

التفسير أن كارولينا الشمالية مثل بيدمونت ، لم يحتجزها هيامها بماض عريق سابق . ولم تفقد سوى القليل نسبياً بهزيمتها فى الحرب الشمالية ، إذ لم يكن لديها سوى القليل نسبياً لتخسره . ولما كان انحدارها أقل مدى ، عظمت عندها فرص الانتعاش من الصدمة :

٦ - ضوء جديد على المشكلات القديمة :

تُبدى هذه الأمثلة عن آفة الإبداع - فى ضوء جديد - ظاهرة استلقت نظرنا خلال جزء سابق من هذه الدراسة ، أطلقنا عليه « استئثار الأرض الجديدة » . فلقد عادت هذه الأمثلة إلى الظهور فى الأمثلة الآتفة الذكر :

١ - الجليليون والأميون بالمقارنة بأهالى يهوذا :

٢ - بيدمونت بالمقارنة بميلان والبندقية .

٣ - كارولينا الشمالية بالمقارنة بجارتها فى الشمال والجنوب .

ولو تابعنا نفس الاستقصاء فى حالة أثينا لأتيج لنا التدليل على أن يوناني القرن الثالث والثانى قبل الميلاد ؛ قد بلغوا فى آشايا Achaia - لافى آتيكا -

أقرب نقطة لحل مشكلتهم المزممة عن توحيد مدنهم : فبدلوا محاولة عقيمة دفعهم إليها رغبتهم في المحافظة على استقلالهم ضد الدول الكبرى المحدثه ، التي ظهرت على مشارف العالم الهليني المترامى الأطراف :
وفي استطاعتنا الآن أن ندرك أن الحصوبة الرفيعة للأرض الحديدية ، لا ترجع بشكل راسخ أو بكليتها ، إلى استثارة محنة تحطيم الأرض البكر : ونستدل على نزوع الأرض الحديدية ، إلى الأثمار بسبب سلبي وإيجابي معاً ميناه التحرر من كابوس التقاليد والذكريات التي يتعذر إبادتها ، وإن لم تعد بذات نفع : ويمكن أن ندرك كذلك سبب ظاهرة اجتماعية أخرى - نزوع الأقلية المبدعة إلى التحول إلى أقلية مهيمنة - التي عرضنا لها في مسهل هذه الدراسة . باعتبارها ظاهرة بارزة للانهايار والانحلال الاجتماعيين : وعلى حين لا يقدر للأقلية المبدعة إطلاقاً أن تتجاوز هذا التغير متجهة إلى حالة أسوأ ، فإن المبدع يميل بفطرته بكل تأكيد في هذا الاتجاه من النزعة الابتداعية : فإن محنة الإبداع التي - عند ما تبرز - إلى الحركة منذ البداية ، تثمر ثمرة ناجحة لتخدي ، يصبح بدوره تحدياً فذا هائلاً للمتقبل ، الذي حول هذه الموهبة إلى أجسن شأن .

(٤) آفة الإبداع

عبادة نظام فان

١ - المدينة الهلينية :

لكي ندرس الدور الذي قامت به عبادة هذا النظام في انهيار المجتمع الهليني وانحلاله - وهو مجتمع اتسم بنجاحه الساطع في نطاق حدوده الأصلية ، لكنه لم يتعد في نفس الوقت كونه شيئاً فانياً كجميع المخلوقات البشرية - علينا أن نميز بين موقفين مختلفين حيث يقف الوثن المعبود عقبة في سبيل حل مشكلة اجتماعية .

الأول : ويمثل أولى المشكلتين وأخطرهما . وقد فحصنا هذا الموقف

قبل الآن في موضع آخر فيصبح في وسعنا الآن من ثم أن نرفضه باختصار .
فإن ما دعوانه بالثورة الاقتصادية الصولونية تطلب - كرفع ملحق به - شيئاً
من التوحيد السياسى للعالم الهلنئى . ولقد باءت محاولة أثينا لتحقيق ذلك
الاتحاد بالفشل ، وترتب عنها ما شخّصناه على أنه انهيار المجتمع الأثينئى .
وواضح أن علة هذا الفشل تتمثل فى العجز الذى أبداه المعنيون بالأمر حيال
التغلب على عقبة مبدأ سيادة المدينة .

الثانى : ويمثل المشكلة الثانوية ، عكس الأولى التى تعتبر مركزية لا فكاك
منها . وتنجم عن سعى الأقلية الهلينية المسيطرة . وبينما تُركت المشكلة
الأولى بدون حل أقبلت الثانية تسير على عقبيها ، وقما اجتاز التاريخ الهلنئى
فصله الثانئ إلى الثالث فى دوران القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد .

ولقد كانت علامة هذا التحول الرئيسية الظاهرة ، زيادة مفاجئة فى
ميزان الحياة الهلينية المادئ . وذلك أنه امتد صوب البر ، عالم بحرى انحصر
حتى هذا الوقت فى شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط ، من المضيقين^(١)
إلى الهند ، ومن جبال أولمب والايينين إلى نهري الدانوب والراين .
وتعتبر سيادة المدينة شيئاً هزئلاً فى مجتمع تضخم إلى هذه الأبعاد دون أن
يحل المشكلة الروحية المتصلة بإيجاد القانون والنظام بين الدول التى يربط
بها ، بحيث لم تعد هذه السيادة وحدة عملية للحياة السياسية .

وكان هذا فى حد ذاته سوء حظ مطلق . وحقاً فإن عبور هذا التقليد
هلنئى من السيادة الإقليمية ، قد كان يؤخذ على أنه فرصة أرسلتها السماء
للتخلص من كابوس السيادة الإقليمية ، جملة . ولو كان الإسكندر قد عاش
حتى يتحد بتعاليمه مع زنو Zeno وأبيقور Epicurus^(٢) ، لأمكن تصور
احتمال نجاح الهلنئيين فى الخروج تواء من المدينة إلى النظام الأسمى . فإن

(١) أى ضيقا الدردنيل والبسفور . (المترجم)

(٢) ذلك لأن الفلسفة الرواقية عالمية الطابع ، وتتفق مع دولة الإسكندر العالمية .

(المترجم)

كان قد تم ذلك ، لاحتفد المجتمع الهليني فترة جديدة من الحياة المبدعة . لكن موت الإسكندر قبل الأوان ، قد خلف العالم تحت رحمة خلفائه : فبقى نظام السيادة الإقليمية في غضون ذلك العصر الحديد الذي افتتحه الإسكندر . بقيت يفعل المنافسات المشوبة الأوارلسادة الحرب المقدونيين . بيد أنه كان في الوسع إنفاذ السيادة الإقليمية — في ظل المرتبة المادية الجديدة التي بلغت الحياة الهلينية — بتوافر شرط واحد فقط ، مداره ضرورة أن تفسح المدينة صاحبة السيادة ، الطريق لدول جديدة من عيار أعلى .

ولقد ذاع أمر هذه الدول الجديدة . بيد أن عددها هبط بغتة من الجمع إلى المفرد ، نتيجة لسلسلة من الضربات القاضية التي كالتها روما إلى جميع منافسيها بين عامي ٢١٠ و ١٦٨ ق . م ، وبالخرى ألتي المجتمع الهليني الذي فاته فرصة التوحيد الاختياري لنفسه بنفسه ، مثبتة أجزاؤه بعضها إلى البعض الآخر بروابط دولة عالمية .

على أن النقطة الجديدة بالاهتمام لتحقيق غايتنا الحالية ، مبنائها أن الاستجابة الرومانية للتحدى الذي دخر أثينا البركلية^(١) وكافة الإمدادات التمهيدية التي قدمتها الأيدي الأخرى في سبيل تكوين أثينا في هذا العصر ، كانت من صنع أعضاء في المجتمع الهليني لم يكونوا قد فتنهم تماماً ، عبادة المدينة ذات السيادة :

وكان تركيب الدولة الرومانية ، شيئاً يناقض مثل هذه العبادة من أساسه . إذ كانت « ثنائية الرغوية » هي مدار هذا الأساس التركيبي الذي يوزع ولاء المواطن بين دولة المدينة المحلية التي ولد فيها ، وبين نظام الدولة الواسعة النطاق ، كما أقامته روما .

ولقد تأتى تحقيق الحل الوسط الإبداعى من الناحية النفسانية وحدها ؛ في المجتمعات التي يبلغ بها الاقتتان بنظام المدينة ، درجة تصبح معها بمثابة المسكة الخائقة على قلوب المواطنين وعقولهم :

(١) نسبة إلى بركليس ، ويعتبر عصره أزمى عصور أثينا . (المترجم)

ولا تحتاج المطابقة هنا بين مشكلة السيادة الإقليمية في العالم الملمنى والمشكلة التي تقابلها في عالمنا الحاضر ، إلى تأكيد . بيد أن هذا الكثير يمكن قوله : ولعلنا نتوقع من خلال استعراض التاريخ الملمنى ، أن تتلقى المشكلة الغربية الحاضرة حلها - من ناحية تلقى حلا على أية حال - في ناحية من النواحي التي لم يشهد فيها نظام الدولة القومية ، لتصبح هدفا للعبادة الوثنية : ولن نتوقع أن يطالعنا الخلاص من دول أوروبا الغربية القومية ؛ حيث ترتبط كل فكرة وشعور سياسيين بالسيادة الإقليمية التي يتحدث رمزاً معترفاً به لماض مجيد : ولا يستطيع المجتمع الغربى في هذه البيئة ذات النفسية « اللاحقة » (١) ، أن يتطلع إلى الأمام لتهيئة الكشف الأساسى لنوع من شكل جديد من المشاركة الدولية التي سوف تُخضع السيادة الإقليمية لنظام من قانون أسمى . وعندئذ يتأتى لها أن تصور بطريقة أخرى ، الكارثة التي لا مفر من وقوعها والتي ينجم عنها زوال ذلك الضرب من السيادة ، بضربة قاضية : فإذا قيَّض إنجاز هذا الكشف ، يقسم معمل الاختبار السياسى - حيث قد نتوقع أن نراه في صورة مادية قوامها هيئة سياسية تشابه مجموعة الأمم البريطانية التي جمعت تجربة الدولة القومية الأوروبية التقليدية - بالمرونة التي تتصف بها عدة من البلاد الجديدة فيما وراء البحار . أو قد تتطور إلى نظام يشابه الاتحاد السوفيتى الذى يعمل على تنظيم عدد من الشعوب الغير الأوروبية في ضرب من الجماعة ، جديد كل الحدة ، يقوم على فكرة ثورية غربية . ولقد نعثر في الاتحاد السوفيتى على مطابقة للإمبراطورية السلوقية ، كما نعثر في الإمبراطورية البريطانية على مجانسة للكونولث الرومانى .

(١) في الأصل « اللابيثية » نسبة إلى Epimetheus . وتنتع الأساطير اليونانية بأن رجل بعد ضياع الفرصة ، وتذكر أنه كان أخو بروميتيوس Prometheus (رجل القبصر) ولقد عهد إليه زيوس كبير الأرباب اليونانيين بالإشراف على « بانديرا » التي تعتبر سبب جميع الأمراض والآلام التي تحمل بالبشر ، لكنه أخفق في مهمته . (المترجم)

فهل سيقبض لهذه النظم السياسية وما يشابهها التي تقع على أطراف العالم الغربي الجديد ، أن تبرز في النهاية شكلاً ما من التنظيم السياسي يساعد الغربيين على بذل مزيد من القوة - قبل أن يفلت الزمام - إلى تنظيمهم الدولي الناقص الذي يرون مرة أخرى إلى بنائه مكان محاولتهم الأولى بين الحريين والتي تمثلت في عصبة الأمم ؟

لا نستطيع أن نقرر شيئاً . على أننا نشعر شعوراً قريباً من التأكيد ، أنه لو أحقق هؤلاء الرواد ، فلن يتولى إنجاز هذا العمل بأية حال ، المغالون في التعصب لوثن السيادة القومية .

٢ - الإمبراطورية الرومانية الشرقية :

يعتبر افتتان المسيحية الأرثوذكسية القتال بشيخ الإمبراطورية الرومانية ، حالة تقليدية للكثف بنظام يدفع أحد المجتمعات إلى كارثة . فإن هذا النظام قد أنجز وظيفته التاريخية واستكمل دورة حياته الطبيعية ، بتأديته وظيفة الدولة العالمية لمجتمع خلف المجتمع الهليني .

وتتبع الإمبراطورية الرومانية الشرقية من الناحية السطحية ؛ مظهر الدوام المتصل ، لنظام واحد فرد ، منذ إنشاء قسطنطين للقسطنطينية ، حتى غزو الأتراك العثمانيين المدينة الإمبراطورية عام ١٤٥٣ ميلادية . أى طوال نيف وأحد عشر قرناً ، أو على الأقل حتى طرد الصليبيين اللاتين الحكومة الرومانية الشرقية الإمبراطورية طرداً مؤقتاً واستيلائهم على القسطنطينية عام ١٢٠٤ .

ولكى يتفق هذا القول مع الحقائق ، يجب التمييز بين نظامين مختلفين ، يعزل أحدهما عن الآخر فراغ يتخللهما .

النظام الأول - الإمبراطورية الرومانية الغربية الأصلية التي قامت بدور الدولة العالمية الهلينية التي انقضت أجلها بصفة فعلية دون نزاع ، خلال العصور المظلمة ، عند دوران - القرنين الرابع والخامس قبل

الميلاد ، وبصفة رسمية عام ٤٧٦ ميلادية ، وقتما خلع أحد سادة الحرب من البرابرة الإمبراطورية ، الإمبراطور الألوبة من على عرشه ، وأخذ السيد الجليدي يمارس سلطانه تحت اسم إمبراطور القسطنطينية .

النظام الثاني - الإمبراطورية الرومانية الشرقية الأصلية ، وقد لا يتيسر الاعتراف توا بمداهمتها نفس المصير الذي داهم الإمبراطورية الغربية قبل أن تنقضى العصور المظلمة . وقد يتوازي اضمحلالها ، مع نهاية حكم جوستينيان في النشيط المحرب في عام ٥٦٥ ميلادية . ولقد تلاه في الشرق ، قرن ونصف قرن من الفراغ . ولا نغني بذلك انتفاء وجود أشخاص يلعبون بالأباطرة الرومانيين ، يحكمون أو يحاولون الحكم من القسطنطينية إبان تلك الفترة . ولكننا نشير إلى عصر من الانحلال وتفريخ الجرائم ، فيه أزيلت بقايا مجتمع ميت ووضعت أسس مجتمع وريث له . وعلى أساس هذه القراءة للفصل الأول من تاريخ المسيحية الشرقية ؛ يعتبر ليوسيروس بمثابة شارلمان ناجح نجاحاً محزناً ، أو أن شارلمان - على العكس - كان ليوسيروس خاسراً وذلك « بتوفيق من الله » !!

وعلى أية حال فقد تم في النصف الأول من القرن الثامن ، استحضار شيخ الإمبراطورية الرومانية الميتة بفضل عبقرية ليوسيروس .

ولقد هياً إخفاق شارلمان ، متسعا للكنيسة المسيحية الغربية ولخشد من الدول الغربية الإقليمية ، لتتطور في غضون القرون الوسطى وفقاً للمنهج المؤلف لنا . في حين أتاح نجاح ليو ، التضاق الصورة الضيقة لدولة عالمية معادة إلى الحياة فوق الكيان الاجتماعي للمسيحية الأرثوذكسية ، قبل أن يتعلم هذا المجتمع الوليد كيفية استخدامه أطرافه بصورة أولية .

بيد أن هذا التباين في النتيجة ، لا يعكس أى اختلاف في الغرض . لأن شارلمان وليو كليهما كانا ، من التابعين الرواقسيين عباد ذات النظام الفائق المطلق .

فكيف نفهم تفوق المسيحية الأرثوذكسية على الغرب في النظم السياسية تفوقاً ضاراً ، بسبب تبكيره ؟

لاشك أن أحد الأسباب الهامة ، كان الضغط الشديد الذي تعرضت له في وقت واحد كلتا المسيحتين ، متمثلاً في عبوان المسلمين . فإن العرب في هجومهم على الغرب البعيد ، قد رشقوا سهامهم فاستردوا للمجتمع السوري أملاكه الاستعمارية المفقودة في شمال أفريقيا وأسبانيا . فلما استكملوا ذلك ، عبروا جبال البرانس وطفقوا يكيلون الضربات للمجتمع الغربي الوليد . بيد أن قوة هجومهم استنفذت ، ومن ثم فإنه عندما حملتهم خيولهم حول أطراف الأبيض المتوسط إلى مدينة تور في مواجهة سياج من الدروع أقامته أوستراشيا ، انحرفت طعنهم عن هدفها الصلد دون أن تحدث ضرراً .

ولقد كان هذا النصر السلبي على مغير مُهك ، كافياً لتقرير مقادير الأسرة الاستراشية الملكية . إذ أضفى انتصار تور عام ٧٣٢ ميلادية ، اعتباراً على استراشيا^(١) ميزها كزعيمة بين الدول الأصلية في المسيحية الغربية . وإذا كان ضغط الصلب العربي الضعيف نسبياً الذي لم يزد عن وميض بَرَقٍ وزال ، قد أتاح للكارولنجيين ما أتاح ؛ فلا يستغرب أن يظهر إلى الوجود كيان الإمبراطورية الرومانية الراسخ ، في المسيحية الأرثوذكسية ، ليقاوم الهجوم الأشد عنفاً والأطول مكابدة ، الذي شنه نفس المهاجم على المسيحية الأرثوذكسية .

ولهذا السبب ولأسباب أخرى^(٢) نجح ليوسيدوس وخلفاؤه في بلوغ

(١) استراشيا : هي القسم الشرق من ملكة الفرنجة . وكانت تتضمن بلجيكا واللورين وفرنسا من الراين . وكانت عاصمتها مدينة Metz . وقد تأسست استراشيا عام ٥١١ ميلادية وحكمها حتى القرن الثامن ملوك الميروفنجيين . ثم اندمجت في ألمانيا بعد موت شارلمان .

(المترجم)

(٢) هاليج المستر توينبى في مؤلفه الأصل موضوع الإمبراطورية الرومانية الشرقية بإسهاب أكثر وبإحكام أعظم مما كتبه في أية دراسة تاريخية سابقة . انظر الجزء الرابع صفحات ٣٢٠ - ٤٠٨ . (المختصر)

هدف لم يقترب شارلمان أو أوتو أو هنرى الثالث ، منه أبدا ؛ حتى مع موافقة البابا .

ولم يوفق في إدراك هذا الهدف - من باب أولى - الأباطرة اللاحقون الذين عارضوا ليوسيدوس . فلقد أحال الأباطرة الشرقيون في البلاد الخاضعة لسلطانهم ، الكنيسة إلى إدارة من إدارات الدولة ، وحوّلوا البطريك المسكونى إلى نوع من وكيل وزارة للشئون الدينية . وهكذا استعادوا العلاقة بين الكنيسة والدولة ، تلك العلاقة التى سبقت لقسطنطين إقامتها ، وحافظ خلفاؤه حتى جوستينيان عليها .

واتخذ تأثير استعادة العلاقة بين الكنيسة ودولة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، سيلين ؛ الأول عام والآخر خاص :

السييل العام : تجلّت فيه النتيجة العامة ومدارها الحدّ من النزعات صوب ؛ النوع ، والمرونة ، والتجريب ، والإبداع . ووفيه أصيبت إصابة حياة المسيحية الأرثوذكسية بالعمق . ويمكننا - بصفة عامة - بيان ما حل بالمسيحية الأرثوذكسية من أضرار بملاحظة بعض الأعمال المشهورة التى أنجزتها الحضارة الغربية ولا نظيرها فى شقيقتها الحضارة الأرثوذكسية . إذ لا يقتصر الأمر فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية على انتفاء ما يطابق بابوية هيلدبراند ، بل إننا نفتقد فى هذا التاريخ ، ظهور وانتشار الجامعات التى تدير شئونها ذاتياً ، والمدن التى تستقل بحكم نفسها .

السييل الخاص : تجلّت فيه النتيجة الخاصة ؛ ومدارها إصرار الحكومة الأمبراطورية التى أعيد تشييدها ؛ على أساس من عدم الرضا بقيام الدول « البربرية » المستقلة ، فى نطاق المساحة التى شملت الحضارة التى تمثلها تلك الحكومة . فكان أن قاد هذا التعنت السياسى إلى نشوب الحروب الرومانية البلغارية إبان القرن العاشر . ورغمما عن انتصار الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى الظاهر ، إلا أنها كابدت ضرراً لا يداوى . إذ انبنى على تلك

الحروب - كما سبق أن أشرنا في موضع آخر - انهار المجتمع المسيحى الأرثوذكسى .

٣ - الملوك والمجالس البرلمانية والبيروقراطيات (١)

مهما يكن من أمر نوع الدول : دول مدن أو إمبراطوريات ، فإنها ليست النوع الوحيد للتنظيم السياسى الذى افتتن به عبّاد الأوثان . فلقد انبثق عن المغالاة فى تكريم التنظيم السياسى ؛ قوة حاكمة قوامها إما ملك مؤلّة أو برلمان قادر على كل شيء . والمثل يقال عن ظهور نوع من الطائفة أو الطبقة أو المهنة التى قدّر أن يتوقف مصير الدولة على مهارتها وإقدامها .

ويطالعنا فى هذا المجال المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة ، فى إنسان بشرى (٢) . ولقد لاحظنا قبل الآن فى موضع آخر ، أن تقبّل حكام المملكة المصرية المتحدة مراتب الشرف الإلهية - واغتصابها - يعتبر عرضاً من أعراض « إنكار جسيم » لنداء رسالة أسمى (٣) . وهذا معناه فشل المجتمع المصرى للتحدى الثانى فى التاريخ المصرى . وهو فشل قاد إلى انهيار الحضارة المصرية مبكراً ، وإلى التعجيل بنهاية شبابه المبادر بالنضوج : ويتمثل العبء الساحق الذى فرضته هذه السلسلة من الأوثان البشرية (٤) على الحياة المصرية ، فى الأهرامات التى أقيمت بفضل تسخير عمل رعاياها بغية منح الخلود والمجد على بناء الأهرام ، وهكذا وجّهت المهارة الفنية والعمل ورأس المال توجّهاً سيئاً صوب هذا المجرى الوثنى ؛ عوضاً عن تكريسها نحو مزيد من السيطرة على البيئة الطبيعية فى سبيل مصالح المجتمع بأسره .

(١) يقصد بالبيروقراطية : تركيز السلطات فى الهيئة الإدارية . (المترجم)

(٢) هو الفرعون . (المترجم)

(٣) هى رسالة أختاتون (الأميرة الثامنة عشرة) . (المترجم)

(٤) يقصد المؤلف « القرعنة » وكان المصريون القدماء يؤفونهم . (المترجم)

وتعتبر وثيقة السيادة السياسية هذه ، التي تتجسد في شخص أحد البشر ، ضلالا لا يعبر تصويره كذلك في مكان آخر . فاننا إن بحثنا عن حالة مماثلة في التاريخ الغربي الحديث ، لأمكننا العثور على صيغة « الابن الملكي لرع »^(١) في صيغة فرنسية مبتذلة هي « الملك الشمس لويس الرابع عشر » . ولقد أناخ بناء قصر هذا الملك الشمس الغربي في فرساي بكلكله على أرض فرنسا ؛ مثلما أناخت أهرامات الجيزة بكلكلها على أرض مصر . ولعل خوفوقد نفوة بعبارة « الدولة أنا » ، كما قد يكون يبني الثاني قد تفوه بعبارة « بعدى الطوقان »^(٢) .

ولكن لعل أطرف مثال لوثنية سلطان السيادة يتيحه العالم الغربي ؛ هو ما يعجز الحكم التاريخي - مع ذلك - عن الإعلان عنه . هذا المثال هو تأليه « أم البرلمانات » في وستمنستر^(٣) . فإن هدف الوثنية السياسية بس رجلا ، بل إنه هيئة . بيد أنه أمكن حصر الوثنية البرلمانية هذه في حدود معقولة بفضل تعاون ما هو مأثور عن اللجان من ملل عضال ؛ مع مبدأ الأمر الواقع المأثور عن التقاليد الإنجليزية الحديثة . والواقع يحق رجل الإنجليزى الذى كان يتطلع إلى العالم عام ١٩٣٨ ، أن يدعى بأن هذا إخلاص المعتدل لرؤيته السياسية الخاصة به ، قد أجدى عليه بشكل ز . ألم يكن بلده الذى احتفظ بولائه « لأم البرلمانات » أسعد حالا ن جيرانه من البلاد الأخرى التى تبعت أربابا أخرى ؟ هل وجدت قبائل

(١) من ألقاب فرعون مصر . (المترجم)

(٢) العبارة الأولى مأثورة عن لويس الرابع عشر ؛ والثانية عن لويس الخامس عشر . شبه المؤلف هنا عصر خوفو (الأسرة الرابعة) بعصر لويس الخامس عشر . والواقع أنه لمت بعد عصر بيبسى الثاني (الأسرة السادسة) ثورة اجتماعية عارمة ، مثلما حدثت الثورة

نسبة بعد لويس الخامس عشر . (المترجم)

(٣) أى البرلمان البريطانى . (المترجم)

القارة العشر الراحية^(١) أو الهناء في ظل تأليهها البارزين من أمثال اللوثشى أو القوهور أو القوميسير^(٢) . ورغم ذلك فإن على الفرد الإنجليزي أن يسلم بأن ما انبثق حديثاً في القارة الأوربية من وثنية سيادة الفرد التي كانت شائعة قديماً ، قد أثبت أنه ذرية مريضة ، غير كفء لتهيئة الخلاص السياسى للأكثرية غير البريطانية في جيل البشرية المعاصر ، وعاجزة عن المحافظة على كيائها في وجه طاعون الديكتاتوريات التي خلفتها الحرب الأولى .

ولعل مناط الحقيقة ، أن سمات برلمان وستمنستر — وهى سر استحواذة على احترام الفرد الإنجليزي وعطفه — هى نفسها عوائق في طريق تحويل هذا الإنجليزي « الموقر » إلى تريق للعالم . وقد يجعل نجاح برلمان وستمنستر الفذ في الصمود لإحداث القرون الوسطى بفضل تكييف نفسه — وفقاً للقانون الذى لاحظناه فيما سبق^(٣) — أقل قابلية لانجاز الانسلاخ الإبداعي الذى يؤهله لمواجهة مشكلات عصر ما بعد الحديث التي تجابهنا الآن .

ويبدو لنا من فحص أسس برلمان وستمنستر ، أنه في جوهره جمعية مندوبى المقاطعات المحلية . وهذا هو بالضبط ما نتوقعه من تاريخ أصله . ومكانه . إذ تألفت كل ملكية من ملكيات العالم الغربى خلال القرون الوسطى ، من مجموعة من الجماعات القروية مبعثرة ومجموعة من المدن الصغيرة . وفى مثل نظام الدولة هذا ، تكمن في الجوار ، أهمية التجمع للأغراض

-
- (١) القبائل العشر المفقودة هي في الأصل ذرية أبناء يعقوب العشرة (أى ما خلا ذرية يهوذا وبنيامين) . وقد ضاع أثرها خلال نفي اليهود في بابل . ومن ثم لم يبق من القبائل اليهودية الاثنى عشرة سوى قبيلتا بنيامين ويهوذا . (المترجم)
- (٢) اللوثشى هو موسولوى والقوهور هو هتلر ، والقوميسير هو ستالين . (المترجم)
- (٣) مداره أن هؤلاء الذين يستجيبون بنجاح إلى أحد التحديات يصبحون في مكان غير صالح لاستجابة ناجحة لتلك تحد تال . (المؤلف)

الاجتماعية والاقتصادية . كذلك تعتبر الجماعة الجغرافية في مجتمع منظم على هذا القياس ، هي وحدة التنظيم السياسي الطبيعية .

يبد أن ضغط الصناعية ، قد حجب هذه الأسس للتمثيل البرلماني التي شاعت إبان القرون الوسطى : فلقد فقدت صلة المكان أهميتها في الأغراض السياسية . كما فقدته بالنسبة لمعظم الأغراض الأخرى . ولعل للنائب الإنجليزي يجب على سؤالا عن شخصية جاره بقوله « زميلي عامل السكة الحديدية أو زميلي عامل المنجم » في أى مكان يعيش فيه من الجزيرة من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها . والواقع لم تعد الدائرة الانتخابية الحقيقية مكانا محليا ، بل أصبحت الحرفة قوامها . بيد أن أساس التمثيل النيابي الحرفي يعتبر أرضاً دستورية مجهولة . ولم تشعر « أم البرلمانات » يومى في عمرها المعجوز المريح ، بأى ميل لارتياها .

ولقد بسلم في القرن العشرين الفرد الإنجليزي - المعجب بالبرلمان - بأن نظام التمثيل النيابي الشائع في القرن الثالث عشر لا يصلح من الناحية المجردة لجماعة في القرن العشرين . إلا أنه إلى جانب هذا ، كان في وسعه أن يجيب بحق وفي حوزته الدليل أنها ذهب^(١) ، بالإشارة إلى ما يبدو عملياً من حسن سير « سوء التوافق النظري » . وسيفسر ذلك بقوله إننا نحن الإنجليز قد بلغنا من كمال النظم التي شيدناها داخل ديارنا وبين أنفسنا ، بحيث أن في مكنتنا أن نجعلها صالحة في ظل أية ظروف . إن هؤلاء الأجانب بالطبع . . . ثم يهز كتفه .

ولعل ثقتة في تراثه السياسي يواصل تبرير نفسه ، تصاحبا دهشة السلالات الأجنبية التي لا تخضع لقانون . تلك السلالات التي استوعبت متلهفة ذات مرة ، ما كانت تعتقده ترياقا إنجليزيا ، ثم لفظته في عنف ؛ بعدما قاست من عسر الهضم الحاد .

يبد أنه يبدو من المرجح - باستخدام نفس الإثبات - أن إنجلترا
 لن تتوج مآثرها القليلة إبان القرن السابع عشر ؛ بأن تصبح ككرة أخرى ،
 متبدعة تلك النظم السياسية التي يطلبها عصر جديد ؛ فإنه عندما يقتضى
 الحال ؛ البحث عن شيء جديد ، فإنه ثمة سبيلين فحسب للتثور عليه ؛
 هما : الخلق أو المحاكاة .

ولن يتأتى للمحاكاة أن تقوم بدورها ، حتى ينجز فرد ما فعلا
 خلاقاً يحاكيه زملاؤه .

فمن هو المبدع السياسي الجديد في الفصل الرابع من التاريخ الغربي الذي
 فتحت صفحاته في عصرنا ؟

لن نستطيع في الوقت الحاضر ، تمييز أية دلالة تقف إلى جانب أى
 مرشح معين لهذه الجائزة ؛ لكن نستطيع أن نتنبأ بشيء من الثقة ، أن
 المبدع السياسي الجديد لن يكون من متبعى « أم البرلمانات »

ولعلنا نختم هذا العرض للوثنية المتصلة بالنظم السياسية ؛ بالقاء نظرة
 على عباد أوائل الطبقات ونظم الطوائف والمهن . ولدينا هنا في الواقع شيء
 تستند عليه . فلقد صادفنا أثناء دراستنا الحضارات المتعطلة ؛ مجتمعين من هذا
 القبيل - الاسبرطين والعثمانيين - كان قطب الرحى فيهما ، طبقة هى في
 جوهرها وثن مشترك أو هولة مؤلفة . فإذا كان في وسع الانحراف
 القائم على وثنية الطبقة ، أن يعطل ارتقاء حضارة من الحضارات ؛ يغدو
 في وسعه كذلك ، أن يصبح المنسب في أنهارها .

ومصدقا لذلك ؛ إذا استعدنا فحص مسألة أنهار المجتمع المصرى
 - وفي حوزتنا هذا الدليل - سيتبين لنا أن الملكية المؤلفة لم تكن الكايوس
 الوثنى الذى أناخ بكلكله على ظهر الفلاحين المصريين في عصر « الدولة
 القديمة » ؛ إذ كان عليهم كذلك أن يحملوا عبء طبقة بيروقراطية مثقفة .
 والحقيقة أن الملكية المؤلفة ، تفترض سلفا وجود طبقة مثقفة . ولولا
 تليدها ؛ لصعب على تلك الملكية ، الاحتفاظ بهدوء مكانها على منصة

الشرف : وبالحرى كانت الطبقة المثقفة المصرية ، القوة وراء العرش ، بل قد أصبحت لها كذلك - في واقع الأمر - الأسبقية عليها . كان أفراد هذه الطبقة لا غناء عنهم ، وكانوا يعلمون ذلك . واستفادوا من هذه المعرفة في « إلقاء أجمال ثقيلة » مفاجئة لا تحتمل ، وألقوها على « أكتاف الناس » . بينما لم يكن الكتاب المصريون يبدلون لتحريك هذه الأجمال ، أصبعا من أصابعهم .

ويُعتبر امتياز إعفاء الطبقة المثقفة من مشاركة العاملين في الأرض ، سمة تمجيد البيروقراطية المصرية لنظامها الذاتي في كل عصر من عصور التاريخ المصرى . وتصل هذه الملاحظة الأسماع صكا صاحبا في تعاليم « ديواوف » التى تضمنها مصنف ألف خلال عصر الاضطرابات المصرى . وقد حفظ لنا في نسخ كُتبت بعد ذلك بألف سنة كتمريرين على الكتابة لتلامذة « الإمبراطورية الجديدة » . ويتبين في هذه التعاليم التى أنشأها رجل يدعى « ديواوف » ولّد حيتى لولده المدعو بيبي وقتما رحل إلى الدار^(١) ليضعه في مدرسة الكتب « بين أطفال الحكام ، والباعث الذى دفع الوالد الطموح الراحل ، إلى ترغيب ابنه الطلعة :

« لقد رأيت ذلك الذى يضرب ، هو الذى يضرب . عليك أن تضع قلبك على الكتب . قد شاهدت ذلك الذى تحرر من عمل السخرة . انتبه لا يوجد شيء يعلو على الكتب . . إن كل صانع يستخدم مناقشه ، يصيبه تعب أقسى مما يصيب ذلك الذى يبحث وراء فكرة . . إن بناء الأحجار يسعى إلى العمل في كافة أنواع الحجر الصلد ، فإذا ما أنجزم تكلّ يده ويغدو متعبا . . أما العامل الزراعى فإن حسابه يستمر على

(١) أى قصر الفرعون وكلمة فرعون تتألف في اللغة المصرية القديمة من كلمتين

« بر » وتعنى « الدار » و « هر » وتعنى « الكبيرة » وبالتالي تعنى فرعون أصلا « الدار الكبيرة » ثم عني بها الملك . كما كان يطلق على السلطان التركي لقب « الباب العالي » (المترجم)

من هذا الاتجاه . وزاد الطين بلة إضافة عبء طائفة الكهنة ، كما لو أن خل
 للبروقراطية لم يكن كافياً . وطائفة الكهنة ، هي التي نظمها الإمبراطور
 تيمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م) تنظيمًا أحلها إلى اتحاد قوى ينتشر
 في أنحاء الإمبراطورية المصرية تحت رئاسة الكاهن الأكبر لآمون في طيبة .
 فأصبح ثم للموظف العام المصري ، شريك - في شكل براهما مصرى -
 في امتطاء الجواد^(١) . فكان أن اضطرت الحال بجواد السيرك المصري المكسور
 الظهر ، أن يكبو في دووته الأخيرة . بعدما ازداد رأكبوه من اثنين إلى ثلاثة ،
 بسبب صعود رتل من المتفاجرين على السرج : وراء الكاتب والمظاهرة بالدين .
 إن المجتمع المصري الذي كان متحرراً من الروح الحريية طوال فترة
 حياته الطيبة^(٢) فقد وخزه قتاله مع الهكسوس^(٣) إلى مسالك الفتح
 العسكري . إذ لم يكتف أباطرة الأسرة الثامنة عشر بدفع الهكسوس وراء
 حد العالم المصري ؛ بل إنهم استسلموا إلى إغراء الانتقال من الدفاع عن النفس
 إلى العدوان المتمثل في إقامة إمبراطورية مصرية في آسيا . وكان الإقلاع
 عن هذه الملهاة الخطيرة ، أيسر من الانسحاب منها . فلما تحول التيار ضد أباطرة
 الأسرة التاسعة عشرة ، ألفوا أنفسهم مرغمين على تعبئة طاقة الكيان الاجتماعي
 المصري الآخذة في الذبول سريعاً ؛ بغية المحافظة على تماسك مصر نفسها .
 ففى ظل الأسرة العشرين ، تحطم الهيكل القديم الواهى بضربة أصابته بالشلل .
 وهذا ثمن اقتضاه آخر أعمالها الفريدة المتصل بصراعها لصد الهجمات المشتركة
 للبرابرة الأوربيين والإفريقيين والآسيويين ، الذين تألبوا عليها بدافع هجرات
 الشعوب التي أعقبت سقوط الدولة المينوية .
 وعندما سقط الجسم في نهاية الأمر منطرحاً على الأرض ، اشترك حفيد

(١) يقصد بالجواد جبهة الشعب .

(٢) مثله في ذلك مثل المجتمع المسيحي الأرثوذكسي خلال فترة نموه . (المؤلف)

(٣) مثلما وخز الإمبراطورية الرومانية الشرقية قتالها مع بلغاريا . (المؤلف)

الغازى الليبى مع المتعلم الوطنى والكاهن اللذين بقيا ملتصقين بالسرج ، ولم تكسر السقطة عظامهما . فلقد أصبح الليبى يفد كجندى مأجور إلى العالم المصرى حيث كانت الحراب المصرية الوطنية تدفع شره ، عن حدود ذلك العالم ، إبان آخر عمل فريد قام به .

ولقد استمرت الطبقة الحربية القائمة على هذه الجنود الليلية المرتزقة إبان القرن الحادى عشر ، تنافح عن المجتمع المصرى فترة ألف سنة . وقد تكون تلك الطبقة أقل هولا تجاه مخالفها فى الميدان ، من الانكشارية أو الاسبرطيين ، إلا أنها كانت بلا شك تماثل هاتين الطبقتين من ناحية ثقل عبئها فى الداخل على الفلاحين تحت أقدامها .

(٥) آفة الإبداع — عبادة أسلوب تكنولوجيا فاني

١ — أسماك وزواحف وثدييات :

إذا ما تحولنا الآن إلى النظر فى وثنية الأساليب التكنولوجية ، قد يكون فى وسعنا البدء باستعادة أمثلة سبق أن برزت إلى فكرنا ، وفيها بلغت نقمة الإبداع أقصى مراتبها . فى النظامين الاجتماعيين العلماني والاسبرطى ؛ تحول مفتاح الأسلوب التكنولوجى المتصل برعى القطيع البشرى أو اقتناص الصيد البشرى ، إلى وثنية تقف جنباً إلى جنب مع النظم التى تنفذ من خلال أوجه النشاط هذه .

وإذا ما انتقلنا من الحضارات المتعطلة التى استثارها التحديات البشرية ، إلى تلك التى استثارها الطبيعة البشرية ؛ نجد أن العبادة الوثنية لأسلوب تكنولوجيا ، تضم بين ظهرانيها مأساتها بأسرها . فإن البدو والأسكيمو قد هبطوا إلى مرتبة التعطل الحضارى ، بسبب تغاليهم فى تركيز جمع ملكاتهم فى الأساليب التكنولوجية المتصلة بالرعى والصيد . فأنتهى بهم هذا السبيل الوحيد إلى الرجوع صوب الحالة الحيوانية التى تعتبر تقيضاً لتعدد المزايا البشرية ،

وإذا ما رجعنا القهقري إلى الفصول السابقة للحياة البشرية من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ؛ سنجد أنفسنا محاطين بأمثلة أخرى لنفس القانون .

« تبدأ الحياة في البحر . وتبلغ هناك درجة استثنائية من الكفاية ؛ لأن الأسماك تهيئ الفرصة لنشوء أنواع ناجحة (مثل سمك القرش مثلا) . نجاحاً جعلها تظل بلا تغيير حتى الوقت الحاضر . على أن سبيل التطور الارتقائي ، لم يمتد في هذا الاتجاه . ففي التطور ، لعل القول المأثور عن الدكتور إنج^(١) صحيحاً باستمرار وهو (لا شيء ينقضي مثل النجاح) . فإن المخلوق الذي يتكيف مع وسطه تماماً ، تتركز طاقته بأسرها هي وقدرته الحيوية ، وتُبدلان في سبيل النجاح . والآن ، لا يتبقى لديه شيء يستخدمه في الاستجابة لأي تغير أساسي ؛ ويصبح بمرور الأجيال ذا طابع اقتصادي كامل يقسم مسيره في طريق تتلاقى فيه تماماً كافة موارده مع فرصه الجارية المألوفة . وفي وسعه في النهاية أن يُنجز كافة ما هو ضروري للعيش ، بلا ضمير يكدح أو حركة لا تتلاءم . فيمكنه من ثم التغلب على كافة المنافسين في الميدان الخاص . بيد أنه بالمثل - من الناحية الأخرى - لو تغير الميدان ، فإنه لامناص من أن ينقرض . ويبدو أن نجاح الكفاية هذا ، هو العامل الأساسي في انقراض عدد هائل من الأنواع . ولما كانت الأحوال المناخية في تغير ، استخدمت تلك الأنواع كافة مواردها من الطاقة الحيوية لتكيف نفسها وفقاً للظروف المحيطة بها . على أنها - مثل العذارى سيئات التدبير - لم يعد لديها دهن لإجراء مزيد من المهاداة . إن تلك الأنواع قد انتحرت لعجزها عن التكيف ، فكان أن اختفت^(٢) .

ويستطرد نفس المؤلف في نفس الكتاب من بحثه عن نجاح الأسماك

(١) الدكتور إنج Dr. Inge هو العميد السابق لكلية القديس بولس . (لترجم)

(١) صفحة ٦٦ - Heard, Gerald The source of Civilization v

نجاحاً فنياً كاملاً قائلًا بالنسبة تكيف نفسها وفقاً لبيئة الحياة الطبيعية في مستهل الحياة البحرية ، إلى تاريخها على الأرض ؛ مايلي :

« على المستوى - وقتما كانت الحياة منحصرة في البحر وكانت الأسماك في طريق الارتقاء - تطورت من الأسماك نماذج خرج منها فقار^(١) وخرجت من الفقار من كل جانب - لمساعدة هذا الرأس - مروحة المحسات التي غدت زعنفه أمامية . وتخصصت هذه المحسات في ستمك القرش - وفي غالبية الأسماك بأسرها - حتى فقدت صفة المحسات وأصبحت بدالات^(٢) : أصناف من السمك المفلطح^(٣) ذات كفاية عجيبة لتحمل المخلوق إلى الأمام تواء ضوب الفريسة . كان رد الفعل السريع هذا هو كل شيء ، والتباحث المتأني هو لا شيء . ولم يقتصر الحال على انقطاع تلك الأسماك المفلطحة عن أن تستمر مختبراً ورائداً وممتحناً . فلقد ازدادت كفايتها للحركة المائية ولا شيء غير ذلك . وبدا كما لو أن الحياة السابقة لعصر الأسماك والفقاريات لا بد وأنها قد عاشت في برك ضحلة دافئة ، ولعائها كانت دائماً على اتصال بالأرضية ، كما يحدث في الوقت الحاضر من أن سمك الغرنار^(٤) يحافظ على الاتصال بمجردى النهر الضلد بفضل مجساته . على أنه لما حدث أن أصبحت الحركة الخفيفة غير المهيئة هي كل شيء ، دفع التخصص الأسماك بعيداً نحو الماء حيث فقدت الاتصال بالقاع وكل ما هو صلد . فأصبح الماء عنصرها الوحيد . ويعني هذا صيرورة طاقتها على الاستجابة للاستثارة الناشئة عن ظروف جديدة ، مخلوذة .

« ومن ثم فإن ذلك النوع من السمك الذي تسبب في انبعاث النظام

(١) الفقار سلسلة الظهر . (المترجم)

(٢) جمع بدال . (المترجم)

(٣) Flukes مثل سمك موسى . (المترجم)

Gurnel (٤)

المجديد التالى لارتفاع الحيوانات ، لا بد وأنه كان مخلوقاً لم يطرّف في تبني تخصص الزعنة هذا . ذلك : أولاً - لأنه كان مخلوقاً احتفظ بالاتصال بالأرضية ، فظل بالتالى أشد حساسية للاستجابة من الأسماك التى فقدت الاتصال بوسط صلد . وثانياً - لا بد وأنه كان مخلوقاً حافظاً لنفس السبب - الاتصال بالمياه الضحلة ، واحتفظ بهذا الاتصال بفضل الأطراف الأمامية : فكانت من ثم عاجزة عن التخصص مثل الأسماك المفلطحة المتحركة في الماء ، فاستبقت طابعاً تجريبياً استقصائياً عاماً غير ذى كفاية . لقد كشف الميكمل العظمى لمثل هذا المخلوق عن مخلوق ذى أطراف أمامية ؛ عبارة عن أيدى ثقيلة ، فجعلت منه نوعاً من أكثر أنواع الزعانف الأصلية . ويبدو كما لو أن الانتقال من البركة الضحلة إلى الشاطئ قد اتخذ سبيله بوساطة هذه الأعضاء ؛ مختلفاً البحر وراءه .

وهكذا غرّيت الأرض ، وجاء البرمائى (١) إلى الوجود (٢) . وفى غمار انتصار تلك الأحياء البرمائية التى نصير على غير هدى ، فى منافستها مع الأسماك الماهرة القاطعة ؛ نشهد عرضاً تمثيلاً مبكراً للمحنة ما انتك تمثيلها يعاد عديداً من المرات منذ ذلك الحين مع تغييرات مختلفة فى اللقائين بالأدوار . وسنجد فى عرض المأساة التالى الذى يجتذب أنظارنا ، أن دور الأسماك قد أخذته الذرية الهائلة للبرمائيات من فصيلة الزواحف ؛ فى حين هبط الدور الخاص بالبرمائيات فى العرض السالف دور أسلاف تلك الحيوانات الثديية (٣) التى أصبحت حديثاً ، روح الإنسان .

كانت الثدييات البدائية مخلوقات ضعيفة حقيرة ، ورثت الأرض عن غير انتظار ، لأن الأرض قد هجرتها الزواحف الجلييلة التى كانت سادة

(١) البرمائيات : أحياء برية مائية . مفردة - البرمائى . (المترجم)

(٢) صفحات ٦٧ - ٦٩ Herald, Oerald, The Source of Civilization

(٣) الثدييات أى الحيوانات ذوات الأقدام . (المترجم)

المخلوق السابقين . وكانت زواحف العصر الحيواني الأوسط^(١) غزاة فرطوا في فتوحاتهم بسبب تبهم في طريق لا منفذ له يتمثل في الإفراط في التخصص ، مثلاً أفرط الاسكيمو والبلو فيه .

« إن النهاية المفاجئة الواضحة للزواحف هي بلا جدال ، أعظم الثورات إثارة للعجب في تاريخ الأرض بأسره قبل مجيء البشر . ولعله يرتبط بنهاية فترة متسعة من الأحوال الاستوائية الدافئة ، وببداية عصر جديد عيوس . أصبحت فصول الشتاء خسالة أقمى مرارة ، وفصول الصيف أقصر ولكنها أشد حرارة . وفي العصر الحيواني المتوسط ؛ وأم الحيوان والنبات كلاهما بين نفسه وبين الحالات الدافئة ، وضعفت قوة مقاومته للبرد . وكانت الحياة الجديدة من الناحية الأخرى قديرة قبل كل شيء على مقاومة الصغرات الشديدة في درجة الحرارة . »

« أما بالنسبة للتدييات التي كانت تنافس الزواحف الأقل أهلية وتطردھا . فإنه ليس ثمة أقل دليل على مثل هذه المنافسة . ويوجد في الفترة الأكثر حداثة من العصر الحيواني المتوسط ، عدد من عظام الفك ذات طابع ثلي^(٢) تام . بيد أن ليس ثمة فضلة أو عظمة توحي بوجود أى من التدييات إبان العصر الحيواني المتوسط يمكن أن تظهر لنا صورا من أشكالها . وعليه يظهر أن تدييات ذلك العصر بواب صغيرة غامضة من حجم القتران والجردان^(٣) . »

ويبدو أن القضايا التي أوردھا المستر ويلز حتى هذه النقطة مقبولة بصفة عامة . فإن التدييات قد حلت مكان الزواحف ؛ يفعل فقدان هذه الهولت^(٤) الضخمة القدرة على تكيف نفسها وفقاً للأحوال الجديدة . لكنه

Mesozoic Reptiles (١)

(٢) أى ينسب إل عصر التدييات . (المترجم)

Wells, H.G. : The centline of history (٣)

(٤) جمع مولة . (المترجم)

بالنسبة للمحنة التي تهاوت عندها الزواحف ، ما هو بالضبط الشيء الذي
عاون الثدييات على البقاء ؟

يختلف الكاتبان اللذان اقتبسنا منهما فيما مضى ما هو خاص بهذا السؤال
ذى الأهمية العليا :

فيرى المستر ويلز أن الثدييات البدائية ، قبض لها العيش بفضل حيازتها
شعراً كان يقيها البرد المقرب .

فإن كان هذا هو كل ما يقال ، تقتصر معرفتنا عندئذ على أن القراء
درع أعظم أثراً من الحراشف في بعض الأحوال .

أما مستر هيرد ، فعنده أن الدرع الذي حفظ حيوان الثدييات لم يكن
مادياً ، لكنه نفسى ، وأن قوة هذا الدفاع تُدخِر لحالة عدم الحياة الروحانية .
وحقا لدينا مثل سابق لظهور البشرية ، نجده في مبدأ الارتقاء الذي دعواته
بالتحول الأثيرى ، وفي هذا يقول المستر هيرد :

« كانت الزواحف الماردة ذاتها مضمحلة ، قبل انبعاث الثدييات .
لمقد بدأت مخلوقات صغيرة متحركة ، نشطت ونمت نمواً هائلاً . حتى إن
هذه الممرعات الأرضية قلما كانت تتحرك وظلت أدمغتها غير موجودة عملياً ،
ولم تكن رؤوسها أكثر من ميثاق^(١) ، أنابيب للتنفس . . . »

« وفي غضون ذلك عندما كانت تنضج ببطء وتتعود المشاق . . .
كان هناك ذلك المخلوق الذى تشكّل فعلاً والذى كان عليه أن يقفز الحد
والأبعاد التى وضعت في سبيل الحياة . ويشرع في مرحلة جديدة من القدرة
والوعى . ولا شيء في مكنه أن يضور بجلاء المبدأ القائل بأن الحياة تُبعث
بفضل رقة الإحساس والإدراك ، بفضل تعريض النفس ، لا حايها ، بفضل
الوضوح للعيان لا بالقوة ، بفضل البصر لا الحجم . ولهذا بعث إلى الحياة
خيرة طلائع الثدييات التى كانت مخلوقات نافهة شبيهة بالفأر . وفي عالم

(١) الميثاق : كشاف الأفق أو منظار الأفق . (المترجم)

تسوده الهولات ، مُنح المستقبل لمخلوق أصبح عليه أن يصرف وقته في ملاحظة الآخرين ويرضخ لهم . هو مخلوق مُحرّم الحماية ، وهب القراء عوضاً عن الحراشف ، إنه غير مخصص . إنه قد أعطى مرة أخرى تلك الأطراف الأمامية ذات الشعور الحساس . وما من شك في أن هذه الحساسات - الشعور الطويلة على الوجه والرأس - قد أضفت عليه في جميع الأوقات حافزاً دافعاً . فكان أن ارتقت الآذان والأعين ارتقاءً عالياً . وأصبح ذلك المخلوق ذى دم حار ، يستمر إحساسه طوال أوقات البرد ، وقما تهبط الزاحفة إلى الركود التخديري . وهكذا يتفجر شعوره ويرتقى . ويلاقي الحافز المستمر المتنوع استجابة متنوعة . لأن المخلوق - ولم يسبق له سابق - قادر على الاستجابة ، لا مرة واحدة ، ولكن عدة مرات . لا تقدر واحد منها على حل المشكلة له^(١) .

إذا كانت هذه صورة صادقة لسلفنا ، فإننا قد نتفق على أنه أجرى بنا أن نكون به فخورين . مع أننا لا نُبدي دائماً جدارتنا بالانتساب إليه !! .

٢ - آفة الإبداع - في الصناعة :

لم يكن قول بريطانيا العظمى منذ مائة عام إنها « مصنع العالم » مجرد ادعاء بل إنها كانت الحقيقة الواقعة . أما اليوم فإنها واحد من تلك المصانع المتنافسة المتعددة في العالم . إذ يتواصل منذ زمن طويل مضى ، هبوط حصتها النسبية من التجارة الدولية . ولقد كانت نظرية « هل انتهت بريطانيا ؟ موضع أبحاث عديدة ، وتلفت إجابات متفرقة .

ولعله لو أخذت جميع العوامل في الاعتبار ، نكون بصفة عامة ، قد أحسنّا صنعا ، عما كان يتوقع حدوثه في السبعين سنة الأخيرة . ويتيح الموضوع لنا - كما هو ظاهر - متسعاً لنظرة التشاؤم وللمتنبئين اللائمين من النوع الذى جاء وصفه في اقتباس مع الملع اقتباسات صامويل

بنظر المعكوسة (١) . على أنه لو كان على أحد أن يعزل النقطة التي وقعت في الغالب عندها في الخطأ ؛ فإن في وسع المرء أن يضع أصبعه على اللداء . ويتمثل في الروح المحافظة للقائمين على الصناعة البريطانية فإنهم قد وضعوا الأساليب التكنولوجية المهجورة موضع الأوثان ؛ تلك الأساليب التي كوّنت ثروات أجدادهم .

وعسى أن يتأقن العثور في الولايات المتحدة على مثال أكثر تنقيفاً ، وإن كان أقل شمولاً . فلا ريب أن الأمريكيين قد فاقوا في السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر ، جميع الشعوب الأخرى بالنسبة لتنوع مخترعاتهم الصناعية وافتتاحها ، وفي قدرتهم على استغلال مثل هذه المخترعات للأغراض العملية . إن ماكينة الخياطة والآلة الكاتبة ، وتطبيق الآلة في صناعة الأحذية وآلة ماكور ميك للحصاد ؛ من بين الأفكار الأمريكية الأولى التي ترد إلى الذهن . بيد أن ثمة اختراعاً أظهر الأمريكيون في استغلاله تخلفهم بكل تأكيد ، إن قورنوا بالبريطانيين ، وبعث تأخر الأمريكيين هذا على العجب ، لأن هذا اختراع المهمل هو تحسين آلة اخترعها الأمريكيون أنفسهم في بداية مطلع القرن ، هذا الاختراع هو السفينة البخارية . إذ أثبتت السفينة البخارية الأمريكية التي تسير بالدولاب البدالي ، أهميتها الإضافية الفاتكة لتسهيل المواصلات بالنسبة للجمهورية الأمريكية الآخذة في النمو السريع ، عبر آلاف أميال الطرق المائية الداخلية الصالحة للملاحة التي تزخر بها أمريكا الشمالية . ولم يكن من شك في أن الأمريكيين - نتيجة مباشرة لهذا النجاح - قد أصبحوا أكثر بطاً من البريطانيين في استغلال الاختراع التالي الأعظم شأنًا - وهو المرواح اللولبي - لأغراض الملاحة في المحيطات .

فكان الأمريكيون في هذا الأمر مسيرين بقوة عارمة صوب عبادة أسلوب تكنولوجياي فان .

(١) إن بلدا ليس بلا شرف إلا في أنبيائه .

٣ - آفة الحرب :

يتطابق مثال المنافسة البيولوجية بين الثديي الضئيل ذى الفراء الناعم ،
والزاحفة الجسيمة المدرعة ؛ على أسطورة صراع البطولة بين داوود
وجالوت^(١) .

فإن جالوت كان قبل اليوم المقدر الذى تحدى فيه الجنود العبرانيين ؛ قد
فلز يمثل تلك الانتصارات الظافرة . بفضل حربته التى تشبه مادتها رافدة^(٢)
النساج ، التى تزن رأسها ستمائة شاقل^(٣) من الحديد . وقد ألقي جالوت نفسه
فى زرده الكامل المكون من الخوذة والدرع الخفيف والدرع الصغير ودروع
الساق ؛ بحيث أنه لم يتخيل جدوى أى سلاح آخر ؛ ألقي نفسه فى أمان تام
من الأسلحة المعادية . إذ آمن بأنه لن يقهر ، وهو فى هذا السلاح . وكان
متأكداً من أن أى عبرانى له من البسالة فتن يؤهله لقبول تحديه ، سيكون
بالمثل من حاملى الحراب على غرارهِ ، وأن أى مناقس له فى زرده
الكامل ، مقدر له أن يكون أقل منه .

وبلغ من قوة سيطرة هاتين الفكرتين على ذهن جالوت ، أنه حين شاهد
داوود يجرى إلى الأمام للقائه دون درع على بدنه ولا شىء فى يده يستلقت النظر
عند عصيله ، أخذ الريب جالوت كل مأخذ عوضاً عن إصابته باللنصر ، وصاح
« هل أنا كلب حتى تأتى إلى بهراوة ؟ » . ولم يداخل الشك جالوت فى أن
تكون استهانة الشاب هذه خطة محكمة التدبير . ولم يعلم أن داوود إذ تحقق بكل
جلاء مثل جالوت نفسه ، من عجزه عن الأمل فى نجارة جالوت وهو فى عدته
الحربية ، قد تعمد نبذ الزرد الكامل الذى ألقاه شاول إليه ، كما لم يلحظ

(١) Goliath

(٢) الرافدة هى الكمر . (المترجم)

(٣) الشاقل وزن عبرى قديم . (المترجم)

جالوت المقلع ، ولم يردع للأذى الذى قد يكون كامناً في كيس الزاعى .
وهكذا خطا الفلسطينى إلى الأمام في جلال ، صوب قضائه .

بيد أن الحقيقة التاريخية ؛ تنبئ بأن الجندى المبرع الآتى إلى فلسطين
بفعل الهجرة التى أعقبت سقوط العالم المينوى - جالوت الجانى^(١) أو هكتور
الطروادى^(٢) - لم يستسلم لقلاع داوود أو قوسه الفيلوكتيتى^(٣) Pohlketes
لكنه استسلم إلى الفيلق الميروميدونى^(٤) وكان شيئاً مخيفاً اجتمع فيه حشد
من الجنود الثقيلين بالسلاح ؛ الكتف إلى الكتف ، والرس إلى الرس^(٥) . وبينما
كان كل جندى في الفيلق ، صورة منقولة عن هكتور أو جالوت في عدته
الحربية ، كان يكمن في روحه صورة من الجندى اليونانى الثقيل بالسلاح .
فإن جماع جوهر الفيلق هو في النظام العسكرى الذى قد حول فرقة من
المحاربين الأفراد ، إلى تشكيل عسكرى استطاعت حركاته المنظمة أن تنجز من
الأعمال عشرة أمثال ما تنجزه جهود غير متناسقة ، يبلغها عدد مساو من أبطال
أفراد يتساوون معاً في العتاد .

اتخذ هذا الأسلوب الحربى الجديد . (وقد سبق لنا إلقاء لمحات عابرة
عن الإلياذة) سبيله الوطيد على مسرح التاريخ في شكل الفيلق الاسبرطى
الذى زحف بين تضاعيف إيقاع أشعار تيرتاوس Tyrtaeus^(٦) إلى انتصاره

(١) مدينة جات Gath تنسب إلى جالوت ، هى إحدى المدن الملكية لفلسطينيين القدماء
وكانت تقع على حدود مملكة يهوذا . وتقوم مقامها في فلسطين الحالية تل الصاق . (المترجم)
(٢) نسبة إلى مدينة طرواده على ساحل الأناضول ، وكانت قصتها موضوع ملحمة
هوميروس الخالدة .

(٣) كان Philketes في الأساطير اليونانية حامل عدة حرب هرقل . وقد ورث عن
هرقل قوسه . (المترجم)

(٤) الميريدون - وفقاً للأساطير اليونانية - جنس آخرى كان يقطن تساليا . وينحدر
من فريريس من زوجته Eurnmedusa . (المترجم)

(٥) الإلياذة . الفصل السادس عشر .

(٦) شاعر يونانى ظهر في القرن السابع قبل الميلاد . وتذكر الأساطير اليونانية أن أثينا
أعارته لإسبرطه ليساعدها في حربها ضد ميسينيا ، وإلى أشعاره وأغانيه يمزى فضل الانتصار
الأسبرطى . (المترجم)

الاجتماعى المدمر فى الحرب الإسبرطية الميسينية الثانية . بيد أن هذا التصرف لم يكن نهاية القصة : فإن الفيلق الإسبرطى بعد أن وحّد كافة القوى المناهضة له فى الميدان ، ارتاح على مجاذيفه (١) وألقى نفسه فى سباق القرن الرابع قبل الميلاد هزم هزيمة شائنة :

أولاً : هزمته زمرة أثينية مدرعة بالترس الجلودى (٢) .

ثانياً : هزمه تكتيك الطابور الذى ابتكرته طيبة .

على أن الأسلوبين التكنولوجيين الأثينى والطيبى ، أصبحا قديمين وغير صالحين ؛ بسبب ضربة واحدة وجهها إليهما عام ٣٣٨ قبل الميلاد تشكيل مقدونى . بمقتضاه يتكامل المناوش وجندى الفيلق المدرب تدريباً عالياً فى وضع يتسم بالحدق مع الفارس المسلح تسليحاً ثقيلاً ، فى وحدة مقاتلة مفردة ، ويعتبر غزو الإسكندر للإمبراطورية الأخيمنية ، الدليل على الكفاية الأصلية لنظام المعركة المقدونى . واقد ظلت صيغة الفيلق المقدونى ، القول الفصل فى الأسلوب التكنولوجى الحربى طوال فترة مائة وسبعين سنة أى من معركة تشايرونيا chaironea التى وضعت حداً للمواطن الحربى لدول اليونان - إلى معركة بيدنا Pydna ، وفيها تكسر بدوره الفيلق المقدونى أمام الكتيبة الرومانية .

وتكمن علة هذا الانقلاب المثير فى المقادر المقدونية الحربية ، فى افتتاح الجيل القديم بالأسلوب التكنولوجى القانى . لأنه بينما كان المقدونيون يستريحون على مجاذيقهم - باعتبارهم سادة الجميع غير متنازع عدا الأطراف الغربية من العالم الهلينى - أحدث الرومان ثورة فى فن الحرب ؛ فى ضوء التجربة التى اكتسبوها إبان مكابدتهم الصراع المرير مع هانيبال .

(١) أى استكان . (المترجم)

(٢) حشد من أشباه داوود . وجد الفيلق الإسبرطى من أمثال جالوت نفسه عاجزاً

تماماً عن مجاراته . (المؤلف)

فازت الكتبة الرومانية على الفيلق المقدوني . لأنها سادت بمحالة
تكملة جندى المشاة مع جندى الفيلق المدرع مرحلة أطول مدى . فالواقع
أن الرومانيين قد اخترعوا خطاً جديداً من التشكيل ، واستخدموا ضرباً
من العتاد ، جعل من المسور لئى جندى ، ولأية وحدة ، أن تؤدى - وفقاً
لرغبتها - إما دور جندى المشاة وإما دور الجندى المدرع ، وأن تعدل
عن أسلوب إلى أسلوب الآخر ، في أية لحظة ، إبان مجابهتها العدو .

ولم تعد هذه الكفاية الرومانية وقت معركة بيدنا ، الجبل عمرا .
لأنه قد شوهد في الميدان في شبه الظل الإيطالي هذا للعالم الهليني ، فيلق
سابق للنمط المقدوني في وقت حديث كمعركة كاناي cannae (٢١٤ ق . م) .
وذلك وقتاً انكفأت قوة المشاة الرومانية إلى نظام للمعركة يرتد إلى تشكيل
الفيلق الاسبرطى العتيق . فكان أن أحاطت بها من الخلف فرقة كثيفة
من فرسان هانيال الاسباتين والغاليين ، ثم تولت فرقة المشاة الإفريقية
ذبح المشاة الرومانية في كلا الجناحين ذبح المشاة .

ولقد داهمت هذه النكبة القيادة الرومانية العليا التي كانت قد عزمت
على اجتباب التجلوب وإيثار السلامة (كما افترضت ذلك مخطئة) . وجاء
هذا العزم نتيجة لصدمة سابقة أصابها على بحيرة تراسيمين . فاعتنق
الرومانيون بكل قلوبهم في النهاية - في غمار درس هزيمتهم النكراء في
كاناي - ضرباً من تحسين الأسلوب التكنولوجي لنظام الجيش ، أحال الجيش
الروماني بقتة إلى أكفأ قوة مقاتلة في العالم الهليني ، فكان أن تلا ذلك
للتحسين انتصارات : زاما سينوسيفالي Cynoscephalae وبيدنا Pydna ؛
ثم سلسلة من الحروب شنها الرومان على البرابرة ، والرومان بعضهم
خمد البعض الآخر ، بلغت خلالها الفرقة الرومانية تحت قياده سلسلة من
القواد العظام من ماريوس إلى قيصر ، أقصى كفاية ، تستنى لجندى المشاة
يلوغها ، قبل اختراع الأسلحة النارية .

بيد أنه في ذلك الوقت بالذات - أى وقتما أصبح جندى الفرقة كاملاً من حيث نوعه - أصيب بأول هزيمة من سلسلة الهزائم الطويلة على يد زوج من الرجال السوارى المسلحين بأساليب فنية تختلف عن أسلوبه اختلافاً تاماً ، فكأننا أن دفعا جندى الفرقة في النهاية عن الميدان . ولقد جعل انتصار الفارس راي القوس على جندى الفرقة في معركة كارهاى Carrhae عام ٥٣ قبل الميلاد ، بنهاية قتال جندى الفرقة ، ضد جندى الفرقة المعادية في معركة فارسالوس Pharsalus بعد ذلك بخمسة سنوات . وهى معركة ربما كان الأسلوب الفنى لجندي المشاة خلالها ، في أعلى درجاته .

وتأيد نذير معركة كارهاى Carrhae بمعركة أدرنة Adrianaple بعد ذلك بأكثر من أربعائة سنة ، وقتما وجه الدرع الزردى^(١) إلى جندى الفرقة ، ضربته القاضية . ولقد قرر مؤرخ روماني يدعى آميانوس Ammianus عاصر هذه المعركة وكان نفسه ضابطاً عسكرياً ، حقيقة مؤداها أن الخسائر الرومانية قد بلغت ثلثي الفرق المشتركة في المعركة . وصرّح بأن الجيوش الرومانية لم تُصب بنكبة على هذا المدى منذ معركة كاناي Cannae .

فإن الرومانيين قد أخلدوا للراحة ، طوال الأربعة قرون الأخيرة الواقعة بين هاتين المعركتين ، رغماً عن الإنذار الذي تلقوه في معركة كارهاى Carrhae والذي تكرر في معركتي فاليريان Valerian عام ٢٦٠ ميلادية وجوليان عام ٣٦٣ ميلادية ، إنذار وجهته إليهم الأساليب العسكرية الفارسية التي طبقت طريقة الدرع الزردى القوطية والتي قادت إلى مصرع فاليز وجنوده عام ٣٧٨ ميلادية .

وكافأ الإمبراطور ثيودوسيوس Theodasius الخيالة البرابرة لاستصفائهم المشاة الرومان بعد كارثة أدرنة Adrianaple ، باستخدامهم لملاء الثغرة الفاعرة فاما والتي فتحوها بأنفسهم في الصفوف الرومانية . بيد أنه رغما

(١) فارس مدرع مسلح بحربة . (المؤلف)

عن الثمن المحتوم الذى دفعته الحكومة الإمبراطورية لقاء هذه السياسة القصيرة النظر ، ثمن تمثل فى رؤيتها تلك الفرق البربرية المرتزقة تقسم مقاطعاتها الغربية إلى دول بربرية مستخلقة ؛ فإن الجيش الوطنى الذى أنقذ فى الساعة الحاسمة ، المقاطعات الشرقية من التردى إلى نفس المصير ، قد سلّح وزوّد على النمط البربرى .

ولقد لبث تفوق هذه الخبرة الثقيلة السلاح أكثر من ألف سنة ، ويعتبر انتشارها المكانى أكثر لفتاً للنظر . فإن ذاتيتها غير قابلة للخطأ سواء عرضت علينا صورتها فى شئ من التصوير الجصى فى قبر بالقمرم يرجع إلى القرن الأول المسيحى ، أو النقش المحفور الذى قطعه على سفح صخر فى فارس خلال القرن الثالث أو الرابع أو الخامس أو السادس ، أحد الملوك الساسانيين ؛ أو فى التماثيل الطينية الصغيرة ينقش عليها رسوم رجال مسلّحين من الشرق الأقصى ؛ أولئك الذين كانوا القوة المقاتلة لأسرة تانج الملكية (٦١٨ - ٩٠٧ ميلادية) ؛ أو فى طُنُفسه من بايو Bayeux ترجع إلى القرن الحادى عشر وتصور هزيمة الجنود المشاة الإنجليز القدماء على أيدي فرسان ولیم الفاتح النورمندين .

إذا كان طول عمر الدرع الزردى أو وجوده فى كل مكان شيئاً مذهلاً ، فإنه مما يستحق الملاحظة كذلك شيوعه فى جميع الأزمنة فى صورة متحللة . ويقرر شاهد عيان قصة هزيمته : « حدثنى فلك الدين محمد ابن أیدمر قال : كنت فى عسكر الدويدار الصغير ، لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربى من مدينة السلام^(١) فى واقعها العظمى سنة ست وخمسين وستائة^(٢) ، قال فالتقىنا بنهر بشير من أعمال دجيل . فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحت فرس عربى وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم . ثم يخرج إليه من المغول فارس ،

(١) أى بغداد .

(٢) أى عام ١٢٥٨ ميلادية .

تحت فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح - فيضحك منه كل من رآه . ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة ، كانت مفتاح الشر . ثم كان من الأمر ما كان ^(١) .

وهكذا كرر نفسه في مغيب التاريخ السورى - بعد انقضاء فترة لعلها ثلاثة وعشرون قرناً - قصة الاصطدام الأسطوري بين جالوت وداود التي جرت في مطلع ذلك التاريخ . وعلى الرغم من أن المارد والقزم كانا في المناسبة الأخيرة يمتطيان الخيل كلاهما ، تماثلت النتيجة في الحالتين .

وكان ترى قازاق الذى هزم الدرع الزردى العراقى وخرب بغداد وأمات خليفة بغداد جوعاً ؛ من خفاف رماة الفرسان من النوع البدوى العنيد ، الذى أذاعت الغزوات السيمرية والاسقوذية صيته والخوف منه في جنوب غرب آسيا ، إبان مطلعى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ^(٢) .

ولكن إذا كان داود الممتطى حصاناً ، قد قهر في الوقت المناسب (في بداية الغزو الترى الوافد من السهب الأوراسى) ؛ جالوت الممتطى حصاناً فإن عقبى مناوشتهما في تكرار القصة هذا ، تتمشى كذلك مع أصلها . فلقد شاهدنا أن ذلك البطل المدرع الواقف على قدميه والذى تغلب عليه مقلع داود ، قد أخذ مكانه - لا داود نفسه - ولكن فيلق منظم قوامه أشباه جالوت . فإن خيول هولوكو خان المغول الخفيفة التى تغلبت على فرسان الخليفة العباسى تحت أسوار بغداد ، قد قهرها المرة بعد الأخرى المباليك

(١) رجعت إلى الأصل العربى الوارد في الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية تأليف ابن الطلقى - صفحة ٥٥ . (المترجم)

(٢) يشبه الأستاذ المؤلف هنا التخريب الذى تحدته غزوات التتر ، بما حدث للسيميريين وقد ذكر هيرودوتس أنهم كانوا سكان أسقوديا (جنوب روسيا قديماً) حتى اضطروا إلى الهروب أمام الأسقوديين إلى آسيا الصغرى حيث عاشوا هناك في الظلام والفساد مدة مائة عام . (المترجم)

أصحاب مصر . ولم يكن المالك في عدتهم الحربية أحسن أو أسوأ حالا من إخوانهم من فرسان المسلمين الذين هُزموا خارج بغداد ، لكنهم اتبعوا في أساليبهم العسكرية نظاماً منحهم التفوق على رُماة المغول الصارمين وعلى الصليبيين من الفرنجة . فلقد لاقى فرسان سان لويس هزيمتهم أمام المنصورة قبل أن يتلقى المغول بعد ذلك بعشر سنوات أول درس من نفس المعلم .

شيد المالك تفوقهم على الفرنسيين والمغول على السواء ، حوالى ختام القرن الثالث عشر . إلا أنهم استطابوا القعود في مركز السيادة الحربية ، على غرار ما فعلته الفرق الرومانية بعد معركة بيدنا . وفي ظل هذا الموضع السامى - الواهى في نفس الوقت - خلد المملوك للراحة على مجذافيه مثلما فعل جندى الفرقة الرومانية . ومن المصادفة العجيبة تماثل فترة طول الاستكانة في الحاليتين ؛ قبل أن يؤخذ الجندي المستكين على غرة ، بيد عدو قديم مسلح بأسلوب حربى جديد . إذ تفصل موقعة « بيدنا » عن موقعة « أدنة » في حالة الجندي الرومانى ، فترة ٥٤٦ سنة ؛ بينما أن ثمة ٥٤٨ سنة تفصل انتصار المملوك على سان لويس ، عن هزيمته على أيدي خليفته نابليون .

وفي خلال فترة الخمسة قرون ونصف هذه ، برزت إلى العيان أهمية سلاح المشاة مرة أخرى . فإن القوس الإنجليزى الطويل قد عاون - قبل انقضاء أول قرن من تلك القرون - جيشاً من المشاة على غرار داوود في هزيمة جيش من الفرسان على غرار جالوت في معركة كريسى Crecy ؛ وبهذا الانتصار تبدى تفوق المشاة ، ورسخ رسوخاً تاماً . وعزز تفوقه بعد ذلك اختراع الأسلحة النارية ، وتطبيق نظام عسكري مقتبس عن الانكشارية .

أما عن نهاية المالك الأخيرة ، فقد انسحبت إلى النيل الأعلى ، بقاياهم التى لم تصبها هجمة نابليون ولا تدمير محمد على لكتائبهم نهائياً . وأورثوا سلاحهم وأسلوبهم الحربى ، أولئك الفرسان المدرعين أتباع الخليفة

عبد الله خليفة مهدي السودان ، أولئك الفرسان الذين هزمتهم المشاة البريطانيون في أم درمان عام ١٨٩٨^(١) .

ولقد كان الجيش الفرنسي الذي قهر الممالك ، شيئاً يختلف فعلاً عن الأسلوب المبكر للمحاكاة الغربية للانكشارية . إذ كان ناتجاً حديثاً لفكرة استخدام الجنود جملة ، الذي نجح - بفضل إضعافه - في الحلول محل الطراز الجديد للجيش الغربي الصغير ، ولكن المدرب تدريباً عالياً ، والذي بلغ درجة الكمال في عهد فردريك الأكبر . بيد أن نجاح جيش نابليون الجديد في قهر الجيش البروسي القديم في بينا Jena كان سبباً في استئثار عبقرية نجوم الحرب والسياسة البروسيين للتفوق على الفرنسيين في عمل فذ يجمع بين الأعداد الجديدة والتنظيم القديم ، ولاحت بشائر النتيجة عام ١٨١٣ وأسفرت عن نفسها عام ١٨٧٠ .

على أن آلة الحرب البروسية قد تسببت في الجولة التالية ؛ في تردّي ألمانيا وحلفاءها في هزيمة ترجع إلى استئثارها استجابة غير منظورة . فإن أساليب عام ١٨٧٠ قد انتهزت عام ١٩١٨ أمام الأساليب الجديدة لحرب الخنادق والحصار الاقتصادي . وبدا للعيان عام ١٩٤٥ ، أن الأسلوب الفني الحربي الذي فاز بحرب ١٨/١٩١٤ لم يكن الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة الطويلة النهائية . إذ تألفت كل حلقة من دورة من : الاختراع ، والانتصار ، والنوم المستغرق ، والنكبة .

ولعلنا نتوقع - والحالة هذه - على أساس السوابق التي تعرضها ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الحربي - من ملاقات داوود لجالوت إلى اختراع الإنسان خطط ماجينو والحائط الغربي ، والتي تعرضها دفعة واحدة المدرعات الميكانيكية ورأس وتد تصويب الرماة على الخيول الأصليلة المجنحة - نعم لعلنا نتوقع تفسيرات طريقة لمبحثنا ، تعززه المقارنات المملة . ما دامت البشرية على هذا الضلال الذي يجعلها تمعن في استنابات فن الحرب .

(١) كانت كثرة الجيش العظمى الذي استخدم في معارك السودان من المصريين .

(٦) انتحارية الروح الحرة

١ - البطر ، الحق ، الجائحة :

أما وقد استكملنا عرضنا - موضوع «استناد الإنسان على مجاذيفه»
التي تعتبر وسيلة سلبية بمقتضاها يردى الإنسان في آفة الابتداع ؛ فعسانا
أن نغضى الآن قلما لفحص الزيف الإيجابي ، والذي يوصف في كلمات يونانية
ثلاث^(١) .

صورت هذه الكارثة النفسية التأثير والمبينة في ثلاثة فصول -
في موضوع يعتبر أكثر الموضوعات ذيوعا - في الدراما الاثنية الجديدة
في القرن الخامس . وذلك إن حكنا على ذلك بالطرائف القليلة الباقية
مثل : قصة أغاممنون في مسرحية استشيلوس بهذا الاسم وقصته عن
اجزر جسيس في فارسياته ، وقصة أجاكس في مسرحية سوفوكليس بهذا
الاسم ، وقصة اوديبوس Eudipus في اوديبوس وتيرانوس Eudipus
Tyrannus ، وفي قصة كريون في أنتيجون وهي قصة بنثيوس Pentheus
في مسرحية اوريبيدس المعروفة باسم Bacchae

(١) هذه الكلمات مفهوم ظاهري ، كما أن لها في نفس الوقت مفهوما إيجابيا :

أولا : تعني الكلمات في المفهوم الظاهري : التهمة ، السلوك المشين ، الكارثة . ولقد
عبر شاعر يهودي تميزا صافيا عن العلاقة العرضية بين التهمة والسلوك المشين في التعبير
« جيشيرون سن وهناركل (Dent XXXII) . فإنه قد ركل (أى سلك سلوكا شائنا) لأنه
أصيب بالتهمة . وتشير الأبيات التالية إلى أن الكارثة مدخرة له . ويقصد الشاعر اليهودي
جيشيرون في هذه البارة إسرائيل . وقتا نذا « ياهوى » إبان أيام الرخاء في عهد جيروبريم
الثاني Oeroboam ولم يكن الأسر البابلي الذي قاد إلى انقراض تلك القبائل العشر إلا سابقا ذلك
الوقت بقرابة نصف قرن .

ثانيا : تعني الكلمات في المفهوم الإيجابي ، الحالة النفسية لفساد الشخص بفعل النجاح ،
الفقدان اللاحق للتوازن العقل والمعنوي ، الاندفاع الصعب المراس الأعلى الجموح الذي يحرف
نفسا غير متوازنة إلى محاولة إثبات المستحيل . (المؤلف)

وَيَصُورُ أَفَلَاطُونُ هَذِهِ الْكَارِثَةَ النَّفْسِيَّةَ كَمَا يَلِي :

« إِذَا ارْتَكَبَ أَحَدٌ إِثْمًا ضِدَّ قَوَائِنِ التَّنَاسُبِ ، فَأَعْطَى شَيْئًا كَبِيرًا لِلْغَايَةِ إِلَى شَيْءٍ صَغِيرٍ لِلْغَايَةِ لِيَتَوَلَّى حِمْلَهُ ، مِثْلُ : تَزْوِيدِ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ لِلْغَايَةِ بِشِرَاعٍ كَبِيرٍ لِلْغَايَةِ ، وَإِعْطَاءِ وَجِبَاتٍ ضَخْمَةٍ لِلْغَايَةِ لِجَسَمٍ صَغِيرٍ لِلْغَايَةِ ، وَإِضْفَاءِ سُلْطَاتٍ وَاسِعَةٍ لِلْغَايَةِ عَلَى نَفْسٍ صَغِيرَةٍ لِلْغَايَةِ ؛ لَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَكَانَتِ النَتِيجَةُ وَبِالْإِثْمِ تَامًا . فَفِي صُورَةِ الْحَقِّ ؛ يَسْرِعُ الْجِسْمُ الْبَطْنُ صَوْبَ الْمَرَضِ ، فِي حِينٍ يَنْدَفِعُ الْمُتَغَطِّسُ صَوْبَ الْفَجُورِ الَّذِي يَغْذِيهِ الْحَقُّ » (١) .

وَلَكِنِّي يَتَبَدَّى الْفَارَقُ بَيْنَ الطَّرَائِقِ السَّلْبِيَّةِ وَالْإِيجَابِيَّةِ لِلتَّدمِيرِ السَّاكِنِ ، لِنَبْدِأُ عَرْضَنَا لِلْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ : الْبَطْرُ ، الْحَقُّ ، الْجَائِئَةُ فِي الْمِيدَانِ الْحَرْبِيِّ الَّذِي دَنَوْنَا مِنْهُ فِي عَرْضِنَا لِعِبَارَةِ « الْاسْتِكَاةُ عَلَى مَجَازِيفِهِ »

مِنْ قَبِيلِ الْمَصَادِفَةِ أَنْ يَكُونَ سُلُوكُ جَالُوتٍ مِثَالًا فِي كَلَا الْحَالَيْنِ . فَلَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ جِهَةٍ ، كَيْفَ أَنَّهُ عَرَضَ مَصِيرَهُ لِلْهَلَاكِ بِسَبَبِ حَيَاتِهِ حَيَاةَ بَلَدَةٍ دَاخِلِ الْأُسْلُوبِ الْفَنِيِّ الَّذِي كَانَ مَنِعًا وَقَتًا مَا لِلْجُنْدِيِّ الثَّقِيلِ السِّلَاحَ ، وَعَجَزَ جَالُوتٌ عَنِ التَّنَبُّؤِ بِالْأُسْلُوبِ الْفَنِيِّ الَّذِي أُثْبِتَ دَاوُودُ أَفْضَلِيَّتَهُ عَلَى أُسْلُوبِهِ فِي مِيدَانِ الْعَمَلِ ضِدَّهُ ، كَمَا أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ مَقَاوِمَتِهِ ..

وَفِي مَكْنَتِنَا - فِي نَفْسِ الْوَقْتِ - مِلَاحِظَةٌ إِمَّاكَانَ تَلَاوُفِي تَدْمِيرِ دَاوُودَ لْجَالُوتِ ، لَوْ كَانَ خُورُ جَالُوتٍ - بِالنِّسْبَةِ لِلْأُسْلُوبِ الْفَنِيِّ - قَدْ صَاحَبَتْهُ سَلْبِيَّةٌ مُطَابِقَةٌ فِي نَفْسِيَّتِهِ الْمُمِيزَةِ . فَإِنَّهُ لَسُوءُ حَظُّ جَالُوتٍ ، لَمْ تَجَابِهِ نَظَرَتُهُ التَّجِيدِيَّةُ الْمَحَافِظَةُ إِلَى الْأُسْلُوبِ الْفَنِيِّ ، أَيْةُ سِيَاسَةٍ تَتَسَمَّى بِالْإِعْتِدَالِ . فَإِنَّهُ عَوْضًا عَنِ التَّزَامَةِ الْإِعْتِدَالِ ، مَضَى إِلَى حَالٍ سَيِّئِهِ يَنْشُدُ الْمُنَاعِبَ عَنْ طَرِيقِ إِبْرَازِهِ التَّحْدِيَّ ؛ وَيَعْتَبَرُ جَالُوتٌ فِي هَذَا ، رَمْزًا لِلرُّوحِ الْحَرْبِيَّةِ الْمُعْتَدِيَّةِ وَالْقَاصِرَةِ - مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى - فِي اسْتِعْدَادِهَا لِلزَّلَالِ . وَيَتَسَمَّى صَاحِبُ الرُّوحِ الْعَسْكَرِيَّةِ مِنْ طَرَازِ

جالوت ، بثقته فى قدرته على رعاية شئونه سواء ، بالنسبة للنظام الاجتماعى القائم ، أو النظام المناهض للمجتمع . حيث تم فى نطاقه تسوية كافة المنازعات باستخدام السيف إلى درجة تجعله يقذف به إلى كفتى الميزان . ويرجع ثقل السيف كفة الميزان لصالحه ، فيشير إلى انتصاره . ويتخذ من هذا دليلا قاطعا على قدرة السيف على حسم الأمور .

على أن الأمر يتحول فى فصل القصة التالى ، فتجده يفشل فى التدليل للشخص المحايد^(١) على صحة وجهة نظره تجاه القضية التى يعنى بها عناية مطلقة . لأن مدار الحدث التالى هو تغلب عسكري آخر أقوى منه ، مما يبرهن على صحة نظرية لم يسبق حدوثها له ، تلك هى « أولئك الذين يأخذون بالسيف سوف يُبادون »

بهذه المقدمة فى وسعنا أن ننقل من المباراة الأسطورية للقصة السورية لتأمل فى طائفة من الأمثال التى يقدمها التاريخ .

٢ - آشور :

كانت الكارثة التى أودت بالقوة الحربية الآشورية عام ٦١٤ - ٦١٠ ق . م ، إحدى الكوارث العارمة المعروفة فى التاريخ . فإنها لم تتضمن فحسب دمار أداة الحرب الآشورية ، ولكنها تضمنت كذلك محو الدولة الآشورية من الوجود واستئصال الشعب الآشورى .

والشعب الآشورى جماعة لبشت قائمة أكثر من ألفى سنة ، وقامت بدور رئيسى فى جنوب غرب آسيا طوال فترة تقرب من القرنين ونصف قرن ، ثم محيت محو يكاد أن يكون تاما . ومصادقا لذلك ؛ فإنه بعد انقضاء مائتين وعشر سنوات ، تعاقب عشرة آلاف جندى يونانى من جنود قورش الصغير المرتزة على مكافئ كالا Calah ونيوى ، أثناء اتجاهمهم

عبر وادى الدجلة من ميدان معركة كوناكسا Cunaxa إلى ساحل البحر الأسود ، فأصابهم ذهول بسبب عدم عثورهم على شىء يعتد به يقارن بفخامة التحصينات ، وبمدى المنطقة التي كانت تضمها بين ظهرانيها . إذ يخلو مشهد تلك الأعمال البشرية الشاسعة من السكان . ويشير التراث الأدبي الذى خلفه أحد أعضاء التجربة العسكرية اليونانية ، إشارة ضمنية واضجة إلى سحر هذه الهياكل الفارغة التي تشهد طاقتها الجامدة على حيوية حياة زالت .

ويزداد القارئ الحديث تعجباً من وصف اكسنوفون Xnophon لما شاهده . والقارئ على علم بمصائر آشور عن طريق استكشافات علماء الآثار المحدثين لحقيقة مدارها أن أكسنوفون كان يجهل كل شىء يتصل بمحصول المدن المهجورة هذه . وعلى الرغم من أن جنوب غرب آسيا بأسرها من أورشليم إلى أراوات ومن عيلام إلى ليديا ، قد خضع لسادة هذه المدن ، وكان يرههم ، قبلما يمر أكسنوفون بهذا الطريق بمدة تقبل عن القرنين ؛ فلقد كان خير ما ذكره عنها لا يتصل بتاريخها الحقيقى ، ولم يكن اسم آشور نفسه معروفاً لديه .

وتبدو للوهلة الأولى ، صعوبة فهم مآل آشور . إذ لا يمكن إتهام العسكريين فيها بأنهم كالملقونيين والرومان والماليك قد استكانوا على مجاديفهم^(١) . لأنه عندما واجهت الآلة الحربية لكل من هؤلاء الأقوام أحداثها القتالة ، كانت قد بانت مهجورة وأعصى عن الاستصلاح . فى حين كانت الآلة الحربية الآشورية من الناحية الأخرى تفحص دائماً بدقة وإمعان ، وتجدد وتعزز حتى يوم دمارها . كما كانت ذخيرة العبقريّة الحربية التي أنتجت الجندى المدرع فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فى أول عهد آشور بالسيادة على جنوب غرب آسيا ، وجنين الفارس المدرع راي القوس

(١) أى أغلوا الراحة والكل . (المترجم)

فى القرن السابع قبل الميلاد ، أى عشية زوال آشور بالذات ، كانت تلك الذخيرة تنسم كذلك بالابتداع ، على مدار القرون السبعة التى تخللت الفترة السابقة الذكر .

ونجد فى النقوش التى كُشفت فى موضعها الأصيل فى القصور الملكية ؛ تسجيلاً مصوراً مفصلاً دقيقاً للمراحل المتعاقبة التى اجتازها الحربى والأسلوب الفنى الآشوريين طوال القرون الثلاثة الأخيرة للتاريخ الآشورى . وتشهد سلسلة النقوش هذه ، بتلك الروح الابتكارية والحمية المتوثبة لإدخال التحسينات التى كانت بدورها علامات اليوم الأخير للمزاج الآشورى ذى النزعة الحربية . إذ نجد هنا سجل التجربة والتحسين متواصلين بالنسبة لمادة عدة الحرب وتصميم العربات الحربية ، وفى أسلحة الهجوم وفى اختلاف الكتائب المخصصة لأغراض معينة .

فما هو علة تدمير آشور ؟

يطالعنا فى المحل الأول : سياسة الهجوم المتصل . إذ كان استحوار آشور على أداة بطاشة ما أغراها بوضع هذه السياسة موضع التنفيذ . ودفعت هذه السياسة سادة الحرب الآشوريين إبان دورة نزعتهم الحربية الرابعة والأخيرة ، إلى توسعة نطاق مشروعاتهم واضطلاعهم بأعمال أبعد كثيراً من التخوم التى احتفظ بها أسلافهم . فكان أن تعرضت آشور باستمرار إلى الاستنجد بمواردها الحربية قبل أى شئ فى سبيل الوفاء بواجبها ؛ باعتبارها الحافظ على تخوم العالم البابلى ضد سكان الجبال الهمج فى زاجروس Zagros وطوروس Taurus فى جانب ؛ وضد رواد الحضارة السورية من الآراميين ، فى الجانب الآخر . ولقد رضيت آشور إبان الدورات الثلاث المبكرة لنزعتها الحربية ، بالانتقال من الدفاع إلى الهجوم على هاتين الجبهتين ، دون أن تلج فى دفع هذا الهجوم إلى الحد الأقصى ، ومن غير أن تشتت قواها فى اتجاهات أخرى . ورغم أن ذلك فإن الدورة

الثالثة التي شغلت الربعين الأوسطين من القرن التاسع قبل الميلاد ، قد استنارت في سوريا حلفاً موقتاً من الدول السورية استطاع صد الزحف الآشوري عند قرقر Quarqar عام ٨٥٣ ق . م . كما واجهته أرمينيا بإجابة بدهية ، مدارها تأسيس مملكة أوراتو Auratu .

ورغماً عن هذه التدُّر ، فإنه عندما شرع تيجلات ييلسر Tiglath Pileser (٧٤٧ - ٧٢٧ ق . م) في شن آخر الهجمات الآشورية وأضعفها ، أضمر في نفسه أطماعاً سياسية ترنو إلى تحقيق أهداف حربية جعلت آشور تواجه حلفاً من ثلاثة خصوم جدد - بابل وعيلام ومصر - كان كل منها قوة حربية مرتقبة توازي قوة آشور نفسها .

وأثار تيجلات ييلسر نزاعاً مع مصر - استخدمه خلفاؤه - وذلك وقتما نصب نفسه لاستكمال إخضاع الدويلات السورية . لأن مصر ما كانت لتقبل أن تظل ساكنة على امتداد الإمبراطورية الآشورية حتى حدودها ذاتها . وكانت مصر في وضع يمكنها من إحباط عمل بناء الإمبراطورية الآشورية أو إبطاله ؛ إلا إن قرروا شل حركتها تنفيذ مشروع أشد هولا ، ينتهي إلى إخضاع مصر نفسها . وقد يكون احتلال تيجلات ييلسر الحريء لفلسطين عام ٧٣٤ ق . م دمية مُصممة^(١) من الناحية الاستراتيجية أثمرت بصفة مؤقتة إخضاع الناصرة عام ٧٣٣ ق . م وسقوط دمشق عام ٧٢٢ ق . م ، هذا قاد إلى احتكاك ساراجون Saragon عام ٧٢٠ ق . م بمصر واحتكاك سنحريب Sennacherib بها عام ٧٠٠ ق . م . وقادت هذه الاصطدامات غير الحاسمة يدورها إلى غزو أسارهادون Esarhaddon مصر واحتلاله إياها ، إبان خلات ٦٧٥ و ٦٧٤ و ٦٧١ ق . م

وما لبث أن بدا للعيان أنه إذا كانت الجيوش الآشورية من القوة لتدمر الجيوش المصرية ، وتحتل أرض مصر ، وتعيد إتيان هذا العمل القذ ؛

(١) لى ضربة مسلم . (المترجم)

لأنها لم تكن بالقوة الكافية لاستبقاء خضوع مصر. وهذا ما جعل أسارها دون نفيها يزمع التوجه إلى مصر مرة أخرى لكن الموت اختطفه عام ٦٦٩ ق. م. وإذا كان آشور بانيبال Aechurbanipal قد أخذ الثورة المصرية عام ٦٦٧ ق. م. ، فقد اقتضاه الأمر أن يعيد فتح مصر عام ٦٦٣ ق. م. ولا شك أن الحكومة الآشورية قد أدركت وقتذاك أنها تخوض في مصر معركة نفسانية الطابع . وهذا ما حدا بأشور بانيبال أن يغض الطرف عما كان يجري بمصر وقتما تولى بسماتيك طرد الحاميات الآشورية .

ولا شبهة في حكمة ملك آشور وقتما ارتضى ضياع مصر من بين يديه . بيد أن هذه الحكمة اعتبرت بعد وقوع الحدث تسليماً بأن الحملات الخمس على مصر قد ضاعت هباء . يضاف إلى ذلك أن ضياع مصر كان مقدمة لضياع سوريا في الجيل التالي .

وكانت العواقب النهائية لتدخل تيجلات - بيليسر في بابل ، أفدح خطراً من عواقب سياسته المبكرة في سوريا . فإنها قد أدت بفضل سلسلة من السبب والنتيجة ، إلى نكبة ٦١٤ - ٦١٠ ق. م. .

وثمة إمارة على توافر قسط من الاعتدال السياسي إبان المراحل المبكرة للاعتداء الحربى الآشورى على بابل . إذ آثرت الدولة الغازية وقتذاك إقامة محميات يدير شئونها أمراء محليون يخضعون لآشور ، عن إلحاقها بها تماماً . لكن ثورة خليدونية الكبرى خلال ٦٩٤ - ٦٨٩ ق. م. قد دفعت سنحريب أن يضع رسمياً حداً لاستقلال بابل ، بتنصيبه ابنه وولى عهده أسارها دون حاكماً على بابل . إلا أن هذه السياسة المعتدلة قد أخفقت في إستالة سكان خليدونية ، ولم يتعد أثرها تشجيعهم على مجابهة التحدى الحربى الآشورى بقوة متزايدة . وعمل أهال خليدونية تحت ضغط ضربات مطرقة العسكرية الآشورية على تنظيم شئونهم الداخلية المضطربة ، وكفلوا تحالفاً مع مملكة عيلام المجاورة .

ولما نبذت آشور سياسة الاعتدال السياسى فى المرحلة التالية ، وعمدت إلى نهب بابل عام ٦٨٩ ق . م ، كان ذلك درساً أقى بعكس المقصود منه . إذ جعل سكان المدن القديمة هم وقبائل البدو الخليدونيين المتطفلين ، يتناسون - بدافع من كراهيتهم العمياء التى استثارها هذا العدوان الآشورى المريع - نفورهم المتبادل ، فانصهروا جميعاً فى أمة بابلية جديدة لا تستطيع أن تنسى أو تصفح ، والتى لا تقدر أن تستكين إلا بعد أن تطرح بخصمها أرضاً .

على أن ضربة « الجائحة » المحتومة قد تأجلت طوال معظم قرن من الزمان ، بفضل الكفاية التقدمية للجهاز الحربى الآشورى . ففى عام ٦٣٩ ق . م مثلاً ، تلقت عيلام ضربة قاضية انتقلت بها أرضها المهجورة إلى حوزة الفرس المجلبين من حداثها الشرقى . وكان أن اتخذها الاخيميانيون نقطة وثوب سيطروا منها بعد هذا التاريخ بقرن على جميع جنوب غرب آسيا . على أن بابل قد ثارت مرة أخرى عقب وفاة آشور بانيبال مباشرة عام ٦٢٦ ق . م تحت زعامة نابوبولاصار Nabopolassar الذى وجد فى ميديا حليفاً ذا بأس ، فكان أن أمحت آشور من وجه الخارطة فى غضون ستة عشر عاماً .

وإذا تطلعنا إلى الورا عبر فترة القرن ونصفه التى اتسمت باشتداد حدة الحرب والتى بدأت بتسلم تيجلات بيلىسر العرش عام ٧٤٥ ق . م وانتهت بانتصار نبوخذ نصر Nebuchadnezzar على الفرعون نحاو Nechu فى موقعة قرقيش Carchemish عام ٦٠٥ ق . م ، نجد أن الأحداث التاريخية التى تبرز لدى النظرة الأولى ، هى الضربات القاضية المتتابعة التى دمرت بها آشور جماعات بأسرها وساوت مدناً بالأرض وحملت إلى الأسر سكاناً بأجمعهم : دمشق عام ٧٣٢ ق . م وسامروا عام ٨٢٢ ، وموساسير Musasir عام ٧١٤ ق . م وبابل عام ٦٨٩ ق . م وصيدا عام ٦٧٧ ق . م ومغفيس عام ٦٧١ ق . م وطية عام ٦٦٣ ق . م وسوسا Susa حوالى عام

٦٣٩ ق . م . ولم يسلم من عدوان الآشوريين - إلى أن خربت نينوى نفسها عام ٦١٢ ق . م - سوى صور والقدس ، من جميع كبرى مدن الدول التي بلغت جميعها الذراع الآشورية .

وإن البؤس والدمار اللذين ابتلت بهما آشور جيرانها ، لها فوق ما يتصور . وتذكرنا الأقاصيص الوقحة الشرسة التي يعرض فيها سادة الحرب الآشوريون سجلات أعمالهم بشكل ساذج ، بذلك القول المأثور عن المدرس المتناق الذي يذكر للصبي الذي يجلده ، بأن الجلد يؤلمه (أى المدرس) أكثر مما يؤلم التلميذ . وإذا كان جميع ضحايا آشور الذين ذكرتهم هذه السجلات قد كافحوا ليعودوا إلى الحياة ، وينتظر بعضهم مستقبل عظيم ؛ إلا أن نينوى قد سقطت ميتة ولم تبعث قط .

وليس مبعث هذا التعارض في مصرى آشور وضحاياها ، مما يصعب الاهتداء إليه . فإن آشور كانت وهى خلف واجهة انتصاراتها العسكرية ، تقدم على ارتكاب انتحار بطيء . وإن كل مانعها عن تاريخها الداخلى طوال الفترة التي نستعرضها ، ليهي لنا دليلاً قاطعاً عن الاضطراب السياسى والحرب الاقتصادى والثقافة المتدهورة وتفشى نقص السكان : ويبدى الانتشار الثابت الواضح للغة الآرامية على حساب اللغة الأكادية المحلية في الموطن الآشورى إبان فترة القرن ونصف القرن الأخيرة من وجود آشور ، على أن أسرى القوس والحربة الآشوريين كانوا يحلون سلمياً محل الشعب الآشورى ، في عصر كانت فيه القوة الحربية الآشورية ما تزال في أوجها . فإن المحارب الذي لا يقهر الذي وقف متحفزاً في نينوى عام ٦١٢ ق . م ، كان في الواقع جثة في سلاحها ، أمكن المحافظة على انتصاتها ، بفضل جسامه العتاد الحربي الذي ضيق الخناق على به هذا المتحرفات به .

ولما بلغت عاصفة الجانب المبدى والبابلي مظهر التوتر والوعيد ،

وانطلقت تقفع تقذف بركام بناء القرميد صوب أسفل الخندق ؛ لم يكن الميديون والبابليون يشكّون في أن خصمهم المرعب لم يعد إنسانا على قيد الحياة . فكان أن وجهوا إليه ضربتهم الجريئة والقاضية .

إن مصير آشور طراز وحده ، فإن لوحة « الجنة في سلاحها » تعيد إلى الذهن رؤيا القليل الاسبرطى في ميدان معركة لوكترا Leuctra عام ٣٧١ ق . م والانكشاريين في الخنادق أمام فيينا عام ١٦٨٣ ميلادية .

ويذكرنا المآل الساهر لصاحب النزعة العسكرية ، الذى تصل درجة انخراطه في شن حروب الإبادة ضد جيرانه إلى حد إلحاقه - عن غير قصد - التدمير بنفسه ؛ يذكرنا بما جرّه الكارولينيون والتموريون على أنفسهم ؛ فإنهم قد شيدوا إمبراطوريات ضخمة على أسس من أوجاع ضحاياهم السكسونيين والفرس على التوالي ، ليقدموها غنائم للأفاقين السكندنافيين والأزبك الذين عاشوا ليشاهدوا فرصتهم ويقتنصوها . وذلك وقتما نال مشيدو الإمبراطوريات جزاء اتجاههم الاستعماري بترديهم في هاوية القصور الذاتي ، في غضون عمر واحد .

وثمة مظهر آخر للانتحار ، يعيده إلى أذهاننا المثال الأشورى . ويتمثل فيما يلحقه بأنفسهم من دمار ، أولئك العسكريون سواء أكانوا برابرة أو ينتسبون إلى شعوب ذات ثقافة عالية . فإنهم قد اقتحموا وخرّبوا طائفة من الدول العالية ، أو الإمبراطوريات الكبرى التى كانت تمنح فترة سلام للشعوب والأراضى التى كانت تبسط عليهم سلطانتها . ومن ثم عرض الغزاة - بتمزيقهم جورا الستار الإمبراطورى - الملايين إلى غاوى الظلام وظل الموت ، وكان هذا الستار الإمبراطورى يحميهم منها . لكن ظل الموت قد هبط جامدا على الجنة كما هبط على ضحاياهم . فإن هؤلاء السادة الجدد لعالم اغتصبوه - وقد أصابهم الانحلال الخلقي بفعل تهور

أسلوبهم - في وسعهم مثل قطط كيلكني Kilkenny^(١) التي كانت الواحدة منها تقدم لأخواتها ضربة تخلصها من الحياة بأكملها ، فلم يبق منها في النهاية قطعة تنعم بالأسلاب .

وفي وسعنا أن نراقب المقدونيين وقتما اجتاحتها الإمبراطورية الأخمينية واندفعوا وراء أقصى حدودها صوب الهند ، ثم حولوا جيوشهم بنفس الشراسة لقتال بعضهم بعضا طوال فترة الاثنتين والأربعين سنة الواقعة بين وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق . م وخلق ليسياخوس Lusimachus^(٢) في كورايديوم Corupuedim عام ٢٨١ ق . م .

وتكرر الفعل الكاليج بعد ذلك بألف سنة وقتما حذا المسلمون الأولون حذو المقدونيين - وبذلك نسخوه - باجتياحهم في غضون اثنتي عشرة سنة ، الأملاك الرومانية والساسانية في جنوب غرب آسيا التي تبلغ مساحتها تقريبا نفس المساحة التي فتحها الإسكندر قبل ذلك في غضون أحد عشر عاما . فإن فترة الفتح العربي التي استغرقت اثنتي عشرة سنة ، قد تلاها أربعة وعشرون عاما من صراع العربي لأخيه . وهكذا وقع الغزاة ضحايا - سيوف بعضهم بعضا . وكان أن وقع مجد إعادة تشييد الدولة العالمية السورية وغيانها في أيدي الأمويين المعتصمين ، والعباسيين المتطفلين ، عوضا عن احتفاظ صحابة الرسول وذريته به ، وهم الذين مهدت غزواتهم المتألقة سبيل هذا المجد .

(١) مقاطعة في إيرلندة . (المترجم)

(٢) قائد مقدوني (٣٦٠ - ٢٨١ ق . م) من قواد الإسكندر استولى على تراقية والأقطار المجاورة لها حتى نهر الدانوب واستطاع بفضل تحالفه مع سلوقس أن يهزم جيوش قائدين من قواد الإسكندر الآخرين هما انتيجدنوس وديمتريوس في موقعة ايبسوس عام ٣٩١ ق . م واستولى على مقدونيا نفسها عام ٢٨٦ ق . م ثم مات بعد هزيمة سلوقس له في سهل كوروس . (المترجم)

كذلك أبدى الرابرة الذين اجتاحتها المقاطعات المهجورة للإمبراطورية الرومانية المتداعية ، نفس الروح العسكرية الانتحارية الذاتية الآشورية ، على غرار ما سبق أن بيناه في موضع سابق من هذه الدراسة .

على أن ثمة ضربا من الضلال العسكى سنجد طرازا منه كذلك في النزعة الحربية الآشورية ، عند ما نلتقى بآشور في وضعها اللاتى ، بحسبانها جزءاً لا يتجزأ من الكيان الاجتماعى الأكبر الذى دعواته بالمجتمع البابلى . فخلد كانت آشور في هذا المجتمع حدا لا يقتصر دفاعه على كيانه فحسب ، لكنه يمتد إلى بقية العالم الذى هو جزء منه ، ضد سكان الجبال في الشمال والشرق ، وضد رواد المجتمع السورى المعتدين في الجنوب والغرب . وإن مجتمعا يرتبط بحد من هذا النوع ينبثق عن نسيج اجتماعى سابق غير مميز ، من شأنه إفادة جميع أعضائه . ذلك لأنه وإن كان الحد يُستثار إلى المدى الذى يستجيب عنده بنجاح إلى التحدى المناسب المتصل بمقاومة الضغوط الخارجية ، فإنه يعفى داخل البلاد من الضغط ، ويترك طليقا لمجابهة تحديات أخرى وينجز مهام أخرى .

يبد أن تقسيم العمل هذا ينهار ؛ إن اتخذ جنود الحدود من الأسلحة التى تعلموا كيفية استعمالها لمواجهة الأجنبي ، أداة لتحقيق أطاعهم على حساب أعضاء مجتمعهم الداخليين . إذ يستتبع تحولهم ، نشوب حرب أهلية . ونفسر هذه الفكرة ، العواقب التى انبثقت في نهاية الأمر عن فعل تيجلات — بيليسر Tiglath-Pileser الثالث عام ٧٤٥ ق . م وقتما حول أسلحته الآشورية ضد بابل . إذ يعتبر انحراف الحد الذى تحول ضد نفسه المجتمع ، خطرا بطبيعته ذاتها على المجتمع في مجموعه ، كما أنه يعتبر من الناحية الأخرى — فعلا انتحاريا يرتكبه رجل الحد في حق نفسه . إذ يشابه فعله ، خراغ سيف تغمد السلاح ، في الجسم الذى هو عضو فيه ؛ مثله

مثل قاطع الأشجار الذى ينشر الفرع الذى يجلس عليه ، فهوى سمعه إلى الأرض مخطما ، بينما يظل بدن الشجرة المبتورة على حاله .

٣ - شارلمان :

لعل تحرك الفرنجة الأوستراسيين عام ٧٢٤ ميلادية للاحتجاج بشدة ضد قرار فائدهم بين Pepin بحمل السلاح ضد إخوانهم اللومباردين ، يُعزى إلى رية بدئية في سوء توجيه نواحي النشاط التى ناقشناها في الفقرة السابقة . فإن البابوية وجهت أنظارها صوب هذه الدولة الواقعة وراء الألب ، وأهاجت مطمح بين عام ٧٤٩ بتتويجه ملكاً فأضفت بذلك شرعية على حكمه الواقعي . لأن أوستراشيا كانت قد ميزت نفسها إبان جيل بين عن طريق خدماتها كحد على جبهتين :

الأولى : ضد الساكسونيين الوثنيين وراء الراين .

الثانية : ضد غزاة العرب المسلمين في شبه جزيرة أيبيريا ، الذين كانوا يضغطون عبر جبال البرانس .

فكان أن دُعى الأوستراسيون عام ٧٥٤ ميلادية إلى صرف النظر عن توجيه نشاطهم إلى الميدانين السالفي الذكر حيث كانوا يجدون فيهما وفاء برسالتهم الحقيقية . وعوضا عن ذلك تكريس هذا النشاط صوب تدمير اللومباردين الذين كانوا يقفون عقبة في طريق مطامح البابوية السياسية . ولقد بررت الأحداث صدق شكوك جبهة الأوستراسيين في هذا المشروع ، تبريراً يفوق في درجته ، اشتاء زعيمهم له . ذلك لأن بين قد صهر - بعدم مبالاته باعتراضات تابعة الأمراء - أول حلقة في سلسلة الارتباطات الحربية والسياسية التى ربطت استراشيا بإيطاليا ؛ ارتباطاً أخذ يشتد بتوالى الأيام . فإن حملته الإيطالية عام ٧٥٥ - ٧٥٦ جرت وراءها حملة شارلمان خلال ٧٧٣ - ٤ ، وهى الحملة التى عرقلت غزو سكسونيا ، وكان بالكاد قد شرع فيه .

ومن ثم فإن عمليات شارلمان الحربية الشاقة في سكسونيا في سياق الثلاثين عاماً التالية ، قد أوقف سيرها بما لا يقل عن أربع مرات ، بشوّه أزمات المدن الإيطالية . تلك الأزمات التي تطلبت وجوده في أماكن حدودها ، فترات تختلف باختلافها .

وبالحرى ، ترتب عن مطامع شارلمان غير المحددة والمتناقضة ، زيادة وطأة الأعباء المفروضة على رعاياه ، إلى حد أن تسبب الحمل الملقى على أوستراسيا في تحطيم ظهرها .

٤ - تيمور لنك :

قسم تيمور بنفس الكيفية ظهر وطنه بلاد ما وراء النهر^(١) . بتبديده على الغزوات الضالة صوب إيران والعراق والهند والأناضول وسوريا ، الذخيرة الزهيدة لقوة بلاد ما وراء النهر . وما كان أجدره بأن يركّزها على تحقيق رسالته الأصلية ، أكثر من أن يفرض دولته على البدو الأوراسيين .

كانت بلاد ما وراء النهر هي خد المجتمع الإيراني الحضري ، تجاه عام البدو الأوراسيين . وكان تيمور طوال التسعة عشر عاماً الأولى من حكمه (١٣٦٢ - ٨٠) قد عُنِيَ بمهمته الأصلية ، مهمة حافظ الحدود . وإذا كان قد صدّ في بداية الأمر ، إلا أنه عاود الهجوم بعد ذلك ضد بدو القطا Chagatay موسعاً نطاق أملاكه بتحريره واحة خوارزم على نهر جيحون من بدو جوجي .

وأنجز تيمور هذه المهمة الضخمة عام ١٣٨٠ . وكان بإمكانه الاستحواز على جائزة أعظم ، بانت في متناوله ، جائزة ما كانت لتقل عن ضم إمبراطورية جنكيز خان الأوراسية الكبرى إلى أملاكه . وتفسير ذلك

(١) Transoxania وتشمل الآن جمهورية أوزبكستان السوفيتية وتضم مدن طشقند

وبخارى وسمرقند وغيره . (المترجم)

أن البدو كانوا خلال جيل تيمور ، يرتدّون على جميع قطاعات الحد الطويل بين الصحراء ونهر سيحون . وقدّر للفصل التالى فى تاريخ أوراسيا ، أن يُصبح سباقاً على الاستيلاء على تراث جنكيزخان ، بين الشعوب الحضرية التى تجددت فيها الحياة : وكان المولدافيون والليتوانيون فى هذه المنافسة ، فى مكان قصى يحول بينهم وبين الاشتراك فيها ؛ وكان المسكوف عاكفين فى غاباتهم ، والصينيون على حقولهم . فأصبح القوزاق وأهالى بلاد ما وراء النهر بذلك ، هم المتنافسين الوحيدين . ويرجع ذلك إلى أنهم جنود مرتزة نجحوا فى استيطان السهب دون أن ينبذوا الأسس الحضرية ، وهى أسلوب حياتهم : وبدأ كما لو أن لساكن بلاد ما وراء النهر حظاً أوفر من منافسه القوزاق : ففضلا عن كونه أقوى ذاتياً وأقرب إلى قلب السهب ، فقد ظهر فى الميدان أولاً كما أنه كان يجد فى الجبايات الحضارية المسلمة التى كانت نقط حدود الإسلام على سواحل السهب الموجهة ، حلفاء يساعدهونه بسبب دفاعه عن السنّة .

وبدأ تيمور لحظة أنه يقدر فرصته ، وأنه يتشبث بها فى إصرار . لكنه انخرط عن هذا القصد بتوجيه أسلحته ضد داخلية العالم الإيراني ، وتكريس الأربعة والعشرين عاماً الأخيرة من حياته تقريباً ، لشن سلسلة من الحملات العقيمة والمدمرة صوب هذه الناحية . فكان مدى انتصاراته مثيراً بقدر ما كانت نتائجها انتحارية الطابع .

وتعتبر إساءة تيمور إلى نفسه ، مثالا واضحاً غاية الوضوح لاتجاه الروح العسكرية صوب الانتحار . فلم يقيّض لإمبراطوريته أن تعيش . بل إن كافة ما خلفته تلك الإمبراطورية ، جاء خلواً من التأثيرات الإيجابية ، فكان أن اقتصر ما خلفته على الناحية السلبية المحضة . ذلك لأن نزعة تيمور الاستبدادية ، قد خلفت باكتساحها كل شىء وجدته فى طريقها فى اندفاعها الأرعن نحو

دمارها نفسها ، قد أوجدت فراغاً جرّ العثمانيين والصفويين^(١) في النهاية صوب ارتطام ، كانت فيه الضربة القاضية على المجتمع الإيراني .

وبدا تقصير المجتمع الإيراني أول ما بدا بفعل رعونة تيمورلنك ، في عجزه عن أن يرث العالم البدوي في المجال الديني .

وتفسير ذلك ، أن تقدّم الإسلام ظل مطرداً طوال القرون الأربعة التي انتهت بعصر تيمور ، فاستقام له الأمر على الشعوب الحضرية حول شواطئ السهب الأوراسي . إذ طفق يسعى إلى بسط سيطرته على البدو أنفسهم عند ما يغادرون السهب قاصدين الأرض المزروعة . حتى لقد بدا إبان القرن الرابع عشر كما لو أنه ليس ثمة ما يحول بين الإسلام وصيرورته دين أوراسيا . ولكن بعد ما اتخذت أفعال تيمور سبيلها على النسق التدميري المتقدم ، وقف تقدم الإسلام في أوراسيا إلى الأبد . بل تحول المغول والكالوك بعد ذلك بقرنين إلى اللامى^(٢) من بوذية ماهايانا . ويزودنا هذا الانتصار العجيب لهذه البقية المتحجرة من الحياة الدينية للحضارة السندية البائدة منذ زمن طويل ، بنوع من المقياس نستخدمه لمعرفة مدى درجة تدهور مكانة الإسلام عند البدو الأوراسيين في غضون القرنين اللذين انقضيا منذ أيام تيمور .

والمثل يقال عن الثقافة . فقد ثبت إفلاس الثقافة الإيرانية التي ذاد عنها تيمور في بداية الأمر ، ثم خانها بعد ذلك : فإن المجتمعات الحضرية التي حققت أخيراً مأثرة ترويض البداوة الأوراسية سياسياً ، كانت مجتمعات روسية وصينية .

(١) أى الأتراك العثمانيون والإيرانيون في عهد الأسرة الصفوية التي كان ألمع ملوكها الشاه إسماعيل الصفوي الذي عاصر السلطان سليم الأول العثماني وقاتله ، كما عاصر السلطان النوري بمصر . (المترجم)

(٢) اللامى نسبة إلى اللاما ، وفيه يتجسد البوذا ، وكان مركزه التبت قبل استيلاء الشيوعيين الصينيين عليها . (المترجم)

ولقد أصبح التنبؤ بهذه النتيجة النهائية المتصلة بالمأساة الرتيبة المتكررة في التاريخ البدوي ، أمرا ميسورا . وذلك قتما اتجه القوازي خدام موسكو ، والمانشو سادة الصين ، كل صوب الآخر . وكانوا يتحسسون طريقهم في انجائهم متعاضين حول الطرف الشمال من السبب ، فحاضوا أولى معاركهم للسيطرة على أوراسيا على مقربة من مراعى أجداد جنكيز خان في الخوض الأعلى من نهر أمور . ولقد استكمل تقسيم أوراسيا بين هذين المتنافسين بعد ذلك بقرن .

ومما يبعث على العجب ، فكرة مؤداها : أنه لو لم يول تيمور ظهوره إلى أوراسيا ويصوب أسلحته تجاه إيران عام ١٣٨١ ، لكانت العلاقات بين بلاد ما وراء النهر وروسيا ، عكس ما هي عليه بالفعل في الوقت الحاضر . ففي ظل هذه الظروف الافتراضية ، ربما تجد روسيا نفسها اليوم داخل نطاق إمبراطورية تضم نفس مساحة الاتحاد السوفيتي الحالية ، ولكن مع اختلاف الأهمية ؛ إمبراطورية إيرانية تحكم فيها سمرقند موسكو عوضا عن أن تحكم موسكو سمرقند .

وقد تبدو هذه الصورة الخيالية شاذة . لأن حقيقة الأحداث السيئة طوال خمسة قرون ونصف قرن ، ناقضت ذلك تماما . لكن تتضح لنا حقيقتها ، إن رسمنا خط سير أحداث التاريخ الغربي بافتراض اتجاه شارلمان - الذي تمتاز أعماله الحربية بأنها أقل عنفا وانحرافا - إلى تدمير الحضارة الغربية على غرار ما فعله تيمور في الحضارة الإيرانية . هنا يصبح علينا وفقا لهذا القياس ، أن نصور أوستراسيا خاضعة للمجريين ، ونوستريا خاضعة للفايكنج إبان ظلام القرن العاشر . ويظل قلب إمبراطورية شارلمان - من ثم - تحت سيطرة البرابرة ؛ إلى أن يفرض الأتراك في القرن الرابع عشر سيطرتهم الأجنبية ، وهي سيطرة تبدو أقل ضررا على هذه الحدود المسيحية الغربية المهجورة .

يبد أن أفطع ما ارتكبه تيمور من أفعال التدمير . كان ضد شخصية ذاته . فلقد جعل اسمه خالدا بأفعال التدمير التي نحت من ذهن الأجيال ، كل ذكرى للأفعال التي كان يمكن أن يذكر بها ذكرى حسنة .

فكم من الناس في المسيحية أو دار الإسلام بذكرهم اسم تيمور ، يتصورونه نصير الحضارة ضد البربرية . وأنه هو الذي قاد رجال الدين وشعب بلاده في معركة كان النصر فيها عسيراً في نهاية تسعة عشر عاماً طويلة من الصراع في سبيل الاستقلال ؟

فإن اسم تيمورلنك يعنى عند أكثرية الناس الساجقة ، شخصية عسكرية اقترفت قدراً من الفظائع طوال فترة الأربعة والعشرين عاماً من حكمه ؛ مثلما اقترفه الملوك الآشوريون الآخرون خلال مائة وعشرين سنة . إننا نتخيل المجرم الذي ساوى مدينة اسفراين بالأرض عام ١٣٨١ ، واستخدم عام ١٣٨٣ ألقى أسير في بناء سليزاوان ، وكندس خمسة آلاف رأس بشرية في المآذن في زيرى في نفس السنة ، وطرح أسراه من لوريستان أحياء من أعلى المنحدرات عام ١٣٨٦ . وذبح سبعين ألف شخص وجمع رؤوس القتلى في هيئة مآذن في أصفهان عام ١٣٨٧ وذبح مائة ألف أسير في دلهي عام ١٣٩٨ ، ودفن أحياء أربعة آلاف جندي مسيحي من حامية سنيواس عقب القبض عليهم عام ١٤٠٠ . وابتلى عشرين برجا من هاجم القتلى في سوريا عامي ١٤٠٠ - ١٤٠١ .

إن تيمور قد جعل ذكراه تختلط في أذهان أولئك الذين يعرفونه بمثل هذه الأفعال ، بذكرى غيلان السهب مثل جنكيز خان واتيلا وأتراهما - الذين أمضى تيمور النصف الأول من حياته وأحسنه ، في شن حرب جهاد ضدهم .

وإن جنون العظمة التي جعلت تيمور يصاب بجنون التدمير ، قد تحكمت في فكرة واحدة مدارها الإيحاء إلى مخيلة الإنسانية بإدراك قوته الحربية عن طريق

الإساءة إلى البشر إساءة منكورة . ولقد أشير إلى تلك النزعة ، ضمناً في صورة
لامعة ، في المبالغات التي وضعها الشاعر الإنجليزي مارلو Marlowe على لسان
شخصية تامبولين Tambulaine أى تيمورلنك :

تنازل رب الحرب عن سلطانه إلى

رامياً إلى تعييني قائداً للعالم

إن جوبيتر وقد رآني في السلاح ، قد بدا ممتقاً وكثيراً

خشية أن تنزعه قوتي عن عرشه

من أية جهة أفد منها ، ترهن الأخوات المشنومات

والموت الزوام بالجري هنا وهناك

ولترفع آيات الولاء إلى سيفي

تجلس ملايين النفوس على شواطئ العالم السفلي

ترقب رجعة قارب شارون

إن جهنم ودار النعم ترخران بأشباح الناس

الذين أرسلتهم من ميادين القتال المختلفة

لينشروا شهرتي عبر جهنم وحتى السماء^(١)

هـ - حارس التخوم يتحول إلى قاطع طريق :

لاحظنا في تخاليل أعمال تيمور وشارلمان والملوك الآشوريين الأخيرين ،
نفس الظاهرة في جميع الحالات الثلاث ؛ ظاهره أن الجسارة العسكرية
التي ينميها مجتمع في سكان حدود بلاده بغية الدفاع عن هذا المجتمع ضد
أعدائه الخارجين ، تتعرض إلى تحول - ينذر بالشؤم - قوامه تمكن النزعة
الحرية في هؤلاء السكان . ويتم ذلك وقتما توجه تلك الجسارة العسكرية من

Marlowe, Christopher : Tamburlaine, the greet, 11. 2239-8, (١)

ميدانها الأصلى نحو المنطقة غير المملوكة لأحد خلف الحد ، وتوجه صوب الداخل ضد المجتمع نفسه . وسيتبنا لأذهاننا عدد من أمثلة هذه الرذيلة الاجتماعية الأخرى .

وستطوف بأذهاننا حالة مرسيا Mercia لما تحولت ضد الدول الإنجليزية الأخرى التى خلقت الإمبراطورية الرومانية فى بريطانيا ، والتى شحذت أسلحتها لتولى وظيفتها الأصلية كحد إنجليزى ضد ويلز . كما سنفكر فى المملكة البلانتاجينية Plantagenet^(١) فى محاولتها خلال حرب المائة سنة غزو فرنسا المملكة الشقيقة ، عوضاً عن أن تستمر فى إنجاز عملها الأصلى من توسيع نطاق أهمها المشتركة - المسيحية اللاتينية - على حساب المذهب السلى . وسنفكر كذلك فى روجر ملك صقلية النورماندى موجهاً طاقاته الحربية لتوسيع حدود أملاكه فى إيطاليا ، عوضاً عن إنجاز عمل أسلافه لتوسيع حدود المسيحية الغربية فى البحر الأبيض المتوسط على حساب المسيحية الأرثوذكسية ودار الإسلام .

والمثل يقال عن نقط الحدود المسيحية للحضارة المينوية على الأرض الأوروبية الأصلية ، التى أساءت استخدام الجسارة التى اكتسبها بالمحافظة على نفسها ضد برايرة القارة ، باتجاهها نحو تمزيق أمها كريت .

ويتمثل الحد الجنوبي التقليدى للدنيا المصرية ، فى القسم من وادى النيل الذى يقع وراء الشلال الأول مباشرة . ولم تكن الغاية من تدريبه أن يواجه ضد الجماعات الداخلية لينشىء - باستخدام القوة الفاشية - المملكة المتحدة للتاجين^(٢) بل انحصرت الغاية من إيجاده فى حمل السلاح لتنفيذ واجبه فى احتجاز هجج النوبيين^(٣) فوق النهر . ولقد صور مقترف هذا الفعل ذا الطابع

(١) لقب يطلق على بيت انجوين الذى حكم إنجلترا عام ١١٥٤ ميلادية وأول ملوك هنرى الثانى وقد ظل يحكم إنجلترا إلى أن خلع ريتشارد الثانى عام ١٣٩٩ . (المترجم)

(٢) أى تاج الوجه البحرى الأحمر وتاج الوجه القبل الأبيض . (المترجم)

(٣) كما كانوا فى تلك الأزمان الحقيقة جدا . (المترجم)

العسكري في مجل من سجلات الحضارة المصرية اكتشف ميكراً ، تصويراً
يتم عن رضاه عن نفسه رضاه تاماً . ذلك السجل هو لوحة نعرمر^(١) التي
تبين العودة المنتصرة لسيد حرب في مصر العليا من غزو مصر السفلى . وفيها
رسم الفاتح الملكي في حجم يفوق أحجام البشر بشكل غير مألوف ،
يسير متيخناً خلف صف من حاملي الأعلام صوب صف مزدوج من جث
العدو المقطوعى الرؤوس ؛ بينما نجد نعرمر أسفل اللوحة في هيئة ثور يطأ
بأقدامه خصماً ساقطاً ، ويدك حيطان مدينة محصنة . ويُعتقد أن الكتلة
المصاحبة للصورة تعدد أسلاباً عبارة عن ١٢٠ ألف أسير بشرى و ٤٠ ألف
ثور و ١٠٠ و ١٢٢ رأس من الغنم والماعز .

ويوضح لنا هذا العمل البشع من الفن المصرى العتيق ، مأساة النزعة
الحربية بأسرها ، كما مثلت المرة بعد الأخرى منذ عصر نعرمر حتى الآن .
ولعل أشد عرض للنأساة إبلاماً ، يتمثل فيما ارتكبه أثينا وقتما حولت
نفسها من محرة هيلاس إلى « مدينة طاغية » . فإن هذا الانحراف الأثينى قد
جلب على هيلاس بأسرها ، كما جلب على أثينا نفسها ، الكارثة التي لم يصلح
فياها قط : كارثة الحرب الأثينية البلوبونيزية .

ويُسَر الميدان الحربى - الذى دأبنا على استعراضه فى هذا الفصل - السبيل
لدراسة السلسلة القتالية : البطر ، الحمق ، الجائحة . فإن الحدق والإقدام
الحربيين . هما أداتان ذاتا حدّين ، قديرتان على إلحاق أضرار قاتلة بهؤلاء
الذين يُسيئون استعمالها . بيد أن ما يصدق بوضوح على الفعل الحربى ، يصدق
كذلك على أوجه النشاط البشرى الأخرى فى ميادين أقل خطورة ، حيث
تكون المادة المفجرة التى تُفضى من البطر إلى الجائحة عبر الحمق ، أقل
قدرة على التفجير .

ومهما يكن من أمر الموهبة البشرية أو محيط عملها ؛ فإن الزعم بأن

(١) هو ميتا أول فراعنة مصر المتحدة على أرجح الأقوال . (المترجم)

الموهبة التي تبرهن على قبولها - في ميدانها الأصيل - على إنجاز فعل محدد ،
يمكن الركون إليها بالتالي لتحقيق نتائج غير محدودة في ظل مجموعة من
الظروف ، مثل هذا القول يعتبر مجرد انحراف ثقافى أو معنوى يترتب على
اتباعه الردى في كرامة محققة

وعلىنا الآن أن نسرع في الخطى في الطريق الذى يقودنا إلى معرفة دافع
السبب والنتيجة ، في مجال فعل غير جبرى

(٧) نشوة النصر

البابوية

تعتبر نشوة النصر ، أكثر الأشكال شيوعاً التي تعرض فيها نفسها
جأسة : البطر ، الحق ، الحاجة ، وذلك سواء اتخذ الصراع في سبيل القوز ،
صورة معركة بأسلحة مادية ، أو تشب بين قوى روحية ،
ويتأتى تفسير كلا النوعين باستعراض تاريخ روما الذى يبدى :

— أولاً : نتيجة نشوة الانتصار الحربى — من انهيار الجمهورية خلال القرن
الثانى قبل الميلاد .

ثانياً : نشوة الانتصار الروحى — من انهيار البابوية ، أثناء القرن
الثالث عشر الميلادى .

لكننا سنقتصر هنا على بحث الموضوع الأخير . إذ قد سبقت لنا معالجة
موضوع انهيار الجمهورية الرومانية في سياق آخر .

ويبدأ ذلك الفصل من تاريخ البابوية الرومانية — وهو أعظم النظم
الغربية بأسرها الذى يعنينا بحثه — من ٢٠ ديسمبر سنة ١٠٤٦ ميلادية ،
بافتتاح الإمبراطور هنرى الثالث مجمع سوترى المقدس . وينتهى في ٢٠
ديسمبر سنة ١٨٧٠ ميلادية باحتلال جنود الملك فيكتور إمانويل روما ،
وتعتبر الجمهورية المسيحية^(١) شيئاً فذاً بين النظم البشرية . وتُسفر

المحاولات التي بذلت لتعيين طابعها بمقارنتها بالنظم المنتشرة في المجتمعات الأخرى ، عن اختلافات جوهرية ؛ حتى أن المطابقات المفروضة ، تبدو غير مجدية . ويمكن وصف تلك الجمهورية - باستخدام مصطلحات سلبية - بأنها عكس تام للنظام البابوي القيصري (الذي تعتبر الجمهورية المسيحية رد فعل اجتماعي له) وبمثابة احتجاج روحاني عليه .

ويتيح هذا التعريف تقدير ماثرة هيلدبراند^(١) :

فانقذ ألقى هيلدبراند التوسكاني نفسه بعدما اعتلى منصب البابوية إبان الربع الثاني من القرن الحادي عشر ، في نقطة حدود مهجورة من نقط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، كان يشغلها فرع للمجتمع البيزنطي أصيب بالانحلال . وكان رومانيو هذا العصر موضع ازدراء من الناحية الحربية ، ومشاغبين اجتماعياً ، ومفلسين مالياً وروحانياً . وكانوا عاجزين عن أن يصبحوا أنداداً لجيرانهم اللومبارديين . وكانوا قد فقدوا الأملاك البابوية سواء في إيطاليا أو في خارجها . ولما أصبح الأمر ، أمر رفع مستوى حياة الرهبنة ، ولوا وجوههم شطر كلوني^(٢) Cluny وراء الألب .

ونجح هيلدبراند وخلفاؤه في ظل روما المتهتة الغربية ، في خلق نظام رائع للمسيحية الغربية . وذلك بظفرهم لروما البابوية بملك كاف لها على القلوب ؛ يمثل سيطرة أعظم من سيطرة الأنطونيين . واشتملت من حيث

(١) هيلدبراند Hildebrand هو البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ - ٨٥) ولد في سوانا Soana في توسكاني حوال ١٠٢١ ، وقد حاول علاج الآثام التي تردت فيها الكنيسة قبل عهده . واختلف مع الإمبراطور هنري الرابع ، فخلفه عن البابوية ، فقابل البابا ذلك بإصدار قرار الحرمان ضده . وقد تغلب البابا في النهاية ، وأتى إليه الإمبراطور طالباً الصفح والغفران . لكن الإمبراطور ما لبث عام ١٠٨٠ أن خلق البابا من جديد وعين بدله آخر ، وحاصر روما (١٠٨١ - ٨٤) وعندئذ انسحب جريجوري السابع إلى دير ساليرنو حيث مات .
(المترجم)

(٢) مدينة في فرنسا الوسطى ، وكان يوجد بها دير صاغ رؤساؤه تلاميذ البندكتيين التي يشت روحاً إصلاحية في تلاميذ الكاثوليكية .
(المترجم)

الإشعاع المادى المحرّد ؛ على بقاع واسعة من المسيحية الغربية وراء الراين والدانوب ، لم تطأها أقدام كتائب أغسطس وماركوس أوريليوس .

وتردّ هذه الفتوحات البابوية — أكثر ما ترد — إلى دستور الجمهورية المسيحية التى طفق البابوات يوسّعون نطاقها . إذ كان من شيمة هذا الدستور ، الإيماء بالثقة عوضا عن إثارة البغضاء . وقام هذا الدستور على امتزاج المركزية اللاهوتية والتجانس ، بالتنوع السياسى والتطور . وإذا كان فضل السلطة الروحية على الدنيوية ، نقطة أصيلة فى عقيدتها الدستورية ؛ فقد أعلّى هذا المزيج من شأن الوحدة ، دون أن يترتب على ذلك انتزاع المجتمع الغربى الفنى من تلكما العنصرين : الحرية والمرونة ، وهما شرطا الارتقاء الواجبان .

بل لقد شجع بابوات القرن الثانى عشر ، حركة الاستقلال الذاتى للمدينة ، حتى فى تلك الأراضى الإيطالية المركزية التى طالبت البابوية بفرض سلطتها السياسية وكذا الدينية عليها . وعندما كانت حركة تطور المدن على أشدها فى إيطاليا لخلال بداية القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وعند ما بلغ سلطان البابوية على المسيحية الغربية أوجه ؛ أشار شاعر من ويلز إلى شدة غرابة الرقابة البابوية . إذ بينما كانت لا يؤبه لها فى روما ، كانت تجعل صولجانات الملوك فى أماكن غيرها ، تهز (١) . ولقد أحس جيرالدوس كامبرنيسيس Giraldu Cambrensis (٢) — وهو الشاعر الذى أشرنا إليه — بأنه يعرض هنا ، نقيضا كان موضع تقرير . بيد أن العامل ذاته الذى كان السبب فى قبول أغلبية أمراء مدن المسيحية الغربية السيادة البابوية مع القليل

(١) المجلد الحادى عشر ، صفحة ٧٢ من المجلد الحادى عشر

Mann, the Right Rev. Monsignor

H.K. The Lives of the Popes in the Middle Ages, vol. XI, p. 72.

(٢) جيرالدوس كامبرنيسيس (١١٤٦ - ١٢٢٠) : كاتب من ويلز . اشتهر بكتابات

فى الموضوعات الدينية . (المترجم)

من الاعتراض ، ملأه أن تصرفات البابا لم تكن تثير إذ ذاك الخوف من طغيانها على سلطة الأفراد .

وما يُحمد للسلطة الدينية البابوية وهى فى ذروة قوتها ، عزوفها عن المطامح الدنيوية . وصاحب ذلك نشاط جرىء فى الاستفادة من الموهبة الإدارية التى آلت إلى روما البابوية من بيزنطة . وفى هذا ، سلكت المسيحية الغربية عكس مسلك المسيحية الأرثوذكسية التى استخدمت موهبتها الإدارية فى إضفاء كيان مادى على شبح للإمبراطورية الرومانية ، أعيد إلى الوجود فكان أن ترتب على ذلك النظام الثقيل ، رزعرة كيان المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الفنى . ولقد دعا هذا من قاموا بتشديد الجمهورية المسيحية فى روما^(١) إلى توجيه مواردهم الإدارية وجهة أفضل ، مبناه تشييد صرح أخف من صرح الإمبراطورية ، وساروا فى هذا وفقا لخطة جديدة تقوم على قواعد أعم .

اجتذبت خيوط نسيج العنكبوت البابوى الرقيقة فى نسيجها الأصلى ، دول مسيحية القرون الوسطى الغربية معا فى وحدة غير مقيّدة ، كانت على السواء نافعة للأجزاء وللمجموع . ولم يحدث إلا بعد ذلك ، أن اخشوشن النسيج وتصلب تحت ثقل النزاع . فتحوّلت الخيوط الشبيهة بالحريز ربّاطات حديدية ، ألقت بكلّكلها على الأمراء والشعوب المحلية ، الأمر الذى جعلهم ينفلتون من القيود . وعندما فعلوا ذلك لم يلقوا بالا إلى أنهم بتحريهم أنفسهم كانوا يحطمون الوحدة الكنسية التى أقامتها البابوية وحافظت عليها :

وليست المقدرة على الإدارة واجتناب مطامع التوسع الأرضى ، هى محور الناحية الإبداعية فى العمل البابوى . بل إن مناط طاقة البابوية

(١) الجمهورية المسيحية *Repubblica Christiana* ويقصد بها الأستاذ المؤلف ، المنطقة التى كانت تحكمها البابوية . (المترجم)

الإبداعية هو في إقحامها نفسها دون تردد ومن غير أية تحفظات ، لزعامه رغبات وثابة لمجتمع فتي يهفو إلى حياة أعلى وتقدم أعظم ، وقيامها (أى البابوية) بالتعبير عنها وتنظيمها . فكان أن أضفت البابوية على هذه المطامح ، الشكل والصيت . وأحالتها بالتالى من أوهام أقلية متفرقة أو أفراد منعزلين ، إلى قضايا مشتركة ، بثت الاعتقاد بأنها جذيرة بالكفاح فى سبيلها إلى أقصى حد ، وجعلت الرجال يهتفون واقفين ، وقما بلغهم أن البابوات - الذين كانوا يشيدون مقادير البابوية على تلك القضايا - ينتهكون حرمتها .

ولقد عقد لواء النصر للجمهورية المسيحية بفضل الحملات البابوية لتطهير رجال الدين من دائن خلقيين وبيلين : التبذل الجنسي والفساد المالى . يضاف إلى هذين المعاملين تأمين الكنيسة ضد تدخل سلطات الحكومات ، وإنقاذ المسيحيين الشرقيين والأراضى المقدسة من مخالب الأتراك حماة الإسلام .

بيد أن ذلك لم يشمل جميع أعمال بابوية هيلدبراند . إذ كان للبابوات الذين نشب القتال تحت لوائهم ، رصيد من الفكر والإرادة لتكريسه لأعمال السلم التى كانت الكنيسة تستعرض فيها زبدة صفاتها وتمارس خير أوجه نشاطها الإبداعي . ومن ذلك الجامعات الناشئة ، وطوائف الرهبنة الجديدة القائمة على الاستجداء^(١) .

ويعتبر سقوط كنيسة هيلدبراند ، أمراً شاذاً كقيامها . إذ يبدو أن جميع الفضائل التى بوأها مكانها المرموق ، قد تغيرت إلى نقيضها التام ؛ وقما هبطت إلى موضعها الأدنى . فكان أن تلوث النظام الإلهى الذى طفق يقاتل فى سبيل الحرية الروحية ويفوز فى المعركة ضد القوة المادية ؛ تلوث بنفس الشر الذى نصب نفسه لإقصائه بعيداً . وهكذا أصبح الكرسي

(١). ويقصد بها طائفتى الفرنسيسكان والدومنيكان . (المترجم)

المقدس الذى تزعم الصراع ضد السيمونية^(١) ، يتطلب من رجال الدين أن يؤثروا إلى محصل روماني ، المكوس المفروضة عليهم لقاء الرقيات اللاهوتية التي فرضت روما حظراً على شرائها من أية سلطة محلية دنيوية . وبالحرى ؛ استحال العشرة الرومانية التي كانت رأس التقدم الثقافي وطلبعته ، إلى حصن الزعة المحافظة الروحية . وغدا السلطان الديني - بسبب تصرف تابعه الحكام من أمراء الدول الإقليمية التاهضة - يعاني حرمانه من حصنة الأسد في حصيلة النظم المالية والإدارية التي ابتكرتها البابوية نفسها لتجعل سلطانها فعالاً . وأخيراً كان على الأب المقدس صاحب السيادة - باعتباره أميراً محلياً على الإمارة البابوية - أن يقنع بجائزة الرضوية الحقة المتصلة بسيادته على أفعال الدول المستخلقة ، لإمبراطوريته المفقودة .

فهل سبق أن أتاح نظام ما لأعداء الرب فرصة عظيمة مثل هذه للكفر به ؟

يعتبر هذا بالتأكيد أكثر أمثلة آفة الإبداع التي لقيناها في هذه الدراسة ، تطرفاً حتى الآن .

فكيف حدث هذا ؟

ولماذا ؟

أما عن كيفية حدوثه ، فهذا ما يرمز إليه في أول عملية سجلتها سيرة هيلدبراند العامة .

فإن قادة الكنيسة الرومانية المبدعة الذين كرسوا أنفسهم إبان القرن الحادى عشر لاستنقاذ المجتمع الغربي من فوضى الإقطاع ، عن طريق إقامة جمهورية مسيحية ؛ هؤلاء القادة قد تردوا في ذات المعضلة التي غدا يتردى فيها خلفاؤهم الروحانيون الذين يسعون في عصرنا هذا إلى إحلال نظام عالمي مكان الفوضى الدولية . ومناطق الهدف الروحي للكنيسة الرومانية المبدعة ؛

(١) السيمونية Simony : الاتجار بالمقدمات والمصانقة في الرتب والوظائف الدينية .

(المترجم)

الاستعاضة بالوازع المعنوى عن القوة المادية ، وبهذا الوازع المعنوى ، تحققت انتصاراتها السامية . بيد أنه طرأت مناسبات بدا فيها كما لو أن السلطان المادى فى مركز يتيح له تحدى الوازع المعنوى دون أن يخشى عقاباً . وكان على الكنيسة الرومانية المجاهدة فى مثل هذه المواقف ، أن تحيب على تحدى اللز . فهل كان على جندى الله أن ينكر على نفسه استخدام أى شيء عدا أسلحته الروحية ؛ بما يحمله ذلك بين طياته ، من مخاطرة وروية تقدمه يقف عند حد لا يتعداه ؟

أو كان عليه أن يقاتل فى معركة الله ضد الشيطان باستخدام أسلحة الشيطان ذاته ؟

تقبل هيلدبراند الاختيار الأخير وقتما عينه البابا جريجورى السادس لحراسة الخزانة البابوية ووجد قطاع الطرق يسلبونها باستمرار ، فوجه إليهم قوة مسلحة هزمتهم هزيمة منكرة .

وكان من الصعب وقت قيام هيلدبراند بإجرائه الحربى ؛ التكهن بالطابع الخلقى الباطنى ؛ لكنه بعد انقضاء أربعين سنة عليه — أى ساعة هيلدبراند الأخيرة — أصبحت الإجابة على الأحجية أقل بالفعل غموضاً . فلقد غدت روما عام ١٠٨٥ وقتما كان يموت وهو بابا فى منفاه بدير ساليerno ؛ ملقاة ذليلة تحت ثقل كارثة شاملة جلبتها عليها ، سياسة أسقفها قبل ذلك بعام واحد . إذ اكتسح النورمانيون عام ١٠٨٥ ، روما وأحرقوها ؛ وكانوا قد دخلوها باستدعاء البابا إبان صراع عسكرى بدأ من سلام هيكال القديس بطرس — الخزانة البابوية — حتى شمل المسيحية الغربية بأسرها .

ولقد هيات ذروة الصراع المادى بين هيلدبراند والإمبراطور هنرى الرابع — بعد انقضاء أكثر من قرن ونصف — توقع عراك رهيب بين البابا إينوسنت الرابع Innocent والإمبراطور فردريك الثانى . وفى عهد بابوية إينوسنت الرابع وهو القانونى الذى استحال إلى عسكرى ، يقبّد شكتنا .

فلقد أقام هيلدبراند نفسه مذهبه الكنسى على أسلوب كان لا بد من أن يقود إلى انتصار أعدائه - أى عالم البدن والشيطان - على مدينة الرب التى كان يسعى لتمكينها فى هذه الدنيا .

« لا يقبل أى سياسى فى الحاضر كما لم يقبل قط فى الماضى
أن يؤلى ثقته لمدرس ، بل والكنيسة بمراتبها
متجمعة فى المجمع المقدس

تعمل على لإجلال القديس بطرس فى كرسي قيصر
وكأنها ترجو أن تُقيم للناس الوعود التى من أجلها
أحبوا المسيح وعبدوه ، فترخي شريعته السماوية لتمد سلطانها الدنيوى^(١)
فانحلت سنته السماوية لبسط حكمها الزمنى .

وإذ وفقنا فى تفسير كيف أن البابوية قد حل بها عفريت العنف المادى
الذى كانت تسعى إلى إقصائه عنها ، نكون قد عثرنا على تفسير تغيرات
الفضائل البابوية الأخرى ، إلى رذائل مغايرة لها . إذ يُعتبر إحلال
القوة المادية مكان الوازع المعنوى ، هو التغير الجوهرى الذى تتبعه
التغيرات الأخرى .

فماذا يفسر مثلاً ، أن الكرسي البابوى الذى كان اهتمامه بالمسائل المالية
لرجال الدين إبان القرن الحادى عشر ، محوره استئصال السيمونية ، أن
ينغمس قلباً وقالبا فى توزيع الأسلاب لحساب مرشحيه ، ثم يحصل فى
القرن الرابع عشر لحسابه هو ، على تلك الإيرادات الكنسية التى استردت
مكانها ذات مرة من فضيحة الخضوع إلى السلطات الحكومية لشراء المنصب
الدبنى العالى ؟

(١) الفصل الرابع - القسم الثانى : صفحات ٢٥٩ - ٢٤٤

الرد بسيط ، مؤداه انجساع البابوية صوب الحرب ، والحرب تقتضى المال .

وتعتبر نتيجة الحرب الكبرى بين بابوات القرن الثالث عشر وأسرة هوهنستوفن الملكية Hohenstaufen ، النتيجة المعتادة لجميع الحروب الشعواء ، التى يستمر القتال فيها إلى النهاية المرة . ويوفق الفاتر الأخير فى توجيه ضربة الموت إلى صحبته ، على حساب مكابذته هو نفسه أضرارا قاتلة . أما الفاتزون الحقيقيون على كلا المتحاربين فهم المحابدون الهاتنون^(١) . ومصدقا لذلك ؛ فإنه عندما اندفع البابا بونيفاس الثامن بعد وفاة فردريك الثانى ، ضد ملك فرنسا ، يستخدم الصاعقة البابوية التى نسفت الإمبراطور^(٢) ، كانت الأحداث قد دلت على هبوط البابوية نتيجة لصراع ٦٨/١٢٢٧ القاتل إلى مستوى الضعف الذى أنزلت إليه الإمبراطورية . فى حين بلغت مملكة فرنسا ، مستوى القوة نفسها التى كانت البابوية والإمبراطورية قد بلغها قبل تحطيم إحداها الأخرى .

فكان أن أحرق فيليب الجميل ملك فرنسا ، الرسالة البابوية أمام كنيسة نوتردام بموافقة شعبه وكهنة بلاده . ثم نظم الملك الفرنسى عملية خطف البابا . ولما مات غريمه ، كفل انتقال كرسى الإدارة البابوية من روما إلى أفينيون . وتلا هذا فترة الأسر (١٣٠٥ - ٧٨) والانشقاق الدينى (١٣٧٩ - ١٤١٥) .

ولقد باتت وراثه الأمراء لكافة التنظيم الإدارى والمالى داخل نطاق أراضيهم الخاصة ، أمرا مؤكدا ، عاجلا أم آجلا . وبالمثل وراثه السلطة التى كانت البابوية تقيمها لنفسها . وكانت عملية نقل السلطة مسألة وقت .

(١) أى الذين وقفوا بعيدا عن مكان المعركة . (المترجم)

(٢) أى الإمبراطور هنرى الرابع . (المترجم)

ويطالعنا في هذا الشأن ، كما لو كانت معلم الطريق : الشرائع^(١) الإنجليزية (١٣٥١ ميلادية) ، وقانون اتهام معضدى السلطان البابوى (١٣٥٣ م) ، والحقوق التي أجبرت البابوية على التنازل عنها في فرنسا وألمانيا بعد ذلك بقرن ثمن عدم تأييد الدولتين لمجمع بازل ، والاتفاقية الفرنسية البابوية عام ١٥١٦ ، وقانون السيادة الإنجليزي الصادر عام ١٥٣٤ .

وتم انتقال الامتيازات البابوية إلى الحكومات ، قبل « الإصلاح » بمائتي سنة ، وأنجزت في الدول التي لبثت كاثوليكية وفي الدول التي أصبحت بروتستانتية على السواء . وشاهد القرن السادس عشر استكمال العملية . ولم يكن بالطبع أمراً عارضاً ، أن يشاهد نفس القرن كذلك ، وضع الأسس التي شيدت عليها « الدول الجاعية » في العالم الغربي الحديث . وأخطر عناصر هذه العملية التي أوردنا بعض مظاهرها الخارجية ؛ تتمثل في انتقال الولاء من الكنيسة المسكونية ، إلى هذه الدول الإقليمية .

وهذا السلطان على القلوب ، كان أئمن الغنائم التي حصلت عليها الدول المستخلقة ، من النظام الأعظم الأنبل الذي تهيته . فلقد استطاعت هذه الدول المستخلقة أن تظل على قيد الحياة بفضل هيمنتها على ولاء الناس ، وهو أمر أهم كثيراً من جبايتها الضرائب وتكوينها الجيوش .

بيد أنه يتبين باستخدام نفس القياس ، أن هذا التراث الروحي الذي انتزعه الدول الإقليمية من كنيسة هيلدبراند ؛ هو الذي أحال نظام الدولة الإقليمية الذي كان فيما مضى شيئاً نافعاً ، إلى شيء يهدد الحضارة ، مثلاً هو حادث في الوقت الحاضر . ذلك لأن روح الولاء التي كانت بطاقة مبدعة مُنعمه ، وقما وجهت عبر مناهج دينية تتجه إلى الله تعالى ؛ قد

(٢) تعرف هذه الشرائع باسم *Pralmanire* ؛ وكانت تنص في الأصل إبان القرون الوسطى « إعلان قضائي » . ثم أطلقت في إنجلترا على القوانين التي أصدرها البرلمان لتقييد سريان السلطة البابوية في إنجلترا . وقد صدر أول هذه القوانين عام ١٣٥١ . ويعتبر قانون ١٣٩٢ أهمها لأنه منع الإنجليز من الحصول على سكوك الففران من روما . (المترجم)

تخلّلت إلى قوة مدمرة وقتما صدفت عن هدفها الأصيل الذى قدّم قربانا إلى أصنام صنعتها أيدي البشر . فإن الدول الإقليمية وفقاً لتعريف أسلافنا فى القرون الوسطى ، هى نظم من صنع الإنسان ، وتستحق منا نظراً لمنفعتها وضرورتها ، نفس العمل المتسم بالوعى ، لكنه يخلو من الحاس . مثله مثل الواجبات الاجتماعية العادية التى تؤدّيها فى عصرنا المجالس البلدية والمحلية . ومن ثم فإن الكلف بهذه القطع من الآلة الاجتماعية ، يعنى السعى إلى وقوع الكوارث .

وعسانا الآن قد وجدنا بعض الرد على السؤال عن كيفية معاناة البابوية لكارتتها الغير العادية . لكن لم نفسّر السبب عند وصفنا العملية .

فما هو سبب صيرورة بابوية القرون الوسطى عبداً لأدواتها ، وما هو سبب سماحها بأن تنحرف إلى استخدام الوسائل المادية فى غايتها الروحية ، مع أن تلك الوسائل لم توجد فى الأصل إلا لخدمة تلك الغايات الروحية ؟

ظاهر أن التفسير يكمن فى نتائج أسفر عنها انتصار أولى مشنوم . إذ ترتب على توفيقها فى بدء الأمر توفيقاً أكثر من اللازم ؛ بروز نتائج مجيئة عن اللعبة الخطيرة القائمة على مقابلة القوة بالقوة . وإذا كان قد أمكن تبرير استخدام القوة فى جلود معينة ، ربما تستطيع البديهة التكهن بها ؛ إلا أنه قد يستحيل تعيين موضع استخدام القوة تعييناً واضحاً .

ومصادقاً لذلك ؛ أسكرت نشوة النجاح ، جريجورى السابع (هيلد براند) وخلفائه فى مناوئتهم المحفوظة بالخاطر إبان مراحل صراعهم الأولى ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فأغرّتهم تلك النشوة بالمثابرة على استخدام القوة ، إلى أن أصبح الانتصار على هذا الصعيد الغير الروحى ، هدفاً فى حد ذاته . وبالحرى فإذا كان جريجورى السابع هو قاتل الإمبراطورية بغية التخلص من حائل إمبراطورى يقف أمام إصلاح الكنيسة ، فإن اينوسنت الرابع قد قاتل الإمبراطورية بغية تدمير سلطة الإمبراطور الذاتية .

فهل في مُمكنتنا التعرف على النقطة الخاصة التي انخرفت عندها سياسة هيلد براند . أو باستخدام لغة التقليد الأقدم ؛ انصرفت عندها عن الطريق السوى الضيق ؟

فلنحاول أن نتبين التاريخ الذي حدث عنده هذا التحول الخاطى .

ما جاءت سنة ١٠٧٥ حتى قُبِضَ النجاح في أنحاء العالم الغربي للمعركة الدينية المزدوجة ضد الفساد الجنسي والمالى في أوساط رجال الدين . فظفرت الشجاعة المعنية للبابوية الرومانية بنصر مؤزر ؛ ميدان كانت فيه سمعتها قبل ذلك بنصف قرن فقط ، من أسوأ ما عُرِف . ويرد هذا النصر إلى هيلد براند نفسه . فإنه قد قاتل في سبيل إحراز النصر سواء في مناطق ماوراء الألب أم خلف العرش البابوى ؛ إلى أن حمله جهاده في نهاية الأمر إلى المنصب الذى رفعه من الوحل . كما أنه قاتل بكل سلاح وصل إلى يده ، ماديا كان أم روحيا . واتخذ هيلد براند عند لحظة انتصاره في السنة الثالثة لحكمه - باعتباره البابا جريجورى السابع - خطوة يستطيع المدافعون عنه عرضها قائلين إنه كان لا مناص بالمرّة من اتخاذها ؛ في حين يعرضها نقاده - بما لا يقل منطقاً - على نهايتها بكارثة حتمية . فلقد نقل في تلك السنة ميدان المعركة ضد التسرّى والسيمونية^(١) - وحقه في محاربتها ثابت لا يُمارى فيه - إلى معركة ضد اشتراك الأمراء في تنصيب رجال الدين أو ما يدعى اصطلاحاً « تلييسهم » ؛ وكان حقه في هذه المعركة مما يقبل المناقشة .

ولقد يمكن تبرير الصراع حول مسألة « التلييس » من الوجهة المنطقية بأنه نتيجة ختمية للمنازعات حول التسرّى والسيمونية ، لو نظر إلى أنواع الصراع الثلاثة ، كصراع في سبيل تحرير الكنيسة . ولعل القتال لتحوير

(١) السيمونية هي الاتجار بالمقدسات والمصافقة في الرتب والوظائف . (المترجم)

الكنيسة من فينوس ومون^(١)؛ كان يبدو هيلدبراند عند هذه النقطة جهداً ضائعاً ، إن تركها مقيّدة في خضوعها السياسي للأمرأ : فما دامت ترسُف في هذا القيد الثالث الثقيل ، أفلا يحول ذلك بينها وبين إنجاز رسالتها السماوية المعينة المتصلة بالتجديد الروحي للبشرية ؟

بيد أن هذه الحجة تفتقر إلى سؤاله يحق لنقاد هيلد براند توجيهه بطريقة أو بأخرى وإن لم يكن في وسعهم الرد رداً حاسماً عليه بحكم طبيعة الأشياء . وهذا هو السؤال :

هل كانت الأحوال عام ١٠٧٥ تُبيح لأي شاغل للعرش البابوي بعيد النظر أو قوى الإدراك ، إن يفترض انتفاء احتمال قيام تعاون مخلص مثمر ، بين الفريقين الراغبين في إصلاح الكنيسة ، كما تمثله العشيرة الرومانية ؛ وبين الحكومة في المجتمع المسيحي كما تمثله الامبراطورية الرومانية المقدسة ؟ يقع على كاهل المتصرين هيلد براند عبء البينة وذلك لاعتبارين اثنين على الأقل :

الأول : مداره أن هيلدبراند ومشاييعه على السواء ، لم يسعوا لإنكار حق السلطات الحكومية في نصيب من إجراءات انتخاب موظفي الكنيسة ابتداء من البابا نفسه ، سواء قبل مرسوم ١٠٧٥ الخاص بتحريم تدخل هذه السلطات أو بعده .

الثاني : مبناه أن الكرسي الروماني كان يعمل في غضون الثلاثين سنة المنتهية عام ١٠٧٥ متعاوناً تعاوناً وثيقاً مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة بالنسبة للنزاع الأقدم حول الموضوعات المتصلة بالتسرى والسيمونية .

ويجب التسليم بأن تعاون الإمبراطورية في هذه المهام قد ضعف بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث بقليل ، كما ينبغي أن نسلم بأن سلوك هنري الرابع لما بلغ تلك السن عام ١٠٦٩ لم يكن محموداً . وفي ظل تلك

(١) فينوس هي ربة الجمال في الأساطير اليونانية . والمون Mammon (من الأرامية) هو النقي المتكالب على المال . ويعني المؤلف هنا التحرر من رق الجمال والمال . (الترجم)

الظروف سلكت البابوية سياسة الحدّ من تدخل السلطات الحكومية ، أو منعها ، في أمر تنصيب رجال الدين في الوظائف الكنسية . ولعل هذا الإجراء يمكن تبريره ، لكن يجب التسليم بأن ذلك اتسم بالطابع الثورى . ولو كان هيلدبراند رغما عن الاستغزازات ، قد كفّ عن التحدى عام ١٠٧٥ لأمكن تصوّر استعادة العلاقات الحسنة .

ومع هذا فن العسير دفع الرأى القائل بأن هيلدبراند قد انساق وراء عمل أرعن هو إحدى سمات صفة « الحق » . كذلك من اليسر دفع الفكرة القائلة بأن بواعثه النبيلة قد اختلطت بها رغبة الانتقام من الدولة الإمبراطورية بسبب المذلة التى أنزلتها بباوية متحللة في مجمع سوترى عام ١٠٤٦ . ويؤيد هذه الفكرة الأخيرة حقيقة مؤداها أن هيلد براند اتخذ لنفسه عندما تولى أمر البابوية ، اسم جريجورى وهو الذى كان يحمله البابا الذى خُلع في تلك المناسبة .

وكانت إثارة مسألة « التلييس » ، بطريقة تنسم بنبلة الروح الحرية ، مؤدية حتما إلى تفاقم الخلافات بين الإمبراطورية والبابوية . وذلك لأن جانب الحق في هذه المسألة كان أقل وضوحاً من سابقه للذين لم ينبس عليهما نشوب النزاع وجها لوجه بين السلطين الروحية والدينية . ويرد عدم وضوح جانب الحق في هذه المسألة ، إلى حقيقة تفسيرها ما يلي :

أولا : كان المتبع حتى عصر هيلد براند أن يتطلب تعيين موظفى الكنيسة ذوى الرتبة الأسقفية ، مصادقة عدة جهات مختلفة . وكان من قواعد النظام الكنسى البدائية ، أن يتم انتخاب الأسقف بواسطة كهنة أبروشيته وشعبها ، وأن تتم رسامته بواسطة عدد محدود من أساقفة المقاطعة . ولم تحاول السلطة الأميرية قط منذ قيام النظام بعد تحوّل الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية ، أن تسلب امتيازات الأساقفة من هذا النوع ،

أو أن تتحدى على أية حال من الوجهة النظرية حقوق الكهنة والشعب الانتخابية . وانحصر الدور الذى كانت تؤديه السلطة الأميرية بحكم الواقع ودون إخلال بمسألة معنى الموقف من الناحية القانونية ، فى ترشيح المرشحين وفى ممارسة حق الاعتراض على الانتخابات . وظهر أن هيلد براند نفسه قد اعترف بهذا الحق فى أكثر من مناسبة .

ثانياً : فضلاً عن ذلك ، فإن القضية التقليدية لممارسة درجة ما من هيمنة السلطة الأميرية على التعيينات الكنسية ، قد عززتها منذ القرن الحادى عشر اعتبارات تنسم بمنحها العمل . مدارها أن رجال الكنيسة لبثوا وقتاً طويلاً . وبدرجة تزايد يوماً عن آخر ، يقومون بالواجبات الدنيوية والدينية على السواء . ولم يزل عام ١٠٧٥ حتى كان أكثر وظائف بلاد المسيحية الغربية فى أيدي رجال الدين الذين كانوا يحتفظون بهذه السلطة ، بفضل الالتزام الإقطاعى . ويترتب على ذلك أن إعفاء رجال الدين من « تليس » الأمراء إياهم ، كان معناه هدم سلطان الأمراء فى أماكن كثيرة داخلية فى سلطانهم . وبذلك تتحول الكنيسة إلى سلطة مدنية بالإضافة إلى قوتها الدينية ، فتصبح من ثم دولة داخل دولة^(١) ، ولا جلوى فى الإشارة إلى أن هذه الواجبات المدنية كان يمكن إحالتها إلى المديرين من غير رجال الدين . فلقد كان كلا فريقى النزاع ، مدركين تماماً عدم وجود رجال قادرين من غير رجال الدين على تولى أعباء مثل تلك الواجبات .

وتبدى النتائج البعيدة المدى التى ترتبت عن فعل هيلد براند ، خطورة هذا الفعل . فإن هيلد براند قد جازف فى هذه المسألة بكل النفوذ الذى كان قد ظفر به للبابوية فى غضون الثلاثين سنة السابقة . وحقاً كانت سيطرته على ضمائر جماهير المسيحية فى مناطق ما وراء الألب الخاضعة

للإمبراطور هنرى الرابع قوية بدرجة كافية - مقترنة بحراب السكسون -
لحمل الإمبراطور على المجيء إلى كانوسا^(١).

إلا أنه وإن كانت كانوسا قد أصابت الكرامة الإمبراطورية بضربة
لم تفق منها تماماً ؛ إلا أن ما حدث بعد ذلك لم يكن نهاية الخلاف ،
بل تجديد المعركة . فإن خمسين عاما من النزاع ، قد حفرت ثلثة بلغت
من الاتساع والعمق ، لم يكن ليتأتى سدها بإجراء تفاهم سياسى حول
الموضوع الذى نشأ النزاع بسببه . ومصادفاً لذلك ، كان من المتيسر تحطيم
حدة النزاع حول تولى المناصب بعد إبرام الاتفاق الودى المعقود عام
١١٢٢ ، لولا أن الحصومة التى ولدها النزاع ، أصبحت تتعثر في
سيرها بمسائل جديدة تجمع بين غلظ قلوب الناس وعناد مطامعهم .

وإذا كنا قد فحصنا قرار هيلد براند عام ١٠٧٥ في شئ من الإطالة .
فلأننا نعتقد بأنه كان القرار البالغ منتهى الدقة الذى تشكل جميع ما جاء
بعده . فإن هيلد براند قد حملته نشوة النصر على التنكر للنظام الذى رفعه
هو نفسه من خفض التخرى إلى أعالي العظمة ، لكنه سلك الطريق المعوج .
ولم يتمكن أى من خلفائه من استعادة الطريق السليم .

ولا نحتاج إلى متابعة القصة في تفاصيل أخرى أبعد من ذلك . إذ
يعتبر عهد بابوية إينوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بمثابة النصر
الأنطونى أو الصيف الهندى لبابوية هيلد براند . بيد أن مركز ذلك البابا
المتفوق ، يرجع إلى ظروف عرضية مثل مصادفة تولى أباطرة قاضى السن
من أسرة هوهنستوفن Hohenstaufen كما تقتصر سيرته على إبداء حقيقة
مدارها أن الإدارى الممتاز قد يكون سياسياً قصيرة النظر .

(١) كانوسا Canossa : مدينة بإيطاليا بها بقايا قلعة وفد إليها في يناير ١٠٧٧ م
الإمبراطور هنرى الرابع ذليلاً ليظهر خضوعه للبابا جريجورى السابع . وهذا الحدث هو أصل
عبارة « يذهب إلى كانوسا » ؛ ويعنى إذلال الإنسان نفسه أمام إنسان آخر سبق أن قاومه .
(المترجم)

ومن ثم ، فقد تلا هذا نشوب حرب بابوية اتسمت بتطرفها ، ضد الإمبراطور فردريك الثاني وفرعه . ولكن الحرب انتهت بمأساة أناجنى^(١) Anagni التي كانت بمثابة إجابة فظة أجاب بها الأمراء على حادثة كانوسا Canossa . وأنتجت هذه الإجابة أسر البابا والانشقاق الديني ، ثم انبعث النزعة البرلمانية العميقة لحركة مجالس الكنيسة الكاثوليكية^(٢) في غضون فترة الإصلاح ، والصراع غير البات وإن اتصف بالعنف ، الذي افتتحه الإصلاح الكاثوليكي .

وكانت نهاية مطاف التطور ، إبطال نفوذ البابا الروماني ، إبان القرن الثامن عشر ، ونزوع الغرب إبان القرن الثالث عشر إلى مناهضة الحرب .

على أن النظام الفد قد عاش^(٣) في هذه الساعة الحاسمة التي نعيش فيها . فإنه من المناسب والإنصاف أن يستجد بنائب المسيح ، لينود عن لقبه الرائع جميع الرجال والنساء الذين تعمدوا باسم المسيح ، باعتبارهم وريثة نفس الطائفة التي اعتنقت أسلوب الحياة الغريبة .

(١) أناجنى Anagni : كانت مدينة هامة أيام المصور الرومانية . وأصبحت أبغقية منذ عام ١٨٧ م . وتوجد بها بقايا قصر البابا بونيفاس الثاني . (المترجم)

(٢) يرجع العهد بالمجامع الدينية في العقيدة المسيحية منها إلى القرن الثاني الميلادي ثم تتابع انقضاها منذ هذا الحين لحل المشكلات التي نجابه المسيحية . وأهم تلك المجالس مجما نيقية والقسطنطينية الأولان لتحديد « ألوهية » الروح القدس . ومجمع « أفسوس » (عام ٤٣١) لمناهضة الآراء النسطورية ومنع لقب أم الإله لـ « السيدة مريم » . ومجمع نيقية الثاني عام ٧٨٧ لمناقشة مسألة تقديس تماثيل القديسين وصورهم . ولما حدث الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، دأبت كل من الكنيستين على عقد المجالس الدينية وآخر هذه المجالس (وعددها عشرون في الكنيسة الغربية) مجمع عقد بالفاتيكان عام ١٨٦٩ ، وتقررت فيه عصمة البابا . (المترجم)

(٣) نوه أحد كبار الأدباء المروفين من الروم الكاثوليك في عمادة خاصة (وباللثال لا يمكن التصريح باسمه) أنه يعتقد أن الكنيسة الكاثوليكية من صنع الله . والدليل على ذلك أنه لا يتأتى لأي نظام من صنع البشر فقط أن يبق أكثر من أسبوعين يمثل هذا التوجيه ، المتسم بالبلادة المجرمة . (الملخص)

ألم يقل معلم بطرس نفسه^(١) إنه « إلى أى كائن يعطى الكثير ، سيطالب منه بالكثير وأى من الناس يوكل إليه الكثير ، سيطالبونه بالكثير » ؟

ولقد استودع أسلافنا خبر روما ، مصير المسيحية الغربية التى كانت جماع ركازهم . وعندما لا يهين ذلك الخادم الذى يعرف سيده نفسه وفقا لرغبة السيد وعوقب بسبب ذلك بكثير من الجلادات ؛ نجد هذه الضربات قد تسقط بنفس الثقل على أجسام « الخادمين والخدمات » الذين أوكل إلى نفوسهم أمر المحافظة على خدام خدام الرب^(٢) . إن العقاب الذى حل بالخادم بسبب حماقته ، قد تجاوزه إلينا . وتقع على من قادنا إلى هذا المضيق ، مسئولية تخليصنا منه ، أيا ما نكون أمرنا : كاثوليك أو بروتستانت ، مؤمنون أو غير مؤمنين .

فهل لو فرض أن ظهر فى هذه اللحظة الحرجة هيلد براند ، فهل يكون مخلصنا هذه المرة مسلحا بالحكمة التى تتولد عن الألم ، ضد سكرة النصر التى دمرت العمل العظيم للبابا جريجورى السابع ؟

(١) أى السيد المسيح عليه السلام وجدير بالذكر أن بابوات روما يقررون بأنهم خلفاء القديس بطرس . (المترجم)

(٢) Servuservorum وهو لقب يطلق على البابا . (المترجم)

.....

الباب الخامس

تحلل الحضارات

الفصل السابع عشر

طبيعة الانحلال

١ - عرض عام

ممرورنا من انهيار الحضارات إلى انحلالها ، علينا أن نواجه سؤالاً مثل الذى جابهناه ، وقمنا عبرنا طريق الحضارات من بداياتها إلى ارتقاءاتها .

فهل الانحلال مشكلة جديدة تقوم بذاتها ، أو هل يمكننا التسليم جدلاً على سبيل الفرض بأنه نتيجة طبيعية للانهيار لا مفر منها ؟

عندما بحثنا السؤال الأسبق عما إذا كان الارتقاء مشكلة جديدة ، تفرق عن مشكلة بدء الحضارة ، انتهى بنا الحال إلى الرد بالإيجاب . وتم ذلك بفضل الكشف عن عدد من الحضارات المتعطلة التى حلت مشكلة البدء ، لكنها أخفقت في إيجاد حل لمشكلة الارتقاء :

وفي مكننا في هذه المرحلة التالية من دراستنا ، أن نواجه السؤال المماثل بنفس الرد الإيجابي . ومدايره الإشارة إلى ما كابده طائفة من الحضارات ، من تعطل مماثل عقب الانهيار ، ودخولها مرحلة من التهجّر طويلة الأمد :

ويطالعنا المثال التقليدي للحضارة المتهجّرة ، في مرحلة من تاريخ المجتمع المصرى التى سبق أن أتاحت لنا فرصة النظر فيها . فإنه بعدما أنهار المجتمع تحت العبء الجسيم الذى فرضه عليه بناء الأهرام ، وبعدما اجتاز المرحلة الأولى فالتأني إلى الثالثة من مراحل الانحلال^(١) ، نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح ، يرتحل بغيته . ويرتحل - عكس المنتظر - في اللحظة التى

(١) بيان المراحل الثلاث : عصر اضطرابات ، دولة عالية ، فراغ . (المؤلف)

كان يستكمل خلالها - كما هو ظاهر - سير حياته ، على الوجه الذى تتيحه
لواخذناه المثال المثلنى مقياسا . وهو المثال الذى نراهم لنا فيه هذه المراحل
الثلاث للمرة الأولى . بيد أن المجتمع المصرى أبى عند هذه النقطة أن يموت ،
ومضى بضائع فترة حياته .

وإذا ما حسبنا مقياس زمن المجتمع المصرى لحظة رد فعله الاستثنائى
ضد الغزاة الهكسوس إبان الربيع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد ،
حتى طمس آخر معالم الثقافة المصرية فى القرن الخامس الميلادى ؛ نجد أن
فترة الألفى سنة هذه ، تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصرى
مع أرتقائه وانهاره والحناب الأعظم من فترة انحلاله . ونحسب هذه
القرات مجتمعة ؛ من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصرى نفسه توكيدا حماسيا
إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى ابتعائه لأول مرة فوق المستوى
البدايى فى تاريخ ماغير معروف خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . بيد أن
حياة المجتمع المصرى فى غضون النصف الثانية من بقائه ، كانت نوعا من
« الموت فى الحياة » . وفى خلال هاتين الألفى سنة اللتين تعتبران زائدتين
عن المقدّر فى حياة المجتمع المصرى ، أخذت حضارته التى خلفت حياتها
الجارية بالحركة والمعنى ، تقباطا فى فتور وتعطل . وفى الواقع عاش المجتمع
المصرى بفضل صبرورته متحجرا .

ولا يقتصر الأمر على هذا المثال وحده :

فإذا ما ولينا وجهنا شطر تاريخ الكيان الأسامى لمجتمع الشرق الأقصى
فى الصين - حيث قد تتعادل لحظة الانهيار مع انقضااض إمبراطورية ناتج فى
الربيع الأخير من القرن التاسع الميلادى - يصنح فى وسعنا تتبع عملية
الانحلال التى تلت سيرها المعتاد عبر « عصر اضطرابات » صوب « دولة
عالية » . لكنها لم تلبث إلا قليلا حتى انتزعها فى غمار هذه المرحلة ، رد فعل
نفس النوع الذى ينسم بتقلقه واندفاعه ، على غرار رد الفعل المصرى

على الغزاة المكسوس . فالواقع تُذكرنا - إلى حد كبير - الثورة الصينية الجنوبية تحت زعامة هونج وو Hung wu مؤسس أسرة مينج ضد دولة الشرق الأقصى العالمية التي أقامها برايرة المغول ، بثورة طيبة تحت زعامة أحسن مؤسس الأسرة الثامنة عشر ضد الدولة المستخلقة ، التي أقامها برايرة المكسوس على جانب مهجور من أملاك الدولة المصرية العالمية الميتة . كما أن ثمة مشابهة ماثلة في النتيجة ، مؤداها أن مجتمع الغرب الأقصى قد أطل بقاءه في صورة متحجرة عوضاً عن عبوره بخمّة إلى الانحلال ثم إلى التفكك باستخدام طريقة دولة عالمية تنتهي إلى فراغ .

وفي مكنتنا أن نصيف إلى هذين المثلين ، الشنرات المستحجرة لحضارات أخرى مميزة ، عرضت لناظرنا :

أولاً : شنرات مستحجرة من الحضارة السندية وتتمثل في الجين (gains) في الهند ، وبوذية هينايانا في سيلان وبورما وسيام وكبوديا ، وبوذية ماهيانا الالامية في التبت ومنغوليا .

ثانياً : شنرات مستحجرة من الحضارة السورية وتتمثل في : اليهود والبارسين والنسطوريين والمينوفستين .

وإذا كنا نعجز عن توسيع نطاق قائمتنا أبعد من ذلك ، إلا أن في مكنتنا على الأقل أن نلاحظ وفقاً لحكم ماكولي Macauley أن الحضارة الهلينية تدخل إبان القرن الثالث والرابع الميلاديين في نطاق مسافة قابلة للقياس لحالة شبيهة بما تقدم .

كانت روح أشهر أمتين في العصور القديمة منطوية على نفسها إلى حد ملحوظ . وتبدو حقيقة مدارها أن اليونانيين قد أعجبوا بأنفسهم فقط ، وأن الرومانيين قد أعجبوا بأنفسهم كما أعجبوا باليونانيين . وهذا مبعث ضيق أفق التفكير وتمثله . فكانت العقول اليونانية والرومانية - إن أمكننا التعبير عن مرادنا بهذه الكيفية - تغذى ثم تغذى بهذه الفكرة ، فكان أن وصمت بالجلدب

والتحلل . . . وتزايد الشر بفعل استبداد القياصرة الجشيم ، استبداد محاكفة المميزات القومية ؛ فأدمج أقصى مقاطعات الإمبراطورية بعضها إلى بعض . وبدأت مصائر البشرية في نهاية القرن الثالث الميلادي جرداء إلى درجة مخيفة . كانت تلك الجماعة وقتئذ ، يحفّ خطر كارثة أفطع في هولها من الأسقام المدمرة التي تتعرض لها كل أمة : أسقام طول العمر التي تتسم بالارتجاج والتبلد والشلل . وهذا خلود يماثل خلود طبقة الخالدين struldbryu^(١) في حضارة صينية ، وقد تيسر الإشارة إلى كثير من نقاط التشابه بين رعايا دقلديانوس Diocletian وشعب تلك الإمبراطورية السماوية^(٢) حيث لم يكن ثمة شيء يُتعلم أو لا يُتعلم ، حيث كانت الحكومة والتعليم وحيث كان نظام الحياة بأسرها ، عبارة عن طقوس ، وحيث تتوقف المعرفة عن الزيادة والتضاعف . وتصبح مثلها مثل الموهبة المطموسة في الأرض والجنه المغطى في القوطة ، وكالتجارب التي لا هي في فناء ولا هي في ازدياد .

ثم كان أن تحطم السُّبُبات بفضل ثورتين :
الأولى معنوية .

والثانية سياسية .

انبثقت الأولى من الداخل ، ووفدت الثانية من الخارج^(٣) . ويتبين من عرض ما كولى ، أن الفضل في تخلص المجتمع الهليني من هذه الصورة الرجعية ، يرجع إلى الكنيسة وإلى البرابرة . ويعتبر هذا التخلص ، نهاية سعيدة نسبياً . بيد أنه لا يمكن التسليم بالفكرة تسليماً مطلقاً . فما دامت

(١) struldbryu لفظ صكه سويقت مؤلف رحلات جوليفر . ويقيم عضو في طبقة الخالدين ويولد كما يقول سويقت بعلامة خاصة على جبهته ، وعند ما تصل سنه إلى الثمانين تنفق الدولة عليه . (المترجم)

(٢) أى الإمبراطورية الصينية . وكان إمبراطور الصين يلقب بابن السماء . (المترجم)

(٣) Marcanlay, Lord : Essayon History

الحياة مستمرة - فإنها قد تأخذ في التحجر إلى أن ينوكها شلل الحياة في الموت ، عوضاً عن قطع كلوتو Clotho^(١) إياها جزازات سخية جائزة . وما برحت فكرة جواز مداومة ذلك العصر ، المجتمع الغربي ، تطارد فكرة أحد المؤرخين الممتازين في جيلنا الحاضر على الأقل :

« أنا لا أظن أن الخطر المائل أمامنا يتمثل في الفوضى ، لكنه يتمثل في الاستبداد ووقدان الحرية الروحية ؛ هو الدولة - لعله دولة عالمية جماعية . وقد تنبعث فوضى وقتية موضعية ، أى مرحلة عابرة ، نتيجة للصراع بين الأمم أو الطبقات . ولما كانت الفوضى أساساً ضعيفة ، فإنه في ظل عالم تسوده الفوضى ، يُصبح بالحرى في مكنة أية جماعة منظمة تنظيمًا محكمًا يتسم بالمنطق والإدراك العالمي ، أن تبسط سلطانها على الجماعات . وإذا كان العالم يرحب من الناحية الأخرى - بسبب تفشى الفوضى - بالدولة المستبدة ؛ يدخل عندئذ فترة من « التحجر الروحي » ؛ وهذا يقود إلى فناء أوجه النشاط البشرى العليا . ولقد يبدو إزاء تحجر الإمبراطورية الرومانية وتحجر الصين أقل صرامة . ذلك لأن الجماعة الحاكمة ستغلو لديها (في حالتنا) وسائل للقوة العلمية أعظم . »

فهل تعرف رسالة ماكولى عن التاريخ أنه يبرهن على أن الغزوات البربرية كانت نعمة على طول المدى . لأنها قضت على التحجر إذ يقول إنه قد اقتضى أوروبا البقاء في الممجية ألفى سنة لتتلافى مصير الصين . ويبدو من ذلك أن ليس ثمة أجناس بربرية تدمر في المستقبل دولة عالمية .

« ويبدو لي احتمال فتور الفلسفة والشعر في مثل هذه الدولة ، بينما يواصل البحث العلمى تقدمه ، محققا كشوقا طريفة . إن العلم اليونانى لم ينكر بيئة العيش في ظل دولة البطالة . وإن العلم الطبيعى قد يزدهر بصفة

(١) Clotho : فى الأساطير اليونانية ؛ هو أصغر آلهة القضاء والقدر الثلاثة . وتشرف

كلوتو على البشر وقت ولادتهم . (المترجم)

عامة ، في ظل الحكم الاستبدادى . إذ قد يعمل الحاكم المستبد على تشجيع كل ما من شأنه زيادة أسباب قوة الجماعة الحاكمة ، فإن ذلك يتفق ومصلحته . ومن ثمت ، ليست الفوضى في نظرى هى الكابوس الذى يلوح لنا ، إن لم نستكشف طريقة لإنهاء الصراع بين الإخوة القائم في الوقت الحاضر . إن الكنيسة المسيحية ما تزال هناك ، وهى عامل يحسب حسابه . ولقد نستشهد في عصر الدولة العالمية العتيدة . لكن ، كما أنها أجبرت الدولة العالمية الرومانية في النهاية على أن تتقبل في نهاية المطاف الإذعان رسمياً للمسيح ، فقد يصبح في وسعها مرة أخرى - بفضل استنهاضها - غزو المنطق العلمى للدولة العالمية العتيدة^(١) .

وتبدي هذه التأملات أن انحلال الحضارات ، يعرض مشكلة تتطلب دراستنا :

تبين لنا أثناء دراسة ارتقاء الحضارات ، إمكان تحليلها إلى مشاهد متتالية ، لمأساة التحدى والاستجابة . وإن تنابع المشهد وراء المشهد ، مرده أن الاستجابة لا توفى فحسب في الرد على التحدى المعين الذى استثارها ، لكنها تتخذ كذلك أداة لإحداث تحد جديد ينبثق كل مرة عن الوضع الجديد الذى هيا له التحدى الناجح سبيل الظهور .

وبالحرى ؛ ثبت أن جوهر طبيعة ارتقاء الحضارات يتمثل في « وثبة » تحمل الفريق المتحدى إلى التوازن الذى تنسم به الاستجابة الناجحة . ثم تتجه منه إلى وضع غير متوازن يمثل نفسه تحدياً جديداً يتطلب استجابة بالمثل . أما فكرة انحلال الحضارة ؛ فإن قوامها بالمثل ، تكرار التحدى هذا أو تواتره . لكن الاستجابات تفشل هنا ، عكس نجاحها في حالة ارتقاء الحضارة . ويرتب على ذلك بروز التحدى المرة بعد الأخرى ، عوضاً عن نشوء سلسلة من التحديات يختلف إحداها في طابعه عن سلفه ، الذى سبقت مجابهته بنجاح ،

(١) دكتور ادوين بيفان في رسالة إلى المؤلف .

التاريخ . فنى مكنتنا مثلا أن نشاهد فى تاريخ سياسات العالم الهلنى الدولية ، منذ العصر الذى جابهت فيه ثورة صولون الاقتصادية المجتمع الهلنى بمهمة إقامة نظام سياسى دولى ؛ إن اخفاق المحاولة الاثنية لحل المشكلة عن طريق إقامة عصبة « دليوس Delian League » قد أدت إلى محاولة فيليب المقدونى حلها بإقامة عصبة كورنث Corinthian League . ودفع فشل فيليب إلى محاولة أغسطس حلها بإنشاء الامبراطورية الرومانية التى عززت كيانتها باقتباس بعض سمات الحكم الجمهورى^(١)

وتقتضى طبيعة الموقف ، وجود عنصر التكرار فى نفس التحدى . فإن حدث أن ترتبت الهزيمة عوضا عن إحراز النصر فى الاصطدام تلو الاصطدام ؛ لن يتيسر التخلص قط من التحدى الغير المحاب . ويرتبط الموقف بمسألة عرض التحدى نفسه المرة بعد الأخرى ، إلى أن يقيض له أن يتلقى : إما نوعا من الرد البطيء والقاصر ، وإما أن يقود الاصطدام إلى دمار ذلك المجتمع الذى يبداى عجزه التام عن الاستجابة له استجابة فعالة .

فهل نستطيع القول إذن بأن بديل التحجر هو الإبادة التامة المطلقة ؟

لعلنا نذكر أنفسنا قبل الرد بالإيجاب ، بعملية التبنى وثبوت النسب التى لاحظناها فى مرحلة مبكرة من هذه الدراسة . ولعل التطلع إلى النهاية الصولونية وإيقاف الحكم فى الوقت الحاضر ، هو أحكم طريق .

ولقد بدأنا فى دراستنا عملية ارتقاء الحضارة ، بالبحث عن مقياس للارتقاء قبل محاولتنا تحليل العملية . وسنتبع نفس الخطة فى دراستنا عوامل الانحلال . على أن فى مكنتنا أن نوفر على أنفسنا خطوة جدلية مذارها إهمال عامل السيطرة المتزايدة على البيئة البشرية أو الطبيعية من بين عوامل انحلال الحضارات ؛ بسبب انتفاء مقاييس الارتقا منها :

وَحَقّاً ، يوحى الإنبات القاتل بأن تعظم السيطرة على النباتات يعتبر - مهما يكن من أمره - شيئاً ملازماً للانحلال ، أكثر منه قرينة على الارتقاء . ومصدّقاً لذلك ، فإن في مكنة النزعة الحربية في الغالب - وهي ظاهرة مشتركة بين الانهيار والانحلال - أن تقود إلى سيطرة المجتمع ، على المجتمعات القائمة الأخرى وعلى قوى الطبيعة الجارمة على السواء . ولعل في انحذار سبيل الحياة المألوف لحضارة منارة ، ما يؤيد صدق قول هراقليطس Heracleitus الفيلسوف الأيونى : « إن الحرب هي أبو جميع الأشياء » . ولما كانت التقديرات العامة للهناقة البشرية تحسب على أساس القوة والثروة ، فعالمياً ما تجد الفصول الافتتاحية في انحذار ذراى لمجتمع من المجتمعات ، ترحيباً شعبياً ، باعتبارها فصولاً بالغة الضرورة في ارتقاء جليل .

بيد أنه لا مناص من أن يستتبع ذلك ، زوال الوهم . ذلك لأن المجتمع الذى أصبح ينقسم على نفسه بشكل يستعصى معه على العلاج ، هو مجتمع يتجه بكل تأكيد إلى العودة إلى تكريس الجانب الأعظم من تلك الموارد الإضافية ، بشرية ومادية لـ « مشروع الحرب » وهو الموارد التى سلمها نفس المشروع ودبغة إلى المجتمع . ونجد - من قبيل المثال - أن الحروب الأهلية التى حدثت في القرن الأخير قبل الميلاد ، قد استنفدت البطاقات المالية والبشرية اللتين توافرتا بفضل فتوحات روما في القرن الثانى قبل الميلاد .

وبالأحرى ، يجب البحث عن قاعدة عملية الانحلال العتيدة في مكان آخر . ويتمثل المفتاح ، في مشهد ذلك الانقسام والاختلاف داخل مجتمع ، يتيسر في الغالب تتبع أية زيادة تطراً في سيطرة على بيئته . وهذا ما يجب علينا توقعه ليس إلا . ذلك لأنه سبق أن وجدنا أن قاعدة الانهيارات وعلتها الأساسية التى تسبق الانحلال في زمن الحدوث ، مدارها نفشى الخلافات الداخلية التى تفقد خلالها المجتمعات ملكة تقرير المصير .

وتمزق الانشقاقات الاجتماعية التى يبدى فيها هذا الخلاف ، المجتمع المنهار ؛

بصفة جزئية ، في بعدين يختلف أحدهما في وقت الجلوث عن الآخر :

أولاً : الانشقاقات الرأسية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً .

ثانياً : الانشقاقات الأفقية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً ، لكنها منزلة اجتماعياً .

أما عن النوع الرأسى من الانشقاق . فلقد سبق أن رأينا كيف أن الردى المهور فى إثم الحرب الداخلية ، يُعتبر الأسلوب الأساسى لفعل الانتحار . بيد أن هذا الانشقاق الرأسى ليس هو المظهر المميز للاختلاف الذى يمهّد السبيل إلى انهيار الحضارات . ذلك لأن ترابط مجتمع من المجتمعات ضمن جماعات محصورة ؛ هو قبل كل شيء ، مظهر معروف لجنس المجتمعات البشرية كافة سواء أكانت المجتمعات متحضرة أو غير متحضرة . وتعتبر الحرب الداخلية مجرد سوء استخدام لأداة التخریب الذاتى المتاحة ، والتي هى فى متناول أى مجتمع فى أى وقت .

وليس الانشقاق الأفقى لمجتمع وفقاً للأسس الطبقيّة - من الناحية الأخرى - غريباً على الحضارات ، لكنه كذلك ظاهرة تنبئ لحظة انهيارها . وهى علامة مميزة لفترات الانهيار والانحلال . وتختفى تلك الظاهرة على العكس ، إبان مرحلتى بدء الحضارات وارتقاها .

ولقد صادفنا فعلاً هذا النوع من الانشقاق . قابلناه وقت ارتيادنا فى وضع عكسى امتداد المجتمع الغربى فى الزمنى . فوجدنا أنفسنا متقادين صوب الكنيسة المسيحية وعدد من عصابات الحرب البربرية التى اصطدمت بالكنيسة الغربية داخل الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية . ولا حظنا أن كلا من العصابات البربرية والكنيسة ؛ قد أوجدتها جماعة اجتماعية لم تكن هى فى حد ذاتها ، ترابطاً للكيان الاجتماعى الغربى ؛ لكن يتأتى وصفها فقط بالاستعانة بمجتمع آخر سابق على المجتمع الغربى ، هو الحضارة الهلينية . ووصفنا مبتدعى الكنيسة المسيحية ، بأنهم بروليتاريا المجتمع الهليني

الداخلية . ووصفنا منشئ عصابات البرابرة الحزبية ، بأنهم بروليتاريا هنا المجتمع الخارجية .

وأظهرت لنا متابعة أبحاثنا أبعد من ذلك ؛ أن كلا هذين النوعين من البروليتاريا ، قد انبثقا عن أفعال الانفصال عن المجتمع الملمني في غضون « عصر اضطرابات » . وفي خلال هذا العصر ؛ توقف المجتمع الملمني - بشكل واضح - عن مواصلة دوره الإبداعي ، فقد كان في الواقع في دور انحداره .

ولما دفعنا بحثنا إلى مرحلة أبعد من ذلك ، تبين أن أفعال الانفصال السالفة الذكر ، قد أظهرها إلى العيان تغير في مظهر العنصر الحاكم ؛ تغير طرأ قبل ذلك على الجسم الاجتماعي الملمني . فلان « الأقلية المبدعة » التي قُيِّض لها ذات مرة ، أن تذلل قيادة الجبهة العاطلة عن الإبداع ؛ قد تركت مكانها الآن لأقلية مهيمنة ، بعيدة عن الغرور ، بسبب تجردها من الفتون . وبرد تجردها هذا إلى عطلها عن الابتداء .

وأمكن لهذه الأقلية المسيطرة الاحتفاظ بمركزها المميز ، باستخدام القوة . لكن انبثي على استخدام القوة ، رد فعل تمثل في حدوث أفعال انفصال انتهى الأمر بها أخيراً إلى انبعاث العصابات الحزبية والكنيسة المسيحية .

وإذا كانت الأقلية المسيطرة قد أخفقت في تحقيق ما هدفت إليه من المحافظة على تماسك مجتمعتها - باستخدام وسائل ملتوية فكان أن تصدعت مُعْمَد هذا المجتمع - إلا أنها خلّدت ذكراها في عمل وجيد فذ هو إقامتها الإمبراطورية الرومانية التي اتخذت شكلها المميز قبل ظهور الكنيسة والعصابات العسكرية البربرية على السواء . وكان مقامها المكين في العالم الذي ترعرع فيه هذا النظامان ، عاملاً في ارتقائهما على السواء . وهو عامل لا يمكن إغفاله من الحساب . لأن الدولة العالمية ، التي غلّقت فيه نفسها

الأقلية الهلينة المسيطرة ، كان مثله مثل درع سلحفاة هائلة تربت الكنيسة في ظله ، ودرّب البرابرة عصا باتهم الحربية بشحذ مغالهم على سطح صديقها الخارجية :

وأخيراً ؛ حاولنا في نقطة تالية من هذه الدراسة ، الحصول على مشهد أوضح عن ارتباط السبب بالنتيجة : أى عن مدى الترابط بين فقدان الأقلية القائدة ملكتها الإبداعية ، وفقدانها - بفعل استخدامها القوة - خاصية اجتذاب الأغلبية لاقتفاء أثرها الأقلية بفضل افتنائها بها . وهنا وضعنا أصبعنا على الوسيلة التي استخدمتها الأقلية المبدعة ومدارها : التدريب الاجتماعي . وهو طريق قصير يكفل حمل الجماهرة العاطلة عن الإبداع على التزام الطريق السوي ، الذي وجدنا فيه بالفعل نقطة الضعف في علاقة الأقلية بالأغلبية إبان مرحلة الارتقاء .

وفي استعراضنا هذا ؛ يبرز إلى الطليعة أخيراً ، التباغض بين الأقلية والأغلبية تباغض يقود إلى انقسام البروليتاريا ؛ وهذا الانقسام الذي هو بدوره نتيجة حطم حلقة من حلقات العلاقات بين الأقلية والأكثرية . وهذه الحلقة أمكن الاحتفاظ بها سليمة - حتى أثناء مرحلة الارتقاء - بفضل خاصية المحاكاة التي تُعزز بالتدريب العالي . ولا نعجب لفشل المحاكاة وقها تُستنفد طاقة الزعماء الإبداعية . ولا يعزب عن الذهن أن صلة المحاكاة هذه ، تنسم دائماً بعدم توافر الاستقرار ، حتى أثناء مرحلة الارتقاء ؛ ويرد ذلك إلى وجود اثنتائيه مخادعة تتمثل في نعمة رقيقة مشمرة ، وهذه الثنائية لازمة لكل اختراع ميكانيكي .

تلك هي خطوط البحث التي نستحوذ عليها بالفعل بالنسبة لنوع الانشقاق الأفقي . ولعل أجدى السبل لمواصلة بحثنا أبعد من ذلك ، نجده في استغلال هذه الخيوط جميعها ، ثم نشرع بعد ذلك في غزل جديلتنا :

وستكون أولى خطواتنا ، القيام بمعاينة العناصر الثلاثة : الأقلية المسيطرة ،

البروليتاريا الداخلية، البروليتاريا الخارجية، معاينة قريبة واسعة المدى .
وهذه العناصر - وفقا للنمات الهليني وللأمثلة الأخرى التي توهمنا بها في
مواضع مبكرة من هذه الدراسة - هي نتيجة تمزق نسيج مجتمع مهيار بفعل
حدوث انشقاق أفقي .

ثم ننقل بعد ذلك مثلما فعلنا في دراستنا عن الارتقاء - من العالم
الأكبر إلى العالم الأصغر^(١) ؛ وستكشف هناك صورة تكمل الانحلال في
ظاهرة شروود الروح الآخذة في الازدياد . وسنقودنا اتجاهها البحث هذين
- كما يبدو للوهلة الأولى - إلى كشف يتسم بالتناقض ، مداره أن عملية
الانحلال تنتج - في ناحية على الأقل - وجهة مناقضة لطبيعتها من الناحية
المنطقية ، هذه الوجهة تعني « معاودة الميلاد » أو « التناسخ » .

فإذا ما انجزنا تحليلنا ؛ سنجد أن التغير النوعي الذي يجلبه الانحلال معه
يناهض في مظهره تماما ، التغير المترتب عن الارتقاء . فلقد شاهدنا في
عملية الارتقاء أن الحضارات الناهضة على اختلافها ، بزيادة تباينها الواحدة
عن الأخرى . وسنجد الآن أن نتيجة الانحلال النوعية هي على العكس
توحيد المقاييس .

وهذه النزعة صوب توحيد المقاييس أكثر لفتا للنظر ، إذ نتمتع في
مدى التباين الذي تلزم الحضارات بالتغلب عليه . فإن الحضارات المنهارة
تحمل معها وقتما تدخل مرحلة انحلالها أشد الحصال تطرفا في تباينها .
وتتمثل في النزوع إلى فن أو الكلف بالآلات ... وما إلى ذلك من السبل
تسلكها النزعة . وهذه الحصال اكتسبتها الحضارات في غضون ارتقائها .
كما تختلف الحضارات الواحدة عن الأخرى - بالإضافة إلى ما تقدم - في
حقيقة مدارها أن الانهيار يذاهمها في أعمار تختلف اختلافا واسعا :

(١) Macrocosm تعني العالم الأكبر أي الكون ، و Microcosm تعني العالم الأصغر
أي الإنسان . (المترجم)

فلقد انهارت الحضارة السورية مثلا ، بعد وفاة سليمان عام ٩٣٧ ق.م ،
في زمن لعل فترته تنقص بأقل من مائتي عام ، منذ الانبعاث الأصلي لهذه
الحضارة عن الفراغ الذي تلا سقوط الحضارة المينوية .

ومن الناحية الأخرى فإن اختها الحضارة الهلينية التي انبثقت عن نفس
الفراغ المعاصر له ، لم تتردد في الانهيار إلا بعد انقضاء خمسمائة سنة لاحقة ،
إبان الحرب الأثينية البلوبونيزية .

كذلك انهارت الحضارة المسيحية الأرثوذكسية في أعقاب الحرب الرومانية
البغارية عام ٩٧٧ ميلادية .

في حين ما انفكت أختها الحضارة الغربية ، تزدهر طوال عدة قرون
أطول مدى ؛ وهي ما تزال بعيدة عن الانهيار ، وفقا لعلمنا .

فإذا كان في مكتبة الحضارات الشقيقة أن نسلك هذه الأبعاد المختلفة
من مقياس الارتقاء ، فظاهر أنه لا يقدر للارتقاء الحضارى أى دوام ينسم
بالتجانس . وفي الواقع ، أخفقنا في العثور على أى سبب أساسى يفضل عن
غيره في تفسير سبب عدم اتصال سير الحضارة صوب الارتقاء إلى ما لانهية ،
ما دامت قد دخلت مرحلة التحلل .

وتوضح هذه الاعتبارات ؛ أن الاختلافات بين الحضارات النامية تنسم
بالانفساح والعمق . ومع ذلك سنجد عملية الانحلال ، تنزع إلى المواسم
فى جميع الحالات على نمط قياسى مداره انشقاق أفقى يخلق المجتمع إلى
عناصر ثلاثة سبق ذكرها . وإلى قيام كل عنصر منها بإيجاد نظام مميز :
دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، عصابات بربرية حربية .

وسنكون علينا أن نأخذ علما بهذه النظم ، وسنتعرف على مبدعها ،
كل على التوالى ؛ إن قيض الوضوح لدراستنا عن انحلال الحضارات .
لكن سنجد الأمر مناسباً - إلى المدى المعقول ، لدراسة النظم ، دراسة
خاصة ، فى أجزاء منفصلة من هذا الكتاب . ذلك لأن هذه النظم الثلاثة ،

هى شىء أكثر من كونها نتائج عملية الانحلال . وقد يتأتى لها كذلك أن تؤدى دوراً فى العلاقات بين حضارة وأخرى . فإذا ما فحصنا النظم الدينية العالمية ، سنجد أنفسنا مضطرين لإثارة مسألة فيما إذا كان يتأتى حقاً إدراك النظم الدينية فى وجودها الكامل ، فى نطاق إطار تواريخ الحضارات التى اتخذت فيها سبلها التاريخية . أو فيما إذا كنا لا ننظر إليها باعتبارها أنواعاً أخرى من المجتمع ؛ هى على الأقل مميزة عن « أنواع الحضارات » مثلما تتميز هذه الأخيرة عن المجتمعات البدائية .

وقد يصح أن يكون هذا أحد الأسئلة البالغة الأهمية التى تُثيرها دراسة للتاريخ . لكنه يقع عند أقصى نهاية للبحث الذى كنا نرسم الآن معالمه الرئيسية .

٢ - الانشقاق ورجمة المولد

صوّر اليهودى الألمانى كارل ماركس (١٨١٨ - ٨٣) فى ألوان مستعارة من الروايات المهمة التى انبثقت عن أثر دينى نبذه هو نفسه ؛ صورة مذهلة لانفصال البروليتاريا وبما يتلوه من حرب طبقية .

ويردّ جانب من التأثير الضخم للنبوة الماركسية المادية - الذى طغى على ملايين العقول هذه - إلى الزعة السياسية ذات الطابع الحربى التى تقوم عليها الماركسية . فإنه وإن كانت هذه الصورة هى لباب فلسفة عامة للتاريخ ، فإنها فى الوقت نفسه نداء ثورى لحمل السلاح .

ومهما يكن من أمر اعتبار ابتكار هذه الصيغة الماركسية للحرب الطبقية وأسلوبها ، شاهدين على ما أصبح يحس به المجتمع الغربى فعلاً من سيره فى طريق الانحلال ، فإن تلك مسألة ستشغل فيما بعد ، جانباً من هذه الدراسة عندما نشعر فى النظر إلى مآل هذه الحضارة الغربية .

ولقد ذكرنا ماركس - فى هذا المجال - لأسباب أخرى :

لأن ماركس هو المفسر التقليدى للحرب الطبقية لعالمنا الحاضر . ولأن

الضيغة الماركسية ، توأم الصورة الماثورة عن الرزادشسية واليهودية والمسيحية عما سيحدث من نهاية تنسم هادئة بعد أزمة تبلغ أقصى العنف .

ويخلص نبي الشيوعية من انطباعاته الروحية القائمة على مذهب المادية التاريخية - أو الحتمية التاريخية - بأن الأمر سينتهى بالحرب الطبقة إلى ثورة بروليتارية ظافرة . بيد أنه عندما يصل الصراع الدموي - كما يقول ماركس - إلى ذروته سيكون في ذلك نهاية ثورة البروليتاريا . ذلك لأن انتصارها سيكون حاسما قاطعا . ولن تصبح ديكتاتورية البروليتاريا - وهي ثمرة الثورة - نظاما دائما ؛ إذ يطالعا عصر يصبح فيه المجتمع الجديد الذى يولد لا طبقيا ، قديما وقويا بحيث يتمكن من الاستغناء عن الديكتاتورية .

ومن العجيب أن يغدو في مكنة المجتمع الماركسى الفاضل^(١) في قمة رفاهيته النهائية والدائمة، أن يطرح بعيدا - فضلا عن ديكتاتورية البروليتاريا - كل دعامة للنظام بما في ذلك الدولة نفسها .

وتكمن طرافة الأخريات^(٢) الماركسية - بالنسبة لبحثنا الحاضر - في الحقيقة المذهلة القائلة بأن الماركسية - وهي ظل سياسى باهت لعقيدة دينية مضمحلة - تُخطط بإحكام السبيل الحقيقى الذى تنزع الحرب الطبقة إلى سلوكه ، أو يتجه إليه الانشقاق الأفقى في مجتمع منها ؛ وهو موضوع حقيقة تاريخية . إن التاريخ يكشف لنا - ببلادة - في ظواهر الانحلال ، حركة تركض إلى السلم عبر الحرب إلى حالة الين عبر حالة اليانج^(٣) ، وعبر تدمير يحمل طابع الوحشية والمجازفة بالأشياء الثمينة ؛ إلى أعمال خلق يبدو أنها تدين بصفقتها الخاصة إلى توقد الشعلة المفرسة التى صُهرت فيها .

(١) استخدم المؤلف في الأصل تعبير « العصر الآن » : ويعنى عصر حكم المسيح ألف سنة على الأرض . (المترجم)

(٢) فلسفة الأخريات : كالموت والبعث والخلود والحساب . (المترجم)

(٣) حالة الين هي حالة السكون ، وحالة اليانج هي حالة الحركة الدافعة . (المترجم)

أما عن الانشقاق نفسه ، فإنه حصيلة حركتين سلبيتين يعتبر الانفعال الشرير مصدر إلهام كل منهما :

الأولى : تتمثل في محاولة الأقلية المسيطرة المحافظة بالقوة على المركز الممتاز الذى باتت لا تستحقه .

الثانية : وتعرض فيها البروليتاريا بالاستياء والخوف والكراهية ومواجهة القوة بالقوة . لكن تنتهى الحركة بأسرها بأفعال خلق إيجابية : الدولة العالمية ، نظام الدين العالمى ، وعصابات البرابرة المتوحشين .

وبالحرى ، لا يعتبر الانشقاق الاجتماعى مجرد انشقاق ليس إلا . فإننا إذا ما أدركنا الحركة ككل . نجد أن علينا أن نصفها بأنها انشقاق وتناسخ . وإذا ما اعتبرنا أن الانفصال — كما هو واضح — وسيلة خاصة للإنسحاب ، يصبح علينا تبويب الحركة المزدوجة للانشقاق والتناسخ على أنها مثال للمظهرين اللذين سبقت لنا دراستهما فى صورة أعم تحت عنوان « الانسحاب والعودة » .

وثمة اتجاه قديمو هذا الضرب الحديد من الانسحاب والعودة يختلف من خلاله عن الأمثال التى سبقت لنا دراستها . أليست هى مآثر الأقليات المبدعة أو الأفراد المبدعين ؟ أو ليست البروليتاريا المنشقة أكثرية تقف معارضة للأقلية المسيطرة ؟

إن لحظة من التفكير توحى — ما هو واضح بأنه الصورة الحقيقية — بأنه رغما عن أن الانفصال هو نتاج فعل الأغلبية ؛ إلا أن فعل الإبداع المتصل بتشديد نظام دينى عالمى ، هو نتاج فعل أقلية من الجماعات أو الأفراد المبدعين ، أقلية تتقيم فى نطاق الأغلبية البروليتارية . وتتألف الأغلبية العاطلة عن الإبداع فى مثل هذه الأحوال ، من الأقلية المسيطرة ومن بقية البروليتاريا . وألفينا كذلك — وهذا ما سذكروه — أن المآثر الإبداعية لما أسميناه بالأقلية المبدعة ، لم تكن فى غضون مرحلة الارتقاء قط ، من نتاج فعل

الأقلية في مجموعها ، بل أنها حصيلة فعل جماعة واحدة أو فئة أخرى داخل هذه الجماعة . وقوام الاختلاف في الحالتين ، أنه بينما تتألف الأغلبية الغير المبدعة إبان مرحلة الارتقاء من جمهرة الناس القابلة للخضوع لتأثيرات الآخرين (وهي التي تقتفى أثر الزعماء عن طريق المحاكاة) نجد أن جانباً من الأغلبية الغير المبدعة تتألف في مرحلة الانحلال من الجمهرة القابلة للخضوع لتأثيرات الآخرين (بقية البروليتاريا) . ويتألف الجانب الآخر من أقلية مهيمنة تنسم - بصرف النظر عن استجابات أفراد تعتقد أنهم ضلوا سواء السبيل - بانتحائها ناحية خاصة . ونجدها هنا مكتوبة متكبرة .

الفصل الثامن عشر

الانشقاق في الكيان الاجتماعي

(١) الأقليات المسيطرة

رغمًا عما تقرره الحقيقة من أن ثبات منحى الأقلية المسيطرة وتجانسه، علامة مميزة لها، فإن ثمة عاملاً واحداً للتغير، يوجد حتى داخل نطاق الأقلية المسيطرة . فلقد توفقت في إنجاز أعاجيب تتجلى في عملية تعقيمتها نفسها . وهي عملية ، تُتيح لها أن تحيل إلى قوتها المقاتلة المجدية ، المجندين الذين تدفعهم الأقلية المسيطرة باستمرار صوب صفوفها التي تُفنى نفسها بنفسها . ولن تستطيع صد نفسها عن إبراز الطاقة الإبداعية التي تتبدى ، لا في دولة عالمية فحسب ، ولكن كذلك في إنجاب مدرسة فلسفية . ومن ثم نجد في وسع الأقلية المسيطرة ، أن تضم بين صفوفها عدداً من الأعضاء الذين يرتحلون بصورة مذهلة للغاية عن النوعين اللذين تتميز بهما الطائفة المستغلة التي ينتمون إليها . هذان النوعان المميزان هما : النوع الحربي النزعة ، ونوع المستغل الأشد حقارة الذي يقتفى أثر الجيوش المحاربة .

وليست ثمة ضرورة ملحة لذكر أمثلة من التاريخ الهليني ، وإنما لنشاهد النوع الحربي النزعة في أحسن حالاته في الاسكندر ومن يماثله . ونجد النوع المستغل في أبشع حالاته في فيريس Verres ومن يماثله ؛ وفيريس هذا ، هو الذي عرض شيشرون في خطبه ورسائله الأخيرة بسوء إدارته لصقلية .

يبد أن الدولة الرومانية العالمية تدين ببقائها الطويل إلى حقيقة مذارها أن أصحاب النزعات العسكرية والاستغلالية فيها ؛ قد تلاهم — بعد عهد

الاستقرار في حكم أغسطس - عدد لا يحصى من الجنود والموظفين المجهول
الاسم الذين كفروا عن جانب من الأفعال السيئة التي ارتكبتها أسلافهم
النهائين ، بفضل تمهيدهم السبيل أمام هذا المجتمع المحتضر ليصطل على طول عدة
أجيال بأشعة شمس باهتة في صيف هندي^(١) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، لا يعتبر الموظف الروماني القائم بدور يتسم
بسيطرة الروح الإثارية عليه ، الظاهرة الوحيدة أو المبكرة التي تغلب على
الأقلية المسيطرة الهلينية . إذ كان من الواضح في عصر القياصرة من
بعد سفروس^(٢) Severus ، أن معجزة تحويل الذئب الروماني إلى كلب
حراسة وفقا للتعاليم الأفلاطونية ، ترجع إلى فعل الفلسفة الهلينية . وذلك
وقتما غدا حكم الإمبراطور الرواقى ماركوس أوريليوس في التاريخ الروماني
حقيقة واقعة ، وعندما أخذت تعاليم مدرسة الرواقيين تتحول إلى أصول
القانون الروماني .

فإنه وإن كان الإداري الروماني هو أداة الكفاية العملية للأقلية الهلينية
المسيطرة والتي تنقسم بروحها الإثارية ، إلا أن الفيلسوف اليوناني ما برح
مرشد نطاقها العملية النبيل . وتنتهي حلقة الفلاسفة اليونانيين المبدعين
بأفلوطين (حوالى ٢٠٣ - ٦٢ ميلادية) في العصر الذي بقى ليشاهد انهيار
الخدمة الرومانية المدنية . وكانت حلقة الفلاسفة هذه قد بدأت بسقراط
(حوالى ٤٧٠ - ٤٩٩ ق. م) في جيل كان قد استطال بالفعل ، وقتما
انهارت الحضارة الهلينية .

ويعتبر استصلاح نتائج ذلك الانهيار المفجعة ، أو على الأقل التلطيف

(١) الصيف الهندي فصل دافئ يغشى الهند في أواخر الخريف أو أوائل الشتاء .

(المترجم)

(٢) الكسندر سفروس Alex. Severus : إمبراطور روماني (٢٢٢ - ٢٣٥ ميلادية)

وقد مات ضحية مؤامرة عسكرية عام ٢٣٥ ميلادية . (المترجم)

من جدتها ، عمل العمر للفيلسوف اليوناني وللإداري الروماني . لكن أعمال الفيلسوف قد أنتجت نتيجة أئمن وأبقى على الزمن ، عما خلفه الإداري .

ويرجع ذلك إلى أن أعمال الفيلسوف ، لم تُحَبِّك في التسيج المادى لحياة المجتمع المتحلل . فإذا كان الإداريون الرومانيون قد شيدوا دعائم الدولة الهلينية العالمية ، فقد زوّدت الأجيال المستقبلية من الفلاسفة ، العالم بروح البحث التي اختصت بها الأكاديمية : زودته بمريدى الأرسطاطليسية وبالرواق^(١) . وبالستان^(٢) ، وبمجال عمل الفلسفة الكلية^(٣) . في الخلاء والمسالك والأسيجة . وأتاحت تحقيق حلم الأفلاطونية الجديدة في الدنيا الغير الأرضية التي تشبهها النفس .

وإذا ما توسعنا في استعراضنا توارىخ الحضارات المهارة الأخرى ، سنجد نفس خطوط سير صفة الإيثارية النبيلة ، تسير جنباً جنب مع سبل العسكرين المستغلين الكالحة والحسيسة .

ومن قبيل المثال ، أن الطبقة المثقفة التي أدارت شئون الدولة الصينية العالمية في ظل أسرة هان (٢٠٢ ق . م - ٢٢١ ميلادية) . قد بلغت مستوى عالياً من الكفاية وتخلّقت بروح العمل ، مما أهلها لتنبؤ إبان النصف التالى

(١) الرواق (أو المظلة) : شعار الفلسفة الرواقية التي أسسها الفيلسوف اليوناني القبرصى المولد « زينون » (٣٣٥ - ٢٦٣ ق . م) . ولقد انتشرت الرواقية في أنحاء العالم الروماني حتى لقد انضم إليها أمثال سنيكا وإبيكتوتوس والإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونيوس . (المترجم)

(٢) البستان : المكان الأثير لاجتماع مريدى الفلسفة الأبيقورية . وقد أنشأها أبيقور Epicurus (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) . ويتجه أبيقور في فلسفته اتجاه ماديا . ومن تعاليمه أن واجب الإنسان هو في إدراك السعادة الشخصية وتحقيق السلامة النفسية . ويتأتى ذلك بالتغلب على الرغبات والخاوف التي تهاجم العقل . (المترجم)

(٣) الفلسفة الكلية Cynicism : فلسفة أنشأها الفيلسوف اليوناني ديجينيس على أرجح الأقوال . وقد أطلق الاسم اليوناني Kyon (ويعنى الكلب) على أتباع هذه الفلسفة بسبب اسهائهم بكافة المبادئ والأوضاع وعماستهم عادات فاضحة . (المترجم)

من فترة نشاطها ، مكانا معنوياً يضارع موظفي الإدارة الرومانية ،
المعاصرين لهم في الجانب الآخر من العالم .

بل إن الإداريين الروس الذين طفقوا يقودون زمام الدولة المسيحية
الأرثوذكسية العالمية طوال فترة قرنين منذ عهد بطرس الأكبر وما تلاه ،
والذين أصبحوا أضحوكة داخل روسيا وفي البلاد الغربية نظراً لعجزهم
وفسادهم ، هؤلاء الموظفون لم يتوانوا إلى درجة مخزية - كما يفترض
غالباً - في الكفاح في سبيل تحقيق هدفهم المزيج الجسم القائم على المحافظة
على الإمبراطورية المسكونية على اعتبار أنها مشروع قائم ، وإحالتها في
نفس الوقت إلى هيئة حكومية مستجدة وفقاً للنمو الغربي .

ولعل أسرة البادشاه العثماني من الأرقاء ، قد غدت بالمثل في الكيان
الأساسي للمسيحية الأرثوذكسية ، اصطلاحاً مألوفاً للطغيان على الرعية .
إلا أن العقل لا يلبث أن يذكر أنها نظام أنجز على الأقل خدمة مميزة
للمجتمع الأرثوذكسي ، بقرضها عليه تلك الإمبراطورية العثمانية التي منحت
فترة هلو في غضون عشرين ، لعالم مزق نفسه ، وأنهكته الفوضى .

ونجد في مجتمع الشرق الأقصى في اليابان طبقة الإداريين اليابانيين
Daimyo الإقطاعيين هم وتابعهم الأماناء من الساموراي^(١) الذين فتكوا بالمجتمع
إبان فتكهم بعضهم ببعض . وحدث ذلك إبان القرون الأربعة التي تقدمت
إنشاء شوجونية توكوجاوا التي ظلت قائمة لتستعاض عن ماضها بإعداد نفسها
لإنجاز مشروع إيواسو Ieuasu^(٢) القاضى بتحويل الفوضى الإقطاعية إلى إقطاع

(١) الساموراي : طبقة حملة السيوف ، وكانت هي طبقة العسكريين اليابانيين .

(المترجم)

(٢) تبن إيواسو عام ١٥٩٨ في مجلس وصاية على ابن الشوجي (القائد الأعظم) تايكو
إلا إن إيواسو استطاع الاستئثار بالحكم بفضل مزيمته أعضاء مجلس الوصاية الآخرين في معركة
Se-Ki-Ou-Ha-Za عام ١٦٠٠ ميلادية . وألزم الإمبراطور بتعيينه شوجن عام ١٦٠٣ .
وإيواسو هو الذي نقل العاصمة من كيوتو إلى يئو (طوكيو) ولقد عمل إيواسو طوال عهده
في سبيل السيطرة على اليابان على القضاء على نفوذ الحكام الإقطاعيين . وكان يتبعه مليوناً فرد
من الساموراي . (المترجم)

منظم . ولقد تسامت توضيحات أفراد هذه الطبقة إبان فترة افتتاح الفصل التالى من التاريخ اليابانى فبلغت مرتبة إنكار الذات . وذلك وقما جردوا أنفسهم من امتيازاتهم إيماناً منهم بضرورة بذل هذه التوضيحية رجاء مساعدة اليابان على المحافظة على كيائها فى عالم تسوده الاتجاهات الغربية ، ولا منجاة لها منه .

وتشارك طبقة الساموراي اليابانية فى هذه النزعة النبيلة ، أقلبتان حاكمتان أخريان لا ينكرها عليهما أعداؤهما نفسيهما . تلك هما طبقة الانكاس Incas فى الدولة الانديانية ، وطبقة الأعيان الفرس الذين حكموا الدولة السورية العالمية باعتبارهم مديرين بالنيابة للملك الملوك الأخياني .

فلقد شهد القاتحون الأسبان^(١) بفضائل الانكاس . أما بالنسبة للفرس فإن الصورة اليونانية عنهم التى عرضت لها خلاصة هيرودوتس المشهورة عن تعليم الأطفال الفرس والتى فيما يقول « إنهم يدرّبون من سن الخامسة إلى سن العشرين على الاقتصار على إتيان ثلاثة أشياء : امتطاء الجواد وإصابة المرمى وقول الصدق » هذه الصورة لن تقلل من قدرها الصورة المرافقة لها عن الفرس فى مرحلة رجولتهم . وهناك أيضاً رواية هيرودوتس عن حاشية إجزركسيس Xerxes أثناء العاصفة فى البحر ، فإن أفراد الحاشية وثبوا إلى الماء لتخف حمولة المركب ، بعد تقديمهم فروض الولاء لسيدهم الإمبراطور .

على أن أعظم شهادة دامغة للفضائل الفارسية ، هى شهادة الاسكندر الأكبر الذى أظهر بالأفعال الخطيرة لا بمجرد الأقوال اليسيرة ، مدى ما يمكنه الفرس بعد خبرته لهم . فإنه ما إن علم — بالاختبار الاستقصائى بفعل الهزيمة الساحقة فيهم ، حتى اتخذ قراراً لم يكن ليقصر على مضايقة أتباعه المقلونين ، بل كان أضمن طريقة فى تناوله لاستثارة مشاعرهم — إن كانت الإساءة إليهم

هدفه المقصود : فإن الإسكندر قد رنا في الحقيقة إلى أن يجعل من الفُرس شركاء له في حكم الإمبراطورية التي كانت جسارة أتباعه المقدونيين قد انتزعها بالكاد من أيديهم . ووضع سياسته موضع التنفيذ في أسلوب يتسم بالإتقان . فاتخذ لنفسه زوجة ابنة أحد الحكام الفرس . ورشا ضباطه المقدونيين أو أرغمهم على الاقتداء به ، والحق جنوداً فُرساً بالفرق المقدونية . وأن شعباً في مكنته أن يستخلص هذا التقدير من زعيم أعدائه الوراثن غداة هزيمته النكراء ، لا بد وأنه شعب أوقى ملكة « فضائل العنصر الحاكم » بشكل ظاهر .

وبعد ؛ فلقد آلتينا على أنفسنا أن نخشد عدة عظيمة من الأدلة على طاقة الأقليات المسيطرة ، على إبراز طبقة حاكمة جديدة بالإعجاب ؛ وهذا ما تدل عليه طائفة الدول العالمية التي شيدتها . فإن ثمة ما لا يقل عن الخمس عشرة حضارة ، مرت عبر هذه المرحلة في طريقها صوب الانحلال ، من بين العشرين حضارة التي أصيبت بالانهيار .

ففي مقدورنا أن نتعرف في الإمبراطورية الرومانية ، على دولة عالمية هيلينية ؛ وفي إمبراطورية الانكاس ، على دولة عالمية انديانية ؛ وفي إمبراطورية عائلتي تسين وهان ، على دولة عالمية صينية ؛ وفي إمبراطورية مينوس البحرية ، على دولة عالمية مينووية ؛ وأن نتعرف في إمبراطورية سومر وأكاد ، على دولة عالمية سومرية ؛ وفي إمبراطورية تبوخذ نصر الجديدة ، على دولة عالمية بابلية ؛ وفي إمبراطورية الماياس القديمة على دولة عالمية مايانية . وأن نتعرف « الإمبراطورية الوسطى » إبان الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة على دولة عالمية مصرية ، وفي الإمبراطورية الأخيانية ، على دولة عالمية سورية ؛ وفي إمبراطورية مورياس ، على إمبراطورية عالمية سنديّة ؛ وفي إمبراطورية المغول العظام ، على دولة عالمية هنديّة ؛ وفي الإمبراطورية العثمانية ، على دولة عالمية

مسيحية أرثوذكسية ؛ وفي إمبراطورية المغول في الصين ، على دولة عالمية في دنيا الشرق الأقصى ؛ وفي شوجونية توكوجاوا ، على دولة عالمية في اليابان .

ولم تكن هذه الطاقة السياسية ؛ هي الخط الفريد للقوة المبدعة التي تعتبر الصفة المشتركة في الأقليات المسيطرة . فلقد سبق أن رأينا ، أن الأقلية الهلينية المسيطرة لم تقتصر على إنتاج الإدارة الرومانية ، بل تعدتها إلى إنجاب الفلسفة اليونانية .

وسنجد ثلاثة أمثلة أخرى على الأقل ، أخذتها أقلية مسيطرة في حسابها . ويبدو في تاريخ المجتمع البابلي - مثلاً - أن القرن الثاني قبل الميلاد الرهيب الذي عاصر بداية حرب المائة عام بين بابل وآشور ، قد عاصر كذلك تقدماً مفاجئاً في المعرفة الفلكية ، فلقد كشف العلماء البابليون ، أن إيقاع تكرار الأكوار الذي كان واضحاً منذ زمن سحيق في تعاقب النهار والليل ، وفي القمر الباهت المشرف على الزوال وفي دورة السنة الشمسية ؛ يتأني إدراكه كذلك على نطاق أوسع في حركات الكواكب . ولقد ثبت الآن أن هذه النجوم التي كانت التقاليد تدعوها بـ « السيارة » - كناية على مساراتها المتعرجة - تخضع هي الأخرى لنظام دقيق مثل الشمس والقمر ونجوم السماء « الثابتة » في الدورة الكونية للسنة العظمى . وكان لهذا الكشف البابلي المثير ؛ نفس تأثير الكشف الغربية الحديثة ، على فكرة مستكشفي الكون .

وهكذا ؛ فإن النظام الثابت والمتفق مع القانون والذي وجد أنه يحكم كافة تحركات الكون النجمي المعروفة ، أصبح يفترض فيه تحكمه في مضائر الكون في مجموعة سواء المادى منه أو الروحاني ، الجامد والحي . ويقال تبريراً لهذا الرأي أنه إذا أمكن تعيين تاريخ كسوف للشمس أو عبور للزهرة في لحظة معينة منذ مئات السنين الماضية ، أو التنبؤ بتأكيده مماثل عن

جلوئه في لحظة معينة في فترة مقبلة تماثل السابقة في الزمن ، فهلا يعقل والحالة هذه ، افتراض تعيين شئون البشر تعيينا ثابتا يمكن حسابه بنفس الدقة ؟

وإذ يتضمن نظام الكون فكرة تحرك جميع أعضاء الكون في وفاق تام ، وتعاطف بعضهم على البعض الآخر ، ألا يعتبر نمط حركات النجوم الذي كشف عنه حديثاً ، هو مفتاح لغز المصائر البشرية بحيث يتيسر للمراقب الذي يحوز في يده هذا المفتاح الفلكي ، أن يتنبأ بمصائر جاره إن قبضت له معرفة تاريخ ميلاده ولحظته ؟

وسواء أكان هذا حقاً أو باطلاً ، فإن هذه الافتراضات قد اعتنقت في حماس . وهكذا أنبت على الكشف العلمي المثير الفلسفة الحتمية السفسطائية التي طفقت تسهوى خيال المجتمع تلو المجتمع والتي ما تزال تفنن بعد انقضاء ما يقرب من ٢٧٠٠ سنة من قيامها .

هنا أصبح يقع على مزاعم علم التنجيم المضلل ، عبء مزج نظرية تفسير جهاز العالم بفعل يمكن أحقاد الناس من تعيين الفائز في سباق الدربي هنا والآن . ولقد استطاعت الفلسفة البابلية بفضل هذه الجاذبية المزدوجة أن تنفادى استئصال المجتمع البابلي إبان القرن الأخير قبل الميلاد . وكان العالم الرياضي الخليدوني الذي فرض الفلسفة البابلية على مجتمع هلينى منهوك ، ما يزال تعرضه حتى الأسف باحة المنجم في الصين ومنجم باشا في استامبول . وإذا كنا قد أطلنا المقام مع هذه الفلسفة الحتمية البابلية ، فذلك لصلتها بالمحاولات الفلسفية الحمقاء - إلى حد ما - في العالم الغربي في عصره الديكارتي^(١) الحاضر ، وهي صلة أعظم من صلة أية فلسفة هلينية . وثمة من الناحية الأخرى نسخ مطابقة تقريباً من كافة مدارس الفكر الهلينية ، في المناطق الفلسفية للعالمين السندى والصيني . إذ أنبت الأقلية المسيطرة للحضارة السندية

(١) نسبة إلى ديكارت الفيلسوف الفرنسي . (المترجم)

المتحللة ، فلسفة اتباع ماهافيرا « الجانية » . وأنجبت البوذية البدائية لمريدى سيدهارنا جوتاما Siddhartha Gautama بوذية المهايانا المتشكلة^(١) والآراء الفلسفية البوذية المختلفة التي هي جزء من الجهاز العقلي للهندوسية التي تلت البوذية . إن الأقلية المسيطرة للحضارة المسيحية المتحللة ، قد أنتجت النزعة الأخلاقية صوب الطقوس والنزعة الأخلاقية المتأثرة بطقوس كنفوشيوس ؛ كما أنجبت حكمة تاو Tao النقيضة التي تعزى إلى العبقورية الأسطورية للحكيم لاوتسى Lao Tse .

(٢) البروليتاريات الداخلية

١ - طراز هلينى :

بانتقالنا من ميدان الأقليات المسيطرة إلى الطبقات البروليتارية ، يتبين أن دراسة الوقائع عن قرب ، تؤيد أول انطباع لأذهاننا ومداره وجود تنوع فى الطراز فى نطاق عناصر المجتمع المتحلل هذم . وسنجد كذلك أن نوعى البروليتاريا - الداخلية والخارجية - يقعان فى قطبين متضادين داخل مجال الأقليات المسيطرة . ولما كان مجال البروليتاريات الداخلية أوسع كثيراً ، سنعمد إلى استكشاف الميدان الأرحب أولاً :

إن خبر ما نفعله فى سبيل تتبع بدء البروليتاريا الهلينية الداخلية منذ مستهل مرحلة التكوين ؛ أن نقتبس فقرة من توكيديديس - وهو مؤرخ انهيار المجتمع الهلنى - يصف فيها المرحلة المبكرة للانشقاق الذى تلا الانهيار ، ذلك الانشقاق الذى تبدى لأول مرة فى كورسيرا .

« تلك كانت وحشية الحرب الطبقة فى كورسيرا كما برزت للعيان : وقد أضفت طابعاً عميقاً لأنها كانت الأولى من نوعها : وإن كان الاضطراب

(١) تختلف هذه البوذية عن أصلها المعترف به ، اختلافاً يماثل فى عمقه على الأقل اختلاف الأفلاطونية الجديدة من الفلسفة السقراطية للقرن الرابع قبل الميلاد . (المترجم)

قد انتشر في نهاية الأمر في بقاع العالم الهليني بأسره تقريباً . وكان ثمة اشتباكات في كل قطر بين زعماء البروليتاريا والرجعيين ، نتصل بجهودهم لكفالة تدخل الأثينيين أو تدخل اللاسيدامونيين Lacedaemonians على التوالي . ولم تكن لديهم الرغبة ولم تتح لهم الفرصة للاستعانة بالأجنبي وقتما كان السلام ينشر عليهم ظله . لكن ما إن تغيرت الحال بنشوب الحرب بينهما ، حتى غدا أمرا يسيرا استعانة أحد المعسكرين بالأجنبي لتأمين تحالف يقضي إلى هزيمة خصومه من المعسكر الآخر وتعزيز مماثل لقضية جماعته . إن ولوج هذه الحرب الطبقية قد جلب معه الكارثة على بلاد هيلاس . وهي كوارث تحدث وسيستمر حدوثها طالما يظل الجنس البشري في العالم . وإن كان يحتمل أن تشتد حدتها أو تخف أو تعدل وفقاً لما يطرأ على الأحداث المتعاقبة من تغيرات . وتبدى البلاد والأفراد كلاهما إبان ظروف السلم المواتية نزعة تتمشى مع نوازع العقل ، لأن أيديهم لا تدفعها الأحداث المنطقية . بيد أن الحرب تستنفد مظاهر الحياة العادية ، وتكيف مزاج معظم الصفات وفقاً للبيئة الجديدة بفضل تدريبها الوحشي . وهكذا أصيبت هيلاس بداء الحرب الطبقية ، وكان للشعور الذي يحدثه نشوب حرب ما ، نتيجة تراكم على الحرب التالية (١) .

وفي مثل هذه الأوضاع تمثلت أولى النتائج الاجتماعية ، في إبراز طوفان ضخم وأخذ في التضخم ، من السكان المهاجرين عديمي الجنسية : وهذه مشكلة لم تعرفها فترة ارتفاع التاريخ الهليني ، وكانت تعتبر شيئاً شاذاً مفزعاً . ولم توفق جهود الاسكندر الصاعدة في القضاء على هذه الآفة عن طريق إقناع الجماعة الحاكمة وقتئذ في كل دولة ، بالسماح لمعارضها

(١) ثيوكلدبديس : الكتاب الثالث من الفصل الثاني والثاني .

المطرودين بالعودة إلى ديارهم بسلام ، فكان أن هيات النار لنفسها وقوداً جديداً . لأن الشيء الذي وجدته المنفيون متاحاً لهم لعمله كان التطوع جنوداً مرتزقة . وترتب على اتساع مجال الطاقة البشرية العسكرية هذا ، ازدياد قوة الاندفاع في الحروب ، نشأ عنها بدورها منفيون جدد ، فعظم بالتالي تعداد الجنود المرتزقة :

وإلى إطلاق الحرب القوى الاقتصادية من عقالها ، يُعزى تمكن تأثير هذا التدمير المعنوي لروح هيلاس الحربية ، تمكّنا عظيماً أتاح انتزاع أبنائها : فلقد أتاح حروب الاسكندر وخلفائه في جنوب غرب آسيا العمل — مثلاً — لحشد من جنود اليونانيين المشردين على حساب انتزاع أفراد حشد آخر من دورهم . وكانت مدفوعات الجنود المرتزقة ، تتألف من سبائك الفضة والذهب التي لبثت طوال قرنين تجمع في خزائن الأباطرة الاحيائيين . فكان أن شاع الدمار بين الفلاحين والصناع بفعل ازدياد حجم النقود في التداول زيادة مفاجئة ، إذ أدى ارتفاع كمية النقود إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً هائلاً . فكان أن تردى في برائن الفقر عنصران من الكيان الاجتماعي كانا يتمتعان قبل ذلك باستقرار نسبي .

ولقد برز مرة أخرى نفس تأثير إفقار الشعوب ، بعد ذلك بمائة عام ، بفعل النتائج الاقتصادية لحرب هانيبال ، وقتما انتزع الفلاحون من أرض إيطاليا بسبب الدمار المباشر الذي أحاقه بها جنود هانيبال أولاً ، ثم بسبب إطالة فترة الخدمة العسكرية . وهكذا لم يعد أمام من أصابه الفقر من سلالة الفلاحين الإيطاليين التي انتزعت من الأرض ضد إرادتها ، ملاذ سوى احتراف العسكرية التي فرضت على أسلافهم سخرة .

ولا ريب لدينا في أننا نراقب — في مثل عملية الاقتلاع هذه — بدء البروليتاريا الداخلية المحلية . وذلك رغماً عن حقيقة مبناها أن ضحايا العملية

قد تألفت في أحيان غير كثيرة — في الأجيال الأولى على الأقل — من
أرستقراطيين سابقين .

وتفسير : ذلك أن النزعة البروليتارية ؛ هي في جوهرها حالة شعور ،
أكثر من كونها موضوع ملازمة خارجية . ومصدقا لذلك عرفنا البروليتاريا
وفاء بنائنا — وفيما استخدمنا الاصطلاح للمرة الأولى — بأنها عنصر اجتماعي
« كائن » في أي مجتمع معين في أية مرحلة معينة من تاريخ ذلك المجتمع ،
لكنها ليست منه . ويشمل هذا التعريف القائد الاسبرطي كليرخوس^(١)
وغيره من القواد الأرستقراطيين في جيش قورش الصغير الذي تألف من
الجنود المرتزقة اليونانيين . ولقد صور لنا أكستوفون أسلاف هؤلاء الجنود ،
كما صور انحطاط العمال المتعطلين الذين وردوا تحت أسماء جنود مرتزقة
في جيش بطليموس أو جيش ماريوس .

من ذلك يتبين أن سمة البروليتاريا الأساسية ، ليست الفقر ، كما أنها
ليست الأصل الوضع . فإن مناطها إما شعور الفرد بالحرمان من المكانة
التي كان أسلافه يحظون بها في المجتمع ؛ أو سحق يركبه هذا الشعور .

ومصدقا لهذا الرأي : تألفت البروليتاريا الداخلية الهلينية أول الأمر ،
من مواطنين أحرار ، بل حتى من أرستقراطيين ينتسبون إلى المنظمات
السياسية الهلينية المتحللة . ولقد تمثل حرمان هذه الصفوف الأولى في بداية
الأمر ، في سلبها حقها الروحي الموروث . لكن تجريدتها الروحي قد صاحبه
بالطبع في غالب الأحيان — وتبعه على الدوام تقريبا — إشاعة الفقر المادي .
وما لبثت صفوف البروليتاريا أن تعززت بإمدادات أخرى من الطبقات
الأخرى التي كان أفرادها منذ البداية بروليتاريين روحا ومادة على السواء .

(١) كليرخوس Clearchus قائد اسبرطي من القرن الخامس قبل الميلاد ولقد عاون
الأمير قورش الصغير ضد أجرجسيس Artaxerxes وعينه اليونانيون قائدا عاما عليهم بعد موقعة
كوناكسا . وأمكنه توجيه ارتداد عشرة آلاف جندي يوناني لكنه وقع في كين نصبه له
فقتله عام ٤٠١ ق . م . (المترجم)

على أن حروب الفتح المقدونية التي جرفت كافة المجتمعات السورية
والمصرية والبابلية إلى شبكة الأقلية المسيطرة الهلينية ، قد استوعبت إلى
مدى واسع ، جماهير البروليتاريا الداخلية . في حين اكتسحت الفتوحات
الرومانية التالية نصف برايرة أوروبا وشمال أفريقيا .

ولعل هذه الإمدادات التي دخلت على البروليتاريا غنوة ، كانت في
البداية أسعد حالا من رصيفتها البروليتاريا المنحدرة من أصل هليني صميم .
فإنها وإن حرمت معنويا وسلبت ماديا ؛ إلا أنها لم تقتلع طبيعيا بعد . بيد
أن تجارة الرقيق التي اقتفت أثر الفاتح ، قد شاهدت ، هي والقرنان
الأخيران قبل المسيح ، جميع سكان ساحل البحر الأبيض المتوسط - سواء
من كان منهم برايرة غربيين أو شرقيين مثقفين يخضعون لهدف واحد هو
إمداد سوق الرقيق الإيطالية باحتياجاتها الشرهة .

يتبين لنا مما تقدم ؛ أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهليني المتحلل
قد تألفت من عناصر ثلاثة مميزة :

الأول : أعضاء في الكيان الاجتماعي محرومة ومقتطعة منه .

الثاني : أعضاء في حضارات غربية ومجتمعات بدائية غزيت بلادها
واستغلت ، لكن أصولها لم تتمزق ، وإن أصابها الحرمان بصفة جزئية .

الثالث : المجندون المحرومون حرمانا مزدوجا . ومنهم ، هؤلاء السكان
الخاضعون الذين لم يقتصر الأمر على اجتثاثهم ، بل إنهم استرقوا ورحلوا
ليعملوا حتى الموت في المزارع القصية .

وتباينت آلام هذه المجموعات من الضحايا الثلاث ، تباينا يماثل تنوع
أصولها . لكن المحنة المشتركة الماخقة التي مرت بها هذه العناصر المختلفة ،
والتي يتمثل في سلبها تراثها الاجتماعي ، وإحالتها إلى طبقات منبوذة مستغلة ،
قد بثت فيها نزعة التماسي .

فإذا ما أخذنا في فحص كيفية مواجهة ضحايا الظلم هؤلاء مصيرهم ،
فلن يدهشنا أن يتجلى أحد ردود فعلهم في ثوران اتسم بوحشية تجاوزت
العنف الذى اتسمت بها قسوة ظالمهم ومستغليهم ، تلك القسوة التى لم تأبه
لأى شيء . والواقع تظن نعمة من الانفعال بين تضاعيف صخب السورات
البروليتارية البائسة :

ونلقف هذه النعمة :

أولا : فى سلسلة من الثورات المصرية ضد نظام الاستغلال البطليموسى .
ثانيا : فى سلسلة من الفتن اليهودية ضد سياسة السلوقيين والرومانيين
التي اتجهت إلى فرض الثقافة الهلينية على اليهود ، بدأت منذ ثورة يهوذا
المكابى عام ١٦٦ ق . م وانتهت إلى محاولتهم البائسة الأخيرة وهم تحت
زعامة كوكابا عام ١٣٢ - ٥ ميلادية .

ثالثا : فى سورة الغضب المتهورة التي دفعت أهالى آسيا الصغرى الغربية
أنصاف الهلنيين والمتخذلقين ، لتعرض أنفسهم مرتين لنقمة الرومان
تحت قيادة أريستونيكوس^(١) Aristonicus عام ١٣٢ ق . م . وتحت زعامة
ميتراديس Mithradis ملك بنطس عام ٨٨ ق . م .

رابعا : سلسلة من الفتن التي أثارها الأرقاء فى صقلية وجنوب إيطاليا
بلغت ذروتها فى الغارة البائسة التي قام بها المجالد التراقى^(٢) الآبى سبارتاكوس
Spartacus متحديا الذئب الرومانى فى مربضه بالذات ، وذلك خلال
الفترة ٧٣ - ٧١ قبل الميلاد :

ولم تقتصر سورات السخط هذه على العناصر الدخيلة فى البروليتاريا ،
فإن الوحشية التي واجه بها مواطنو البروليتاريا الرومانية ، البلوتوقراطية^(٣)

(١) أريستونيكوس : عالم لغوى يونانى ولد بالإسكندرية . وعاش خلال حكمي أغسطس
وتبريوس . (المترجم)

(٢) المجالد : ترجمة لفظ Gladiator والتراقى نسبة إلى تراقيا . (المترجم)

(٣) البلوتوقراطية Plutocracy أى حكم السراة . (المترجم)

الرومانية فزقوها في الحروب الأهلية وبخاصة إبان دورة ٩١ - ٨٧ ق م ،
هذه الوحشية تتعادل مع وحشية يهوذا المكابي Judas Maccabaëus
أو سبارتاكوس .

ونلمح أفضح الشخصيات التي برز منحها الشيطاني في صورته المظلمة ضد
وهج عالم كان مترددا في سعيه الاضطرابات ، في الزعماء الرومانيين الثوريين
الذين قذف بهم في عنف من بين صفوف الطبقة الحاكمة ذاتها ، نوع من دورة
الحظ القوية قوة غير عادية . ومن أمثال تلك الشخصيات ، سرتورزوس
Sertorius وسكستوس بومبيوس Sextus Pompeius وماريوس ،
وكاتلين (١) .

ولم يكن العنف ذو السمة الانتحارية ، هو الاستجابة الوحيدة التي قامت
بها البروليتاريا الداخلية الهلينية . إذ كان ثمة طراز آخر من الاستجابة
مختلف تماما ، وجد أسمى تعبير له في العقيدة المسيحية . وإن الاستجابة
الوديدة أو السلمية ، هي تعبير عن الرغبة في الانفصال - يعادل في درجة
إصالته - مستوى التعيز باستخدام العنف . ذلك لأن الشهداء الوديعين
الذين أشاد بذكرهم الكتاب الثاني للمكانيين - النساخ القديم اليازور Eleazer
والإخوة السبعة وأهمهم - هم الأسلاف الروحيون للفريسيين ، والفريسيون
هم « أولئك الذين انزلوا بأنفسهم » . وهذا لقب أضفوه على أنفسهم ،
قد يترجم نفسه إلى « المنشقين » بلغة الاشتقاق الروماني .

ويطالعنا تاريخ البروليتاريا الداخلية الشرقية للعالم الهليني من القرن الثاني
قبل الميلاد وما بعده ، بالعنف ولين الجانب يكافحان في سبيل السيطرة
عل النفوس . إلى أن أباد العنف نفسه بنفسه ، وكان أن تركت نزعته « لين
الجانب » وحيدة في الميدان .

ولقد أثير النزاع منذ البداية . ذلك لأن الطريق الرقيق الذي سلكه

(١) كانوا جميعا قادة وساسة رومانيين . (المترجم)

الشهداء الأولون عام ١٦٧ ق . م . قد نبذه بسرعة يهوذا^(١) المتهور . وكان النجاح المادى المباشر لهذا « الرجل القوى المسلح » البروليتارى - وإن كان نجاحا فانيا مزخرفا بلا ذوق - محيرا للأخلاف إلى درجة أن أقرب رفقاء السيد المسيح قد أصابه الحزى . كما تنبأ سيدهم بمصيره ؛ وسجلوا اعتذارا وقتما تحققت تنبؤاته . بيد أنه بعد انقضاء بضع سنوات على عملية الصلب ، كان بول تلميذ جاما ليل - Gamliel^(٢) ييشر بالمسيح المصلوب .

واقضى الجيل الأول من المسيحيين أن يبذلوا للحصول على هذا التحول عن طريق العنف إلى طريق الرقة ، ثمنا قوامه تلقتههم ضربة عظيمة لأمانهم المادية . إن ما حدث لأتباع المسيح بسبب صلبه ، قد أحدثه لليهودية المتزمتة دمار أورشليم عام ٧٠ ميلادية . فكان أن نشأت مدرسة جديدة لليهودية نبذت الفكرة القائلة بأن « مملكة اللهى وضع خارجى للأشياء ، يوشك أن يتبدى . وبسبب التذير الذى فاه به دانيال - وهو الاستثناء الوحيد فى سفره - نبذت من شريعة القانون والأنبياء ، الكتابات المهمة التى وجدت فيها طريقة العنف اليهودية تعبيرها الكتابى . فكان أن تأصل سريعا فى التقاليد اليهودية ، مبدأ الامتناع عن بذل الجهود لتنفيذ إرادة الله فى هذا العالم باستخدام عمل الأيدى البشرية ، إلى درجة تجعل المنتمى إلى مذهب أجودات إسرائيل Agudath Israel الشديد التزمت ، ينظر فى هذه الأيام شررا إلى الحركة الصهيونية ويقف فى القرن العشرين بمنأى عن أى مشاركة فى بناء « الوطن القومى اليهودى » فى فلسطين .

وإذا كان هذا التغير فى النفس اليهودية الصميمة ، قد عاون اليهود على البقاء كمجتمع متحجر ، فإن التغير المائل له فى نفس رفقاء السيد المسيح ؛

(١) يهوذا الاسخريوطى هو الخائن الذى أسلم السيد المسيح اليهود . (المترجم)
 (٢) جاما ليل : مات عام ٥٢ ميلادية : من الفريسيين ، تعلم عليه القديس بولس .
 ولقد امتاز بتسامحه وسعة أفق تفكيره وحبه للسلام . ولم يعتنق المسيحية ، لكن يؤثر عنه دفاعه عن القديسين بطرس ويوحنا . (المترجم)

قد فتح الطريق أمام الكنيسة المسيحية لتحقيق انتصارات أعظم . فلقد استجابت الكنيسة المسيحية إلى تحدى الاضطهاد ، باستخدام الأسلوب الوديع المأثور عن إليازر والإخوة السبعة . فاجتنت ثمرة سياستها ، تحول الأقلية الهلينية المسيطرة إلى المسيحية . وتلاها بعدها ، اعتناق عصابات الحرب البربرية للبروليتاريات الخارجية لها .

ولقد تمثل الخصم المباشر للمسيحية إبان القرون الأولى لنموها ، في عقيدة المجتمع الهليني البدائية القبلية إبان مرحلته الأخيرة : تلك هي العبادة الوثنية للدولة العالمية الهلينية متمثلة في شخص « قيصر القادر » . وإلى رفض الكنيسة الرقيق - لكنه العنيد - السماح لأعضائها بممارسة طقوس هذه العبادة الوثنية - حتى بطريقة رسمية ومتكلفة - ترد سلسلة الاضطهادات التي أوقعتها عليها الدولة . بيد أن الحال قد انتهى بالحكومة الإمبراطورية الرومانية في نهاية الأمر ، إلى الإدعان للسلطة الروحية التي أخفقت في إخضاعها .

وبأنه وإن أمكنت المحافظة على عقيدة الإمبراطورية البدائية السالفة الذكر ، وفرضها على رعاياها باستخدام قوة الحكومة الباطشة ؛ إلا أن سيطرتها على النفوس البشرية كان قليلا . ويعتبر أمر الحاكم الروماني إلى الفرد المسيحي بإظهار الاحترام لتلك العقيدة بممارسة طقوسها ، بداية دين الدولة هذا ونهايته . ولم يكن هذا يعني شيئا كثيرا عند غير المسيحيين ، وكانوا يمارسون بصفة ثابتة ما يؤمنون بتأديته ، وكانوا يعجزون عن إدراك سبب إصرار المسيحي على التضحية بحياته عوضا عن الإدعان لعادة حقيرة .

أما العقائد الدينية المتنافسة للمسيحية ؛ فلأنها كانت تتميز بقوة ذاتية فلم تكن والحالة هذه في حاجة إلى تأييد سلطة سياسية . فلم تمثل في عبادة الدولة ؛ ولا في شكل آخر من أشكال العقيدة البدائية ؛ ولكن تمثلت في عقائد دينية عليا انبثقت مثل المسيحية نفسها من البروليتاريا الداخلية الهلينية .

وفي مُمكننا أن نُبرز للعيان هذه « العقائد الدينية العليا » المتنافسة بفصل الرجوع إلى المصادر المختلفة التي استمدت منها البروليتاريا الداخلية الهلينية عنصرها الشرقي . إن الدين المسيحي قد وفد من شعب يمت إلى أصول سورية . وساهم النصف الإيراني من العالم السوري بعقيدة ميثرا Mithra . ووفدت عبادة ايزيس من النصف الشمالى المغمور بالماء من الدنيا المصرية . ولعل عبادة الأم الأناضولية الكبرى سيبل Cybele يمكن اعتبارها مساهمة من المجتمع الحيثي الذي كان وقتئذ قد زال من على كل سطح اجتماعي ، ما خلا السطح الديني . فإن وطننا النفس على إرجاع أصل « الأم الكبرى » إلى أصولها النهائية ، سنجد العالم السوري هو موطنها الأصلي تحت اسم « ايشتار » Ishtar ، قبل أن تقيم نفسها تحت اسم « دياسيرا » Deasyra في هيرابوليس Hierapolis أو تحت اسم « الأرض الأم » بين العباد التائين المتحدثين بالتيوتونية في غيضاها على الجزيرة المقدسة في بحر الشمال أو البلطيق .

٢ - فجوة مينووية وبضعة آثار حيثية :

إذا ما قتشنا عن تواريخ لبروليتاريات داخلية في مجتمعات أخرى متحللة ، فإنه حري بنا أن نعرف بأن الدليل في بعض الحالات شحيح أو أنه ينجيب ظننا بجملة . فإننا نجعل مثلا كل شيء عن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الماياني .

أما بالنسبة للمجتمع المينووي ، فقد استلفت نظرنا قبل ذلك ، بصيص يعذب بالأمل ، لاحتمال أن يكون قد احتفظ بآثار ما يمكن أن يدعى بنظام ديني مينووي عالمي ضمن العناصر المتباينة المظهر للكنيسة الأورفية^(١) التاريخية التي تبدت في التاريخ الهليني منذ القرن السادس قبل

(١) الأورفية : نسبة إلى أورفوس Orpheus وكان موسيقيا متصوفا من قراتيا . وينسب إليه إنشاد طقوس حافلة بالأسرار الغامضة . (المترجم)

الميلاد وما بعده . بيد أننا لسنا على يقين فيما إذا كان أى من الطقوس والمعتقدات الأورفية ، مستمد من الدين المينوى .

وبالمثل لا نعلم شيئاً عن البروليتاريا الداخلية للحضارة الحيثية التى بادت فى عمر غض غير عادى . ولا نملك سوى القول بأن المجتمع الهلنى لعله قد استوعب حكام المجتمع الحيثى تدريجياً وبصفة جزئية . واستوعب المجتمع السورى جانباً آخر .

وبالحرى أجدر بنا أن نبحث عن أية آثار لكيان المجتمع الحيثى فى تاريخى هذين المجتمعين الغريبيين .

إن المجتمع الحيثى هو واحد من عديد المجتمعات المتحللة التى التهمها مجتمع يجاورها قبل أن تستكمل عملية الانحلال دورتها . وطبيعى فى مثل تلك الحالات أن تنظر البروليتاريا الداخلية نظرة عدم اكتراث أو حتى بالرضا إلى المصير الذى يحل بأقليتها المسيطرة .

ويعتبر بمثابة حالة اختبار ، مسلك البروليتاريا الداخلية فى الدول العالمية الانديانية وقما حطمها فجأة الغزاة الأسبان . ولعل الأريجون-Orejones أخيراً كانوا أقلية مسيطرة . قيض لمجتمع متحلل أن يبرزها إلى الوجود . لكن خيرها لم يعصمهم مما أصابهم فى محتهم . فإن ماشيتهم وقطعانهم البشرية المعتنى بها اعتناء جيداً ، قد تقبلت الفتح الأسبانى بنفس الطوعية المتحفظة التى أظهرتها فى قبولها إمبراطورية الانكا .

وفى مكنتنا كذلك أن نشير إلى حالات رحبت فيها البروليتاريا الداخلية فى حماس إيجابى ، بقاهر الأتلية التى تسيطر عليها . فهناك بالترحيب الذى عبرت عنه المناجاة ، البليغة التى وردت فى سفرى التثنية وأشعيا بالفتاح الفارسى للإمبراطورية البابلية الجديدة التى سبق لها سوق اليهود إلى الأسر . وبعد ذلك بمائتى سنة ، رحب البابليون أنفسهم بالإسكندر الهلنى باعتباره مخلصهم من الطغمة الأخمينية .

٣- البروليتاريا الداخلية اليابانية :

يتيسر تمييز بضعة شواهد واضحة لانشقاق البروليتاريا الداخلية اليابانية في تاريخ مجتمع الشرق الأقصى في اليابان . وهو مجتمع اجتاز عصر اضطراباته وولج مرحلة دولته العالمية قبل أن يتعلمه المجتمع الغربي .

وإذا تطلعنا مثلاً إلى النسخ المجانسة لمواطني الدول الهلينية هؤلاء ، الذين اقتلعتهم من مواطنهم سلسلة الحروب والثورات التي بدأت عام ٤٣١ ق . م . والذين اهتدوا إلى مخرج مخرب تمثل في تحولهم إلى جنود مرتزقة ، منلاحظ تماثلاً تاماً بينهم وبين الرونين Ronin أو الجنود المتعطلين الذين لا سيد لهم ، والذين قذفت بهم القوضى الإقطاعية إبان عصر الاضطرابات الياباني .

ويتمثل الإيتا Eta « أو المنبوذين الذين ما فتشوا على قيد الحياة في المجتمع الياباني الحالي ، في البقية الباقية التي لم يستوعبها بعد المجتمع الياباني من الآينو Ainu البرابرة في الجزيرة الأساسية « هونشو » . ولقد أرغمت البروليتاريا الداخلية اليابانية برابرة الآينو على الانصهار فيها ، على غرار امتزاج برابرة أوروبا وإفريقيا الشمالية بالبروليتاريا الداخلية الهلينية بقوة السلاح .

وفي مكتتنا من جهة ثالثة ، أن نميز المعادل الياباني لتلك « الأديان العليا » التي فقتت عنها البروليتاريا الداخلية وعثرت فيها على أقوى استجابة للمظالم التي كان عليها أن تتحملها تلك الأديان هي : الجودو Jodo والجودوشينشو Jodo shinshu والهوكي Hokke والزن Zen . وتأسست جميعها في غضون القرن الذي تلا عام ١١٧٥ ميلادية .

وتشابه هذه الأديان مثيلاتها الهلينية في أن مصدر إلهام الأديان اليابانية الأربعة دُخِل على اليابان . فلإنها جميعها انحرافات عن منهاج المهايانات^(١) وتشابه ثلاثة من أربعة منها المسيحية من جهة أنها لقنت المساواة الروحية

(١) المهايانات هي بودية شمال شرق آسيا . (المترجم)

للجنسين . وكان أخبار هذه الأديان عندما يتولون بأنفسهم مخاطبة جمهور لا يزال بعد على فطرته ، يطرحون اللغة الصينية القديمة . فكانوا إذا ما كتبوا يكتبون باللغة اليابانية الدارجة مستخدمين حروف طبع خطية مبسطة نسبيا . وكان مناط ضعفهم كمؤسسي ديانات ، رغبتهم في منح الخلاص إلى أكبر جمهور ممكن . فكان أن انحدروا بمطالبهم العقائدية من الناس إلى أوطأ حد . فأشار بعضهم بترنيل صيغ طقوسية ؛ واكتفى آخرون من مريديهم بتأدية فروض خلقية قليلة أو لا شيء البتة .

بيد أنه لا يغرب عن البال أن المذهب المسيحي الأساسي في غفران الخطايا ، قد أسىء استعماله وأساء فهمه ، قادة من قواد المسيحية المزعومة في أزمنة وفي أمكنة مختلفة . وكان ذلك مما يعرضهم لإحدى التهمتين أو كليهما . بيد أنه إذا كان لوثر قد هاجم مثلا بيع صكوك الغفران كما كانت تمارسها الكنيسة الرومانية في أيامه ، معتبرا إياها عملية تجارية تحت ستار شعائر دينية تهدف أصلا لتحقيق التوبة ، إلا أن لوثر نفسه قد فتح في نفس الوقت سبيل اتهامه ، بأنه يعتبر الأخلاق مسألة لا تستحق الاكتراف . وذلك بتأويله مسألة التبرير كما علمه بولص ، وجعله التعرض للخطيئة مثوقفا على المصادفة المحضة .

٤ — البروليتاريات الداخلية في ظل الدولة العالمية الداخلية :

تتيح مجموعة واحدة من الحضارات المتخللة مشهداً هذا مداره بقاء الأحداث المادية تسير قدما على خطوط سوية بعدما تتلاشى الأقلية الوطنية المسيطرة أو تغلب على أمرها .

وتعرض لنا في هذا المقام ثلاثة مجتمعات : الهندية ، والشرق الأقصى في الصين ، والمسيحية الارثوذكسية في الشرق الأدنى . فإنها جميعا قد مرت بفترة خمول عبر مرحلة الدولة العالمية ، على الطريق من مرحلة الانهيار إلى

الانحلال . فلقد تلقى كل من هذه المجتمعات الدولية العالمية ، محنة — أو إلزام — من أيدي دجييلة ، عوضاً عن إقامتها إياها لأنفسها ، وتم ذلك على النحو التالى :

زودت الأيدي الإيرانية الكيان الأساسى من المسيحية الأرثوذكسية بدولة عالمية فى شكل الإمبراطورية العثمانية .

كما أُناحت الأيدي الإيرانية كذلك تزويد العالم الهندى بدولة عالمية فى شكل الإمبراطورية التيمورية (المغولية) . وأعادت الأيدي البريطانية بعد ذلك الحين ، تشييد الإمبراطورية المغولية الواهية على أسسها .

وقام المفسول فى الصين بالدور الذى قام به العثمانيون فى المسيحية الأرثوذكسية ، أو المغول فى الهند . فى حين قام المانشو فى الصين بالدور الذى تولاه البريطانيون فى الهند .

وبالحرى فإنه عند ما يضطر مجتمع إلى تقبل مهندس معمارى أجنبى لتجهيزه بدولته العالمية ، يعترف بقصور أقلية الوطنية المسيطرة وعقمها التامين ؛ عندئذ تنحط الأقلية المسيطرة الوطنية عن مكانتها وتهبط إلى صفوف البرولتاريا الداخلية .

وقد يجد الإمبراطور المغولى أو الخاقان المانشو فى الصين والباديشاه العثمانى فى المسيحية الشرقية والسلطان المغولى فى الهند وقيصر الهند البريطانى ، من المناسب استخدام الكتاب الصينيين أو اليونانيين البراهمة الهنود — أياً ما تكون الحال — لكن لن تخفى على هؤلاء العملاء حقيقة قوامها : أنهم فقدوا نفوسهم مثلما فقدوا اعتبارهم . وواضح أنه فى وضع كهذا حيث أصاب الأقلية المسيطرة السالفة الخرى لردّها مع بروليتاريا داخلية كانت تنظر إليها فيما مضى بازدراء ، لن يتأتى لعملية الانحلال أن تسير كما ينبغى لها فى الظروف العادية أن تسير .

وفي وسعنا أن نميز في البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهندي في جيلنا الحاضر ، رد الفعل البروليتارى المزدوج للعنف والدعة ، نميز ارتكاب مدرسة الثوار البنغاليين القتل العمد ، ومبدأ الامتناع عن العنف الذى بشر به الموجيراقى مهاتما غاندى . وهذا ما يُنبئنا به تاريخ ماض لثوران بروليتاريا أطول مدى ، يدلنا عليه وجود عدد من الحركات الدينية التى تبنت فيها كذلك نفس النزعتين المتضادتين . إذ نشاهد في عقيدة المسيح ، قيام بروليتارية حربية بالتلفيق بين الهندوكية والإسلام . في حين نجد في عقيدة براهمو ساماج Brahmo-Samaj قيام بروليتاريا بعيدة عن العنف بالتلفيق بين الهندوكية والمسيحية البروتستانتية السمحاء .

وفي وسعنا أن نشاهد في البروليتاريا الداخلية للشرق الأقصى في الصين ، في ظل نظام المانشو ، حركة « تا ، ايب ، انج » Taib, ing التى سيطرت على المرحلة الاجتماعية إبان منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، والتي هى نتاج فعل البروليتاريا الداخلية . هذه الحركة تطابق عقيدة براهمو ساماج بما استعارته من المسيحية البروتستانتية ، لكنها تماثل عقيدة السيخ في نزعتها الحربية .

وتجئ لنا فورة الحمية الدينية في سالونيك إبان العقد الخامس من القرن الرابع عشر الميلادى ، لحظة عن عنف رد فعل بروليتارى ، إبان أظلم ساعة من عصر اضطرابات المسيحية الأرثوذكسية في الجيل الأخير ، قبل أن يقصر نظام الفاتح العثمانى العنيف ، المجتمع المسيحى الأرثوذكسى على الدخول في دولة عالمية . ولم يصب رد الفعل الرقيق المطابق ، تقديماً كبيراً جداً . ولكن ؛ لو لم تقتف عملية الانجاء نحو الغرب ، أعقاب تصدع الإمبراطورية العثمانية بقوة عارمة ، فلعلنا نخدس أن الحركة البكتاشية تظهر لنفسها في عصرنا الحاضر بمركز في الشرق الأدنى أمكنها بلوغه بالفعل في ألبانيا^(١) .

(١) قضى على الحركة البكتاشية في ألبانيا بعد سيطرة النظام الشيوعى عليها . (المترجم)

٥ - البروليتاريات البابلية والسورية :

سنجد إذا مضينا إلى العالم البابلي ، أن خبرة التجربة والكشف الدينية في نفوس بروليتاريا داخلية أصابها الإجهاد المضني ، بلغت درجة من النشاط في جنوب غرب آسيا تحت حكم الإرهاب الآشوري إبان القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، مثلما بلغت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الهلينية تحت حكم الإرهاب الروماني بعد ذلك بستة قرون .

ولقد امتد في اتجاهين ؛ نطاق انحلال المجتمع البابلي جغرافيا بين تضاعيف فعل الأسلحة الآشورية . وكان ذلك على غرار اتساع نطاق انحلال المجتمع الهليني بين تضاعيف الفتوحات المقدونية والرومانية . فإلى الشرق وراء نهر زاجروس في إيران ، سبق الآشوريون - بفضل إخضاعهم حشدا من المجتمعات البدائية - الرومان في أعمالهم الفذة وراء جبال الألبين . وإلى الغرب وراء الفراتين ، سبقوا المقدونيين في أعمالهم الفذة على الشاطئ الآسيوي من الدردنيلين^(١) . وذلك بإخضاعهم حضارتين غريبتين هما السورية والمصرية اللتين أصبحتا مجانستين لحضارتين من الحضارات الأربع التي امتزجت فيما بعد بالبروليتاريا الداخلية الهلينية عقب حملات الإسكندر .

ولم يقتصر الأمر على غزو ضحايا النزعة العسكرية البابلية دون اقتلاعها من مواطنها . ويطلعننا في شأن ترحيل سكان غُزُيوا ، مثال تقليدي هو قيام ساراجون سيد الحرب الآشوري^٢ بازدراع^(٢) الإسرائيليين^(٣) وقيام نبوخذ نصر سيد الحرب لبابل الجديدة ، بازدراع اليهود في قلب العالم البابلي ، في بابل نفسها .

(١) أي مضيقا البسفور والدردنيل . (المترجم)

(٢) الازدراع هو نقل النبات من مكان لآخر . (المترجم)

(٣) القبائل العشر المفقودة^٤ . (المؤلف)

والواقع ، يعتبر تبادل السكان الإجبارى ، شيئا من ابتكار السيادة البابلية بغية حطم روح الشعوب المغلوبة . ولم يقتصر الحال وحده على ابتلاء الأجانب والبرابرة به ، إذ لم تتورع قوة العالم البابلى المسيطرة إبان حروبها الأهلية مع بعضها بعضا ، عن كيل نفس المعاملة لبعضها بعضا . ويعتبر وجود مئات قليلة من ممثلى طائفة السامريين فى الوقت الحاضر تحت ظل سجناءك جريرين ، أثرا سخالدا على قيام الأشوريين بإخراج المبعدين من مختلف مدن الإمبراطورية البابلية بما فيها بابل نفسها ، فى سوريا .

ويتبين أن الخبل الأشورى^(١) لم يفرغ نفسه ، قبل أن تبرز إلى الوجود بروليتاريا داخلية بابلية تفردت بحمل مشابهة مقاربة للبروليتاريا الداخلية الهلينية فى أصلها وتكوينها . وقد أثمرت كلتا الشجرتين نفس الفاكهة . فبينما كان على اندماج المجتمع السورى التالى فى البروليتاريا الداخلية الهلينية أن يثمر فاكهة تجلت فى انبعاث المسيحية من اليهودية ، تجلى إثمار الاندماج المبكر لنفس المجتمع السورى فى البروليتاريا الداخلية ، فى انبعاث اليهودية من الدين البدائى لأحد المجتمعات المحصورة التى تصادف أن ترابط بها المجتمع السورى .

وسرى أنه بينما تبدو اليهودية والمسيحية « معاصرتين ومتكافئتين من الناحية الفلسفية » - إن أمكن اعتبارها مجرد نتاجى مرحلتين فى تاريخى مجتمعين أجنبيين - تبدو العقيدتان من خلال إحدى زوايا الرؤيا ، مرحلتين متعاقبتين فى عملية مفردة للاستنارة الروحية . ولا تقف المسيحية فى هذه

Furor Assyriacus (١)

(٢) يعزو العالم اليهودى فرويد انتقال الدين اليهودى من مرحلته البدائية إلى مرحلته الروحية العليا إلى تأثرها بعقيدة اخناتون عن التوحيد ويستدل على صحة رأيه بإظهار مدى الاختلاف بين عقيدتهم قبل دخول اليهود مصر ، وما طرأ عليها من تعديل جسيم بفضل احتكاكهم بفلسفة اخناتون . انظر - فرويد : *Mases and Monotheism* . (المترجم)

الصورة الأخيرة مع اليهودية جنباً إلى جنب ، بل تقف فوق كنفى اليهودية ، في حين يسمو كلاهما على دين إسرائيل البدائي^(١) .

ولست استنارة أنبياء إسرائيل ويهوذا قبل وبعد القرن الثامن قبل الميلاد ، هي المرحلة المتداخلة الوحيدة التي لدينا عنها سجل أو إشارة خلال الفترة القائمة بين المسيحية وعبادة ياهوه البدائية . وتظهر الرواية المأثورة عن الكتاب المقدس - قبل الأنبياء العبرانيين وبعدهم - شخصية موسى ، وتظهر شخصية إبراهيم قبلها .

ومهما يكن من أمر وجهة نظرنا حيال الإصالة التاريخية لهاتين الشخصيتين غير الواضحتين ، إلا أنه مما يلاحظ أن الرواية المأثورة تضع إبراهيم وموسى كليهما في نفس الوضع مثلما تضع الأنبياء والمسيح . إذ اتفق ظهور موسى مع اضمحلال الإمبراطورية الجديدة في مصر ، واتفق ظهور إبراهيم مع الأيام الأخيرة للدولة العالمية السومرية عقب قيام حورابى باستعادة بنائها فترة قصيرة . وبالحرى تفسر المراحل الأربعة وفقاً لما يبدو من بين ثنايا سير إبراهيم والأنبياء العبرانيين والمسيح ، العلاقة بين أغلال الحضارات والدعوات الدينية الجديدة .

وخلف بدء الدين اليهودى إيمان مرحلته العليا ؛ سجلاً حافلاً يتسم بالوضوح إلى أبعد حد ، في أسفار أنبياء إسرائيل ويهوذا قبل الأسر البابلى^(٢) . وبطاعتنا في هذه السجلات القائمة الخافلة بالجهد الروحى الرائع ، السؤال المتقد الذى سبقت لنا مجابته في مكان آخر . إلا وهو الاختيار عند مواجهة الحقبة ، بين العنف والأسلوب الوديع . ألا أن الأسلوب المسالم قد ساد في هذه الحالة . وذلك لأن عصر الاضطرابات قد وجّه لما بلغ نقطة ذروته وتجاوزها ، سلسلة من الضربات القاضية التى لقنت المشاكسين في يهوذا^(٣) درساً عن عقم رد العنف بالعنف .

(١) الأسر البابلى : ٦٠٠ ق . م . (المترجم)

(٢) المنطقة اليهودية الحالية . (المترجم)

ولقد بلغ الأسلوب الديني الجديد في سوريا بين الجماعات التي طحنتها المدقة الآشورية في أراضيها الوطنية أثناء مرتبة النضوج في مرحلته العليا التي بدأت خلال القرن الثامن قبل الميلاد في بلاد بابل ، إبان القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، بين ظهراني سلالة شعب من هذه الشعوب المطحونة والتي اقتلعت وأبعدت ؟

وكان المنفيون اليهود في بابل خلال عصر نبوخذ نصر - مثلما كان الأرقاء المبعدون في إيطاليا الرومانية ، دليلا ينهض ضد الانقياد لأهواء غزواتهم النفسية ، انقيادا أعمى :

إن نسيك يا أورشليم تنسى يميني .

ليلتصق لساني بقمي . إن لم أذكرك .

ولم يقتصر تأثير ذكرى هؤلاء المنفيين لوطنهم في أرض غريبة على منحها السلبى . إذ كان لها أثر إيجابى يتجلى فيما أبدعوه من أعمال تنسم بتوقد الخيال . ففي ظل هذه الرؤيا اللادونيوية التي كانت تستبين من خلال غمام الدموع ، أخذ الحصن المنهار يتألق في شكل مدينة مقدسة أقيمت على صخرة يجب أن تصمد لبوابات جهنم . ولقد كان الأسرى الذين صدقوا عن إشباع مزاج آسريهم بإنشاد إحدى ترنيمات صهيون ، وعلقوا في عناد « أعوادهم على صفصاف تيار الفرات » ، يؤلفون في الوقت ذاته لحنا جديدا غير مسموع على قلوبهم ، وقلوبهم هي الآلة الموسيقية الغير المنظورة .

« على أنهار بابل جلسنا ، بكينا عندما تذكرناك يا صهيون » . وفي غمار ذلك البكاء استكملت اليهودية استنارتها .

وظاهر أن المشابهة بين التاريخين البابلى والهلينى ، قرية جدا فيما يتصل برود الفعل الدينية للمنفيين انخرطوا في صفوف بروليتاريا داخلية غربية . بيد أن الاستجابة التي أظهرت التحدى البابلى للعيان ، لم يقتصر الحال على

اتباعها من أولئك الضحايا الذين كانوا أعضاء في حضارة أجنبية ، بل إنها قد انبعثت بالمثل عن الضحايا البرابرة . فإنه وأن لم يقم برابرة أوروبا وشمال أفريقيا الذين غزتهم الجيوش الرومانية ، بأية كشوف دينية خاصة بهم ، وانحصر أمرهم في تقبل البذرة التي زرعها فيما بينهم رفاقهم البروليتاريون من ذوى الأصل الشرقى ، أنجب البرابرة الإيرانيين الذين مروا تحت المجرفة الآشورية ، نيبا وطنيا في شخص زرادشت Zarathustra مؤسس الزرادشتية .

إن تاريخ زرادشت موضع خلاف . ولا نستطيع القول عن ثقة ، فيما إذا كان كشفه الدينى يعتبر استجابة منفصلة للتحدى الآشورى ، أو أن صوته كان مجرد تردد لصيغة أنبياء إسرائيليين منسبين استنبذوا^(١) في « مدن مادی » . على أنه مهما يكن من أمر الصلات الأصلية بين هذين « الدينين الراقيين » فإن الزرادشتية واليهودية — كما هو ظاهر — قد تقابلتا عند نضوجها في صعيد واحد .

وأيا ما يكون الحال ؛ فقد أدى تدمير آشور ، إلى وضع حد لعصر الاضطرابات البابلي . وكان أن أصبح العالم البابلي دولة عالمية في صورة الإمبراطورية البابلية الجديدة . وبدا عندئذ كما لو أن اليهودية والزرادشتية تتنافس على شرف إقامة نظام دينى عالمى داخل نطاق هذا الإطار السياسى ، مثلما تنافست المسيحية وعقيدة ميثرا^(٢) Mithraism على تبوء المكانة داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية .

(١) استنبذ : أنزل شخصا على شاطئ مهجور وتركه لقدر . (المترجم)

(٢) ميثرا في الأصل هو إله الضياء الآرى القديم . ثم أطلق عليه أتباع زرادشت « آمور مازدا » الذى يصارع في اعتقاده « أهدامانا » أيد الظلام صراعا أبديا . ثم تجسد ميثرا في إله الشمس فأصبح بذلك محور عقيدة نشرها في روما أيام الإمبراطور بومبي عام ٦٨ ق . م أسرى القرصان الفالسيون . وكان الرومان يرسمون إله الشمس في شكل شاب جميل يجرد سيفاً على رقبته ثور يسترحم . وتطورت عقيدة ميثرا تطورا خلاصته استيماها قدرا كبيرا من الأساطير اليونانية . وظلت قائمة حتى القرن الرابع الميلادى وقت أن تمكنت المسيحية من القضاء عليها . (المترجم)

وهذا ما لم يكن مقدراً ؛ لسبب كاف جداً مدأره أن الدولة العالمية البابلية الجديدة ، قد أثبتت أنها سريعة الزوال إن قورنت بزميلتها الرومانية ؛ ولم يأت بعد نبوخذ نصر - وهو يعادل قيصر أغسطس في التاريخ الروماني - في فترات من القرون ، أمثال تراجان Trajan وسفيروس Severus وقسطنطين Constantine . إذ كان خليفة المباشران نابونيدوس Nabonidus وبيلشاصار Belshazzar غير جديرين بالمقارنة إلا بجولييان Julian وفالينز Valens وإلى حد ما . فكان أن سلمت الإمبراطورية البابلية الجديدة إلى مادی وفارس ، في غضون فترة تقل عن القرن ، وكانت تلك الإمبراطورية الأخمينية : إيرانية من الناحية السياسية ، سورية في مظهرها الثقافي .

وهنا انعكس من ثم دور الأقلية المسيطرة والبروليتارية الداخلية . وقد كان يتوقع في مثل هذه الظروف ، أن يصبح انتصار اليهودية والزرادشتية أوطد وأسرع . لكن آلهة الحظ قد تدخلت بعد ذلك بماتى عام ودفعت سير الأحداث في اتجاه جديد غير متوقع ، فسلمت مملكة مادی وفارس إلى أيدي فاتح مقدوني . فكان أن ترتب على مداخلة المجتمع الهليني للعالم السورى ، تمزق الدولة العالمية السورية إلى شذرات ، قبلما تنجز رسالتها بزمان طويل .

وهكذا ؛ انسأقت الديانتان الراقيتان اللتان كانتا تنتشران سلمياً (كايوحي بذلك النذر اليسير من أدلتنا) في ظل العهد الأخميني ، صوب طريق منحرف قاد إلى دمارهما . ويتمثل هذا الطريق في استعاضتهما عن وظيفتهما الدينية الأساسية بدور سياسى .

إذ استأحلت كلتاها - كل واحدة منهما في ميدانها الخاص - إلى داعيتين للحضارة السورية في صراعها ضد التدخل الهليني . مع فارق أن اليهودية في موقعها الغربى على مرمى البصر من البحر الأبيض المتوسط ، قد قضى عليها بالسعى وراء الأمل الضائع ، وحطمت نفسها - بيلادة -

بتحديها قوة روما المادية إبان الحرب الرومانية اليهودية : في السنوات ٦٦ - ٧٠ ميلادية و ١١٥ - ١١٧ و ١٣٢ - ١٣٥ .

أما الزرادشتية في موقعها الثابت شرق زاجروس خلال القرن الثالث الميلادي ، فقد شرعت تكافح في ظل ظروف اتسمت بعدم تكافؤها إن قورن كفاحها بكفاح اليهود في ظل ظروف أقل مدعاة للقنوط . فقد وجدت في المملكة الساسانية ، سلاحا لحمايتها ضد الهلينية ، أعظم في تأثيره مما كان في وسع اليهودية أن تصنعه من إمارة المكاينين الصغيرة . فاستطاعت الساسانية تدريجياً ، استنفاد قوة الإمبراطورية الرومانية في صراع دام أربعائة سنة بلغ ذروته إبان الحروب الرومانية الفارسية المهلكة (٥٧٢ - ٥٩١) و (٦٠٣ - ٦٢٨) . بيد أنه اتضح مع ذلك أن الدولة الساسانية غير قادرة على استكمال مهمة طرد الهلينية من آسيا وإفريقيا . وكان على الزرادشتية في النهاية أن تدفع ثمناً باهظاً مثلما دفعته اليهودية ، لانهما كهما في تحقيق عمل سياسي بحث . وبعيش البارسيون في الوقت الحاضر - مثلهم مثل اليهود - معيشة «التشت» (١) ليس إلا . وفقدت الديانتان المتحجرتان اللتان لا تزالان تربط كل منهما بين أعضاء جماعتهما المتفرقين ، رسالتهما إلى البشرية واستحالتا إلى بقايا متحجرة للمجتمع السورى البائد .

ولم يقتصر ضغط الطاقة الثقافية الغربية على مجرد تحويل هاتين «الديانتين» الراقيتين « صوب مسالك سياسية ، بل شطرتهما إلى شظايا . وذلك أنه بعد ما تحولت اليهودية والزرادشتية إلى أداتين للمعارضة السياسية ، اتخذت العبقورية السورية للدينية من تلك العناصر من السكان السوريين ، ملجأ لها ؛ عناصر طفقت تعمل على إبراز ود فعل ضد التحدى الهليني ، في أسلوب يتسم بالمسألة وبعيداً عن العنف . وإن الديانة السورية بإنجاحها المسيحية والميثرية (٢) باعتبارهما

(١) Diaspora .

(٢) عقيدة ميثرا Mithraism . (المترجم)

مساهمة منهما في المخاض الروحي لبروليتاريا داخلية هليقية ، قد عثرت على تعبيرين جديدين للروح والمظهر اللذين « نبذتهما » اليهودية والزرادشتية . وبعد ما قيّض للمسيحية - باستخدام قوة الوداعة - أسر غزاة العالم السورى الهليين ، انقسمت إلى جماعات ثلاث : كنيسة كاثوليكية امتزجت بالهلينية ، وكنيستين هرطيقيتين مضادتان لهما هما النسطورية المينوفيسقية ، واصلتا دورى الزرادشتية واليهودية السياسيين المكافحين ، دون أن يستكملا أى نجاح حاسم آخر لإبعاد الهلينية عن الميدان السورى .

ولم يركن المعارضون السوريون في كفاحهم للهلينية إلى اليأس والخلمول رغمًا عن تعاقب فشلهم . فقد أعقبت المحاولتان محاولة ثالثة ، توجت بالنجاح وقيض الفوز السياسى الهائى للمجتمع السورى على الهلينية . بفضل التوسل بديانة أخرى سورية الأصل^(١) هى أيضاً . فلقد استطاع الإسلام فى خاتمة المطاف أن يقضى على الامبراطورية الرومانية فى جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا ، وأن يزود الدولة العالمية السورية المستعادة - وهى الخلافة العباسية - بديانة عالمية .

٦ - البروليتارياتان السندية والصينية :

ترتب على تدخل الهلينية فى المجتمع السندى انقطاع سيره نحو الانحلال مثله فى ذلك مثل المجتمع السورى . ومن الطريف أن نشاهد - فى هذه الحالة - إلى أى مدى أبرز تحد مائل ، رد فعل مماثلا :

فى الوقت الذى حدث فيه أول اتصال بين المجتمعين السندى والهليينى - نتيجة إغارة الإسكندر على حوض السند - كان المجتمع السندى على وشك أن يصبح دولة عالمية ، وكانت أقليته المسيطرة قد استجابت منذ من طويل لمحنة الانحلال بواسطة إيجادها مدرستى « الجانيه » Jainism

(١) يقصد المؤلف باصطلاح سورية الأصل ، أنها نشأت فى بلاد تنسب إلى الحضارة السورية . (المترجم)

و «البوذية» الفلسفتين . بيد أنه لا يوجد دليل على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع السندى قد أنتجت أية «ديانة راقية» . فإن الملك البوذى الفيلسوف آشوكا Acoka الذى تولى عرش الدولة السندية العالمية من ٢٧٣ إلى ٢٣٢ ق . م . قد سعى دون أن يصادف نجاحا ، إلى تحويل جيرانه الهلنيين إلى فلسفته . ولم يحدث إلا فى تاريخ متأخر ، أن استولت البوذية عنوة على المقاطعة القصبة — على اتساعها وأهميتها — التى كانت تشغلها مملكة باكتريا اليونانية والتى كانت جزءاً من ذلك العالم الهلنى الذى تلا عصر الإسكندر . لكن البوذية ، لم تفز بهذا الغزو المضاد الروحى المنتصر ، إلا بعد أن مرت بعملية انسلاخ غير عادية ، استحالت خلالها الفلسفة القديمة لأتباع جارتا جوتاما^(١) إلى دين المهايانا الجديد .

«إن المهايانا هي فعلا دين جديد ، يتباين تباينا أصيلا عن البوذية الأولى ، حتى إنه ليتصل اتصالا متعدد النواحي بالديانات البرهمية الأخيرة مع سالفاتها ذاتها . . ولم يتحقق تماما — بصفة أصلية — ماهية الثورة ذات الطابع الأساسى التى حوّلت الديانة البوذية — وذلك وقما حققت الروح الكامنة فيها منذ أمد طويل — أقصى مداها إبان القرن الأول الميلادى . وإننا إذ تطالعنا تعاليم فلسفية عن السبيل إلى الخلاص الشخصى النهائى ، تنكر الروح وذات طابع إلحادى (لأن قوامها فناء الحياة فناء مطلقا وعبادة

(١) إنه سؤال جدل قد لا يتأقأ أبدا الرد عليه ردا قاطعا . مداره فيما إذا كانت الفلسفة البوذية — كما وضعت فى الفقرة السابقة التى وردت فى مؤلف أحد العلماء الروس — التى كانت المهايانا ثورة ضدها ، هي صورة منقولة عن التعاليم الشخصية لسيدهارتا جوتاما نفسه ، أو أنها تحريف لها . ويقدر بعض العلماء — إلى المدى الذى نستطيع إلقاء لمحات عن تعاليم البوذا الشخصية نفسها فيما وراء طلاء الفلسفة المنسقة التى تبديها لنا أسفار المهايانا — بأن فى توسعنا أن نتكهن بأن البوذا نفسه لم يشك فى حقيقة النفس وذواتها ، وأن التيريفانا التى كانت هدف أعماله الروحية ، كانت شرطا للفناء المطلق — لا للحياة فحسب — ولكن لنفاية الانفعال الذى وجد الحياة عن أن تعيش معيشة كاملة ، ما دام يتشبث بالحياة . (المؤلف)

تنجبه فحسب إلى ذكرى مؤسسها البشرى) ؛ عند ما نحل محل تلك التعاليم
ديانة عليا رائحة تعرف بوجود العزة الإلهية ويحف بها عديد من الشخصيات
الإلهية الثانوية ، وتضم تلك الديانة حشدا من القديسين : دين يتم بزرعته
العبودية وطقوسه العليا ونظامه الكهنوتي ويحتوى على فكرة مثالية عن
الخلاص الشامل لجميع المخلوقات الحية ، خلاص يتم بفضل النعمة الربانية
للبوذا وصوره المتفرعة عنه ، خلاص يتم بواسطة الحياة الأبدية لا عن
طريق الملاك - إن علمنا ذلك ، فإن ثمة ما يؤيد استمساكنا بالقول بأن
تاريخ العقائد لم يشهد إلا فيما ندر مثل هذه الثلمة بين الجديده والقديم داخل
سياج ما استمر مع ذلك يدعى انحدره عن نفس المؤسس الدينى ^(١) .

وحقا فإن هذه البوذية المتحوّلة التى وفدت لتزدهر فى الشمال الشرقى
من عالم هيلينى منسج ، هى دين سدى « أرقى » إن قورنت بالعقائد
الأخرى التى طفقت فى نفس الوقت تغزو المجتمع الهيلينى .

فما هو أصل هذه العقيدة الشخصية ^(٢) التى كانت السمة المميزة للماهايانا
وسر نجاحها على السواء ؟

كانت هذه الخميرة الجديدة التى غيّرت من روح البوذية بهذا العمق ،
أجنبية عن المزاج الوطنى للفلسفة السندية مثلاً هى أجنبية عن الفلسفة الهلينية .
فهل كانت ثمرة تجربة البروليتاريا الداخلية السندية ، أو كانت قبسا
اقتطع من اللهب السورى الذى أشعل قبل ذلك الزرادشتية واليهودية ؟

يتيسر إيراد الدليل على صحة كل من الرأيين . إلا أننا لسنا فى الواقع ، فى
مركز يتيح التفضيل بينهما . وحسبنا أن نذكر أن التاريخ الدينى للمجتمع
السندى ، يبدأ منذ ظهور هذا الدين البوذى « الأرقى » على المسرح ، يتخذ
نفس المجرى الذى اتخذته المجتمع السورى الذى سبقت الإشارة إليه .

(١) صفحة ٢٦ Stcherbatsky : The Creation of the Buddhist Nirvana

(٢) البوذية عقيدة شخصية لاستنادها المطلق على شخصية البوذا . (الترجم)

وواضح أن المهايانا - باعتبارها « دينا أرقى » انطلق من حشا المجتمع الذى قام فيه بغية التبشير بعالم هيلينى - هى نسخة مطابقة للمسيحية والميثرية : Mithraism وبهذا المفتاح ؛ نستطيع التحقق فى سهولة ، من هذه المطابقة السندية لهذه الأشعة الأخرى التى انعطفت صوبها ضياء المجتمع السورى بفضل تدخل المنشور الهلينى .

فإذا ما بحثنا فى المجتمع السورى (فى مرحلته السابقة للهلينية) عن المعادل السندى لهذه « المتحجرات » التى بقيت عند اليهود والبارسين ؛ سنعثر على ما نبحت عنه فى بوذية هينايانا الحالية ، فى سيلان وبورما وسيام وكبوديا . وهذا الضرب من البوذية هو أثر من الفلسفة التى سبقت بوذية ماهايانا . وكان على المجتمع السورى أن ينتظر انبعاث الإسلام لتوافر له عقيدة دينية يستخدمها أداة فيعالة لافتناع جنود الهلينية ، فإن المثل يقال بالنسبة للمجتمع السندى . فلقد استكمل هذا المجتمع عملية تخليص الجسم الاجتماعى السندى من تدخل الروح الهلينية فيه ، بفضل حركة سندية محضة مناهضة للهلينية ، تمثلت فى العقيدة الهندوسية التى تلت البوذية ، ولم يتم ذلك بواسطة عقيدة المهايانا .

ويتطابق تاريخ المهايانا ؛ مع المسيحية الكاثوليكية إلى المدى الذى تناولناه حتى الآن . وذلك من انجاء مجال نشاطهما صوب العالم الهلينى ، عوضاً عن هداية المجتمع غير الهلينى الذى انبعث عنه كل منهما .

يبد أن ثمة فصلاً آخر من تاريخ المهايانا لا نهيى الكنيسة المسيحية له نظيراً . فإن المسيحية - وقد اتخذت مقراً لها فى مجال المجتمع الهلينى المحضّر - قد ظلت هناك وعاشت فى النهاية لتزود بالكائنات حضارتين جديدتين : الغربية والمسيحية الأرثوذكسية ؛ أما المهايانا - من الجهة الأخرى - فقد انصرفت صوب العالم الصينى الفانى عبر المملكة الباكترية

الهليزية الزائلة الواقعة بين هضاب آسيا الوسطى ه وأصبحت المهايانا - بسبب الانتقال المزوج من أرض ميلادها ؛ النظام الدينى العالمى للبروليتاريا الصينية الداخلية .

٧ - تراث البروليتاريا الداخلية السومرية :

استولد المجتمع السومرى ، مجتمعين : البابلى والحيثى . ولا نستطيع هنا كشف أبة عقيدة عامية فى حشا البروليتاريا الداخلية السومرية ، أوفى داخلية ورثتها ؛ أى الحضارتان المستولدتان :

ويظهر أن المجتمع البابلى قد اعتنق ديانة الطبقة المسيطرة السومرية ، وأن النظام الدينى الحيثى ، قد اشتق جزئياً من نفس المصدر . بيد أن معلوماتنا عن التاريخ الدينى للعالم السومرى ، قليلة للغاية . ولا نملك سوى القول بأنه إذا كانت عبادة تموز Tammuz^(١) وعشتار Ishtar هى بالفعل أثر من آثار البروليتاريا الداخلية السومرية ؛ إلا أن هذه المحاولة ذات الفعل الإبداعى ، قد لازمها العقم داخل المجتمع السومرى ذاته ، بينما أثمرت ثمرتها فى أماكن أخرى .

ولقد كان أمام هذين الربين السومريين - الذكر منهما والأنثى - عملاً شاقاً وأسفاراً متعددة حتى ينجزا فعلهما الإبداعى . ومن المظاهر الطريفة لتاريخهما المعقّب ، التحوّل الذى طرأ على أهميتهما النسبية . ففي الصيغة الحيثية لعبادة هذا الزوج من الأرباب ، تضاءلت الصورة المذكورة للربوبية أمام الشكل الأثنوى الذى استطاع حجب الإله المذكور كذلك . ويؤدى الإله المذكور أمام الربة دورين متباينين ومتناقضين حقاً : دور الابن ودور المحب ، أى المحمى والضحية .

(١) تموز : يمثل اضمحلال الحياة الطبيعية ونماها . وتذكر الأسطورة المتصلة به ، إنه يهبط فى جزء من السنة على العالم السفلى (عالم العقاب) ، ولكن تنقذه من هناك أخته عشتارت . ويسمى اليوم باسم تموز أحد شهور السنة العربية (يوليه) نقلاً عن البابلية . (المترجم)

وعلى ذلك يطالعنا تضاول أهمية الإلهين الذكرين آتيس^(١) وتموز إلى الثماعة إلى جانب الإلهتين سينيل^(٢) وعشتار ، كذلك تظهر الربة نيرثوس^(٣) Nerthus (وتعادل عشتار) في حرمها المقدس بمجزيرتها القصية الشمالية الغربية ، بطوبها تبار المحيط ، واقفة بحفها الجلال وحيدة من غير أى قرين ذكر .

يبد أن أهمية تموز^(٤) تزايد ، بينما تتضاءل عشتار ، إبان مسير رحلة الزوج الإلهي من الجنوب صوب الغرب إلى سوريا ومصر . وعلى ذلك استند حق آتارجاتيس Atargatis كما يدل عليها اسمها المشتق من عشتار والتي انتشرت عبادتها من بابيس Bambyce إلى عسقلان ؛ في توقيير دورها بحسبانها قرينة آتيس . وكان آدونيس (ويعادل تموز) في فينيقيا ، السيد الذى كانت عشتاروت (وتعادل عشتار) تبكى موته السنوى . ونجد أوزيريس (ويقوم في الدنيا المصرية مقام تموز) يحجب لإيزيس أخته وزوجته . لكن إيزيس بدورها قد حجبت أوزيريس بكل تأكيد ، وقما ظفرت لنفسها ملك عريض في قلوب البروليتاريا الداخلية الهلينية .

ويبدو أن هذه الصيغة من العقيدة السومرية ، حيث يركز ولاء العابد على شخصية الإله المبت ولا يتجه إلى الربة النائمة ، قد انتشرت بين ظهرائي

(١) آتيس Atyz أو Atiis أحد الأرباب اليونانيين وقد انتشرت عبادته في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا الوسطى . (المترجم)

(٢) سينيل Cybele هى في الأساطير اليونانية زوجة كرونوس ووالدة زيوس وبوسيدون وهيدس فكانت تعبد على أنها أم الآلهة . وكان ينظر إليها في آسيا الصغرى على أنها إلهة الطبيعة أو أم الكون . وكانت عبادتها تقترن بطقوس وحشية . (المترجم)

(٣) نيرثوس Nerthus أو هيرثا Hertha : كانت في الأساطير التيوتونية ربة الحصب وأم الكون . (المترجم)

(٤) يستخدم الأستاذ توينبى اصطلاح « تموز » هنا إشارة إلى الشكل المذكور من الربوبية على اختلاف أسمائه باختلاف البلاد . والمثل يقال عن استخدامه اصطلاح « عشتار » بالنسبة لشكل الانثوى من الربوبية . (المترجم)

برابرة اسكندنافيا البعدين حيث كان بولدر Bolder (ويعادل تموز) يلقب بالسيد ، بينما ظلت قرينته نانا Nana العديمة الشخصية ، تحتفظ بالاسم الضخم للأم الإلهة السومرية .

٣ — البروليتاريا الداخلية للعالم الغربي

استكمالا لاستعراضنا طوائف البروليتاريا الداخلية ، علينا أن نفحص الحالة التي تقع في أقرب مكان منا ، ونعني عالمنا الغربي .

فهل تظهر في تاريخ الغرب الخصائص المميزة لها ؟

قد نجد أنفسنا إذ نشد الدليل على وجود البروليتاريا الداخلية الغربية ، في خضم من المعلومات يقود لضخامته إلى الارتباك :

إذ لاحظنا من قبل ، أن المجتمع الغربي قد استطاع أن يجتذب إليه إلى حد هائل ؛ أحد المصادر التي منها تستقى البروليتاريا الداخلية المدد بانتظام . فإن الطاقة البشرية لما لا يقل عن عشر حضارات متحللة ، قد ألحقت طوال الأربعمئة سنة الأخيرة بالكيان الاجتماعي الغربي . وإلى المشاركة في البروليتاريا الداخلية — التي هبط إلى مستواها أفراد الشعوب الأخرى — تعزى عملية توحيد المقاييس . وهي عملية قادت فعلا إلى طمس الخصائص المميزة التي تميزت بها فيما مضى عن بعضها بعضاً ، تلك الجماهير الغير المتجانسة . بل إنها قد أزالَت خصائصها في بعض الحالات .

ولم يكتف المجتمع الغربي باقتراس أناس من نفس نوعه « الحضارى » . فلقد ساق إلى حظيره كذلك ، كافة المجتمعات البدائية تقريبا . وبينما أخذت طائفة من تلك المجتمعات مثل التسمانيين ومعظم القبائل الهندية الأمريكية تنفى تحت تأثير الصدمة ؛ أخذ غيرها — مثل زنوج إفريقيا المدارية — يكيّف نفسه ليقى حيا للبقاء ، يجعله نهر التيجر يتدفق صوب خليج الهندسون ، ونهر

الكونغو صوب نهر المسيسيبي . وذلك على غرار ما أدت إليه أوجه النشاط الغربي نفسه ، الذي دفع مياه نهر اليانجتسى إلى بوغاز ملكا^(١) . إذ شحن الأرقاء الزوج من جانب لآخر إلى أمريكا وشحن الأجراء التاميليون^(٢) أو الصينيون إلى السواحل الاستوائية ، أو السواحل المناوحة للمحيط الهادى . وهؤلاء يعتبرون نسخا مطابقة للأرقاء الذين طفقوا يشحنون إبان القرنين السابقين للمسيح ، من جميع سواحل الأبيض المتوسط إلى مراعى إيطاليا الرومانية ومزارعها .

وثمة فريق آخر من الدخلاء المسخرين ، يدخل فى نطاق البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربى . ولم يُنتزع أفرادها - من الناحية المادية - من ديار أجدادهم ، لكنهم من الوجهة الروحية قد اقتلعوا ووجَّهوا وجهات أخرى . وتحتاج كل جماعة تنشئ حل مشكلة تكيف حياتها وفقا لإيقاع تصدره حضارة أجنبية ، إلى طبقة اجتماعية خاصة لتقوم بوظيفة تطابق وظيفة « المحوّل الكهربائى » الذى يغيّر التيار الكهربائى من طاقة كهربائية إلى أخرى . هذه الطبقة التى تنبث انبعاثا (غالبا ما يكون بغتة واصطناعا) استجابة للطلب عليها ، قد أصبحت تعرف بصفة شاملة من الاسم الروسى الخاص بها وهو « الطبقة المستنيرة » *Intelligentsia* .

والطبقة المستنيرة هى طبقة ضباط الاتصال الذين تعلموا فن حرفة التطفل الحضارى بالقدر الكافى لمعاونة جماعة من الجماعات على الاحتفاظ بمركزها فى وسط اجتماعى لم تعد فيه الحياة تتوقف على البقاء فى نطاق التقاليد الماثورة . بل أصبحت الحياة تسير وفقا لأسلوب تفرضه الحضارة المقتحمة ، على الدخلاء الذين يقعون تحت سلطانها .

(١) هذا التشبيه مقتبس من تشبيه سبق أن أورده الأديب اليونانى جوفيتال . إذ وصف تدفق الشرقيين السوريين أنباء الملمنين على روما فى عصره (فى أوائل القرن الثانى بعد المسيح) بانسياب مياه نهر الدانوب إلى نهر التير . (المؤلف)

(٢) جنس يسكن جنوب الهند وجزيرة سيلان ويعرف بجنس التاميل . (المترجم)

وتمثل أول المنخرطين في صفوف الطبقة المستنيرة ، في ضباط الجيش والبحرية الذين ثقفهم الفن العسكري للمجتمع المسيطر ، بالقدر الذي قد يكون ضرورياً لإنقاذ وطنهم . ومن ثم أنقلوا روسيا إبان عصر بطرس الأكبر من هزيمتها على يد السويد الغربية ، وأنقلوا تركيا واليابان إبان عصر نال من هزيمتها على أيدي روسيا التي كانت قد بلغت مرتبة من الاتجاه الغربي تكني لتمكينها من شن هجوم لحسابها . ويأتي بعد ذلك رجل السلك السياسي الذي تعلم كيفية إدارة المباحثات مع الحكومات الغربية ، تلك المباحثات التي يفرضها على جماعته ، فشلها في فرض شروطها هي بالحرب . ولقد رأينا أن العثمانيين كانوا يستخدمون رعيته^(١) لهذا العمل الدبلوماسي ، إلى أن حدثت دورة أخرى للولب ، أجبرت العثمانيين على أن يستأثروا لأنفسهم بتلك الحرفة البغيضة لأنفسهم . ويأتي في صفوف الطبقة المستنيرة بعد ذلك ، التجار ، تجار هونج كونج وتجار كاتون ، وتجار الشام ، والتجار اليونانيون والأرمن في أملاك البادشاه العثماني .

وأخيراً فإن الطبقة المستنيرة - باعتبارها خبيرة أو جرثومة الزرعة الغربية - التي تعمل بعمق في الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي هو بسبيله إلى الاختراق أو الاستيعاب - تبدو أكثر تماذجها المميزة : المدرس الذي تعلم حرفة تلقين الموضوعات الغربية ، الموظف الذي استجمع أسلوب قيادة الإدارة العامة وفقاً للأوضاع الغربية ، والقانوني الذي اكتسب القدرة على تطبيق صورة من قانون نابليون وفقاً للإجراءات القضائية الفرنسية .

وأينما وجدنا طبقة مستنيرة ، فقد لا نستدل فحسب على اتصال حضارتين ، ولكن على أن إحداها توشك على الاندماج في البروليتاريا الداخلية للحضارة الأخرى . وفي وسعنا أن نلاحظ كذلك حقيقة أخرى

(١) يقصد الأستاذ توينبي باصطلاح « الرعية » هنا ، رعاية السلطان من ذوى الأصول

الغیر الإسلامية . (المترجم)

في حياة طبقة مستنيرة ، حقيقة كتبت ملاحظاتها بوضوح ليقرأها الجميع :
طبقة مستنيرة خلقت لتكون تعيسة .

وتكابد طبقة الاتصال هذه من التعاسة الكاملة في فكرة الخلاص التي تنبذها
كلتا العائلتين اللتين اشتركتا في عملية إنجاب هذه الطبقة . فإن الطبقة المستنيرة تكابد
كراهية شعبها نفسه لما بعينه مجرد وجودها من توجيه اللوم إليه . إذ يعتبر
وجود الطبقة المستنيرة بين ظهرانيه تنبيه حي له بالحضارة الدخيلة المكروهة ،
والتي لا مفر في نفس الوقت من وجودها والتي لا يمكن صدها ؛ ومن ثم
لامناص من مسيرته إياها . فكان الفريسي مصداقاً لذلك ؛ يذكر هذا في
كل وقت يقابل « العشار » Publicania^(١) ، كما يذكره الفرد من الطبقة
المتعصبة اليهودية عندما يقابل الهيرودي المتعاش .

وبينما لا يتوافر للطبقة المستنيرة في بلدها حب مفقود ، لا يخلع عليها
مرتبة الشرف البلد الذي جهدت صادقة لإتقان أساليبه وحيله^(٢) ، ففي الأيام
الأولى للارتباط التاريخي بين الهند وإنجلترا ، كانت الطبقة المستنيرة الهندية
— التي احتضنها الحكم البريطاني لإنجاز غاياته الإدارية — موضوعاً مألوفاً
للزراية الإنجليزية . وكلما كان البابو Babu^(٣) يتقن الإنجليزية كلما ازداد
« صاحب »^(٤) ضحكاً متهاكاً على العجز المستور الذي يتطرق حتماً إلى
حديث الهندي ، وكان هذا الضحك مبعث ألم ، حتى وإن صلب عن
حسن نية .

(١) المشار أو كما كان يدعى في روما القديمة : Publiani من رجال الأعمال . وكان
يرسو عليه مزاد تحصيل الضرائب العامة أو مناقصة تنفيذ المشروعات العامة . ولقد استطاعت
طبقة العشارية بمرور الأيام أن تتحوز لنفسها حل قوة سياسية ضخمة . وغدت الطبقة الرأسمالية
في الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٢) قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن الطبقة المستنيرة وفقاً لاستعمال المستر توينبى للاصطلاح
هي المادل للحيوان الاجتماعي الذي لقب خلال حرب ١٩٣٩ / ٤٥ بـ « كويسلنج » .
(المختصر)

(٣) الباب Babu لقب يستخدم في الهند علماً على المثقف الهندي الأصل . (المترجم)

(٤) صاحب Sahib لقب يستخدم في الهند للتشريف — وكان يطلق على أفراد الإنجليز .

ومن ثم تخضع الطبقة المستنيرة - وفقاً لتعريفنا للبروليتاريا - لمقياس مزدوج مداره شعورها بأنها عضو لا غنى عنه لهذين الكيانين الاجتماعيين . لكنها تحرم حتى من هذا العزاء ، كلما تقدم الزمن بها . وذلك لأن التوفيق بين العرض والطلب ، مسألة فوق مستوى إدراك الإنسان ، سيما عندما تكون طاقته نفسها هي السلعة . وهذا مما يجعل الطبقة المستنيرة تعاني في بعض الأوقات فيضا من إنتاج أفرادها وما يستتبعه ذلك من تعطل .

فإن مثل بطرس يرغب في الحصول على الكثير من الموظفين الروس ^(١) ، أو شركة الهند الشرقية عدداً كثيراً من الكتبة ، أو محمد علي يتوق إلى كثير من المصريين عمالاً للمصانع أو بنائين للسفن . هنا يشرع صانعو الخرف هؤلاء في العمل على إنتاجهم ، من الطين البشرى . إلا أن إيقاف عملية اصطناع طبقة مستنيرة ، أصعب من الشروع فيها . إذ يقابل الازدراء الذي تواجهه طبقة الاتصال من أولئك الذين ينتفعون من خدماتها ، اعتبارها في أعين أولئك الصالحين للانحراط في صفوفها . ويتزايد المرشحون زيادة تجاوز معدل فرص تشغيلهم جميعهم ، وعندئذ يغمر النواة الأصلية للطبقة المستنيرة العاملة بـ بروليتاريا مثقفة تنسم باسرخائها وحرمانها ، كما أنها منبوذة . فإن حفنة الموظفين الروس ، قد عزز صفوفهم فيلق من أصحاب مبدأ العلمية ^(٢) Nihilism كما عزز حفنة « البابو » Babu فيلق من المتعلمين

(١) Chinovniki .

(٢) يرجع العهد بالعلمية Nihilism كفلسفة إلى القرن الثاني عشر وقوامها إنكار كل شيء حتى الوجود نفسه بيد أنها تطورت في العصر الحديث إلى طائفة من الأفكار السياسية والاجتماعية التي يؤلف بينها السخط وكرامية الأوضاع القائمة . ولقد ذاعت بين أفراد طائفة من الطبقة المتعلمة الروسية قبل العهد السوفيتي . ولا تعرف تلك الآراء بأية سلطة ، وتشك في كل مبدأ عام ، وتؤكد حرية الفرد المطلقة . وترنو الفلسفة العلمية في الواقع إلى إقامة المجتمع على نظام يتسم بالفوضوية . بيد أن اتباعها لم يبلغوا علواً إلى أعمال العنف ولا يحجبونها ، خلا اشتراكهم في قتل القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٨١ . (المترجم)

القاشلين . وإن المראה التي تشعربها الطبقة المستنيرة أشد في الحالة الأخيرة منها في الحالة الأولى ، إلى درجة لا تمكن مقارنتها .

وحقاً فقد نوبك أن نصيغ « قانوناً » اجتماعياً مبناه ترايد التماسه الفطرية لطبقة مستنيرة وفقاً لمتواليه هندسية ، مع تقدم الزمن وفقاً لمتواليه حسابية . فإن الطبقة المستنيرة التي يرجع العهد بها إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، قد أزاحت عن كاهلها حقد المراكم في ثورة عام ١٩١٧ البولشفية المدمرة . وتظهر اليوم الطبقة المستنيرة البنغالية التي يرجع عهدها إلى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، مزاجاً ثورياً عتيقاً ، لم يشاهد بعد في الأجزاء الأخرى من الهند ، حيث لم تبرز الطبقة المستنيرة المحلية إلى الوجود ، إلا منذ خمسين أو مائة سنة بعد ذلك .

كذلك ، لا تقتصر استطالة موقع هذا النبات الطفيل الاجتماعي على الأرض التي يعتبر فيها نباتاً غلياً . فإنه قد اتخذ سبيله مؤخراً في قلب العالم الغربي ، كما في أطرافه شبه الغربية . فلقد أصبحت الطبقة المثقفة الدنيا التي تلقت تعليماً ثانوياً أو حتى جامعياً دون أن يهيأ لها منفذ لممارسة كفاياتها الخاصة ، أصبحت إبان القرن العشرين عصب الحزب الفاشي في إيطاليا والحزب الوطني الاشتراكي في ألمانيا . وذلك لأن القوة الدافعة الشيطانية التي حملت موسوليني وهتلر لتسنم زمام الحكم ، قد انبثقت عن السخط الذي ألم بهذه البروليتاريا المثقفة لما وجدت جهودها الشاقة للارتفاع بمستواها ، لا تشفع لإيقاظ من السحق بين حجري الرحي الأعلى والأدنى : رأس المال المنظم ، والعمل المنظم .

وحقيقة الأمر ؛ لسنا ملزمين بالانتظار حتى القرن الحالى ، لنشاهد البروليتاريا الداخلية الغربية تؤلف من بين الأنسجة الوطنية للجسم الاجتماعي الغربي . إذ لم يقتصر الاقتلاع من الجنود في العالم الغربي - كما في العالم الهليني - على السكان المغلوبين على أمرهم . فإن حروب القرنين السادس

عشر والسابع عشر الدينية ، قد جلبت معها الاقتصاص من السكان الكاثوليك أو الطرد في كل بلد سيطرت عليه أيدي الفرع البروتستانتي . وحل الاقتصاص بالمثل بالسكان البروتستانت أو طردوا من كل بلد سيطر عليه الكاثوليك . ومصدراً لذلك ؛ تتوزع سلالات الهيجونوت الفرنسيين^(١) من بروسيا إلى جنوب إفريقيا ، وتتوزع سلالات الإيرلنديين من النمسا حتى شيلي .

كذلك فإن هذا الطاعون لم يصد السلام الذي جاء نتيجة لإعياء الناس واستهانتهم^(٢) ، فكان أن أنهى عصر الحروب الدينية . ذلك لأن الاضطراب السياسي العموي ، قد أخذ منذ الثورة الفرنسية وما بعدها ، يستلهم طاقته من الكراهية القائمة بين علماء اللاهوت^(٣) . وكان أن اقتلعت خشود جديدة من المنفيين ، من ذلك : المهاجرون الفرنسيون الأرستقراطيون عام ١٧٨٩ ، والمهاجرون الأوربيون الأحرار في عام ١٨٤٨ ؛ والمهاجرون الألمان في عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٧ ، والمهاجرون الكاثوليك النمسيون والمهاجرون اليهود في عام ١٩٣٨ ، والملايين من ضحايا حرب ١٩٣٩ / ١٩٤٥ وما بعدها .

ولقد علمنا كذلك ؛ كيف اقتلعت ثورة اقتصادية في إدارة الزراعة في صقلية وإيطاليا إبان عصر الاضطرابات الهلنسية ، السكان الأحرار من الريف وتركوا في المدن فريسة للكسل . ومناطق هذه الثورة ؛ الاستعاضة عن الزراعة المختلفة على نطاق ضيق لسد الرمي ، بالإنتاج الغزير للسلع الزراعية المتخصصة ، وذلك باستخدام الرقيق في الزراعة . وتكاد هذه الكارثة الاجتماعية أن تتكرر تماماً في التاريخ الغربي الحديث ، في الثورة الاقتصادية الريفية التي استعاضت في الحزام القطبي للاتحاد الأمريكي ،

(١) الهيجونوت هم سكان فرنسا من البروتستانت . (المترجم)

(٢) في الأصل اعتناق المذهب الكلي . وهو مذهب الفيلسوف ديوجينيس . ويحضر على الاستخفاف والاستهانة بجميع القيم . (المترجم)

(٣) Cldima hactenus Theologicum (٣)

بمزارع القطن التي يفلحها الأرقاء. الترنوج ، عن الزراعة المشتركة التي يفلحها
أحرار البيض . فلقد كانت هذه : النفايات البيضاء ، التي أسقطت إلى
صفوف البروليتاريا ، من نوع : النفايات الحرة لروما الإيطالية .

وما هذه الثورة الاقتصادية الريفية في أمريكا الشمالية - مع ما يصاحبها
من استغلال قوامها السرطاني : أى الرق الزنجى والفقر الأبيض - إلا استثناء
سريع وتطبيق عنيف لثورة اقتصادية مماثلة توزعت على ثلاثة قرون من
التاريخ الإنجليزي . ذلك لأن الإنجليز لم يدخلوا عمل الرقيق ، لكنهم حاكوا
الرومان وتطلعوا إلى المزارعين ورعاة الماشية الأمريكيين ، باقتلاعهم
المزارعين الأحرار من مواطنهم ابتغاء الربح الاقتصادى للقلة الحاكمة ؛ عن
طريق تحويلهم الأراضي المزروعة إلى مراعى ، والأراضي المشتركة
إلى حظائر .

وليس هذه الثورة الاقتصادية الريفية الغربية الحديثة - مع ذلك -
هى السبب الرئيسى لتدفق السكان من الريف إلى مدن العالم الغربى .
فلا تمثل القوة الدافعة الرئيسية فى ثورة زراعية تقيم الضيعات
الكبيرة (١) ، مكان قطع الفلاحين الزراعية الصغيرة . بل إنما تتمثل فى
اجتذاب ثورة صناعية انبعثت فى المدن ، أحلت الآلات التى تدار بالبخار
محل الصناعة اليدوية :

وعندما اندلعت الثورة الصناعية لأول مرة على أرض بريطانيا منذ
حوالى المائة والخمسين سنة ، بدت أرباحها من الجسامة بحيث رحب بالتغيير
المتحمسون للتقدم . وبينما كان المقرظون للثورة الصناعية ينعون عليها طول
ساعات العمل التى كان يرزح تحتها الجيل الأول من العمال - ومنهم النساء
والأطفال - والظروف الخسيسة لحياتهم الجديدة سواء فى المصنع أم فى
البيت ، كانوا واثقين بأن هذه رزايا وقتية فى الإمكان تلافيها ، بل إنها

ستتلافى : أما النتيجة الساحرة ؛ فكانت أساساً تحقق هذه النبوءة المتفائلة إلى حد كبير للغاية . غير أن نعم هذا الفردوس الأرضى - التى تأكد التنبؤ بها - قد عادلتها لعنة خفيت منذ قرن مضى عن أعين المتفائلين والمتشائمين على السواء^(١) ، فإن تشغيل الأطفال قد ألقى من ناحية ، وغدا تشغيل المرأة يتلاءم مع طاقتها الجسدية ، وقللت ساعات العمل ، وتحسنت أحوال الحياة والعمل فى المنزل والمصنع بشكل لم يكن فى الحسبان . لكن العالم الذى باتت تفعمه الثروة التى تنائر من الآلة الصناعية الساحرة ، قد واجهه فى نفس الوقت شبح البطالة . فإن بروليتارى المدينة يتذكر دائماً أنه « فى مجتمع لكنه ليس منه » ، فى كل وقت يحصل فيه على الإعانة المخصصة للعاطلين .

ولقد قيل ما فيه الكفاية لتبيان طائفة من المصادر المتعددة التى تألفت منها البروليتاريا الداخلية فى المجتمع الأوروبى الحديث . وعليها الآن أن نتساءل فيما إذا كنا نجد هنا - كما فى مكان آخر - نزعتى : العنف والرقعة ، تعودان للظهور من بين ثنايا رد فعل البروليتاريا الداخلية الغربية على محتتها . وإذا تبدى كلا المزاجين ، فأى الاثنين يعلو كعبه ؟

تبدو للوهلة الأولى إمارات الزعة الحربية فى العالم الغربى ظاهرة : ولا يقتضى الأمر إيراد قائمة بثورات المائة والخمسين سنة الماضية ذات الكفاح الدموى . لكننا إذا ما تحولنا لتسطلع إلى دليل عن وجود روح إنشائية واقعية وتهاوض ذلك المزاج الحربى ، نجد لسوء الحظ آثار تلك الروح أبعد من أن تُنال . حقيقة أن كثيراً ممن كابدوا الأخطاء التى دوت إبان الفقرات الأولى من هذا الفصل : المنفيون من ضحايا الاضطهاد الدينى أو السياسى ، الأرقاء الإفريقيون المرحلون ، المحبومون السياسيون المبعدون ،

(١) نمة عرض تقليدى للزعتين المتفائلة والمتشائمة فى رسالة ماكول

الفلاحون المقتلون من أرضهم - قد طابت لهم الحياة خلال الجيل الثاني أو الثالث أو حتى خلال الجيل الأول ، في ظل الظروف الجديدة التي فرضت عليهم .

ولعل هذا يفسر طاقات التفاهة التي تضمها الحضارة الغربية بين طبائرها . لكن هذا التفسير لن يجدى في بحثنا . فما هذه إلا حلول للمشكلة البروليتارية تتفادى الحاجة إلى الاختيار بين : الاستجابة التي تنسم بالعنف وتلك التي تنسم بالوداعة . ويتم ذلك عن طريق الاستجابة الرقيقة ذات المنحى السامى : للأصدقاء الإنجليز^(١) ، واللاجئون الألمان ، منكرو التعميد المورافيون ، المولنديون المنونيون^(٢) Mennonites . بيد أن هذه العينات النادرة ستزلق هي كذلك من بين أصابعنا ، لزوال صفها البروليتارية عنها .

ومن ثم ؛ نجد في جمعية الأصدقاء الإنجليزية^(٣) إيان جيل حياتها الأول ، نزعة إلى العنف ، وجدت مخرجاً لها في التنبؤات المسافة ، وفيما تنسم به آداب طقوس كنيسها من نزعات صاخبة ، وأنزلت بأعضائها اضطهاداً قاسياً سواء في إنجلترا أو في ماساشوستس Massachusetts . لكن سرعان ما حل دوماً محل هذا العنف ، روح من الوداعة أصبحت القاعدة التي تنسم بها حياة الكويكرز . وبدا إيان وقت ما ، كما لو أن جمعية الأصدقاء قد توّدت في العالم الغربي ، الدور التقليدى للكنيسة المسيحية في

(١) الأصدقاء Zakers هم أعضاء جمعية الأصدقاء التي أسسها جورج فوكس (١٦٢٤ - ١٩١) . ولقد طاف طوال أربعة أعوام إنجلترا وبيده الإنجيل ، ونادى بمناهضة جميع المراسم الكنسية مثل التعميد وأجراس الكنائس والتنوير . ولقد سجت السلطات الحكومية عدة مرات لكفره بالتعاليم المسيحية السائدة في عصره . ولقد آمنت به طائفة من الناس . وجماع تعاليم الكويكرز ، الإيمان بالإنجيل بألفاظه دون تحوير وكرامية الحروب والعنف ومساعدة الفقراء . ولا يؤمنون بالتعميد . (المترجم)

(٢) البروتستانت الإنجلييون كما سماوا في عهد القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

(المترجم)

(٣) أى الكويكرز . (المترجم)

عصر بدائيتها . وهذه المسيحية البدائية قد عملت على تشكيل حياة أعضاء الجمعية على غرار أعمال رسل السيد المسيح .

وإنه وإن لم ينحرف أعضاء الجمعية من قاعدة الوداعة ، لكنهم ارتحلوا بعيداً عن طريق البروليتاريا ، وأصبحوا - في ناحية - ضحايا فضائلهم ذاتها . بل إنه يمكن القول بأنهم قد حققوا الهناء المادية رغماً عن أنفسهم . ذلك لأنه لا يمكن إرجاع الكثير من نجاحهم في الأعمال المالية إلى قراراتهم الرهيبة التي يتخذونها - إلا من أجل تحقيق الربح - ولكن بإيعاز من الضمير . ولهذا تمثلت الخطوة الأولى في حجّتهم الساذج صوب هيكل الهناء المادية - بشكل غير مقصود البتة - في هجرتهم من الريف إلى المدن . وهي هجرة لم يكن مبعثها غواية أرباح الحضرم ، ولكن لما استبان لهم من أنه أوضح طريق يوفق بين اعتراض يقسم بالوعى - على تأدية العشور إلى الكنيسة الأسقفية ، وبين اعتراض يمثله في الوعى - على استخدام القوة في مناهضة جاني العشور ، ومن ثمة فإن باعة الجمعة من الكوبيكرز ، حينما يقتصرون على بيع الكاكاو ، فلاّتهم يستهجنون المسكرات الكحولية وعندما يعين تجار التجزئة فيهم أثماناً محدّدة لبضائعهم ، فلاّتهم يرتابون في تنويع أسعارهم « في غمار مساومات السوء » . وإنهم بهذا كله يخاطرون بروتهم عن عمد في سبيل عقيدتهم : إلا أنهم بذلك قد أوضحوا صدق المثل القائل : « إن الأمانة هي خير سياسة » ، والمجانسة القائلة : « إن المتواضع سيرث الأرض » .

وبنفس الشعار ؛ انتزع الأصدقاء عقيدتهم من سجل الأديان البروليتارية ، فإنهم - عكس النماذج التي احتلّوها -^(١) لم يكونوا متخسّين أبداً للتبشير بعقيدتهم . ومن ثم ظلّوا طائفة مختارة . ولما كانوا يلفظون عن جماعتهم كل من يتزوج من خارجها . ظلّ عددهم ضئيلاً ، كما ظلّ جوهر صفاتهم على سموه .

(١) لى حواريو السيد المسيح . (المؤلف)

ويتشابه تاريخاً والجماعتين اللتين يعارض اتباعهما مسألة التعميد **Anabaptists** في النقطة التي تعنينا من تاريخ جماعة الكويكرز. فإن كلا منهما قد بدأ بداية تتسم بالعنف، ثم اعتنق نزعة المسالمة، وسرعان إ ما زالت عنهما صفة البروليتاريا. وتختلف الجماعتان مع ذلك مع جماعة الكويكرز في كثير من المناحي :

وإن كنا قد ذهبنا إلى مدى لا طائل من ورائه في بحثنا عن دين جديد يعكس تجربة البروليتاريا الداخلية الغربية، فلعلنا نذكر أنفسنا بأن البروليتاريا الداخلية الصيفية قد وجدت في المهايانا عقيدة دينية كانت تحولاً - لا شبهة فيه بحال - عن الفلسفة البوذية السالفة. ولدينا في الشيوعية الماركسية مثال بغيض إلى النفس يقوم بين ظهرائي فلسفة غربية حديثة تحولت تحولاً لا شبهة فيه خلال عمر واحد، إلى عقيدة دينية بروليتارية، سالكة طريق العنف، مقطعة بالسيف أورشليمها الجديدة^(١) من سهول روسيا :

ولو كان رقيب للآداب^(٢) في العصر الفيكتوري قد تحدى كارل ماركس ليذكر اسمه وعنوانه الروحاني، لوصف نفسه بأنه مرشد للفيلسوف هيجل وينسب إلى الفلسفة الجدلية الهيجلية المتصلة بظواهر عصره الاقتصادية والسياسية. على أن العناصر التي جعلت الشيوعية قوة مدمرة، لا تنتسب إلى هيجل. وفي سمائها ما يثبت أصلها المنحدر من عقيدة الغرب الدينية التي - بعد تحدى الفلسفة الديكارتية لها - ما يزال يرصعها كل طفل غربي مع لبن أمه، ويستنشقها كل رجل وامرأة غربيين مع الهواء الذي يتنفسانه. ومثل هذه العناصر التي لا يتأتى إرجاعها إلى المسيحية، يمكن ردها إلى العقيدة اليهودية واليهودية هي مصدر المسيحية أصابه الجمود. وأمكنت المحافظة عليه بفضل

(١) أي موسكو التي أصبحت مركز العقيدة الشيوعية مثلما كانت أورشليم المركز الروحي لليهودية ثم للمسيحية. (المترجم)

(٢) Censor morum

« التشتت اليهودي »^(١) ، وتسمى بفضل فتح أحياء اليهود Ohetto وتحرير اليهودية الغربية في جيل جدتي كارل ماركس .

ولقد أحل كارل ماركس الحتمية التاريخية معبوداً له ، محل ياهوى^(٢) وجعل من البروليتاريا الداخلية للعالم الغربي ، شعبه المختار مقام اليهود . وجعل من ديكتاتورية البروليتاريا مملكة المسيح . بيد أن السمات المشهورة « للرويا اليهودية » تبرز من خلال هذا الرداء المهلهل^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يظهر كما لو أن المرحلة الدينية في تطور الشيوعية قد تكون سريعة الزوال . ومصادفاً لذلك يبدو أن شيوعية ستالين القومية المحافظة قد هزمت في الميدان الروسي ، شيوعية تروتسكي الثورية الدولية . فلم يعد الاتحاد السوفيتي — والحالة هذه — مجتمعاً خارجياً على القانون ، ناشزاً عن التعامل مع بقية العالم بأسره . وعادت روسيا إلى سلوك السبيل الذي كانت الإمبراطورية الروسية تسلكه من قبل في عهد بطرس أو نيقولا : دولة عظمى تختار حلفاءها وأعداءها وفقاً للأسس القومية ، وبصرف النظر عن الاعتبارات المذهبية . وإذا كانت روسيا غدت تنقل صوب « اليمن » فإن جيرانها قد يبتلعون صوب « اليسار » . ولا نغني بذلك القشل الذي حاق بالحركة الاشتراكية الألمانية^(٤) ولا الفاشية الإيطالية ، ولكننا نغني الطغيان البادي الذي لا عاصم له للتوجيه الاقتصادي في البلاد الديمقراطية التي كانت تسير فيما مضى على مبادئ الحرية الاقتصادية . الأمر الذي يوحى إلى الذهن باحتمال تطور الكيان الاجتماعي لجميع البلاد في المستقبل القريب إلى منحى قومي واشتراكي معاً .

(١) Diaspora . ويقصد المؤلف أن تشتت اليهود هو الذي أنقذهم من الفناء ، وبالتالي فإن تجمعهم الحال في فلسطين سيؤدي إلى نهايتهم بإذن الله . (المترجم)

(٢) اسم الإله في اليهودية . (المترجم)

(٣) يظهر الأستاذ المؤلف هنا مدى تأثير اليهودية في العقيدة الماركسية . وماركس — كما هو معروف — يهودي الأصل . (المترجم)

(٤) أي النازية . (المترجم)

ولا يقتصر الأمر - كما يظهر - على استمرار بقاء النظامين الرأسمالي والشيوعي جنباً إلى جنب - مثل التدخل وعدم التدخل اللذان كانا وفقاً - لعبارة تاليران التهكية المأثورة - اسمين مختلفين لشيء واحد . فإذا كان الأمر كذلك ، علينا أن نقرر بأن الشيوعية قد فرطت في أهدافها بحسبانها عقيدة ثورة بروليتارية ، لسببين :

الأول : بنزولها عن مكانها كترىاق ثورى للبشرية بأسرها ، وصبرورتها مجرد ضرب من القومية .

الثاني : بمشاهدتها فكرة الدولة التي استرقت الشيوعية ، تماثل في العالم المعاصر مع الدول الأخرى ، عن طريق دنوّها من آخر طراز للحكم فيها .

وظاهر أن مجمل بحثنا الحاضر مداره : أنه بينما يزخر التاريخ الحديث للعالم الغربي - على غرار ما نجد في تاريخ أية حضارة أخرى - بما يثبت مسألة تعزيز صفوف البروليتاريا الداخلية ، إلا أننا نفتقر إلى دليل على وجود أسس نظام ديني بروليتاري في التاريخ الغربي ، أو حتى على انطلاق أية « عقيدة دينية سامية » من صميم البروليتاريا . فكيف تفسر هذه الحقيقة ؟

لقد استخلصنا كثيراً من المشابهات بين المجتمعين الغربي والهليني . لكن هناك اختلافاً جوهرياً ، مبناه أن المجتمع الهليني لم يأخذ عن المجتمع المينوى السابق له أى نظام ديني عالمي . فإن حالة الوثنية الإقليمية التي آلت إليها في أنهارها إبان القرن الخامس قبل الميلاد ، هي حالها التي كانت عليها وقت ميلادها . بيد أن الوثنية الإقليمية ليست هي بالتأكيد المرتبة الأولى للحضارة الغربية التي أجزلها - كما مر بنا - أن تنعت نفسها بالمسيحية الغربية ، حتى يفرض قربها من المرتبة الحاضرة .

وفضلا عن ذلك ؛ فإنه وإن نجحنا في نهاية المطاف في سلخ الحضارة الغربية عن تراثها المسيحى ، فإن عملية الردّة ما تزال بطيئة شاقة . ولا يحتمل حتى لو أبدينا غاية التصميم لاستكمال عناصرها بالإتقان الذى نتوق إليه . إذ ليس من السهل أن نتخلص من تقليد ولدنا فيه وتربينا نحن وأسلافنا في ظله ، وقما نشأت المسيحية الغربية — منذ أكثر من ألف ومائتى سنة — من رحم الكنيسة ، وليدا ضعيفا . ومن ثم ما تزال نشك في جدية الجهود التى بذلها ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيللى وهوبز وموسولينى وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية ، وتطهيرها وإزالتها عنها . فإنها لم توفّق في الواقع في غرضها سوى توفيقا جزئيا . ويعزى إخفاق تلك الجهود إلى أن الجرثومة أو المسيحية ، أو الأكسير المسيحى يجرى في الدم الغربى ، إن لم يكن هو الدم الغربى في حقيقته . ومن العسير أن نفترض أن المجتمع الغربى يمكن بأية حال من الأحوال تصفية دستورهِ الروحى ليتحول إلى نقاء الوثنية الهلينية .

وإلى جانب ذلك فإن العنصر المسيحى في النظام الغربى لا يوجد في كل مكان فحسب^(١) يتسم كذلك بـ « التغاير » . ومن ثم تتمثل إحدى حيله المفضلة في تلافى عملية إفنائه عن طريق دسّه قطرة جوهره في السوائل المعقمة التى تستخدم لإصابته بالعقم . ولم يخف أنبياء التسامح المناهضون للزعة الغربية مثل غاندى وتولستوى ؛ إلهامهم المسيحى .

ويعتبر الزنوج الإفريقيون البدائيون — الذين نقلوا أرقاء إلى أمريكا — أسوأ المكابدين جميعا من بين الكثيرين من الرجال والنساء المحرومين الذين عرضتهم المصادفات المختلفة لمحنة إدراجهم في صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية . فلقد شاهدنا فيهم المشابهة الغربية للمهاجرين الأرقاء الذين سيقوا إلى روما الإيطالية من جميع سواحل الأبيض المتوسط الأخرى ، إبان القرنين الأخيرين قبل المسيح .

(١) أى موجود في كل مكان . (المترجم)

كما لاحظنا أن الإفريقيين المتأمرين - مثل الشرقيين الإبطالين - هم أرقاء استخدموا في الزراعة وواجهوا - باستجابة دينية - التحدى الاجتماعى المائل الذى جابههم . وفى المقارنة التى عقدناها بين الفريقين فى مرحلة مبكرة من هذه الدراسة ، أسهنا فى بيان التشابه . بيد أن ثمة اختلافاً يناظره . إذ بينما عثر الأرقاء المهاجرون إلى روما من المصريين والسوريين والأناضوليين ، على سلوانهم فى الأديان التى جلبوها معهم ، تحول المهاجرون الإفريقيون فى أمريكا - التماساً للغزاء - إلى دين سادتهم المتوارث .

فبأية كيفية تقع مسئولية هذا الاختلاف ؟

يُغزى بلا ريب جانب من هذا الاختلاف ، إلى التباين فى طبيعة أسلاف مجموعى الأرقاء . فلقد استقى أرقاء إيطاليا الرومانية الزراعيون على نطاق واسع ، من سكان الشرق المتخصصين فى الزراعة ، الذين كان يتوقع أن يلتصق أطفالهم بترائهم الثقافى . فى حين لم يحتو دين أسلاف الأرقاء الزنوج الإفريقيين على عنصر ثقافى ، كفيل بتمكينهم من الثبات فى وجه حضارة أسيادهم البيض المتفوقة تفوقاً ساحقاً .

وإذا كان هذا تفسيراً جزئياً للاختلاف فى النتيجة ؛ فإنه لتفسيره تفسيراً كاملاً ، لا متلوحه من أن يؤخذ فى الحسبان ، الاختلاف الثقافى بين مجموعى الأسياذ فى الحالتين :

فبالنسبة للأرقاء الشرقيين فى روما الإبطالية ، أعوزهم الاهتمام إلى أى مكان آخر بولون وجوههم شطره التماساً للسلوان ، خارج نطاق ترائهم الدينى الوطنى ؛ ما دام سادتهم الرومان يعيشون فى فراغ روحى . ومن ثم تمثلت الجوهرة الغالية ، فى تراث العبيد ، لافى تراث السادة :

أما فى حالة العالم الغربى ؛ فلقد أُلقيت إلى أيدى الأقلية المسيطرة التى كانت تسوق الأرقاء ، تقاليد الركاز الروحى . بالإضافة إلى الثورة والقوة الدنيويتين .

والواقع أن حيازة الركاز الروحي شيء ، واقتسامه شيء آخر مختلف كل الاختلاف . وكلما أوغلنا في التفكير فيه ، كلما عظمت دهشتنا لما نجده قدرة مالكي الأرقاء من المسيحيين على أن ينقلوا إلى ضحاياهم الوثنيين البدائيين ؛ الخبز الروحي الذى بذلوا ما وسعهم الجهد ؛ لانتهاك حرمة بارتكابهم دنس استرقاق رفاقهم البشر .

فكيف تأتى لمن يسوق الرقيق من المبشرين بالإنجيل ، أن يلمس شغاف قلب الرقيق الذى ارتكب في حقه ، هذا الخطأ الجسيم ؛ فأقصاء عن نفسه إقصاء تاماً ؟

لا بد وأن الدين المسيحى ، قد أوتى طاقة روحية لا تقهر ، بقدرة على كسب معتنقين له في ظل مثل هذه الظروف . ولما كانت النفوس البشرية هي مكان العقدة الدينية الثابت ، يستتبع ذلك ضرورة وجود رجال ونساء مسيحيين في بلاد أجنبية في عالمنا الوثنى « عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة »^(١) . وإن إلقاء لمحة على ميدان التبشير الأمريكى بالمسيحية للأرقاء ستبدى لنا بعضاً من هؤلاء المسيحيين خلال تأدية رسالتهم . ففى الواقع يعود تحول الزنجرى الأمريكى إلى المسيحية - إلى كهنوته ، ملاحظ عمال المزرعة الذى يحمل الإنجيل في يده والسوط في اليد الأخرى . بل إن الرقيق يدين بمسيحيته إلى رجال من أمثال جون فيس John Fees ، وبير كلافرز^(٢) .

وفى وسعنا أن نشاهد في معجزة تحول الأرقاء هذا إلى دين سادتهم ، الانشقاق المعروف بين البروليتاريا الداخلية والأقلية المسيطرة ، أمكن التناغم في الجسم الاجتماعى الغربى بفضل مسيحية دأبت الأقلية المسيطرة الغربية على

(١) من أقوال إبراهيم عليه السلام يستعطف الرب للعفو عن سدوم « سفر التكوين - الإصحاح الثامن عشر - الآية الرابعة والعشرون . (الترجم)

(٢) رجل دينى أمريكى ، كرّس نفسه لمناصرة قضية إلغاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية . فأنشأ عدة كنائس ومدارس تناهض التفرقة بين البيض والسود . فكان أن حاز به البيض وطردوه عام ١٨٥٩ من كنائسهم ، ولم يعد إليها إلا عام ١٨٦٣ . (الترجم)

السعى لنيلها . وما اعتناق الزنجي الأمريكي المسيحية إلا واحد من بين الانتصارات التي حققها نشاط التبشير المسيحي في العصر الحديث .

وظاهر أن عصارة الحياة تهب كرة أخرى بين تضاعيف جميع فروع المسيحية الغربية في جيلنا الذي طحنته الحرب ؛ حيث تسير سريعاً نحو الظلام ، المطامح الحديثة المتوقدة لأقلية مسيطرة تنتسب إلى الوثنية المستحدثة . ويوحى هذا المشهد بأن الفصل القادم من التاريخ الغربي ، ربما لا يتبع — مع ذلك — خطوط الفصل الأخير من التاريخ الهليني . بمعنى أنه عوضاً عن رؤية انبثاق دين جديد من أرض محروثة البوليتارية داخلية ، يتولى وظيفة المصنفي لتركة حضارة أنهارت وسارت في طريق الانحلال ، والوريث لما تبقى منها ، عسانا أن نعيش لنشاهد حضارة جاهدت لتقف وحيدة ثم أخفقت ، لكنها أنقذت على الرغم منها من سقطة مميتة ، بفضل إمساك نظام ديني قديم بتلابيبها . وبين جاهدت تلك الحضارة — دون جدوى — إلى دفعه وإبعاده عنها بعد المشرقين .

فإن حدث هذا ، قد نتقدم من حكم إتباع طريق : الحسق ، البطر ، والجائحة : حكم أوقعته على نفسها ، حضارة تهاوت أمام سكرة انتصار خداع على الطبيعة المادية واستخدمت غنائمها في ادخار الكثر لنفسها دون أن تعنى بثروتها الروحية .

وإذا ما ترجم الاصطلاح الهليني إلى التصور الحسني المسيحي ، قد تتأني عملية الإنقاذ بإطلاق سراح المسيحية الغربية ، وإتاحة السبيل لها لتبعث مرة أخرى كجمهورية مسيحية . وهي التي كانت المثل الأعلى للمسيحية الغربية في مطلع عهدها ؛ والتي يجب أن تجاهد لإقامتها .

هل يتيسر مثل هذا الإحياء ؟

إذا ما ألقينا سؤال نيكوديموس Nicodemus : هل في مكنة الإنسان

أن يدخل رحم أمه ويولد مرة أخرى ؟ لعلنا نتقبل جواب معلمه^(١) الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من فوق ، لا يقلد أن يرى ملكوت الله^(٢) .

١ - البروليتاريا الخارجية

تبرز البروليتاريا الخارجية إلى الوجود - مثل البروليتاريا الداخلية - بفعل انشقاق عن الأقلية المسيطرة لحضارة لأصاها الانهيار . وهنا يصبح الانقسام الديني الذي نجم عن الانشقاق مما يسهل إدراكه . ذلك لأنه بينما تستمر البروليتاريا الداخلية في تمازجها الجغرافي مع الأقلية المسيطرة التي يفصلها عنها هوة أدبية ؛ لا يقتصر الحال بالنسبة للبروليتاريا الخارجية على استبعادها من الناحية الأدبية عن الأقلية المسيطرة ، إذ يفصلها عنها خط حدود يمكن رسمه على الخارطة .

وفي الواقع ؛ يعتبر تبلور مثل خط الحدود هذا ، العلامة المؤكدة على حدوث مثل هذا الانشقاق بالفعل . ذلك لأنه لن يصبح للحضارة التي ما تزال في مرحلة النمو ، حدود ثابتة ومحكمة ، إلا على جهات تصادف ارتطامها عندها بحضارة أخرى من ذات فصيلتها . ويتأتى عن مثل هذه الارتطامات ، بروز ظواهر ستكون لدينا الفرصة لبحثها في جانب تال من هذه الدراسة . على أننا سندع هذا في الوقت الحاضر بعيداً عن حسابنا ، ونحصر اهتمامنا في موقف لا تجاور فيه حضارة ما ، حضارة أخرى ؛ لكنها تجاور مجتمعات من الفصيلة البدائية . وسنجد الحدود غير معينة في مثل هذه الظروف ، طالما أن الحضارة في مرحلة النمو .

(١) أي السيد المسيح . (المترجم)

(٢) إنجيل يوحنا - الأصحاح الثالث - الآيتان الرابعة والخامسة . وقد اعتمدت على

الترجمة العربية المتداولة للمهد الجديد . (المترجم)

فإذا ما وضعنا أنفسنا في بؤرة نمو حضارة آخذة في الناء ، ونستمر في الارتحال نحو الأطراف حتى نجد أنفسنا عاجلاً أم آجلاً في وسط لاشبهة في بدايته التامة ؛ سنعجز عندئذ عن أن نحدد خطاً عند أية نقطة خلال مثل هذه الرحلة ونقول : هاهنا تنتهى الحضارة ، وأتينا داخلون العالم البدائى .

وحقيقة ؛ فإنه عندما توفق أقلية مبدعها في إنجاز دورها في حياة حضارة نامية وتبث الشعلة التى أضرمتها « ضياءاً لجميع من هم في الدار » ، لن تصد حيطان الدار الضياء عن تسرب إشعاعه نحو الخارج . إذ ليس ثمة في الواقع حيطان ، ولا يحجب الضياء عن الجيران خارجاً . فإن الضياء وفقاً لطبيعة الأشياء ، يتألق إلى المدى الذى يستطيع حمله ، إلى أن يصل إلى نقطة النظر . وإنه ليستحيل مع وجود لانهائية التتابعات ، تحديد الخط الذى يومض لأعنده آخر بصيص ، ويخلف الباب الظلام مسيطراً سيطرة تامة .

وفي الواقع ؛ فإن الطاقة الواقعة لإشعاع حضارة نامية ، هى من العظم بحيث أنه رغماً عن أن الحضارات تعتبر نسبياً ماثرة بشرية حديثة جداً ، فإنه قد وفقت - بدرجة ما على الأقل - منذ عهد طويل في اختراق جميع صفوف المجتمعات البدائية القائمة . وإن من العسير أن نستكشف - في أى مكان - مجتمعاً بدائياً أفلت تماماً من تأثير قنبر أو آخر من الحضارة . ففى عام ١٩٣٥ مثلاً ، كُشف في داخلية بابوا Papua ^(١) مجتمع كان مجهولاً تماماً ، ووجد أن هذا المجتمع يستحوذ على أسلوب فنى للزراعة الكثيفة ، لا بد وأنه قد اكتسبه إبان تاريخ مجهول من حضارة ما غير معينة .

وإذا ما لاحظنا الظاهرة من وجهة نظر المجتمعات البدائية ؛ فإنه يؤثر فينا بقوة ، هذا التأثير الطاغى للحضارات على ما بقى من العالم البدائى .

(١) جريدة التيمس ببدها الصادر في ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وإذا ما لاحظناه - من الجهة الأخرى - من زوايا الحضارة ، فلن يقل استغرابنا عما سبق لحقيقة مبناها . إن قوة التأثير المشع ، تزيد كلما ازداد المدى . وحالما نقيق من دهشتنا من تبعنا تأثير الفن الهليني على عملة ضربت في بريطانيا خلال القرن الأخير قبل المسيح ، أو على تابوت نحت من الحجر الجيري في أفغانستان خلال القرن الميلادي ؛ سلاحظ أن قطعة العملة البريطانية تبدو مسخا إلى جانب أصلها المقدوني ، وأن التابوت الأفغانى يعتبر إنتاجا مقلداً يحمل طابع « الفن التجارى » . وعند هذه المسافة تنتقل المحاكاة نحو تقليد ساخر .

وتستثار نزعة المحاكاة بفضل الافتتان . ولا يقتصر فضل نزعة الافتتان التى يبرزها تتابع الأقليات المبدعة إبان فترة ارتقاء إحدى الحضارات ، عن درء انقسام البيت على نفسه ، ولكنها تقيه هجوم جيرانه عليه ؛ إلى المدى الذى يكون فيه هؤلاء الجيران - على الأقل - مجتمعات بدائية . وتفسير ذلك : أن المجتمعات البدائية تنشده محاكاة الأقلية المبدعة فى حضارة نامية ، عند اتصالها بتلك الحضارة . مثلها فى ذلك مثل الأغلبية العاطلة عن الإبداع التى تنحو إلى محاكاة الأقلية المبدعة التى تعيش بين ظهرانيها .

وإذا كان هذا هو مناط العلاقة الشاملة المتعارف عليها بين الحضارة فى مرحلة نمائها والمجتمعات البدائية ؛ إلا أن الوضع يختلف اختلافاً بيناً فى حالة انهيار الحضارة وسلوكها طريق التحلل . إذ تحل أقلية مسيطرة تستند إلى القوة بسبب إفتقارها إلى عنصر الفتون ، مكان الأقليات المبدعة التى أنتاج لها الافتتان - بفعلها الإبداعى - الظفر بولاء الغير عن طواعية . ولن تنقاد الشعوب البدائية المحاورة ، وفى هذه الحالة بفعل الافتتان ، لكنها تساق بفعل القوة الغاشمة . وعندئذ يطرح مريدو الحضارة النامية ولاءهم لها ويتحولون إلى ما ندعوه بالبروليتاريا الخارجية . وهذه

البروليتاريا وإن كانت « في » الحضارة التي باتت الآن مهارة ، إلا أنها ليست « منها » (١) .

وقد يكون من الميسور تحليل إشعاع أية حضارة إلى ثلاثة عناصر : اقتصادية وسياسية وثقافية .

وتشع العناصر الثلاثة بقوة متساوية . إذ أنها - باستخدام مصطلحات تغلب صفتها الإنسانية على أصلها المادى - تتساوى في منحها الإفتاقى ، طالما تظل الحضارة في طور الارتقاء . لكن ما إن تتوقف الحضارة عن الارتقاء ، حتى تبخر فتنها الثقافية . وقد يتواصل نمو قوى إشعاعها الاقتصادى والثقافى أكثر مما سبق ، بل إنه ليحتمل حدوث ذلك في الواقع . ويطالعا كثال ، مسألة تهذيب الأديان المنتحلة بعبادة مانون Mannon ومارس Mars ومولوخ Moloch . فإن تهذيبها يعتبر سمة بارزة للحضارات المهارة . بيد أنه طالما أن العنصر الثقافى هو جوهر الحضارة ، وإن عنصرى الاقتصاد والسياسة ما هما إلا مظهرين تافهين (نسبيا) للحياة الكائنة فيها . يستتبع ذلك قصور أبرز انتصارات الإشعاع الاقتصادى والسياسى وعدم ثباتها .

وتطالعا نفس الحقيقة إن بحثنا مظهر التغير من وجهة نظر الشعوب البدائية . إذ يلاحظ نهاية مصير محاكاتها فنون الحضارة المهارة التي تشيع إبان استقرار السلم . لكن هذه الشعوب تداوم على محاكاة تحسينات تلك الحضارة التي تتمثل في أجهزتنا الفنية ؛ في فنون الصنعة والحرب والسياسة . وهى لا تهدف بتلك المحاكاة إلى أن تصبح « من » تلك الحضارة - وهذا كان مطمحها إبان فتنها بها - ولكنها ترجو من وراء ذلك قدرتها

(١) عندما نقول « فيها » لا نغنى أنهم في نطاقها جغرافيا . فواضح أنهم لما كانوا « خارجين » فهم ليسوا فيها . لكن نغنى بكلمة « فيها » ، موافقتهم على الاستمرار في حالة اتصال مستمر معها . (المؤلف)

على الدفاع عن نفسها بنجاح ضد العنف الذى غدا الآن من أوضح سمات هذه الحضارة .

ولقد دلت عرضنا السابق لتجارب البروليتاريا الداخلية وردود فعلها ، على أن إذعانها لإغراء نزعة العنف ، قد جلب عليها التكب . فإن أمثال ثيوداسيس Theudas ويهوذا ، قد أفتاهم السيف بلاريب^(١) : كما أبان أن البروليتاريا الداخلية لم تنجح فى أسر غزائها إلا بفضل اتباعها نبى يؤثر الرقة ولين الجانب .

ولن تغلو البروليتاريا الخارجية فى موقف يُغيرها ، إن آثرت (وهذا ما ستفعله بصفة مؤكدة) استخدام العنف وسيلة لإبراز رد فعلها . فإنه فيما تقع البروليتاريا الداخلية بأسرها على وجه اليقين فى نطاق متناول الأقلية المسيطرة ، فإن جزءاً من البروليتاريا الخارجية يحتمل على أية حال أن يكون ممناى عن متناول الفعل الحربى للأقلية المسيطرة . ومن بين ثانيا النضال القائم ، تبرز الحضارة المنهارة العنف عوضاً عن الإغراء بالحكمة . وفى مثل هذه الظروف ، يتوقع إغراء أعضاء البروليتاريا الخارجية القريبين باقتفاء أثر البروليتاريا الداخلية .

يبد أن ثمة نقطة محدّ عندنا طول مواصلات الأقلية المسيطرة من تفوقها النوعى فى القوة الحربية . وتقتضى هذه المرحلة إحداث تغيير تام فى طبيعة الاتصال بين الحضارة وجيرانها البرابرة . ومناطق هذا التغيير — كما رأينا — صون أرض الحضارة التى تسيطر عليها سيطرة كاماة إبان مرحلة استطالتها وعن ضغط المناطق التى ما برحت همجية ؛ بفضل وجود مدخل عريض أو منطقة فاصلة ، تصل الحضارة عبرها فى سلسلة طويلة من التتابعات الرقيقة . وتحتفى المنطقة الفاصلة — من الناحية الأخرى — وقماً .

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى قول السيد المسيح « من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ » . (المترجم)

تنهار الحضارة ويتردى في الانقسام ، وعندما تتوقف المنازعات اللاحقة بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الخارجية عن أن تظل صراعا متلاحقا ، وتستقر لتصبح حرب خنادق^(١) ؛ سنجد أن المنطقة الفاصلة قد اختفت .

هنا لا يغدو الانتقال الجغرافي من مجال الحضارة إلى مجال البربرية تدريجيا ، بل يتم مفاجأة . ويستبان من الكلمات اللاتينية المناسبة التي تكشف عن القرابة والتباين كليهما بين نوعي الاتصال ؛ أن المدخل^(٢) الذي كان منطقة ، قد حل مكانه الحد الحربي^(٣) وهو خط له طول وليس له عرض . وتواجه الأقلية المسيطرة الشاردة ، بروليتاريا خارجية عبر خط الحد الحربي ، وكلا الفريقين في عدته الحربية . وتعتبر هذه الجهة الحربية حاجزاً في طريق الإشعاع الاجتماعي بأسره ، خلا ما يتصل منه بالفن الحربي . والفن الحربي سلعة يتم تبادلها اجتماعيا لأغراض الحرب — لا لأغراض السلم — بين متبادلها .

وستحتل تفكيرنا فيما بعد ؛ هذه الظواهر الاجتماعية التي تتعاقب وقما تغدو هذه الحرب في حالة سكون على طول خط الحدود . ونكتفي هنا بذكر حقيقة جوهرية مدارها ميل هذا التوازن الموقوت المتقلقل في القوى ، إلى صالح البرابرة بمرور الوقت .

١ - مثال هليبي :

تقسم مرحلة الارتقاء في التاريخ الهليني بتعدد الأمثلة المتصلة بالمدخل أو المنطقة الفاصلة التي تميل الأرض الإقليمية للحضارة النامية السليمة إلى إحاطة نفسها بها . فإن جوهر هيلاس ليضعف ضياؤه ناحية أوروبا ، شمال تيرموبيلاي Thermopylae حتى تيسالي Thesealy الشبهة بالهلينية ؛ ويضعف

(١) أي حرب ساكنة . (الترجم)

(٢) Limen .

(٣) Limes .

كذلك ناحية غرب دلفى Delphi حتى آيوليا الشبيهة بالهلينية أيضاً . ولقد استطاعت مقدونية نصف الشبهة بالهلينية هي وآيبروس ، أن تحفظا المنطقتين السالفتي الذكر من تأثير بربرية تراقية وإيليريا العارمة .

وثمة مناطق في مؤخرات المدن اليونانية الواقعة على الشاطئ الآسيوي ناحية آسيا الصغرى ، يتقلص فيها ظل الهلينية . وتمثل تلك المناطق مدن : كوريا Coria وليديا Lydia ، وفريجيا Phrygia . وفي وسعنا أن نشاهد الهلينية على هذا الحد الآسيوي ، تأسر لأول مرة - في وضع التاريخ الكامل - غزاتها البرابرة . واتسمت تلك الفترة بتوافر طاقة أدت خلال الربع الثاني من القرن السادس قبل الميلاد إلى بروز الصراع بين محبي الهلينية وكرامهيا ، إلى طليعة السياسات الليدية . بل إنه حدث أنه بعدما هزم كروسوس Croesus أخاه غير الشقيق بانتاليون Pantaleon المتطلع إلى العرش الليدى ؛ بدا عجز زعيم الفريق المناهض للهلينية عن السباحة ضد التيار الموافق للهلينية . وكان إذعانه للهلينية ، سبباً في إذاعة شهرته نصيراً سخياً للمقدسات الهلينية ، وبنى انصياعه للدين عن سذاجة إيمانه بالكهانة الهلينية .

ويبدو أن العلاقات السلمية والتغيرات الهائلة الطابع ، كانت هي القاعدة حتى في أطراف العالم فيما وراء البحار . فانتشرت الهلينية انتشاراً سريعاً في جنوب إيطاليا الكبرى اليونانية . ونجد أقدم ذكر لمدينة روما في أى أثر مكتوب ، في بقية نبذة من كتاب لتلميذ أفلاطون هراقليدس بونتيكوس Heracleides Ponticus وفيها وصف هذه الجمهورية اللاتينية بأنها « مدينة هلينية » .

وهكذا تبدو لأعيننا على جميع حدود العالم الهليني إبان مرحلة ارتقائه ، صورة أورفوس المائة ، تسحر البرابرة المحيطين بالهلينيين من كل الجهات . بل إنها لتوحى إلى شعوب في أطراف الأرض أشد بدائية من

البرابرة ؛ بإنشاد موسيقاه الساحرة — على الأدوات الموسيقية الفجة .
وتختفى هذه الصورة الرقيقة في لمح البصر ، حينما تنتهى الحضارة
الهلينية . فما أن يستحيل التوافق إلى تنافر ؛ حتى يستيقظ المستمعون
المأخوذون جافلين . وهنا يرددون إلى طبيعتهم الفظة . ويقذفون بأنفسهم
ضد الرجل الشاكي السلاح انبعث من وراء عباءة النبي الوديع .

فلقد اتسم بالقوة وشدة العنف رد الفعل الحربى للبروليتاريا الخارجية
على انهيار الحضارة الهلينية ، فى اليونان الكبرى . حيث شرع البروتيون
Bruttians واللوكانيون Lucaians فى الضغط على المدن اليونانية واحتلالها
الواحدة بعد الأخرى . ففى غضون المائة سنة التى بدأت عام ٤٣١ ق . م .
بحرب كانت هى « بداية الكوارث الكبرى التى حلت بهلاس » ، كانت
البقايا القليلة من بين الجماعات السابقة المزدهرة فى اليونان الكبرى ،
تستحضر قواد الجنود المرتقة من الوطن الأسمى ليحميها من أن يقذف
بها فى البحر . إلا أن هذه الإمدادات الشاردة كانت من ضعف التأثير
على صد المد الأوسكاني^(١) حتى أن السيل البربرى المتدفق أمكنه عبور
مضيق مسينا ، قبل أن تقف حركة عبورهم فجأة عند حد . وتم
هذا على أيدي أقرباء الأوسكانيين ، وهم الرومان المتأثرون بالحضارة
الهلينية .

ولم تقتصر السياسة والحرب الرومانية على إنقاذ اليونان الكبرى ، بل
إنها أبقت للهلينية ، شبه الجزيرة الإيطالية بأسرها ، عن طريق مفاجأتها
الأوسكانيين من المؤخرة ، وعرضها أمانا رومانيا على البرابرة الإيطاليين
وعلى يوناني إيطاليا على السواء .

وهكذا أصبحت الجهة الإيطالية الجنوبية الواقعة بين الهلينية والبربرية .
وتلا ذلك تولّى الحراب الرومانية القاهرة نشر سلطان الأقلية المسيطرة

(١) نسبة إلى أوسكان ، وكانوا شعب كامبانيا Campania البدائي . (المترجم)

الهلينة في ميدان بعيد في القارة الأوربية وفي إفريقيا الشمالية الغربية ، على غرار ما فعله في آسيا الإسكندر المقدوني من قبل . بيد أن هذا التوسع الحربي ، ما كان ليقضى على تأثيرات الجهات البربرية المعادية ، وإن أضاف مزيداً إلى طولها وإلى بعدها عن مركز القوة . والواقع ؛ ظلت جهات المقاومة البربرية ثابتة طوال عدة قرون ؛ بينما استمرت عملية تحلل المجتمع في طريقها ، إلى أن تمكن البرابرة في نهاية الأمر من شق طريقهم .

وأخرى بنا أن نتساءل عن مدى قدرتنا على تمييز أية مظاهر لنزعة الوداعة - كما تميّز استجابة عنيفة - في رد فعل البروليتاريا الخارجية على ضغط الأقلية المسيطرة الهلينة . كما نتساءل عن مدى قدرتنا على إضفاء ماثرة لإنجاز أعمال إبداعية على البروليتاريا الخارجية .

لوانخذنا المثال اليوناني لنا هادياً ؛ لتبين لنا من النظرة الأولى ، أن الرد بالسلب على كلا السؤالين . إذ تيسر لنا ملاحظة البربري المناهض للهلينية في أوضاع ومراكز غير ثابتة :

فهناك ذلك البربري في صورة آريوفيستوس Ariovistus الذي أبعدته قيصر عن الميدان . وهناك ما هو في شكل آرمينيوس Arminius الذي احتفظ بمجاله الخاص ضد إرادة قيصر .

بيد أن للحروب في جميع الأحوال ثلاثة جوانب : الهزيمة والموقعة غير الحاسمة ، والانتصار . لكنها تشترك في غلبة نزعة العنف عليها ، وفي إضعافها نزعة الإبداع .

ولعلنا نُقدم مع ذلك على التطلع أبعد من ذلك . إذ لا يغرب عن أذهاننا أن في مكتة البروليتاريا الداخلية كذلك ، أن تُظهر في ردود فعلها المبكرة ، اتجاهات عنيفة وعمقا يماثله في حديثه . على حين تتطلب نزعة الوداعة لتكتسب النفوذ : الوقت والعناء كليهما . وتتجلى هذه النزعة في خاتمة المطاف في أعمال إبداعية رائعة تتمثل في دين يتسم بسموه ، ونظام ديني عالمي الطابع .

وعلى أية حال ، ففى وسعنا أن نميز شيئاً من اختلاف الدرجة فى نزعة العنف التى تبديها عصابات البرابرة الحربية على اختلافها . ومصدافاً لذلك ، كان تخريب روما عام ٤١٠ ق . م . على يد ألاريك Alaric القوطى الغربى . أقل جوراً مما حدث بعد ذلك من تخريب نفس المدينة عام ٤٠٠ ميلادية على أيدي الوندال والبربر ، كما أنه كان أقل مما عانته روما على يد راداجايسوس Radagaisus عام ٤٠٦ ميلادية . ولقد أشاد القديس أوغسطين فى العبارة التالية ، بالوداعة النسبية التى أبدتها ألاريك حيال روما :

« تبدى إبان الحادثة ، ما عرف عن البرابرة من قسوة مروعة ، فى صورة فعلية من الاعتدال ، حتى أن الفاتح البربرى قد جعل من الكنائس ملاذاً رحيماً . وأصدر أوامره بالامتناع عن استخدام السيف ضد الهياكل المقدسة ، وأن لا ينتزع منها أسير . وحقاً ، حمل أعداء ذوو قلوب رحيمة إلى هذه الكنائس ، كثيراً من المسجونين ليحصلوا على حريتهم . فى حين لم يخرجهم منها عنوة لاسترقاقهم ، أعداء قساة^(١) . »

وثمة الدليل القذ على قوة الوداعة متمثلاً فى أتاولف Atawulf خليفة ألاريك وأخى زوجته ، كما سجله أورسيوس ، مريد القديس أوغسطين فى رسالة تحت عنوان « سيد مهذب من ناربون Narbonne ، امتاز بعمل حربى تحت قيادة الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius :

« أنبانا السيد المهذب أنه فى ناربون قد تألف مع أتاولف إلى أقصى حد . وإنه كثيراً ما ذكر له - وهذا مع الحرص الشديد لمشاهد يقدم دليلاً - قصة حياته ذاتها التى غالباً ما كانت على شففى هذا البربرى ذى الروح الجياشة والحيوية والعبقرية الفياضتين . ويتبين من قصة أتاولف أنه قد بدأ حياته تتملكه رغبة عارمة فى إزالة كل ذكرى تتصل باسم إمبراطورية

(١) الكتاب الأول ، الفصل السابع St. Augustine : De civitate Die

القوط . بيد أن التجربة قد أفتتته بمرور الوقت ، بأن القوط - من جهة - لبسوا كفننا لهذا العمل نظرا لبربريتهم الطليقة التي تحول بينهم وبين الخضوع لقائد . ومن الإجماع - من الجهة الأخرى - إقصاء حكم القانون من حياة الدولة ، لأن الدولة تنتهى بانتهاء حكم القانون منها . ولما اهتدى آتاولف إلى هذه الحقيقة قاده فكره إلى ضرورة نذر نفسه على الأقل لإدراك هذا المجد الذى بات فى متناوله ، ألا وهو استخدام حيوية القوط ليسترجع الاسم الرومانى عظمتة القديمة ، وربما أعظم منه (١) .

هذه العبارة ، هى « الموضع التقليدى » للتدليل على حدوث تغير فى مزاج البروليتاريا الخارجية الهلينية ؛ من اتجاه إلى نزعة العنف ، إلى السير فى طريق الوداعة . وفى وسعنا أن نميز على ضوئها طائفة من ظواهر الإبداع الروحى أو الأصالة على الأقل - المصاحبة لها فى النفوس البربرية التى استصلحت استصلاحا جزئيا .

ولأنه وإن كان آتاولف نفسه مسيحيا مثل الأريك أخى زوجته ، فإن مسيحيته لم تكن مسيحية القديس أوغسطين والكنيسة الكاثوليكية . إذ غلب المذهب الأريوسى على الغزاة البرابرة من هذا الجيل فى الجهة الأوربية . ولأنه وإن عُرِى تحولهم أصلا إلى الأريوسية عوضا عن الكاثوليكية إلى محض الصدفة ؛ فإن إخلاصهم اللاحق للأريوسية يعتبر نتيجة اختيار رصين . وتم ذلك الاختيار بعدما زالت عنهم نزعتهم الوثنية التى كانوا وقتا ما مشهورين بها فى أنحاء العالم الهليني الذى اعتنق المسيحية .

وبالأحرى ، اتخذوا الأريوسية شعاراً لمكانة الفاتحين الاجتماعية تجاه السكان المقهورين . وكانت أريوسيتهم هذه تدفعهم إلى إظهار روح الغطرسة . واستمرت النزعة الأريوسية غالبية على جمهرة الدول التبتونية التى خلقت الإمبراطورية الرومانية خلال الجانب الأعظم من فترة الفراغ

(١) الكتاب السابع ، الفصل ٤٣ : Orsins : Adversum Paganos

(٣٧٥ م - ٦٧٥ م) . وأخيراً قام البابا جريجورى الأكبر (٥٩٥ - ٦٥٤ م) - ويعتبر أكثر من أى رجل آخر ، مؤسس حضارة المسيحية الغربية الجديدة التى انبثقت من مرحلة الفراغ - بدور حاسم فى إنهاء هذا الفصل من تاريخ البربرية الآرية ، بهدايته الملكة تيوديلندا Theodelinda إلى الكاثوليكية .

ولا يعتبر الفرنجة من أريوسيين . إلا أنهم قد انطلقوا رأساً من الوثنية إلى الكاثوليكية بفضل اعتناق كلوفيس المسيحية فى ريمس Reims عام ٤٩٦ ميلادية . فأسدت لهم هدايته عوناً قوياً على مجابهة فترة الفراغ ، وعلى تشييد دولة تحولت إلى حجر الأساس السياسى للحضارة الجديدة .

وبينما اتخذت عصابات البربر هذه ممن اعتنقت المسيحية ، الزعة الأريوسية - كما وجدتها - شعاراً مميزاً ، أظهر برايرة آخرون يقيمون على الحدود الأخرى للإمبراطورية ؛ شيئاً من الأصالة ، باستلهاهم شيئاً أكثر إيجابية من مجرد الاعتزاز بالانتماء إلى طائفة بالذات . أما برايرة « المذهب الكلتى » على حدود الجزائر البريطانية الذين اعتنقوا الكاثوليكية ولم يتحولوا إلى المسيحية الأريوسية ، فقد أعادوا تشكيل كاثوليكيهم لتطابق تراثهم البربرى الخاص .

وأظهر برايرة ما وراء الحد - على الحد المواجه للقسم العربى من السبب الأفراسى - إصالة تفوق كثيراً ما أظهره البرابرة الأريوسيون . فلقد استحال إشعاع اليهودية والمسيحية فى النفس الإبداعية للنبي محمد ، إلى طاقة روحية ، أطلقت نفسها فى الإسلام ، وهو « الدين الأعلى » الجديد . وسيتبين لنا - إن سقنا أبحاثنا إلى الوراء مرحلة أبعد من ذلك - أن ردود الفصل الدينية هذه - التى قد سجلناها بالفعل - لم تكن أول ما انبثت عن هذه الشعوب الإبداعية بفضل إشعاع الحضارة الهلينية . فما الدين الموغل فى بدائيته والتى تكتمل فيه هذه الظاهرة تماماً ، لإعقيدة

أساسها في جوهرها فكرة « الحصوبة » . ومصدقا لهذا الرأي ، تعبد الجماعة البدائية بصفة أساسية ، طاقها الإخصابية الذاتية متمثلة في إنجاب الأطفال وفي إنتاج الطعام . وتصبح عبادة القوة المدمرة عندهم ؛ إما غيبية أو تابعة .

ولما كان دين الإنسان البدائي ، مرآة صادقة لأحواله الاجتماعية ؛ فإن ارتباط حياته الاجتماعية بصورة عنيفة - بفعل دفعها إلى الاتصال بجسم اجتماعي أجنبي قريب من حياته الاجتماعية ومعادى لها على السواء - يقود إلى نشوب ثورة في عقيدته الدينية . وهذا ما يحدث فعلا ، وقما نجد جماعة بدائية طفقت تستوعب تدريجياً وسلمياً التأثيرات المنعومة لحضارة نامية ، تفقد - بطريقة مفاجئة - مرأى شخصية أورفوس المتأنة الحاملة قيثارتها القاتنة ، وتجاه بطريقة فظة - عوضاً عن أورفوس - السحنة القبيحة المنذرة بالسوء للأقلية المسيطرة ، في حضارة مهارة .

وتتحول الجماعة البدائية في هذه القضية إلى شذرة من بروليتاريا خارجية . وتتضارب في ظل هذا الموقف من ناحية الأهمية النسبية ، مناحى النشاط المتصلة بالحصوبة والتدمير في حياة الجماعة البربرية . وهنا تصبح الحرب مدار وظيفة الجماعة كلها .

وعندما تغدو الحرب أجزل الجماعة ربحاً ، وأشد إثارة من الوحدة الجزئية والعمل الرتيب للحصول على الطعام ؛ فكيف تستطيع ديمتر^(١) أو حتى أفروديت^(٢) - باعتبارهما اسمي تعبير الألوهية - الاحتفاظ بمكانتها ضد آريس^(٣) .

(١) ديمتر Demeter هي في الأساطير اليونانية أخت زيوس (وتدعى سيريس في الأساطير الرومانية) وتتمتع رمزا للخصوبة والماء والازدهار . (المترجم)
 (٢) أفروديت . ربة الجمال والإخصاب ، وهي ذات أصل أجنبي ، إذ كانت تعرف عند السومريين باسم عشتار . (المترجم)
 (٣) آريس : رب الحرب في الأساطير اليونانية (وهو مارس عند الرومان) وهو ابن زيوس ، واشتهر بسيطرة فزعة العنف على تصرفاته . (المترجم)

هنا يُعاد تشكيل صورة وثن الجماعة البربرية المعبود . فيتحول إلى زعيم عصبة حربية مقدسة . ولقد طالعتنا أمثلة من هذه الأوثان البربرية الأصل في البانثيون الأولمبي^(١) الذي كانت تعبد البروليتاريا الخارجية الآخية للإمبراطورية البحرية المينوية . وشاهدنا عصابات الأولمب المؤلفة هذه يواجهها من الجهة الأخرى مواطنو آسجارد^(٢) الذين كانت تعبدهم البروليتاريا الخارجية في الإمبراطورية الكارولنجية . وثمة بانثيون آخر من نفس الطراز كان يعبد البرابرة التوتون فيما وراء الحدود الأوربية للإمبراطورية الرومانية ، قبل تحولهم إلى الكاثوليكية . وأخرى أن يؤخذ في الحسبان ، انبعث هذه الأرباب النّابة في سحنة عبّادها المعدّين للحرب بالذات . باعتبار ذلك الإعداد عملاً إبداعياً مأثوراً للبروليتاريا الخارجية التوتونية في العالم الهليني .

أما وقد استجمعنا هذه المقادير من النشاط الإبداعى في ميدان الدين ؛ فهل في مكتنتنا أن نُضيف إلى محصولنا الواهى جديداً ، عن طريق استخلاص المطابقة مرة أخرى ؟

وإذا كانت « الأديان السامية » التى تعتبر كشوفاً مجيدة للبروليتاريات الداخلية ، قبيحة الصيت فيما يتصل بأوجه النشاط في ميدان الفن ؛ فهل تستعيز « الأديان الدنيا » للبروليتاريا الخارجية ، أعمالاً فنية رائعة ؟ الرد بالإيجاب بكل تأكيد .

فما إن سعيانا إلى إمطة اللثام عن الأرباب الأولمبيين ، حتى شاهدناهم كما هم مصوّرين في الملحمة الهوميرية . ويتصل هذا الشعر بعقيدة البرابرة الآخيين اتصالاً متلازماً ، مثل اتصال الأنشودة الجريجورية وطراز المباني القوطى

(١) البانثيون الأولمبى . هو مجمع الآلهة عند قدامى اليونانيين . (المترجم)

(٢) آسجارد في الأساطير الاسكتدنافية هو موطن الآلهة السكتدنافية وعلى رأسهم أودين .

(المترجم)

بالمسيحية الكاثوليكية إبان القرون الوسطى . ونجد نظير في الملحمة الشعرية اليونانية لأيونيا ، في الملحمة الشعرية التيوتونية لانجلترا ، وفي الساجة الاسكندنافية لأيسلندا . وترتبط الساجة الاسكندنافية بأسجارد ، وترتبط الملحمة الشعرية الانجليزية — التي تعتبر بيورلف Beorulf أعظم آياتها الباقية — بوودين Woden وزمرته الإلهية — على غرار ارتباط الملحمة الشعرية الهومرية بجمع الآلهة في الأولمب .

وحقاً ، تعتبر الملحمة الشعرية أعظم إنتاج مميز ذو سمات خاصة ، لرودود فعل البروليتاريات الخارجية ، وهو مظهر النشاط الوحيد الخالد الذي أورتها تجارتها إلى البشرية فإن الحضارة لم تنجب أشعاراً عادت أو في مكتبها أن تعادل جلال أشعار هومير في بساطتها وفي مرارتها القاسية^(١) .

وإذا كنا قد أوردنا ثلاثة أمثلة لضرر الملحمة ، فإنه من اليسير أن نضيف إلى هذه القائمة أمثلة أخرى ، وأن ندلل على أن كل مثال هو رد فعل بروليتاريا خارجية للحضارة التي اشتبكت معها في صراع . مثال ذلك أن أنشودة رولاند Chanson de Roland ، وليدة الجناح الأوربي للبروليتاريا الخارجية للدولة العالمية السورية . فلقد استوحى — إبان القرن الحادى عشر الميلادى — الصليبيون الفرنسيون أنصاف البرابرة من ميدان البرانس التابع للخلافة الأموية الأندلسية ، عملاً فنياً يعتبر مصدر جميع الشعر الذى ما برح يدون بأية لغة وطنية من لغات العالم الغربى ، منذ ذلك اليوم . وإن أنشودة رولاند لتفوق بيورلف في أهميتها التاريخية ، كما تفوقها في الفضل الأدبى^(٢) .

(١) صفحة ٢٢ Lewis C.S. A Greface to Paradise Paradise .

(٢) يبحث المستر توينبى في دراسته — إلى المدى الذى يتيحها الدليل التاريخى — موضوع البروليتاريا الخارجية لجميع الحضارات . وقد حذفت جميع الحالات الأخرى وشرعت مباشرة في إيراد القسم الخاص بالبروليتاريا الخارجية في المجتمع الغربى . ولست في حاجة لأن أقول — كما أننى لست في حاجة إلى الاعتذار عن الحقيقة — أننى أتبع نفس الخطة في أماكن أخرى ، =

(٥) البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي

بوصولنا إلى تاريخ العلاقات بين العالم الغربي والمجتمعات البدائية التي جابهها ، نميز مرحلة مبكرة ظفرت فيها المسيحية الغربية خلال طور استيطانها — على غرار ما حدث للهلينية — بأناس اهتموا بعقيدتها ، بفضل جاذبية فتنها . وتمثل آية هذه الهداية ، في استسلام الأعضاء الأوائل للحضارة السكندنافية العقيمة في نهاية المطاف ، إلى الجراة الروحية للحضارة التي أغاروا عليها بغية تدميرها . وكانوا يقيمون وقتذاك في مزابضهم في الشمال الأقصى وفي مستعمراتهم البعيدة في إيسلندا ، وكذلك في معسكراتهم على الأرض المسيحية في دانيلاو Danelaw ^(١) ونورماندى .

وإنه وإن اهتمدى إلى المسيحية بعد ذلك البدو المحجربون وسكان الغابات البولنديون من تلقاء أنفسهم ، أسوة بما حدث للاسكندنافيين ؛ إلا أن هذه المرحلة المبكرة من التوسع الغربي ، تتسم كذلك بما حدث فيها من عدوان فاق في عنفه كثيراً عمليات الإخضاع العرضية ، وتجريد الجيران البدائيين المعرضين لهجوم أعداء الهلنيين البدائيين الوفيرة . إذ لا تعد حملات شارلمان الصليبية ضد الساكسونيين وحملاتهم هم ضد السلاف القاطنين بين نهري الألب Elbe والأودر ، Oder شيئاً مذكوراً أمام فظائع الفرسان التوتون إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقتما استأصلوا البروسيين ^(٢) المستوطنين المناطق الواقعة وراء نهر الفيستولا .

وتكرر ذات القصة نفسها على حدّ المسيحية الشمالى الغربي . إذ يحتوى

= وإن كان هنا أقل شدة . ومن قبيل المثال أن المستر توينبى قد بحث في هذا الفصل عن البروليتاريات الداعلية ، بجميع الحالات ، إلا أنني حذف نصفها محتفظاً بالنصف الآخر الذى يبدو أنه يتيح أكثر مظاهر الطرافة . (الملخص)

(١) دانيلاو : القسم الدايمركى في الجزيرة البريطانية . (المترجم)

(٢) وكانوا من الجنس السلافى الذى ينتمى إليه الروس والبولنديون وغيرهم . (المترجم)

الفصل الأول منها على قيام عصبة من البعثات التبشيرية الرومانية بهداية الإنجليز سلمياً إلى المسيحية - ولكن تلا ذلك حدوث سلسلة من الانقلابات في الأساليب ، بدأت بقرار مجمع هويتبي الديني عام ٦٦٤ ميلادية ، وبلغت أوجها في غزو هنرى الثانى - بموافقة البابا - إيرلندا عام ١١٧١ . وهى حملة هدفت إلى إخضاع مسيحيي الغرب الأقصى . وليست هذه هى نهاية القصة : فإن حملة الإرهاب التى اكتسبها الإنجليز إبان فترة عدوانهم الطويل المدى ضد بقايا الحد الكلتى فى هضاب اسكتلندا ومستنقعات إيرلندا ، قد حملتهم عبر المحيط الأطلسى ، وجعلتهم يمارسونها على حساب هندو أميركا الشمالية .

ولقد كانت الطاقة التى دفعت الحضارة الغربية إلى الانتشار فوق الكوكب بأسره ، من القوة بالإضافة إلى عظم الاختلاف فى موارد الثروة بينها وبين منافسيها البدائيين ، بحيث أن حركة التوسع الغربى قد جرفت أمامها كل شىء دون أن يعوقها عائق . ولم يعد الأمر موضوع إقامة حد حرجى بينها وبين الشعوب البدائية ، بل إنها انتهت إلى إقامة حد نهائى ، أى حد طبيعى . هنا تصبح الإبادة أو الإجلاء أو الإخضاع هو القاعدة ، والهداية هى الاستثناء ؛ فى مثل هذا الهجوم ذى الانتشار العالمى على بقايا للمجتمعات البدائية .

وحقاً ؛ فى وسعنا أن نخصى على أصابع اليد الواحدة ، المجتمعات البدائية التى اتخذها المجتمع الغربى الحديث شريكاً له . ويرد من بينها : الاسكتلنديون سكان الهضاب ، وهم أحد جيوب البرابرة غير المروضين الذين أورثتهم مسيحية القرون الوسطى ، العالم الغربى الحديث . وثمة الماورى سكان نيوزيلندا الأصليون . وهناك الأروكان القاطنون فى المؤخرة البربرية للمقاطعة الشيلية للدولة العالمية الانديانية الذين كان على الأسبان أن يتعاملوا معهم منذ الفتح الأسبانى لإمبراطورية الانكا .

ولقد بات اندماج الاسكتلنديين أمراً مقضياً بعد ما أخفقت مقاومة

هؤلاء البرابرة البيض للوخزات الأخيرة التي أصابهم بسبب تمردهم في عصر جيمس الأول عام ١٧٤٥ . ولم يكن الاندماج بالأمر اليسير . فإن الهوة الاجتماعية التي تفصل رجلا من طراز الدكتور جونسون أو هوراس والبول عن العصابات الحربية التي حملت الأمير شارل إلى دربي ؛ هذه الهوة ، لم يكن اجتيازها - على الأرجح - يقل صعوبة عن اجتياز الهوة التي كانت تفصل المستوطنين الأوربيين في نيوزيلندا أو شيلي عن الماوري أو الأروكانيين . ولا شبهة في أن أحفاد أحفاد المقاتلين الشعثاء تحت قيادة الأمير شارل ، يشتركون في الوقت الحاضر في اعتناق نفس الجوهر الاجتماعي مع سليلي أصحاب الشعور المستعارة والمساحق من سكان الأراضي الواطئة في اسكتلندا والإنجليز الذين كتب لهم الفوز في آخر دورات الصراع الذي بلغ نهايته منذ مائتي عام مضت تقريباً . ولم تكن هذه الفترة من الطول حتى تستطيع الأسطورة الشعبية تحويل طبيعة هذا الصراع الأصلية عن موضوعها الواقعي : على أن الاسكتلنديين قد استطاعوا أن يقنعوا الإنجليز إلى حد كبير - بل أن يقنعوا أنفسهم - بأن مرقشات^(١) هضاب اسكتلندا هي رداء اسكتلندا الوطني^(٢) . ويبيع الآن باعة مستحضرات الحلوى في الأراضي الواطئة « روك ادنبره »^(٣) في « غلب مغطاة بقماش المرقشات » .

وتوجد مثل هذه الحدود البربرية في الوقت الحاضر في أنحاء أخرى من العالم الغربي . وتعتبر تراثا انحدر إليه من الحضارات الغير الغربية التي

(١) المرقشات Tartan . قماش صوفى به خطوط من ألوان مختلفة . ويرتديه سكان هضاب اسكتلندا خاصة . (المترجم)

(٢) الذي اعتبره مواطنو ادنبره عام ١٧٠٠ ميلادية - مثلما اعتبر تماما مواطنو بوسطن نفس الوقت - كسوة الرأس من الريش التي يرتديها الزعيم الهندي الأحمر . (المؤلف)

(٣) نوع من الحلوى الاسكتلندية . (المترجم)

لما تُستوعب بعد في الكيان الاجتماعي الغربي . ويطلقنا من بينها : الحد
الشمالي الغربي للهند ، وله شأن بارز هام - على الأقل - لمواطني تلك
الدولة الغربية المحدودة التي أخذت على عاتقها تزويد الحضارة الهندية
المتحولة بدولة عالمية^(١) .

فلقد انتهار هذا الحد المرة بعد الأخرى بفعل زعماء العصابات الحربية
من الأتراك والإيرانيين إبان عصر الاضطرابات الهندى حوالى
١٨٧٥ - ١٥٧٥ ميلادية . وكانت الدولة العالمية الهندية ممثلة في الإمبراطورية
المغولية ، بشيرا بإغلاق هذا الحد . وعندما انحلت الإمبراطورية المغولية
قبل الأوان في مستهل القرن الثامن عشر الميلادى ؛ تألف الرابرة الذين
اندفعوا للصراع في سبيل الاستحواذ على جيفة الإمبراطورية - هم وزعماء
المهراتا الممثلين لرد الفعل الهندى ضد دولة عالمية دخيلة - تألفوا من
الروهيلاس^(٢) الشرقيين والأفغان . ولما أن تولت أيدى أجنبية إنجاز عمل
أكبر قدرا باستعادتها الدولة العالمية الهندية في شكل إمبراطورية بريطانية ؛
تبين أن الدفاع عن الحد الشمالى الغربى ، يعتبر إلى أبعد حد أثقل واجبات
الدفاع التي أُلقيت على منشىء الإمبراطورية البريطانية في الهند . فكان أن
طبقت سياسات مختلفة للدفاع عن الحدود ، لا تفى جميعها بالمرام :

السيبل الأول - اعتنق بناء الإمبراطورية البريطانية فكرة غزو وإلحاق
المدخل الإيراني الشرقى للعالم الهندى ، بأسره فوراً ، حتى الخط الذى سارت
على طولهِ الإمبراطورية المغولية إبان أوجها مع الدول الأذربيجانية التي
خلفها في حوض نهري سيحون وجيحون ، وكذلك مع الإمبراطورية
الصفوية في إيران الغربية .

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بتلك العبارة « بريطانيا » . (المترجم)

(٢) الروهيلاس : قبيلة جبلية من الباتان بأفغانستان ، غزت منطقة روهيلساند بالهند
في منتصف القرن الثامن عشر واستقرت فيها . على أن حاكم المقاطعة استعان بشركة الهند الشرقية
فأسكنه طرد القبيلة من المنطقة في عام ١٧٧٤ . (المترجم)

ولقد أعقب قيام ألكسندر بيونز من عام ١٨٣٨ باستتلاعاته الجريئة ، خطوة أشد مجازفة قوامها توجيه قوة حربية بريطانية هندية عام ١٨٣٨ إلى أفغانستان . لكن انتهت بكارثة ، هذه المحاولة الطموحة لحل مشكلة الحد الشمالى الغربى حلا « شاملا » . ويرد ذلك إلى أن بناء الإمبراطورية من البريطانيين قد بالغوا - إبان نجاحهم الأول فى غزو الهند - فى تقدير قوتهم ونحسوا تقدير عنف وفعالية المقاومة التى لا بد وأن يستثيرها عدوانهم فى خصومهم ، الذين هموا بإخضاعهم . وفى الواقع انتهت العملية عام ١٨٤١ - ٤٢ بكارثة أضخم جرما من الكارثة الإيطالية فى جبال الحبشة عام ١٨٩٦ (١) .

السنيل الثانى - لم يتعد الطموح البريطانى لغزو الهضاب غزوا دائما منذ هذا الفشل الطنان ، مرحلة البعث التجريبى . إذ غدت الجوانب المختلفة لسياسة الخنود منذ غزو البنجاب عام ١٨٤٩ ، تتجه إلى المتابعة أكثر من اتجاهها إلى الاستراتيجية . وفى الواقع فإن لدينا هنا حدا حريا من نفس النوع السياسى لحد الإمبراطورية الرومانية على نهري الرين والدانوب إبان القرون الأولى للعصر المسيحى . فإذا ما أذعنت الأقلية المسيطرة البريطانية الهندية لضغط البروليتاريا الداخلية الهندية وغادرت الهند ، فإن رؤية ما ستفعله هذه البروليتاريا الداخلية المتحررة عندما تصبح سيدة بيتها ، لمعالجة مشكلة الحد الشمالى الغربى ، سيكون أمرا طريفا (٢) .

وإذا ما ساءلنا الآن أنفسنا فيما إذا كانت البروليتاريا الخارجية التى استولدها المجتمع الغربى فى مختلف بقاع العالم خلال مراحل مختلفة من تاريخه ،

(١) يقصد الأستاذ المؤلف انكسار الجيش الإيطالى المشين فى موقعة عدوة عام ١٨٩٦ .
(الترجم)

(٢) بإنشاء دولة باكستان أصبحت الأراضى الشمالية الغربية جزءا منها . وآلت مشكلة الحدود إليها متثلة فى كشمير التى يتنازعها الطرفان ، وتحتل الهند ثلثها وباكستان الثلث الآخر .
(الترجم)

قد استثارها لإنتاج أية أعمال إبداعية في مجال الشعر والدين ؛ المحن التي اجتازتها يطرأ على أذهاننا على الفور العمل الإبداعي الساطع الذي قامت به بقاياهم في « الهدب الكلتي » وفي اسكندنافيا . أولئك الذين قادتهم هزيمتهم في صراعهم مع حضارة المسيحية الغربية الوليدة ، إلى أن تصاب بالعمى ، محاولاتهم لإقامة حضارتين خاصتين بهما . ولقد سبقت مناقشة هذه المصادمات في مناسبة أخرى في هذه الدراسة ، وعسانا نجاوزها توا لبحث البروليتاريات الخارجية المتولدة عن عالم عربي آخذ في الامتداد في العصر الحديث . وأتينا إذ نستطلع هذا المجال ، سنرضى أنفسنا بمثال متفرد عن الابتداع البربري في كل من المجالين اللذين تعلمنا البحث عنهما :

أولاً - بالنسبة لميدان الشعر - في وسعنا أن نهم بشعر « البطولة » الذي استتبته البرابرة البشتاق فيما وراء الحد الجنوبي الشرقي من مملكة هابسبرج الدانوبية ، إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا المثال طرافته . إذ يبدو لأول وهلة كما لو أنه استثناء من القاعدة القائلة بأن البروليتاريا الخارجية لحضارة متحللة ، لن يتأتى استثارها لإبداع شعر « البطولة » ، إلا إن مرت تلك الحضارة عبر مرحلة دولتها العالمية ، ثم تردى في مرحلة فراغ تتيح الفرصة لمرحلة هجرات بربرية . بيد أن مملكة هابسبرج الدانوبية التي لم تتعد في نظر لندن أو باريس أن تكون دولة من الدول الإقليمية في عالم غربي منقسم سياسياً ؛ كانت لها كافة مظاهر الدولة الغربية العالمية وصفاتها المميزة في أعين رعاياها أنفسهم ، وفي نظر أولئك الجيران الغير الغربيين . واعتبرها خصومها بمثابة « الذيل »^(١) أو الذراع لكيان المجتمع المسيحي الغربي بأسره ، الذي ظل أعضاؤه المتمتعين بحماية الذراع ، غير مقدرين أنهم رسالة ملكية هابسبرج المسكونية .

وكان البوشناق هم آخر من بقى من برابرة القارة الأوروبية الذين كان عليهم

(١) الذيل : درع السلحفاة أو غيرها . (المترجم)

فبما مضى أن يتحملوا المحنة الغير العادية - والتي كانت مؤلمة ألما غير عادى - المتعلقة بالوقوع بين نارى حضارتين معتديتين هما الغربية ، والأرثوذكسية : ولقد نبذ البوشناق إشعاع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية التى كانت أول ما تلقوه فى صورته الأرثوذكسية ؛ ولم يستطيعوا إلا أن يدسوا أنفسهم فى أسلوب العقيدة البوجوميلية^(١) الانشقاقى . واعتبر بقية الناس ذلك هرطقة جرت على البوشناق معاداة كلا الحضارتين المسيحتين ، الأمر الذى جعلهم يرجحون بالمسلمين « العثمانيين » فكان أن هجروا نزعهم البوجوميلية واستحالوا إلى مسلمين .

وهكذا قام هؤلاء اليوجوسلاف المهنتون إلى الإسلام فى ظل الحماية العثمانية ، وفى الجانب العثمانى من الحد الفاصل بين العثمانيين وهابسبرج ، بنفس الدور الذى أداه فى الجانب الهايسبرجى ، اليوجوسلاف المسيحيون اللاجئون من الأراضي التى أصبحت تحت الحكم العثمانى . ووجدت المجموعتان المتعارضتان من اليوجوسلاف مهنة واحدة فى شن الإغارات على الإمبراطورية العثمانية من جانب ، وعلى ملكية هابسبرج من جانب آخر . فكان أن نشأت على نفس الأرض الحصبة من الحد العسكرى ، مدرستان لشعر البطولة مستقل إحداهما عن الأخرى ، ويستخدم كلاهما اللغة الصربية الكرواتية . وازدهرت المدرستان جنبا إلى جنب دون أن تؤثر إحداهما فى الأخرى ، على ما يظهر لنا .

(١) البوجوميلية : نسبة إلى كلمة Bogomil وهى كلمة سلافية تعنى المحبوب من الله . وهى عقيدة اعتنقها جماعة من سكان تراقيا اليونانية ومقدونيا البغارية وأسسها راهب يدعى باسيل أحرقة المسيحيون عام ١١١٨ . ومدار العقيدة البوجومولية أن الله قد خلق المسيح والشیطان وأن الشيطان تمرد على الله وخلق الأرض والجنس الآدى . وتلقى المسيح من والدته السيدة مريم الشكل الآدى . وتؤمن العقيدة بالتيبتل وتحرم أكل اللحم وتنبذ الصور وتكر العشاء الربانى . (المترجم)

أما مثالنا عن عبقرية البروليتاريا الخارجية في الميدان الديني ، فإنه مستمد من ناحية جد مختلفة تماماً ، ألا وهي حدّ الولايات المتحدة ضد الهنود الحمر إبان القرن التاسع عشر .

فإنه من الغريب أن يعجز تماماً ، الهنود الحمر الشماليين عن إثبات أية استجابة إبداعية لتحدي العدوان الأوربي ؛ في حين أنهم لبثوا باستمرار تقريباً في ميدان المعركة منذ لحظة وصول المستوطنين الإنجليز إلى أن سحقت — بعد ذلك بمائتين وثمانين عاماً في حرب سيوكس^(١) عام ١٨٩٠ — آخر محاولة هندية للمقاومة المسلحة . وأعجب من ذلك أن لا تنسم هذه الاستجابة الهندية بطابع الوداعة^(٢) . ولعلنا كنا نتوقع أن تنشئ عصابات الهنود الحمر الحرية : إما ديناً وثنياً يتحول بالنسبة لاتحاد قبائل الأيروكوا^(٣) إلى شيء مثل الأوليمب اليوناني أو الأسجارد السكندنافي ، وإما يعتنقون العناصر المغالية في نزعها العسكرية في عقيدة كالفين^(٤) البروتستانتية التي كانت ديانة مهاجمهم .

وعلى أية حال ؛ ظهرت بين الهنود الحمر سلسلة من الأنياء ابتداء من نبي ولاية ديلاوير Delaware المجهول الاسم عام ١٧٦٢ إلى قيام وفوكا Wovoka عام ١٨٨٥ بولاية نيفادا ، مبشرين بإنجيل يختلف عما تقدم ذكره

(١) السيوكس : جنس من الهنود الحمر . وقد تثبت عدة حروب بين هذه القبيلة والأمريكيين البيض : وأمكن تلك القبيلة عام ١٨٧٦ إفناء فرقة بين الهنود البيض بأكملها كانت تحت قيادة الجنرال كاستر . وتعيش الآن في ولاية داكوتا ويبلغ تعداد أفرادها حوالي الأربعين ألفاً . (المترجم)

(٢) أي على النسق الذي جرى بالنسبة للأرقاء الشرقيين في روما قديماً ، والأرقاء الزنوج الإفريقيين في الولايات المتحدة حديثاً . (المترجم)

(٣) الأيروكوا Iroquois اسم أطلقه الفرنسيون على اتحاد تم إبان القرن السادس عشر بين خمس من القبائل الهندية القاطنة على طول مجرى نهر السان لورنس ، لمناخضة الاستعمار الأبيض . والأوليمب هو موطن الآلهة اليونانييين والأسجارد موطن آلهة اسكندنافيا في الأساطير اليونانية والاسكندنافية ، على التوالي . (المترجم)

(٤) نسبة إلى كالفين المصالحح المسيحي السويسري المنشأ . (المترجم)

اختلافاً تاماً ، فإنهم قد بشرُوا بالسلام وحثوا مريديهم على نكران استعمال كافة التحسينات الفنية المادية التي اكتسبوها من أعدائهم البيض^(١) ، ابتداء من استخدام الأسلحة النارية . وأعلنوا بأن الهنود الحمر لو اتبعوا تعاليمهم لتيسرت لهم حياة وادعة في جنة دنيوية تنضم إليهم فيها نفوس أجدادهم . كما أعلنوا أن مملكة الهنود الحمر العتيدة هذه لن يفتحها مقاتلو قبائل التوماهوك بأكثر مما يقتحمها رصاص البنادق . أما عن النتائج التي كانت تترتب عن اعتناق مثل هذه الرسالة ، فهذا ما نعجز عن قوله : إلا أنها دلت على أنها أسمى كثيراً من تفكير المحاربين البرابرة التي وجهت إليهم . وفي وسعنا أن نلمح في ومضات ضياء الوداعة هذه — على أفق مظلم مخيف — قبساً من المسيحية الطبيعية في حشا الإنسان البدائي .

ويبدو في اللحظة الحاضرة ؛ كما لو أن فرصة البقاء الوحيدة للجماعات البربرية العتيقة القليلة ، تكن في اتباعها خطط الآبوتريين Abotrites والليتوانيين ، الذين كانوا من بعد النظر — إبان فصل القرون الوسطى من تاريخ التوسع الغربي — بحيث أنهم تنبأوا بتأثير قوة الهداية الإرادية لثقافة حضارة معتدية تأثير أقوى كثيراً من أن يملكوا له دفعاً . وما يزال في بقايا البربرية العتيقة في عالمنا ، قلعتان للبربرية محاصرتان حصاراً محكماً بذل في كل منهما زعيم حربي غير متحضر ، مجهوداً حازماً لإنقاذ موقف ، لم يكن ميثوساً منه بعد . وذلك عن طريق شنه هجوماً ثقافياً دفاعياً قوياً :

الأولى — وتقع في شمال شرق إيران . ويبدو أن مشكلة حد الهند الشمالي الغربي ، قد تحل في نهاية الأمر ، لا باستخدام أى إجراء عنيف ضد السكان الغير المتحضرين القاطنين على الجانب الهندي من الحد الأفغاني ، ولكن يتم باعتناق أفغانستان نفسها الحضارة الغربية عن طواعية . وذلك لأنه إن قبض النجاح لأفغانستان في سعيها صوب الحضارة الغربية ، فإن

(١) نمة هنا مشابهة واضحة مع حركة سواداشي في الهند . (الملخص)

من ثمراته وضع العصابات الحزبية على الجانب الهندى بين نارين وجعل مركزهم ميثوسا منه فى النهاية^(١) . ولقد حل الملك أمان الله نجان (١٩١٩ - ١٩٢٩ ميلادية) لواء حركة الاتجاه الغربى فى أفغانستان مدفوعاً برغبة أصيلة عارمة ، واقتضته هذه الثورة الملكية عرشه . بيد أن إخفاق أمان الله الشخصى أقل أهمية من الحقيقة الأصلية ، وهى أن هذه الصدمة لم تثبت أنها قاضية على الحركة . ومصدفاً لذلك ، كان الاتجاه نحو الحضارة الغربية قد مضى شوطاً بعيداً فى عام ١٩٢٩ بحيث قضى على رد الفعل البربرى العنيف للثائر اللص « باجه سقا » . وواصلت عملية الاتجاه الغربى سيرها دون عائق فى ظل نظام الملك نادر وخليفته^(٢) .

الثانية - تقع فى شبه جزيرة العرب . ولقد استطاع الملك عبد العزيز آل سعود^(٣) ملك نجد والحجاز منذ عام ١٩٠١ أن يرفع نفسه من المنفى السياسى الذى ولد فيه ، إلى مقام السيادة العسكرية والسياسية على شبه الجزيرة العربية بأسرها غرب الربع الخالى وشمال مملكة اليمن . وتمكن مقارنة ابن السعود من ناحية استنارته - بالزعيم الحربى أتاولف القوطى الغربى . فلأن الملك عبد العزيز قد علم مدى صولة الأسلوب العلمى الفنى الغربى الحديث ، فأظهر إدراكاً مميزاً لتطبيقات هذا الفن . ومن قبيل المثال : الآبار الارتوازية والسيارات والطائرات التى تمكن الاستفادة منها بصفة خاصة فى السهب المركزى العربى . على أنه استبان له فوق كل شيء ، أن القانون والنظام هما الأساس الذى لا غناء عنه لطريقة الحياة الغربية .

(١) الواقع أن إنشاء دولة باكستان وانفصاء قبائل شمال غرب الهند إلى رعويتها قد جعلها تسكن إلى حكامها الوطنيين الجدد ما يدل على أن ثوراتها فى الماضى كانت بدافع من كراهيتها للمستعمر الغاصب . (المترجم)

(٢) جلالة الملك ظاهر خان . (المترجم)

(٣) كتب هذا قبل تولي جلالة الملك سعود عرش المملكة العربية السعودية .

(المترجم)

فإن حدث أن تداعت آخر قلعة للبربرية حصينة - بطريقة أو بأخرى - من الحارطة الثقافية لعالم ينزع نحو الحياة الغربية ، فهل نغبط أنفسنا على رؤية نهاية البربرية نفسها ؟

إن الإفتاء الكامل لبربرية البروليتاريا الخارجية ، لن يكفل أكثر من أن تنهتياً معتدلاً ، ما ذمنا قد أقنعنا أنفسنا (إن كانت هناك أية فضيلة لهذه الدراسة) بأن الدمار الذى أخذ فى الماضى بثلايب عدد من الحضارات لم يكن أبداً من فعل علة خارجية ، بل إنه ما برح دائماً فى طبيعة فعل الانتحار .

« إن الزيف الذى فى نفوسنا ، هو الذى يودى بنا » (١) .

فإن تيسر نحو البربرية القديمة المألوفة ، محوراً تماماً من الوجود ، عن طريق إزالة آخر بقايا الأرض الغير المملوكة لأحد الواقعة وراء الحدود المناهضة للبربرية التى قد انتقلت الآن إلى الأبعاد التى تحددها الطبيعة المادية ، على كل حد فى العالم ؛ إلا أن هذا الانتصار القذ لن يفيدنا فى شيء ، إن سلبنا البرابرة فى ساعة إبادتهم من على الحدود ، حداً يقوم علينا . ويتم ذلك بانبعاشهم فى أوساطنا .

ألستنا نجد برابرتنا يتأهبون للقتال هنا ؟

« إن الحضارة القديمة قد دمرها البرابرة المستوردون . ولكننا نرى برابرتنا » (٢) .

ألم نشاهد فى جيلنا حشداً من عصابات الحرب البربرية تنظم صفوفها فى البلد تلو الآخر تحت أسماعنا ذاتها ، وتم هذا فى قلب ما كان حتى الآن حضارة مسيحية ، لا على حدودها ؟

وإلا فاذ تسمى الروح التى تسود المقاتلين من فرق القتال الفاشية أو فرق العاصفة النازية ، إلا بأنها روح بربرية ؟

Meredith Love's Grave (1)

Inge, W. R. : The Idea of Progress : ١٣ صفحة (٢)

ألم يعلموا بأنهم يمتنون - عن طريق غير مباشر - إلى المجتمع الذي جاموا من حشاه ، وأنهم باعتبارهم أنفسهم قريباً اعتدى عليه ويحق له أن يثار لنفسه ، فإنهم قد أباحوا من الناحية الأدبية غزو « مكان لأنفسهم تحت الشمس » باستعمال القوة العارمة ؟ .

أو ليس هذا بالضبط هو الفكرة القائلة بأن سادة الحرب من البروليتاريا الخارجية ومن أمثال جنسريك^(١) وأتيللا ؛ ما انفكوا يعلنون لجندوهم بأنهم يقودونهم لنهب جزء من العالم فقد - بسبب خطئه - قدرة الدفاع عن نفسه ؟ لقد كانت القمصان السوداء - لا الجلود السوداء - هي بكل تأكيد شعارات البربرية في الحرب الإيطالية الحبشية عام ١٩٣٥/٦ ، وكان البربري ذو القميص الأسود نذير شؤم لأنه كان يرتكب متعمداً الخطيئة ضد الهداية المسيحية التي ورثها ؛ وكان يشكل تهديداً بسبب ما تحت إمرته من أسلوب في متوارث يستخدمه لارتكب معصيته . وقد ترك له الحبل على الغارب لتحويل أسلوبه الفني من خدمة الله إلى خدمة الشيطان .

بيد أنه بوصولنا إلى هذه النتيجة ، لما نقوض أصل الشيء بعد . ذلك لأننا لم نسأل أنفسنا عن المصدر الذي استقيت منه هذه النزعة البربرية الإيطالية الجديدة . لقد أعلن موسوليني أنه يفكر في إيطاليا « مثلما فكر الإنجليز الذين أقاموا الإمبراطورية البريطانية في إنجلترا ، وكما فكر المستعمرون الفرنسيون في فرنسا^(٢) . وأحرى بنا قبل أن نلفظ بازدياء هذه الصورة الكاريكاتورية الإيطالية لأعمال أسلاف الإنجليز ، أن لا يغيب عن ذهننا أن الصورة الكاريكاتورية قد تهدي إلى سواء السبيل . ففي الملامح

(٢) جنسريك Genseric (٤٢٨ - ٤٧٧) ملك الوندال . ولد حوال عام ٢٩٠ ميلادية ، وخلف أخاه جيودريك على العرش . ففزا على الفور شمال إفريقيا من أسبانيا . وفي عام ٤٥٥ غزا إيطاليا ونهب روما . ثم فتح صقلية وسردينيا وجزائر البليار . واتسمت غزواته بالسلب والإيمان في القوة والتميز . (الترجم)

(٣) حديث لموسوليني مع الناشر الفرنسي M. de Kerillis . ورد بالتاميس في أول أغسطس سنة ١٩٣٣ . (المؤلف)

الكربية البربرية الإيطالية الجديدة المارقة عن سبيل الحضارة ؛ قد تضطر إلى الاعتراف بأننا نراها في بعض النماذج الأعلى التي تعجب بها كثيرا : كليف ودريك وهو كنز .

ولكن هل يقتضى الحال متابعة سؤالات اللجوج أبعد من ذلك ؟

« لا يجدر بنا أن نذكر أنفسنا - على هدى الدليل الذى عرضت له هذه الدراسة - بأن الأقليات المسيطرة هي مصدر العدوان خلال الحرب الناشئة بين الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية ؟ »

خليق بنا أن نفطن إلى أن حوليات^(١) هذه الحرب بين « الحضارة » و « البربرية » ؛ قد احتكر تلويثها تقريرا مؤرخون ينتمون جميعا للمسكر متحضر . ومن ثم يحتمل أن لا تكون الصورة التقليدية للفرد المنتمى إلى البروليتارية الخارجية - الذى يحمل شعلته ومجزرته البربريتين إلى أراضي حضارة من الحضارات الوديمة - عرضا صادقا للحقيقة ، ولكن تعبيراً عن ازدراء الفريق « المتحضر » لجملة هدف هجوم مضاد تسبب هو نفسه في استثارته . ولعل الشكوى التي يجار بها الفرد المتحضر الفتاك ضد عدوه البربرى ، لا تعدو أن تكون أكثر من مجرد الفكرة التي يسجلها هذان البيتان :

« هذا الحيوان شرير »

« فإنه إذا ما هوجم بدافع عن نفسه »^(٢) .

(١) الحوليات : مدونات تكتب سنويا . (المترجم)

(٢) Théodore P. K : La Ménagetic

(٦) مصادر الإلهام الأجنبية والوطنية

١ - آفاق متسعة :

افترضنا في مستهل هذه الدراسة^(١) ، أن مجموعات الجماعات المنتسبة إلى بعضها بعضاً والتي دعيناها بمجتمعات - والتي ألقيناها بمجتمعات من جنس معين وتعرف بالحضارات - تدلل على كونها « ميادين للدراسة قابلة للفهم » .

وبكلمات أخرى : افترضنا أن سير حضارة من الحضارات يقرر مصيره بنفسه ، بحيث تمكن دراسته وفهمه في ذاته وبذاته دون حاجة إلى تفاوت حركة القوى الاجتماعية الأجنبية تفاوتاً متصلاً . وقد انبعث هذا القرض بفضل دراستنا بدايات الحضارات واستطالاتها ؛ ولم يحدث حتى الآن موجب لدحضه بتأثير دراستنا لانهايار الحضارات وتحللها .

ويرد ذلك ؛ إلى أن المجتمع المتحلل يحتمل انقسامه إلى فُضُل^(٢) يميل كل منها أن يصبح شظية من الجذع القديم . بل أن البروليتاريا الخارجية تستمد من عناصر كائنة في ميدان إشعاع الحضارة المتحللة . على أن استعراضنا للعُضَل المختلفة للمجتمعات إبان انحلالها ، ما برح في أحيان كثيرة ، يتطلب منا في نفس الوقت ، أن تأخذ العوامل الأجنبية في اعتبارنا مثلما نفعل بالنسبة للعوامل الوطنية . ولا يقتصر هذا على البروليتاريات الخارجية فحسب ، بل يشمل البروليتاريات الداخلية كذلك .

وحقاً ؛ أصبح من الواضح ، أنه بينما يتأتى تقبيل تعريف مجتمع بأنه « ميدان الدراسة القابل للفهم » من غير تحديد في أغلب الأحوال - ما دام المجتمع

(١) بعدما استعجننا من مثال التاريخ الإنجليزي أن تاريخ أية دولة قومية ، غير قابل للفهم بذاته وبمئى عن أفعال بقية نوعه . (المؤلف)

(٢) فُضُل : جمع فضلة . (المترجم)

ما يزال في مرحلة استطلاته - يصدق هذا التعريف من غير إجراء تحفظات ، على شريطة اقترابنا من مرحلة الانحلال . وعلى الرغم من صدق الفكرة التي تغزو أنهار الحضارات إلى فقدان ملكة تقرير المصير داخليا ، ولا ترد إلى ضربات خارجية ؛ لا يصدق القول بأن عملية الانحلال التي تمر بها الحضارة الماهرة في طريقها صوب التفكك ، هي بالمثل قابلة للفهم ؛ مع افتراض إغفال العوامل ومناحي النشاط الخارجية .

فلقد دلل « ميدان الدراسة القابل للفهم » أثناء دراسة حياة حضارة إبان مرحلة انحلالها ، أنه أوسع مدى - بشكل واضح - من الفضاء المحيط بمجتمع فرد تحت الملاحظة . وهذا يعني أن جوهر الجسم الاجتماعي لا يتجه فحسب أثناء عملية التحلل إلى الانقسام إلى مركبات ثلاثة . بل إنه ينحو كذلك إلى التمتع بحريته في الاندماج في مركبات جديدة قوامها عناصر مستخلصة من أجسام أجنبية .

وهكذا ؛ يتبين أن الأرض التي اتخذنا عليها وقفتنا في مسهل هذه الدراسة والتي ظلت صامدة وقتاً ما ، أصبحت تمهد من تحت أقدامنا . فلقد تخيّرنا الحضارات في بداية الأمر موضوعات دراستنا ، لمجرد أنها لاحت لأفكارنا « ميادين قابلة للفهم » أعدت نفسها لغرض دراستها منزلة . وإننا لنجد أنفسنا الآن بالفعل متحركين من هذه النقطة صوب نقطة تباينها ، سيتطلب الأمر دراستها وقتاً نبحت اتصال الحضارات بعضها ببعض الآخر .

وفي غضون ذلك ؛ سيكون من المناسب - عند هذه النقطة - أن نميز ونفان بين التأثيرات النسبية لمصادر الإلهام الأجنبية والوطنية في مناخ نشاط مختلف العقل التي ينقسم إليها جسم المجتمع الاجتماعي أثناء تحله . وسنجد أن الفتنة والتدمير قد ينبجان عن الإلهام الأجنبي الكامن في أفعال أقلية مسيطرة وأعمال بروليتاريا . في حين أن يُنتج الإلهام

الأجنبي في أعمال البروليتاريا الداخلية آثاراً مخالفة تماماً ؛ فوامها
الانسجام والإبداع ..

٢- الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية :

تبين لنا أن الدول العالمية تقوم فيها عادة أقليات مسيطرة ؛ تمت بأصلها
الى المجتمع الذى تمارس فيه سلطانها التحكى . وقد يكون بناء الإمبراطورية
هؤلاء رجال حدود من طرف العالم الخارجى ، أضفوا عليه نعمة السلام
بفرضهم وحدة سياسية جامعة . على أن أصلهم هذا لا يعتبر حجة على
وتعود صبغة دخيلة في متحاهم الثقافى .

على أننا قد لاحظنا كذلك حالات بلغ فيها الانهيار المعنوى للأقلية
المسيطرة ، سرعة عظيمة إلى درجة لم تنب معهما بقية من فضائل
الأقلية المسيطرة التى ما تزال يحملها بناء الإمبراطورية . ولا يسمح
عادة - فى مثل هذه الحالات ، أن تظل مهمة تهية الدول العالمية غير
منجزة . إذ ينهض أجنبى من بناء الإمبراطورية لسد الثلمة ، فينجز للمجتمع
المعتل ، العمل الذى كان أحرى بالأيدى الوطنية إنجازة .

وتقبل الشعوب ، جميع الدول العالمية - سواء ما كان منها أجنبياً أو
وطنياً - بالحمد والتسليم ، إن لم يكن بالحماسة . إذ يعتبر قيامها خطوة
تقدمية على أية حال ، إزاء عصر الاضطرابات الذى يسبقها . بيد أنه
بمرور الزمن ، يأتى « ملك جديد ، لا يعلم شيئاً عن يوسف »^(١) . وبعبارة
أوضح ، يرتد الى الماضى المنسى ؛ ذكرى أهوال عصر الاضطرابات ،
ويحكم على الحاضر الذى تحيط فيه الدولة العالمية بالكيان الاجتماعى ، باعتباره
شيئاً فى ذاته ؛ بصرف النظر عن كونه حقيقة تاريخية . وتباين فى هذه
المرحلة مصائر الدول العالمية الوطنية والأجنبية .

(١) يشير المؤلف هنا إلى عبارة وردت فى العهد القديم تذكر أنه بعد وفاة الفرعون
الذى اتخذ يوسف وزيراً ، جاء ملك تنكر لبنى اسرائيل فأساء معاملتهم . (المترجم)

فأولاً : تسعى الدولة العالمية الوطنية - أياً ما تكون حقيقة أفضالها - إلى أن يرضى عنها رعاياها بدرجة أعظم فأعظم ، وتنشد أكثر فأكثر اعتبارهم إياها إطار حياتهم الاجتماعى الوحيد .

ثانياً : تشتد كراهية للدولة العالمية الأجنبية - من الناحية الأخرى - أكثر فأكثر ، كراهية مبعثها استفحال شعورهم بالغىظ من طابعها الأجنبى . وهم فى ذلك ، يغمضون أعينهم بإحكام - يزايد يوماً عن آخر - عن خدماتها النافعة التى أنجزتها والتى ما تزال تنجزها لهم .

ويطالعنا أول ما يطالعنا مثالا لهذا الزوج المتباين من الدول العالمية ؛ الإمبراطورية الرومانية . فلما أتاح للعالم الهلنى دولة عالمية وطنية ، والإمبراطورية البريطانية التى زوّدت الحضارة الهندية بدولتها العالمية الثانية^(١)

وإنه ليتيسر جمع الكثير من الشواهد الدالة على الحب والتوقير الذى كان يكتّبه إلى ذلك النظام رعايا الإمبراطورية الرومانية المتحدثون ، حتى بعد أن توقف عن إنجاز رسالته بدرجة معتدلة من الكفاية ، وأصبح يكابد انحلالاً ظاهراً . ولعل أبرز مظاهر هذا الولاء ، ما جاء فى فقرة شعر سداسى تحت عنوان De Consultu Stilichonis كتبها باللاتينية عام ٤٠٠ ميلادية كلودين الإسكندرى :

كانت تشامخ مباهية ، أكثر مما علمه الفاتحون الآخرون
ضمت أسراها إلى أحضانها فى رفق
فهى كأم - لا كعشيقة - جعلت المستعبد ولدها
وتادت جميع الأمم الأخرى لتنضم تحت جناحها
إلى أمومتها يتجه الغنى والفقير .

(١) باعتبار الإمبراطورية المغولية هى الدولة العالمية الأولى للحضارة الهندية .

(المترجم)

ومن اليسر أن نتبين من على أنه الإمبراطورية البريطانية ، قد تكون بالنسبة لكثير من النواحي أكثر انجاساً نحو الغير ، ولعل نظامها كذلك أعظم فائدة من الإمبراطورية الرومانية ، لكن الغرور على شاعر مثل كلودين في أية مدينة هندستانية ، أمر من الصعوبة بمكان .

وسنلاحظ نفس المد المرتفع للشعور المعادي الذي نجمه تجاه الإمبراطورية البريطانية في الهند ، إن تطلعنا إلى تاريخ الدول العالمية الأجنبية الأخرى .

في غضون الوقت الذي استكملت خلاله الدولة العالمية السورية الأجنبية التي فرضها قورش على المجتمع البابلي ، بلغت كراهيتها إبان القرن الثاني لوجودها ، حداً كان الكهنة البابليون عام ٣٣١ ق. م ، على استعداد بسبه للترحيب ترحيباً دافقاً بفاتح أجنبي بمائل ، هو الإسكندر المقدوني . كما قد يستعد بعض الرطنيين المتطرفين في الهند في الوقت الحاضر للترحيب بأحد أمثال «كليف» بفد إليهم من اليابان^(١) .

والمثل يقال عن عالم المسيحية الأرثوذكسية . فإن اليونانيين المنضمين إلى مجموعة الأمم العثمانية على الشواطئ الآسيوية من بحر مرمرة ، قد رحبوا إبان الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادي بالإمبراطورية العثمانية . إلا أن هذه الإمبراطورية قد باتت عام ١٨٢١ موضع كراهية الوطنيين اليونانيين . فإن انقضاء خمسة قرون ، قد أحدثت بين اليونانيين تغيراً في الشعور ، بمائل تماماً نحو الغاليين من خشية الرومانيين ، على نسق خشية

(١) يشير المؤلف إلى أن جانيان الهند قد رحبوا بالبريطانيين بقيادة كليف لتخلص من الحكم المنغول وقد رحب جزء من الهند في البنغال باليابانيين الذين غزو بورما وأوشكوا على دخول الهند . ولقد كتبت هذه العبارة قبل استقلال الهند . (الترجم)

فيرسينجيتوريكس Vercingetorix^(١) إلى بذل الحب لهم على طراز أبوليناريس Apollinaris^(٢).

ويطالعنا مثال بارز آجر عن الكراهية التي يثيرها بناء إمبراطوريات تمتد إلى ثقافة دخيلة ؛ في حقل الصينيين على الغزاة المنغوليين الذين أتوا لعالم الشرق الأقصى المأخوذ ، دولة عالمية كان هو في ميسس الحاجة إليها . ولعل هذه البغضاء تخالف مخالفة غريبة ، التسامح الذي تقبل به بعد ذلك - نفس المجتمع - سلطان المانشو ، طوال فترة قرنين ونصف قرن . ويمكن التفسير في حقيقة مدارها أن المانشوكيين سكان غابات عالم الشرق الأقصى ، لم تدنسهم أية ثقافة دخيلة ، في حين لطفت من حدة البربرية المنغولية - وإن بلغ ذلك مبلغاً ضئيلاً - صبغة من الثقافة السورية ، استقيت من الرواد المسيحيين النساطرة . كما لطفت من حدتها كذلك ، الاستعداد المغولي المقسم بسعة الأفق ، للإفادة من خدمات وتجارب الرجال أيا ما يكون منتهم . وهذا هو التفسير الحقيقي لكراهية الصينيين للنظام المنغولي ، وفقاً لما أورده ماركو بولو بجلاء عند ذكره اضطراب الصلات التي كانت تقوم بين الرعايا الصينيين ومرترقة الجنود المسيحيين الأرثوذكس ، ورجال الخاقان المنغولي من الإداريين المسلمين .

ولعل اصطباغ الهكسوس بثقافة سومرية ، هو الذي جعل رعاياهم المصريين لا يطبقونهم ؛ في حين قبلوا المداخلة اللاحقة التالية للبرابرة الليبيين ، دون أن يجدوا في ذلك أية غضاضة^(٣) .

(١) فيرسينجيتوريكس : زعيم قبيلة غالية . قاد ثورة ضد الرومان . إلا أن قيصر تمكن من القبض عليه . وفي عام ٤٥ ق . م حكم عليه بالموت وسبق في موكب قيصر المنتصر .

(الترجم)

(٢) أبوليناريس : مؤلف ومطران مسيحي عاش إبان القرن الخامس . (الترجم)

(٣) وذلك لشعور المصريين بأخوة الليبيين بفعل تأثرهم بالحضارة المصرية القديمة واشتراكهم معهم في الجنس . والمثل يقال عن النوبيين . وقد أسسا كلا الفريقين أسراً فرعونية . (الترجم)

وفي وسعنا في الواقع ، أن نقدم على صياغة شيء مماثل قانوناً اجتماعياً عاماً ، مداره :

« إن الفزاة البرابرة الذين يقبلون أحراراً من شائبة أية ثقافة دخيلة ، في وسعهم كفالة مصائرهم . ويختلف الأمر بالنسبة لهؤلاء الذين اصطِفوا خلال مرحلة هجراتهم بصبغة أجنبية أو بيزعة ضالة ، فهؤلاء يجب أن يحيدوا عن طريقهم ليطهروا أنفسهم من هذه الصبغة أو تلك النزعة ، حتى يقبض لهم اجتناب المصير الآخر ، أى الطرد أو الإيابة » .

فلذا ما استعرضنا أولاً حالة البرابرة الأقحاح ؛ نجد أن كلا من الآريين والحِيثيين والآخيين ، قد ابتكروا (بانثيون)^(١) بضم آهتهم ، إيمان قفرة لإقامتهم القصيرة على عتبة الحضارة . وإنا لنجد من واصل هذه العبادة البربرية — بعد اندفاعهم واستكمال غزواتهم — قد نجح كذلك في تشييد حضارة جديدة على الرغم من هذا الجهل المطبق^(٢) . ونطالعنا في هذا السبيل الحضارات البندية والحِيثية والهيلينية .

وبالمثل فإن الفرنجي والإنجليزى والأسكندنافى والمجرى الذى تحول من الوثنية الوطنية إلى المسيحية الكاثوليكية الغربية ؛ قد شغل لنفسه الفرصة لتأدية أدوار كاملة — بل إنها رئيسية — في تشييد دعائم المسيحية الغربية . ومن الناحية الأخرى ، طرد الهكسوس عباد ست^(٣) من الدنيا المصرية ، كما طرد المغول من الصين .

وثمة استثناء من قاعدتنا يمثلته العرب المسلمون الأوائل . إذ كان العرب^(٤) جماعة من العشائر يمتون إلى البروليتاريا الخارجية للمجتمع الهلنى ،

(١) البانثيون هو مجمع الآلهة عند قدماء اليونانيين . (المترجم)

(٢) كان ست في العقيدة المصرية القديمة إله الشر ، عكس أخيه أوزيريس إله الخير والخصب والنماء . وتذكر الأساطير المصرية أن ست دبر مؤامرة للقضاء على أوزيريس نجحت بالفعل ، إلا أن حوريس بن أوزيريس من أخته وزوجته إيزيس التى حملت منه بالروح ، قد تمكن من الانتقام من عمه المنتصب . (المترجم)

(٣) قبل إسلامهم . (المترجم)

أنجزوا مرتبة سامية من النجاح إبان مرحلة هجراتهم التي صاحبت تحلل ذلك المجتمع . وتم هذا النجاح رغمًا عن حقيقة قوامها أن العرب قد تشبثوا بمنحاهم الديني السوري الأصل ، عوضًا عن اعتناقهم المذهب المسيحي المينوبسي^(١) الذي كان يعتنقه رعاياهم في الأقاليم التي انتزعوها من الإمبراطورية الرومانية . بيد أن الدور التاريخي للعرب المسلمين الأوائل ، يعتبر دورًا استثنائيًا تمامًا . فإن الدولة المستخلقة التي أقامها العرب على الأرض السورية أثناء غزوهم العرضي للإمبراطورية الساسانية وقبلما كانوا يشنون هجومهم الظافر على الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، هذه الدولة تحولت تلقائيًا إلى إستعادة للدولة العالمية السورية التي تحطمت قبل الأوان - قبل الغزو البربري بألف سنة - عندما تغلب الإسكندر على الإمبراطورية الأخمينية . وكان أن ترتب على قيام المسلمين العرب - عرضًا في الغالب - بتأدية هذه الرسالة الجديدة الواسعة النطاق^(٢) ، برسالة فتحت آفاقًا جديدة للإسلام نفسه .

وبالأحرى ؛ يعتبر تاريخ الإسلام حالة خاصة ، لن تنسخ نتائج بحثنا العامة . فإن ثمة ما يبرر - بصفة عامة - النتيجة التي انتهينا إليها ومبناها : « إن مصدر الإلهام الأجنبي بالنسبة للبروليتاريات الخارجية والأقليات المسيطرة على السواء ، يعتبر عائقًا . وذلك لصيرورتها عندهم مرتبة خصبًا لاختلاف الرأي والإفساد ، خلال تصرفهم مع الجزئين الآخرين اللذين انشأ إليهما المجتمع المتحلل » .

٣ - البروليتاريات الداخلية

خلافا لما صادفناه خاصًا بالأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية ؛ سنجد أن مصدر الوحى الأجنبي لا يعتبر نقمة على البروليتاريات الداخلية . بل أنه نعمة تُضفى على الذين يتلقونها ، قوة تسمو - كما هو ظاهر -

(٢) أى القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٣) أى استعادة الدولة العالمية السورية . (المترجم)

على قوة البشر ، تتمثل في أخذهم أسرهم أسرى وفي بلوغهم الغاية التي من أجلها ولدوا .

ويتضح صدق هذه النظرية بأجلى معانيها من دراسة تلك « الأديان السامية » والنظم الدينية العالمية التي تعتبر السمة الأساسية لأعمال البروليتاريا الداخلية . ولقد أظهر استعراضنا هذه الأعمال ، توقف تأثيرها الأدبي على توافر قبس في أرواحهم من الحيوية الأجنبية المصدر . ويتبين هذا التأثير وفقاً لقوة تأثير هذا القبس . فإن عبادة أوزيريس التي كانت دين البروليتاريا الداخلية السامي يمكن بالاختبار تتبعها إلى أصل أجنبي (١) يرجع إلى عبادة تموز السومرية . كذلك ، يمكن بكل تأكيد إرجاع « الأديان السامية » المتعددة والمتنازعة للبروليتاريا الداخلية الهلينية إلى أصول أجنبية متعددة . فإن الأصل الأجنبي في عبادة البروليتاريا الهلينية لإيزيس هو مصري ، وفي عبادة سبيل Cybele حثي ، وفي عبادة المسيحية والنيووية سوري ، وفي البوذية المهايانية سندي . ولقد أقام الأديان السامية الأربع الأولى على التوالي : مصريون ، وحيثيون ، وسوريون ، من الذين انتظموا في صفوف البروليتاريا الداخلية الهلينية عن طريق فتوحات الإسكندر . وأقام الديانة الخامسة ، أناس من السند انتظموا كذلك إبان القرن الثاني قبل الميلاد في صفوف تلك البروليتاريا بفعل فتوحات الأمراء اليونانيين الباكستانيين في العالم السندي .

وإنه وإن اختلفت تلك الشعوب اختلافا عميقا بالنسبة لطبيعتها الروحية

(١) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف . فإن عبادة أوزيريس قد استمدتها المصريون من النيل الذي له صفة مميزة خاصة به دون أنهار العالم كلها تقريبا ، قوامها فيضانه السنوي بما يجلبه من خصب وتماء ، تتلوه فترة التحريق . فآمن المصريون القدماء بأن النيل يموت ثم يحيا ثم يموت وأن حياته تقتصر بالضرورة وموته يصحبه الإحمال . وربطوا ذلك بحياة البذرة التي تزدهر ثم تنتهي لتتخلف عنها بذرة جديدة . وقادهم هذا إلى المقارنة بين ذلك وحياة الإنسان . وأدى ذلك كله إلى كشف التخطيط ومعرفة الثواب والعقاب واليوم الآخر . يراجع كتاب فجر الضمير تأليف جيمس برستد . (المترجم)

الداخلية، فإنه يجمعها على الأقل هذا المظهر السطحي الخاص بإنشائها إلى أصل أجنبي. ولن يزعم النتيجة التي خلصنا إليها، إيمان الفكر في طائفة من الحالات التي يسعى فيها دين أسمى إلى غزو مجتمع دون أن يلقى نجاحا.

مثال ذلك: المحاولة العقيمة لطائفة الشيعة الإسلامية لأن تصبح النظام الديني العالمي للمسيحية الأرثوذكسية في ظل النظام العثماني (١).

وبالمثل المحاولة العقيمة للمسيحية الكاثوليكية لتصبح النظام الديني العالمي لمجتمع الشرق الأقصى؛ في الصين إبان القرن الأخير من فترة حكم أسرة مينج، وإبان القرن الأول من حكم أسرة المانشو؛ وفي اليابان لحظة انتقالها من عصر الاضطرابات إلى شوجونية توكوجارا.

ويرد فشل المذهب الشيعي في الإمبراطورية العثمانية، وإخفاق الكاثوليكية في اليابان؛ إلى سلب فتوحاتها الروحية العقيمة بفعل استغلالها - أو على الأقل الشك في استغلالها - لصالح أهداف سياسية غير مشروعة. ويرد إخفاق الكاثوليكية في الصين، إلى رفض البابوية السماح لبعثات الجزويت التبشيرية المضى في عملها المتصل بالسعي للمواءمة بين قواعد الكاثوليكية وفلسفة الشرق الأقصى وطقوسه.

ولقد نخلص مما تقدم إلى القول بأن القبس الأجنبي يعتبر نجدة وليس عائقاً أمام دين بلغ مرحلة النمو، لكسب المهتدين إليه. وليس السبب مما يبعد الاهتداء إليه.

إذ تنشأ البروليتاريا الداخلية التي تحولت عن المجتمع المنهار الذي أخذت تنشق عليه، إلهاماً جديداً؛ هو ما تتيحه الشعلة الأجنبية. وهذه الجيدة،

(١) هذا رأى مشكوك فيه كثيراً. ولعل الأستاذ المؤلف قد انشاق إليه بسبب الحرب التي نشبت بين السلطان سايه الأول والشاه اسماعيل الصفوي شاه إيران. فالواقع أن الدولة العثمانية هي التي اعتدت على أملاك الشاه بدافع من كراهية السلطان سليم للمذهب الشيعي. (المرجع)

تُضفى على الإلهام صفة الجاذبية. ولكى يصبح الإلهام محبا إلى النفوس ، يجب أن تكون الحقيقة الجديدة قابلة للفهم . وإلى أن يتم هذا العمل التوضيحي ، يحال بين الحقيقة الجديدة وتأدية رسالتها المرتبة .

ومصادقا لذلك ؛ لم يكن ليقبض النصر للمسيحية ، لو لم يجهد آباء الكنيسة أنفسهم من القديس بولص ومن تلاه - إبان القرون الأربعة أو الخمسة الأولى من العهد المسيحي - في ترجمة العقيدة المسيحية إلى مصطلحات الفلسفة الهلينية ، وفي تشييد الدرجات الكهنوتية وفقا لمراتب الموظفين في الإدارة الرومانية ؛ وفي صياغة الطقوس المسيحية طبقا للطقوس السرية^(١) . بل عمدت الكنيسة المسيحية إلى قلب الاحتفالات الوثنية إلى أعياد مسيحية ، وإحلال عقائد الأبطال الوثنيين إلى عقائد القديسين المسيحيين ، ولقد كان صدوف الفاتيكان عن الموافقة على مقترحات مماثلة لبعثات اليسوعيين التبشيرية مما عوق نمو برُعمة المسيحية . وبالأحرى لو كان خصوم القديس بولس من المسيحيين ذوى الأصل اليهودي ؛ قد قبض لهم الفوز في المؤتمرات والمعارك التي جاء ذكرها في « أعمال الرسل » وفي رسائل بولس الأولى ، لترتب عن ذلك صد الرسالة المسيحية - بدرجة قاتلة - إلى أرض الأممين^(٢) .

وسيفهم استعراضنا للأديان « العليا » التي يتبين أنها تستعد لإلهاما من مصدر وطني : اليهودية ، والزرادشتية ، والإسلام . وهي أديان ثلاثة وجد مجالها في العالم السورى واستقت إلهامها من نفس المجال ؛ كما سيشمل الهندوكية وهي ديانة سندية من ناحيتي مصدر إلهامها ومجال عملياتها .

ويجب أن تعتبر الهندوكية والإسلام استثناءين من « القانون » الذى وضعناه . لكن الاختبار معطى مع ذلك ، أن اليهودية والزرادشتية هما

(١) أى الطقوس السرية التى كانت بسفة خاصة أساس عقيدتي أورفوس عند اليونانيين القدماء وأوزيريس وإيزيس المصرية القديمة . (المترجم)

(٢) أى عامة الناس . (المترجم)

تفسيران له . ذلك لأن الشعوب السورية التي نشأت اليهودية والزرادشتية بين ظهرانيها بين القرنين الثامن والسادس قبل المسيح ، كانت شعباً محطمة أرغمتها الجيوش الآشورية للأقلية المسيطرة البابلية على الانتظام في صفوف البروليتاريا الداخلية للمجتمع البابلي . فإلى هذا العدوان البابلي ، ترد استشارة الاستجابتين الدينتين - اليهودية والبابلية - في النفوس السورية التي تعرضت للمحنة . ومن ثم أجدر بنا تبويب اليهودية والزرادشتية . وفقاً لهذا الإيضاح كعقيدتين دينيتين أدخلهما إلى البروليتاريا الداخلية للمجتمع البابلي ، الأفراد السوريون الذين انتظموا في صفوف هذا المجتمع . أما اليهودية فإنها اتخذت شكلها المعروف بالفعل على « أنها زبابل » ، مثلما اتخذت المسيحية صورتها المألوفة أثناء الاجتماعات التي كان يؤمها بولس في العالم الهليني .

ولو فرض أن طال أمد انحلال الحضارة البابلية مثلما حدث للحضارة الهلينية ، واجتازت جميع المراحل نفسها ، لتبدت اليهودية والزرادشتية في المنظور التاريخي - إبان نشوئهما واستطالهما - كحدثين في قصة بابلية ، مثلما تبدت بالفعل المسيحية والميثرية Mithraism كحدثين في التاريخ الهليني . بيد أن هذا المنظور قد نبذ جانباً بفعل حقيقة منازرها أن التاريخ البابلي قد انقضى قبل الأوان . فلقد فشلت المحاولة الحليدونية لإيجاد دولة عالمية بابلية .

ولم يقتصر نجاح السوريين المنتظمين في صفوف بروليتاريتها الداخلية على طرح أصفادهم بل إنهم بدّلوا موقفهم من سادتهم البابليين ، فأسروهم جسداً وروحاً . فكان أن تحول الإيرانيون إلى الثقافة السورية ونبذوا الثقافة البابلية . قانين على ذلك قيام الدولة الأخيمينية التي أسسها قورش ، بدور الدولة العالمية السورية .

وفي نطاق هذه الوقائع ، اتخذت اليهودية والزرادشتية مظهرهما الحاضر عقيدتين دينيتين سورييتين تستمدان إلهامهما من مصدر وطني . وفي وسعنا

الآن أن نتبين أن العقيدتين ترجعان بأصلهما إلى البروليتاريا الداخلية البالية التي استمدت إلهامها السورى من مصدر أجنبى .

نخلص مما تقدم إلى القول بأنه إذا استمد « الدين السامى » إلهامه من مصدر أجنبى ، (وهذا ما تبين لنا أنه القاعدة ، عدا بالنسبة لاستثنائين فذّين) فلن يتيسر بداهة فهم طبيعة الدين ، من غير أن يؤخذ فى الاعتبار اتصال حضارتين على الأقل .

الأولى - الحضارة التي ينبعث الدين الجديد فى بروليتاريتها الداخلية .

الثانية - الحضارة (أو الحضارات) التي يستمد منها الدين الجديد إلهامه (أو إلهاماته) الأجنبى المصدر .

وتتطلب هذه الحقيقة منا ، أن نتخذ مبدأ آخر لبحثنا . لأنها تقتضى أن نتنحى عن الأساس الذى شيدت عليه هذه الدراسة حتى الآن . فما انفك قوام البحث ، مصطلحات الحضارت . مما دعانا إلى افتراض أن أية حضارة بمفردها ، ستتيح « ميدانا للدراسة » على الطابع ، باعتبار الحضارة « كلاً اجتماعياً » قابلاً للفهم بمنأى عما قد تهيئه الظواهر الاجتماعية لأنفسها خارج نطاق الحدود المكانية والزمانية لهذا المجتمع المعين . يبد أننا وجدنا الآن أنفسنا مترددين فى نفس الشرك الذى أوقعنا فيه مطمئنين راضين غاية الرضا - فى صفحاتنا الأولى - أولئك المؤرخون الذين آمنوا بقدرتهم على أن يجعلوا شيئاً مفهوماً من تاريخ قومى منعزل .

وهذا يدعونا منذ الآن فصاعداً ، أن نعبّر الحدود التي ألفينا أنفسنا ، حتى الآن قادرين على العمل فى نطاقها .

الفصل التاسع عشر

الانشقاق فى النفس

(١) طرائق بديلة فى السلوك والشعور والحياة

يعتبر الانشقاق فى الجسم الاجتماعى الذى كنا ندرسه حتى الآن ، تجربة اجتماعية جماعية ؛ فهى - من ثم - سطحية الطابع . وينبنى على حدوث انشقاق فى نفوس الكائنات البشرية تدعيم أى انشقاق يتبدى على سطح المجتمع . والمجتمع هو المجال المألوف لميادين النشاط المتصلة بالبشر . وأخرى أن تثير انتباهنا ، الأشكال المختلفة التى قد يتخذها هذا الانقسام الداخلى :

ويتبدى الانقسام فى نفوس أعضاء المجتمع المتحلل فى أوضاع متنوعة ، لكونه ينبعث فى كل طريقة من الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة ؛ وهى التى ألفتها سمة مميزة لفعل الكائنات البشرية التى تؤدى دورها إبان بدايات الحضارات واستطالاتها .

ويتأتى لكل أسلوب من أساليب الفعل هذه ، أن ينشق إلى زوج من التحويلات أو التبديلات التى تجمع بين ثقل الظل وغلظ الطبع التى تستقطب فيها الاستجابة لتحد ما ، إلى سبيلين تعاقبيين : الأول سلبى والآخر إيجابى ؛ لكن تنتفى عن كليهما ملكة الإبداع . وليس أمام النفس التى فقدت إنجاز العمل المبدع (وإن لم تفقد طبعاً القدرة على إتيانه) ، إلا حرية المفاضلة بين السلبية والإيجابية فى أدائها دورها فى مأساة الانحلال الاجتماعى . وكلما تستكمل عملية الانحلال دورتها ، كلما تميل مجالات المفاضلة لأن تصبح فى أبعادها ، أقسى تزمناً ؛ وفى تشعبها ، أكثر تطرفاً ؛ وفى نتائجها ، أشد خطورة .

وبالأحرى ؛ تعتبر تجربة التحلل الروحي للنفس : حركة دينامية وليست حالة استاتية^(١)

ففى البداية ؛ ثمة طريقتان للسلوك الشخصى تعتبران بديلين اختياريين لممارسة ملكة الإبداع ، وكلاهما محاولتان للتعبير الذاتى :

الأولى : « محاولة ملكية الطابع وقوامها » إلقاء الخيل على الغارب » . وفيها « تطلق النفس لذاتها العنان » موقنة بأنها « ستعيش وفقا للطبيعة » ؛ بإطلاق العنان لشهواتها وأحقادها الذاتية ، وأنها ستلقى - من الربة الخفية - منحة الإبداع الثمينة التى ما برحت تدرك فقدانها لها .

الثانية : مدارها أن الاختيار الإيجابى عبارة عن مجهود يبدل لضبط النفس . وفيه تسيطر النفس على ذاتيتها ، وتنشد « تنظيم شهواتها » . وهذا عكس الاعتقاد بأن الطبيعة هى آفة الإبداع وليست مضرده . وأن « اجتلاء الطبيعة » هو السبيل الوحيد لتلقى ملكة الإبداع الضائعة .

ثم إن ثمة طريقتين للسلوك الاجتماعى ويعتبران بديلين اختياريين لتلك المحاكاة للشخصيات المبدعة التى أدركنا أنها السبيل القصير الضرورى - وإن كان مخفوفاً بالمخاطر - فى طريق الارتقاء الاجتماعى . وما هذان البديلان للمحاكاة ، إلا محاولتين للانفلات من بين صفوف الفيلق الذى أخفق « تدريبه الاجتماعى » فى أداء واجبه .

وتأخذ محاولة التخلص من هذا المأزق العصيب صورة التراخى . إذ يتحقق الجندى فزعاً ؛ أن الكتيبة قد بددت النظام الذى ما انفك حتى الساعة ، يسند روحه المعنوية . وهذا يثبت فيه الاعتقاد بأنه حل من الواجب العسكرى . وفى ظل هذه الصورة العقلية غير الواضحة ، يتخلف

(١) الدينامية : أى ذات المظهر المتحرك المنفع ، والاستاتية أى حالة السكون والركود . وقد آثرنا الاشتقاق من اللفظ الأصل لوفائه بالمعنى . (المترجم)

المتراسخى عن الصفوف محاولاً في يأس إنقاذ حياته ذاتها ، بفرقه يرفاقه في المأزق .

ومع ذلك ؛ فإن ثمة وسيلة بديلة لمواجهة نفس المحنة ، يمكن تسميتها بالاستشهاد : والشهيد في جوهره ، جندي يبرز من بين الصفوف يدافع من إقدامه الذاتي — متجهاً ضوياً الأمام لينصرف إلى أبعد من إنجاز مقتضيات الواجب : فإن الواجب في ظل الظروف العادية ، لا يتطلب من الجندي أن يعرض حياته فحسب إلى أقل مدى ضرورى للتنفيذ أو امره قائده الأعلى . وبالحري ، ينفذ الشهيد الموت تحقيقاً لهدف مثالي .

فإذا ما انتقلنا من سطح السلوك إلى الشعور ؛ قد يلفت نظرنا — للوهلة الأولى — سيلان للشعور الشخصى يعتبران ردى الفعل المتعاقين لإلغاء حركة « الوثبة » تلك . ويبدو أن طبيعة الارتقاء قد أفسدت في تلك الحركة عن نفسها . ويعكس كلا الشعورين إحساساً مؤلماً بالركون إلى « الفراغ » من قوى الشر ، وهى قوى تلزم خطوة الهجوم ، وتقيم عليه سلطانها . السبيل الأول : يتمثل في اعتبار التعبير السلبي بالهزيمة المستمرة والمتابعة ؛ شعوراً بالاندفاع مع التيار . إذا تخضع النفس المهزومة بفعل إدراكها فشلها في السيطرة على بيتها . وتصل بها الحال إلى الاعتقاد بأن الكون — بما فيه النفس ذاتها — يقع تحت رحمة قوة خارقة بقدر ما هى مهيمنة لا تنال . هى الربة الكنود ذات الوجه المزدوج التى تسترضى تحت اسم « المصادفة » ، أو تدوم تحت اسم « الضرورة » تمثل بزواج من الشخصيات الإلهية منحهما توماس هاردى تجسيداً فى ترانيمه « الأمراء » .

السبيل الآخر : يتمثل في احتمال الإحساس بالهزيمة الذى يدمر النفس المهزومة ، كإحفاق في تفوق النفس على ذاتها والسيطرة عليها . عندئذ يقوم لدينا شعور بالخطيئة عوضاً عن الشعور بالاندفاع مع التيار :

وعلىنا كذلك : أن نلاحظ سبيلين من الإحساس الاجتماعى . يعتبران

بديلين متعاقبين للشعور بالأسلوب الإنشائي . وهو شعور يعتبر الصورة الباطنية للعملية الموضوعية لتفارق الحضارات عن طريق ارتقاءها . ويتم كلا الإحساسين ، عن عجز هذه الحساسية ذاتها عن التشكيل ، وإن كانا قطبين منعزلين ، بالنسبة لطريقة استجابة كل منهما لهذا التحدي .

فأولاً - الاستجابة السلبية ؛ عبارة عن إحساس بالتشوش ، تسمح فيه النفس لذاتها بالذوبان . ويتبدى هذا الإحساس بالتشوش في الوسط اللغوي والأدبي والفني في صورة خلط ، وبالمثل في صورة أسلوب متمزج ومركب للأدب والتصوير والنحت والعمارة . وينتج هذا الإحساس المركبات الدينية ، في مجال الفلسفة والدين

وثانياً - الاستجابة الإيجابية ؛ وتتخذ هيئة عجز في أسلوب الحياة الذي ما انفك يعتبر - بوصفه سانحة - شيئاً موضعياً وفانياً . كما يعتبر نداء لاغتناق أسلوب آخر يشترك مع ما يعتبر عاماً وأبدياً^(١) . وهذه الاستجابة الإيجابية هي بمثابة تنبيه إلى الإحساس بالوحدة ؛ وهو إحساس يتسع ويتعمق كلما امتد مجال الرويا من وحدة البشرية عن طريق وحدة الكون الأكبر بالكون الأصغر^(٢) . وحدة تتضمن أخيراً وحدة الله .

ثالثاً - وسواء مرة أخرى إذا ما انتقلنا إلى مجال الحياة - زوجين من ردود الفعل المتعاقبة . بيد أن الصورة تتباعد في هذا المجال عن النمط السابق في نواح ثلاث :

الأولى - يتمثل مجال الاختيار - اللذان خلا هنا محل الحركة المفردة التي هي سمة الارتقاء - في تغيرات تطراً على تلك الحركة ، أكثر من تمثلهما في بديلين لهما .

الثاني - يعتبر كل من زوجي مجال الاختيار ؛ تغيرات تطراً على نفس

(١) quod ubique, Iquod Semper, Iquod ab omnibus

(٢) الكون الأصغر هو الإنسان . (المترجم)

الحركة المفردة : وهى حركة وصفناها بأنها انتقال من ميدان الفعل : من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر .

الثالث - يتميز الزوجان أحدهما عن الآخر باختلاف عميق ، يبلغ فى عمقه درجة تغزى إليها ظاهرة التثنية .

ونجد طابع ردود الفعل عنيفاً فى أحد الزوجين ، ونجده رقيقاً لطيفاً فى الزوج الآخر ، وهالك البيان .

فأولاً - قد يوصف رد الفعل السلبي فى الزوج العنيف بـ « السلفية »^(١) ويوصف رد الفعل الإيجابي بـ « المستقبلية »^(٢).

وما السلفية والمستقبلية ، إلا محاولتين تعاقبيتين للاستعاضة عن الانتقال المجرد فى البعد الزمنى ، بانتقال ميدان الفعل من مجال روحانى إلى آخر ، هو الحركة المميزة للانتقال . ويصدف فى كليهما عن بذل الجهد للعيش فى نطاق الكون الأصغر ، ويستعاض عنه السعى للعيش فى الكون الأعظم . وذلك رجاء تحقيق مجتمع خيالى ، يتأتى الوصول إليه بافراض وجوده فى الحياة الواقعية - من غير حدوث أى تحد يواجهه التغير العسير فى المجال الروحى . يراد من هذا المجتمع الخيالى أن يقوم بواجب « العالم الآخر » ، لكنه عالم آخر فعسب فى المعنى السطحي وغير المقنع ، بحسبانه صورة سلبية للكون الأكبر فى حالة وجوده الحالية ، هنا وهناك . وترنو النفس إلى إنجاز ما يطلب منها عن طريق تحريكها من حالة الانحلال الحالية للمجتمع ، إلى هدف مناهضة المجتمع نفسه ليس إلا : كما قد كان فى الماضى ، وكما قد يتطور إليه فى المستقبل

(١) السلفية : اصطلاح يعبر عن النزعة نحو القديم والحنين إلى استعادته والرجاء فيه لحل مشكلات الحاضر . (المترجم)

(٢) المستقبلية : اصطلاح يعنى الرجاء فى المستقبل للتخلص من متاعب الحاضر وآلامه . (المترجم)

وقد تعرف السلفية في الواقع بأنها :

أولاً - ارتداد من محاكاة الشخصيات المبدعنة المعاصرة ، إلى محاكاة أسلاف القليلة ، وبعبارة أخرى ، تعد السلفية سقوطاً من الحركة الدينامية للحضارة ، إلى الحالة الإستاتية التي يشاهد عليها الإنسان البدائي في الوقت الحاضر .

ثانياً - محاولة من المحاولات ، تبذل عند حدوث توقف اضطراري لحركة التغير ، وينتج عن المحاولة ردائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى نجاحها .

ثالثاً - نموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ « تثبيت » مجتمع منهار ومتحلل . وهذا التثبيت هو - كما رأينا - الغاية المألوفة لواضعي « نظم المدن الفاضلة » : وفي وسعنا - باستخدام مصطلحات مطابقة - أن نعرف المستقبلية بأنها تكران المحاكاة على أي إنسان . وأن نعرفها كذلك بأنها أحد تلك المحاولات التي تقود بالضرورة عند تمامها - وإلى مدى نجاحها - إلى ثورات اجتماعية تنهى إلى تقويض خططها بفعل انقلابها من فعل إلى رد فعل .

وإلى هؤلاء الذين يضعون ثقتهم في أي من هذين الإصطلاحين المعروف بهما بدليلين عن نقل مجال الفعل من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر (الإنسان) ، نقول إن ثمة في انتظارنا مسيراً مشتركاً ساخراً .

فإن هؤلاء المهزمين في مجتهم عن اختياراتهم « السهلة » التعاقبية ، إنما يحكمون على أنفسهم بالنهاية العنيفة التي يقدر أن تدهمهم ، وذلك لأنهم يرعون شيئاً يجافي نظام الطبيعة . فإنه رغماً عن صعوبة استطلاع الحياة الباطنة ، فإنه ليس بالشيء المستحيل . لكنه يستحيل على النفس - ما دامت تعيش في الحياة الخارجية - أن تتشغل نفسها من وضعها الحالي في « التيار المتصل الدوران » عن طريق قيامها بوثبة خافقة ، إما إلى الخلف فوق التيار صوب الماضي ، وإما تحت التيار صوب المستقبل : وما

المدن الفاضلة سواء منها السلفية النزعة أو المستقبلية الطابع ، إلا نظما خيالية بكل ما يحمله هذا الوصف من معنى ، فإنها نظم « ليست في مكان ما » .
ولن يتأتى إدراك هاتين الحالتين الغيبتين الخداعتين على وجه التحقيق .
ويتمثل التأثير الوحيد والمؤكد للانطلاق صوب أحدهما ، في إحداث بليلة عنيفة لن تبيشر بأى علاج للحالة .
وتعتبر المستقبلية عن نفسها في ذروتها المفجعة بكلمة « الشيطانية » :

« إن جوهر الشيطانية أن « النظام العالى » إثم وخداع ، وأن الطيبة والصدق صفتان يثمردتان مضطهدتان . . . لقد آمن بهذه العقيدة كثير من القديسين والشهداء المسيحيين وبخاصة مؤلف سفر الرؤيا . . . على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا القول بجأى على طول الخط تعاليم كافة فلاسفة الأخلاق تقريبا . فإن أفلاطون وأرسطو والرواقين والقديس أغسطين والقديس توماس الاكويينى وكانت Kant وجيمس استيوارت ميل وكومت وجرين ، كلهم دلوأ أو افترضوا وجود شيء على وجه ما « كون » أو « نظام إلهى » ، مداره أن ما هو حسن ينسجم مع هذا النظام وأن ما هو سيئ عىجافيه . إننى أشير إلى أن أحد المدارس الغنوسطية^(١) - كنيسة الآب فى هيوليتوس - قد

(١) الغنوسطية Onosticism مدرسة فكرية واسعة النطاق وجدت قبل المسيحية ، وكانت نوعا من الفلسفة حاول تفسير الوثنية واليهودية بالقول بأن العقائد يمتنقها جمهرة الناس ولكن العارفين وحدهم (الأدريون) هم الذين يفهمونها ويدركون حقيقتها . ولما ظهرت المسيحية هاجمها أتباع هذه المدرسة . ثم نشأ فرع منها مسيحى يسمى إلى تفسير المسيحية على أساس أن العارفين هم وحدهم الذين تلقوا الوحي عن السيد المسيح شخصيا . وتقرر هذه المدرسة بأنه يفصل الإله الأعظم عن البشر طبقات عدة من الأرواح والكائنات ذات الصفة الإلهية ، وأنه بالمعرفة يستطيع الإنسان اجتياز الهوة التى تحول بينه وبين الاتحاد بالرب الأعظم . ومناط هدف هذه المدرسة ، الخلاص عن طريق المعرفة الدينية لا عن طريق موت المخلص كما تؤمن المسيحية ، وتعتبر القرايين من الماء والنار والطعام جزءا هاما فى العقيدة الأدرية . والفلسفة الأدرية خليط من العقائد الشرقية والمدارس الفلسفية اليونانية . (المترجم)

حدّدت تعريف الشيطان بأنه « الروح التي تعمل ضد قوى الكون ، أى :
المتنرد أو المعترض الذى يقاوم إرادة الجميع ويسعى إلى إحباط الجماعة
التي هو عضو فيها »^(١).

وتعتبر هذه النتيجة المحتومة لروح الثورة ، عبارة شائعة مسلّم بها عند
كافة الرجال والنساء الذين ليسوا ثوريين أنفسهم . ولا يصعب علينا أن نضع
أصبعنا على تفسيرات تاريخية لسير عمل هذا القانون الروحي .

ففي المجتمع السوري مثلاً : عندما عبروا عن المستقبلية بظهور المسيح^(٢) .
كان ذلك في بداية الأمر محاولة إيجابية لسلوك سبيل الوداعة . فإن الإسرائيليين
عوضوا عن مثابرتهم على المحاولة المدمرة للمحافظة على استقلاله السياسى هنا
والآن ، ضد هجمات العسكرية الآشورية ؛ قد كسر من حدة نزعة العنف
لديه تجاه طاغية سياسى قائم بالفعل ، معزياً نفسه على إتيانه فعل الإذلال
المؤلم هذا ، بقيامه بتحويل جميع ركازة السياسى إلى الرجاء فى ظهور ملك
مخلص يستعيد المملكة الوطنية المنهارة ، عند تاريخ آت غير معلوم .

فإذا ما تتبعنا تاريخ « الأمل فى المسيح المنتظر » فى الجماعة اليهودية ؛
ألغينا أنه ظل قائماً على أساس نزعة الوداعة طوال فترة تزيد على الأربعائة
سنة ؛ أى من عام ٥٨٦ ق . م ، وقتما حمل نبوخذ نصر اليهود إلى الأسر
البابلى ؛ حتى عام ١٦٨ ق . م ، وقتما خضعوا لاضطهاد أنطيوخس ابيفانى
الهلينى ؛ غير أن حل التنافرين فكرتى : مستقبل دنيوى مؤكّد الوقوع ،
وحاضر دنيوى مؤلم ألاماً مبرحاً . هذا التنافر قد اقتضى فى نهاية المطاف ، استخدام
العنف تحقيقاً للغاية المرجّحة . ومصادقاً لذلك نشبت ثورة اليهود المكابيين المسلحة

Murray, Oilbert "Satanism and the world order In Essays and (١)

صفحة ٢٠٣ address

(٢) أى المسيح المنتظر . ويعنى المؤلف هنا ، فكرة ظهور شخصية فى المستقبل تقم
العدالة بين البشر . وتوادلها فى الإسلام فكرة المهديّة (أى ظهور المهدي المنتظر) . (المترجم)

بعد انقضاء سنتين على استشهاد عازر والإخوة السبعة . ولقد افتتح المكابيون هذا الخط الطويل من ثورات اليهود المتعصبين الحربية ، أولئك ممن لا يمكن حصرهم من أمثال ثيوداسيس ويهوذا من الجليل ، الذين بلغ عنفهم ذروته المفزعة في ثورات اليهود البشعة إبان الفترات : ٦٦ - ٧٠ ميلادية و ١١٥ - ١٧ ميلادية و ١٣٢ - ٥ ميلادية .

وليست النعمة التي تجل بزعة المستقلية - وفقاً لما يوضحها هذا المثال اليهودي التقليدي - بالشئ الغير المألوف . بيد أنه يطالعنا أمر أشد من ذلك غرابية ، إذ نجد نفس النعمة تحل بزعة السلطة - في نهاية سبيلها المضاد لها - بشكل ظاهر . ذلك لأنه بصرف النظر عن كونها شيئاً شائعاً ، فإن القول بأن صخب العنف هو بالمثل النتيجة الحتمية لهذه الحركة المنحطة ؛ أمر ظاهر التناقض . ورغماً عن ذلك ، تظهر وقائع التاريخ اتفاقها مع هذا القول .

فلقد كان الملك أجيس الرابع الإسبرطي والبريون تيباريوس جراكشوس الروماني ، أول سياسيين سلكا طريق السلطة في التاريخ السياسي لانهلال المجتمع الهليني . وامتاز كلاهما برقة الطبع والوداعة ؛ وأخذوا على عاتقهما تقويم الظلم الاجتماعي تجنباً لكارثة تحل بالمجتمع . على أن يتم ذلك بالعودة إلى ما آمننا بأنه دساتير دولهم إبان « العصر الذهبي » نصف الأسطوري الذي ساد قبل أن يلم الانهيار بالمجتمع . وبالتالي ، رنت سياستهما إلى استعادة عنصر التوافق في المجتمع . ولما كانت سياستهما ذات النزعة السلفية هي في صميمها محاولة لقلب خط سير الحياة الاجتماعية ، فقد أودت بهما سياستهما إلى التزام طريق العنف . ولم يجد منحاهما الروحي الوديعة - الذي دفع بهما إلى إثارة تضحية حياتهما عوضاً عن اتخاذ موقف متطرف في مناهضة العنف الذي نشأ كرد فعل لسياسة العنف المفتعلة - لم يجده في صد جلايمد العنف التي دفعتها إلى الحركة عن غير قصد . فكان أن انحصرت توضيحتهما الذاتية

في إلهام خليفة من خلفائهما ، على احتضان عملهما والسعي إلى تنفيذه
بإنجاح عن طريق استخدام العنف الجائر ؛ عنف ظهر فيه الشهيد بمظهر
الخائر فاطر الهمة .

ومضداً لذلك ؛ تلا الملك كليونيس المتصف بالعنف ، الملك آجيس
الرابع المتصف بالركة ؛ وتبع التريون تيريوس جراكشوس المتصف
بالركة ، أخوه جايوس المتصف بالعنف . ولقد أطلق الحاكمان المعتقان لزعة
القدمية ، العنان لقيضان العنف الذي لم يهدأ حتى اكتسح أمامه اكتساحاً
تاماً ، نظام الجماعات التي رامت النجاة منه .

لكن إن تابعا الآن تفسيراتنا الهلينية والسورية حتى الفصول القادمة
للتواريخ التي تنسب إليها ، سنجد أن صخب العنف — الذي تطلق له
نزعة السلفية العنان في حالة ، ونزعة المستقبلية في حالة أخرى — قد لطف
من حدثه في النهاية استعادة روح الوداعة ذاتها في سرعة مذهلة ؛ تلك الروح
التي كانت موجة العنف الطاغية قد قهرتها وغمرتها .

ويطالعنا تأييداً لقولنا ، تاريخ الأقلية المسيطرة الهلينية : فلقد تلت
القرنين الأخيرين قبل الميلاد — كما لاحظنا — سلالة من الموظفين العامين
دوى الضمير والمقدرة على تنظيم الدولة العالمية والحفاظ عليها . وتحول
خلفاء المصلحين أصحاب نزعة العنف البطاشة ؛ إلى مدرسة من الفلاسفة
الأرستقراطيين أمثال : آريا Arria وكايسينا بايتوس Caecina Paetus
وتراسيا بايتوس Thrasea Paetus وسنيكا Senea وهلفيدوس بريسكوس
Helvidius Priscus الذين لم يرضوا عن ممارسة سيطرتهم المتوارثة حتى
في سبيل الصالح العام ، والذين اعتنقوا نزعة إنكار الذات ، إلى درجة
إقدامهم على الانتحار طائعين تحت إمرة إمبراطور طاغية .

والمثل يقال عن الجناح السوري من الأقلية الداخلية للعالم الهليني . فلقد

تلاخية المحاولة المكثّبة لتشديد المملكة المسيانية^(١) في هذه الدنيا باستخدام القوة ، انتصار ملك اليهود لم تكن مملكته في هذه الدنيا^(٢) . بينما يحدث في الجيل التالي - على نطاق إلهام روحي أضيق - أن تحقق عند حلول لحظة فنانهم ، أمل اليهود المتعصبين في بطولة تنسم بالوحشية . وتم ذلك بفضل بطولة الحاخام ثاثان بن زكّاي : بطولة قوامها الامتناع عن المقاومة . فإنه قد فصل نفسه عن المتعصبين اليهود ، على أمل أن يواصل بث تعاليمه بعيداً عن مرمى سمع المعركة . فلما أن أنبأه مريده نبأ الكارثة بقوله في حدة والتياح : « الويل لنا ، فإن المكان قد تهدّم حيث كان الناس يستعطفون لغفران خطايا إسرائيل » أجاب المعلم : « لا تدع يا ولدي ذلك يحزنك ، فإنه ما يزال لدينا استعطاف يساويه ؛ أفليس هو منح المعروف ؟ » .

فكيف حدث في كلا الحالين ، صدّ تيار نزعة العنف الذي بدأ جارفاً من طريقه كل عائق ، فانقلب إلى نقيضه ؟ .

تُعزى معجزة الانعكاس في كلتا الحالتين إلى تغير في طرائق الحياة . ومناط هذا التغير ، حلول فكرة « الانعزال » في نفوس الجانب الروماني من الأقلية المسيطرة محل فكر « السلفية » : وحلول فكرة « التجلي » في نفوس الجزء اليهودي من البروليتاريا الداخلية الهلينية محل فكرة « المستقبلية » .

ولربما نستطيع إدراك مزايا هذين السبيلين للحياة الزديعة ، بنفس الصورة التي تشاهد بها بدايتهما التاريخية ؛ إن ناقشنا كلا منهما بصفة خاصة عن طريق دراسة شخصية وسيرة رجل ملهم مشهور مثل : كاتو الأصغر ذو النزعة السلفية الذي أصبح فيلسوفاً رواقياً ، وسيمون بارجوناس اليهودي

(١) أي المملكة التي يؤمل بها اليهود استعادة عصرهم الذهبي إبان ملكي داود وسليمان عليهما السلام . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

ذو النزعة المستقبلية الذي أصبح فيما بعد بطرس حواري يسوع المسيح .
 وإننا لنجد في كلا هذين الرجلين العظيمين خطأ من العمى الروحي الذي
 حجب عظمتهما ، يتمثل في سوء توجيه مناحي نشاطهما . ذلك لأنهما كانا
 يجدان في تحقيق نُظم تنعم نسيباً بالخيال ، اعتزما أن يكرسا لتحقيقها
 جهودهما وأخيراً أمكن لنفسيهما التي ضلّت طويلاً وارتبكت ، أن تحقق
 أسى إمكانياتها بفضل تحويلها إلى سبيل للحياة جديد .

١ - كاتو :

كاد أن يصبح كاتو موضع التندر ، بسبب كفاحه الشبيه بكفاح دون
 كوشوته (١) لتحقيق مجتمع روماني خيالي تصوري لم يسبق له وجود في
 « الحياة الواقعية » بأية حال من الأحوال .

إذ رفض كاتو أن يتقبل سياسات جيله كما وجدها . ودأب على تعقب
 الظل بينما قصر عن بلوغ الجوهر . وعندما انزلق أخيراً لتأدية دور
 رئيسي في حرب أهلية ، يقع عليه عبء قسط كبير غير منكور من
 مسئولية اندلاعها ، قدّر لغشاوته السياسية أن تتبدد . ذلك لأن نفسية
 كاتو ذي النزعة المثالية السلفية ، ما كانت لترضى عن النظام الذي ينبعث
 إلى الوجود لو قدّر لشركائه الفوز ، وأنها لتبغضه بغضها ديكتاتورية قيصر
 التي فازت في نهاية المطاف . ولما جابه السياسي الخيالي الاتجاه ، هذه
 المشكلة ، انطلق من نطاق البلادة ليتطور إلى فيلسوف رواقى . وهكذا
 مات معتقاً الفلسفة الرواقية ؛ الرجل الذي عاش معتقاً فكرة السلفية دون
 جدوى . وكان تأثيره رواقياً بعد موته ، من القوة بحيث أنه سبب طوال

(١) دون كوشوته شخصية ابتكرها الروائي الإسباني سرفانتس . وقد خرج دون كيروت
 متقلداً أسلحة القرون الوسطى متطلياً صهوة جواده المزيل مصطحباً تابعه سانكو بانزا ، لدرء
 المظالم عن البشر والقضاء على الظالمين وتحقيق العدالة . فكان أن قاتل الطواحين ظاناً أنها مرده
 وأتى الكثير من ضروب البطولة المضحكة . (المترجم)

أكثر من قرن لقيصر وخلفائه من بعده ، من المتاعب ، أكثر مما أحدثته لهم بقية الحزب الجمهورى مجتمعين .

وأثرت قصة ساعات كاتو الأخيرة فى معاصريه ، تأثيراً يمكن لأى قارئ استعادته الآن بقراءة رواية بلوتارخ . وهذا ما أدركته عبقرية قيصر بالغريزة . إذ تبينت له خطورة الضربة التى أصابت قضيته بفعل وفاة رواقى عدو له ، لم يجد قيصر ضرورة للاهتمام به إبان حياته سياسياً . وليس أدل على هذا الاهتمام ، من أن الديكتاتور العسكرى المنتصر - وهو فى زجة مهام عمله الجسيم لإعادة بناء العالم وبينما كان يطأ بقدميه المتأمرين فى الحرب الأهلية - قد وجد وقتاً للرد على سيف كاتو باستخدام قلم قيصر . إذ استبان بوضوح لعبقريته المتعددة الجوانب ، أن القلم هو السلاح الوحيد الذى فى مكنته أن يدفع هجوماً تحول من المجال الحربى إلى المجال الفلسفى ، بفعل ما قام به كاتو عوضاً من توجيه حسامه ضد صدره هو بالذات . على أن قيصر قد عجز عن قهر الخصم الذى وجه هذه الضربة القاصمة ، لأن موت كاتو قد استولد مدرسة من الفلاسفة معارضى القيصرية ، جعلت أفرادها من كاتو (مؤسسها) مثلاً يلهمهم . حجب التأييد عن الطغيان الجديد ، عن طريق إزاحة أنفسهم - بآيديهم هم - بعيداً عن موقف لا يرضونه ولا يستطيعون إصلاحه .

ويتبين كذلك بوضوح ، التحول من فكرة السلفية إلى فكرة « الانعزال » فى قصة ماركوس بروتوس كما رواها بلوتارخ ، وأعاد روايتها شكسبير . كان بروتوس متزوجاً بابنة كاتو كما كان كذلك طرفاً فى مصرع قيصر . ويعتبر مصرع قيصر ، فعل بارز عظيم من الأفعال العنيفة لنزعة السلفية . بيد أن ثمة ما يجعلنا ندرك بأن بروتوس كان يشك حتى قبل ارتكاب القتل ، فيما إذا كان يسير على سبيل الحق . وبعد ما شاهد نتائج فعله ، اشتدت ريبته ، ثم تقبل بعد معركة فيلبى ، حلاً على الأسلوب ، نادى به كاتو وهو ما لفظه من قبل . وعندما أقدم على الانتحار طفق يقول (بكلمات شكسبير) :

قيصر ، الآن لتسكن

إني لم أقتلك بنصف هذه الإرادة^(١) ،

٢ — القديس بطرس :

تبدت نزعة بطرس المستقبلية شيئاً عصبياً عن الإصلاح ، مثلما تبدت نزعة كاتو السلفية .

كان بطرس أول الحوارين الذين آمنوا بيسي مسيحاً ، كما كان أشد المعترضين على وحى معلمه^(٢) . اللاحق المعترف به والقاتل بأن مملكته المسيانية لن تكون صورة يهودية لإمبراطورية قورش العالمية الإيرانية . لكنه ما إن تلقى بركة خاصة جزاء له على إيمانه المتدفع ، حتى سارع إلى توقيع زجر ساحق على نفسه بسبب إصراره الكليل العلواني على وجوب تصور مملكة معلمه الخاصة ، متطابقة مع فكرة الحوارى الثابتة .

« تعال ورائي أيها الشيطان فإنك معصية نحوي ، لأنك لا تتذوق الأشياء التي هي من الله ، ولكن تلك التي مصدرها الإنسان » .

ولم يكن للدرس الذي ألقاه المعلم على بطرس — عن طريق إظهار عذله له أمام ناظره على تلك الصورة المروعة^(٣) — سوى تأثير ضئيل ، حتى إنه لقد أخفق في الاختبار التالي مرة أخرى . ذلك لأنه عندما اختير ليكون أحد ثلاثة يشهدون تجلي السيد المسيح ، دارت في خلده على الفور رؤيا موسى والياس واقفين إلى جانب معلمه كآبة على بداية الزحف الظافر^(٤) . ونم عن خطل رأيه الخامل تجاه ما عتته الرؤيا ، من اقتراحه إقامة نواة معسكر

(١) يبدى هذا القول تكفيره عن ذنبه بقتله قيصر . فإن تصميمه على الانتحار أقوى

كثيراً من تصميمه على قتل قيصر . (المترجم)

(٢) أي السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٣) أي الصلب . (المترجم)

(٤) Befreiungs krieg

(ثلاث خيم أو أخبية) من النوع الذى دأب على إقامته فى القلاية أمثال
ثيوديسيوس ويهوذا^(١) من الجليل ، إبان فترة العفو القصيرة الأمد ، قبل
أن تتلقى السلطات الرومانية أنباء تمردهم ، فتبادر بإنفاذ قوات سريعة
الحركة لإخماد عصيانهم :

وإزاء هذه النعمة الخشنة ، اضمحلت الرويا فى رجوع صدى التحذير
بتقبل ونحي المسيح نفسه ، المتصل برسالته كمسيح .

على أن هذا الدرس الثانى لم يكن كافياً كذلك لفتح عيني بطرس .
بل إنه حتى إبان ذروة رسالة معلمه - وقتما تحقق بوضوح كافة ما تنبأ به
المعلم - امتشق بطرس ، ذو النزعة المستقبلية العاتية ، الحسام ليقاقل فى
« حديقة جات شيمن »^(٢) ولعل « خلفه لوعده معلمه » بعد ذلك فى نفس
الليلة ، نتيجة بلبله فكر فرد خسر فى النهاية ، إيمانه ذا النزعة المستقبلية ،
دون أن يستحوز على بديل له :

بيد أنه بعد انقضاء تجربة حياته الحيدة هذه - وقتما علمه الصلب
والقيامة^(٣) والصعود فى نهاية الأمر ، أن مملكة المسيح ليست فى هذا العالم -
كان بطرس ما يزال قانعاً بالاعتقاد بأنه حتى فى مملكة التجلى هذه ، يجب
أن تقتصر ميزة الخلاص على اليهود ، على غرار ما هو مأثور عن المسيانية
الخيالية ذات الاتجاه المستقبلى^(٤) . وهذا يعنى أن مجتمعاً يولى ملكاً عليه الرب

(١) أى أولئك المؤمنون بسياسة العنف . (المترجم)

(٢) جات شيمن : كلمة آرامية تعنى معصرة الزيت . وهى اسم لمكان يبعد عن القدس
بنحو ثلاثة أرباع الميل على مشارف جبل الزيتون . وكانت به حديقة يجتمع فيها السيد المسيح
وحواريوه وكانت مسرحاً للألم ليلة صلب السيد المسيح . (المترجم)

(٣) أى قيامة السيد المسيح . (المترجم)

(٤) وهى عقيدة اليهود الفائلة بأن المسيح سيظهر فحسب لإعادة مجدهم وحدهم دون بقية
البشر . (المترجم)

في السماء ؛ يقيم على أرض الله حدوداً يستبعد فيها جميع مخلوقات الله وأبنائه ،
عدداً كثيرة واجدة منهم .

ولإننا لنشاهد بطرس في أحد المشاهد الأخيرة التي يبدو فيها « في أعمال
الرسل » محتج - في صورة مميزة - ضد الأمر الواضح الذي صلب رؤيا
الإناء النازل عليه من السماء . لكن بطرس لم يخل مكاناً لبولص باعتباره بطل
القصة ، إلا بعد ما سجلت الحكاية إدراكه في النهاية لحقيقة استوعبها بولص
الفريسي في طرفه عين : بين تضاعيف تجربة روحية فياضة . ولقد استكمل
شعبي بطرس الطويل للاستنارة وقمًا تلت الرؤيا على السطح ، وصولاً رسل
كورنيليوس إلى البوابة (١) .

وإن بطرس باعتباره بعقيدته في دار كورنيليوس ودفاعه هناك عن موقفه
آمام الجماعة اليهودية المسيحية عند وصولها أورشليم ؛ قد بشر بمملكة
الرب في كلمات لن يزره المسيح عليها .

فأما سبيلا الحياة اللذان أنتجا هذه الآثار الروحية الرحبية وقمًا سلكهما
على التوالي : كانوا عوضاً عن نزع السلفية ، وبطرس عوضاً عن نزع
المستقبلية ؟

فلنبداً بملاحظة الاختلافات المشتركة بين اتجاهي الانعزال والتجلى في
جانب ، ونزعتي السلفية والمستقبلية في الجانب الآخر . ثم نمضي قديماً في
بحث الاختلافات بين اتجاهي الانعزال والتجلى :

(٤) يذكر العهد الجديد في أعمال الرسل أن بطرس اشتفى أن يأكل ، ثم أصابته غيبوبة
فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلاً عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف مدلاة على الأرض
وكانت فيها كل دواب الأرض وطيور السماء . وصاح صوت فيه يأمره بذبح ما يشاء وأكله ،
لكنه لم يصدق ، فارتفع الإناء إلى السماء . ولم يصدق بطرس الرؤيا إلا بعد مجيء الرجال للذين
أرسلهم كورنيليوس ، وهو قائد روماني ، يذكر العهد الجديد أنه آمن برسالة السيد المسيح ،
وبعني المؤلف هنا أن بطرس لم يكن يدرك المعاني الروحية الثمينة مثل بولص . (المترجم)

يختلف اتجاهها الانعزال والتجلى كلاهما عن نزعتي المستقبلية والسلفية كليهما ؛ من ناحية إحداثهما تغييراً أصيلاً في الحياة الروحية على أساس الزمن . وليس الأمر مجرد تحول شكل التجلى الخاص بميدان الفعل ، من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر ؛ ذلك التحول الذى ألفيناه قاعدة ارتقاء الحضارة . فإن مملكة الرب التى هى هدف كل من كاتو وبطرس ، وتعتبر فى الحالتين « أملاً فى عالم آخر » . بمعنى أنها ليست « ماضياً تخيلياً »^(١) ، أو دولة مقبلة سيصبح لها على الأرض وجود^(٢) . على أن هذا « الأمل فى عالم آخر » هو موضع مشابهتهما الوحيدة ، فإنهما يتعارضان فى كافة المناحي الأخرى .

ولقد أطلقت مختلف مدارس الفلاسفة أسماء متنوعة على سبيل الحياة الذى دعونه « الانفصال » . فنجد الرواقين فى عالم هلبى متحسلاً يستريحون إلى كلمة « عدم التأثير » ، ويؤثر الأبيقوريون كلمة « الوقاء »^(٣) . وركن فلاسفة البوذية من العالم السندى المتحلل إلى كلمة « الاطمئنان » (أى النيرفانا) . والنيرفانا سبيل يقود النفس بعيداً عن هذا العالم ، ويهدف إلى الوصول إلى « ملتجأ » . وإذا كان هذا « الملتجأ » يبتذ « هذا العالم » ، فإن هذا يجعله محبباً إلى النفس . فإن ما يحمل المسافر الفيلسوف فى سيره ، يتمثل فى دفعة الكراهية وليست جذبة الرغبة . وإنه لينفض عن قدميه تراب « مدينة الدمار » ، لكن لا يلوح لناظريه مرأى الضياء التالى هناك .

« يقول المغرور بالحياة : إيه يامدينة سيكرويس المحبوبة » وأنت لاتقول « إيه يامدينة زيوس المحبوبة ؟ »^(٤) . بيد أن مدينة زيوس التى نادى بها

(١) بالنسبة لكاتو . (المترجم)

(٢) بالنسبة لبطرس . (المترجم)

(٣) وفقاً لما يصوره هوراس الشاعر الأبيقورى الواعى بعض الشيء عندما ينبئنا بأن

« شذرات عالم محط قد أسابقتى ، ولست منزعجاً . (المؤلف)

(٤) الكتاب الرابع ، الفصل ٢٣ Marcus Aurelius Antoninus

ماركوس ، ليست هي نفس مدينة الله التي نادى بها القديس أغسطين والتي هي مدينة الله الحي . فإن رحلة ذلك الفيلسوف المسافر تعتبر انسحاباً وفقاً لحظة موضوعه ، أكثر منها حجة تلهمه العقيدة . إذ يعتبر هروب الفيلسوف هروباً ناجحاً من « هذا العالم » ، نهاية في حد ذاته . وبالفعل فإنه لا يهتم ما الذي يفعله الفيلسوف في نفسه وقتما يعبر ذات مرة مدخل مدينة الالتجاء . ولقد صور الفلاسفة الهلينيون حالة مرحلة التجزؤ بأنها غبطة التأمل . ويصرح البودا في صراحة^(١) أنه طالما أن كل احتمال للرجع قد استبعد نهائياً ، تصبح طبيعة الحالة البديلة التي وفدت إليها النفس لتستقر ، لا طائل تحتها .

وتعتبر هذه الترفانا غير المعروفة والخامدة ، أو « مدينة زيوس » - التي هي هدف الانعزال ، بديلاً بالذات لمملكة السماء التي أدمجت عن طريق تجربة التجلي الدينية . في حين أن « العالم الآخر » للفيلسوف - في جوهره - عالم على الأرض خاص بنا ، وأن « العالم الآخر » الإلهي ، ليسمو على حياة الإنسان الأرضية من غير أن يبطل شموله إياها .

ولما سأله القديسون متى يأتي ملكوت الله ، أجابهم وقال : « لا يأتي ملكوت الله بمراقبة ولا يقول هو ذا ههنا أو هو ذا هناك لأن هنا ملكوت الله داخلكم »^(٢)

وسرى أن مملكة الرب إيجابية في طبيعتها مثلما أن « مدينة زيوس » سلبية . وبينما أن طريق الانعزال هو مجرد حركة انسحاب ، فإن طريق التجلي هو حركة ما سبق أن قبضت لنا قرصة تسميته بـ « الانعزال والعودة » :

• • •

(١) كان مذهبه يتعكس انعكاساً صادقاً في أسفار الهينايانا المقدسة . (المؤلف)

(٢) إنجيل لوقا لإصحاح ١٧ آية ٢٠ - ١ . (الترجم)

وبعد ، فإننا قد عرضنا الآن باختصار لسته أزواج من الطرق المتعاقبة للسلوك والشعور والحياة التي تُقدّم نفسها إلى نفوس الناس الذين ألقى بهم القدر في المجتمعات المتحللة . وعسانا - قبل أن نتابع دراستها زوجا بعد آخر في تفصيل أكثر - أن نتوقف ههنا لنعين مكاننا بالضبط بملاحظة الروابط بين تاريخ النفس وتاريخ المجتمع .

وإذا سلمنا بأن كل تجربة روحية هي تجربة فرد ، فهل يا ترى سنجد من بين الخبرات التي سنفحصها ، خبرات لا تحدث إلا للأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع متحلل ؟

سيبين لنا أن جميع الطرق الشخصية للسلوك والشعور وهي :

إلقاء الحبل على الغارب السلبي ، وضبط النفس الإيجابي ، والشعور السلبي بالسير على غير هدى ، والشعور الإيجابي بالخطيئة .

ويتأتى تمييزها جميعاً في أعضاء الأقلية المسيطرة وفي البروليتاريا ، كليهما . وسيصبح علينا - من الناحية الأخرى - وقتما نصل إلى الطرق الاجتماعية للسلوك والشعور ؛ أن نميز في سبيل الوصول إلى غرضنا الحالي ؛ بين الزوج السلبي والزوج الإيجابي . وتنزع الظاهرتان الاجتماعيتان السلبيتان - أي التراخي والاستسلام إلى الإحساس بالاختلاط - إلى الظهور في بداية الأمر في صفوف البروليتاريا ، ثم تنتشر من هناك إلى صفوف الأقلية المسيطرة التي تردى في داء « النزوع إلى الأساليب البروليتارية » ،

وعلى العكس من ذلك ، تنزع الظاهرتان الإيجابيتان الاجتماعيتان - أي استطلاع الاستشهاد والانتباه إلى الشعور بالوحدة - إلى الظهور أولاً في صفوف الأقلية المسيطرة ، ثم تنتشر من هناك إلى البروليتاريا .

وأخيراً فإننا عند ما نتمعن في طرق الحياة الأربعة المتعاقبة ، سيبين لنا على العكس :

- ١ - أن الزوج السالب - السلفية والانفصالية - يتجهان إلى أن يُقرنا بالأقلية المسيطرة قبل كل شيء .
- ٢ - يميل الزوج الإيجابي - النزعة المستقبلية ونزعة التجلي - إلى أن يُقرنا بالبروليتاريا .

(٢) التراخي وضبط النفس

لعل تحقيق المظاهر المتصلة بناحتي التراخي وضبط النفس - اللتين تتسم بهما المجتمعات في مرحلة تحللها - أمر صعب نوعاً ما :

ذلك لأن الكائنات البشرية ، قينة بإبراز تلك المظاهر في كل تغيرٍ بطراً على الأحداث الاجتماعية . ومصدافاً لذلك ؛ في وسعنا أن نميز - حتى في حياة المجتمعات البدائية - عرفاً يجمع بين التهلك والزهد . وأن نميز في هذين المزاجين كذلك ، دورة سنوية من التلون - وفقاً للفصل من السنة - بين تضاعف الطقوس التي يقوم بها أفراد القبيلة للتعبير عن انفعالاتهم .

غير أننا إذ نذكر كلمة « التراخي » كشئٍ مقابل للإبداع في حياة الحضارات المتحللة ؛ فإنما نعني بها شيئاً أكثر إحكاماً من سريان الشعور هذا ، هي حالة شعور ؛ يتقبل فيها كبديل للإبداع ، منحى يتسم بالتناقض ، تناقض يتم عن إدراك أو يتم لاشعورياً ، كما يقوم نظرياً وعملياً .

ففي الجيل الأول من عصر الاضطرابات الهليني بعد الانهيار ، تمثل زوج من تجسد التراخي وضبط النفس في تصور أفلاطون لألسبياديس Alcibiades وسقراط في كتابه « الندوة »^(١) وتصوره تراسيماخوس Thrasymachus وسقراط في كتابه « الجمهورية » . ويمثل ألسبياديس

— عبد الانفعال — صفة التراخي من الناحية العلمية ؛ ويمثل تراسياخوس
— المدافع عن مبدأ « القوة حق » — نفس المزاج من الناحية النظرية .

وفي الفصل التالى من القصة الهلينية ؛ نجد أن مفسرى كل من هاتين
المحاولتين للتعبير عن الذات ، عوضا عن إبداع ينشد تصديقا من ذى
سلطان على طريقتى سلوكهم الخاصة ، يتفقان على مبدأ « العيش
وفقا للطبيعة » . ولقد ألصق هذا الفصل بمعنى « التراخي » ؛ أولئك
الهيدونيون^(١) المتبدلون الذين اتخذوا شعارا اسم أبيقور واستعملوه في
غير حق ؛ مما دفع الشاعر الأبيقورى المزمّت لوكريتيوس Lucretius
إلى تأنيبهم على هذه الإساءة ؛ ونشاهد من الناحية الأخرى ، الرواقين
يطالبون لأنفسهم بالمعنى الطبيعي للحياة الزاهدة ، ويمثلهم ديوجنيس في
برميله ، كما يمثلهم الرواقيون في أسلوب أقل فجاجة .

فإذا ما انتقلنا من العالم الهليني إلى العالم السورى إبان عصر اضطراباته ،
سنجد نفس التباين العارم بين صفتى التراخي وضبط النفس ، استنادا على
ما يبدو من التباين بين النظرية الرصينة المرتابة التى يبديها سفر الجامعة^(٢)
وبين طقوس التعبد الورعة التى تؤديها طائفة الأسين Essene^(٣) .

وثمة مجموعة أخرى من الحضارات — السندية والبابلية والحيشية
الماليانية — تبدو إبان تحللها كما لو أنها تنكفى* إلى طبائع الإنسان البدائى
من ناحية عدم تأثرها باتساع الهوة المفتوحة بين الخصائص الجنسية الثنائية
المظهر^(٤) وبين الزرع إلى المغالاة فى الزهد ، وهو ما يكمن فى منحاهم الفلسفى ؛
مصادقا لما يأتى :

(١) الهيدونيون Hedonists أتباع مذهب يؤمن بأن اللذة هى جماع الخير . (المترجم)

(٢) من الإنجيل . (المترجم)

(٣) الأسين طائفة يهودية قديمة كانت تعتنق فزعة تصوفية . (المترجم)

(٤) أى العقيدة التى تقوم على إلهين — ذكر وأنثى — مثل أوزيريس وإيزيس فى العقيدة

المصرية القديمة . (المترجم)

بالنسبة للمجتمع السندى - ثمة تناقض يبدو للوهلة الأولى متعذرا عن الحل ، بين عبادة الإحليل^(١) وفلسفة اليوجا^(٢) .

بالنسبة للمجتمع البابلي - تروعا بالمثل-المفارقات بين الدعارة التي تمارس في المعابد وفلسفة النجوم التي اعتنقها المجتمع البابلي إبان تحله . []
وبالنسبة للمجتمع الماياني - نجد المفارقات بين الضحايا البشرية وإذلال النفس كمظهر للقومية .

وبالنسبة للمجتمع الحيثي - تطالعنا أوجه التباين بين مظاهر التهنك وصور الورع في عبادة سييل وآتيس .

ولعل العرق المشترك لنزعة القسوة المفرطة التي دخلت مظهرى « التراخي وضبط النفس » كليهما ، هو العامل في احتفاظ نفوس أعضاء هذه الحضارات المتحللة الأربع - بتوافق في الانفعالات بين الأعمال ، التي يبدو أنها تصدف عن المسألة عند ما تلاحظها عين المشاهد الأجنبي التحليلية الهادئة .

فهل تعيد الآن طريقتنا السلوك المتنازعتان هذان ، تمثيل دوريهما على المسرح الأكثر اتساعا للمجتمع الغربى في فصل تاريخه الحديث ؟

بالنسبة للاتجاه صوب « التراخي » ؛ لا نفتقر إلى دليل - فإنه قد وجد في مجال النظريات نبى هو جان جاك روسو ، بدعوته الخلافة للعودة إلى الطبيعة . في حين أنه بالنسبة لصفة « التراخي » فإنه يصدق عليها القول « إن كنت تبحث عن بنائه التذكارى ، انظر ما حولك »^(٣) .

(١) الإحليل هو رمز الإله شيفا في العقيدة الهندوسية . (المترجم)

(٢) رياضة عقلية خاصة في الهند تنحو إلى إخضاع الجسد للروح . (المترجم)

(٣) Si monumentum requiris circumspice وهى جزء من نقش في كاتدرائية

سان بول في لندن ، ذكرى للمهندس الذى تولى تصميم البناء وهو السير كريستوفر ورون .

(المترجم)

ومن الناحية الأخرى ، فلعلنا نفتش سدى عن بعث مضاد لزعة الزهد . ولعلنا نستخلص من هذه الواقعة — على سبيل الاختبار — النتيجة الوضيعة القائلة بأن الحضارة الغربية قد انهارت يقينا ، وأن تحللها لن يكون بالشئ البعيد .

(٣) الشرود والاستشهاد

الشرود والاستشهاد — بمعناها العام ليسا إلا نتيجتين لرديلة الجن ، وفضيلة الشجاعة . وهما هذا ظاهرتان شائعتان في السلوك البشرى في جميع الأعمار وفي جميع أنواع المجتمع .

على أن الشرود والاستشهاد اللذين نبحت أمرهما ؛ شكلان خاصان توحهما نظرة خاصة إلى الحياة . فإن الشرود الناتج عن الجن المحض والاستشهاد المترتب على الشجاعة الخالصة ؛ ليسا موضع بحثنا . فإن نفسية الشارد التي نحن في سبيل البحث عنها ، هي نفسية تستوحى شرودها من شعور أصيل بأن القضية التي تخدمها لا تستحق في الحقيقة ، الخدمة التي تطلبها منها هذه القضية . وبالمثل فإن نفسية الشهيد التي نحن في صدد البحث عنها ، هي النفسية التي تقبل على الموت ، لا لأنها تتجه كلية أو بصفة جوهرية لإسداء خدمة عملية إلى تعضيد تلك القضية ، بل تتجه إلى إشباع تطلع النفس ذاتها إلى خلاصها من :

النقل الشاق المنهك

لجميع هذا العالم الغير المفهوم^(١) .

وإنه وإن بدأ مثل هذا الاستشهاد نبلا ، إلا أن عنصر الانتحار فيه يجاوز النصف . فإن الشهيد يعتبر — وفقا للغو الحديث — إنسانا هاربا ،

مثلاً يعتبر الشارد هارباً من نوع أشد سفالة . ومن ثم يعتبر الرومانيون ذوو النزعة السلفية الذين تحولوا إلى فلسفة « الانفصال » شهداء بهذا المعنى . فانهم بقرارهم العلوى ، قد أحسوا بأنهم لم يجرّدوا أنفسهم من الحياة بقدر ما تحرروا منها . وإن فرض على أحد أن ينشد مثلاً للشروود من نفس الطبقة وفي نفس الفترة التاريخية ، ففي وسعه ذكر اسم مارك أنطونى فإنه شارد من روما ، وهو نتاج مُثُل روما العليا — ، الذى يجذب إلى ذراعى كليوباترة الشبيهة بالشرقية^(١) .

وبعد انقضاء قرنين — إبان الظلم الذى تجمع خلال عشرات السنين التى انقضت من القرن الثانى من العصر المسيحى — نجد فى ماركوس أوريليوس شخصاً لم يوهن لقب الأمير من أحقيته فى تاج الشهيد . بل أكّده — على الضد — صدوف الموت عن توجيه ضربة قاضية تقود إلى تقصير أمد التجربة . فى حين يتمثل لنا فى شخص كومودوس Commodus ابن ماركوس وخليفته مشهد مهيب يتسم بسيادة صفة الشرود عليه . تخلف مداره نكوص هذا الوريث عن بذل مجهود ما لحمل عبء ميراثه . ثم كان أن ولّى الأدبار واختفى فى فرار أدبى مشين سالكاً طريق يقود إلى التحول البروليتارى ، وهو تحول خسيس ملى بالرماد . ذلك لأن كومودوس وإن ولد إمبراطوراً ، إلا أنه آثر تسليّة نفسه بهواية المجالدة .

ولقد كانت الكنيسة المسيحية هى الهدف الرئيسى للضربات القاصمة التى وجهتها إليها الأقلية الهلينية المسيطرة التى انقلبت إلى وحش ، أثناء فترة مكابدة التزع الأخير . ذلك لأن هذه الطبقة الحاكمة الوثنية المحترصة ؛ قد رفضت مواجهة الحقيقة المفجعة ، ومناطها أنها هى نفسها باعث انهيارها وعلّة دمارها الذاتى . بل إنها وهى تعاني سكرات الموت ، قد حاولت إنقاذ حطام القطعة الأخيرة من اعتبارها الذاتى ، بإقناعها نفسها بأنها إنما تهلك ضحية لاعتداء البروليتاريا عليها اعتداءً ذنيئاً . وقد كانت البروليتاريا الخارجية

(١) أى امرأة نصف شرقية لأن أصل أسرة البطالسة يونانى . (المترجم)

تحتشد في عصابات حربية رهيبة في مكنتها تحدى أو التلصص من محاولات الحكومة الإمبراطورية للتأثر من إغاراتها الصادرة عن حقد دفين .

وكانت خراف القطيع المسيحي في ظل هذه التجربة تختلف عن الماعز^(١) بكل وضوح ؛ بما واجهته من تحدى الاختبار المائل بين التبرؤ من عقيدتها أو التضحية بحياتها . وكان الجاحدون^(٢) يكونون حشداً ضخماً^(٣) ، إلا أن التأثير الروحي للعصبة الضئيلة من الشهداء منهم ، تجاوز نسبتها العددية بمراحل . وإلى إقدام هؤلاء الأبطال الذين برزوا في اللحظة الحرجة إلى الأمام من بين الصفوف المسيحية ليشهدوا على حساب الحياة نفسها ، يُعزى انتصار الكنيسة . ولم يتلق هذا الجيش الصغير - ولكن النبيل - من الرجال والنساء ، أكثر من جزائهم الواجب من الشهرة بذكرهم في التاريخ كـ « شهداء بارزين » ، نقيضاً « للخونة » الذين سلموا الأسفار المقدسة أو أوعية الكنيسة المقدسة إلى السلطات الإمبراطورية الوثنية .

ولقد يعترض بأن هنا مجرد جنين في جانب ، وشجاعة خالصة في الجانب الآخر ، وأن هذا التفسير لا فائدة ترجى منه لغايتنا الحاضرة . ولاتوافر لدينا فيما يتصل بالشاردين مادة الإجابة على هذا الاتهام . ذلك لأن مقاصدهم تدفن في غمار نسيان مشين . أما بالنسبة للشهداء فإن ثمة دليلاً غزيراً يشهد بأن شيئاً أعظم - أو أقل حسبما يفضل القارئ - من الشجاعة الخالصة المجردة عن الغرض ، تمثل فيه الدافع الذي أوحى إليهم . فإن الرجال والنساء قد ابتغوا الاستشهاد متحمسين باعتباره قرباناً مقدساً ، و « تعميماً

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى عبارات وردت في الإنجيل تشبه السيد المسيح بالراعى ، والمؤمنين به بالخراف . في حين أن الماعز كناية عن غير المؤمنين بالمسيحية . (المترجم)

(٢) أى المسيحيون في عرف الوثنيين . (المترجم)

(٣) الواقع أن أعدادهم كانت من الكثرة بحيث أصبحت مشكلة كيفية التصرف بهم ، هى المسألة الملتهبة للسياسات الكنسية عندما توقفت عمليات الاضطهاد . (المؤلف)

جديداً ، ووسيلة للغفران من الخطايا وكفالة طريق إلى السماء . وإتنا نجد أغناطيوس الأنطاكي – وهو أحد الشهداء المسيحيين البارزين للقرن الثاني ، يتكلم عن نفسه بأنه « قمح الله » ويشناق إلى اليوم الذي « تطحنه فيه أسنان الحيوانات المتوحشة ليدخل في الخبز الصافي للمسيح » .

فهل في يمكننا أن نميز في العالم الغربي أية آثار لهذه الطرق المتناقضة للسلوك الاجتماعي ؟

نستطيع بالتأكيد أن نضع أصبعنا على فعل غربي للشروود يوحى بالنذر ، في « خيانة الكنيسة » . وتنبعث جنود هذه الخيانة من غور ربما قد يستأني في تتبعه القرنسي الموهوب الذي صك هذه العبارة^(١) . وإن كان قد اعترف – بصورة تقديرية – بعظم تأصل جنود الأذى ، بإثارة اختيار الاسم الكنسي الشائع في القرون الوسطى ، للدلالة على « مثقفينا » المحدثين وأتاهمهم . وتمثلت خيانتهم في زوج – تعيها الذاكرة – من الأفعال التي تسيطر الخيانة عليها :

فقدان للعقيدة يتسم بالانحطاط الذي أصبح يسيطر على المبادئ التي تقررت في العصر الحديث .

وتسليم طابعه الخور للمكاسب التي ظفرت بها حديثاً الاتجاهات التحررية .

ولقد بدأت نزعة الشرور التي تبدت في هذا المقام الأخير ، قبل ذلك بقرون : وقما أنكر « الكتبة » أصلهم بمحاولتهم نقل الصرح الصاعد للحضارة المسيحية الغربية ، من الأسس الدينية إلى الأسس اللادينية . كان هذا هو الفعل الأصلي لصفة « السلوك الأحق » الذي يعاقب في زماننا الحالي بجماعة طفتت تتجمع طوال قرون ، تجمعاً يزايد تزايد الربا المركب .

فإذا ما رمينا بأبصارنا إلى الورايع عبر بضعة قرون ، ثم ركزناها على رقعة المسيحية الغربية التي تعرف بانجلترا ، سنشاهد هناك « شاردأ » في توماس ولسي Thomas Wolsey — أحد رجال الدين من ذوى العقلية الحديثة المبكرة في النضوج الذى أقام ساعة تجريده من المنصب ، الحجة على نفسه بأنه مذهب لأنه خدّم ربه بكفاية تقل عن خدمته مليكه — ظهر شروده فى صورته السوداء إبان فترة تقل عن خمس سنوات بعد نهايته الشائنة باستشهاد معاصريه : القديس جون فيشر والقديس توماس مور^(١) .

(٤) الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة

إن الشعور بالسير على غير هدى ، وهو الطريقة السلبية للإحساس بفقدان « وثبة الارتقاء » ؛ يعتبر من أشدّ الحزن إيلاما ، التى تعترى نفوس الرجال والنساء الذين يقيض لهم أن يعيشوا حياتهم فى عصر تحلل اجتماعى . ولعل هذا الألم هو قصاص خطيئة عبادة الأوثان التى تتمثل فى عبادة المخلوق عوضا عن عبادة الخالق . .

فإننا قد استكشفنا فعلا فى هذه الخطيئة ، عامل من عوامل تلك الانهيارات التى منها يتتابع تحلل الحضارات .

ويبدو فى أعين المصابين بشعور الانسياق ، أن المصادفة والضرورة ، هما الشكّلين البديلين للقوة التى تحكم العالم . وأنه وإن بدت الفكرتان للنظرة الأولى ، تعارض إحداهما الأخرى ، إلا أنهما تدلان — أن سبر غورها — على كونهما مجرد سطحين مختلفين لوهم مطابق .

ولقد شبت فكرة « المصادفة » فى الأدب العصرى إبان فترة

(١) ليس جون فيشر وتوماس مور قديسين بالمعنى المألوف من الاصطلاح الدينى ، ولكن الأستاذ المؤلف يشير بهذه العبارة إلى فشل آراء هذين الكاتبين . (المترجم)

الاضطرابات ، بالغزل المهوش الذى تصنعه عجلة الفخار . وشبهت الفكرة في الأدب الهليني خلال فترة الاضطرابات بسفينة تركت - من غير ربان - إلى رحمة الرياح والعواصف (١) .

وتحوّلت فكرة المصادفة عند اليونانيين المغرمين بتجسيم الآراء ، إلى ربة أسموها « سيدتنا ذاتية الحركة » . وأقام لها تيموليون Timoleon مجرر سيراكوز كنيسة طفق يقدم لها فيه الضحايا . ونلر لها هوراس أنشودة (٢) . وإذا ما تطلعنا إلى قلوبنا الخاصة ، نجد أن هذه الربة الهلينية تجلس على العرش بالمثل ، كما يشهد بذلك إقرار العقيدة الوارد في مقدمة كتاب هـ : ١ . ل . فيشر عن « تاريخ أوربا » .

« لقد حُرمت من متعة فعلية مثيرة من رجال أكثر حكمة منى وأعظم ثقافة قد تبينوا في التاريخ : خطة محبوكة ونمطاً مقدّراً . إن هذه الأنماط قد خفيت على ولا أستطيع أن أرى إلا طارئاً يتلوه طارئ آخر ، مثلما تتبع الموجة الموجة . ولا يوجد أمام المؤرخ سوى قاعدة واحدة آمنة مدارها ضرورة اعترافه في بحثه تطور مصائر البشر ، بالدور الذى تؤديه المصادفة والقوى الغير المنظورة » .

وفي خلال القرن التاسع عشر ، استولد هذا الإيمان الغربى الأصل - المتصل بتوافر القدرة المطلقة لظاهرة « المصادفة » - منحنى فلسفياً يتسم بروحه العملية . وتم ذلك وقتما طفقت الأمور تجري وفقاً لما يشتهي الإنسان الغربى ، أى وفقاً لمبدأ حرية العمل . ووجد هذا المنحنى الفلسفى سبيله إلى الإيمان بما يحمله مبدأ المصلحة الذاتية بين ثناياه من استئثاره تبلغ مرتبة الإعجاز . فلقد أسفرت تجربة هذا المبدأ إبان القرن التاسع عشر وما

(١) انظر أفلاطون « السياسات » ٢٧٢ ج ٦ - ٢٧٣ ج ٤ .

(٢) Horace : Ode, BK-I, Ode 35 : Odiva gratum qnae regis Antium.

أسفرت عنه من نتائج طيبة وقتية ، إلى إعلان أجدادنا بأن « جميع الأشياء تعمل في انسجام في سبيل خير هؤلاء الذين يعشقون ربة المصادفة » ، وبلغ من تغلغل هذا المبدأ ، أنه حتى بعدما أخذت الربة تكشف عن أنيائها - في مستهل القرن العشرين - ظلت مهبط وحى سياسة بريطانيا الخارجية . وهذه الروح عبرت عنها تعبيراً دقيقاً العبارة التالية التي وردت في مقالة رئيسية لصحيفة بريطانية كبرى من صحف حزب الأحرار .

« إن بضعة أعوام من السلم هي دائماً بضعة أعوام تكتسب ، وأن حرباً تنشب خلال بضعة أعوام ، ويحتمل أن لا تتم أبداً » .

واستشرى هذا الرأي في أذهان شعب المملكة المتحدة وحكومتها إبان

السنوات المشتومة التي بدأت في خريف ١٩٣١ .

ولا يجوز الزعم بأن مذهب حرية العمل والانتقال^(١) ، تتمثل فيه المشاركة الغربية الأصيلة في ذخيرة البشرية من الحكمة : ذلك لأن المذهب كان العملة المتداولة في العالم الصيني خلال أُلْفَي سَنَةِ مَضَتْ : على أن هذه العبادة الصينية للمصادفة ، تختلف عن عبادتنا إياها من ناحية أن العبادة الصينية مستمدة من أصل أقل خسة . ذلك لأن بورجوازي القرن الثامن عشر الفرنسي ، قد آمن بمذهب حرية العمل والانتقال لأنه لاحظ - في حقد وحسد - وحلل هناة الإنجليزى المواجه له من الناحية الأخرى . فقاده تفكيره إلى أن البورجوازية قد تزدهر في فرنسا مثلما تزدهر في إنجلترا إن حُمل الملك لويس على أن يقتنى مثال الملك جورج في السماح للبورجوازي بصناعة ما يؤثر صناعته دون أن تفرض عليه أية قيود ، وأن يبعث ببضائعه إلى أية سوق دون أن تفرض عليها ضرائب . أما العالم الصيني المضطرب القوى ، فإنه كان قد ترك نفسه خلال العقود الأولى من القرن الثاني قبل المسيح

ينساق في خضم المقاومة ، وتصورها طريقا. يقود إلى الحقيقة والحياة ،
ولم يتخيلها سبيلا مطروقا يسلكه حصان النقل من مصنع يصنع بضج بالحركة إلى
سوق حافلة بالعمل^(١) .

« تاو^(٢) العظيم مثل القارب الذى يندفع

« يستطيع أن يذهب في هذا الطريق أو في ذاك »^(٣) .

يبد أن لربة « حرية العمل » وجهها آخر تعبد فيه تحت اسم « الضرورة »
لا تحت اسم « المصادفة » . فما الضرورة والمصادفة إلا طريقين مختلفين
لروية نفس الشيء . ومن قبيل المثال أن الحركة المشوشة لسقينة خالية من
السكان (الدقة) - وتقوم في نظر أفلاطون مقام فوضى عالم نبذه الله - يمكن
أن تكون في فكر إنسان وهيب ملكة المعرفة الضرورية بالعلوم الدينامية
والطبيعية ، تفسيرا مكتملا للسير الرتيب للأمواج والتيارات في منابت الربح
والماء . فإن الروح البشرية عند ما تدرك أن القوة التي تقيم أمامها الصعاب
ليست مجرد الجانب السلبي من إرادتها الذاتية ، لكنها شيء في حد ذاته ؛
عندئذ تتحول سحنة الرب الخفية من الصورة الباطنية أو السالبة التي تعرف
فيها باسم « المصادفة » إلى الصورة المنظورة أو الموجبة التي تعرف فيها باسم
« الضرورة » . لكن يتم ذلك دون حدوث تحول مماثل في الطبيعة الجوهرية
للربة ، أو في حالة ضحاياها .

ويبدو أن ديموقريطوس Democrius^(٤) هو الذى أدخل في الفكر

(١) صفحة ٣٠ Waley, A. : The way and its Power

(٢) أن كلمة تاو Tao الصينية تعنى السبيل الذى تعمل الدنيا فيه ، وهو اصطلاح يعنى في
النهاية شيئا مماثل كثيرا جداً « الله في معنى الاصطلاح الأكثر تجريدا وفلسفة . (المؤلف)

(٣) الفصل ٣٤ Tao Te king, Waley, translation

(٤) فيلسوف أتاح له طول حياته (حوالى ٤٦٠ - ٣٦٠ ق . م) أن يبلغ مرتبة الرجال
قبل أن تتاح له مشاهدة انهيار الحصار الهلينية ، وليراقب بعدها عملية التحلل ، فترة
سبعين سنة . (المؤلف)

الهلينى مذهب القدرة الكلية لفكرة « الضرورة » فى المجال المادى للوجود . لكن يظهر أنه قد تجاهل المشكلات المتصلة بامتداد محيط « الحتمية » من المجال المادى ، إلى المجال المعنوى . وأن الحتمية المادية كانت كذلك أساس الفلسفة النجمية^(١) التى اعتنقتها الأقلية المسيطرة للعالم البابلى ؛ ولم يحجم الخليدونيون عن نشر نفس المبدأ إلى حياة أفراد البشر ومصائرهم . ومن المحتمل تماماً أن يكون زنو zeno مؤسس الفلسفة الرواقية ؛ قد استمد بالأولى من المصادر البابلية لا من ديموقريطوس ؛ عنصر الجبرية القذ الذى لوث مدرسته الفكرية والذى يبدو جالياً فى كل موضع فى « تأملات » الإمبراطور ماركوس أوريليوس وهو أعظم مريد زنو شهرة .

وببدو أن العالم الغربى الحديث قد روض الأرض البكر ؛ بتعميمه محيط « الضرورة » إلى الميدان الاقتصادى الذى يعتبر حقاً مجالاً للحياة الاجتماعية التى أغفلتها أو تجاهلتها كافة العقول التى جابهتها أخطار المجتمعات الأخرى . وفى فلسفة — أو عقيدة — كارل ماركس ، يتمثل بالطبع العرض التقليدى للحتمية الاقتصادية . بيد أنه فى العالم الغربى الحاضر ، يعتبر عدد النفوس التى تشهد أفعالها بإيمانها الشعورى واللاشعورى بالحتمية الاقتصادية ، أعظم عدداً بكثير من المؤمنين بالماركسية . ويتضمن هذا العدد ، حشداً من أشباه الرأسماليين .

ولقد نادى كذلك بسيادة فكرة الضرورة فى المحيط المادى ؛ جماعة — على الأقل — من أصحاب مدرسة غربية حديثة تضم علماء النفس القليلى التجارب الذين أصابتهم غواية إنكار وجود النفس — بمعنى الشخصية أو الكل المستقل بعمله — فى غمار استئثاره نجاح بدائى ظاهر فى سعى لتحليل عمليات النفس المتصلة بالسلوك النفسانى . وعلى الرغم من حداثة عهد علم التحليل

(١) أى الفلسفة التى أساسها الآراء المتصلة بدراسة تأثيرات النجوم على البشر .

النفسى ، فإن فى مكتة فكرة « الضرورة » وهى فى بيثة مادة النفس ، أن تدعى ساعة انتصارها القصير - أن أقطع ساسة العصر الحالى يكرس نفسه لعبادتها :

« إننى أسير فى طريقى ، وبى ثقة الجائل النائم ، بأننى أسير فى الطريق الذى أرسلتنى إليه العناية الإلهية » .

اقتبست هذه الكلمات من خطاب أودلف هتلر بميونخ فى ١٤ مارس سنة ١٩٣٦ . وقد بعثت قشعريرة باردة فى أبدان ملايين الرجال والنساء الأوربيين فيما وراء حدود الريخ الثالث (وربما داخلها كذلك) ، الذين ربما لم يتوافر لأعصابهم الوقت الكافى للشفاء من الصدمة التى كانت قد أحدثتها قبل ذلك بسبعة أيام ، إعادة ألمانيا احتلال منطقة الرين عسكرياً .

ونمة صيغة أخرى لمذهب الحتمية النفسانية التى تحطم حدود الفترة الزمنية للحياة البشرية المتردة على الأرض ، وتحمل أصفاد العلة والمعلول إلى الوراء وإلى الأمام ، كل فى حيته . إلى الوراء صوب ظهور الإنسان لأول مرة هذا على المسرح الأرضى ، وإلى الأمام صوب خروجه النهائى منه ، ويتضح المذهب فى مظهرين مختلفين يبدو أنهما برزا مستقل أحدهما عن الآخر :

يتمثل أحدهما المظهرين فى الفكرة المسيحية عن « الخطيئة الأصلية » .

ويتجلى الآخر فى الفكرة السنديّة التى يعبر عنها بكلمة « كارما Karma » التى دخلت فلسفة البوذية والهندوستانية على السواء .

ويتفق هذان المظهران للعقيدة الواحدة فى نقطة أساسية مدارها جعل القيد (ومداره العلة والمعلول) يتجه باستمرار من حياة أرضية إلى أخرى . إذ تمائل وجهة النظر المسيحية مع السنديّة ، فى أن خلق الإنسان الكائن حالياً وسلوكه كليهما ؛ مشروطان بأفعال أنجزت إبان مراحل حياة أخرى - أو فى مرحلة حياة واحدة عاشها الإنسان فى الماضى .

وإذا كانت الفكرتان المسيحية والسندية تتلاقيان إلى هذا المدى ، فإنهما تتباينان فيما هو أبعد من ذلك :

إذ يقرر مذهب « الخطيئة الأصلية » المسيحي بأن خطيئة شخصية ذاتية ترجع إلى الجسد الأكبر للجنس البشرى ، قد رتب على جميع نسله تراثاً من العجز الروحي ، ما كان ليصيبهم لو لم يتركب آدم الخطيئة . وينبئ على هذا أن كل من ينحدر من صلب آدم مقدر له وراثته هذا العار الأدنى ، رغمًا عن العزل النفساني وفردية كل نفس على حدة . وهذه هي العقيدة الأساسية للدين المسيحي .

ويعتبر آدم وحده دون بقية الجنس الذي استولده - وفقاً لهذا المبدأ - هو القادر على نقل الخاصية الروحية إلى أعقابيه من بعده .

بينما لا تحتوى فكرة « الكارما » على هذه الصورة الأخيرة لمذهب « الخطيئة الأصلية » . فإن الخصائص الروحية المميزة التي يحوزها أى فرد بفضل أعماله الذاتية ، تنتقل وفقاً لهذا المذهب السندى - دون استثناء من الأول للآخر ، للشر أو للخير . ليس حامل هذا التراث الروحي المتراكم شجرة نسب تمثل تتابع الشخصيات المتعاقبة المنفصلة ؛ لكنه وصل روحاني يظهر ويعاود الظهور في دنيا الحس في سلسلة من مراحل التجسد .

ومن رأى الفلسفة البوذية ، أن تواصل « الكارما » هو علة « نقص الأرواح » هذا ، أو التناسخ ^(١) الذي يعتبر أحد بدهيات الفكر البوذي .

وأخيراً ؛ أخرى بنا أن ننظر بعين الاهتمام إلى الشكل الربوبي للحنمية ؛ شكل لعله أشد الأشكال غرابة وانحرافاً . لما تتضمنه هذه الحنمية التي تنزع إلى وصل نفسها بالربوبية ، من طابع وثني يحيلها إلى إله حقيق يعبد . وما تزال الاتجاهات إلى هذه الوثنية المستترة ، تنسب إلى هدف عبادتها .

(١) انتقال الروح بعد الموت إلى موجود آخر . (المترجم)

جميع صفات الشخصية الربانية . في حين أن هذه الاتجاهات - من الناحية الأخرى - تصر على إضفاء صفة الاستشراف عليها مع التوكيد - بشكل متفاوت - بأن إلهها يتحول إلى كائن لا يتأتى حصر عدد مظاهره ، حقوداً غير معين الشخصية على غرار « الضرورة الوحشية »^(١) .

أما بالنسبة « للأديان الأسمى » التي انبعثت عن البروليتاريا الداخلية للمجتمع السورى ، فإلهها الميادين الروحية التي ينزع هذا الضلال الوثني - المتصل بالربوبية الاستشرافية - إلى التفشى في أرجائها . ويتجلى مثالاها التقليديان في فكرة « قسمة ونصيب » التي تفشت في المجتمع الإسلامى إبان تأخره ؛ وفي مذهب القَدَر ، كما صاغه كالفن Calvin مؤسس ومنظم البروتستانتية ذات الطابع العسكرى والتي انبعثت من جينيف .

يثير ذكر مذهب كالفن مشكلة بعثت الحيرة في كثير من العقول ؛ فكرة يجب أن نسعى لإيجاد حل لها . فقد أشرنا إلى أن عقيدة الحتمية تعبير عن ذلك الإحساس بالانسحاق مع التيار الذى يعتبر أحد المظاهر النفسانية للتحلل الاجتماعى . لكنه حقيقة لا تنكر على تفرّد كثير من الناس المعروفين بانتمائهم إلى مذهب الحتمية - تميّزاً واقعياً أفراداً وجماعات - بحيوية فذة وبنشاط فريد ويتوافرهم على تحقيق غايتهم ، بالإضافة إلى الجرأة الفائقة .

« يتوافر في مذهب كالفن ظاهرة فريدة تتجمع فيها أسباب مناقضة للمثل الدينية العليا ، تلك هي القول بأن في استطاعة أولئك الذين يتحلّون بالشجاعة ؛ قلب العالم رأساً على عقب ؛ وهم أولئك الذين يعتقدون في شعور يتم حقاً بالسمو ، بأن أمور العالم تسير إلى وضع أحسن مما هو فيه بفضل قوة هم أدواتها المتواضعة »^(٢) .

Saeva Necessitas (١)

Tawney, R. H.: Religion and the Rise of Cofritalism ١٢٩ صفحة (٢)

وما مذهب كاليفين إلا واحد من أمثلة عدة تتمتع بشهرة سيئة من ناحية علاقتها بالعقيدة الجبرية ؛ التي تتناقض بشكل واضح ، مع سلوك مريدتها . فإن الزواج الذى أظهره أتباع كاليفين من الجنيبيين^(١) ، والميجونوت والهولنديين والاسكتلنديين والإنجليز والأمريكيين ؛ قد أظهره بالمثل القائلون بمذهب الجبرية الربانية أمثال : اليهود المتعصبين ، والعرب البدائيين ، وغيرهم من مختلفى الأجناس . وفى العصور المختلفة أمثال : انكشارية الإمبراطورية العثمانية وأتباع المهدي فى السودان .

ومن أتباع مذهب الجبرية الربانية فى القرن التاسع عشر : أحرار أوروبا أتباع مذهب « الارتقاء » ؛ وفى القرن العشرين : الماركسيون الشيوعيون الروس الذين انقسموا إلى طائفتين^(٢) تؤمنان بعقيدة جبرية تنبعث عن تفكير ذى طابع يتصل اتصالاً وثيقاً بعبادة وثن « الضرورة » .

ولقد خط القلم الألعى للمؤرخ الإنجليزى الذى اقتبسنا منه فيما سبق ، التشابه بين الشيوعيين وأتباع كاليفين :

« لا يعتبر من قبيل الخيال المطبق ، القول بأن كاليفين — على نطاق أضيق ولكن بأسلحة لا تقل هولاً — قد فعل لبورجوازي القرن السادس عشر ، ما فعله ماركس لبروليتارى القرن التاسع عشر ؛ أو أن مذهب (القَدَر) قد أشيع الاشتراء إلى ضمان التزام قوى الكون جانب « الطبقة المختارة » . وإن لطّف من حدة الفكر فى عصر مختلف ، نظرية المادية التاريخية . فإنه قد . . . علمتهم الإحساس بأنهم شعب مختار ، وبث فيهم الإدراك بمصيرهم داخل التدبير الإلهى وحفزهم على العزم على تحقيقه »^(٣) .

(١) الجنيبيون : أتباع كاليفين فى مدينة جنيف بسويسرا . والميجونوت هم البروتستانت الفرنسيون . (المترجم)

(٢) انقسم الماركسيون الروس فى مطلع عهدهم إلى طائفتى البولشفيك (أى الأكثريّة) والمنشفيك (أى الأقلية) ، وقد زال أتباع المنشفيك من روسيا تماماً . (المترجم)

(٣) صفحة ١٢ Tawney, R. H : Religion and the Rise of Coritalism

ويعتبر مذهب الأحرار الذى شاع خلال القرن التاسع
الحلقة التاريخية التى تربط مذهب كالفين الذى انبعث فى القرن
عشر ، بشيوعية القرن العشرين :

« كانت الحتمية مذهبا معروفا تماما فى هذا الوقت : لكن ا
الحتمية عقيدة تبث القنوط ؟ إن قانون الارتقاء المبارك هو
الذى لا نستطيع التملص منه ؛ هذا النوع من التقدم الذى ي
بالإحصاءات . وما علينا إلا أن نحمد جد طالعا إذ ألقى بنا فى م
البيئة ، وأن نسعى جاهدين فى طريق التقدم الذى عينته لنا الطبيعة
مناهضة ذلك (وفقا لهذا) كفر لا طائل من ورائه . وبم
المنطق توطدت دعائم الارتقاء . ولما كانت إقامة دين يشيع بين
يقتضى فقط أن تقبض إحدى الحرافات على ناصية فكرة فلسفة
توافر لحرافة فكرة التقدم من جد الطالع الفذ ، ما أخضع لإراء
مذاهب فلسفية على الأقل ؛ تنتسب إلى هيجل وكومت ود
والعجيب فى الموضوع عدم اعتبار أى من هذه المذاهب ال
نصيرا صادقا للاعتقاد الذى افترض تأييدها » (١) .
فهل نستنتج من ذلك ؛ أن قبول فلسفة حتمية الطابع ، ه
ذاته ، حافز الثقة والعمل الناجح ؟

هذا غير صحيح .

إذ يبدو أن ما تردى فيه العقائد الحتمية الطابع - وهى ما
هذا التأثير المثير المنيع - يستند على افتراض جرىء ؛ مداره أ
الخاصة تتوافق مع مشيئة الإله ، أو مع قانون الطبيعة ، أو
« الضرورة » . وهذا ما قيض لها الانتشار بداهة .

فإن « يا هوى »^(١) في مذهب كالفين ، رب يزود عن شعبه المختار .
 في حين أن الضرورة التاريخية الماركسية ، قوة غير شخصية ، تولد
 ديكتاتورية البروليتاريا . ويبحث مثل هذا المبدأ المضر ، ثقة بالنصر . وتعتبر
 هذه الثقة - وفقا لدروس التاريخ الحربى - إحدى وثبات الروح المعنوية .
 فهي تُرضى - من ثم - نفسها ؛ بإنجازها النتيجة التى أخذتها قضية مسلمة .
 ولقد كانت عبارة « انهم يستطيعون ، لأنهم يعتقدون بأنهم يستطيعون »^(٢) ،
 عند فرجيل^(٣) سر نجاح الفريق المنتصر فى النهاية ، فى سباق القوارب .
 وقصارى القول ؛ فى مكنة الضرورة « ؛ أن تصبح حايقا ذا بأس .
 لكن الإضمار ؛ هو بالطبع ، فعل من أفعال السلوك المتسم بالحمق - وإنه
 لفعل قوى البأس - يدعو منطق الحوادث إلى إبراز نقيضه الناتج عنه .
 فإن الثقة بالنصر ؛ هى التى أدت إلى هلاك جالوت ، وقتما تحطمت سلسلة
 معاركه الطويلة الظافرة ، وانتهت باصطدامه بدادود . والمثل يقال عن
 الماركسيين الذين ما انفكوا يعيشون على مفترضاتهم قرابة المائة عام ،
 كما يعيش أتباع كالفين على مفترضاتهم قرابة الأربعة قرون ؛ من غير أن
 يوفقوا إلى وخز « الفقاعة » .

وإذا كان المسلمون إبان مرحلة تاريخهم المبكرة ، قد استطاعوا فى
 ظل قوة اعتقاد عارم بالنصر - ولم تكن ثمة بادرة توحى به - أن يحققوا
 أفعالا لا تقل ضخامة عما حققه غيرهم ، إلا أن الزمن قد امتد بهم فيما بعد
 ليمروا بأوقات عصيبة . وإن الضعف الذى بدا منهم أثناء رد الفعل على
 الحزن الذى ألمت بهم فى أيامهم الأخيرة ؛ ليدل على أن « الحتمية » لها من
 القدرة على هدم الحالة النفسية إبان فترة الشدة ، مثملا لها من القدرة على

(١) يا هوى : هو الإله عند اليهود . ويرون فيه إلههم وحدهم وأنهم شعبه المختار .

(الترجم)

(٢) Passant quia passe medidiritur انظر Virgil : Aeneid, BK, V, l. 231

(٣) فرجيل الشاعر الرومانى المشهور . (الترجم)

تنبيهها^(١) . وذلك على شريطة أن تكون ردود الفعل - التي تتم مجابتهما - في نطاق مجال استجابة قادرة .. فإن الجبري المتحرر من الأوهام ، الذي علّمته التجربة القاسية أن إلهه ليس - مع ذلك - في صفه ؛ محكوم عليه ببلوغ النتيجة المدمّرة ، ومدارها أنه هو ورفيقه الجنين مصداقاً لما يقوله الشاعر :

غَدُونَا لَدَى الْأَفْلَاكِ الْعَابِ لَاعِبِ

أَقُولُ مَقَالًا لَسْتُ فِيهِ بِكَاذِبِ

عَلَى نَظْعِ هَذَا الْكُونِ قَدْ لَعِبْتَ بِنَا

وَعُدْنَا لِيَصْنَدُوقَ الْفَنَاءِ بِالتَّعَاقِبِ^(٢)

وعلى حين يعتبر الشعور بالانسياق إحساساً سلبياً ، فإن له صورة إيجابية تناقضه ، تتمثل في الشعور بالخطيئة الذي هو رد فعل بديل لإحساس بالهزيمة المعنوية يماثله . ويختلف الشعور بالخطيئة من ناحيتي الجوهر والروح عن الشعور بالانسياق اختلافاً حاداً للغاية . ذلك لأنه على حين أن للشعور بالانسياق تأثير المخدّر أو يقطر داخل النفس رضا خداعاً باسم يفترض توطئه داخل الأحداث الخارجية البعيدة عن متناول الضحية ؛ فإن للشعور بالخطيئة تأثيراً حافزاً بما يقرره للمخطئ بأن الإثم ليس - مع ذلك - بالشئ الخارج عن سلطانه . وبالحرى فإنه يخضع لإرادته ؛ إن شاء تنفيذ غرض

(١) ردنا على ذلك :

(أولاً) أن المسلمين لما امتحنهم ربهم ، لم يفقدوا عزّهم أو كرامتهم .

(ثانياً) أن المدة التي أصبح فيها المسلمون مسودين في بلادهم أقصر كثيراً مما يظن . وها هي البلاد الإسلامية تتحرر الواحدة بعد الأخرى بما يبشر بهضة المجتمع الإسلامي نهضة شاملة . بل يمكننا القول بأن إشاعات التحرر الإسلامي ، قد أفاضت بنورها على كافة بلاد أفريقيا وآسيا ، حتى أصبح النصف الثاني من القرن العشرين يتم باليقظة الآسيوية الأفريقية المارمة .
(المترجم)

(٢) رباعيات عمر الخيام .

الإله وأن يجعل نفسه جديرا برضائه . وهنا يكمن الاختلاف كله بين حالة المجاهدة اليائسة للخطيئة التي خاضها كريستيان ذات مرة ، والدافع الأصيل الذى فاجأه يجرى هناك صوب موضع « الباب »^(١) .

يبد أن ثمة مع ذلك ، نوعا من « الأرض الغير المملوكة لأحد » حيث يتداخل المراجان ؛ وهذا ما تفترضه الـ « كارما » الهندية بجلاء . ذلك لأنه على الرغم من تصور الـ « كارما » — من ناحية — كتراث روحى ، مثلها مثل الخطيئة الأصلية ، تنوء تحتها النفس دون أن يكون لها حق إنكاره ؛ فإن تكدر فعل الـ « كارما » — حسبما تكون حالته فى أية لحظة معينة — يزايد حجمه أو يتناقص ، بفعل إرادى حاسم يقوم به الفرد الذى يضم فى نطاقه النفس فى أية لحظة معينة .

ويتأتى تطبيق نفس السبيل الذى يقود إلى خطيئة يتأتى كبح جماحها ، من مصير لا يمكن تلافيه على كافة أوضاع أسلوب الحياة المسيحى . إذ تتاح للنفس المسيحية سبيل تصفية نفسها من شائبة الخطيئة الأصلية — التى هى ميراثها عن آدم — بابتغاء رضوان الله والسعى لبلوغه والفوز به ، بفضل وسيلة واحدة هى الاستجابة الربانية للجهد البشرى .

وتيسر استبانة صحوة الشعور بالخطيئة فى الفكرة المصرية عن الحياة بعد الموت ؛ فى سياق عصر الاضطرابات المصرى . إلا أن ميدانه التقليدى ؛ محنة أنبياء بنى إسرائيل ويهوذا إبان عصر الاضطرابات السورى . فلقد كان المجتمع الذى انبعث هؤلاء الأنبياء من حشاه وقت كشفهم حقائق رسالتهم ونقلهم إياها إلى أعضائه ، يرقد شقيا محروما فى قبضة النسر^١ الأشورى . ومن ثم يعتبر إنكارهم الواضح نسبة شقائهم ، إلى عمل قوة مادية خارجية لا تقاوم ؛ عملا روحانيا فذا يتسم بالبطولة ، بذله هؤلاء الأنبياء للنفوس المعذبة التى تردى كيائها الاجتماعى فى هذه الورطة المرعبة . وعوضا عن ذلك ، قرروا نبوءة مدارها أنه رغمنا عن المظاهر الخداعة ، فإن خطيئتهم

(١) أى يعدو بغية النجاة من الخطر . (الترجم)

الذاتية هي سبب مصائبهم ؛ وبالحري ينحصر في أيديهم أنفسهم الفوز بخلاصهم .
وتعتبر هذه الحقيقة المتقدمة — التي استكشفتها المجتمع السوري إبان
حملة انهياره وتحلله الذاتيين — ميراثاً انحدر عن أنبياء إسرائيل ؛ وأذاعه
في زى مسيحي ، الجناح السوري من البروليتاريا الداخلية للعالم الهليني .
ولولا هذا الثقيف الصادر عن مصدر أجنبي والذي يقوم على مبدأ سبق
أن أدركته النفوس السورية ويخالف الأصول الهلينية تماماً ؛ لما قُبِضَ
للمجتمع الهليني قط التوفيق في تحصيل درس يتباين هذا التباين مع مزاجه
الأصيل . وقد يجد الهليونون — في نفس الوقت — صعوبة أعظم مما سبق
أن وجدوه ، في أن يجعلوا هذا الكشف السوري حبيباً إلى قلوبهم ، لولم
يتحركوا هم صوب هذا الاتجاه ، بدافع من أنفسهم .

ويتيسر تتبع هذه الصحوحة الوطنية للشعور بالخطيئة في التاريخ الروحي
للهلينية قبل امتزاج الحزبي الهليني الخفيف ، بتيار سوري ؛ في نهر المسيحية .
ولو كنا على صواب في تفسيرنا أصل الأورفية^(١) وطبيعتها
ومقصدتها ؛ فإن ثمة دليلاً على أن بضعة نفوس هلينية على الأقل — حتى
قبل انهيار الحضارة الهلينية — قد بلغ تألم وجدانها لوجود فراغ روحي في
تراثها الثقافي الوطني ، حداً جعلها تتجه إلى اصطناع عمل فذ يقوم على
اختراع عقيدة « أسمى » ، فشلت الحضارة المينوية — التي تنتسب إليها
الهلينية — في تزويدها بها .

وأياً ما تكون الحال ؛ فإنه من المؤكد أن جهاز العقيدة الأورفية
قد استخدم وأسيء استخدامه — في نفس الجيل الأول بعد انهيار عام
٤٣١ ق . م — رجاء إتاحة الرضا للنفوس التي وصمتها الخطيئة فعلاً ،
وكانت تلمس — وإن كانت عمياء — سبل التحرر منها . ولدينا شاهد على
ما نقول عبارة من أفلاطون تشابه ما تدفق فيما بعد من قلم لوثر :

(١) نسبة إلى أورفوس : وقد سبق لنا شرح الاصطلاح في موضع سابق . (المترجم)

« إن ثمة الدجالين والمستنبيين الذين يتجرون للأغنياء بسلعهم التافهة ،
ويبشون فيهم الاعتقاد بأن هؤلاء الأفاكين يستحوزون على قوة مستمدة من
الآلهة تنيلهم إياها القرايين والتعاويد ؛ وتمكنهم باستخدام ضروب اللهو وإقامة
الولائم ، من الإبراء من أية خطيئة ارتكبها الفرد بشخصه أو أحد أجداده . . .
وأهم ليتبعون هذه الكراسات (المتصلة بموسايوس^(١) وأورفوس) إبان
ممارستهم شعوتهم ، ويقنعون الحكومات — بله الناس العاديون — بإمكان
التطهر من الخطيئة بتقديم القرايين وممارسة ألعاب صبيانية . ويصرون فضلاً
عن ذلك على أن هذه « الطقوس » (كما يدعونها في هذه الصلة) فعالة
للأموات — كما هي للأحياء ، قائلين : أن (الطقوس) تحررنا من عذاب
الدنيا وراء القبر ، في حين ينتظرنا مصير رهيب إن أهملنا تقديم القرايين
هنا وهناك »^(٢) .

وتبدو من النظرة الأولى أن الشعور الوطني بالخطيئة في نفوس الأقلية
الهلينية المسيطرة لا يبشر بالخير . على أننا نجد بعد انقضاء أربعة قرون
شعوراً بالخطيئة ذا طابع هليني بحت . خطيئة تطهرت في نيران المكابدة
إلى أبعد من جميع ما هو معروف . ذلك لأن ثمة نغمة غالبية في صوت
الأقلية الهلينية المسيطرة للعصر الأغسطى نسمعها في أشعار فرجيل .
ومصادقاً لذلك تعتبر العبارة المعروفة جيداً في نهاية القصائد الفلاحية
الأولى^(٣) ، صلاة للخلاص من مكابدة الشعور بالانسياق ، وتأخذ شكل
الاعتراف بالخطيئة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه رغماً عن أن الخطيئة التي
يتضرع بسببها الشاعر إلى السماء راجياً الخلاص ، هي إسمياً « خطيئة أصيلة »

(٢) عالم لغوى يوناني كتب حوالى القرن الخامس الميلادى شعرا غزاليا يصف فيه الحوادث
الغرامية لغيره (وكان يطلا من أبطال الأساطير اليونانية) . (المترجم)

(١) صفحة ٣٦٤ ب - ٣٦٥ من الجمهورية لأفلاطون .

(٢) Georgie : ديوان من الشعر الوصفي للفلاحة لفرجيل الشاعر الرومانى .

(المترجم)

متوارثة عن جد أسطوري من طروادة ، وتدفع حمية العبارة كلها القارئ للاعتقاد بأن هذه هي استعادة وأن الخطيئة التي يكفر عنها الرومانيون إبان فرجيل ، هي التي طفقوا يرتكبونها تدريجيا إبان فترة القرنين من التبدل ؛ وهي فترة ولجوها وقما انغمروا في حرب هانيبال .

أصبحت الروح التي تتردد من خلال هذه العبارات إبان طرف من السنة التي خطّ فيها فرجيل شعره ، غالبية في طبقة من طبقات المجتمع الهليني التي كانت بالكاد قد وقعت في مجال إشعاع المسيحية . وتُبدى دراسة الماضي بجلاء - إن أجيال سنيكا وبلوتارخ وايكيتيتوس وماركوس أوريليوس ؛ كانت تعد قلوبها - عن غير قصد - لتلقي استنارة تدنو ، منبعثة من مصدر بروليتاري ؛ ما كان المتحلقون الهلينيون يتوقعون منها انبعثت شيء صالح .

وإننا لنجد تهيئة القلب تهيئة غير مقصودة ، والاعتراض المتسم بالخذلقة مما تقدمه الاستنارة البروليتارية ؛ نجد ذلك (في الحالة التي أخذناها) مصورة في دراسة تتصف بالفراصة والمجانسة الملحوظتين أجراها روبرت براوننج لشخصية كليون : وكليون هذا ، فيلسوف يمثل الأقلية المسيطرة الهلينية في القرن الأول الميلادي . ولقد أوصلته دراسة التاريخ لحالة عقلية وصفها بأنها حالة قنوط شديد . ومع ذلك فإنه عندما اقترح الرجوع إلى رجل اسمه بولوس ، لم يكن لذلك عنده من أثر سوى استفزازه غضباً على كرامته :

« إنك لا يمكنك التفكير في يهودي همجي وقح »

« وهو ما يبرهن بولوس على كونه إياه - إنسان مختون »

« يستحوز معرفة يحجبها عنا »^(١) :

وليس المجتمعان الهليني والسورى - بكل تأكيد - هما الحضارتين الوحيدتين اللتين تمت فيهما صورة الشعور بالخطيئة ، من خلال صدمة رؤية صرح اجتماعى قديم ينهار خراباً . ولعلنا نتساءل فى النهاية - من غير محاولة تصنيف قائمة مثل هذه المجتمعات - هل من الضرورى إضافة المجتمع الغربى إليها ؟

إن الشعور بالخطيئة هو بلا ريب ؛ إحساس مألوف تماماً عند الرجل الغربى الحديث ، إحساس فرض على الغربيين فرضاً . لأن الشعور بالخطيئة مظهر أساسى للدين العالمى « الأسمى » الذى توارثوه^(٢) . على أنه يبدو فى هذه الحالة أن تلك الألفة ؛ لم تعد مؤخرأ ، تبعث من الازدراء بقدر ما تبعث على النفور منه . ويبدأ التباين بين هذا المزاج للعالم الغربى الحديث والمزاج المضاد للعالم الهليني إبان القرن السادس قبل الميلاد ، نفحة من صلابة رأى الكامنة فى الطبيعة البشرية . فإن المجتمع الهليني وقد بدأ حياته بتراث دينى قاحل هزيل قوامه مجمع آلهة^(٣) همجى ؛ بات مدركاً فقره الروحى فطفق يبذل الجهد لسد الفراغ باختراعه « ديناً أسمى » متمثلاً فى العقيدة الأورفية ؛ وهى عقيدة من النوع الذى ورثته بعض الحضارات عن أسلافها . ويتبدى بوضوح من استقرار مظهر الطقوس الأورفية ومذهبها ، أن الشعور بالخطيئة هو الإحساس الدينى الذى انحصر فيه - قبل كل شئ - توفى الهلنيين إبان القرن السادس ، لإيجاد متنفس طبيعى له .

وعلى نقبض المجتمع الهليني ؛ فإن المجتمع الغربى هو أحد الحضارات^(٤)

(١) لا يضمف استخدامنا الشاعر كلون الذى اخترعه بروننج لإثبات الفقرة السابقة ، أن المشكلة اللاهوتية التى وجهها الملك بروتوس إلى كليون ، لم تكن تتعلق بالشعور بالخطيئة ، بل كان مدارها خلود النفس . (المؤلف)

(٢) أى المسيحية . (المترجم)

(٣) هو البانثيون أى جميع الآلهة عند اليونانيين القدماء . (المترجم)

(٤) ومنها الحضارة الإسلامية . (المترجم)

التي قيض لها أن تترعرع في ظل فيض من « دين أسمى » وفي نطاق يفعلة عقيدة دينية عالمية . ولربما يكون السبب الذي يدعو الإنسان الغربي في غالب الأحيان إلى الخط من قدر عقيدته المسيحية حتى ليكاد أن يصل به الحال إلى نكرانها ، مداره أن حق الإنسان الغربي في نسبته إلى المسيحية أمر مسلم به دائماً .

وحقاً ؛ فإن عقيدة الهلينية التي لبثت منذ عصر النهضة الإيطالية بهذه الفعالية عنصراً مشمراً في مناح كثيرة في الثقافة الغربية اللادينية ؛ قد نماها وكفلت لها الحياة نوعاً ما ، فكرة تقليدية عن الهلينية كأسلوب للحياة يمزج - في جلال - جميع الفضائل الغربية الحديثة ومعارف الغرب المكتسبة ، يسعى فطري لم يبدل فيه جهد للتحرر من ذلك الشعور بالخطيئة الذي يجهد الآن الإنسان الغربي لتطهير تراثه الروحي المسيحي منه . وليس من قبيل المصادفة إذأ ؛ أن نجد المذاهب المختلفة للبروتستانتية المعاصرة ، بينما تحتفظ بفكرة الجنة ؛ تطرح في هدوء ، فكرة الجحيم ؛ وأسلمت فكرة الشيطان إلى هجائنا ومثلى الكوميديا .

ونجد في الوقت الحاضر أن عقيدة العلم الطبيعي ، قد دفعت عقيدة الهلينية إلى الانزواء . بيد أنه لم يترتب على ذلك استرجاع مبدأ الشعور بالخطيئة ، مكانته السابقة . فإن مصلحينا الاجتماعيين هم والعاطفين على آلام البشرية ، على استعداد تام لاعتبار خطايا الفقراء مظاهر لسوء حظ مرده ظروف خارجية ؛ فما الذي يمكنك أن تتوقعه من إنسان يجد نفسه قد نشأ في دسكرة^(١) . كما أن المحللين النفسانيين مستعدون بالمثل ، لاعتبار خطايا مرضاهم مظاهر لسوء حظ مرده ظروف داخلية وعقد نفسية واضطرابات عصبية . وبالأحرى تفسير الخطيئة وتعليلها بأنها مرض . ولقد تدبأ صمويل

(١) الدسكرة : الحى القدر ، حى الفقراء . (المترجم)

بتار بخط هؤلاء التفكيرى العلماء فى مؤلفه Erewhon ، حيث كان على
مستر نوسنيير Nosniyer المسكين أن يرسل للعائلة مقوماً (أى طبيباً) لأنه
كان يعانى وطأة مرض الاختلاس .

فهل سيتوب الإنسان الغربى الحديث ويتراجع عن سلوكه الأحمق ، قبل
أن تدركه نقمة الجائحة ؟

لم يحن الأوان بعد للإجابة على هذا السؤال . إلا أننا قد نعلم النظر —
قلقين — فى رأى حياتنا الروحية المعاصرة ، لنعثر على أية أعراض لعلها تبين
أساساً للأمل ، بأننا فى سبيل استرداد الانتفاع بخاصية روحية ؛ ما برحنا
نبذل جهدنا لإيجادها .

(٥) الشعور بالابتذال

١ — السوقية والبربرية فى طرائق السلوك :

يعتبر الشعور بالاختلاط ، بديلاً سلبى الطابع لذلك الشعور بالخط
الإنشائى الذى يترعرع بنفس المدى مع ارتقاء الحضارة . وتأخذ الحالة الذهنية
هذه ؛ معنى عملياً فى فعل قوامه الاستسلام الذاتى إلى بوتقة الانصهار .
وفى خضم عملية التحلل الاجتماعى ، نجد مزاجاً مطابقاً يكشف عن نفسه
فى كل مجال من مجالات عمل الشخصية الاجتماعية : فى الدين والأدب واللغة
والفن . كما يكشف عن نفسه كذلك فى المجال الأوسع مدى والأشد غموضاً :
مجال السلوك والعادات .

ومن الأوفق البدء بالعمليات فى الميدان الأخير .

ولربما نميل خلال بحثنا عن الدليل المتصل بهذه النقطة ، أن نولى
وجهنا — مع أكبر قدر من التطلع — صوب البروليتاريا الداخلية . ولقد
سبقت لنا ملاحظة أن عذاب الاقتلاع من الجذور هو النعمة الشائعة

والميزة للبروليتاريات الداخلية . ولقد ينتظر حدوث هذه التجربة المروعة للاقتلاع الاجتماعي : إلا أنه يُتوقع قبل كل شيء ، حدوث تجارب أخرى تستولد شعورا بالاختلاط في نفوس أولئك الذين يجبرون على الخضوع لها .
لكن لا تؤيد الوقائع هذا الرقب البدئي^(١) :

ذلك لأن المحنة التي تتعرض لها البروليتاريا الداخلية ؛ تبدو أعظم ما تكون عند ما تُصيب تلك الدرجة المُثلى من الشدة ، التي تتحول عندها إلى عامل مثير . فنجد - من ثم - الشعب الذي أقطع وأبعد عن وطنه واسترق - ومن هذا الشعب تتكون بروليتاريا داخلية - لا يقتصر الأمر على استمساكه ببقايا تراثه الاجتماعي بقوة راسخة . فإن البروليتاريا الداخلية تنقسم في واقع الأمر هذا التراث مع الأقلية المسيطرة التي كانت تتوقع في بداية الأمر أن تفرض نمط ثقافتها الذاتية على غوغاء الافاقين والشاردين الذين أمسكت بهم في أحيلها ، وأخضعهم لعبوديتها .

وما يزال هناك ما يبعث على العجب أن نشاهد مرة أخرى - كما نشاهد الآن - الأقلية المسيطرة تبدى ، مقبلة على التأثير الثقافي للبروليتاريا الخارجية . ومبعث العجب : أن هذه العصابات الحربية الشرسة ، يفصلها عن الأقلية المسيطرة حدود حربية ، وأنه يتوقع أن يفتقر تراثها البربري الاجتماعي إلى الفتون والهيسة اللذين ما يزالان يلتصقان بجلاء حتى بأسمال تلك الحضارات الرخصة ، التي تعتبر البروليتاريا الداخلية وريثة لها في أشخاص بعض صفوفها .

ومع ذلك فإننا نجد فعلا - كأمر واقع - أن من بين التجزئات الثلاثة التي ينزع المجتمع المتحلل إلى الانشقاق إليها ؛ تستسلم الأقلية المسيطرة بأسرع ما يكون إلى الشعور بالاختلاط . وهنا يقود - في النهاية - هذا التحول

(١) البدئي : الأولى ، سابق على التجزئة . (المترجم)

أو الطابع البروليتارى والذى يطرأ على الأقلية المسيطرة ، إلى اختفاء ذلك الانقسام فى الجسم الاجتماعى . ويعتبر ذلك قرينة الانهيار الاجتماعى وجزائه ؛ وتكفر الأقلية المسيطرة فى خاتمة المطاف عن خطاياها ، بسدّها ثلثة هى من عمل يديها . وعندئذ تغرق نفسها فى خضم بروليتارياتها الخاصة .

ولقد يكون من الملائم ، أن نُلقي نظرة على جانب من الدليل على النزعة التلقائية لبناء الإمبراطوريات ، قبل محاولتنا متابعة سبيل هذه العملية للتحوّل البروليتارى الطابع ، على خطيها المتوازيين . أى النزوع إلى التبدّل الذى ينجم عن مخالطة البروليتاريا الداخلية ؛ والنزوع إلى البربرية الذى ينجم عن مخالطة البروليتاريا الخارجية . ويبرر هذا الإجراء ، احتمال تفسيره نوعاً ما فى تفسير مبناه أن الدول العالمية التى يعتبر بناء الإمبراطوريات مهندسيتها ؛ هى فى معظم الأحوال نتائج الغزو الحربى . وبالتالي يصبح فى وسعنا التطلع إلى أمثلة عن النزعة التلقائية ؛ فى محيط الأسلوب الفنى الحربى :

فإن الرومانيون — مثلاً — مصداقاً لقول بوليبيوس Polybius — قد نبذوا عدّة سلاح فرسانهم الوطنى واتخذوا عدّة اليونانيين الذين كانوا بسبيل غزو بلادهم .

واستعار مؤسسو الإمبراطورية الحديثة^(١) بطيبة ، الحصان والعجلة — كسلاح حربى — من خصومهم « الهكسوس » الذين كانوا فى الأصل بدوا . واستعار العثمانيون الظافرون البنادق ، وهى اختراع غربى .

واستعار العالم الغربى — بعد تحوّل التيار فى الصراع بين الغرب والعثمانيين — من العثمانيين سلاحهم البتار الهائل ؛ ألا وهو النظام الصارم ،

(١) تبدأ الإمبراطورية الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة ومؤسسها أحمد الأول الذى استكمل تحرير مصر من ربة الهكسوس . (المترجم)

والمشاة المحترفين المنتظمين في وحدات والمدرّبين أعلى تدريب .

على أن مثل هذه الاستعارات ، لا تنحصر في الفن الحربى . ومن قبيل ذلك :

ما لاحظته هيرودوتس من أنه رغما عن إعلان الفرس أنفسهم أسمى من كافة جيرانهم ، إلا أنهم قد استعاروا لباسهم المدنى من الميديين كما أوغلوا في طائفة من الملذات الشاذة - ومنها الرذيلة الجنسية الخارجة على الطبيعة - التي استعاروها من اليونانيين .

وما أثبتته « الأوليجاركى »^(١) القديم في سياق انتقاداته اللاذعة لأثينى القرن الخامس من أن مواطنيه يتعرضون بسبب سيطرتهم على البحر ، إلى انحطاط بسبب مخالطتهم العادات والأجنبية ، أفظع مما يشاهد في المدن التي بها جماعات يونانية أقل عزيمة وإقداما .

أما بالنسبة للحضارة الغربية - فإن من يدخن التبغ ، إنما يحتفل بذكرى إبادة سكان شمال أميركا الأصليين من الهنود الحمر^(٢) . كما أن الغربيين وهم يشربون البن والشاي ويلعبون البولو ويرتدون البيجاما ويستحمون في الحمامات التركية ، يحتفلون بذكرى تبوء التاجر الأفرنجى عرش قيصر الروم العثمانى ، وقيصر الهند المغولى . وبالمثل فإن استخدام الغربيين موسيقى ورقص الجاز ، احتفال بذكرى استعباد الغربيين للزنجى الأفريقى ونقله عبر الأطلسى ليعمل في المزارع على الأرض الأمريكية محل الصيادين من الهنود الحمر الزائلين .

وعسانا الآن بعد هذا السرد الاستهلالى لطائفة من الأدلة ذات الشهرة

(١) الأوليجركى القديم : اسم لمؤلف مجهول لرسالة سياسية تنسب إلى أكسينافون ، لكن يقطعون بأنها ليست له . (المترجم)

(٢) باعتبار أن الحضارة الغربية قد استعارت تدخين التبغ عن الهنود الحمر .

(المترجم)

السبب عن تلقائية الأقلية المسيطرة في مجتمع متحلل ، أن نواصل عرضنا لموضوعي :

تبذل الأقلية المسيطرة ؛ تبذل مظهره مخالطتها ساميا ، بروليتاريا داخلية تقع - من الوجهة المادية - تحت رحمتها .

ونزوع الأقلية المسيطرة إلى البربرية ، بسبب مخالطتها - حربيا - بروليتاريا خارجية ، تتجنب الوقوع تحت نير الأقلية المسيطرة .

وعلى حين أن اتصال الأقلية المسيطرة بالبروليتاريا الداخلية يتم سلميا ؛ بمعنى أن البروليتاريين قد تم إخضاعهم فعلا ؛ فغالبا ما يحدث أن يتخذ الاتصال الأول بين الفريقين - باعتبارهما حكاما ومحكومين - شكل إدخال المجندين من البروليتاريا الداخلية في نطاق الحاميات العسكرية الدائمة لبناء الإمبراطورية وجيوشهم العاملة . فإن تاريخ جيش الإمبراطورية الرومانية العامل - ويعتبر مثلا - هو قصة إضعاف الطابع الأصل للجيش الروماني . وهى عملية تعاقبت أدوارها ، وبدأت تقريبا غداة تحويل أغسطس الجيش الروماني من قوة رومانية خاصة ينتظم فيها هواة القتال ، إلى قوة دائمة ينخرط فيها المقاتلون المتطوعون المحترفون .

وهكذا تم في غضون بضعة قرون ، تحويل جيش كانت الأقلية المسيطرة هى مصدر فى أغلب الأحيان ، إلى جيش أصبحت البروليتاريا الداخلية مصدر قوته . ثم تطور الحال فأصبحت البروليتاريا الخارجية فى المرحلة الأخيرة ، هى بالمثل مصدر قوته إلى أبعد حد . والمثل يقال - مع وجود اختلافات - عن جيش الدولة العالمية للشرق الأقصى ، التى أعاد تشييدها خلال القرن السابع عشر الميلادى ، بناء الإمبراطورية من المانشو . ويصدق الأمر كذلك بالنسبة لتاريخ الجيش العربى العامل ، فى غضون خلافتى الأمويين والعباسيين .

وإذا ما حاولنا تقدير الدور الذى أدته زمالة السلاح فى حطم الحاجز

بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الداخلية ؛ سنجد - كما نتوقع - أن لهذا العامل خطورته القصوى في تلك الحالات التي يمثل فيها الأقلية المسيطرة ، بناءً إمبراطورية لم يقتصر الحال على كونهم رجال حدود ، لكنهم ينتمون إلى الجانب الطالح من الحدود . وبالحرى يكون بناء الإمبراطورية من أصل همجي . ذلك لأنه من المرجح أن يكون الفاتح الهمجي بالفعل ، أشد من رجال الحدود تقبلاً لمباهج الحياة التي يجدها شائعة بين ظهراني الشعوب التي يُخضعها لسلطانه . ومصدّقاً لهذا الرأي ؛ ترتبت هذه النتيجة على زواله السلاح بين المانشو ورعاياهم من الصينيين المقيمين في منشوريا ؛ إذ قد ذاب المانشو تماماً في الرعايا الصينيين .

ويتأتى بالمثل تتبع نفس نزعة التخلّي عن انغزالية ذات طابع شرعى ، ليحل مكانها تكافل^(١) ذو طابع واقعى في تاريخ العرب المسلمين الأوائل ، غزاة جنوب غرب آسيا . فإنهم قد استعادوا - عن غير قصد - الدولة العالمية السورية التي كانت قد اتخذت صورتها في بدء الأمر في شكل إمبراطورية أحيينية انتزعت من سلطانتها قبل الأوان .

فإذا ما تحولنا شطر تواريخ الأقليات المسيطرة التي انبعثت - مثلما تنبعث الأقليات المسيطرة عادة من بين حظيرة المجتمع المتحلل - لن نتمكن من إسقاط العامل الحربى من الحساب ، لكن سنجد هنا استطاعة المشاركة في العمل ، الحاول محل زواله السلاح . ومصدّقاً لذلك ، لاحظ « الأوليجاركى القديم » تعذّر التفرقة في شوارع أثينا جوابة البحار ، بين الأرقاء المنحدرين من أصل أجنبى وبين المواطنين من الطبقة الدنيا . ولقد أصبحت إدارة أملاك الأرستقراطيين إبان الأيام الأخيرة للجمهورية الرومانية - مع ما تتضمنه هذه الإدارة بين ثناياها من استخدام أعداد ضخمة من الناس وتنظيم إدارى محكم - جزاء يحصل عليه الرجال الذين

(١) التكافل : العيش تكافلاً في دنيا الإنسان والحيوان . (المترجم)

يحررهم السيد ذو السلطة الاسمية . ولما أصبحت أملاك قيصر مشاركة بالفعل بينه وبين مجلس الشيوخ والشعب ، مشاركة تهدف إلى إدارة الدولة الرومانية العالمية ، غدا رجال قيصر المحررين وزراء مجلسه . وتمتع الرجال الذين أعتقهم الامبراطور في مطلع الامبراطورية الرومانية ، بقسط موفور من السلطة تمكن مقارنته بما تمتع به أرقاء السلطان العثماني ، أولئك الذين تبوأوا مكانا عليا - وأن كان بالمثل مزعزع الدعائم - بلغ أوجه في تقلدهم منصب الوزير الأكبر .

ويتأثر كلا الفريقين في جميع حالات التكافل بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الداخلية . ومناطق التأثير ؛ دفعهما كليهما إلى الحركة ، على سبيل يقودهما إلى التحول إلى الطبقة الأخرى . ومن ثم تتحرك البروليتاريا الداخلية على مستوى « السلوك » السطحي الطابع ، صوب التحرر ؛ بينما تتحرك الأقلية المسيطرة صوب التبذل . وتكمل كلتا الحركتين الأخرى ، وتحدثان في جميع الأوقات .

بيد أن ثمة فارقا مداره أنه بينما يعتبر تحرر البروليتاريا أثناء المراحل الأولى ، عملا أكثر وضوحا ؛ يثير انتباهنا ، تبذل الأقلية المسيطرة إبان الفصول التالية . ويطالعنا في هذا المجال ، المثال التقليدي للتبذل إبان « العصر القضي » للطبقة الرومانية الحاكمة : وهو مثال تنبؤ فيه مأساة خسيمة سُجلت تسجيلا لا يبارى - أو رسمت رسما هزليا - في أدب لاتيني ما يزال يحتفظ بمستواه العبقري في فن الهجاء ، بعد ما فقد آخر نسمات إلهامه في كل أسلوب آخر . ويتيسر تتبع هذا التدرج المبتذل الروماني ، في سلسلة من الصور القبيحة ، لم يقتصر الحال فيها على تمثيل الشخصية الأساسية في صورة رجل أرستقراطي ، بل تجاوزتها إلى تمثيل شخصية أباطرة مثل كاليجولا ، نيرون ، كومودوس ، كاراكالا .

ونقرأ في جييون عن كاراكالا ما يلي :

« كان سلوك كاراكالا شامخا وحافلا بالفخار . لكنه ينسى بين الجنود

كل شيء حتى ما لمكانته من جلال أصيل . فلقد كان يشجع مزاحهم الوقح ، ويهمل الواجبات الأساسية لقائد ، وينزع إلى محاكاة لباس الجندي العادي وسلوكه .

ولم يكن منهاج كاراكالا في الاتجاه صوب « البروليتاريا » بالشئ المشي ، أو كونه مرضاً من الأمراض ؛ مثلما كانت حال نيرون الفنان الموسيقى الشعبي أو مثل كومودوس المجالد^(١) . لكن لعل له مغزى أعظم كظاهرة اجتماعية . وإن إمبراطوراً يتخذ ملجأ الثكنات حيث تتوافر الحرية البروليتارية ، وينبذ حرية الأكاديمية والرواق التي ألفاها لا تطاق لعلمه بأنه ولد فيها ؛ لظاهرة تطالعنا في الأقلية المسيطرة الهلينية في مرحلتها الأخيرة ، وتبين مدى جحود التراث الاجتماعي .

وفي هذا التاريخ - أي عشية الانتكاس التالي للمجتمع الهليني عقب فترة الانتعاش الأغسطى - حدث بالفعل أن تغيرت الأحجام والقوى والسرعات النسبية لتبارى الفاعلية إلى صالح التيار البروليتارى . وهما تياران يتباينان تبايناً تبادلياً ويتدفقان على التوالي من الأقلية المسيطرة ومن البروليتاريا الداخلية . وبلغ التغير درجة قد يجد عندها مراقب العصر الحديث نفسه في حيرة من أمره ؛ وتجعله يظن بأنه يراقب حركة تيار مفرد أصبح يعكس اتجاهه فعلاً .

فإذا حولنا أنظارنا الآن إلى عالم الشرق الأقصى ، سنجد الفصل الأول من قصتنا المتصلة بالزعة البروليتارية للطبقة الرومانية الحاكمة ، يعيد نفسه . وإنه ليمثل في الملاحظة التالية التي كتبها عالم غربى يبين فيها تحول صراع التحرر ، ناحية الانسياق وراء الزعة البروليتارية ، في نطاق

(١) المجالد : المصارع عند الرومان . (المترجم)

محيط الجبل الواحد الذى يفصل الصينى ذا النزعة المانشوكية ، عن ابنه الذى تحول إلى الاتجاه البروليتارى :

« كان من الميسور فى منشوريا ، لصينى من الصين الأصلية ، أن يتطور إبان فترة حياته إلى مانشوكى وهو بعيداً بعداً شاسعاً عن الصين . ولقد عرض لى فى تجاربه مثال عن هذه الظاهرة وقما تعرفت بضابط عسكرى صينى ووالده العجوز . وكان الوالد قد ولد فى هونان وتوجه فى شبابه إلى منشوريا وظاف بأقصى أجزاء الأقاليم الثلاثة بعداً ، ثم استقر فى نهاية مطافه فى تسى تسىهار Tsitsihar . وفى ذات يوم قلت للشاب « لماذا وأنت قد ولدت فى تسى تسىهار تتكلم مثلما يتكلم جمهور الصينيين المانشوريين ، فى حين أن والدك الذى ولد فى هونان ، لا يتكلم لهجة قدامى المانشو فى منشوريا فحسب ، بل إنه يسلك سلوكهم ويستخدم تعبيراتهم كذلك ؟ فضحك وقال « إن والدى وقما كان شايا كان من الصعب على رجل من المينجين^(١) أن يرتقى أبعد من المناطق الشمالية . كان المانشو يسيطرون على كل شىء . . . لكننى عندما كنت أتقدم فى السن ، لم تعد هناك فائدة فى أن يكون الإنسان محاكياً للمانشو ومن ثم سلكت مسلك الشبان الآخرين من جيلى » . هذه هى قصة تفسر عمليات الحاضر والماضى على السواء . ذلك لأن شباب المانشو من منشوريا يتطورون سريعاً فى التماثل مع الصينيين المولودين فى منشوريا^(٢) .

يبد أن الرجل الإنجليزى فى عام ١٩٤٦ ميلادية ، لم يكن فى حاجة إلى قراءة جيون أو يحجز منامة على اكسبريس سكة حديد سيبيريا ليلدرس عملية التحول صوب البروليتاريا ؛ لأن فى وسعه دراستها فى وطنه . فى السينما يرى الناس من جميع الطبقات ، يتساوون فى الاستمتاع بأفلام مخصصة

(١) المين جين Min-Jen : هو الصينى المدنى أو أحد عامة الناس . (المؤلف)

(٢) صفحتا ٦٢ - ٣ O. Manchuria Cradle of Conflict . Lattimore

لإرضاء ذوق الأكثرية البروليتارية . كما أنه في النادي ، يجد لوحة الإعلانات السوداء لم تستبعد الصحافة الصفراء .

وحقاً ، لو أن معاصرنا جوفينان كان ذا أسرة ؛ لأمكنه البقاء داخل البيت ، وأن يجد مع ذلك مادة لكتابته . فما عليه إلا أن يرهف أذنيه (ولعل هذا خير من إقفالهما) لموسيقى الجاز أو المتنوعات التي يستحضرها أبناؤه من جهاز الإذاعة . وعندما يشاهد أبناءه في نهاية الإجازات المدرسية يعودون لمدرستهم العامة (وهي منظمة يبغيض الديمقراطيون انطوائيتها الاجتماعية) أخرى به أن لا ينسى سوءهم أن يدلّوه على القادة بين الطلبة . وإذا يتخذ رب أسرتنا الساخر - في حكمه في هذا العرض العابر - كومودوس الشاب الأريب مقياساً ، سيلاحظ أن الزاوية البروليتارية الفاسقة التي تبديها لتقبة الملاء وكوفية الأوباش التي تحمل طابع الاستهانة الثابت ؛ قد رتبت في الواقع بعناية لتخفي وراءها الطابع الارستقراطي الملزم . وهنا يبدو للعيان دليل قاطع على صيرورة الأسلوب البروليتاري ، هو أسلوب العصر المفضل . ولما كانت القشة تبين اتجاه هبوب الريح بالفعل ، فلقد تكون تفاهات الهجائين ؛ قمعاً لمطحن المؤرخ الأشد تزمّناً .

وإذا ما انتقلنا من تبدّل الأقلية المسيطرة الناتج عن مخالطتها الهادئة للبروليتاريا الداخلية ؛ لنفحص العملية الموازية لها ، وهي نزوعها صوب البربرية بفعل مخالطتها حريباً مع البروليتاريا الواقعة وراء الحد ، ألفينا حبكة المسرحيتين واحدة في تركيبها العام . فإن المنظر في المسرحية الأولى ؛ قوامه حد حربي مصطنع (مداره حدود دول عالمية) تشاهد بينه - وقتما ترفع الستار - الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الخارجية تجابه إحداها الأخرى في وضع قوامه ، على كلا الجانبين ، التوجّس والعداء . فإذا ما بدأت المسرحية ، يتحوّل التوجّس إلى تعاطف ، إلا أنه لا يقود - مع ذلك - إلى استقرار السلم . فإذا

ما نشبت الحرب ، يغدو الوقت — بالتدريج — في جانب الهمجي ، إلى أن يوفق أخيراً إلى شق طريقه عبر الحدود ، واجتياح المجال الذي كانت تلود عنه حامية الأقلية المسيطرة .

ويدخل الهمجي في الفصل الأول من المسرحية دنيا الأقلية المسيطرة ، في الدورين المتتابعين : الرهينة^(١) والجندى المرتزق . ويتبدى في كلتا الطائفتين حياء طبعاً بدرجة أكثر أو أقل . ويفد في الفصل الثاني مغيراً ، مكروها غير مرغوب في وجوده ؛ يستقر في النهاية مستعمراً أو فاتحاً . ومن ثم تتحول السطوة الحربية إلى يدى الهمجي خلال الفترة الواقعة بين الفصل الأول والفصل الثاني . ولهذا التحوّل المثير للملكوت — أى القوة والمجد — من ألوية الأقلية المسيطرة إلى ألوية البربرى ، تأثير عميق في وجهة نظر الأقلية المسيطرة . فإنها تنشذ الآن استرداد مركزها الحربى والسياسى المنهار عن طريق حصولها على الصفحة تلو الصفحة من كتاب الهمجي . وتعتبر المحاكاة بكل تأكيد ، أصدق أشكال المداينة .

وما دمنّا قد رسمنا الصورة العامة لحبكة المسرحية ، يغدو في وسعنا استعادة فاتحتها ، ومراقبة الهمجي ، إذ يتبدى على المسرح لأول مرة في دور تلميذ الأقلية المسيطرة . كما نشاهد الأقلية المسيطرة في شروعاتها للتحوّل صوب « النزعة الوطنية » . وعندئذ نسترق نظرة عابرة على الخصمين عند اللحظة المنقضية التى عندها — إبان منافستهما على استعارة رداء الريش الباعث على السخرية من أحدهما الآخر — يتخذان هيئة المشابهة الشاملة للغرين^(٢) الأسطورى . وأخيراً نلاحظ الأقلية المسيطرة السالفة الذكر ؛ تفقد آخر آثار طابعها الأصيل ، بانحدارها للملاقاة الهمجي المنتصر عند مستوى مبتدل من البربرية العارمة .

(١) الرهينة : يكون أميراً حتى يفدى . (المترجم)

(٢) الغرين Oriffin : وحش خرافى نصفه سبع ونصفه طير . (المترجم)

وتتضمن قائمتنا عن سادة الحرب البرابرة الذين برزوا للعيان لأول مرة كرهائن في أيدي دولة « متحضرة » ؛ طائفة من الأسماء المشهورة : من ذلك أنثودوريك قد أمضى فترة تمرينه وهو رهينة في بلاط القسطنطينية الروماني . وأمضى سكاندربج Scanderbeg فترة تمرينه رهينة في البلاط العثماني بأدرنه . كما تعلم فيليب المقدوني فنون الحرب والسلام في طيبة أبامبيوداس Epamiodas . وأمضى الاعم المغربي عبد الكريم الذي أفضى قوة حرية أسبانية في موقعة أنوال عام ١٩٢١ وزعزع دعائم النفوذ الفرنسي في المغرب من أساسه ، أمضى فترة تمرينه وهي أحد عشر شهراً ، في أحد السجون بمليله الأسبانية .

وتتسم بالطول ؛ قائمة البرابرة الذين « وفدوا » وشوهدهوا جنوداً مرتزقة ، قبل أن يفرضوا أنفسهم فاتحين . فلقد كان البرابرة التيوتون والعرب الأوائل الذين غزوا الأقاليم الرومانية إبان القرنين الخامس والسابع الميلاديين سليلي عدة أجيال من التيوتون والعرب الذين أمضوا خدمتهم العسكرية في القوات الرومانية . بالمثل مهتد جرس الخلفاء العباسيين الخاص خلال القرن التاسع الميلادي ، الطريق للمغامرين الأتراك الذين فقتوا إبان القرن الحادي عشر ، الخلافة إلى عدة دول خلفتها .

وفي الإمكان إيراد عدة أمثلة أخرى فتصبح قائمتنا أطول ؛ لولم تكن السجلات التاريخية لأوجاع الحضارات في أواخر أيامها ، نزاعة إلى أن تتكسر إلى شظايا . على أن في وسعنا على الأقل أن نخمن بأن برابرة البحر الأفاقيين الذين حاموا حول أهداب الإمبراطورية البحرية المينوية ونهبوا « كنوسوس » حوالي عام ١٤٠٠ ق . م ؛ قد أمضوا فترة مرانهم أجراً للملك مينوس ، قبل تطلعهم للحلول مكانه .

وتذكر لنا الرواية الماثورة ، أن فورتيجيرن vortigern — ملك كنت Kent البريطاني — قد استخدم جنوداً مرتزقة من الساكسون ، قبل

أن ينتزعه من عرشه ذاك النهابان هنجيست Hengist وهورسا Horsa اللذان لا نستطيع التحقق من شخصيتهما .

وفي وسعنا كذلك أن نكشف عدة أمثلة قصر فيها الجندي البربرى عن إدراك « مصيره الظاهر للعيان » :

فكان مقدرا للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، الوقوع فريسة الحرس الفارانجى (١) ؛ ولم يُغير عليها النورمنديون والسلاجقة ، ثم تنفتت على أيدي الفرنجة والبندقيين . وأخيرا يتلعهما العثمانيون برمتها .

وكان مصير الإمبراطورية العثمانية بدورها ، التقسيم بالتأكيد بين الجنود المرتزقة البوسنيين (٢) والألبانيين الذين أخذوا في دوران القرن الثامن عشر وإبان القرن التاسع عشر الميلاديين ، يؤكدون سريعا سيادتهم ، على باشوات الأقاليم ، بل على الباب العالى نفسه ؛ ولم يفد رجال الأعمال من الفرنجة ، متبعين أعقاب الجندي الألبانى . وهكذا عبّدوا للفصل الأخير من التاريخ العثمانى ، اتجاها جديدا غير منتظر ، قوامه إغراق بلاد الشرق الأدنى بالآراء السياسية الغربية و سلع مانشستر على السواء .

وتدرب كذلك الجنود المرتزقة الأوسكانيون ، على طرد من يستخدمونهم من اليونانيين ، أو استنصاهم كلما واتتهم الفرصة . ولم يكن ثمة شك في استرسالهم في هذا السبيل حتى يختفى آخر فرد من الجماعة اليونانية غرب مضيق أوترانتو ؛ ولم يستول الرومانيون في اللحظة الحرجة على بلاد أوسكانيا من الخلف . وكان هؤلاء الأوسكانيون قد وجدوا سوقاً لخدماتهم في المدن اليونانية في كامبانيا وفي مدن اليونان الأصلية .

ولقد تَوَحَّى هذه الأسئلة إلينا بحالة معاصرة لن تتمكن الآن من استنباء

(١) الفارانجى Varangian : الحرس الشمال الملكى لأباطرة بيزنطة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى البوسنة . وهى الآن مقاطعة من مقاطعات جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية .

(المترجم)

أمرها . وتتصل بالسبيل الذى يسلكه الجنود المرتزقة ؛ فهم إما أن يتحولوا إلى نهاين أو تذبل مشروعاتهم فى مبدأها - مثلاً. حدث لمشروعات الأوسكانيين والألبانيين أو ينتهى الحال بهم إلى نيل مرادهم مثل التوتون والترك . وإن هندی اليوم ، لينعم النظر جيداً فى دور هؤلاء البرابرة فى المستقبل ، فى مقادير الهند . إذ تكوّن من هؤلاء البرابرة فى عام ١٩٣٣ ما لا يقل عن سبّع جيش الهند النظامى ؛ وهم يتحصنون فى حصونهم بعيدين عن متناول سيطرة حكومة الهند . فهل يُقيّض يوماً ما لجنود الجوركا المرتزقين وغزاة الباتان أن يُذكروا فى التاريخ آباء وأجداد الغزاة البرابرة الذين ينتحون فى سهول هندوستان دولا تخلف الراجا البريطانى ؟

لسنا فى هذا المثال ، على علم بفصل المسرحية الثانى . ولكى نراقب تدرّج المأساة فى هذه المرحلة ، علينا أن نكرّر راجعين إلى قصة العلاقات بين الدولة العالمية الهيلينية والبرابرة الأوربيين القاطنين وراء الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية . وفى وسعنا أن نراقب من البداية حتى النهاية - ونحن على خشبة مسرح التاريخ هذه - العمليات الموازية لبعضها بعضاً . وهى عمليات تنحدر الأقلية المسيطرة عن طريقها صوب البربرية : فى حين يشيد البرابرة على حسابها دعائم مستقبلهم .

وتفتتح المسرحية فى جو من المنفعة الذاتية المستنيرة يتسم بحرية الفكر : « لم تكن الإمبراطورية موضع كراهية البرابرة . إذ كانوا فى الواقع يطمحون إلى الانخراط فى سلك خدمتها . وكان أقصى مطمح الكثيرين من رؤسائهم مثل الآريك وآتاولف ، أن يعينوا فى مراكز القيادة الحربية العليا . وكان من الجهة الأخرى ، ثمة استعداد مناظر للجانب الرومانى لاستخدام القوات البربرية فى الحرب » (١) .

ويبدو أن الألمان المنخرطين في الخدمة الرومانية ؛ قد أخذوا منذ حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى ، في العمل على الاحتفاظ بأسماهم الوطنية . ويشير هذا التغير في آداب السلوك - الذى يبدو أنه جاء مفاجئاً - إلى دخول الثقة بالذات والسعى لتحقيق المنفعة ، دخولا مفاجئاً دون تحفظ فى نفوس الشخصيات البربرية التى كانت قبل ذلك راضية على « تحولها إلى الأسلوب الرومانى » . ولم يثر إصرار الألمان الجديد هذا على الاحتفاظ بفرديتهم عند الرومان ، أية حركة مناهضة لنزعة البرابرة الانطوائية . بل أن البرابرة الذين انخرطوا فى الخدمة الرومانية ، قد بدأوا أكثر من ذلك ، يعينون فى هذا الوقت بالذات ، فى منصب القنصل وهو أسمى منصب يقلده الإمبراطور لفرد من الأفراد .

وعلى ذلك ؛ بينما كان البرابرة يضعون أقدامهم على أعلى درجات السلم الاجتماعى الرومانى ، كان الرومانيون أنفسهم ، يتحركون فى الاتجاه المضاد . مثال ذلك : استسلام الإمبراطور جراتيان (٣٧٥ - ٣٨٣ ميلادية) إلى شكل مستجد من الترفع المعكوس ؛ هوس لا بالابتدال ، ولكن بالبربرية . وقاده ذلك إلى محاكاة أساليب اللباس البربرى وإلى تكوين نفسه لممارسة أنواع الرياضة البربرية .

وفى الواقع ، نشاهد الرومان بعد مرور قرن ، يتطوعون فى العصابات الحربية التى كان يتزعمها رؤساء البرابرة المستقلون . ومن قبيل المثال ، أنه عندما كان القوط الغربيون يقاتلون الفرنجة فى فويلي Vouillé عام ٥٠٧ ميلادية للاستحواذ على بلاد الغال^(١) ، كان من بين المصائبين فى جانب القوط الغربيين ، أحد حفدة سيدونيوس أبوليناريس Sidoins A pollinaris الذى كان فى عصره ، يعيش حياة رجل الآداب الكلاسيكى المثقف . وليس هناك ما يُنبئ فى مستهل القرن السادس الميلادى ، على أن سليلي المديرين الرومان ، قد أبدوا نشاطاً فى اتباع زعيم Firrer

(١) الغال : فرنسا قديماً . (المترجم)

يقودهم إلى الحرب ، أقل مما أظهره سليلو البرابرة المعاصرين الذين ما فتئت لعبة الحرب منذ قرون مضت ، نسمة حياتهم^(١) .

ولقد بلغ الفريقان في هذا الوقت مرتبة ثقافية مشتركة ، تتشابه في نزعتها البربرية . وهذا ما سبق أن بيناه عندما رأينا كيف أن الضباط البرابرة المنخرطين في الجيش الروماني ، قد شرعوا منذ القرن الرابع ، في الاحتفاظ بأسمائهم البربرية . وشاهد القرن التالي في الغالين ، أسبق أمثلة الاتجاه المعاكس الذي سلكه الرومانيون الأصائل لاتخاذ الأسماء الألمانية . ولم ينته القرن الثامن الميلادي ، حتى غدا الاتجاه عاماً شاملاً ، فأصبح كل ساكن في بلاد الغال في عصر شارلمان يحمل — أياً ما يكون أصله — اسماً ألمانياً .

وإذا ما طرحنا جانباً تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية ؛ نجد قصة مماثلة تصور اتجاه العالم الصيني صوب البربرية ، وتقع تواريخه البارزة في ثنايا ما يقرب من القرنين قبل القصة الرومانية . وسنجد اختلافاً خطيراً بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة . إذ كان مؤسسو الدول المستخلفة للدولة العالمية الصينية ، موسوسين تجاه إضفاء مظهرهم البربري البادى للأنظار عن طريق انتحالهم أسماء صينية مشتقة اشتقاقاً محكماً . وليس بالأمر الخيالي ، وجود ارتباط بين اختلاف الممارسة هذا بالنسبة لنقطة تافهة بشكل ظاهر ، وانبعثت الدولة العالمية الصينية في خاتمة المطاف في شكل أعظم فعالية بكثير من قيام شارلمان باستدعاء شبح الإمبراطورية الرومانية ، استدعاءً مماثلاً .

وقبل أن ننهي بحثنا عن نزوع الأقليات المسيطرة نحو الطابع البربري ، عسانا نتوقف لنخاطب أنفسنا عن مدى إدراك عالمنا الغربي الحديث لأية سمة من سمات هذه الظاهرة الاجتماعية . ولعلنا نميل لأول وهلة ،

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الشعب الألماني الذي تبع هتلر واتخذ زعيماً قاده إلى الحرب . (المترجم)

إلى الرد بأن مجتمعنا يضم بين مجساته العالم بأسره ، وأنه لم يعد هناك بروليتاريات خارجية على أية أحجام جوهرية ، في مكنتها توجيهنا صوب البربرية . لكن علينا أن نتذكر حقيقة تبليل الفكر نوعا ما ، مدارها أنه يوجد اليوم في قلب المجتمع الغربي لعالم أميركا الشمالية الجديد ، عدد ضخم من السكان المنتشرين ذوى الأصل الإنجليزي والاسكتلندي أصحاب التراث المسيحي البروتستانتي الاجتماعي الغربي ، قد نفشت فيهم البربرية في صورة عميقة لا تُخطئ ، عن طريق استنباذهم في الأجوات المهجورة لجبال الألباش بعد ما مهدوا لهذا ببقائهم فترة ما في المنفى على « الحد الكلتى » لأوربا .

ولقد وصف مؤرخ أمريكي يُعتبر عمدة في هذا الموضوع ، التأثير المهمجى للحياة عند حدود أمريكا ، بقوله :

« يجدر بنا عند بحث مسألة استيطان أمريكا ، ملاحظة كيفية دخول الحياة الأوربية القارة ، وكيفية تحويل أميركا هذه الحياة وتدرجها بها ، ورد فعلها على أوربا . إن تاريخنا المبكر ، عبارة عن دراسة الأجنة الأوربية في ترعرعها في بيئة أمريكية . . . إن الحد هو أسرع وسائل التأمرك وأشدها فعالية . ولقد سيطرت القلاة على المستعمر ، فوجده أوروبيا في ملبسه وصناعاته وأدواته وأنماط عمله وتفكيره . فطفقت تأخذه من عربة السكة الحديدية وتضعه في القارب المصنوع من خشب التامول ؛ تجرده من أردية الحضارة وتخلع عليه قبض الصيد والمقسين^(١) . تضعه في مأوى قبيلتي الشيروكي والإيروكواس الهنديتين ، مأوى منحوت في الشجر ، وتنصب حوله حُسيكة هندية^(٢) ، ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يزرع الذرة الهندية ويحرق الأرض بعصاة حادة . ويصرخ صرخة الحرب ويأخذ

(١) المقسين : Moccasin جذاء من جلد الأيل يصنع من قطعة واحدة ويصنع عند هنود

أمريكا . (المترجم)

(٢) دريئة أو سور يتخذ من أوتاد يلقى عليها الحسك . (المترجم)

بعد انتصاره. فروة رأس عدوه المنهزم وفقاً للأسلوب الهندي القديم .
وقصارى القول ؛ فإن البيئة على الحدود ، هى فى مبدأ الأمر أقوى من إرادة
الرجل . . لكنه يحول القلاة شيئاً فشيئاً لإرادته ، ولن تكون أوربا القديمة
حصيلة جهوده بل نتاجاً جديداً أمريكى الطابع « (١) » .

وإذا كان هذا المبحث صحيحاً ، فإنه يلزمنا بأن نفرض وجود ضغط
اجتماعى أن نصرّح بأن ذا قوة عارمة ، استبانت آثاره - فى أمريكا الشمالية
على الأقل - على قسم من أقسام الأقلية المسيطرة الغربية بفعل ، قسم من أقسام
بروليتاربه الخارجية .

وهكذا يتبين على ضوء هذا النذير الأمريكى ، مدى المجازفة بالافتراض
بأن داء البربرية الروحاني ، يعتبر نذير شؤم فى مكنة الأقلية المسيطرة الغربية
تجاهله تماماً . إذ يبدو أن فى وسع البروليتاريات الخارجية أن تثارّ لنفسها ،
حتى ما هزم منها وأبيد .

٢ - السوقية والبربرية فى الفن :

بانقلنا من الميدان العام للسلوك والعادات ، إلى الميدان الخاص
للفن ؛ سنجد الشعور بالابتدال يتم عن نفسه هنا مرة أخرى فى الشكلىين
التعاقبيين ، التبدل والبربرية . وإن فى وسع الفن - فى أحد هذين الشكلىين
أو الآخر ، إبان التحلل الحضارى - أن يكفّر عن استطارته الشاذة فى
اتساع نطاقها وسرعة انتشارها ، بتفريطه فى اتباع أسلوبه المميز الذى
هو سمة الأصالة الرفيعة .

ويطالعنا مثالان تقليديان للسوقية فى الأساليب التى أشعت فيها الحضارة
المينوية المتحللة والحضارة السورية المتحللة تأثير الإحساس بالجمال ، حول
شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

إذ تتميز فترة الفراغ (حوالي ١٤٢٥ - ١١٢٥ ق.م) التي تلت تدمير الإمبراطورية البحرية المينوية ، بتبدّل ألمّ بالأسلوب الفني ، يطلق عليه «العصر المينوي الثالث» لكنه يتفوق من ناحية استطرارة ، على استطرارة جميع الأساليب الفنية الرفيعة التي تقدمته في الظهور .

وتتميز بالمثل في ناحية الفن الفينيقي فترة الاضطرابات (حوالي ٩٢٥ - ٥٢٥ ق. م) التي تلت انهيار الحضارة السورية ؛ بتبدّل مائل وانتشار يماثله لتلك البواعث التي تتصل بعضها ببعض ، اتصالاً آلياً .

ولقد وجدت سوقية مماثلة - في تاريخ الفن الهليني - تعبيراً تبدّى في التغلّي في الإفراط في الزخرفة وفقاً لأسلوب نظام العمارة الكورنثي . ويعتبر هذا الاتجاه إسرافاً مغائراً إلى أبعد حد ، للمنحى الذي تتميز به العبقورية الهلينية . وإذا ما بحثنا عن أمثلة بارزة لهذا الطراز الذي بلغ ذروته إبان حكم الإمبراطورية الرومانية ، فلن نعثر عليها في قلب العالم الهليني ، ولكن في بقايا معبد في بعلبك لمعبود غير هليني ، أو في نواويس صنعها الهنّاؤون الهلينيون المختصون بصنع النصب التذكارية لإبداع البقايا الفانية لسادة الحرب البرابرة المتأثرين بالطابع الهليني ؛ أولئك الذين استوطنوا الحافة الشرقية القصوى للهضبة الإيرانية .

فإذا ما انتقلنا من السجل المعاري إلى السجل الأدبي لتحلل المجتمع الهليني ألفينا « مثقّى » الأجيال القليلة الأولى بعد انهيار عام ٢٣١ ق. م ، يندبون تحول الموسيقى الهلينية إلى التبدّل . وقد سبق لنا في موضع آخر ، ملاحظة التبدّل الذي أصاب الدراما على أيدي (الفنانين المتحدّين المحدودين) (١) هـ

وعسانا أن نلاحظ في العالم الغربي الحديث أن الأسلوب النصيري الذي

(١) يتهم المؤلف هنا على شركة الفنانين المتحدّين السينائية مشيراً إلى انحدار الفن على أيدي أصحابها . (المترجم)

كان آخذاً في الاضمحلال ، هو الذى ألهم العالم الغربى أساليبه الفنية ذات الطابع الهليني ، من ناحية اتصاله بالزخرفة المرككة العجيبة^(١). ولم يلهمه أسلوب الفن الكلاسيكى الهليني المتزمت . وفى وشعنا أن نميز فيما كان يدعى بأسلوب « صندوق الشوكلاتة » في الفن الفيكتورى ذى الطابع التجارى ؛ مشابهة للأسلوب الذى شاع إبان « العصر المينوى الثالث » . وينذر هذا الأسلوب بجلاء ، بغزو سطح الأرض بأسره ، بفعل تسخير ه لخدمة أسلوب فنى غربى غريب ، ينصرف إلى الإعلان التصويرى عن سلع التاجر .

ويبلغ الأسلوب الفنى الأحق المعروف بـ « صندوق الشوكلاتة » من التدمير درجة نهت جيلنا نفسه إلى بذل محاولات يائسة لتلمس أسباب العلاج . وإذا كنا سنناقش في فصل تال عن العصر الفنى البيزنطى السابق على عصر رافاييل^(٢) ؛ موضوع رأينا في التبدل ، إلا أنه يجدر بنا هنا أن نخطط علماً بعزوف العالم المعاصر عن التبدل وركونه إلى البربرية . فإن المحترمين أنفسهم من مثالى الوقت الحاضر الغربيين الذين لم يجدوا في الفن البيزنطى ملجأ أنيسا ، قد حولوا أنظارهم شطر بنين Benin^(٣) ، ولم يقتصر الحال بالعالم الغربى - الذى جفت موارده الإبداعية على ما يظهر - على التوجه صوب برايرة أفريقيا الغربية بحثاً عن إلهام غض لهذا الفرع من فن نقش الحجارة الكريمة ، بل إنه استورد إلى قلب أوروبا - عن طريق أمريكا - موسيقى بلاد غرب أفريقيا ورقصها ونحتها .

ويبدو لعين الشخص العادى ، أن الفرار إلى فن « بنين » وإلى الفن البيزنطى ، لن يقود الفنان الغربى الحديث إلى استرداد ذاتيته المفقودة .

(١) المرككة يوصف بذلك بناء مزخرف بطريقة الركوك وهو ضرب من الزخرفة ؛

(المترجم)

(٢) مصور إيطالى شهير ، ظهر في عصر النهضة . (المترجم)

(٣) مدينة في أفريقيا الغربية . ويمنى المؤلف بذلك ، تقليد الأساليب الأفريقية .

(المترجم)

بل إنه إن لم ينقذ نفسه ، فلعله — على ما يتصور — يغدو وسيلة خلاص للآخرين . ويلاحظ برجسون ما يأتي :

« إن مدرساً عادياً يلقن درساً عن الميكانيكا من علم أبدعته عقول رجال عباقرة ، قد يدفع تلميذاً أن ينثر نفسه للعلم ، بينما هو لا يرى أى شئ في نفسه » .

وإذا كان « الفن التجارى » للعالم الهليني المتحلل ، قد أنجز المأثرة المذهلة ، ببعته إلى الوجود الفن الإبداعى السامى للبوذية المهايانية ، بفضل ملاقاته مع التجربة الدينية لعالم آخر متحلل على الأرض السندية ، فلن نستطيع الحكم مقدماً على أن أسلوب « صندوق الشوكولاتة » الفنى الغربى الحديث يعجز عن إتيان معجزات تماثل فى تألقها ، تألق أسوار الإعلانات وعلامات السماء .

٢ - اللغات العامة^(١) :

يكشف الشعور بالاختلاط فى الميدان اللغوى عن نفسه ، فى التغير من صفة محلية مميزة ، إلى بلبلة لغوية شاملة .

وأنه وإن كانت الغاية من وجود اللغات ، تحقيق الاتصال بين البشر ؛ إلا أن 'جماع' تأثيرها الاجتماعى على تاريخ البشرية ، ما يزال ينحو بالفعل حتى الآن إلى تفريق الجنس البشرى ، لا إلى توحيده . إذ ما فتئت اللغات تأخذ عدداً من الأشكال المتفاوتة ، إلى درجة أنه ما يزال التعامل باللغة الواحدة — حتى ما يتمتع منها بأوسع انتشار — محصوراً فى نطاق ضئيل نسبياً من مجموع البشر ؛ وما يزال العجز عن التخاطب بها يعتبر ممة « الأجنبى الظاهرة » .

وفى وسعنا أن نشاهد اللغات إبان المرحلة الأولى لانحطاط الحضارات

المتحلبة تشن على بعضها بعضاً حروباً مهلكة ، وتغزو لنفسها - إن انتصرت - مناطق واسعة على حساب منافسيها المنهزمين . وفي هذا تقتفى أثر أقدار الشعوب التي تتخذها لغات أصلية في حديثها

ومصدقا لذلك ؛ إذا كانت هناك مسحة من الحقيقة التاريخية في أسطورة بلبله الألسن في أرض شينعار تحت قدم « الزيجورات »^(١) في مدينة بابل التي شيدت في زمن قريب ، فلربما تقودنا القصة إلى مدينة بابل التاريخية إبان عصر كانت فيه الدولة العالمية السومرية في طريق الانهيار . ذلك لأن اللغة السومرية قد أصبحت خلال فصل الدمار الأخير من التاريخ السومري ، لغة ميتة بعد قيامها بدور تاريخي كأداة للثقافة السومرية . في حين بلغت اللغة الأكادية نفسها فجأة في زمن حديث ، مركزاً يتعادل في أهميته مع اللغة السومرية . فأصبح عليها الآن أن تنازع حشداً من اللغات الدارجة ، التي جلبتها العصابات الحربية البربرية إلى البلاد التي خلفها أهلوها طعمة للناهبين .

ويصدق موضوع أسطورة بلبله الألسنة على الحياة ، من ناحية تثبيتها هذا الوضع التبادلي المتسم بالغموض ؛ غموض يعتبر حائلاً فعالاً في وجه تحقيق فعل اجتماعي يتصف بالتناسق ، في مكنته الوقوف في وجه أزمة اجتماعية طارئة . ويتيسر تفسير هذا الترابط بين الاختلافات اللغوية والشلل الاجتماعي ، بأمثلة تبرز بوضوح من بين ثنايا ضوء التاريخ الساطع :

إذ نلاحظ في جيل العالم الغربي الحاضر ، أن الاختلافات اللغوية ، هي أحد مظاهر الضعف القتالة في ملكية هابسبرج الدانوبية التي اندثرت في الحرب العالمية الكبرى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

ونجد لعنة بابل^(٢) - حتى في نظام رفيق الباديشاه العثماني الخاص إبان عصر

(١) زجورات Ziggerat : كلمة سومرية تعني « جبل » وتعني دنا الجبل الصناعي أو البرج الذي يقام عليه هيكل الإله . (المترجم)

(٢) أي لعنة البلبله . (المترجم)

تكماله عام ١٦٥١ - نحل على جنود الرماح وهم في أراضي السراى السلطانية ، فتهبط بهم إلى مرتبة الضعف والقصور . وكان ذلك أثناء لحظة حرجة ، لثورة اندلعت في القصر . فلقد نسي غلمان السلطان - في غمار استئثارهم - ما لقنوه من اصطلاحات عثمانية مصطنعة ، فكان أن صكّت آذان المشاهدين المتحيرة ، صوت ضجة صحبتها أصوات ولغات مختلفة . إذ صاح البعض بالكرجية والآخر بالألبانية والبوسنية والتركية والإيطالية وبلغت مختلطة (١) .

وتعتبر ظروف هذا الحادث الطفيف في التاريخ العثماني ، عكس حادث إقبال الروح القدس (وفقاً لما سجله الفصل الثاني من أعمال الرسل) . فإن اللغات التي يتحدث بها المتكلمون في هذا المشهد أجنبية على شفاههم : فإن سكان الجليل غير المثقفين لم يكونوا حتى ذلك الوقت ، يتكلمون ؛ وقلما سمعوا بلغة أخرى غير لغتهم الأرامية الوطنية . ومن ثم يصور تفشى اللغات الأخرى بينهم فجأة ، نعمة أنعمها الله . ولقد فسرت هذه العبارة المبهمة تفسيراً مختلفاً ، لكن لا يوجد نزاع بالنسبة للنقطة التي تهمننا . إذ من الواضح أن منحة اللغات في نظر كاتب سفر أعمال الرسل ، كانت أول تركية لمواهبهم الطبيعية التي مسّت إليها احتياجات الرسل الذين كلّفوا بإنجاز رسالة رائعة ، قوامها هداية البشرية بأسرها إلى « الدين الأسمى » الموحى به أخيراً . بيد أن المجتمع الذي نشأ الرسل بين ظهرانيه ، كان له من اللغات العامة ، عدد لا يقل عما لدى عالمنا الحاضر . فإن الأرامية - لغة الجليل الأصلية - كانت تخدم المتكلم بها ؛ شمالاً حتى آمانوس ؛ وشرقاً حتى جبل زاجروس ؛ وغرباً حتى النيل . هذا ؛ بينما استطاعت اليونانية التي كتب بها سفر أعمال الرسل أن

(٢) صفحة ١٨ Rycant, P. : The Present state of the ottoman Empire (1668)

تحمل بعثة التبشير المسيحية فيما وراء البحار ، حتى روما وما بعدها .
 وإذا ما تابعا الآن فحص أسباب ونتائج استحالة اللغات المحلية الأصلية
 إلى لغات عالمية ؛ سنجد أن لغة تظفر بهذا النصر على منافسيها ، تعزو نجاحها
 عادة إلى الأفضلية الاجتماعية المتصلة بقيامها — في عصر اجتماعي متحلل —
 أداة لغوية (سواء في الحرب أو التجارة) لجماعة من الجماعات التي تتسم بالقدرة
 وشدة البأس . وسنجد كذلك أن اللغات — مثل الكائنات البشرية — تعجز
 عن تحقيق الانتصارات من غير أن تؤدي ثمنا . ويتمثل الثمن الذي تؤديه
 لغة من اللغات كي تصبح لغة مختلطة ، في التضحية بأسباب حذوها الوطني .
 ذلك لأنه يتم على شفاة أولئك الذين تعلموا وحدهم اللغة في طفولتهم ، التحدث
 بها بذلك الكمال الذي هو بائنة الطبيعة وبأس الفن . ويتمسر تحقيق هذا
 الرأي باستعراض البيئة :

فإننا نشاهد في تاريخ تحلل المجتمع الهليني ؛ لغتين الواحدة بعد الأخرى —
 لغة آتيكا اليونانية ثم اللغة اللاتينية — قد بدأتا على التوالي لغتين أصليتين
 لمقاطعتين صغيرتين (آتيكا ولاتيوم) ثم انتشرتا بعد ذلك خارجهما .
 وفي مطلع العصر المسيحي ، نجد يونانية آتيكا تستخدم لغة قضائية إدارية
 على ضفة نهر الجيلوم^(٢) ؛ واللاتينية تستخدم على ضفاف الراين . ولقد
 ابتدأ امتداد مجال يونانية آتيكا مع تشييد أول صرح لإمبراطورية أثينا
 البحرية أثناء القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ثم انتشرت بعد ذلك انتشاراً
 هائلاً نتيجة اتخاذ فيليب المقدوني لهجة آتيكا ، لغة رسمية لحكته العليا .
 أما عن اللاتينية فقد تبعت لواء الفيالق الرومانية الظافرة .

على أننا ؛ بعد ما أبدينا إعجابنا بانتشار اليونانية واللاتينية ؛ سنتأثر بالمثل —
 لو درسنا تطورها المعاصر من وجهة نظر الفقيه اللغوي والخبير الأدبي — بما

(١) أحد أنهار البنجاب الغربية بباكستان ، وينبع من جبال كشمير . (المترجم)

أصاها من انحطاط . فإن آتيكية سوفوكليس وأفلاطون البديعة الضيقة الانتشار ، قد تدهورت إلى اللغة المبثلة الواردة في ترجمة الثوراة في عهد المسيحية من العبرية^(١) وفي ترجمة بوليبس والعهد الجديد . كما استخالت في النهاية ، أداة شيشرون وفرجيل الأدبية ؛ إلى « لاتينية عامية » ظلت تقوم بواجبها في تحقيق الاتصالات الدولية الجديدة في المجتمع المسيحي الغربي التالي . ولقد كان ميلتون مثلاً هو « السكرتير اللاتيني » لحكومة كرومويل . واستمرت « اللاتينية » واسطة التخاطب في البرلمان الهنغاري حتى عام ١٨٤٠ . وكان التخلي عنها ، إحدى استجابات صراع الأخوة ، الذي تفجر عام ١٨٤٨ بين القوميات التي يختلط بعضها ببعض الآخر :

وأخذت خرائب كل من المجتمعين المهارين للحضارتين البابلية والسورية المحتلّتين ، تبرز إحداها بالأخرى على التوالي ؛ بحيث لم يعد يمكن تمييز أيهما عن الآخر ، كلما تكاثف انتشارهما على مجاهما المشترك . ولقد مدّت اللغة الأرامية من سلطانها . فانتشرت في غزارة تماثل غزارة العشب البري ، عبر المستوى المهار لهذه الانقراض المختلطة . وذلك على الرغم من أن الأرامية — عكس اليونانية واللاتينية — لا تدين للغزاة الموفقين إلا بقليل من الرعاية أو قد تنقّي الرعاية كلية . وإنه وإن بدا تداول اللغة الأرامية في عصره ، ملفتاً للنظر ، إلا أنه يبدو قصر حياته وضيق مجاله بالمقارنة بما قبض للأيجدية والشكل الكتابي الأراميين من انتشار واسع . فلقد وصل الهند شكل من أشكال الكتابة الأرامية ، فاستخدمه الإمبراطور البوذي آشوكا في تسجيل متونه المكتوبة باللغة السنسكريتية الدارجة ؛ وهو تسجيل شمل مدونتين من المدونات الأربع عشرة ..

وسلك شكل آخر لهذه الكتابة — ويدعى بالصغد^(٢) طريقه صوب

(١) أي الترجمة اليونانية الأولى للثوراة . (المترجم)

(٢) الصغد . نسبة إلى لغة الصغد وهم قوم من الإيرانيين القدماء . (المترجم)

الشمال الشرقى حتى نهر أمور، فكان أن أتاح للمانشو عام ١٥٩٩ ميلادية حروفا أبجدية . واستُخدم شكل ثالث للأبجدية الأرامية ، حاملا للغة العربية هـ

وإذا ما ولينا وجهنا بعد ذلك شطر العالم العقيم للمدن الإيطالية — ومركزه الأساسى إيطاليا الشمالية — الذى برز فى المسيحية الغربية فى عصر ما يسمى بـ « القرون الوسطى » ، سنجد أن اللهجة التوسكانية المنبثقة عن اللغة الإيطالية ، تحجب اللهجات المنافسة لها ؛ مثلما حجبت لهجة آتيكا اللهجات المنافسة اليونان القديمة . وفى نفس الوقت ، نشرها حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط بأسرها ، تجار البندقية وجنوا وبناءة الإمبراطورية . ولقد جاوز تداول اللهجة التوسكانية الإيطالية عمر الرخاء — بل الاستقلال — الذى حظيت به المدن الإيطالية . ومصدقا لذلك ؛ باتت اللغة الإيطالية الشائعة فى القرن التاسع عشر ، لغة الخدمة فى بحرية عثمانية كانت تدفع الإيطاليين عن مياه المشرق . كذلك أصبحت نفس اللغة الإيطالية أثناء القرن التاسع عشر ، لغة بحرية هابسبرجية^(١) نجح سادتها الأباطرة خلال الفترة ١٨١٤ — ١٨٥٩ فى إحباط الأمانى القومية الإيطالية . على أن هذه المخالطة اللغوية الإيطالية فى بلاد المشرق — التى كانت اللغة الإيطالية قاعدتها والتى دفنت تقريبا تحت ثقل أشنات الكلمات الأجنبية المتزايدة — تعتبر مثالا يبعث على الإعجاب للنوع الذى تمثله ، بحيث أن اسمه التاريخى قد بات يحمل بين طياته معنى جامعا .

على أنه قد حل مكان هذه اللهجة التوسكانية فيما بعد — بل فى مرابضها الشرقية المجانسة — لغة فرنسية مختلطة . ولقد حددت مستقبل اللغة الفرنسية ، حقيقة مدارها ؛ أنه حدث فى غضون زمن اضطرابات عالم المدن الإيطالية والألمانية والفلمنكية المنهار — الذى انطلق إلى ختام القرن الرابع عشر ولبث

(١) هابسبرجية : نسبة إلى بيت هابسبرج الذى كان يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ثم إمبراطورية النمسا والمجر حتى عام ١٩١٨ . (المترجم)

حتى نهاية الثامن عشر — أن حملت فرنسا لواء النصر في نزاعها مع الدول العظمى في سبيل السيطرة على نقطة هذا المجتمع المركزية المضمحلة . وترتب على انتصار فرنسا ؛ صيرورة الثقافة الفرنسية منذ عصر لويس الرابع عشر وما تلاه ؛ موضع جاذبية ، اتصل تقدمها مع تقدم الجيوش الفرنسية . وعند ما أنجز نابليون ما طمح إليه أسلافه من ملوك أسرة البوربون من تجميع الشظايا المحطمة للمدن التي كانت تنتثر على جميع وجه أوروبا ، (قرب مداخل الأمة الفرنسية ؛ من بحر الأدرياتيك ، إلى بحرى الشمال والبلطيق) في فسيفساء فرنسية الرسم ؛ أثبتت الإمبراطورية النابليونية ؛ أنها قوة ثقافية ، مثلما هي نظام حربى .

على أن الامبراطورية النابليونية قد لاقت حثفها بفعل هذه الرسالة الثقافية . إذ كانت الآراء التي حملتها (باستخدام المعنى الإكلينيكي ^(١)) تعبيراً عن ثقافة غربية حديثة ؛ كانت ما تزال في طور النمو . فكان مناط رسالة نابليون ، إتاحة دولة عالمية ، لمجتمع مُصَغَّر من المدن كامن في قلب المسيحية الغربية . ولكن ما كانت وظيفة الدولة العالمية ، إتاحة قيام دولة عالمية تستلهم الثورة والدينامية ؛ وحقا ، يعتبر هذا تناقضا شبيه باستخدام صوت الترومبون ^(٢) في إغراء الأطفال بالنوم .

ولم يكن ليتيسر ، أن تقوم « أفكار الثورة الفرنسية بدور العامل الملطف الذى قد يحمل الإيطاليين والفلمنكيين وسكان الراين ومدن الهانسا ، على مهادنة طغيان بناء الإمبراطورية الفرنسية ، الذين استقدموا تلك الأفكار . فإن ضغط فرنسا النابليونية الثورى ، قد أتاح لهذه الشعوت المتراخية — إلى أبعد مما تقدم — صدمة مثيرة ؛ أيقظتها من بلادتها .

(١) أى بتشبيه ذبوع الآراء بانتشار الجراثيم ، كناية على قوة هذا الذبوع . (المترجم)

(٢) آلة موسيقية تستخدم بالنفخ ، وصوتها صاخب . (المترجم)

وأوحت إليها التمرّد ، وخلع نير الإمبراطورية الفرنسية عنها ؛ كخطوة أولى تخطوها صوب أماكنها ، كأهم ناشئة ، في عالم غربي جديد :

وبالأحرى ؛ حملت الإمبراطورية النابليونية بين طياتها ، البذور البروميشية^(١) ؛ التي قادت بالضرورة إلى إخفاقها في دورها الأييميئي^(٢) ؛ المتصل بقيامها بدور الدولة العالمية لعالم متداع . وهذا العالم المتداعي ؛ قد أبدع - في أوج نهاره الماضى الطويل - بهاء وجلال كل من فلورنسا والبندقية وبروچ ولوبيك .

ولقد تمثل العمل الحقيقي الذى أنجزته إمبراطورية نابليون بالفعل ؛ في سحب السفائن الجانحة لعبارة بحرية من عمائر القرون الوسطى ؛ سحبها إلى مجرى التيار المائى للحياة الغربية . يضاف إلى ذلك ؛ أن إمبراطورية نابليون ، قد استنارت في نفس الوقت ، بحارة تلك العائر البحرية الفاترى الهمة ، لجعل سفائنهم صالحة للبحر . ولقد يُصبح هذا الإنجاز الواقعى عملاً قصيراً وجحوداً في طبيعة الوضع ؛ حتى ولو لم يستر نابليون العداوة الصلدة للدول قومية ؛ أمثال بريطانيا وروسيا وأسبانيا ؛ وتقع وراء حدود عالم المدن الذى مجال الفعل الطبيعي لنابليون ، وفقاً لاستعراضنا .

على أن ثمة في « المجتمع الكبير للعصر الحاضر » تراثاً أساسياً لدور يبلغ طول أمدّه مائتى عام - وكان حكم نابليون القصير ذروته - أيّدته فرنسا في المرحلة الأخيرة لعالم دولة المدينة . وكان مناط هذا الدور ؛ نجاح اللغة الفرنسية في إقامة نفسها لغة مبتدلة^(٣) ، لهذا الجزء المركزى من العالم الغربى ، بل إنها قد مدّت سلطانها إلى الإمبراطوريتين الأسبانية والعثمانية ؛ أى إلى الأطراف القصوى لمناطق النفوذ السابقة .

(١) نسبة إلى بروميشوس الذى تذكر الأساطير اليونانية ، أنه هو الذى منح البشر المعرفة . (المترجم)

(٢) الأييميئى : نسبة إلى اييميشوس . ويمثل في الأساطير اليونانية ؛ الفناء والأمراض والآلام التى تبتلى بها الآلهة البشر عقاباً لهم . (المترجم)

(٣) يقصد باصطلاح اللغة المبتدلة هنا ؛ اقتحام كلمات وتعبيرات غريبة على اللغة الأصلية ؛ لأن الذى يضعف من صفاتها الأصلية (المترجم)

وما يزال الإلزام باللغة الفرنسية يحمل المسافر عبر بلجيكا وشبه جزيرة أيبيريا وأميركا اللاتينية ورومانيا واليونان وسوريا وتركيا ومصر. ولم تنقطع اللغة الفرنسية عن أن تكون طوال الاحتلال البريطاني لمصر ، لغة التخاطب الرسمي بين ممثلي الحكومة المصرية والمستشارين البريطانيين . ومصدقا لذلك ، نجد المندوب السامي البريطاني (اللورد اللنبي) يقرأ على رئيس الوزارة المصرية^(١) في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ باللغة الانجليزية ، تبليغين تضمننا إنذارا نهائيا اقتضاه مصرع السردار هـ وكان المقصود من الاختبار اللغوى الغير المعتاد ، الإشارة إلى ما يعمل في نفوس الإنجليز من سخط . على أنه قد سلّمت في نفس الوقت ، نسخ بالفرنسية من هذين البلاغين البريطانيين . فالواقع أن حملة نابليون المصرية (التى جاءت إثر بحارة القرون الوسطى الإيطاليين ، ويعتبر هذا عادة عملا ضارا لا رابطة له وعديم الجدوى في الحياة الجارية لفاتح أوربي) مظهر للجهود الضخمة التى بذلتها فرنسا لبذر بذور ثقافتها في أرض كانت ميدانا صالحا للاستجابة لها وإن نأت عنها .

وإذا اعتبرت اللغة الفرنسية المبتدلة بمثابة أثر تذكارى لانحلال مجتمع في نطاق الجسم الاجتماعى الغربى ، يمت إلى القرون الوسطى ، فلعلنا نجد في اللغة الإنجليزية المبتدلة حصيلة تلك العملية الضخمة لعملية الامتزاج التى وسّعت نطاق المجتمع الغربى وأذابته في « مجتمع كبير » ذى مجال عالمى . وما انتصار اللغة الإنجليزية إلا نتيجة دخول بريطانيا العظمى نفسها في كفاح حربى وسياسى وتجارى في سبيل السيادة على العالم الجديد عبر البحار ، سواء أكان شرقا أم غربا . فكان أن أصبحت الإنجليزية هي لغة أميركا الشمالية الوطنية ، كما غدت اللغة المبتدلة السائدة في شبه

(١) الزعيم سعد زغلول رحمه الله . (المترجم)

القارة الهندية^(١) : وتتداول الإنجليزية على نطاق واسع في الصين واليابان .
ولقد سبق أن ألفينا الإيطالية تُستخدم في الأساطيل البحرية
لأعداء الدول الإيطالية : ونجد بالمثل الرفيق بورودين المندوب
الروسي يستخدم في الصين عام ١٩٢٣ اللغة الإنجليزية واسطة للاتصال
بالمندوب الصيني لحزب الكيومنتانج ، لرسم العمليات السياسية التي تهدف
إلى إبعاد البريطانيين عن الموانئ الصينية. التي تنظمها المعاهدات^(٢) .
وتستخدم الإنجليزية أدلة اتصال بين الصينيين المتعلمين القادمين من أقاليم
يتحدث فيها بلهجات صينية متباينة . وهنا نجد التبدل اللغوي على شفاه
المتكلمين بالإنجليزية في الهند والصين ، على غرار ما علمناه بالنسبة للإيطالية
التوسكانية القديمة واليونانية الأتيكية القديمة .

وفي وسعنا أن نتبع في إفريقيا تقدم لغة عربية مبتدلة . إذ تشق تلك
اللغة طريقها صوب الغرب من الساحل الغربي للمحيط الهندي إلى
البحيرات ، وصوب الجنوب من الساحل الجنوبي للصحراء إلى السودان ؛
صحبة جماعات العرب وأشباه المستعربين المستولدين ، وقناصة الرقيق
والتجار : وما يزال تيسر حتى اليوم ، دراسة النتائج اللغوية لهذه الحركة في
حياة القارة الإفريقية . ذلك لأنه بينما قاد التدخل الأوربي في إفريقيا إلى
تجميد الضغط المادى للمقتحمين العرب ، أخذ ضغط اللغة العربية اللغوي
على اللهجات الدارجة الوطنية الإفريقية ، يتلقى بالفعل دافعا قوياً هيأته

(١) ما تزال الإنجليزية هي اللغة الرسمية لدولتي الهند وباكستان حتى بعد إعلان استقلالها
وصيرورتها جمهوريتين داخل نطاق الكومنولث . (المترجم)

(٢) تغيرت الأحوال في الصين من أساسها بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم . فقد
استنصل التفوذ الأجنبي من أساسه . أما بالنسبة للغة الإنجليزية في الصين فقد حلت مكانها اللغة
الروسية التي باتت تدرس في جميع معاهد الصين بصفة إجبارية . وهذا ما شاهدته شخصيا وقت
مروري بتلك البلاد في ديسمبر سنة ١٩٥٧ . (المترجم)

له عملية فتح « إفريقيا » التي استولت عليها الدول الأوروبية من أيدي العرب . فإن اللغة العربية تتمتع في ظل الأعلام الأوروبية - الذي يعنى فرض نظام غربى - بتيسيرات للتقدم ، أفضل مما كان لها من قبل . ولعل أعظم فائدة أتاحها الحكومات الاستعمارية الأوروبية للغة العربية ، بغية سد احتياجاتها الإدارية ، تتمثل في التشجيع الرسمي الذي تمنحه تلك الحكومات للغات المختلطة التي برزت على السواحل الثقافية المختلفة التي كان مدّ العربية المتدفق يتدفق عليها عبر نباتات المستنقعات الوطنية . وفي الواقع أن الاستعمار الفرنسي على النيجر الأعلى والاستعمار البريطاني على النيجر الأدنى ، والاستعمارين البريطانى والألماني في ساحل إفريقيا الشرقى لزنجبار ؛ هباً على التوالى مصائر اللهجات القولاتية والهوسية والسواحلية . وما هذه اللغات جميعها إلا سبائك لغوية - أساسها إفريقي مع سكب عربى - نظمت لتكتب بالإنجليزية العربية :

٤ - التركيب الدينى :

يعتبر التركيب فى الأديان (أو إدماج الطقوس والمعتقدات والمذاهب الدينية) ؛ التجلى الظاهر لهذا الشعور الباطنى بالابتدال الذى يبرز من بين ثنايا الانشقاق فى الروح ؛ إبان عصر التحلل الاجتماعى . ويمكن أن تؤخذ هذه الظاهرة بشىء من التوكيد ، دلالة على التحلل الاجتماعى . ويرد ذلك إلى استبانة بطلان الأمثلة الواضحة للمزج الدينى ، فى تواريخ الحضارات إبان مرحلة ارتقائها .

ومصادقاً لذلك ؛ فإننا إذ نشاهد الأساطير الإقليمية لدويلات المدن - تلك التى لا تخصى - يسودها التناسق والانسجام فى نظام هينى جامع ، بفضل جهود هسيود Hesiod وغيره من الشعراء ذوى النزعة السلفية ؛ إلا أن هذا التناسق لم يصاحبه أى اندماج مماثل فى طقوس العبادة المختلفة ، أو إيجاد « توليفة » من الانفعالات الدينية المتباينة . والمثل يقال

عند اتحاد مجمع الآلهة اللاتين بالأرباب الأولمبيين (على غرار إدماج جوبيتر بزيوس أو جونو بهيرا) ؛ إذ لم يتعد هذا إلى توحيد طقوس العبادة ؛

فإن الحاصل في الواقع ؛ إن هو إلا إحلال البانثيون اليوناني ذي الصبغة البشرية ، مكان ديانة لاتينية حيوانية :

وثمة وضع مختلف يتصل بمسألة المطابقة بين أسماء الآلهة ، مطابقة تتم فيها المعادلات اللفظية إبان عصر تحلل ، والتي تحمل كذلك شهادة شعور بالابتذال : لكن سيتبين بالدراسة - رغما عن ذلك - أنها ليست ظواهر دينية أصيلة ، ولكنها ظواهر سياسية تستر وراء قناع ديني :

تلك هي أوجه التطابق التي تتم بين أسماء الآلهة المختلفة في عصر تتحد فيه بفعل القوة - على المستوى السياسي - أجزاء مجتمع متحلل ، بفضل حروب الغزو بين مختلف الدول الإقليمية التي سبق للمجتمع فيما مضى أن ترابط بها خلال مرحلة ارتقائه : ومن قبيل المثال ؛ عندما اتحد « أنليل Enlil » رب (بعل) نيبور Nippur مع ماردوك Marduk رب بابل : لما أخذ : ماردوك بعل ، رب بابل بدوره يخفى تحت اسم « خاربى kharbe » ؛ كان الاحتفال بهذا الامتزاج - من ثم - سياسياً محضاً ، إذ يسجل التغير الأول ، استعادة الدولة العالمية السومرية بفضل إقدام الأسرة المالكة البابلية ؛ ويسجل التغير الثاني ، غزو سادة الحرب من الحاسيين تلك الدولة العالمية :

وفي المجتمع المتحلل : نجد الآلهة المحلية التي - تتحد مع بعضها بعضاً نتيجة توحيد الدول الإقليمية أو نتيجة نقل السلطة السياسية في مثل هذه الإمبراطوريات المتحدة من إحدى جماعات الزعماء الحريين إلى أخرى - تنزع إلى إيجاد نوع من القرابة المجازية بين بعضها بعضاً ؛ تحت تأثير أنها في معظم الحالات ، هي الآلهة السلفية لمختلف أقسام نفس الأقلية المسيطرة الواحدة :

ولهذا السبب فإن الشرط الذى يتطلبه تحقيق إدماج الأرباب ، لا يتناقض من ناحية المبدأ بشكل جدى ، مع سجية العادة والعاطفة الدينتين :

ولكى نعرّ على أمثلة التركيب بين العقائد الدينية فى تغلغل إلى أعماق مما تقتضيه مستلزمات الأحوال وتستوعب الخفيف من الممارسة والاعتقاد للدينين ؛ علينا أن نحول اهتمامنا من الدين الذى ترثه الأقلية المسيطرة عن ماضٍ أسعد حالا ، إلى الفلسفة التى تنزعها لنفسها استجابة للتحديات التى تنلقفها عن عصر الاضطرابات . ويجب أن نراقب المذاهب الفلسفية المتنافسة التى تصطدم وتختلط ، لأمع بعضها بعضا ، ولكن كذلك مع الأديان العليا الجديدة التى تُبرزها البروليتاريات الداخلية . ولما كانت هذه الأديان العليا تتصادم كذلك مع بعضها بعضا فضلا عن تصادمها مع المذاهب الفلسفية ؛ فإنه سيصبح من المناسب أن نلقى أولا نظرة على العلاقات بين الأديان العليا وبعضها بعضا ، ثم على العلاقات بين المذاهب الفلسفية وبعضها بعضا ؛ كل فى آفاقه الاجتماعية الأصيلة المنفصلة . وذلك قبل أن نمضى قدما فى موازنة النتائج الروحية الأشد حركية ونشاطا ، تلك الموازنة التى تترتب وقتما تصبح المدارس الفلسفية ، على اتصال مع الأديان العليا .

ففى أثناء تحليل المجتمع الهلنى يبدو أن جيل بوسيدونيوس Posidonius^(١) (حوالى ١٣٥ - ٥١ ق . م) يميّز بداية عصر جنحت فيه المذاهب الفلسفية المختلفة (التي كانت حتى هذا الوقت بإجماع الآراء مغتبطة بدخولها فى جدل شديد حاد باستثناء فريد يمثلّه الأبيقوريون) لملاحظة وتوكيد النقاط التى توحيدها ، أكثر من مراعاتها النقاط التى تفصل بينها : ثم جاء زمن إبان القرنين الأول والثانى من حياة الإمبراطورية الرومانية ، ساهم فيه كل

(١) يوسيدونيوس : (حوالى ١٣٥ - حوالى ٥١ ق . م) - فيلسوف من فلاسة الرواقية . ولد بمدينة حياه بسوريا . وعليه تعلم شيثروال الفلسفة الرواقية . (المترجم)

فيلسوف في العالم الهليني لا يمت إلى الأبيقورية — مهما يكن من أمر الاسم الذي يطلقه على نفسه — بنصيب في تكييف مجموعة العقائد الملققة .

وتبدو نفس النزعة صوب المزج الفلسفي ، في تاريخ تحليل المجتمع الصيني إبان المرحلة المقابلة للمرحلة السالفة الذكر . ففي خلال القرن الثاني قبل الميلاد — وتعاذل فترة القرن الأول في إمبراطورية هان — كان الاتجاه التلفيقي بالمثل ، سمة العقيدة التاوية التي وجدت في بداية أمرها قبولا من لدن البلاط الإمبراطوري ، كما كان سمة الفلسفة الكنفوشيوسية التي جلت محلها . ولهذا المزج بين المدارس الفلسفية المتنافسة ، ما يوازيه في العلاقات بين الأديان العليا ، المتنافسة :

فإننا نجد في العالم السورى ابتداء من جيل سليمان وما تلاه ، ميلا قويا صوب التقريب بين عبادة ياهوى الإسرائيلية وعبادات بعل السائدة بين الجماعات السورية المجاورة . ولهذا التحديد التاريخي مغزاه ؛ لأننا قد وجدنا مبررا للاعتقاد بأن وفاة سليمان كانت نذير انهيار المجتمع السورى . ولا شبهة في أن المظهر الأخاذ والخطير في التاريخ الدينى الإسرائيلى خلال هذا العصر ؛ قوامه توفيق الأنبياء الفذ في محاربة الشعور بالابتدال ، وفي تحويل تيار الارتقاء الدينى الإسرائيلى من مجرى التركيب السهل إلى سبيل جديد شاق كان غريباً على إسرائيل نفسها .

ومع ذلك ؛ لو تطلعنا إلى الجانب الدائن عوضاً عن الجانب المدين من الحساب السورى للتأثيرات الدينية المتبادلة ، تطفر إلى أذهاننا أن فكرة مؤداها أن عصر الاضطرابات ربما يكون قد شاهد عبادة ياهوى تحدث ضغطاً على الوعى الدينى لشعوب إيران الغربية ، التي زرع رجال الحرب الآشوريون بين ظهرانيها « تشنتا » من الإسرائيليين المرحّلين ، ومن المؤكد على أية حال أنه قد حدث إبان عصر الدولة الاخمينية يوماً بعدها ، ضغط قوى مضاد للوعى الدينى الإيرانى على الوعى الدينى اليهودى ؛ ولم يأت القرن الثانى قبل

الميلاد حتى بلغ الاندماج بين اليهودية والزرادشتية آمادا بعيدة ؛ حتى أن العلماء الغربيين المحدثين ليجدون أقصى صعوبة في تحديد عناصر كل من العقيدتين وفصلها عن بعضها بعضا . تلك العناصر التي ساهم بها كل من هذين المصدرين الدينيين ، في تكوين التيار الذي غذته أمواهما المتحدة .

ونجد بالمثل في الأديان العليا للبروليتاريات الداخلية للعالم السندى اندماجا - يذهب إلى مدى أبعد من أن يكون مجرد اتفاق أسماء - بين عبادة كريشنا وعبادة فيشنو .

ومثل هذه الثلمات التي توجد في الحواجز القائمة بين دين وآخر ، أو بين فلسفة وأخرى إبان عصور التحلل ؛ تفتح الطريق للتقارب بين المذاهب الفلسفية والأديان . وسنجد في هذه التراكيب الفلسفية الدينية ؛ الانجذاب المتبادل ، واتصال الحركة بين الجانبين .

وكما أننا قد راقبنا من بين فرجة الحدود الحربية لدولة عالمية ؛ الجنود في حصونهم والمحاربين في العصابات الحربية البربرية ، يتدانون تدريجيا من بعضهم بعضا في طرائق حياتهم إلى أن تمتنع - على طول المدى - أوجه الاختلافات بين الطرازين الاجتماعيين ؛ فمن ثم يصبح فيمكننا أن نراقب في داخلية الدولة العالمية ، حركة تقارب مناظرة ؛ بين أتباع المذاهب الفلسفية والعاكفين على الأديان الشعبية . وهذه المشابهة تصدق بالفعل : . . لأننا نجد في هذه الحالة - كما وجدنا في الأخرى - أنه وإن كان ممثلو البروليتاريا يقتربون فعلا مسافة ما لمقابلة ممثلي الأقلية المسيطرة ، فإن الآخرين يذهبون إلى أبعد من ذلك كثيرا في سيرهم على طريق التحلل البروليتارى . وهنا ؛ تنبئ لنا ملائمة ملاحظة أقصر رحلة روحية للطريق البروليتارى ، قبل أن نحاول تتبع الرحلة الروحية الأطول للأقلية المسيطرة .

وعند ما تجد الأديان العليا للبروليتاريا الداخلية نفسها وجهاً لوجه مع

الأقلية المسيطرة ، يحتمل عندئذ (في بعض الأوقات) أن يتوقف تقدمها فجأة على طول طريق التقارب ، عند الدرجة التمهيدية لإثارة انتباه الأقلية المسيطرة عليها ؛ باستخدامها الأنماط الظاهرة لأسلوب الأقلية المسيطرة الفني .

ومصادقاً لهذا الرأي ، نجد كافة منافس المسيحية الفاشلين - إبان فترة تحلل العالم الهليني - ينشدون تحقيق نجاح مشروعاتهم التبشيرية على الأرض الهلينية ، عن طريق إعادة صَبِّ الشخصيات اللاهوتية ، في أشكال يحتمل أن تجد هوى لدى الأعين الهلينية . بيد أنه لم يُقَيِّضْ لأى منها تحقيق تقدم ذى قيمة صوب الخطوة التالية الخاصة بإسباغ الطابع الهليني على نفسها باطنياً كما أسبغته ظاهرياً . فكانت المسيحية وحدها - من ثم - هى التى ذهبت إلى أبعد حد في مضمار التعبير عن عقيدتها بلغة الفلسفة الهلينية .

ولقد رمز في تاريخ المسيحية إلى مسألة الصبغة الهلينية الثقافية لدين يمتّ بجوهره الإبداعى إلى مصدر سورى ، باستخدام كلمة يونانية آتيكية عوضاً عن الأرامية ، تعنى « كلمة الله الخلاقة » واعتبرت هذه الكلمة هى « الجمالة اللغوية » للعهد الجديد^(١) . ذلك لأن الناحية اللفظية لهذا اللسان

المتحذلقل ، تضم بين طياتها حشداً من التضمينات الفلسفية :

« تعتبر الأناجيل المتقاربة^(٢) يسوع ابن الله . ويعمق الإنجيل الرابع في سياق ، هذه العقيدة ويسير بها شوطاً بعيداً . بيد أن تقدم الإنجيل الرابع تذكر أيضاً عَرَضاً أن مخلص العالم هو كلمة^(٣) الله الخلاقة . فواضح إذاً أنه وإن لم يكن البيان واضحاً ، إلا أن الابن والرب وكلمة الله ؛ جميعها واحد ، وهى الشئ ذاته . فإن الابن مثل الكلمة ، يتحد مع حكمة الربوبية ومشيتها . ولقد جُعِلَت الكلمة - مثلما جعل الابن - أقنوماً في شخص ، إلى جانب

(١) العهد الجديد: الإنجيل . (المترجم)

(٢) الأناجيل المتقاربة : هى أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا . (المترجم)

Logas (٣)

قنوم شخص الآب . وهكذا أصبحت فلسفة الكلمة ديناً ، وهذا دفعة واحدة (١) .

وكانت هذه الوسيلة للتبشير بالدين بلغة الفلسفة ، واحد من الموارث التي أورتها اليهودية للمسيحية . فإن فيلو اليهودى - فياسوف الإسكندرية (حوالى ٣٠ ق.م - ٤٥ م) - هو الذى نثر البذرة التي حصد منها محصولاً وافراً بعد ذلك بقرنين ، مواطنان مسيحيان من مواطني فيلو ، هما « كلمنت وأوريجين Origen . ولعل مؤلف الإنجيل الرابع ، قد استلهم من نفس المصدر فكرته عن الكلمة الربانية التي وحد بها إلهه المتجسد . ولا شبهة في أن هذا الرائد اليهودى للآباء المسيحيين السكندريين ، قد ولج الفلسفة الهلينية من خلال باب اللغة اليونانية . إذ لم يكن من قبيل المصادفة أن يكون فيلو قد عاش بالتأكيد وبث تعاليمه الفلسفية في مدينة غدا فيها اللفظ الآتيكى الذى يعنى « الكلمة » لفظاً شائعاً عند جماعة يهودية محلية فقدت معرفتها بالعبرية تماماً ، بل نسيت علمها بالآرامية التي سبق لها أن استخدمتها في ترجمة كتبها المقدسة ، فانتهكت بذلك حرمتها ، لترجمتها إياها إلى لغة من لغات الأثينيين . بيد أن هذا « اليهودى » الذى أنجب فلسفة مسيحية ، يعتبره التاريخ اليهودى شخصية منفصلة عنه ، وما يزال مجهوده الفاره لاستخلاص الفلسفة الأفلاطونية من القانون الموسوى مجهوداً جباراً عديم الثمرة .

وإذا ما انتقلنا من المسيحية إلى الميثرية (وهى منافسة المسيحية في غزو العالم الهلنى غزواً روحياً) ، نلاحظ أن اللحاء (٢) المينوى ، قد أخذ معه على ظهر السفينة إبان رحلته غرباً من موطنه الإيرانى ، حمولة ثقيلة من الفلسفة البابلية المتصلة باستقراء النجوم .

(١) صفحة ٢٩٨ من المجلد الرابع : The Chirst the word : More, P.E. :
Greele Tradition from the Death of Socrates to the council of Chalecedon
(٢) اللحاء : قشرة الشجرة . (المترجم)

وبطريقة مشابهة ؛ اغتصبت الهندوكية - الدين السندى الأسى - فلسفة
بوذية اعترتها الشيخوخة ، لكي تستحوذ لنفسها على الأسلحة التي طاردت
بها الفلسفة المنافسة لها ، بعيداً عن موطنهما المشترك في العالم السندى .

وإن من رأى واحد على الأقل من علماء الآثار المصرية البارزين ، أن
عبادة أوزيريس البروليتارية ، قد بلغت مجمع الآلهة الوراثة للأقلية المسيطرة
المصرية عن طريق واحد فجسب قوامه اغتصاب دور « رع » الأخلاقى ؛
دور هو فى الأصل غريب عن عقيدة أوزيريس تماماً ، ومناطه ربوبية
تبدى وتحقق العدالة . بيد أن « اغتصاب المصريين هذا » ، قد كلف العقيدة
البروليتارية عنا غالياً . لأنه كان على الدين الأوزيرى أن يؤدى مقابل ريش
الزينة الذى استعاره ، وضع مصيره فى أيدي الفريق الذى أجبر على إعارتها ؛
وتمثلت ضربة المعلم التى سدتها الكهانة المصرية القديمة ، فى وضع نفسها تحت
تصرف حركة دينية ناهضة : وبهذا الشكل ؛ فرضت نفسها زعيمة على
حركة عجزت عن إخمادها أو حصر نفوذها . وبهذه الكيفية وفقت الكهانة
المصرية إلى رفع نفسها مكانا عليا ، لم تبلغه من قبل :

إن استيلاء كهنة مجمع الآلهة المصرية القديم على الدين الأوزيرى ، له
ما يماثله فى استيلاء طبقة البراهمة على الهندوكية ، واستيلاء طبقة المايجى
Magi على الزرادشتية .

بيد أنه ما يزال هناك طريق أشد اعوجاجا ، تميل العقيدة البروليتارية
فيه إلى السقوط فى أيدي الأقلية المسيطرة . ذلك لأن طبقة الكهنة التى تحظى
بالسيطرة على نظام دينى بروليتارى ثم تسيء استخدام سيطرتها بالتحكم فيه
وفقا لروح الأقلية المسيطرة ومنفعتها ؛ لا يقتضى الأمر أن تكون كهانة قديمة
العهد تمت بأصلها إلى الأقلية المسيطرة . فإنها قد تُعبأ فى الواقع من بين
الأعلام البارزين للعقيدة البروليتارية نفسها .

ولقد أمكن إنهاء حالة « التوتر » التي قامت بين العامة والبطارقة (١) في الفصل المبكر من تاريخ الجمهورية الرومانية السياسي ؛ بفضل عقد « اتفاق » ، أشرك البطارقة بمقتضاه زعماء العامة معهم ، ولكن مع شرط أضمنى مداره خيانة هؤلاء الزعماء ثقة زملائهم فيهم ، والتخلّى عنهم في مأزقهم .

وحالة مماثلة على المستوى الدينى ؛ خان الفريسيون والنساخ قبل عهد المسيح ، ثقة جمهرة اليهود وتخلّوا عنهم . ولقد عاش هؤلاء اليهود الانفصاليون ليستحقوا اسمهم الذى اختاروه علما عليهم ، بمعنى يناقض نيتهم وقما انتحلوه لأنفسهم . فإن الفريسيين كانوا فى الأصل من أتقياء اليهود ومترمّتهم ، عزلوا أنفسهم عن بقية اليهود الذين غلبت عليهم الصبغة الهلينية ، وما يعنيه ذلك من الانضمام إلى معسكر أقلية مسيطرة دخيلة . بيد أن سمة الفريسيين المميزة فى عهد السيد المسيح ، مدارها انفصالهم عن أفراد الجماعة اليهودية المخلصة المتعبدة ؛ وكانوا ما يزالون يؤكّدون — فى نفاق — أنهم لها قدوة . فهذا هو الأصل التاريخى للاتهام المؤذى الذى لُصق بالفريسيين والذى يدور من خلال صفحات الأنجيل . وهكذا يات الفريسيون هم النسخ الدينية المطابقة لسادة اليهودية من ساسة روما ، ونشاهدهم أثناء مأساة عذاب المسيح عند الصلب يقفون متحمسين إلى جانب السلطات الرومانية لتدبير موت نبي من جنسهم ألصق بهم الخزى .

وبانتقالنا إلى فحص الحركة المكتملة التى اقترُب فيها فلاسفة الأقلية المسيطرة من أديان البروليتاريا ، سنجد العملية على هذا الجانب تبدأ أكثر تبكيرا ، إلى جانب سيرها شوطا أبعد . فلإنها تبدأ من الجليل الأول بعد الانهيار ؛ وتتمر من مرحلة التطلع ، إلى المعرفة . وتعبّر مرحلة الورع ، إلى مرحلة الخرافة .

وتؤكد مسألة تبكير التدفق الأول للصبغة الدينية ؛ في الحالة الهلينية التقليدية التي تبدو في استخدام أفلاطون إياها في عرض كتابه « الجمهورية » . ويرتب المنظر في بيريه — وهي أقدم بوتقة للتفاعل الاجتماعي في العالم الهليني — قبل النهاية القاتلة للحرب الأثينية البلوبونيزية : ويقم في البيت الذي يُفترض جريان الحوار فيه ، سيد أجنبي : ويبدأ سقراط — وهو الراوى الذى تزعمه القصة — بإخبارنا أنه أتى إلى الميناء من مدينة « أثينا » كى يرفع إجلاله إلى « بنديس » الإلهة التراقية ؛ وليلاحظ — استجابة لطلعته — كيفية إعداد القوم للاحتفال الذى يقام في هذه المناسبة لأول مرة في بيريه . وهكذا ؛ يلوح الدين في « الأفق » هنا مسرحا لهذه القطعة الرفيعة من الفلسفة اليونانية : وليس ذلك فحسب ، فإن الدين هنا ، كان عبادة غريبة غير مألوفة .

هنا نجد بكل تأكيد ؛ مقدمة تقودنا إلى النتيجة التي وصفها بحانة غري بالكلمات التالية :

« إن الشيء الخارج عن القياس . . . مداره أنه زعما عن المصدر الأجنبي للأسطورة المسيحية الجديدة ؛ كان لا مناص من بروز المسائل المتصلة بالآراء الدينية للآباء اليونانيين وفلسفتهم ، في الموضوعات الأساسية ؛ وأن تظهر في منحي أفلاطوني جامع . أو أن تُختار — بتعبير أكثر دقة — من آراء أفلاطون مع تعديلها إلى أقل مدة ممكنة . وقد يقودنا مثل هذا الامتزاج بين المسيحية والفلسفة اليونانية إلى الظن بأن الفكرة الدينية التي سعى أفلاطون إلى إحلالها مكان الروايات المتواترة عن آلهة الأولمب ؛ لا تتعارض مع المسيحية بقدر ما هي مسيحية غير كاملة . . . بل إنه قد يتيسر — باستقراء فكرة هنا وأخرى هناك — تصور إدراك أفلاطون نفسه — إدراكا غير واضح المعالم — لمظاهر إلهية قادمة في طريقها . وتعتبر الاستعارات التي استخدمها في كتابته عنها ، بمثابة النبؤ بها فلقد أُنذر سقراط

الأتينيين في فصل « الاعتذار » بأن شهدوا آخرين سينصفونه ويقتضون من وفاته : وسلم سقراط في موضع آخر ، بأن الحقيقة الكاملة — بسبب أوجه الاستدلال والابتكارات الفلسفية — لا تتأتى معرفتها ، إلا إن أظهرتها للإنسان رحمة الله (١) .

وإن سجلنا التاريخي عن هذا التحول من الفلسفة إلى الدين ، واف بالنسبة للحالة الهلينية بدجة كافية ، ليتيح لنا تتبع العملية من خلال مراحلها المتتابعة ،

فإن التطلع الثقافي الرصين الذي هو سمة نظرة سقراط تجاه عقيدة بنديس التراقية — كما صورها أفلاطون — هو بالمثل الذي اتسم به هيرودوتس وهو معاصر لسقراط التاريخي — في نبذاته العرضية المتصلة بدراسة الدين دراسة مقارنة . وقد اتجه اهتمامه بهذا الموضوع اتجاها علميا ه ومع ذلك ؛ فقد أصبحت للمشكلات اللاهوتية أهمية عملية كبرى للأقلية المسيطرة ، بعد قيام الإسكندر الأكبر بخلع الإمبراطورية الأخيمينية عن سلطانها ؛ وما تلاه من اضطراب الحكام الهلنيين للدول [التي خلفت تلك الإمبراطورية] ، إلى تهية نوع من الطقوس لسد الاحتياجات الدينية لسكان بلادهم المختلفي الأجناس : وأخذ مؤسسو المدرستين الرواقية والأبيقورية ودعاتهما ؛ يهثون لنفوس الأفراد ، قسما من الراحة : وهي نفوس ألقت نفسها مهملة في فلاة روحية .

بيد أننا لو اتخذنا من نعمة مدرسة أفلاطون وطابعها ، مقياسا لسرغور نزعة الفلسفة الهلينية السائدة في هذا العصر ، سنجد مريديها إبان القرنين اللذين تليا عصر الإسكندر ، يندفعون أبعد من ذلك على طول سبيل مذهب « الشككية » (٢) .

(١) صفحات ٦ و ٧ . More, P.E. Chriet, the Word.

(٢) Scepticism مذهب فلسفي تقوم قواعده على الشك في كافة العقائد والآراء .
(الترجم)

ولقد حدث تحول التيار تحولاً حاسماً ، مع ظهور بوسيدونيوس من
 صاه (١) ، الذى فتح أبواب الرواقية على مصراعها لاستقبال المعتمدات
 الدينية الشعبية . وانتقلت زعامة المدرسة الرواقية بعد ذلك بأقل من قرنين
 إلى سنيكا Seneca أخى جاليو Gallio ومعاصر القديس بولص . وإنه
 لموجد فى أعمال سنيكا الفلسفية ، عبارات تعيد إلى الأذهان ، جلا
 وزدت فى رسائل بولص الإنجيلية . الأمر الذى حدا - فى عصر تال -
 ببعض المشتغلين باللاهوت المسيحى من الشخصيات الأقل تعمقا فى التفكير ،
 أن يطلق العنان لتفكيره بأن الفيلسوف الرومانى كان يرأسل الرسول
 الدينى المسيحى .

عل أن مثل هذه الظنون لا لزوم لها ، كما أنها بالمثل بعيدة الاحتمال .
 ذلك لأنه ليس هناك ما يدهشنا فى هذا الانسجام بين نغمتي قطعتين
 موسيقيتين روحانيتين لُحِنتا فى ظل الهام تجريبية اجتماعية .
 ولقد شاهدنا فى دراستنا العلاقات بين الحراس الحربيين لحدود حضارة
 متحللة ، وبين الزعماء البرابرة العسكريين فيما وراءها ، كيف أن الفريقين
 قد تدانوا خلال الفصل الأول ، أحدهما من الآخر ، إلى نقطة لا يتأتى
 عندهما - على سبيل الفرض - امكان التفرقة بينهما . كما شاهدنا ،
 كيف أنهما يتلاقيان فى الفصل الثانى ويمتزجان على مستوى من
 البربرية بليد .

ويتبين من القصة المماثلة للتقارب بين فلاسفة الأقلية المسيطرة ومتعبدى
 المدين البروليتارى ، أن مسألة التقريب - على مستوى رفيع - بين سنيكا
 والقديس بولص ، تشير إلى خاتمة الفصل الأول . فى حين تهاوى الفلسفة
 فى الفصل الثانى ، أمام تأثيرات دينية أقل تهذيباً ، انجذرت من مرتبة
 الورع إلى مستوى الشعوذة .

• (١) فيلسوف سورى يونانى الأصل ، ينسب إلى المدرسة الرواقية ؛ وقد ظهر إبان
 للفترة ١٣٥ - ٥١ ق . م تنريباً . (المؤلف)

وتلك هي النهاية التعيسة التي انتهت إليها المذاهب الفلسفية للأقلية المسيطرة ، وهذا هو ما آلت إليه حتى وقتنا كانت تكذب ، مستخدمة طاقتها بأسرها في ، سبيل الفوز بسبيل لها على هذه التربة الروحية البروليتارية المضربة ؛ تربة هي مزهر الأديان العليا . ولن تستفيد هذه المذاهب الفلسفية من كونها بالمثل قد ترعرعت في نهاية المطاف ، وقتما تأثر لنفسه منها هذا الأزهار الوافي النافر ، عن طريق تحلله إلى نضارة عذبة . وكان أن قضت المذاهب الفلسفية نجها إبان الفصل الأخير من مسرحية التجمل الحضارى ، في حين ظلت الأديان العليا تعيش وتجازف على المستقبل بمطالبتها .

ولقد عاشت المسيحية ، وأزاحت جانباً ، الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي لم يقيض لها العثور على أكسير الحياة ، في منحائها المنبوذ القائم على اتباع الطريقة العقلية . وحقا ؛ يقتضى تلاقى المذاهب الفلسفية والأديان ، تألق الأديان وتضاول المذاهب الفلسفية . ولن نستطيع التحول عن دراستنا لموضوع التصادم بين الفريقين ، من غير التوقف لبحث السبب في كون هذا الانحدار للمذاهب الفلسفية ، أمراً مقضياً .

فما هي إذاً ، عوامل الضعف التي تقضى على الفلسفة بالهزيمة ، عندما تدخل حلقات الصراع لمنازلة الدين ؟

يكمن الضعف القتال والجوهري الذى تعانىه المذاهب الفلسفية ، في افتقارها إلى الحيوية الروحية . ويعجز هذا الافتقار — إلى الوثبة الدافعة — الفلسفة في ناحيتين :

١ . إذ تخنزل جاذبيتها للجماهير وتنشط همته أولئك الذين يشعرون بجاذبيتها ، في تكوين أنفسهم للدعوة لها .

وحقا ؛ تنزع الفلسفة إلى تفضيل أقلية مثقفة ممتازة « توائم القلة » ، ومثلها في هذا مثل الشاعر ذى الثقافة الرفيعة الذى يعتبر ضالة توزيع

دواوينه شاهد صدق على متانة نظمه . ولم يشعر هوراس Harace إبان
الجيل السابق لجيل سنيكا بأى حرج فى استهلال نداءه الوطنى الفلسفى فى
أناشيده الرومانية بالأبيات التالية :

إليكم عنى ، أنتم أيها القطيع الدنس

سكوتوا ! لا تدع لسانا خلوا من القداسة

يزعج طقوس الغناء القدسية

بيننا أنا ، الكاهن الأكبر للتسعة

أحيك للشباب وللعدارى

لحنا جديداً أعظم شموخاً^(١) .

وإن ثمة بونا شاسعا بين هذا القول وبين المثل الذى ضربه السيد
المسيح : « اذهبوا إلى الطرق العامة والأسوار ، والزمو من تجدون بالدخول ،
لعل دارى تصبح حافلة » .

وعجزت الفلسفة تماما عن مجازاة قوة الدين ، عندما يكون فى أحسن
حالاته . فليس فى وسع الفلسفة إلا أن تقلد وأن تحاكي فى صورة تهكمية ،
مناحى الضعف التى تبدو فى متعبدى الدين المنحطين . وأن نسمة الدين التى
أنعمت إبان جيل سنيكا وإبيكتوتوس ، الصرح الفكرى الهلبنى ذا البناء
المبين ؛ سرعان ما أسنت بعد جيل ماركوس أوريليوس ، إلى ضرب
من التدوين العفن . فكان أن تردى ورثة التقاليد الفلسفية ، بين نوعين
من الوسخ ؛ باطراحهم نداء العقل من غير أن يعثروا على طريق يقودهم
إلى القلب . وأنهم بصلوفهم عن الحكمة ، قد تطوروا ، لا إلى قديسين ،
ولكن إلى مشعوذين .

Horace : Odes, Bt. III, 11.1 - 4 (cidi profanum vulgus, & C.) (١).

Sir Stephen de Vere Translation.

ولقد تحول الإمبراطور جوليان عن آراء سقراط إلى آراء ديوجنيس ،
ليستمد منها فلسفته المثالية . وديوجنيس هو الشخصية الأسطورية التي
استمد منها أكثر مما استمد من المسيح ، القديس سمعان العمودي^(١)
وأتباعه نزعهم الشككية . وحقا يعترف من خلفوا أفلاطون وزينون Zeno
بقصور معلمهم العظيم وضعف أساليهما ؛ إذ يتركان لنفسهما العنان
لحاكاة البروليتاريا الداخلية التي كانت تمثل في الحقيقة الواقعة ، أصدق
صور مدهنة طبقة العوام المبتدلة التي أبعدها هوراس عن محيط
نظائره^(٢) .

ولم يكن أتباع المذاهب التي ظهرت أخيراً مثل الأفلاطونية الجديدة ،
ولامبليخوس Lamblichus وبروكلوس Proclus ؛ فلاسفة بقدر ما هم
كهنة عقيدة دينية لا وجود لها في عالم الواقع . ومصادفاً لذلك ، كان
جوليان Julian — الذي يتسم بتحمسه للوظيفة الكهنوتية وللطقوس الدينية —
المتفد المرتجى لمناهجهم . إلا أن الانهيار الذي حاق — عقب معرفة نبأ
وفاته — ببنائه الديني الذي كانت تعينه الدولة ، لبرهان على صدق نظرية
مؤسس إحدى مدارس علم النفس الحديثة :

« إن الابتكارات الكبرى لا تفد من أعلى أبداً ، إنها تأتي باستمرار من
تحت . . تنبعث من عامة جمهور الأرض الصامتين الذين يتعرضون للسخرية ،
هم أولئك الأقل تأثراً بأهواء العلماء من الشخصيات البعيدة الصيت^(٣) .

(١) والعمودي : فئة نصرانية من التناك عاش نساكها فوق العمدان إتباعا لسمعان

العمودي . (المترجم)

(٢) النظارة : مشاهد المسرحيات . (المترجم)

(٣) Jung, C.G : Modern Man in search of a Soul (٢)

(هـ) الأمير يعين الدين (١) :

لاحظنا في نهاية الفصل السابق ، أن جوليان الإمبراطور قد فشل في أن يفرض على رعاياه ديناً منتحلاً ، انصرف هو إليه استجابة لفلسفته الذاتية . ويثير تصرفه هذا سؤالا عاما مداره فيما إذا كان في وسع الأقليات في ظل ظروف أفضل ، أن تعوّض ضعفها الروحي بإلقاء قوتها المادية إلى المعترك ، وتفرض على رعاياها ، مذهباً فلسفياً أو عقيدة دينية ؛ وتستخدم لتحقيق ذلك ضغطاً سياسياً لن يحقق الغرض منه ، على الرغم من عدم شرعيته . وإن بدا هذا السؤال بعيداً عن المنحى الرئيسى لهذا الجزء من دراستنا ، إلا أننا نرى جدوى البحث عن إجابة له ، قبل السير شوطاً في الدراسة أبعد من ذلك .

فإذا فحصنا الدليل التاريخي على صحة هذه المقدمة ، سنجد أن مثل هذه المحاولات ، تدلّ على قصورها خلال المدى البعيد على الأقل . وهذا أمر يناقض بشكل قطعى إحدى نظريات الاستنارة عصر الاضطرابات الهلنستية . وهذه النظرية تقرر أن فرض القواعد الدينية من أعلى إلى أسفل عن عمد وإصرار ؛ ليس بالأمر المستحيل أو الغير العادى ؛ بل هو فى الواقع المصدر المعتاد للنظم الدينية بين ظهرائى المجتمعات التى تمر بعملية التحضر . ولقد طبقت هذه النظرية على حياة روما فى عبارة بوليبيوس (٢) المشهورة :

« فى رأى أن النقطة التى يبرز بها الدستور الرومانى غيره بشكل ظاهر

(١) إن صيغة الأمير يعين الدين هى الخلاصة القديمة للنص الأساسى فى معاهدة أوجسبرج عام ١٥٥٥ ميلاديه ، التى اعترف فيها (لأمير) كل دولة من الدول الألمانية الإقليمية أن تختار بين المذهب الكاثوليكى أو اللوثرى من المسيحية . وله وفقاً لـ رغبت أن يصر على اعتناق رعاياه الدين الذى اختاره لنفسه . ولقد أهدت المعاهدة ، دورة الحروب الدينية الشاملة فى ألمانيا . (المؤلف) .

(٢) بوليبيوس : حوالى ٢٠٦ - ١٣٦ قبل الميلاد . (المؤلف) .

تماماً ، تكسُن في معالجة شؤون الدين : فإن الرومانيين في رأيي ، قد عمدوا إلى صياغة الرابطة الأساسية لنظامهم الاجتماعي من شيء تمقته بقية العالم ، وأعنى به الخرافة : فإن الرومانيين في تخويرهم خرافاتهم إلى مشاهد مسرحية ، يذهبون في ذلك إلى أقصى ما يمكن تصوره . على أن الرومانيين في رأيي قد فعلوا ذلك وهم يحسبون للجواهر حساباً . فلو أمكن تكوين طبقة الناحيين من الحكماء إطلاقاً ، لما كانت ثمة ضرورة إلى هذه المماحكة . لكن الجواهر هي في حقيقة الأمر مذبذبة دائماً ، كما أنها مشحونة باستمرار بالانفعالات المتمردة وبالمزاج البعيد عن العقل وبالسورة الجائرة . ومن ثم لا يوجد ثمة سبيل إلا بالسيطرة على الجواهر عن طريق إخافتها بالجهول ، وإخراج مسرحيات من هذا النوع . وإلى أتخيل بأن هذا هو مبعث إشاعة أسلافنا لهذه المعتقدات الدينية بين أوساط الجواهر ونشرهم أفكاراً عن جهلهم ، أصبحت متوارثة . وأتخيل كذلك أن أجدادنا بفعلهم هذا لم يسيروا يوحى المصادفة ، لكنهم كانوا مدركين ما يهدفون إليه . ولقد يكون أليق أن نتهم معاصرنا إذ يعملون على استئصال الدين بالافتقار إلى الإحساس والسعى لتفادي المسئولية ، وهذا ما نراهم يفعلونه ^(١) .

إن رد منشأ الدين إلى النظرية السالفة الذكر ، بعيد عن الحقيقة ، بعد نظرية العقد الاجتماعي عن موضوع تكوين الدول . فإذا تابعنا فحص الدليل ، سنجد أنه بينما أن السلطة السياسية لا تعجز تماماً عن إبراز تأثيراتها على الحياة السياسية ؛ تتوقف قدرتها على الفعل ، في هذا الميدان ، على توافر طاقة من التوافقات بين الظروف وبعضها بعضاً . ويلاحظ أن مجال فعلها معين تعييناً ضيقاً ؛ وبالأحرى تعتبر فرص النجاح أمامها ، استثناءً ؛ وأسباب الفشل هي القاعدة .

فلنبحث الاستثناءات أولا :

لعلنا نلاحظ أن الحكام السياسيين يوفقون في بعض الأوقات فعلا ، في إقامة معتقد ديني . إلا أن ذلك يتم وقتا يكون هذا المعتقد الديني تعبيراً عن شيء من الشعر السياسي يتخفى في ثياب دينية ؛ وليس هو تعبيراً عن إحساس ديني أصيل . ويطالعنا من قبيل المثال ؛ الطقوس الدينية المتحلة التي تعبر عن التعطش للوحدة السياسية لمجتمع تجرع كأس عصر الاضطرابات المر حتى الثمالة . ففي ظل هذه الظروف ، قد يوفق حاكم فاز بالفعل بالسيطرة على قلوب شعبه ، باعتباره هو مخلصه البشري ؛ فيعمد إلى إقامة عقيدة دينية تصبح فيها حكومته وشخصه وأسرتة الملكية ، موضوعات العبادة .

و يتمثل المثال التقليدي لهذا العمل الفاره ، في تأليه الأباطرة الرومانيين . على أن عبادة قيصر ؛ قد دلت على كونها عقيدة موقوتة بأوقات السراء ، وأنها النقيض التام « للعون الذي يبرز إيان عصر الاضطرابات » . وهذا العون هو بالفعل الدين الحقيقي . وليس أدل على ذلك من عدم صمود عبادة قيصر ؛ من تداعيا وقتما جابهت أول انهيار ألم بالإمبراطورية الرومانية عند دوران القرنين الأول والثاني . وهذا ما أدى بالأباطرة المحاربين الذين ظهروا بعد ذلك وآلوا على أنفسهم تنظيم مجتمعاتهم ؛ أدى بهم إلى التطلع هنا وهناك صوب قوة علوية . أسمى من « عبقرتهم الإمبراطورية الذاتية » المعيبة . فكان أن تحزب أورليان Aurelian وكونستانتينوس Chlorus Constantins لفكرة الشمس المجردة ذات القوة العارمة . على أنه لم يمض سوى جيل من الزمن ، حتى حول قسطنطين الأكبر (٣٠٦ - ٣٣٧ ميلادية) ولاءه إلى رب البروليتاريا الداخلية ، رب دلال على أنه أعظم حولا وقوة من الشمس أو القيصر (١) .

وإذا ما تحولنا من العالم الهليني إلى العالم السومري ، نلاحظ وجود تشابه في عبادة القيصر ، في العقيدة الدينية المتصلة بالشخصية البشرية الذاتية

(١) أى العقيدة المسيحية . (المترجم)

لرئيس الدولة عند السومريين . وهي عقيدة لم يشترعها مؤسس الدولة العالمية السومرية - أور انجور - ولكن اشترعها خلفه دونجي (حوالي ٢٢٨٠ - ٢٢٢٣ ق . م) . بيد أن هذه العبادة ظهر أنها موقوتة كذلك يزمن معين . وعلى أية حال ؛ لم يحكم حمورابي العموري كاله متجسد في ملك ، لكنه حكم كخادم للمعبود المتسامي^(١) « مازدوك بعل » . هذا ويشغل حمورابي في التاريخ السومري ، مركزا يشابه مركز قسطنطين في تاريخ الإمبراطورية الرومانية .

ويؤيد صورتنا الذهنية عن الضعف المجانس للعقائد الدينية التي يبثها الحكام السياسيون من أعلى إلى أسفل ؛ إجراء فحص لمثل هذه الآثار لعبادة قيصر وفقا لما عسانا أن نعرّضه في الدول العالمية الأخرى : الانديانية ، والمصرية ، والصينية . بل إنه حتى وإن كانت مثل هذه العقائد الدينية ، سياسية في جوهرها ، دينية فحسب في مظهرها ، وحتى وإن طابقت الشعور الأصيل ؛ إلا أنها تتسم بضعفها على الصعود للعواصف .

وثمة نوع آخر من الحالات ، يسعى فيها الحاكم السياسي إلى فرض عقيدة دينية لا تعتبر مجرد نظام سياسي في زى وطني ؛ بل أن للعقيدة طابعا دينياً أصيلاً . وفي مكنتنا أن نشر كذلك في هذا الميدان إلى حالات حققت فيها التجربة درجة ما من النجاح . على أنه قد يبدو مع ذلك ، أن شرط النجاح في مثل هذه الحالات التي يفرض فيها الدين فرضاً ؛ مداره أن يكون الدين « مشروعاً قائماً » في نفوس أقلية من رعايا الحاكم السياسي ، على الأقل . على أنه حتى مع توافر هذا الشرط وبلوغ النجاح ؛ يتحول الثمن الذي يؤدي ، إلى ثمن فادح . ذلك لأن الدين الذي يفرض بنجاح - بفضل همة سلطة سياسية - على جميع النفوس التي تخضع أجسامها للحاكم الذي يفرض ذلك الدين ، في مكنته أن يحرز لسلطانه هذا الجزء الضئيل من العالم ، بفضل ثمن قوامه التفريط في احتمال صيرورته ديناً عالمياً أو استمراره في هيئة دين عالمي .

ومن قبيل المثال : أن المكابيين قد انصرفوا قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، عن تأدية دورهم كحياة حزبيين للدين اليهودي ، ضد تحول قسري صوب الهلينية ؛ إلى مؤسسين وحكام لإحدى الدول المستخلقة للإمبراطورية السلوقية . فكان أن تحول - بدورهم - هؤلاء المناضلون الأشداء الذين قاوموا التعسف ، إلى أهل بجور نصبوا أنفسهم لفرض اليهودية على منطقة ايدومانيا^(١) ، وعلى جليل الأميين^(٢) ، وعلى مقاطعة يراثيا شرق الأردن .

ومع ذلك ، كان انتصار المكابيين ضيق النطاق . ذلك لأنه قد أخفق في التغلب على نزعة الاصطفائية^(٣) عند السامريين ، أو التغلب على كبرياء أهل الحضرة في مجموعتين متصلتين في انتظام ، من المدن ذات الزرعة الهلينية . وكانت المجموعتان تقعان في جناحي أملاك المكابيين على كلا الجانبين : فكانت إحدى المجموعتين تقع على طول ساحل فلسطين الواقع على البحر الأبيض المتوسط ، وتقع الثانية على طول حدودها الصحراوية في ديكابوليس^(٤) . وحقا كانت المنفعة المترتبة على القوة ، لا يؤبه لها ؛ وما

(١) ايدومانيا Idomaea : هي إدوم (سدم) في التوراة . منطقة طولها مائة ميل وعرضها عشرون ميلا ، وتمتد جنوب فلسطين من البحر الميت إلى خليج العقبة (أي صحراء النقب الحالية) . وسميت المنطقة في التوراة باسم أدوم وهو ابن يعقوب (ويسمى أيضا عيساو) . ولكن هذا لا يعنى أن المنطقة قد خضعت لليهود عن طوعية أو أنهم احتفظوا بسيطرتهم عليها أمدا طويلا . فإن سكانها من قداماء العرب كانوا في حرب متصلة معهم عدا عصر داود وسليمان . ثم ثار سكان المنطقة على ملكة يهوذا اليهودية وظفروا بحريتهم بعد انهيار هذه المملكة . ثم خضعت المنطقة للرومان ، وشملها الفتح الإسلامي فيما شمل من مناطق . وأخيرا انتهى بها المطاف إلى استيلاء إسرائيل عليها في حرب ١٩٤٨ بصفة مؤقتة إن شاء الله .
(الترجم)

Galilee of the Gentiles (٢)

(٣) اصطفاية Particularism : في اللاهوت ، الاعتقاد بأن الله قد اختار شعبا من الشعوب ليكون سيد العالم .
(الترجم)

(٤) ديكابوليس Decapolis اسم استخدمه المؤرخون للتعبير عن تحالف يتكون من عشر مدن تقع في فلسطين أو قريبا منها ، وبصفة خاصة في شرق الأردن . وازداد عدد المدن في القرن الثاني الميلادي ، فشكل التحالف مدنا مثل فيلادلفيا ودمشق .
(الترجم)

إن برزت حتى أضاعت على الدين اليهودى مستقبله الروحى بأسره .
فإن من أعظم تناقضات التاريخ اليهودى أن تصبح الأرض الجديدة فى
خلال مائة عام من استيلاء الكسندر جاناىوس Alexander Jannaeus
(١٠٢ - ٧٦ ق . م) عليها لمصالح اليهودية ، موطن نبي يهودى من
الجليل ، هدفت رسالته إلى استكمال التجربة الدينية اليهودية السابقة بأسرها .
فكان أن صدف زعماء يهوذا من يهود عصر هذا النبي (١) ، عن تلك
الرسالة الملهمه التى أتاهم بها أحد أبناء الجليل من الأميمين الذين سبق أن
أجبروا على اعتناق اليهودية . وهكذا لم تقتصر اليهودية على التثكر
لماضيها ، بل إنها خسرت مستقبلها كذلك .

وإذا ما تحولنا الآن إلى الخارطة الدينية لأوروبا الحديثة ؛ نجد أنفسنا
تستجيب استجابة طبيعية إلى استقصاء كيفية تحديد التخوم الحاضرة بين
مجال نفوذ كل من الكاثوليكية والبروتستنتية ؛ سواء بفعل الجيوش ،
أو بفضل دبلوماسية الدول الإقليمية التى خلفت « المجتمع المسيحى » (٢) .

ولا شبهة فى وجوب الابتعاد عن المغالاة فى تقدير تأثير العوامل الحربية
والسياسية على نتيجة الصراع الدينى إبان القرنين السادس عشر والسابع
عشر . ذلك لأنه يصعب تصور - إن افترضنا حالتين يتعلز وجودهما
عمليا - أن فى مكنة أى إجراء تتخذه سلطة زمنية ، أن يستبقى بلاد
البلطيق فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية أو يُغرى بلاد البحر المتوسط
الأوربية ، بالانضمام إلى المعسكر البروتستانتى . على أنه كانت ثمة فى
نفس الوقت ، منطقة متداخلة وغير مؤكدة ، كانت حركة القوى الجزئية
والسياسية فيها ، لها تأثيرها بكل تأكيد . وتشمل هذه المنطقة : ألمانيا

وبلاد الأراضي المنخفضة^(١) وفرنسا وإنجلترا . وفي ألمانيا بصفة خاصة ، ابتُكرت عبارة « الأمير يعين الدين » ، وطُبقت . ولعلنا نسلّم بأن الأمراء في أوروبا الوسطى - على الأقل - قد نجحوا فعلا في استخدام سلطانهم لإرغام رعاياهم على الرضوخ لأحد مذاهب المسيحية الغربية ، وفقا لما يشتهي الأمير . وفي وسعنا كذلك ، أن نقيس الخسارة التي كابدتها المسيحية الغربية في النهاية - سواء أكانت كاثوليكية أو بروتستانتية - عقوبة لها على استنادها على الرعاية السياسية واستخدامها تلك الرعاية بالتالى لقضاء أغراض الدولة .

ويطالعنا في هذا الشأن أول قسط من أقساط الثمن الذى كان لا مناص للمسيحية الغربية من دفعه ؛ ويتمثل في خسارة الكنيسة الكاثوليكية ، ميدان التبشير بالمسيحية في اليابان . ذلك لأن حكام الدولة العالمية اليابانية الحديثة العهد ، قد اقتلعوا متعبدين - قبل منتصف القرن السابع عشر - نبتة المسيحية الكاثوليكية التي غرستها هناك بعثات اليسوعيين التبشيرية لإبان القرن السادس عشر . فلقد أدرك ساسة اليابان وقتذاك أن الكنيسة الكاثوليكية هي أداة المطامع الاستعمارية للتاج الأسباني .

على أن ضياع هذا المجال للتبشير المسيحى الذى كان يبشر بالخير ؛ ينبغي أن يُعدّ خسرانا طفيفا ، إذا قيس بالإجذاب الروحى الذى ابتلت به سياسة « الحاكم يحدد الدين » المسيحية الغربية في عصر دارها .

فإن استعداد كافة الجماعات المتنافسة للمسيحية الغربية إبان عصر الحروب الدينية لاجتناء النصر بسلوك أقصر الطرق وذلك بسعيهم إلى فرض مذاهبهم الخاصة بالقوة على اتباع المعتقدات المتنافسة ، بل إن منهم من طالب باستخدام السلطة السياسية ؛ قد أدّى إلى تفويض دعائم الإيمان في النفوس

التي كانت الكنيسة المتنازعتان تتنازعان ولاءها . ومصادقا لذلك ؛ إذا كانت وسائل لويس الرابع عشر البربرية ، قد محقت البروتستانتية من حياة فرنسا الروحية ، فإنها قد مهدت الأرض لحصول نزعة « الشكية » بديلا . فلقد تلا نقض مرسوم نانت^(١) ، ميلاد فولتير في غضون تسعة أعوام ، وفي وسعنا أن نشاهد في إنجلترا كذلك ، نفس المزاج المتسم بالشك ، ينطلق رد فعل ، كان مظهره النزعة الحربية العدوانية التي اصطبغت بها ثورة البيوريتان .

وهكذا برز من بين ثانيا مزاج ينتسب إلى ذلك المزاج الذي ورد بالفقرة التي استشهدنا بها من عبارات بوليبيوس في هذا الفصل من دراستنا ؛ ضرب جديد من التنقيف يجعل من دراسة الدين بذاته موضوعا للسخرية . ومن ثم ما جاء عام ١٧٣٦ ، حتى أمكن للأسقف بتلر أن يكتب في مقدمة كتابه « المطابقة الدينية الطبيعية والموحاة - لدستور الطبيعة وسيرها » - « لقد حدث - ولا أدري كيف - أن كثيرا من الأشخاص قد أصبحوا يسلّمون بأن المسيحية ليست موضوعا يستأهل البحث مهما يكن من أمره . فأصبح هؤلاء الأشخاص - تبعا لذلك - يجعلون من تلك الفكرة نقطة متفقا عليها بين جميع الناس الحكماء ، ولم يتبق منها شيء سوى صيرورتها موضوعا رئيسيا للمسرة والسخرية وكأن ذلك كان نكاية بها ، لأنها قد شوشت طويلا على مسرات العالم » .

وما انفك هذا الاتجاه الفكري - الذي أصاب التعصب الديني بالإحمال على حساب إخماد العقيدة - مستمرا طوال الفترة من القرن السابع عشر حتى العشرين . وقد سار في هذا السبيل أشواطا بعيدة المدى في جميع مناحي « المجتمع الغربي الكبير » ؛ حتى لقد بدأ يُعترف به أخيرا حقيقة مقررة .

(١) كان مرسوم نانت يسمح بالحرية الدينية للهيونوت وهم بروتستانت فرنسا .

(المترجم)

ولقد أصبح من الأمور المسلم بها ، أن الصدوف عن المسيحية ، قد باتت يمثل الخطر الأول الذى يجابه العافية الروحية - بل الوجود المادى - للجسم الغربى الاجتماعى . وهو خطر أعتنى كثيراً من أى خطر يمكن فى تلك الأدواء الاقتصادية والسياسية التى تجرى مناقشتها والإعلان عنها جهاراً .

وحقا استفحل أمر هذه الآفة الروحية ، حتى بلغت درجة من الشناعة ؛ بحيث بات لا يمكن تجاهلها . بيد أن تشخيص الداء أيسر من وصف الدواء له . ذلك لأن العقيدة ليست سلعة تجارية موحدة القياس تتيسر حيازتها وفقاً للطلب عليها . إذ سيكون من الصعوبة بمكان ، إعادة تعبئة الفراغ الروحى الذى حفّر فى قلوب الغربيين بفعل تداعى الإيمان الدينى فى صورة متصل حلقاتها ، وما انفكت تتخذ طريقها طوال ما يقرب من القرنين ونصف قرن . والواقع أننا ما برحنا يناهض خضوع الدين للسياسة ، وهو جريمة سبق أن ارتكبتها الأسلاف فى غضون القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وإذا ألقينا نظرة مجملة على الأشكال المختلفة الباقية فى حالتها الحاضرة للمسيحية الغربية ، وقارنا هذه الأشكال من ناحية طاقتها الحيوية النسبية ؛ ألقينا هذه الطاقة تتغير تغيراً عكسياً وفقاً لدرجة خضوع كل من هذه الطوائف للسلطة الزمنية :

فإن الكاثوليكية تعتبر بلا جدال ، شكل المسيحية الغربية الذى يبدى فى الوقت الحاضر أعظم مظاهر الحيوية . والواقع لم تفقد الكنيسة الكاثوليكية قط الميزة التى لا تقدر ، المتصلة بانحادها فى وحدة دينية تحت رئاسة سلطة دينية عليا . وذلك على الرغم من اتجاه بعض الأمراء الكاثوليك الحديثين فى طائفة من البلاد وفى بعض الأوقات ، إلى السير طويلاً فى طريق توكيد سلطانهم السياسى على حياة الكنيسة فى نطاق حدود بلادهم .

وفى وسعنا أن نضع بعد الكنيسة الكاثوليكية فى ترتيب الطاقة الحيوية

للطرق المسيحية الغربية ؛ تلك « الكنائس الحرة » ذات المعتقد البروتستانتي التي انتشرت نفسها من سيطرة الحكومات السياسية . وسنضع بالتأكيد في آخر القائمة ؛ الكنائس البروتستانتية « الرسمية » التي ما انفكت مقيدة بالكيان السياسي لهذه الدولة أو تلك ، من الدول الإقليمية .

وأخيراً ؛ فإنه تطلبت الحال أن نُقدِّم على تعيين الفروق بين درجات الطاقة الحيوية للظلال المختلفة للفكرة الدينية وأتباع الدين ، في نطاق كنيسة رسمية متشعبة الأطراف ومتغايرة الأشكال — مثل كنيسة إنجلترا — فإنه يجب علينا أن نزل بلا تردد عن جائزة التفوق في الطاقة الحيوية العليا ، إلى الكنيسة الإنجيلية الكاثوليكية ، التي ما برحت منذ صدور القانون الذي صدر في سنة ١٨٧٤ يمنع إقامة القداس الكاثوليكي مستتراً ؛ تقف من القوانين الوضعية ، موقف عدم الاكتراث المشوب بالازدراء .

إن مغزى هذه المقارنة الممقوتة ، يتبدى واضح المعالم . فإن هذا التباين في مصائر الفرق المختلفة التي انقسمت إليها الكنيسة المسيحية الغربية في العصور الحديثة ؛ قد يبدو أنه يكمل دليلنا عن قضية أن الدين إذا نظر إليه نظرة طويلة المدى ، يخسر أكثر بكثير مما يؤمل ربحه من مطالبته — أو خضوعه — برعاية السلطة المدنية . على أن ثمة استثناء معروفاً من هذه القاعدة الواضحة ، وسنحسب له حساباً قبل أن يتأق للقاعدة اجتياز الاختبار .

هذا الاستثناء ، هو الإسلام :

فإن الإسلام قد وفق فعلاً في أن يُصبح العقيدة الدينية لمجتمع سورى أصابه الانحلال . ونجح الإسلام على الرغم من إقامته منذ البداية في الشؤون السياسية ، ومضيه في ذلك بطريقة قاطعة ، لم تعهد في الأديان الأخرى التي عرضنا لها فيما مضى . بل إن جنوح الإسلام إلى هذا التورط

السياسي ؛ بدأ أثناء حياة رسوله ، بل وعلى يد الرسول نفسه ، لا على يد آخر أقل منه شأنًا .

وتنقسم حياة الرسول محمد إلى فصلين مميزين تمييزاً حاداً ، بيدوان متعارضين للنظرة الأولى :

ففي الفصل الأول ؛ شغل الرسول بالتبشير بما يوحى به إليه ؛ بالوسائل السلمية .

وفي الفصل الثاني ؛ انهمك بتشديد دعائم قوته السياسية والحربية واستخدم الرسول في هذا الفصل المدني^(١) قوته المادية التي أتاحت له في المدينة بغية فرض الأوامر والنواهي التي جاد بها الدين الذي أوحى به إليه في الفصل السابق من حياته ، أي قبل انسحابه الموقوت من مكة إلى المدينة^(٢) .

وعلى أساس النظرية التي تقدر الانهيار للدين الذي يستخدم القوة ؛ قد يقال بأن الهجرة تعتبر توقيت انهيار الإسلام ، لا توقيت قيامه ، لكن يعترض على هذا الزعم ، السؤال التالي : كيف يمكن تفسير حقيقة ثابتة مدارها

(١) نسبة إلى المدينة المنورة . (المترجم)

(٢) الفرق بين حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة وحياته في المدينة ، يرجع إلى أن المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة ، كونوا أمة أو جماعة . وهذه الأمة أو الجماعة ، علاقات فيما بين أفرادها ؛ وعلاقات فيما بين الجماعة أو الأمة بغيرها - أي بغير المسلمين . وفي المدينة نظمت هذه الشؤون . ويقتضى تنظيم شؤون الجماعة ، النظر في حالتها الحرب والسلام . ولم تكن الحرب وسيلة لنشر دعوة الإسلام ، ولكن مصلحة الجماعة اقتضتها بعض الوقت ، كما اقتضت مصلحة الجماعة في وقت آخر إقرار السلم وعقد معاهدات . والواقع أن الإنسان في الحياة الإسلامية الصحيحة لا يمكن أن يحيا إلا في جماعة .

وقد سلم المؤلف بأن انتشار الإسلام قد تم سلمياً ، وأحياناً بدون تشجيع من أولى الأمر ، وأحياناً على الرغم من اتخاذ ما يشبط انتشاره . (المترجم)

أن دينا فاجأ العالم عقيدة دينية للجماعة حرية بدوية ؛ يُقيّض له التوفيق
في التحول إلى عقيدة دينية عالمية ، على الرغم من بدايته - وفقاً لجميع
الأقيسة المنطقية^(١) - بقيد روحاني كان يتوقع أن يصبح حائلاً دون
انتشاره ؟

إننا إذ نعرض المشكلة وفقاً لهذه الحدود ، تطالعنا طائفة من التفسيرات
الجزئية . لعلها إن بُجعت ؛ تصل إلى مرتبة حل المشكلة المنشود :
في وسعنا أن نُسقط من الحساب ؛ الفكرة التي ما برحت شائعة
عند المسيحيين ، والتي تغالى في تقدير أهمية القوة المادية لنشر الإسلام ؛
ذلك لأن الأسس التي تطلبها خافء النبي للإيمان بالدين الجديد ، اقتضت
على تأدية عدد قليل من الفرائض ، لم يكن تأديتها بالأمر الشاق
كثيراً ؛ بل لم تعد المطالبة بها الجماعات الوثنية البدائية التي كانت تفتن
المناطق العربية التي ظهر الإسلام في ربوعها والتي لم تخضع لسلطان أى
من الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية . أما بالنسبة لولايات الإمبراطوريتين
الرومانية والساسانية المغزوة ؛ فلم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل ،
ولكن بين الإسلام أو الجزية . وتلك سياسة مستنيرة ، أجمعت الآراء على
امتداحها (وطبقت تلك السياسة المستنيرة بعد ذلك بفترة طويلة ، الملكة
اليزابث الأولى العديمة الاكتراث بالمسائل الدينية) . كذلك لم يطبق هذا
الاختيار تطبيقاً منفرداً على الرعايا الغير المسلمين للخلافة الإسلامية في العهد
الأموي . ذلك لأن الأمويين باستثناء خليفة واحد^(٢) منهم حكم ثلاثة أعوام

(١) التي وردت في موضع سابق . (المترجم)

(٢) لعل الأستاذ المؤلف متأثر في رأيه هذا بموقف أبي سفيان وبنو أمية من الإسلام في
بداية عهده ومن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما قد يكون متأثراً بإصرار بعض الحكام
الأمويين على جباية الجزية حتى على من أسلموا . بيد أن هذا لا يعنى الزعم بأنهم وثنيون .
فالواقع أن الخلفاء كانوا سيرين بمرورهم الأصيلة وطرائقهم هي طرائق الزعامة القرشية
في الجاهلية . (المترجم)

فقط ، كانوا لا يكثرثون بالدين . وفي الواقع كان الأمويون من الناحية الشخصية وثنيين في الباطن لا يعاونون بنشر العقيدة الإسلامية ، إن لم يناهضوها ؛ وإن كانوا قائمين على زعامتها اسمياً .

ولقد أصبح على الإسلام في ظل هذه الظروف ؛ أن يسلك طريقه بين رعايا الخلافة غير العرب ، مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية . وكان انتشاره بطيئاً ، لكنه كان مؤكداً . وغدا الإسلام في قلوب المسيحيين والزرادشتيين (١) السابقين الذين اعتنقوا الدين الجديد رغماً عن عدم اكتراث بل سحق سادتهم الأمويين الاسمين ، عقيدة تختلف تماماً عما كانت عليه فيما سبق ، وقتما وفدت مع محاربى العرب (٢) الذين تقلدوها شعاراً لوضع سياسى يخلع عليهم الامتياز على بقية الناس . فإن معتنقى الإسلام الجدد من غير العرب ، قد كتموا الإسلام وفقاً لوجهة نظرهم الثقافية ، وترجموا سبق النبي الفطرية إلى ما اتسم من مصطلحات اللاهوت المسيحى والفلسفة الهلينية بالخلق والرصانة . وهكذا استطاع الإسلام - وهو في هذا الثوب - أن يغدو الدين الموحد لعالم سورى ، كان قد سبق توحيده سياسياً في صورة سطحية بفضل الغزو العربى الجارف .

وأصبح الرعايا المسلمون من غير العرب في خلال مائة عام من تسنم معاوية السلطة السياسية ؛ من القوة ليقصوا الأمويين المستهترين بالدين عن مركزهم ويضعوا مكانهم أسرة ملكية يعكس منحها الدينى ، منهاج أنصارها الروحى . وفي الواقع ، فإنه يحتمل في عام ٥٧٠ ميلادية وقتما اتجه المسلمون الغير العرب إلى تهية النصر للعباسيين على الأمويين - أن تكون

(١) الزرادشتيون : أتباع زرادشت المعروفون لدى العرب بمجوس فارس .

(المترجم)

(٢) في الواقع أنه تتبى رواسب من العقائد الماضية في نفوس معتنقى الإسلام المحدثين إلا أنه بغض الوقت - ووفقاً لتساج الإسلام - تزول تلك الرواسب . على أنه لا خلاف في إصرار الإسلام على إيمان من يعتنقونه بأركانها الأساسية . (المترجم)

القوة العددية للعصبة الدينية التي قلبت ميزان القوى ، ما تزال صغيرة بالمقارنة بمجموع سكان الإمبراطورية العربية^(١) .

ويحتمل أن هداية رعايا الخليفة إلى الإسلام بصورة جماعية ؛ لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي — أو تصل نهايتها — حتى حلول فترة اضمحلال « الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر . ويمكن القول بالتأكيد ، أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامى ، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية ، ولم تنجم قط عن ضغط سياسى . ذلك أن ما يتأبل فى الإسلام من أباطرة مسيحيين مثل ثيودوسوس Theodosius وجوستينيان Justinian اللذين أساءا استخدام سلطتهما السياسية فى سبيل مصالح دينهما المزعومة ، قليل العدد ومتباعدة فى ثنايا قائمة من الخلفاء العباسيين اتسع نطاقها طوال فترة خمسة قرون .

وهكذا ؛ لعله يتسنى لنا الآن ، الاستناد عن رضا ، إلى الوقائع السالفة الذكر للحكم على الاستثناء الذى يمثله الإسلام لأول وهلة^(٢) لقاعدتنا القائلة بأنه وإن لم يتعذر على السلطة السياسية إحراز قدر من النجاح عن طريق فرضها بالقوة على رعاياها ، عقيدة دينية هى مقبولة وتوجد فيهم فعلا ؛ فإن الثمن الذى يقتضيه مثل هذا التأييد السياسى يجبّ على طول المدى — إلى أبعد حد — أية مزية عاجلة ينالها الدين الذى يتلقى رعاية الدولة . ويبدو أن نفس القصاص ، يقيّض له الحدوث ؛ حتى وقتا لا تكفل الرعاية السياسية بالمرة ، فوائد عاجلة . ومن ضمن الحالات التى تذهب فى سوء شهرتها إلى أبعد مدى — حيث تتلقى العقيدة الدينية تأييد السلطان ، تأييداً يحط من قدره ، ويكابد بسببه خسارة قاسية — فى وسعنا أن نعدد :

(١) على غرار ما كان عليه عدد المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية وقتما أطلق قسطنطين بأمرة ماكسينتوس . وهو عدد يقدره الدكتور ن . ه . باينز بعشرة فى المائة . انظر

س ؛ Baynes, N.H. *Constantine the Great and the Christian Church*

Prima facie (٢)

إخفاق جوستينيان في فرض مذهبه الكاثوليكي الأرثوذكسي على رعاياه المينوسفيتين^(١) وراء جبال طرسوس^(٢) ، وفشل ليونتيوس وقسطنطين الخامس في فرض مذهبهما القاضى بمحاربة تقديس الإيقونات ، على رعاياهما المقدسين لها في اليونان وإيطاليا . وإخفاق التاج البريطاني في فرض المذهب البروتستانتي على رعاياه الكاثوليك في أيرلندا . وإخفاق الإمبراطور المغولي أورنجزيب في فرض عقيدته الإسلامية على رعاياه المتناذكة .

وتقل فرص نجاح السلاح السياسى عن تلك الحالات السالفة الذكر ، في حالة فرض فلسفة الأقلية المسيطرة ، حيث تكون العقيدة الدينية التي تفرض ؛ ديناً مقبولا . وهذا ما تبيناه وقتما عرضنا لإخفاق الإمبراطور يولييان ؛ وكان هذا الإخفاق في الواقع ، هو نقطة بداية هذا البحث . ويمثلة في درجة الإخفاق التام ، ما لاقاه الإمبراطور آسوكا في محاولته فرض عقيدته البوذية الهينابائية على رعاياه في العالم السندى ؛ رغما عن أن الفلسفة البوذية ، كانت إبان عصره ، في أوج ازدهارها الثقافي والأدبي . ومن ثم فإن مقارنتها بفلسفة ماركوس أوريليوس الرواقية ، خير من مقارنتها بالأفلاطونية الحديثة التي اعتنقها اليونان .

تبقى لدينا دراسة الحالات التي لا يسعى فيها الحاكم أو الطبقة الحاكمة ، إلى فرض دين « قائم أو مقبول » أو فلسفة تعتنقها الأقلية المسيطرة ؛ ولكن ينصب السعى هنا إلى إقامة دين من نسج خياله (أو خيالها) . وهذا وإذا تذكرنا الإخفاق الذي سبق إيراده ، وفيه يتبلور الهدف في فرض دين أو فلسفة تكن فيه (أو فيها) حيوية فطرية ، فإن ثمة ما يبرر افتراضنا السالف الذكر . وذلك دون أن نطرق الموضوع المتصل بصحة فشل الحالات التي ابتكرت فيها ديانات ليست لها أصول قائمة ، وقتما وأبنا تبذل الجهود لإقامتها . ويعتبر هذا الأمر هو القاعدة التي لارب فيها .

(١) أى المؤمنون : الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أى الطبيعة الإلهية . فالمسيح لديهم :

إله وقتما ولد وصب وبعث . (المترجم)

(٢) أى في مصر وسوريا والنوبة والحبشة . (المترجم)

وأياً ما تكون الحال ؛ تعتبر هذه الأديان المبتكرة ، من بين نوادر التاريخ ،
ولهذا السبب - لا لسبب آخر - نعرضها عرضاً موجزاً :

ولعل أكثر الحالات تطرفاً في هذا السبيل ، حالة الخليفة الحاكم بأمر الله
(٩٩٦ - ١٠٢٠ ميلادية) . فإنه مهما يكن من أمر استعاراته من المصادر
الدينية الأجنبية ؛ فإن العقيدة الرئيسية في مذهب الدرزي ، مدارها تأليه
شخص الحاكم باعتباره إحدى عشرة حالة متتابعة وأكملها ، تجلي فيها الله
في شكل إنسان . وينظر إلى الحاكم بأمر الله وفقاً لهذا المذهب على أنه المهدي
المنتظر ، يعود منتصراً إلى العالم الذي انسحب منه سرّاً بعد تجليه الأول
لفترة قصيرة .

ولم يتعد نجاح التبشير بهذه العقيدة الدينية الجديدة ، نجاح درزي -
داعي الحاكم بأمر الله - في نشره المذهب عام ١٠١٦ ميلادية بين عشيرة
قليلة العدد تقطن مقاطعة وادي تيم السورية على سفح جبل حرمون ،
تم نُبذت تماماً بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، فكرة إيفاد رُسل لهداية العالم
إلى العقيدة الدرزية . ولم تقبل الجماعة الدرزية منذ هذا التاريخ ، انضواء أي
فرد لعقيدها ، كما أنها لا تتسامح مع المرتدين . وهكذا ظلت فرقة دينية
يحمل أعضاؤها اسم الداعي الذي هداهم إلى مذهب الحاكم العجيب ، لاسم
الرب الذي يعبدونه ، المتجلى في بشر : ولقد غدت العقيدة الدرزية التي
لم توفّق في تحقيق مذهب عالمي ، مقصورة على المؤمنين بها في جبل حرمون
ولبنان ، مثلاً للبقايا البشرية المستحجرة القائمة في حمي حصين .

وبالحرى - دلال دين الحاكم بأمر الله « المبتكر » على إخفاقه .

وإذا كانت عقيدة الحاكم بأمر الله الدينية قد عاشت على الأقل
كـ « بقايا مستحجرة » ، فإنه لم يتبق شيء البتة من وراء المحاولة
التي تشابهها في ضلالها والتي قام بها السورى المارق فاربوس آفيتوس

باسيانوس Varius Avitus Bassianus^(١) ليجعل رب الأرباب في المجمع الرسمي ، الإله السامي الذي يعبد محلياً في حمص . ولم ينشد باسيانوس من عمله هذا أن يجعل من شخصه الإله المرتجى ، لكنه رنا أن يكون ذلك الإله هو ربة الشمس السورية إيلاجابالوس Elagabalus ، وهو كاهنها بالوراثة . واستمر يحمل اسمها بعد اختياره عام ٢١٨ ميلادية - بفضل لمسة من لمسات الحظ - إمبراطوراً رومانياً . وكان اغتياله بعد ذلك بثلاث سنوات إيذاناً بنهاية تجربة الدينية ، نهاية مفاجئة حاسمة .

وإذا لم يكن مستغرباً مشاهدة أمثال إيلاجابانوس والحاكم بأمر الله يفشلان فشلاً ذريعاً في مساعيهم لجعل سلطانهم السياسي يساند نزواتهم الدينية ؛ فلعلنا نقدر بجلاء الإجراء الأشد وعورة القائم على التبشير بالعقائد والطقوس ، باستخدام قوة السلطان الوافدة من أعلى إلى أسفل ؛ عندما نلاحظ ما يماثله من سوء الطالع الذي يصيب الحكام الآخرين الذين يحاولون الاستفادة من سلطانهم السياسي ، لتعصيد إحدى القضايا الدينية التي يهتمون بها اهتماماً ينبعث عن دوافع أشد خطورة من مجرد الرغبة في إرضاء نزوة شخصية .

فإن ثمة حكاما حاولوا وأخفقوا في محاولتهم للتبشير بدين مبتكر ، لأسباب تتصل بالدولة ، وقد لا تتعلق بالفكرة الدينية ذاتها . وليس في هذا الفشل ما يشين فرائدهم السياسية أو يخطط من قدرها .

وثمة كذلك آخرون ؛ حاولوا وفشلوا في محاولتهم للتبشير بعقيدة دينية « مصطنعة » آمنوا هم بها إيماناً عميقاً ، وأحسوا نجاحها بأنه قد قدر

(١) فاروريوس آتيوس باسيانوس : ولد عام ٢٠٥ ميلادية . ونصب وهو حدث ، كاهناً لمعبود الشمس . فتسمى باسم جابالوس . وفي عام ٢١٨ ميلادية ، نصب إمبراطوراً خلفاً للإمبراطور كاراكلا . واتصف حكمه الذي دام ثلاثة أعوام بالإغراق في الملذات الفاحشة التي لم يسمع بها من قبل . ثم اغتيل في النهاية . (المترجم)

عليهم التبشير بها ، أو أنهم مرتبطون بواجب إبلاغها إلى رفاقهم بكافة ما لديهم من وسائل ، ليضيئوا ظلامهم ويرشدوهم إلى سبيل السلام .
ويطالعنا في هذا السبيل :

يمكن المثال التقليدى لاصطناع عقيدة دينية جديدة خدمة لهدف سياسى ؛ في ابتكار بطليموس سوتير شخصية سيرابيس Serapis وعقيدته . و بطليموس هذا هو مؤسس الدولة الهلينية التي خلقت الإمبراطورية الأخيمنية^(١) في مصر . وهدف من وراء ذلك ، إزالة شقة الخلاف بين رعاياه من المصريين والهلينيين ، بفضل إقامة دين مشترك . ولقد كفلت توليفة الدين الجديد ، قدراً كبيراً من التشابه بين الطائفتين كلتيهما ، اللتين أنشئت العقيدة لإقامة التآلف بينهما . بيد أنها أخفقت تماماً في إزالة ما بينهما من خلاف . إذ سارت كل طائفة في طريقها الخاص تجاه عبادة سيرابيس ، على غرار ما تتبعه إزاء كل شىء آخر في الحياة .

على أن شقة الخلاف الروحي داخل إمبراطورية بطليموس بين الطائفتين ، قد زالت نهائياً بفضل اعتناقهما عقيدة دينية أخرى^(٢) ؛ برزت تلقائياً من حشا البروليتاريا ، من الإقليم الذي كان يتبع بطليموس فيما سلف وكان يدعى بسوريا الغائرة^(٣) . وتم ذلك بعد انقضاء جيل كامل من استئصال آخر ظل للسلطان البطليموسى .

ولقد كرس حاكم آخر لمصر هو أخناتون - قبل عصر بطليموس سوتير بأكثر من ألف سنة - جهوده للاستعاضة عن عبادة مجمع الآلهة المصرية القديم ، بعبادة رب غير منظور هو الإله الواحد الحق الذى تبدى ربوبيته لأعين البشر في شكل آتون أو قرص الشمس . ولم تنحكم في

(١) أى الإمبراطورية الفارسية . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف بهذه العقيدة ، الدين المسيحى . (المترجم)

(٣) الواقعة بين سلسلة من الجبال المرتفعة . (المترجم)

محاولة أختاتون — إلى المدى الذى تيسر معرفته — أية اعتبارات ماكيافيلية^(١)،
مثل تلك التى سبرت بطليموس سوتير . كالم يسيطر على أختاتون ، جنون
العظمة الذى كان القوة الدافعة وراء مشروعات الحاكم بأمر الله ووراء
الإمبراطور الرومانى أيلاجابلوس .

إذ يبدو أن أختاتون قد استلهم عقيدة دينية عظيمة الشأن ، عبرت
عن نفسها — مثلما عبرت أحكام آشوكا — بأفعال تنحروا إلى التبشير بها .
فإن الدافع الدينى الذى ألهم أختاتون ، دافع صادق متحرر عن الغرض .
وعسانا أن نقول أن أختاتون جدير بالتوفيق فى دعوته ، إلا أن إخفاقه
كان تاماً ؛ إخفاق يجب أن يعزى إلى حقيقة مدارها أن مناط برنامجها ،
محاولة بنظر حاكم سياسى لإذاعة دين « مصطنع » يوجه من أعلى إلى
أسفل . فكان أن استهدف خلال حكمه ، لخصومة الأقلية المسيطرة ، دون
أن يوفق إلى الوصول إلى قلوب البروليتاريا والتأثير فيها .

ويتأتى بالمثل تفسير إخفاق العقيدة الدينية الأورفية . فإن كان حقاً
— وهذا ما تنبى عنه الشواهد — أن نشر العقيدة الأورفية ، قد تلقى
أولى انتفاضاته من طبقة الطغاة الأثينيين من بيت بيسستراتوس
Peisistratus ؛ فإن النجاح المتوضع الذى حققته العقيدة الأورفية فى نهاية
الأمر ، كان تالياً لانهار الحضارة الهلينية وما تبعه من استيلاء ذلك
الشعور بالابتذال على النفوس الهلينية . وهو شعور سار جنباً إلى جنب
مع التوسع المادى للعالم الهليني ، على حساب المجتمعات الأجنبية .

ويصعب تقرير مدى استطاعة النزعة الماكيافيلية لبطليموس سوتير
أو مثالية أختاتون ، تفسير خليط الدوافع التى حفزت الإمبراطور المغولى

(١) نسبة إلى ماكيافلى الإيطالى ، مؤلف كتاب « الأمير » ويشرح فيه سياسة الحاكم
الذى أياح له استخدام كافة الوسائل فى سبيل تحقيق أهدافه ، مهما يكن من أمر اتفاق هذه
الوسائل مع مقتضيات الشرف والعصير . (المترجم)

التيهتورى أكبر (١٥٥٤ - ١٦٥٥ ميلادية) إلى محاولة إقامة عقيدته الدينية المصطنعة التي أعياها بالدين الإلهى ، داخل إمبراطوريته . وهذا الخليط يتعذر - تقريباً - فك مغاليقه . إذ يظهر أن هذا الرجل الغير العادى ، كان سياسياً عملياً ومتصوفاً استشرافياً على التوالى .

وعلى أية حال ؛ لم تتأصل أبداً عقيدة أكبر الدينية فى النفوس . فانساحت من الوجود عقب وفاة منشئها مباشرة . وحقا قد سبق أن فاه بالكلمة الأخيرة فى هذا الحلم العايب للمستبدى ؛ أحد مستشارى سلف أكبر الذى اتخذه أكبر مثلاً^(١) ؛ فاه بها أثناء انعقاد المجلس الخاص ، حينما باح السلطان علاء الدين بنيتة فى ارتكاب فعل الحماقة نفسه الذى ارتكبه أكبر بعد ذلك بثلاثة سنة :

« إن الدين والشريعة والعقائد - صرح مستشار الأمير فى هذه المناسبة - حرى أن لا تكون أبداً موضوعات نقاش جلالتك . ذلك لأنها من اختصاصات الأنبياء ، وليست من مهام الملوك . إن الدين والشريعة ينبعثان من الصلة الإلهية ، لا تشيدهما خطط الإنسان وتصميماته . فإنهما ما يزالان منذ أيام آدم حتى الآن ، رسالة الأنبياء والرسل ، مثلاً أن الحكم والحكومة من واجبات الملوك . إن وظيفة النبوة لم تكن قط من اختصاص الملوك ولن تكون كذلك فى المستقبل ، حتى تقوم الساعة رغماً عن أن بعض الأنبياء قد تقلد وظائف ملكية . إن نصيحتى أن لا تخوضوا جلالتك فى مثل هذه الأمور »^(٢) .

غير أننا لما نستخلص بعد من تاريخ المجتمع الغربى الحديث ، أية أمثلة عن المحاولات العقيمة التى قام بها الحكام السياسيون لفرض « ديانة مصطنعة » على رعاياهم ، وإن كانت الثورة الفرنسية تتيح لنا مجموعة من التفسيرات .

(١) سلف أكبر هو السلطان علاء الدين خلجى . (المؤلف)

(٢) صفحة ٢١٠ Akbar, The Great Mogul : V.A. Smith

ومناطق تلك التفسيرات ، إخفاق الموجات المتتابة من مفكرى الثورة الفرنسية إبان العشر سنوات الحرجة من تاريخ الثورة الفرنسية التى اختتمت القرن الثامن عشر ؛ إخفاقها فى أن تنجح فى إحلال أى من التخييلات الدينية التى تقدم بها هؤلاء المفكرون إلى الناس محل الكنيسة الكاثوليكية ، التى افترضوا عدم ملائمتها لروح عصرهم . وذلك سواء تمثلت هذه التخييلات الدينية فى النظام الذى ورد فى قانون الكنيسة المدنى رقم ١٧٩١ عن الترتيب الديمقراطى لرتب الكهتوت أو عقيدة « الكائن الأعظم » التى نادى بها روبسبير عام ١٧٩٤ أو فيما يدعى بـ « ثيوفيلانثروپى Theophilanthropy ^(١) » التى ابتكرها لارفيلير ليبو Larevellière Lépaux أحد أعضاء حكومة الإدارة . ويقال إنه حدث فى إحدى اجتماعات الهيئة أن قرأ هذا المدير بياناً مسهباً يشرح نظامه الدينى لزملائه الوزراء ، فأبدى تاليران وزير الخارجية - بعدما تلقى المؤلف تهنئة معظم المستمعين - الملاحظة التالية :

« إنه فيما يتصل بشأنى ، لدى ملاحظة واحدة ، أن يسوع المسيح لكى ينشئ عقيدة دينية قد صُلب ثم بعث من الأموات . ويجب أن تسعى إلى عمل شئ من هذا القبيل . إن تاليران قد أعاد بكلماته وحدها - بالفاظ فظة - نصيحة مستشار السلطان علاء الدين ، ومعناها أنه إن رغب لارفيلير فى أن ينجح فى إذاعة عقيدته الدينية ، يقتضيه الأمر ترك صفوف المديرين واعتناق عمل جديد كنبى بروليتارى .

فكان أن تبقى للقنصل الأول نابليون بونابرت ^(٢) أن يكتشف أن فرنسا هى مع ذلك أمة كاثوليكية . وبالأحرى يصبح أيسر وأكثر اتفاقاً مع السياسة ، السعى لضم عقيدتها الدينية القديمة إلى جانب حاكمها الجديد ؛ لا فرض دين جديد عليها .

(١) أساس هذه العقيدة ، عبادة الله مع حب الانسان . وقد قصد من وضعها خفضاً على فنود الكنيسة الكاثوليكية . (المترجم)

(٢) أى قبل أن يعلن نابليون نفسه إمبراطوراً على فرنسا . (المترجم)

ولقد يترك هذا المثل الأخير - لا ليكمل حجتنا على أن فكرة أن « الأمير يعين الدين » فكرة خاطئة وضالة - ولكن ليشير إلى سبيل القضية المضادة التي تحتوى على عنصر وافر من الحقيقة التي قد نعبّر عنها في صيغة « دين الرعية دين الأمير ^(١) . فإن الحكام الذين يعتقدون الديانة التي ترضى عنها جمهرة الرعايا أو على الأقل الأقوى منهم عضداً : تزدهر بصفة عامة ، سواء انبعثت عن إخلاص ديني أو مطلب سياسي ، على غرار ما قاله هنرى كواتر Henri Quatre « باريس جديرة بقداس » ^(٢) .

ولا بد أن تشتمل قائمة الحكام الموائمين الذين ظاهروا ديانة جمهرة رعاياهم : الامبراطور الرومانى قسطنطين الذى اعتنق المسيحية ، والامبراطور الصينى هان ووتى Han wuti الذى اعتنق الكنفوشوسية . كما أنها لا بد وأن تشمل : كلوفيس وهنرى كواتر ونابليون .

بيد أن أوضح تفسير لهذا الرأى جدير بالملاحظة ، نجده فى نص من نصوص الدستور البريطانى يتسم بمرونته وبمقتضاه يصبح ملك المملكة المتحدة أسقياً فى إنجلترا ، ويعتبر على الجانب الاسكتلندى من الحدود تابعاً للكنيسة الاسكتلندية . وفى الواقع ، ما يزال الوضع الكنسى للناج البريطانى - وضع نجم عن التسوية السياسية الكنسية التى تمت بين عامى ١٦٨٩ و ١٧٠٧ - هو الحافظ لدستور المملكة المتحدة منذ ذلك الحين . لأن المساواة من ناحية الشكل القانونى بين المؤسسات الدينتين السالفتى الذكر للمملكتين ^(٣) ، قد أصبحت تمثل فى صورة « يقبلها الشعب » على جانبي الحدود ، وفى واقع ملموس على الجانبين كليهما . ذلك لأن الملك يعتقد عقيدة تعتبر الديانة الرسمية المقررة للبلاد . ولربما يكفل هذا

(١) relegio regionis religio regis

(٢) أى تستحق أن يتحول من يحكمها من البروتستانتية إلى الكاثوليكية . (المترجم)

(٣) أى إنجلترا واسكتلندا . (المترجم)

شعورا بالمساواة الدينية كان مفقودا بشكل ظاهر خلال القرن الذى تخلل اتحاد التاجين واتحاد البرلمانيين (١٦٠٣-١٧٠٧). فكان أن أتاح ذلك أساساً سيكولوجيا لاتحاد حر على قدم المساواة بين المملكتين اللتين كانت تفصل إحداها عن الأخرى فيما مضى ، خصومة تقليدية طويلة المدى . وما يزال يفرق الآن بينهما إلى مدى بعيد ، فارق السكان والثراء .

(٦) الشعور بالاتحاد

لاحظنا أثناء استعراضنا التمهيدى للعلاقات المختلفة بين الطرائق البديلة لسلوك والشعور والحياة - تلك الطرائق التى تقوم بوساطتها النفوس البشرية بعملية رد الفعل على محنة التحلل الاجتماعى - لاحظنا أن الشعور بالابتدال - الذى أخذنا ندرسه فى تنوع من المظاهر - عبارة عن استجابة سيكولوجية لمزيج من القواعد ذات الطابع الحاد . قواعد تنتحلها الحضارة وهى ما تزال فى مرحلة ارتقائها . كما لاحظنا كذلك أن نفس التجربة قد تستثير على التعاقب استجابة أخرى مدارها التنبيه إلى شعور بالاتحاد ؛ شعور لا يقتصر الأمر على انفصاله عن الشعور بالابتدال ، بل يعتبر تقيضه التام ، ولقد ينكشف الانحلال المزعج الذى يلم بالأوضاع المألوفة - وهذا ما يوحى إلى النفوس الضعيفة بأن الفوضى وحدها هى الحقيقة النهائية - عن رؤيا أشد رسوخا وأصدق روحانية . ومناطق ذلك ؛ الحقيقة القائلة بأن الشرط السينمائى للعالم الخارجى وهم يعجز عن حجب الاتحاد الخالد الذى يكمن وراءه .

ويتأتى فهم هذه الحقيقة الروحية - ككل الحقائق الأخرى من نفس النوع - بفضل القياس فى المخل الأول - من نوع الدليل الظاهر المنظور ؛ ويأتى بعد ذلك ، النذير المنبعث من العالم الخارجى . نذير يهيم الإشارة الأولى عن الاتحاد ، وهى إشارة تتسم بروحانيتها ولا معقب لها ، وتعتبر جماع توحيد اجتماع فى دولة عالمية .

وحقاً ، لم يكن ليتأتى للإمبراطورية الرومانية أو أية دولة عالمية أخرى ، أن ترسي قواعدها أو تحافظ على كيانها ، لو لم تُحمل على اغتنام فرصة رغبة عارمة في الاتحاد السياسى ، بلغت أقصى مداها كعصر اضطرابات . ووجدت هذه الرغبة في التاريخ الحلىنى - متنفساً في الشعر اللاتينى في غضون العصر الأوغسطى . وأن أبناء المجتمع الغربى في مرحلته الحاضرة ليحسّون من خلال تجربتهم ، مدى ما قد تبلغه مرارة هذا التتوق إلى « التنظيم العالمى » في عصر يكبد العالم لإدراكه دون جدوى .

إن حلم الإسكندر الأكبر عن « الاتحاد »^(١) لم يمح قط من العالم الحلىنى طوال ما بقى للهلينية أثر . ومصدافاً لذلك ، نجد أغسطس بعد انقضاء ثلاثمئة سنة من وفاة الإسكندر ، يضع رسم رأس الإسكندر على خاتم توقيعاته الرومانى ، إشعاراً بالمصدر الذى يُلشد منه إلهام رسالته لإقامة « الإمبراطورية » الرومانية . ويذكر بلوتارخ أنه مما يؤثر عن الإسكندر قوله « إن الله أب جميع الناس لكنه يصطفى إليه أختيارهم » . فإن ثبت صحة هذا القول ، فإنه ينبئنا بأن الإسكندر قد أدرك فكرة أخوة البشر عن طريق افتراضه سلفاً أبوة الله لهم . وهى حقيقة تتضمن عكس القضية القائلة بأنه لو أسقط الولد الإلهى للعائلة البشرية من الحساب ، ينتفى احتمال صياغة أية رابطة بديلة عنه ، مصنوعة من نسيج بشرى بحت ، قينة هى وحدها يربطهم بعضهم إلى بعض . فإن المجتمع الوحيد الذى فى مكنته أن يضم بين طياته الجنس البشرى بأسره ، يتمثل فى رعية مدينة الله . وما فكرة المجتمع الذى يشتمل على الجنس البشرى بأسره ولا شىء غيره ، إلا خرافة أكاديمية . ولقد أدرك ابيكتوتوس الرواقى هذه الحقيقة السامية ، مثلما أدركها بولس الرسول

المسيحي ، ولكن بينما قرر ابيكتوتوس الحقيقة كاستقراء فلسفى ، بشر بها القديس بولس كبداً سليم لوحى جديد صادر عن الرب إلى الإنسان ، عن طريق حياة المسيح وموته .

كذلك لم ينحصر قط التطلع للاتحاد ، إبان عصر الاضطرابات الصينى فى الأرض :

« كان لكلمة الواحد (الاتحاد ، التفرد . . الخ) لدى صينى هذا العصر مفهوم عاطفى عنيف ، انعكس بالتساوى فى الفكرة السياسية وفى الغيبيات التأوية . وحقاً ، فإن الاشتياق — أو الحاجة النفسانية بعبارة أدق — إلى مقياس محدد للإيمان ؛ كان أعمق وأكثر ضرورة وأشد إلحاحاً من الاشتياق إلى الاتحاد الحكومى ، فإن الإنسان يعجز فى النهاية عن البقاء من غير توافر رأى مستقيم ، من غير نمط ثابت للإيمان الأصيل »^(١) .

فإن أمكن اتخاذ هذا الطريق الصينى المتضمن مسألة متابعة نشدان الاتحاد معياراً ، وأن يسجل على العقيدة الغربية المتصلة بفكرة البشرية ذات الطابع المتفرد الجائر ؛ بأنها شيء استثنائى ، بل إنها مجرد مرض ، فعندئذ يجب توقع مشاهدة التوحيد العملى للجنس البشرى والوحيد المثالى للعالم ، يتحققان بنفس المعدل بفضل بذل جهد روحانى لن يتوقف عن صيرورته واحداً وغير قابل للتجزئة . ويعزى ذلك إلى كونه يتبدى فى نفس الوقت ، فى مجالات متعددة .

وجدير بالذكر ما سبقت لنا ملاحظته عما يصاحب اندماج الجماعات الإقليمية فى دولة عالمية ؛ اندماج أهم مظاهره : توحيد المعبودات المحلية فى مجمع مفرد للمعبودات (بانثيون) يبرز من خلاله معبود — مثل آمون رع فى طيبة أو ماردوك بل فى بابل — يغدو مناظراً فى العالم الروحى للملك الملوك أو سيد الأسياذ فى عالم الأرض .

على أن الشرط المتصل بالشئون البشرية - الذى يجد له انعكاساً مقدسياً فى مجمع للأرباب (بانيون) من هذا النوع - مناطه حالة تقع مباشرة بعد تكوين دولة عالمية . وهو لا يعنى الدستور الذى يستق فيه نظام للدولة من هذا النوع فى خاتمة المطاف . إذ لا يعنى الدستور النهائى للدولة العالمية ، تنظيمًا كهنوتياً يحتفظ بأجزائه الأساسية سليمة ، ويقتصر فقط على تحويل تكافؤها السابق كدولة ذات سيادة ، إلى سلطان تمارسه لاحدى الدول على الآخرين ؛ ويرسخ السلطان بتوالى الزمن فى إمبراطورية موحدة .

وفى الواقع ؛ فإن ثمة ظاهرتين بارزتين فى الدولة العالمية الكاملة التكوين ، تتحكمان فيما بينهما فى مظاهر الحياة الاجتماعية بأسرها : ملك شخصى ذو سلطان وقانون^(١) غير شخصى ذو سيادة .

وفى عالم الناس الذى يُحكم وفقاً لهذا المنهاج ، يرجع وصف الكون فى مجموعه وفقاً لنمط مقابل :

فإن كان الحاكم البشرى للدولة العالمية ، هو فى نفس الوقت من القوة ومن السماحة بحيث يمكن لإغراء رعاياه بعبادته كاله متجسد فى إنسان ؛ يميل رعاياه بالتبعية إلى اعتباره المشابهة الأرضية لحاكم سماوى ذى سلطان وقادر بالمثل على كل شيء . وهو فى اعتقادهم الإله الواحد الحق المسيطر وليس لأنه فعسب رب الأرباب مثل آمون رع أو ماردوك بعلى .

ويعتبر كذلك القانون الذى تترجم فيه إرادة الإمبراطور إلى فعل ، قوة لا تقاوم ، وأنها كلية الوجود . فإذا ما استخدمنا القياس المنطقى ، توحى هذه القوة بفكرة « قانون الطبيعة » يتسم بكونه قانوناً « غير شخصى » . وهو قانون لا تقتصر هيمنته على الكون المادى ، بل تتعداه إلى الهيمنة كذلك على التوزيع

(١) كلمة القانون لا تعنى بحال القانون الوضعى المؤلف الذى تنفعه الجماعات البشرية لتنظيم أمورهما ؛ بل تعنى للكلمة ، القانون الطبيعى أى الناموس . (الترجم)

المستغلق الخفي : للمسرة والشجن ، للخير والشر ، للجزاء والعقاب . ويتولى قانون الطبيعة هذا ، توزيعها على جوانب الحياة البشرية الأشد عمقا حيث « لا يسرى أمر لقيصر » .

ويوجد هذا الزوج من الآراء - تقريباً - في قلب كل صورة من صور للكون ، اتخذت هيئتها في العقول البشرية القائمة في بيئة اجتماعية لدولة عالمية . بيد أن استعراضنا لهذه العوالم الكونية من شأنه إظهار نزوعها إلى الاقتراب من أحد هذين الطرازين المميزين الآتين :

طراز يسمو فيه القانون منتقضا من قدر الكائن الإلهي .

وطراز يعلو فيه الكائن الإلهي منتقضا من قدر القانون :

ويعتبر إعلاء شأن القانون ، سمة المدارس الفلسفية للأقلية المسيطرة ، على حين تميل العقائد الدينية للبروليتاريا الداخلية إلى إخضاع القانون إلى قدرة الإله الجامعة .

وأيا ما تكون ؛ يتصل التمييز بين الطرازين ، بموضوع حظهما من التطويب . ويتأني الثور على الفكرتين كليهما في جميع العوالم الكونية ، متواجدين^(١) ومتداخلتين ؛ مهما يكن من أمر حجم كل منهما .

أما وقد وضعنا هذا التحفظ على التمييز الذي ننشد إقامته ، فلعلنا نستعرض تباعاً ، صور وحدة الكون التي أعلى القانون من شأنها على حساب الإله ، ثم نستعرض بعد ذلك ؛ تلك الصور الأخرى التي حجب فيها الإله ، القانون الذي أصدرته إرادته .

وفي وسعنا أن نراقب في النظم التي يكون فيها « القانون هو سلطان كل شيء ؛ شخصية الإله تذبل تدريجياً كلما استفحل أمر القانون الذي يتحكم في الكون :

(١) يتواجد : يصاحب في الوجود . (المترجم)

ففى العالم الغربى مثلاً ، ضعفت تدريجياً عقيدة الإله ذى الأقاليم الثلاثة التى نادى بها أثناسيوس^(١) ، وتلاشت من العقول الغربية المتزايدة العدد ؛ مثلما وسّع علم الطبيعة من حدود نفوذه الثقافى على مستوى من الوجود يتلوه آخر ؛ حتى رأينا أخيراً فى أيامنا هذه التى تتسم بغلبة العلم على الكون بأسره ، سواء الجانب الروحى منه أم المادى ؛ رأينا الإله البصير بالرياضيات يدوى بعيداً ليغدو الإله « فى الفراغ »^(٢) .

ولقد سبق فى العالم البابلى إبان القرن الثامن قبل الميلاد ؛ أن تُكهّن بهذه العملية ذات الطابع الغربى ، المتصلة بتجريد الإله من سلطانه لينسح المجال لسلطان القانون . وحدث ذلك وقتاً غررت ظاهرة توالى دورات تحركات عوالم النجوم بعلماء الحساب الكلدانيين — وهم فى غمرة حماسهم لعلم التنجيم الحديث — إلى تحويل ولائهم من معبودهم الإلهى ماردوك بعل ، إلى الكواكب السبعة .

وكذلك الحال بالنسبة للعالم الهندى ؛ فإن المدرسة الفلسفية البوذية ، عندما استخلصت نتائجها المنطقية المتطرفة المتصلة بقانون الكارما Karma^(٣) النفسانى ؛ كانت أرباب المجتمع الفيدي هى أشهر ضحايا هذا النظام العدوانى القائم على جماعية « الحتمية الروحية » . إذ اقتضى ذلك

(١) أثناسيوس (٢٩٦ - ٣٧٣ ميلادية : كان بطريق الاسكندرية . اشتهر بمعارضته مذهب آرموس الذى سبق لمجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادية تحريمه . ومدار مذهب آرموس انكاره على الابن المتائل فى الخلود والمرتبة مع الآب . فإن الآب هو الذى خلق الكون ومن ضمنه الابن فكان أن عارضه أثناسيوس المصرى الذى قرر بأن الآب والابن والكلمة شئ واحد .
(المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف بهذه العبارة إلى نزع الإلهاد التى غدت تسيطر على المجتمع الأوروبى فى الوقت الحاضر .
(المترجم)

(٣) مفاد الكارما ، أن الإنسان فى حياته الأخرى محاسب بتصرفاته فى حياته الأولى .
(المترجم)

الأمر ؛ أن تؤدى تلك الأرباب الممجية لعصابة حرية بربرية ثمناً غالياً — وهى فى متوسط عمرها الواقعى — عما ارتكبته من المغالاة فى الاستئثار البشرى إبان فترة شبابها المشاغب .

ولقد استحالت الأرباب فى كون تسوده البوذية وهبطت فيه الرغبة والغاية إلى ميراث من الحالات السيكلوجية الذرية التى هى — بحكم تعريفها — عاجزة عن الامتزاج فى نوع من الطبيعة الشخصية سواء أكانت متصلة الحركة أو ثابتة ؛ استحالت بصورة آلية إلى كيان روحى لمخلوقات بشرية على مستوى هى والعدم سواء . وحقا اتفق مثل هذا الاختلاف بين حالتى الأرباب والناس فى نظام الفلسفة البوذية ، مع منفعة الناس . إذ كان فى وسع الفرد البشرى أن يغدو على الأقل راهبا بوذيا إن أمكنه الصمود فى وجه محنة التقشف ؛ وكان ينتظره لقاء صدوفه عن المتع الدنيوية المبتذلة ، تعويض التحرر من عجلة الوجود^(١) ودخوله إلى سلوان النيرفانا .

أما فى العالم الهلنى ؛ فقد عاشت أرباب الأولمب معيشة أفضل مما تستحقه إن قيس طاقاتها على الشر ، بالعقاب الذى تحيقه العدالة البوذية بأبناء عمومها الفيديين . ذلك لأنه عندما توصل الفلاسفة الهلينيون إلى فهم الكون على أنه « مجتمع كبير » ذى أبعاد تسمو على الأبعاد الأرضية ؛ أصبح قانون « الاتفاق » هو الذى ينظم علاقات الأفراد مع بعضهم بعضا . وكان زيوس — الذى بدأ حياته زعيما حربيا شائنا — قد استرد اعتباره وأحيل إلى المعاش فى صورة جميلة قوامها اختياره لرئاسة الأكوان

(١) عجلة الوجود فى البوذية . تعنى انتقال الروح من كائن إلى آخر سواء أكان هذا الكائن بشرا أو حيوانا أو نباتا . فإن قبض الروح التحرر من التناسخ تمتعت بحالة النيرفانا وحظى صاحبها بمرتبة الاستنارة فيصبح بودا (أى الانسان المستنير) .

متبوئا منزلة الملك الدستوري الحديث الذى يملك ولا يحكم ؛ ملك يصدق
بوداعة على مراسيم القدر ، ويعبر اسمه إلى عمليات الطبيعة^(١) .
وصفوة القول ؛ أظهرت معاينتنا ؛ أن القاتون « الذى يحجب الألوهية ،
قد يأخذ عدة صور باعتباره :

قانون رياضى ، استعبد المنجم البابلى والعالم الغربى الحديث .
وقانون اجتماعى ، فاز بولاء الفيلسوف الصينى .

ونجد الألوهية فى العالم الصينى — حيث لم تجد فكرة القانون إقبالا —
يحجبها بما لا يقل عن ذلك ، نظام يتمثل للعقلية الصينية كنوع من
التطابق السحرى — أو التعاطف — بين سلوك الإنسان وبيئته . فبينما يعترف
بفعل البيئة على الإنسان (ونجدها مطبقة فى فن ضرب الرمل الصينى) ؛
فإن الفعل المناقض لذلك ، أى فعل الإنسان على البيئة يكبح جماحه . ويوجه
الفعل ؛ باستخدام طائفة من الطقوس الدينية وأساليب السلوك ؛ بلغت من

(٢) ولكن هل وجد زيوس بالفعل ؟

أليس أقرب إلى الحقائق القول بأن الملتقين غير المشخصين الذين نصبهم الفلاسفة ليحلوا
عمل الكيان الأوليمبى ، قد استخدموا فى ذلك المقام — لأغراض علمهم — اسم الشريك المتوفى
الأعلى مقاما ؟

وعلى أية حال فإن المستر توينبى ، قد اقتبس فى مكان آخر من مؤلفه عبارة عن ماركوس
أوريليوس علق عليها بالآق « فى هذه الصيحات المفجعة ، يظهر أننا نستمع إلى صوت مواطن
مخلص من الأكوان ، أفاق نجاة يرى زيوس يستخفى من مركزه الرئاسى . . . لكن أجدر
بقراء ماركوس من المسيحيين أن لا يكونوا شديدي الوطأة على زيوس الذى ذكره ماركوس .
لأن زيوس — قبل كل شيء — لم يطالب قط بانتخابه رئيسا لجمهورية كونية . لقد بدأ حياته
زعيمًا حربيًا ثائنا لعصابة حربية همجية . وكل ما نعرفه عنه ، يبدى استمتاعه بهذه الحياة .
فإذا كان زيوس الذى قبضوا عليه ببطء وأودعوه القفص ، عاجزًا عن احتمال خلود التوقيف
المفروض عليه باعتباره الخلد الأعلى مقاما لإصلاحية روائية ؛ فهل لدينا الجرأة لنناق اللوم على
المجوز المسكين لإظهار عدم قابليته للتقويم ؟

لكن لعله — مثل مارلى شريك سكروج Scrooge — لا يستحق اللوم ، كما لا يستحق
الرثاء « لقد قضى نحبه منذ أجل طويل » . (الملخص)

الدقة والأهمية ، مبلغ كيان الكون الذى تعكسه هذه الطقوس وتكيفه فى بعض الأحوال :

ويعتبر السيد البشرى القيم على الطقوس^(١) ، هو ملك الدولة العالمية الصينية . وبالنظر لاتساع مدى وظيفته اتساعا يعلو على البشر ، يطلق على الإمبراطور رسميا لقب « ابن السماء » . على أن هذه السماء ؛ التى تعتبر فى المتهاج الصينى والدا انتحاليا لرئيس السحرة ، باهتة وبجردة عن الشخصية ؛ مثلها مثل سماء الصين الشمالية خلال فترة شتائها الجليدى . وحقا ؛ فإن انتفاء كل فكرة عن الشخصية الإلهية انتفاء تاما عن العقليّة الصينية ، قد جعل بعثات الجزويت التبشيرية ، تجابه معضلة صعبة . وقتما سعت إلى ترجمة كلمة « الله » إلى اللغة الصينية .

وسننتقل الآن إلى بحث صور الكون الأخرى ، حيث تعرض الوحدة نفسها كفعل لألوهية قادرة على كل شيء ؛ فى حين يعتبر « القانون » مظهرا لإرادة الله . وذلك عوضا عن النظر إلى القانون على أنه القوة الفعالة الموحدة التى تنظم أفعال الآلهة والبشر على السواء :

ولقد لاحظنا قبل الآن أن هذه الفكرة عن وحدة الأشياء بوساطة الله — وبالمثل الفكرة البديلة لها الخاصة بوحدة الأشياء بوساطة القانون — تدركها العقول البشرية بفضل لجوئها إلى استخدام قياس مستمد من الدستور الذى تنتحله الدولة العالمية لنفسها عندما تبلور فى شكلها النهائى تدريجيا . ويعمد الحاكم البشرى — الذى هو فى الأصل ملك الملوك — ، إلى التخلص من الأمراء الذين كانوا يوما ما نظراءه قبل أن يتحول هو إلى ملك بالمعنى الدقيق المراد من الاصطلاح

فإذا ما أجرينا الآن فحصنا لما يحدث فى نفس الوقت لمختلف آلهة الشعوب

(١) ويبحث الأرض فى عرفهم على الدوران . (المؤلف)

والأراضى التى أصبحت تستوعبها الدولة العالمية ، سنجد تغيراً مجانساً .
ففى مكان مجمع الأرباب (البانثيون) حيث يمارس السلطة رب عظيم
على جماعة من الأرباب — كانوا نظراءه ذات مرة — لم يفقدوا ربوبيتهم
بفقدانهم استقلالهم ؛ يبرز إله فرد تعتبر وحدانيته هى جوهره .

وتبدأ هذه الثورة الدينية بصفة عامة بتغير العلاقات بين الأرباب
وعابديها . إذ تنزع الأرباب داخل نطاق الدولة العالمية ؛ إلى تجريد
نفسها من الروابط التى ربطت كل منها بجماعة من الجماعات المحلية ؛
أما الكائن الإلهى الذى يبدأ حياته نصيراً لقبيلة معينة أو مدينة أو جبل أو
نهر ؛ فإنه يطرق مجالا للفعل أكثر رحابة ، بفضل قدرته على اللجوء
إلى نفوس الأفراد من جهة ؛ وإلى البشرية فى مجموعها ، من الجهة
الأخرى . وفى ظل هذه القدرة الأخيرة ؛ يتخذ الكائن الإلهى — الذى
كان نفوذه ينحصر فى دائرة محدودة ويقابل فى السماء الزعيم المحلى على
الأرض — مظاهر استعارها من حكام الدولة العالمية التى تستوعب المجتمع
المحلى بن طياتها .

ومصادقاً لذلك ؛ فى وسعنا ملاحظة تأثير الملكية الأخيمينية — التى
حجبت مملكة يهوذا من الناحية السياسية — على الفكرة اليهودية عن إله
إسرائيل . فإن هذه الفكرة الجديدة عن ياهوى Yahweh قد صاغت نفسها
لتبلغ مرتبة الكمال ، حوالى ١٦٦ — ١٦٤ قبل الميلاد : وظاهر أن هذا
التاريخ ، هو التاريخ التقريبى لكتابة قسم الرؤيا من سفر دانيال :

« كنت أرى ؛ وُضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض
كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقى : وعرشه لهيب نار ودولاب
تعذيبه^(١) كالنار المشتعلة . وتدفق تيار مضطرم ، وبرز من بين يديه

(١) دولاب التعذيب : من أدوات العذاب قديماً . (المترجم)

الآلاف المؤلفة من الأيدي تلمس رحمته ، ويقف خلفه عشرات عشرات الألوف . فجلس الدين وفتحت الأسفار^(١) وعلى ذلك ؛ فإن عدداً من الأرباب التي كانت محدودة السلطان فيما سلف من الأيام قد أصبحت تنتحل شعار الملك الأرضى الراسخ ، ثم تتنافس مع بعضها بعضاً في سبيل السيطرة المفردة المطلقة التي تتضمنها هذه الشعارات . ويستمر التنافس إلى أن يتمكن أحد المتنافسين من استئصال خصومه وتمكين ملكيته من أن تُعبد ، باعتبارها الإله الحق الأوحد .

على أن ثمة مع ذلك ، نقطة واحدة حيوية لا يستقيم فيها القياس التمثيلي بين « معركة الآلهة » والمنافسة المجانسة المبينة لها بين « أمراء هذا العالم » : ففي غضون هذا التطور الدستورى لدولة عالمية ؛ يصبح عاجل هذه الدولة ، هو السلف المباشر لسلسلة دستورية لاتنقسم ؛ وتبدأ الرواية فصولها في ظل رعايته . ولقد سبق أن ألقيناه في نهايتها يتسلم عرشه حائزاً قدراً فذاً من السلطة . فهو البادشاه أو السيد الأعلى للأمرء التابعين ؛ وليس ثمة توقف بالنسبة لاستمرار القوة المسيطرة في ممارسة سلطاتها ؛ حتى أن حدث مثلاً أن نظاماً كنظام أغسطس يقنع بإظهار سلطانه في كبادوسيا أو فلسطين بإقامة نظام التفتيس على الملوك المحليين أو الحكام التابعين^(٢) ؛ يتلوه نظام هادريان الذى يدير هذه الولايات كأقاليم يتولى الإمبراطور حكمها مباشرة .

بيد أن الأمر يختلف بالنسبة للتغير المقابل الذى يطرأ على مسألة تواصل فعل القوة الدينية . فإنه وإن لم يكن هو القانون بأية حال من الأحوال ، إلا أنه يتأتى من الناحية النظرية حدوثه كاستثناء ، لكن قد يصعب إيضاحه

(١) سفر دانيال - الاصحاح السابع ، الآيتان ٩ و ١٠ (المترجم)

(٢) ويمادلون حكام الإمارات الهندية أيام الإمبراطورية البريطانية في الهند .

(المؤلف)

بمثال تاريخي فرد . ولن يستطيع كاتب هذه الدراسة ذكر حالة واحدة استُخدم فيها الرب الأعلى لجمع أرباب (بانثيون) واسطة لتجلى إله هو السيد الأوحد القادر وخالق كل شيء .

ومصادقاً لذلك ؛ لم يحدث أن كشف آون رع الطبيي أو ماردوك بعل البابلي أو زيوس الأولمبي عن ملامح « الإله الواحد الحق » وراء قناعه المشكل . بيد أنه حتى في الدولة العالمية السورية - حيث لم يكن الإله الذي كانت تتعبد له الأسرة المالكة الإمبراطورية إلها من هذا النوع التوليقي ، أو من إله تفرضه الدولة - لم يكن آهورمازدا الإله الأخميني^(١) هو الكائن الإلهي الذي وضحت للبشرية في تقاطيعه ، سمة الإله الواحد الحق وطبيعته ؛ بل تمثل الإله الحق في « ياهوى » إله اليهود ، رعايا الإمبراطورية الأخمينية التافهين .

ويقود هذا التعارض بين المصائر النهائية للكائنات الإلهية المتنافسة ، ومقادير أتباع كل منها السريعة الزوال ؛ يقود إلى التدليل على أن الحياة الدينية وتجربة الأجيال التي نشأت وترعرعت في ظل الحماية السياسية لدولة عالمية ، هي ميدان للدراسة التاريخية يتيح أمثلة مذهلة لـ « عكس الأدوار » ، وهو مبحث عدد لا يحصى من القصص الشعبي من نمط قصة سندريلا ، وفي نفس الوقت ؛ ليست الأصول الوضعية أو المغمورة ، هي المظاهر الوحيدة التي تتسم بها الأرباب التي تدرك توا ، مرتبة الانتشار على نطاق عالمي . فإذا ما أنعمنا النظر في طبيعة ياهوى - وفقاً لتصوير العهد القديم - تقفز أمامنا طبيعتان أخريان :

فإن ياهوى بأصله ؛ إله محلي متصل بالأرض بالمعنى الحرفي . إن

(١) نسبة للدولة الأخمينية ، وكان مركزها الاسمى فارس ثم انتشرت في غرب أنحاء آسيا واستولت على مصر . (المترجم)

كان علينا أن نصدق ما يقال من أنه ظهر لبصيرة الإسرائيليين لأول مرة على صورة كائن « جنى » يسكن مكانا في شمال شبه الجزيرة العربية ويتجلى في بركان .

وعلى أية حال ؛ ضربت تلك الربوبية يجذورها في أعماق مقاطعة محلية ، وفي قلوب جماعة معينة . وتم ذلك بعد ما انتقلت تلك الجماعة إلى الأرض المرتفعة لأفرايم ويهوذا وقتما تألفت من عصابات حرب بربرية اندفعت خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى المقاطعة الفلسطينية من الإمبراطورية الحديثة المصرية .

والطبعة الثانية أن « ياهوى » إله غيور : وتبين تلك الصفة من وصيته لعباده « لن تكون لك آلهة أخرى سوى » .

وطبيعى أن لانسـتغرب وجود هاتين السمتين لنزعى الإقليمية والانطوائية^(١) بيدهما ياهوى في وقت واحد . فإن إنذاره الآلهة الآخرين بالابتعاد عن مجال نفوذه ، هو ما يتوقع صدوره من إله حريص على هذا النفوذ . على أن ما يثير الدهشة — بل الغثيان لأول وهلة على الأقل — رؤية ياهوى يستمر في إبداء تسامح غير منقوص تجاه منافسيه . ثم ينشب بينه وبينهم بعد تدمير مملكتى إسرائيل ويهوذا ، صراع يقفز على أثره إله المقاطعتين الجبليتين إلى العالم ، وينشد مثل آلهة المقاطعات المجاورة ، الفوز لنفسه بعبادة البشرية بأسرها . وفى ظل هذه المرحلة العالمية للتاريخ السورى ، أصبحت مسألة إصرار ياهوى على الاحتفاظ باتجاه التسامح الذى كان ترانا انحدار إليه من ماضيه الإقليمى ؛ أصبحت نزعة « تناقضية »^(٢) تنحرف بلا ريب عن المزاج السائد فى ذلك العصر ، بين حشد من الأرباب المحليين من نوع « ياهوى » ؛ أرباب كانت لها سطوتها

(١) النزعة الانطوائية ، مباشرة طبقة معينة بالذات . (المترجم)

(٢) النزعة التناقضية للدلالة على شئ يستحيل تحقيقه . (المترجم)

فما سلف من الأيام . ورغمنا عن ذلك فإن هذه النزعة التناقضية الفظة ،
هى أحد العوامل فى طابع يقسم به « ياهوى » ، وكان له أثره فى
انتصاره المذهل :

ولعل من المفيد ؛ النظر من زاوية أكثر قربا إلى هاتين السمتين
الخاصتين بالنزعتين الإقليمية والانطوائية . ولنتناول النزعة الإقليمية
بالبحث أولا :

قد يبدو لأول وهلة أن وقوع الاختيار على الربوبية الإقليمية لتصبح
واسطة تجلّى الإله الفذ الكلى الوجود ، نقيضا يستعصى على التفسير ؛
ففى حين أن الفكرة اليهودية المسيحية عن الإله قد استخلصت بلا
جدال — من وجهة النظر التاريخية — من فكرة « ياهوى » الرب المحلى ،
فإنه مما لا يقل عن ذلك فى ثبات صحته ، أن العنصر اللاهوتى — المعارض للأصل
التاريخى لفكرة الله الشائعة عند الأديان السماوية — يختلف اختلافا لا يحدد
عن الفكرة البدائية لـ « ياهوى » ؛ وتحمل بين طياتها — فى الناحية اللاهوتية —
مشابهة أشد قربا بكثير من عدد من الأفكار الأخرى ؛ وإن كانت الفكرة
المسيحية اليهودية تدين لها — من ناحية الحقيقة التاريخية — إما بأقل من
ذلك كثيراً أو لاتدين لها بشيء البتة :

فن ناحية الاتجاه العالمى ؛ لا تشترك الفكرة المسيحية اليهودية مع
التصور البدائى لـ « ياهوى » ، إلا بقسط يقل عن القسط الذى تشترك
فيه هذه الفكرة مع فكرة الإله الأعلى فى مجمع أرباب « بانثيون » مثل
آمون رع أو ماردوك بعل ، وتتضمن هذه الفكرة إلى حد ما إلها يحكم
الكون بأسره .

فإن ما اتخذنا من الاتجاه الروحا فى مقياسا ؛ نجد الفكرة المسيحية
اليهودية متفقة مع الآراء التجريدية للمدارس الفلسفية المتصلة بـ « زيوس »

الرواقى ، أو الفكرة الشمسية للأفلاطونية الجديدة ؛ أكثر من اتفاقها مع فكرة « ياهوى » الإسرائيلى .

فإذا كان الأمر كذلك ؛ فما الذى دعا إلى تخصيص ياهوى الرب المسمى الإقليمى بقيامه بالدور القدسى فى المسرحية التى تقوم حبكتها علم وحى الله للإنسان ، دون إله الشمس اليونانى أو آمون رع الإمبراطورى علما بأن صلاحية « ياهوى » لتأدية الدور ، قد تبدو بجلاء — على أساس استعراضنا الحاضر — أوطأ فى مستواها من صلاحية بعض تلك الأرباب المنافسة لياهوى ، التى لم يقيض لها النجاح .

تكمُن الإجابة ، فى تمحيص عنصر فى الفكرة اليهودية المسيح لم يذكر بعد :

فإننا قد توقعنا عند خاصيتى : كلية الوجود والوحدانية : بيد هاتين الخاصيتين للطبيعة الإلهية ، هما بسبب سموهما ، ليستا إلا نتيجة للفطنة البشرية ؛ وليستا تجربتين من تجارب القلب الإنسانى . فإن جو الكائن الإلهى — عند جمهرة البشر — إله موجود ؛ يدخل معه الإنسان الحى فى علاقات مسلم بأنها تنتسب إلى العلاقات الروحية التى يدخل الإنسان مع غيره من البشر الأحياء . وهذه الحقيقة المتصلة بدوام الحياة هى جوهر طبيعة الإله لدى النفوس البشرية التى تنشأ الدخول فى اتصال معه . وهذه الصفة التى تضى طابعا إنسانياً على الإله ، هى جوهر الفكرة الإلهية التى يتعبد لها اليهود والمسيحيون فى الوقت الحاضر ؛ وهى با جوهر ياهوى وفقاً لما يبدو فى العهد القديم عندما يتكلم « ياهوى » إلى المختار مباهايا :

« لأنه ، من هذا الذى هناك من اللحم الذى استمع إلى صوت الرب الحى يتكلم من وسط النار — كما سمعنا — ثم عاش ؟ » (١) .

(١) سفر التثنية (٥ - ٢٦) .

وعندما جابه إله إسرائيل الحى ، القضايا التجريدية للفلاسفة على اختلافهم ، بدا من الواضح مصداقا لكلمات الأوديسية^(١) « أنه وحده الذى يتنفس أما الباقى فإنهم ظلال » ذلك لأن شخصية ياهوى البدائية قد تفرعت إلى شخصية إله المسيحية ، بفضل إضافة صفات تصورية اقتبستها تلك الشخصية عن هذه القضايا التجريدية ، دون أن تتواضع فتعترف بالافتقار .

فإذا كانت هذه الخاصية المتصلة بـ « الكائن الحى » والتي تنسم بالمصابرة والعناد ، هى نقيض جزء من طبيعة « ياهوى » الإقليمية البدائية ، فمعانا أن نتبين أن النزعة الانطوائية التى تلتصق بـ « ياهوى » كصفة أصيلة فى طبيعته ؛ تحتوى كذلك على قدر من الأهمية يعتبر حيويًا للدور التاريخى الذى بات يؤديه إله إسرائيل فى إيضاح الطبيعة الإلهية للبشر .

وتتبدى هذه الأهمية حالما نتمعن فى مغزى التعارض بين الانتصار النهائى لهذا « الرب الغيور » وبين الحية التى جابهت فى نهاية الأمر ، أرباب مجتمعين إلهيين لمجتمعين مجاورين ؛ قطعًا فيما بينهما أوصال البناء السياسى للعالم السورى ،

فلقد كان فى مكنة آمون رع وماردوك بعل ، كليهما - بسبب تأصلهما فى التربة وانسيابهما مع عصارة الحياة المراثية المحسوسة - أن يجعلنا من نفسيهما فى موقف الند لـ « ياهوى » وقتما كانا متفوقين عليه بفعل مساهمتهما فى النجاح الدينى المائل الذى أحرزته طيبة وبابل على التوالى (وهذا ما انطبع فى عقول عبادهما) . على حين ترك ياهوى أفراد شعبه فى مذلتهم

(١) الأوديسية : قصيدة عزيت إل هوميروس يصف فيها تجوال أوديسيوس (موليس)

بعد حصار طروادة . (المترجم)

وأسرهم البابل . فأخذوا يبذلون ما وسعهم الجهد لتثبيت أركان فضائل إله محلي ، هجر - كما هو ظاهر - أفراد قبيلته ساعة حاجتهم إليه .

فإذا كان آمون رع وماردوك بعل ، على الرغم من توافر هذه النقطة الروائية لصالحهما ؛ قد هزما في نهاية المطاف في « معركة الآلهة » ؛ ففي وسعنا أن نتجنب بصعوبة ، نسبة الفشل إلى جهلهما بمنحى « ياهوى » الغيور . فإن الحرية سواء ترتب عنها خير أو شر ، تتشابك مع الزعة الانطوائية ، وتفسر هذا علامة الوصل التي تربط جزئى اسمى كل من هذين الإلهين المركبين ^(١) . فلا يستغرب إذا أن نجد آمون رع وماردوك بعل ، متساخمين تجاه الشرك بهما إلى مدى أبعد من القيود التي تفرضها شخصيتاهما المستترختان ، كما أنهما يتساخمان تجاه الانشقاق الحاصل في ذاتيتهما المتغايرتين . فإلهما قد ولدا - أو بعارة أدق قد نسقا - بحيث يكونا راضيين عن وضع سيادتهما العتيقة على حشد من الكائنات الأخرى التي لا تقل عنهما في مسحة الربوبية ؛ وإن كانت أقل منهما بأسا . فكان أن ترتب عن هذا الافتقار الفطرى إلى الطموح ، أن قضى عليهما بالخروج من حلبة التنافس في سبيل احتكار الربوبية . وقد تم هذا وقما كانت غيرة « ياهوى » المفترسة تستحثه بالتأكيد للجري إلى نهاية هذا الشوط الذى ساروا فيه جميعاً .

وتبدى بجلاء نفس نزعة التعصب الغليظ تجاه أى منافس ، في صفة من الصفات التي مكنت إله إسرائيل - بعد ما أصبح إله الكنيسة المسيحية - من أن يتقدم على جميع هؤلاء المنافسين مرة أخرى في معركة الآلهة التي نشبت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية . وتألف منافسوه وقتذاك من : ميثرا السورية وإيزيس المصرية وسبييل الحيثية . وكانت هاته الرباب ترضى بعقد

(١) إذ يتركب آمون رع من الهين هما آمون رب طيبة ورع رب هليوبوليس (آون) .

أية تسوية مع بعضهم بعضا ومع أية عقيدة أخرى تواجه كل منهن بمفردها . إلا أن روح التسوية الميسرة هذه، قد أردت منافسى إله تروتوليان Tertullian^(١) وقتما أصبح عليهم أن يواجهوا خصما لن يرضيه شيء أقل من النصر « الشامل » . لأن رضاه بأقل من ذلك ، يعنى لديه إنكار جوهره الذاتى .

وتطالعنا من بين ثنايا العالم السندى شذرة من الإثبات السلبي الطبع ، هى أبلغ الأدلة تأثيراً عن قيمة منحى الغيرة فى مزاج « ياهوى » (إله اليهود) . فإن عملية التحلل الاجتماعى ، قد صاحبها هنا - كما فى أى مكان آخر - نشوء شعور بالوحدانية فى الجانب الدينى . فاندبجت الألوف المؤلفات من أرباب البروليتاريا الداخلية السندية ، وذابت فى شخصية أو فى أخرى من شخصيتى شيفا وفيشنو القويتين . وتم ذلك استجابة لتطلع النفوس السندية - بصورة ملحّة - لإدراك وحدانية الإله .

وأحرزت الهندوكية هذه المرحلة قبل الأخيرة ، فى طريقها صوب وحدانية الله منذ ألف وخمسمائة سنة ، على الأقل . على أنه فى جميع الأوقات التى انقضت منذ ذلك الحين ، لم تتخذ الهندوكية أبدا الخطوة النهائية التى اتخذها العالم السورى وقتما عمد « ياهوى » - الذى لا يطبق وجود حتى قرين واحد إلى جواره - إلى التخلص من « آهورمازدا » الفارسى بابتلاعه كلية . وبالحرى ، فإنه عوضا عن أن تقوم فى الهندوكية فكرة الإله العلى القادر ، برزت فكرة مستقطبة تدور حول شخصيتين يكمل أحدهما الآخر ومتضادتين يتألفان من مرشحين لمنصب الألوهية متساويين ، لكنهما يأبيان فى عناد تسوية حساب كل منهما قبيل الآخر .

وإزاء هذا الموقف العجيب ، فإننا مضطرون أن نسائل أنفسنا عن الدافع إلى قبول الهندوكية - حلا لمشكلة وحدانية الله - حلا وسطا

(١) تروتوليان (١٦٠ - ٢٢٠) : أحد علماء اللاهوت المسيحى الأرائل . (المترجم)

لا يعتبر في حقيقة الأمر حلاً للمشكلة . إذ يستحيل تصوّر ربوبية تجمع بين كلية الوجود والقدرة على كل شيء : : إلا إن انصفت الربوبية بالوحدانية ؛ وهذه صفة بدعها كل من فيشنو وشيفا لنفسه .

ومناطق الإجابة أن فيشنو وشيفا ، لا يحمل أحدهما للآخر شيئاً من الغيرة . فإنهما راضيان كل بنصيبه . وقد يدخل في باب التصوّر أنهما قد بقيا قائمين — عكس عبادة ميثرا وإيزيس وسبيل وهما نظراؤهما في العالم الخائبي — لسبب واحد هو انتفاء وجود ياهوى ضدهم في الميدان .

• • •

وهكذا ؛ نصل إلى نتيجة مبناها أن الألوهية التي يرضى عليها عابدها روح الانطوائية الصلبة ، تعتبر الواسطة الوحيدة التي أمكنت النفوس البشرية عن طريقها حتى الآن ، إدراك الحقيقة العميقة لوحداية الله .

(٧) نزع السلفية

أما وقد تزودنا بقسط من طرائق الاختيار المتصلة بالسلوك والشعور ، التي تبدّت لنفوس نشأت في أحضان عالم متحلل ، فعسانا أن ننقل إلى طرائق اختيار الحياة . وهي طرائق يتلوها في ظل ظروف التحدى نفسها (في مجال الاختيار الذي أطلقنا عليه « اصطلاح السلفية » في مستهل استعراضنا) ؛ اصطلاح عرفناه بأنه محاولة العودة إلى وضع من تلك الأوضاع ، أفضل من الحالة القائمة فعلاً . وهي أوضاع يشند حزن الناس على انقضائها ، خلال عصر الاضطرابات ، ويحتمل أن تمثل في صورة غير تاريخية ، بالأب الذي خلفوه وراءهم :

إيه لهنى على السفر إلى الوراء

وأتبع مرة أخرى هذا السبيل القديم !

لعل أبلغ مرة أخرى هذا السطح

حيث تركت أول مرة حاشيتي الفخيمة

الذى منه ترى هذه الروح المستنيرة
تلك المدينة الظليلة ذات أشجار النخيل
بتعشق بعض الرجال حركة أمامية
لكنتى أنا بالخطوات الخلفية أتحرك .

يعرب في هذه العبارات ؛ هنرى فون أحد شعراء القرن السابع عشر ،
عن حنين الإنسان البالغ إلى طفولته . ويعبر عنها بكلمات آخر مستر
Bultitudes^(١) الذى - مهما يكن من أمر درجة إخلاصه في قوله - ينبئ
الجيل الحديث « إن أيام التلمذة هي أسعد أوقات حياتكم » . ولعل هذه
العبارات تتولى بالمثل ، وصف أحاسيس صاحب النزعة السلفية الذى يندش
الحصول من جديد ، على مرحلة في حياة مجتمعه أكثر تبكيرا .

ولإتاحة استعراض أمثلة تفسر نزعة السلفية ، سنقنم مجال البحث على
غرار ما فعلناه وقت مناقشة موضوع « الشعور بالابتذال » . فنتناول بالترتيب
مجالات البحث الأربعة : السلوك ، والفن ، واللغة ، والدين .

وبينما أن الشعور بالابتذال شعور تلقائي ، ينفى منه الوجدان ؛ تنسم
نزعة السلفية بسيرها على سياسة وجدانية متعمدة ، تسعى إلى السباحة ضد تيار
الحياة . وبالحري ؛ فإنها حقا فعل فذ . هنا سيتبين لنا أن السلفية تعبر
عن نفسها في مجال السلوك ؛ في شكل نظم متكلفة وآراء تنشب بالمصطلحات
الفارغة ، أعظم من تعبيرها عن نفسها في شكل أساليب لا تتصل بالوجدان
بنسب . كما تعبر عن نفسها في المجال اللغوى في معان تتصل بمنهاج ونمط
يتسمان بالسفسطة .

فإن بدأنا استعراضنا ، ببحث موضوع النظم والآراء ؛ تستند
خطتنا المثلى على البدء بإيراد أمثلة عن النزعة السلفية ، تتصل بتفاصيل تلك

(١) أى مستر « القول المعاد » . (المترجم)

النظم . ولنتبع ذلك ببحث حالة سيطرة النزعة السلفية على العقل وانتشارها على منطقة أرحب ، إلى أن نصل إلى الحالة التي تتحول فيها نزعة السلفية إلى منحى تفكيرى .

وتتسم هذه الأيدلوجية بانحرافها ، لأنها فى أساسها نزعة سلفية . ومن قبيل المثال :

إنه كان يجرى فى عصر بلوتارخ - ويعتبر عنفوان الدولة العالمية الهلينية - حفل جلد أطفال اسبرطة بالسياط فى محراب « آرتميس أورثيا Artemis Orthia » . وتلك تجربة نُقلت فى بداية عهد اسبرطة عن عقيدة بدائية تقوم على تمجيد الحصوبة ، واندجحت فى تعاليم ليكورجوس . ثم أخذت تُمارس مرة أخرى فى مبالغة بلغت حد المرض ؛ تعتبر أحد تفسيرات نزعة السلفية المميزة .

وألم الإمبراطور فيليب بالمثل عام ٢٤٨ ميلادية - وقتما كانت الإمبراطورية الرومانية تستمتع بفترة راحة موقوتة فى نمار دورة من الفوضى التى قادت إلى انهيارها - ألهم الاحتفال مرة أخرى بعيد Ludi Solculair الذى سبق أن نظمه أغسطس . لكن أعيد تكوين مكتب المراقبة القديم بعد ذلك بعامين :

ونجد فى أيامنا هذه الدولة « ذات النظام التعاونى » التى أقامها الفاشيون الإيطاليون ، تدعى أنها بداية استعادة نظام سياسى واقتصادى كان نافذاً فى المدن الإيطالية إبان القرون الوسطى . وهذا ما سبق أن ادّعاه كذلك جراكشى فى إيطاليا خلال القرن الثانى قبل الميلاد . إذ قال بأنه يمارس وظيفة تريبونى الرعاع الرومانيين على الصورة التى قُصّدت منها وقت إنشائها ، قبل عصره بمائتى سنة ؛

ويطالعنا مثال للسلفية الدستورية نجح نجاحاً أبعد مدى ؛ فى المعاملة المتصفة بالتبجيل التى أضفاها أغسطس - مؤسس الإمبراطورية الرومانية - على مجلس الشيوخ وهو شريكه الاسمى ، لكنه سلفه الفعلى فى حكم الأملاك الرومانية .

وتمكن مقارنة ذلك بمعاملة البرلمان المنتصر في بريطانيا العظمى للتاج :
فإن ثمة في كلتا الحالتين ، انتقال للسلطة . مع فارق أن الانتقال في الحالة
الرومانية ، من الأوليجاركية إلى الملكية ؛ بينما انتقلت السلطة في الحالة
البريطانية من الملكية إلى الأوليجاركية . وتنكّر التغير في كلتا الحالتين ، في
في أشكال تنتسب إلى السلفية بأوثق صلة .

وسنلاحظ هنا ، إن انتقلنا إلى العالم الصيني المتحلل ؛ انبعثت سلفية
دستورية ذات مجال أكثر شمولاً ، يمتد من الحياة العامة إلى الخاصة . فلقد
أنتج تحدّي عصر الاضطرابات الصيني ، خيرة روحية في العقول الصينية التي
أبانت عن نفسها على السواء : في مذهب المآثورات الكنفوشيوسية إبان القرن
الخامس قبل الميلاد ، وفي المدارس الأشد تطرفاً للسياسيين والصوفيين
و « المشرّعين » . بيد أن هذا التفجّر في الفاعلية الروحية ، كان سريع
الزوال . إذ تلاه انتكاس عنيف صوّب الماضي ، تمكن رؤيته في أوضح
حالاته في المصير الذي داهم مذهب المآثورات الكنفوشيوسية . فلقد انحدر من
دراسة الطبيعة البشرية ، إلى إحالة آداب السلوك إلى طراز من الطقوس .
وتطور في محيط الإدارة إلى تقليد ؛ بحيث أصبح كل فعل من الأعمال الإدارية ،
يتطلب تصديق السابقة التاريخية عليه .

ويمكن مثال آخر للسلفية — من حيث المبدأ — في مجال مختلف ؛ مداره
عقيدة خيالية إلى حد كبير ، تنحو إلى عبادة العنصر التوتوني . وتعتبر هذه
العقيدة ، إحدى النتائج المحلية لحركة سلفية عامة أنتجها مذهب « الانطلاقية »
في العالم الغربي الحديث . فإن هذه العقيدة القائمة على نسبة فضائل تصورية
للتوتون البدائيين ؛ قد ركّبت فيها الأنياب والمخالب ، وقتما تحولت إلى إنجيل
الحركة الوطنية الاشتراكية في الرايخ الألماني . وكانت تقتصر قبلئذ على إتاحة
المسرة الوديعية لبعض مؤرخي القرن التاسع عشر من الإنجليز ، وتلقين غرور
عنصري — لعله أن يكون أشق تأثيراً — في بعض علماء الأجناس من

الأمريكيين . وإننا لنجابه هاهنا عرضاً للسلفية يبعث على الأسى ، أسى
تطور إلى نذير بالشؤم . فإن أمة غربية حديثة كبرى ، قد دفعها الداء
الروحاني للعصر الحديث إلى شفا الانهيار القومى المحتوم . فإن جهدها
اليائس للفرار من الأجدولة التى أضلتها ، قد ضاعف من رجعتها إلى الحجد
البربرى المزعوم للماض تاريخى تصورى .

ويتجلى فى مبدأ روسو القائل بـ « العودة إلى الطبيعة » وتعظيم
« البربرى النبيل » ؛ شكل آخر ومبكر لهذه الرجعى إلى البربرية فى العالم
الغربى . ولقد كان أصحاب السلفية الغربيون إبان القرن الثامن عشر أبرياء
من الخطط الدموية التى ظهرت من غير استحياء فى صفحات « كفاحى »^(١) .
إلا أن براءتهم لم تنف عنهم صفة الإضرار بالغير . فحسبنا روسو الذى كان
« سبب الثورة الفرنسية والحروب التى تخلفت عنها » .

وإن صيت السلفية فى الفن ، شئ مألوف للإنسان الغربى الحديث ؛ بحيث
أن فى وسعه أن يعتنقه قضية مسلم بها . فإن أعظم الفنون ذيوغاً هو العمارة ،
تتجلى فيه النزعة السلفية : ومصادقاً لذلك كانت العمارة الغربية طوال القرن
التاسع عشر ، ذات طابع موحش أضفاه عليها استعادة « الطراز القوطى ذى
النزعة السلفية . وتلك حركة معمارية اتخذت فى مستهل عهدها شكل ولع
أصحاب الضياع بوضع « أطلال » قوطية مزيفة فى متزهاتهم ؛ وبناء مساكن
ضخمة وفقاً لطراز مبانى ، افترض بأنه يعيد إلى الوجود تأثير أديرة القرون
الوسطى . ثم كان أن انتشر الطراز إلى بناء الكنيسة وترميم الكنائس . وكفل
لنفسه حليفاً ذا بأس فى حركة سلفية مماثلة هى « حركة اكسفورد الدينية » .
ووجد هذا الطراز فى النهاية تعبيراً يتسم بالإسراف فى بناء الفنادق والمصانع
والمستشفيات والمدارس .

(١) كفاحى Meinkamph : هو الكتاب الذى ضمنه هتلر آراءه ومبادئه فى التنظيم

العالمى . (المترجم)

بيد أن السلفية المعمارية ليست من ابتكارات الإنسان الغربي الحديث وحده . فلو قيّض للنذى السفر إلى القسطنطينية ومراقبة منظر الشمس تغرب على ربوة استامبول ، لشاهد القبة تلو القبة ، تلقى ظلها على الأفق . هذه هي قباب المساجد التي شيدت في ظل النظام العثماني على هدى نزع سلفية عميقة ، تتمثل في محاكاة ذليلة لكنيسة أياصوفيا الكبيرة والصغيرة ؛ الكنيستين البيزنطيتين اللتين كان تحديهما الجريء لقواعد النظام المعماري الهليني الأساسية ، شاهداً — منقوشاً على الحجر — بانبعات حضارة مسيحية أرثوذكسية ، من بين ثنايا حطام العالم الهليني .

وأخيراً فإذا ما تحولنا إلى « الصيف الهندي » للمجتمع الهليني ؛ نجد الإمبراطور المثقف هادريان يحمل منزله الريفي بنماذج لطرائف النحت اليوناني القديم صنعت بيد خبير : أى طرائف القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . وترد رغبة هادريان هذه إلى أن خبراء عصر هادريان كانوا من أمثال أولئك الفنانين الذين ظهروا قبل عصر رافائيل ، أولئك الذين بلغوا من الصفاء الذهني حداً جعل من الصعب عليهم أن يقدروا مدى ما بلغه أمثال فيدياس وبراكستيل Praxtele من نضوج فذ .

وعند ما تنتقل روح السلفية لتعبّر عن نفسها في مجال اللغة والآداب ، فإنها تبدى في عمل شديد الصعوبة بل أكثر الأعمال صعوبة مداره بعث الحياة في لغة ميتة ، عن طريق إعادة طرحها في التداول لغة وطنية . وتبدل اليوم مثل هذه المحاولة في أجزاء شتى من العالم الغربي . ولقد ترتب هذا الانتدفاع صوب هذا الإجراء الضال ، عن الهيام الجنوني بإضفاء صفة وطنية مميزة ، وبتحقيق الاستكفاء الثقافي الذاتي . فكان أن سلكت جميع الأمم المتظاهرة بالاستكفاء الذاتي ، والتي ألقت نفسها تفتقر إلى المصادر اللغوية الطبيعية ؛ سلكت طريق نزع السلفية ، باعتباره أنسب طريق للحصول على زاد من المتاع اللغوي المنشود .

وثمة في الوقت الحاضر خمس أمم على الأقل تنهك في استنباط لغة وطنية مميزة لها ، عن طريق ردها إلى التداول كلمات بطل استخدامهما في التعامل منذ زمن طويل ؛ اللهم إلا استخدامهما في المحيط الأكاديمي . تلك الأمم هي : النرويج ، إيرلندا ، تركيا^(١) ، اليونان ، اليهود الصهاينة . وسلاحظ عدم انتساب أى منها إلى جمهرة المسيحية الغربية الأصلية . فإن النرويجيين والإيرلنديين هم على التوالي بقايا حضارة اسكندنافية عقيمة وحضارة الغرب الأقصى العقيمة . أما الأتراك العثمانيون واليونانيون ، فإنهم قسمان من المجتمعين الإيراني والمسيحي الأرثوذكسي اصطبغا بالصبغة الغربية في زمن أحدث كثيراً من اصطباغ النرويجيين والإيرلنديين بها . أما اليهود الصهاينة ، فإنهم شذرة من مجتمع سورى متحجر ، طمرت في جسم المسيحية الغربية قبل أيام ظهورها الأول .

وتعتبر الرغبة التي يحس بها النرويجيون في الوقت الحاضر لتوليد لغة وطنية ؛ نتيجة تاريخية للأفول السياسي الذي عانته مملكة النرويج منذ عام ١٣٩٧ ميلادية ؛ وقما اتحدت مع الدانمرك اتحاداً انقضى عام ١٩٠٥ . ثم استعادت أخيراً استقلالها الكامل ، بفضل مشاركتها السويد مشاركة جزئية . فلما أن تم لها الاستقلال ، نصبت عليها ملكاً خاصاً نبذ اسمه الغربي الحديث الذي عمد به « تشارلس » ليتخذ اسماً ملكياً نرويجياً هو « هاكون » ، الذي يتبدى في تأثير نزعة السلفية . فإنه اسم سبق أن حمله أربعة ملوك نرويجيين بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين ، في ظل المجتمع النرويجي العظيم . ولقد تحولت الآداب الشمالية طوال خمسة قرون تبدأ منذ أفول النرويج ، إلى مجرد صيغة من صيغ الآداب الغربية الحديثة كانت تكتب بالدانمركية ، مع

(١) قدمت تركيا عن المضي في محاولة تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، بعدما وجدت أن حوالى سبعين في المائة من الكلمات المستخدمة في التداول ، يرجع أصوله إلى كلمات عربية أو فارسية . (المترجم)

تعديل في اللهجة يتناسب مع اللهجة الدارجة الشمالية . ومن ثم فإن الرويجيين بعد ما ثبتوا أنفسهم - بعد انتقال بلادهم عام ١٨١٤ من حوزة الدنمرك إلى السويد - سعوا إلى تكييف أنفسهم مع ثقافتهم الوطنية الخاصة . إلا أنهم ألفوا أنفسهم يفتقرون إلى لغة وطنية ، عدا لهجة كلامية بطل استخدامها منذ زمن طويل - يستخدمونها وسيطاً للثقافة الأدبية . فلما أن جوبه الرويجيون بهذه الفجوة الخطيرة في عتادهم الوطني ، طفقوا يسعون إلى اصطناع لغة وطنية تخدم الفلاح والحضرى على السواء ، بفضل اتخاذها لغة مخاطب وتثقيف على السواء ؛ وتعتبر المشكلة التي تجابه الوطنيين الإيرلنديين ، أصعب كثيراً مما يجابه الرويجيين . ذلك لأن التاج البريطانى قد أدّى في إيرلندا ، الدور السياسى للتاج الدنماركى فى الرويج . فكان أن ترتب عن ذلك نتائج لغوية مشابهة إلى حد ما . فلقد أصبحت اللغة الإنجليزية هي لغة الآداب الإيرلندية^(١) ؛ ولعل في وجود التباين الواسع بين اللغتين الإنجليزية والإيرلندية - عكس ظلال الاختلافات اللفظية نسبياً بين اللغتين الدنمركية والشمالية ، تباين جعل التقريب بينهما ضرباً من المستحيلات ؛ قد أصبح معه استئصال اللغة الإيرلندية أمراً لا مناص منه . ومن ثم أصبح يقع على كاهل المخلصين الإيرلنديين للسلفية اللغوية : عبء إعادة خلق لغة بادت تماماً على وجه التقريب . فلم يعد الأمر - والحالة هذه - مجرد ترويض لهجة دارجة حيّة . ولقد كانت حصيلة جهودهم ، لغة لا تفهمها الجماعات الريفية المتفرقة غرب إيرلندا ؛ جماعات ما تزال تتحدث اللغة الغالية كما تعلمتها على حجر الأمهات .

ويختلف عما تقدم ؛ مظهر القومية اللغوية التي انهمك فيها الأتراك العثمانيين^(٢) في ظل نظام الرئيس المرحوم مصطفى كمال أتاتورك . فلقد كان

(١) وبطالعنا أبلغ دليل فيما ألفه الكاتب الإيرلندى العظيم برنارد شو ، فقد كتب باللغة الإنجليزية وحدها . (المترجم)

(٢) يطلق الأستاذ المؤلف اصطلاح « الأتراك العثمانيين » على أتراك الأناضول وتراقيا والبلقان ، رغما من انقضاء عهد آل عثمان . وذلك تميزا لهم عن أتراك الاتحاد السوفيتى . (المترجم)

أسلاف الأتراك المحدثين - مثل أسلاف الإنجليز المحدثين - برابرة اعتدوا على الأرض المهجورة لحضارة متحللة ثم اغتصبوها . واستخدم سليلو كلتا الجماعتين من البرابرة ، الأداة اللغوية باعتبارها واسطة لإحراز الحضارة . وكما أن الإنجليز قد كثروا محصولهم اللغوي الضئيل بفضل شجته بثروة استعاروها من الكلمات والعبارات الفرنسية واللاتينية واليونانية ؛ طفق العثمانيون يرصعون لغتهم التركية الغليظة بنفائس التعبيرات الفارسية والعربية . ومن ثم يتبلور هدف الوطني التركي ذى النزعة السلفية اللغوية ، فى التخلص من هذه الدرر . وعند ما يتبين أن الاستعارات التركية من المصادر الأجنبية هى من الكثرة مثل استعارات الإنجليز اللغوية ، سيتضح أن المهمة ليست بالأمر السهل (١) .

وأيا ما تكون الحال ؛ فلقد اتسمت طريقة البطل التركي (٢) فى الوصول إلى هدفه ، بالخشونة التى اتسمت بها طريقته التى استخدمها من قبل فى تحليل وطنه من العناصر الدخيلة عليه من السكان . فإن كمال أتاتورك قد أخرج من تركيا طبقة متوسطة يونانية وأرمنية استقرت فى تركيا منذ زمن بعيد ، فأصبح لا غناء عنها . وقدّر فى ذهنه أن الضرورة الملحة بسبب حدوث الفراغ الاجتماعى ، ستدفع الأتراك إلى سدّها عن طريق حملهم الأعباء الاجتماعية على كواهلهم ، أعباء ما انفكوا يتركونها لغيرهم بسبب كسلهم . وبنفس المبدأ ، شرع الغازى ينتزع الكلمات الفارسية والعربية من القاموس التركى . فأظهر بهذا الإجراء الخشن ، مدى ما يستطيع أن يتبعه الحافر الثقافى من تنبيه الشعوب الحاملة عقلياً ، وقتما تجد أفواهها وأذنانها تجرد بصورة فظة ، من أبسط ضروريات الحياة اللفظية . وكان الأتراك إبان هذا

(١) لعل الأستاذ المؤلف قد كتب هذه العبارة قبل عدول الحكومة التركية تماماً عن عملية التخلص من الكلمات العربية والفارسية . (المترجم)

(٢) البطل التركى : يعنى به المؤلف كمال أتاتورك . (المترجم)

الضيق الشديد ينقبون منذ عهد قريب معاجم كومان Cuman وتقدمات أورخون وسوترات^(١) أويغور Oighur والتواريخ الصينية الملكية ؛ رجاء العثور على بديل تركى لهذه الكلمة الفارسية أو التركية المستخدمة داخل البيوت والتي مُنع استخدامها خارجها منعاً باتاً ، أو لَقِّقت تلفيقاً .

وتبدو هذه الأعمال اللغوية المحنقة للمشاهد الإنجليزى ، شيئاً يبعث على الفرع . ذلك لأنها توضح له طرائف من الشدائد التى يحملها المستقبل بين طبائمه للمتكلمين بالإنجليزية ، إن فُرض وحل اليوم الذى يتطلب فيه « مخلص » حاذق من المجتمع الإنجليزى ضرورة استخدام « الإنجليزية الخالصة » . وفى الواقع اتخذ فعلاً أحد الهواة - ولعله بعيد النظر - شيئاً من الاستعداد الواهمى فى سبيل تحقيق هذا الحدث . إذ نشر منذ ثلاثين سنة أحد الناس ، وقد دعى نفسه "C.L.D." كتاباً عنوانه « الكتاب العالمى للسان الإنجليزى ، لإرشاد أولئك الذين يتوقون إلى التخلص من النير النورمندى الذى يلجم ألسنتهم » . وكتب هذا الكاتب أن ما يدعوه كثير من المتكلمين والكتاب - حتى الوقت الحاضر بالإنجليزية - ليس من الإنجليزية فى شيء . بل إنه لغة فرنسية محضة . فلو سابرنا الكاتب فى رأيه ، علينا أن ندعوال premabulator بـ Childwain^(٢) وأن نطلق على الأومنيبوس اسم folkwain^(٣) . وقد تعتبر هذه الأسماء نوعاً من الارتقاء ، لكن غبطة الكاتب تقل وقتما ينشد التخلص من دخلاء مقيمين ، امتدت إقامتهم طوال تاريخ أبعد من ذلك كثيراً . فإنه عندما يقترح الاستغناء عن كلمة disapprove بكلمة "hiss" أو كلمة "boo" أو "hoot" ؛ يأتي بالقول الفصل على عقم تفكيره ويبيده للعيان بشكل فعال . إذ لا يمكن بحال اعتبار كلمات

(١) السوترات : هى فى الأصل كتب هندية دينية . (المترجم)

(٢) الكلمة الأولى تعبر عن عربة الطفل بالإنجليزية والثانية تعبر عنها بالسكونية (المترجم)

(٣) عربة الشعب . (المترجم)

"redcraft" و "bachjaw" أو "outganger" بديلة لا ريب فيها لكلمات
logic و tretort و emigrant^{(١)(٢)} .

وتشابه الحالة اليونانية ؛ الحالين الرومجية والإيرلندية مشابهة واضحة من
ناحية قيام الإمبراطورية العثمانية التركية بالدور الذى قام به كل من التاجين
الدمركى والبريطانى . فإن اليونانيين قد ألفوا أنفسهم - مثل الرومانيين -
يعد ما ارتقى وعيهم الوطنى الذاتى مزودين لغوياً بشيء لا يعدو كونه لهجة
ريفية دارجة . فآلوا على أنفسهم - مثل الإيرلنديين بعد ذلك بمائة عام -
إعادة تكييف لهجتهم الدارجة للقيام بالأعمال العظيمة التى تنتظرها ، عن طريق
تثبيتها دعائمها بمخف تحتوى على الشكل اللغوى القديم . لكن كان على اليونانيين
لتنفيذ تجربتهم ، مصارعة معضلة كانت نقيض المعضلة التى تجابه الإيرلنديين .
فعلى حين تضوّل مادة اللغة الايرلندية القديمة ضالة محيرة ؛ تغزر مادة اللغة
اليونانية القديمة غزارة مربكة . وحقا تتمثل الفجوة العميقة الواقعة فى طريق
اليونانيين اللغويين المحدثين من أصحاب مذهب السلفية ؛ فى إغراء مصادر
آتيكا اللغوية القديمة فى الاعتراف منها فى إنسراف شديد ، فيستثرون بذلك
رد فعل غير المثقفين من المحدثين . فإن اليونانية الحديثة ميدان صراع بين
« لغة المدققين فى اختيار اللفظ » و « اللغة الشعبية » .

ويعتبر مثالنا الخاص المتصل بإحالة العبرية إلى لغة وطنية للتخاطب
اليومى على شفاه من استقر فى فلسطين من اليهود الصهاينة المشردين ، أبرز
الأمثلة جميعها . ذلك لأنه على حين لم يتوقف استخدام اللغات الرومجية
ولا اليونانية ولا حتى الإيرلندية عن التحدث بها لغة دارجة ؛ ظلت
اللغة العبرية ميتة فى فلسطين طوال فترة ثلاثة وعشرين قرناً ، منذ حلول

(١) الكلمات الأولى كلمات ساكسونية قصد بها الحلول محل المجموعة الثانية من الكلمات
الإنجليزية . وتعنى على التوالى . المنطق ، القارورة الموجهة ، المهاجر . (المترجم)

(٢) تضم الصفحة ١٤٦ من كتاب Equire, J.C : Books in general عرضاً لكتاب

C. L. D. (المؤلف)

اللغة الآرامية محلها قبل عصر نحemia^(١) . فلقد لبثت اللغة العبرية طوال هذا الوقت - إلى وقت قريب - لغة طقوس المعبد اليهودى فقط ، ولغة المهتمين ببحث الشريعة اليهودية . فكان أن ابتعثت هذه « اللغة الميتة » فى غضون جيل واحد ؛ من المعبد اليهودى ، وحوّلت إلى أداة تحمل الثقافة الغربية الحديثة . وابتدأ ذلك فى أول الأمر فى صحيفة ظهرت فى أوروبا الشرقية باسم « الحظيرة اليهودية » ، ثم تبدت فى مدارس ومنازل الجماعة اليهودية فى فلسطين^(٢) ؛ حيث يُنشأ أطفال مهاجرى اليهود الأوربيين المتحدثين بال « يديش »^(٣) وأطفال المهاجرين الأمريكيين المتحدثين بالإنجليزية ومهاجرى اليمن المتحدثين بالعربية ومهاجرى بخارى المتحدثين بالفارسية ؛ يُنشأون جميعاً على التحدث بلغة مشتركة هى لسان قديم ميت ، قضى نحبه قبل جيل السيد المسيح بخمسة قرون .

وإذا ما تحولنا الآن إلى العالم الهلنى ، نجد السلفية اللغوية هنا شيئاً أوسع رحاباً ، لا مجرد ملحق بالسلفية الإقليمية .

فإنك إن فحصت خزانة كتب تضم مجموعة من الكتب المكتوبة باليونانية القديمة قبل القرن السابع الميلادى ، والتي بقيت حتى الوقت الحاضر ؛ تلاحظ أمرين :

الأول - كتابة غالبية الجانب الأعظم من هذه المجموعة يونانية آتيكا .
الثانى - انقسام هذه المكتبة الآتيكية إلى مجموعتين مميزتين - إن فرض ترتيبها ترتيباً زمنياً تاريخياً :

فإن ثمة فى المحل الأول أدب آتيكى أصيل ، كتبه فى أثينا إبان القرنين

(١) أحد أنبياء إسرائيل . (المترجم)

(٢) ثم أصبحت هذه اللغة العبرية الميتة ، لغة رسمية للدولة ابتعثت كذلك من قبر دولة إسرائيل القديمة التي ووريت التراب منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة . (المترجم)

(٣) اليديش لغة يهود وسط وشرق أوروبا وتتكون أساساً من خليط من الألمانية والعبرية . (المترجم)

الخامس والرابع قبل الميلاد — أثينيون ، استخدموها باعتبارها لغتهم الطبيعية .

وثمة أدب آتيكى ينزع صوب السلفية ، أنتجه خلال فترة قوامها حوالى الستة قرون أو سبعة — من القرن السابق للميلاد حتى القرن السادس الميلادى — وولفون لم يتح لهم العيش فى أثينا أو التكلم بالآتيكية كلغتهم الوطنية .

وحقا ، فإن المدى الجغرافى لهؤلاء الكتاب الأتيكيين المستحدثين ، يبلغ سعته سعة أقاليم الدولة العالمية الهلينية . لأنه كان من بينهم : جوزيفوس من أورشليم ، وآيليان Aelian من براينستى Prabeneste ، وماركوس أوريليوس من روما ، ولوسيان من ساموساتا Samosata وبراكوبيوس من قصيرة . وعلى الرغم من هذا التنوع الواسع فى الموطن ؛ فإن الأتيكيين المستحدثين يُبدون تجانسا غير عادى بالنسبة للكلمات المستخدمة وبالنسبة للإعراب والأسلوب . ويعزى ذلك إلى صرامتهم وصفاقتهم ، وكونهم مقلدين أذلاء للغة الآتيكية فى « أزهى عصورها » .

ولقد كفلت نزعتهم السلفية هذه ، حفظ تراثهم . إذ لما تقرررت إبان مطلع التحلل النهائى للمجتمع الهليني ؛ مسألة « تكون أو لا تكون » لكل مؤلف يونانى قديم وفقاً للتمييز الأدبى السائد وقتئذ ؛ وضع النساخون نصب أعينهم أن يكون موضع تساؤلهم الاختبارى « هل العمل الأدبى آتيكى خالص ؟ » ولم يعنوا بالتساؤل عما إذا كان عملاً فنياً ممتازاً . ومن نتائج ذلك ، استحواذنا الآن على مجلدات من الأعمال الآتيكية المستحدثة ، يسعدنا لو بادلناها بجزء من ذلك القدر من الأعمال ، التى لم تكتب باللهجة اليونانية الآتيكية ، والتى ظهرت خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد .

ولم يكن الاتجاه صوب الآتيكية الذى انتصر إبان العصر الذى نرعت فيه الآداب الهلينية صوب السلفية ، هو العمل الأدبى الوحيد من نوعه . فإن ثمة بالمثل النزعة الشعرية الهومرية المستحدثة ، التى ربّأها حشد من المشتغين

بالأعمال الأدبية القديمة ابتداء من أبولونيوس روديوس Apollonius Rhodius في القرن الثاني قبل الميلاد ، حتى نوتوس باموبوليتانوس Nonnus Panopo- litanus في القرن الخامس أو السادس الميلادي . وتنحصر بصفة جوهرية ، نماذجنا البارزة الخاصة بالأدب اليوناني الذي ظهر بعد عصر الإسكندر والذي لم ينزع صوب السلفية ، في مجموعتين من الأعمال :

الشعر الرفي الذي ازدهر خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وقد احتفظ به بسبب نمطه الدروى النفيس . وكتب المسيحية واليهودية المقدسة .

ولإحياء نزع السلفية في اللغة الأتيكية اليونانية ، شبه تام في التاريخ السندی ؛ يتمثل في إحياء السنسكريتية . فلقد كانت السنسكريتية الأصلية ، هي اللغة الدارجة للقطيع البدوي الأوراسي للآريين الذين تفجروا من السهوب ، إبان الألف الثانية قبل ميلاد المسيح وفاضوا على شمال الهند ، وعلى جنوب غرب الهند ومصر الشمالية . واحتفظ على الأرض الهندية بهذه اللغة في تعاليم الفيدا ، وهي مجموعة من الأدب الديني ، أصبحت أحد الدعائم الثقافية للحضارة السندية . على أنه بمرور الوقت — وقتما انهارت هذه الحضارة السندية ودخلت طريق التحلل — انتهى العهد باستعمال السنسكريتية في التداول ، فغدت لغة كلاسيكية تُدرس بسبب ما تضمه بين طياتها من أدب له اعتباره الخالد . وفي غضون ذلك قام مقام السنسكريتية — واسطة للاتصال في الحياة اليومية — عدد من اللهجات الدارجة المحلية اشتقت جميعها من السنسكريتية ، إلا أنها تميز عنها بدرجة تكفي لاعتبارها لغات منفصلة . ولقد استخدمت أحد هذه اللهجات السنسكريتية العامة — لهجة بالي بسيلان — أداة لكتب البوذية الهينايانية المقدسة . واستخدم الإمبراطور آشوكا (٢٧٣ — ٢٣٢ ق . م) لهجات عديدة أخرى ، أدوات تعبير عن مراسيمه الإمبراطورية . ومع ذلك بدا بعد وفاة آشوكا ، إحياء اصطناعي للسنسكريتية ؛ اتسع مداه حتى قبض للغة السنسكريتية المستحدثة انتصار تام في داخلية الهند ،

على تلك اللهجات العامية المشتقة من السنسكريتية الكلاسيكية . وتركت هذه السنسكريتية المستحدثة ، لهجة بالى تعيش كإحدى الطوائف الأدبية فى مجاهل جريرة سيلان .

وصفوة القول ؛ يقع الكيان الأساسى للسنسكريتية — مثل الكيان الأساسى البارز للغة اليونانية الأتيكية — فى نطاق تطابقين متميزين :

تطابق أصيل أقدم عهداً .

وتطابق أحدث عهداً ينزع صوب المحاكاة والسلفية .

فإذا ما انتقلنا من ميادين اللغة والفن والنظم إلى ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ، ملاحظة نزعة السلفية فى نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية . فإن الحركة الإنجليزية الكاثوليكية تقوم — مثلاً — على الاعتقاد بأن « الإصلاح » الدينى الذى تم خلال القرن السادس عشر وحتى فى صورته الإنجليكية المعدلة ، قد ذهب فى تطرفه مدى بعيداً . ومن ثم تهدف الحركة إلى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هُجرت وألغيت منذ أربعمائة سنة ، إلغاء تعزوه إلى عدم التبصر .

ويطالعنا فى التاريخ الهابنى مثال فى سياسة أغسطس الدينية :

« إن إحياء أغسطس لدين الدولة يعتبر ؛ أهم حدث بارز فى تاريخ الدين الرومانى . كما يعتبر حدثاً لا نظير له تقريباً فى التاريخ الدينى . . . فإن الإيمان بفاعلية العقائد القديمة قد زال لدى الطبقات المتعلمة . . . وكان سكان المدينة المهجّنين قد اعتادوا منذ زمن طويل على السخرية بالأرباب القديمة . وتركت الممارسة الخارجية للدين تتداعى ، ومن ثم قد تبدو لنا على أعظم حد ، استحالة نجاح فرد بمفرده بإحياء شعائر الدين وابتعاث الإيمان به إلى حد ما . . . إذ يستحيل نكران واقعية هذا الإحياء . وإن اصطلاحى السلام الإلهى والإرادة الربانية قد أصبحا مرة

أخرى اصطلاحين للقوة والمعنى . . . لقد استمر الدين القديم باقياً لفترة ثلاثة قرون في صورة سطحية وإلى حد ما في إيمان شعبي» (١).

فإن تحولنا من العالم الهليني إلى الفرع الياباني من مجتمع الشرق الأقصى ، نجد محاولة يابانية في الآونة الأخيرة رنت إلى إحياء الضرب الياباني من الوثنية البدائية التي تدعى بالشينتو . وتعتبر هذه المحاولة تجربة في النزعة السلفية الدينية تتلاقى في خطوطها مع سياسة أغسطس ، كما تتلاقى مع المحاولة الألمانية الحديثة لإحياء الوثنية التيوتونية .

ويتشابه الإجراء الياباني مع الإجراء الألماني ، أعظم من مشابهته العمل الروماني القديم . فإن الوثنية الرومانية التي ابتعتها أغسطس ، كانت ما تزال قائمة ؛ وإن سارت في طريق الاضمحلال شوطاً بعيداً . على حين أن الوثنية اليابانية — مثل الوثنية الألمانية — قد حل محلها منذ ألف سنة — أو ابتلعها — دين أرقى ، وكان ذلك الدين هو ذلك الضرب من البوذية المهايانية . ولقد كان منطوق المرحلة الأولى من حركة الإحياء الوثني الياباني ، أبحاث نظرية محضة . فإلى كاهن بوذي يدعى كيتشو Keichu (١٦٤٠ — ١٧٠١ ميلادي) يرد إبراز الوثنية اليابانية « الشينتوية » إلى العيان لأول مرة ؛ وكانت غايته فلسفية بحتة . على أن غيره قد اقتفوا أثره ، فظهر هيرانا أستوتاني Hirata Astutane (١٧٧٦ — ١٨٤٣) الذي شن هجوماً على المهايانية وعلى الفلسفة الكنفوشيوسية باعتبارهما فكرتين دخيلتين مستوردتين .

ولقد حدث هذا الابتعاد الشينتوي — مثل الابتعاد الأوغسطي — بعد ما انتقلت اليابان من عصر اضطرابات إلى مرحلة دولتها العالمية . وكانت الحركة الشينتوية المستحدثة ، قد بلغت بالكاد مرحلتها الحربية وقما تفتتت قبل الألوان بفعل ضغط التوسع العدواني للحضارة الغربية .

(١) صفحتا ٤٢٨ و ٩ Ward - Fowler W. : The Religious Experience of The Roman People.

وعند ما ولجت اليابان في أعقاب ثورة ١٨٦٧ — سياستها الحديثة القائمة على الاحتفاظ بذاتيتها في « مجتمع كبير » شبه غربي ، باعتناقها الأساليب العصرية وفقاً لنهج القومية الغربية ؛ أخذت الحركة الشينتوية المستحدثة ، تزود اليابان بما تمس حاجتها إليه لتوكيد ذاتيتها القومية في محيط ظروفها الدولية الجديدة . وتمثلت الخطوة الأولى التي اتخذتها الحكومة الجديدة — فيما يتصل بالدين — في محاولة تقرير الشينتوية ديناً للدولة . وبدأ وقتاً ما ، كما لو أن الاضطهاد سيقود البوذية إلى الفناء . بيد أن هذا لم يكن أول ولا آخر عصر في التاريخ ، يباغت فيه خصومه ، « دين أسى » بحيوته الحرون . فكان أن أصبح على البوذية والشينتوية أن تتفقا على العيش بسلام ، جنباً إلى جنب^(١) .

• • •

وصفوة القول : فإن ثمة شعوراً بالفشل ، أو — حيث لا يوجد فشل — شعور بالتفاهة ؛ يكتنف عملياً جميع أمثلة السلفية التي بحثناها . وليس السبب بالبعيد عن الإدراك . إذ تستنكر طبيعة السلفية ذاتها فعل صاحبها ؛ لإصراره على التوفيق بين الماضي والحاضر . ويعتبر تنافر المزايم المتصلة بالماضي والحاضر في نزعة السلفية ، مناط ضعفها كطريقة للحياة . ويجلس صاحب السلفية على قرني مشكلة تحتل أن ترديه ؛ أياً ما يكون الطريق الذي قد يسلكه . لأنه إن حاول استعادة الماضي دون أن يأخذ الحاضر في اعتباره ، من شأن حافز الحياة الذي يتجه بطبعه صوب التقدم ، أن يحطم بناءه الهش إلى شظايا . فإن ارتضى — من الناحية الأخرى — إخضاع نزوة خياله المتصلة بإحياء الماضي — لإنجاز فعل

(١) لم يعد لليابان بعد هزيمتها الحربية في الحرب الأخيرة ، دين رسمي . وكفل دستورها الجديد — الذي فرضته عليها سلطات الاحتلال العسكرية الأمريكية والذي ما برج ساريا حتى الآن — حرية الأديان ، وأزال رعاية الدولة للشنتوية ، وقضى على تقديس الإمبراطور والعائلة المالكة . وتبلغ نسبة معتني البوذية ٤٥٪ من السكان . (المترجم)

يجعل الحاضر شيئاً مفيداً ؛ عتدثد تبرهن سلفيته على تدليسها ؛
 وفي ختام مجهوداته ؛ سيجد ذو النزعة السلفية في كل من مجال الاختيار ،
 أنه ما فتى يمارس - عن غير قصد - دور صاحب النزعة المستقبلية . وإذ يسعى
 لاستدامة هذه المفارقة ؛ إنما يفتح - في واقع الأمر - الباب لنوع من
 الابتداع : وهنا يسعى لاقتناص هذه الفرصة ، لاقتحام طريقه إلى الداخل :

(٨) المستقبلية

إن المستقبلية والسلفية على السواء ، محاولتان للانفلات من سقام قائم
 بالفعل . ويتأتى تحقيق ذلك الانفلات بطفرة خافقة ، تدفع المرء إلى
 ناحية أخرى من تيار الزمن ، دون التخلّي عن جانب الحياة الدنيوية على
 الأرض . ويتشابه كذلك مجالا الاختيار هذين القائمين على السعى للفرار
 من الحاضر مع البقاء في محيط البعد الزمني ؛ في كون كل منهما عملاً فذاً ،
 تبرهن التجربة على قصوره .

ولا تختلف المستقبلية عن السلفية إلا في ناحية الاتجاه ، أى فوق تيار الزمن
 أو تحته . وفي هذا الاتجاه ؛ تدبر النزعتان سبيل انفلاتهما من مأزق قائم :
 إلا أن المستقبلية تذهب أبعد من السلفية في حملتها ضد الطوائع البشرية .

فإن من طوائع البشر الأصيلة ؛ الفرار من الحاضر ، باتخاذ وسيلة
 الانسحاب إلى ماض مألوف . لكن الطبيعة البشرية أشد ميلاً إلى التثبث بحاضر
 مكروه ، منها إلى المجازفة في مجاهل المستقبل . ومن ثم نجد الجهد النفساني في
 حالة المستقبلية ؛ أقوى بشكل واضح ، منه في حالة السلفية ؛ وهى النزعة
 البديلة للمستقبلية : وغالباً ما تصبح المستقبلية ؛ نزعة رد الفعل التالى لتلك
 النفوس المتحفزة ، التى سبق لها تجربة السلفية ، فعذاب أملها .

وإذا كانت المستقبلية كذلك ، تكابد الإخفاق بقوة أشد مما تكابده السلفية ؛ إلا أن إخفاق نزعة المستقبلية يُسفر ذلك في بعض الأحيان عن نتيجة تختلف تمام الاختلاف ؛ مناطقها تسامها الذاق وارتفاعها إلى مرتبة التجلّي .

فإذا شبّهنا نكبة السلفية ، بفرقة سيارة تنزلق على مسالكها في دائرة تامة ، ثم تندفع صوب دمارها في الجانب المضاد ؛ يمكن تشبيه تجربة المستقبلية — الأكثر توفيقاً — بمسافر على سطح سيارة مندفعة . ويعتقد المسافر هنا ، أنه يرتحل في حافلة أرضية ؛ لكنه يتبين في فزع عميق ، خشونة الأرض التي تجتازها السيارة في اندفاعها إلى الأمام ؛ ويظل على جزعه هذا ، حتى ترتفع السيارة عن الأرض فجأة — بسبب حادث يبدو صعوبة تلافيه للوهلة الأولى — وتحلّق فوق القن الوعرة ، وتتخطى في مادتها الذاتية .

وتمكن دراسة الطريقة المستقبلية — مثل الطريقة السلفية — المتصلة بقطع الصلة بالحاضر ، في عدد من ميادين النشاط الاجتماعي المختلفة :

فغالباً ما تتجلّى حركة التعبير التي يديها ذو النزعة المستقبلية ، في استبداله العادة التقليدية بعادة غير مألوقة . وهذا هو الحال بالنسبة لمختلف أجزاء العالم التي تنزع إلى اعتناق الأساليب الغربية ؛ وإن كان نزوعها هذا ما يزال منحصراً في القشور . ونشاهد — مصداقاً لذلك — حشداً من المجتمعات تهجر زيتها المميز الموروث وتُقبل على طراز ثقيل من الزي الغربي عديم الذوق ، بحسبانته علامة ظاهرية على انخراطها مختارة — أو مضطرة — في صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية .

ومن أمثلة عملية التغريب^(١) الخارجى بالإكراه (ولعله أقدمها) ؛

(١) التغريب : أى النزوع صوب الأساليب الغربية Westernization (المترجم)

عملية حلق الذقون وتحريم ارتداء القفطان في موسكو بأمر بطرس الأكبر. واقتدت اليابان في الربع الثالث من القرن التاسع عشر بثورة الملابس المسكوفية هذه^(١). وأبرزت ظروف مماثلة منذ الحرب الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، أفعالا تعسفية مشابهة ، في عدد من الأقطار الغير الأوربية. فثمة مثلاً قانون ١٩٢٥ التركي الذي فرض على جميع المواطنين الأتراك ارتداء القبعة ذات الحافة . وثمة ما يقابل هذا القانون ، نجده في مراسيم أصدرها عام ١٩٢٨ الشاه رضا بهلوى ، والملك أمان الله خان ملك أفغانستان .

ولا يعتبر العالم الإسلامي أثناء القرن العشرين الميلادي - مع ذلك - الميدان الوحيد الذي اتخذ فيه من القبعة ذات الحافة ، قبة معركة النزعة المستقبلية . ففي عالم ١٧٠ - ١٦٠ ق . م السورى ، لم يكتف الكاهن الكبير جوشوا Joshua في برناجه - وهو زعيم يهودى من المتأثرين بالهلينية - باستخدام الإشارة اللفظية التى حوِّلت اسمه إلى جاسون Jason ؛ إلا أن ما استثار رد فعل المكابيين ، هو اتخاذ صغار الكهنة القبعة ذات الحافة العريضة التى كانت غطاء الرأس المميز للأقلية الوثنية المسيطرة في الدول الهلينية التى خلفت الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) ؛ على أن هذه المحاولة اليهودية الموسومة بنزعة المستقبلية ، لا تعتبر في نهاية المطاف انتصاراً - عكس ما تم بالنسبة لمحاولة بطرس الأكبر - بل تعتبر فشلاً وخيبة ، تماثل ما انتهت إليه محاولة أمان الله خان : ذلك لأن هجوم الدولة السلجوقية على الدين اليهودى ، قد استثار رد فعل يهودى يقسم

(١) أخذ الرجال اليابانيون منذ ذلك الحين يرتدون الملابس الأوربية خارج دورهم ، أما في داخلها فإ يزالون - حتى الآن - يرتدون ملابسهم الوطنية . لكن ملابس السيدات بقيت على حالها ، إلى أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؛ فأقبلن بدورهن على ارتداء الملابس الأوربية تاركين ملابسهن الوطنية الجميلة التى تتفق وطبيعة أجسامهن . والواقع قلما يرى زائر لمدينة طوكيو في الوقت الحاضر ، رجلاً أو امرأة يرتدى رداءه الوطنى . (المترجم)

بالعنف ، لم يستطع أنتيخوس أفيفانيس Antiochus Ephiphanes وخلفاؤه مقاومته .

على أن عقم هذا المشروع المتصل بنزعة المستقبلية ، لا يغض من قدرته على الوفاء بأغراض التثقيف كمثال .

فإن مزاج روح المستقبلية ، يتجه بالضرورة صوب الشمول الكلى ؛ وهذا ما أدركه جاسون وخصومه على السواء . فإن اليهودى الذى يرتدى القبة اليونانية ، يعتاد - بعد أمد قريب وفقاً لرأيه - ، ارتياد الملعب اليونانى^(١) . « وسبأنى اليوم الذى يعتبر فيه هذا اليهودى ممارسة أحكام دينه شيئاً لا يتفق وطابع العصر ، ويجافى الفكر المستنير وجديراً بالازدراء » .

وقد تعبّر النزعة المستقبلية عن نفسها فى المجال السياسى فى ناحية من الناحيتين التاليتين :

جغرافية - فى الإزالة المتعمدة للتخوم والحدود .

اجتماعية - فى التحلل الإجبارى للنقابات والأحزاب القائمة أو فى تحلل الطوائف الدينية ، أو فى إبادة طبقات اجتماعية بأسرها .

ويتجلى المثال التقليدى للإزالة المتعمدة للتخوم والحدود ، بغية إحداث فجوة فى الاتصال السياسى ؛ فى قيام الثوروى الناجح كليستينز Cleisthenes^(٢) حوالى عام ٥٥٧ ق . م فى إعادة تخطيط حدود آتيكا . وهدف من ذلك إلى تحويل نظام للدولة مفكك - غالباً ما سادت فيه مقتضيات النسب على مطالب المجتمع - إلى دولة موحدة تسود فيها واجبات المواطنين . وبالأحرى على جميع اتجاهات الولاء الأخرى الأقل

(١) Palaestra .

(٢) كليستينز Cleisthenes : مصلح أثينى تزعم الحزب الديمقراطى عام ٥١٠ ق . م . فعارضه طبقة النبلاء بأسرها . وفى طلبه إصلاحاته إلغاء نظام القبائل الأربع ، وإدخاله نظام النقى للتخلص من زعيم حزب غير مرغوب فيه عوضاً عن قتله . وإعادة نظام الانتخاب بالقرعة . (المترجم)

أهمية . وقد برهنت سياسته العنيفة على نجاح ملحوظ .

واقتردى صانعو الثورة الفرنسية ، بهذه السابقة الهلينية ، سواء عن إدراك بفعل تأثير عقيدتهم الهلينية ، أو بفعل الهام مستقل قادهم بنفس الوسائل إلى غاية مماثلة . فإن صانعي الثورة الفرنسية - مسيرين بفكرة توحيد فرنسا السياسى مثلاً هدف كليستنز إلى توحيد آتيكا سياسياً - قد ألغوا الأقاليم الإقطاعية القديمة ورفعوا الحواجز الجمركية الداخلية . وابتغوا من ذلك تحويل فرنسا إلى منطقة موحدة النظام المالى ؛ تنجزاً - تيسيراً لإدارتها - إلى ثلاث وثمانين مقاطعة . ولقد قصد من تطابقها الرتيب ؛ تبعيتها الصارمة للسلطة المركزية فى باريس ؛ مما يقود إلى إزالة ذكرى اختلافاتها الإقليمية ؛ واتجاهها القديم بالولاء صوب سلطات أخرى غير الدولة . ولا ريب فى أن إلغاء الحدود القديمة خارج فرنسا بفضل إعادة رسم خرائط الأراضى غير الفرنسية التى أدمجت فى الإمبراطورية النابليونية مؤقتاً ، قد مهد السبيل لخلق وحدة دولتى إيطاليا وألمانيا .

ولقد أتاح ستالين فى عصرنا الحاضر ؛ تعبيراً مميزاً لطابع النظام البلشفى فى الميدان الجغرافى ، بقيامه بتنفيذ سياسة أعظم إصالة وأكثر حذقا . وتربط بمقتضاها التقسيمات الإدارية الداخلية للاتحاد السوفيتى ؛ وهذا ما يبدو واضحاً ، عندما يُقارن مصور هذه المنطقة من العالم ، على المصور الإدارى للإمبراطورية الروسية . على أن ستالين فى سعيه لتحقيق هدفه ، قد تصرف فى هذا الميدان بحذق قد يجعل منه مبتكراً . وتفسير ذلك ؛ أن سابقه قد رنوا إلى تحقيق هدفهم بإضعاف اتجاهات الولاء الإقليمية الطابع ؛ فى حين اتبع ستالين سياسية عكسية تقوم على إشباع مطالب النزعة الإقليمية . فكان بذلك يقدر تقديرًا اتسم بالدهاء ،

احتمال قتل النزعة الإقليمية بالإشباع ، بدرجة أعظم من إخماده إياها بالتجويع^(١) .

وجدير بالذكر في هذه المناسبة أن ستالين كان من أبناء جورجيا^(٢) . ويروى أن وفدًا من الجورجيين المنشفيك^(٣) قد تقدم إلى مؤتمر الصلح ببليس مطالبًا بالاعتراف بقومية جورجية مميزة عن القومية الروسية . ودلل الوفد على أحقية مطالبه - في جانب من براهينه - بإظهار الطابع المميز للغة الجورجية ، وأحضر معه لهذا الغرض مترجمًا ظن أن وظيفته ترجمة لسانهم الشاذ إلى الفرنسية . إلا أن صحفيًا إنجليزيًا (لم يكن يعرفه هؤلاء الجورجيون) وكان على دراية باللغة الروسية ، قد لاحظ في إحدى المناسبات ، أن أعضاء الوفد يتحدثون معًا باللغة الروسية هم ومترجمهم . وصفوة القول فإن المواطن الجورجي في الوقت الحاضر - مهما يكن من أمر طموحه السياسي - يُلقى تلقائيًا ولا شعوريًا حديثه السياسي مستخدمًا الروسية ؛ طالما أن استخدام الروسية لا يفرض عليه بالقوة .

ويتجلى التعبير التقليدي للنزعة المستقبلية ، في مجال الثقافة الدنيوية ؛ في الفعل المتصل بإحراق الكتب . ويتضح هذا من الأمثلة التالية :

يقال إن الإمبراطور تسين هوانج في في العالم الصيني - وكان

(١) يراجع كتاب المترجم عن « الدستور السوفييتي » .

(٢) جورجيا : إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاتحادية الخمس عشرة . وتقع جورجيا في القوقاز . (المترجم)

(٣) تعني كلمة منشفيك باللغة الروسية ، فريق الأقلية . كما تعني كلمة بولشفيك ، فريق الأكثرية . ويرجع أصل هذه التسمية إلى انقسام الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي عام ١٩٠٣ إلى قسمين : أغلبية تبعت لينين وأقلية تبعت غيره . ولا يؤمن فريق المنشفيك بالعابث الثوري ، ويؤثرون تحقيق أهدافهم تدريجيًا ، ومن ثم يتأثلون مع نظرائهم من اشتراكي البلاش الأخرى . وقد سيطر المنشفيك وقتًا ما على جمهورية جورجيا ، ولكن لا يوجد لهم أثر في الوقت الحاضر . (المترجم)

الثوروى الأول المؤسس للدولة العالمية الصينية - قد استصفى الأعمال الأدبية التى خلفها الفلاسفة الذين عظم شأنهم إبان عصر الاضطرابات الصينى ، وحرقها خشية ما قد يؤدى إليه انتقال هذه « الفكرة الخطرة » من إحباط خطته لتأسيس نظام مجتمع جديد .

وفى المجتمع السورى ؛ أشيع أن الخليفة عمر - وهو الذى أعاد تشييد الدولة العالمية السورية بعد ما ظلت بفعل المداخله الهلينية معطلة طوال ألف سنة - قد أجاب رداً على استفهام من قائد كان قد تلقى نبأ استسلام الاسكندرية ، وطلب من الخليفة تعليماته عما يفعله للتخلص من مكتبتها المشهورة ، فأجابه بقوله :

« إن كانت كتب الروم هذه تتفق مع كتاب الله ، فلا نفع يرجى منها ولا حاجة للمحافظة عليها ، وإن كانت تخالفه فإنها مفسدة يجب القضاء عليها » .

وتمضى الأسطورة^(١) فتذكر بأن محتويات المكتبة التى جمعت فى غضون تسعمائة سنة ، قد استهلكت وقودا للحمامات العامة .

وفى عصرنا هذا - بذل هتلر ما فى وسعه لإحراق الكتب . وإن كان مجيء الطباعة ، يجعل النجاح التام أصعب كثيراً بالنسبة إلى أولئك الطغاة الذين يلجأون فى عالمنا إلى هذا الإجراء . ولقد عثر مصطفى كمال أتاتورك - معاصر هتلر - على حيلة أشد خبثاً . فإن هدف الديكتاتور

(١) ظاهر من عبارات الأستاذ المؤلف التى أوردناها فيما سلف ، عدم تصديقه تلك الفرية التى يحاول أعداء الإسلام إلصاقها بالعرب لتدليل على كراهيتهم للعلم وهم يعتمدون فى ذلك على ما ذكره مؤرخ عربى - للأسف - هو ابن عبد الحكم . فإن مكتبة الإسكندرية قد أحرقت بالفعل وقتاً ثار المصريون على يوليوس قيصر . وقد دحض هذه الفرية فى أسلوب ضاف المستر بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » . والواقع أنه يستحيل الظن بأن ديننا كريماً تقوم قواعده على العقل والمنطق والضمير ، يقاوم العلم ، ويضيق بالكتب ذرعاً . وإن تسامح الإسلام المعروف ، لا يستقيم معه القول بأن العرب قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية . (المترجم)

التركي لم يكن سوى صرف عقول مواطنيه عن ثقافتهم الإيرانية الموروثة . ومن ثم ؛ فإنه عوضاً عن إحراقه الكتب ، قنع بتغيير الحروف الهجائية . فكان أن أصبحت كافة الكتب والصحف منذ عام ١٩٢٩ تطبع بالحروف اللاتينية . ولا يكون لوثيقة قيمة قانونية إلا إن كتبت بالحروف اللاتينية .

وترتب على إصدار هذا القانون وفرض تنفيذه ، انتفاء ضرورة احتذاء الغازي التركي حذو الإمبراطور الصيني . إذ غدت الآداب القديمة من فارسية وعربية وتركية ، بعيدة عن متناول الجيل الصاعد . ولم تعد هناك أية ضرورة لإحراق الكتب ؛ بعد ما ألغيت من التداول ، الأبجدية التي كانت مفتاح الاطلاع عليها . وهكذا تيسر تركها تبلى على أرففها ، ثقة بأن أحداً لن يزعم سكونها ، اللهم إلا حفنة من عشاق الآثار القديمة .

ولست الفكرة والأعمال الأدبية ، هما بالطبع ، المجالين الوحيدين للثقافة الدنيوية التي تعرّض فيها التراث الماضي ، لهجوم النزعة المستقبلية ؛ فإن ثمة عوالم أخرى ما انفكت تخضع لعدوان النزعة المستقبلية ؛ متمثلة في الفنون البصرية والسمعية . والواقع أن العاملين في ميدان الفنون البصرية ، هم الذين صكّوا تعبير « المستقبلية » لوصف طرائف فنهـم .

بيد أن ثمة شكلاً واحداً من أشكال المستقبلية قبيح الصيت ؛ ينتصب قائماً على أرض مشتركة بين مجال الدين ، والثقافة الغير الدينية ؛ ويدعى بـ « محاربة تقديس الإيقونات » . ويتشابه مناهض الأيقونات ، مع النصير العصري للتعبير بطريقة المكعبات ، من ناحية إنكاره أسلوب الفن التقليدي . لكن يبدو شذوذ منحاه التفكيرى واضح المعالم ، إذ يمحصر التفاته في الفن المرتبط بالدين ، وإذ تستثير عداوته دوافع لا تتصل بحس الجمال ،

لكنها تتصل باللاهوت . ومناطق فكرة « محاربة تقديس الأيقونات » ، الاعتراض على تصوير الذات الإلهية : أو أى مخلوق أقل من ذلك قد تصبح صورته موضوعاً للعبادة الوثنية . بيد أن ثمة اختلافات في درجة الصرامة التي طبّق فيها هذا المبدأ . وأعظم مدارس فكرة محاربة تقديس الأيقونات شهرة ، هي « مدارس الشمول الكلي » التي تمثلها اليهودية ، والتي اعتنقها الإسلام بعد ذلك . وهذه الفكرة تعبّر عنها الوصية الثانية من وصايا موسى العشر :

« لا تصنع لنفسك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض » (١) .

ومن الناحية الأخرى ، فإن الحركات المتصلة بفكرة « تحطيم الأوثان » التي برزت في نطاق الكنيسة المسيحية ، قد جعلت لنفسها صفة مميزة ، يبدو أن المسيحية قد تقبلتها منذ أيامها الأولى . ومهما يكن من أمر نقشي فكرة « محاربة تقديس الأيقونات » في المسيحية الأرثوذكسية أثناء القرن الثامن أو تفشيها في المسيحية الغربية إبان القرن السادس عشر — تحت تأثير وحى الإسلام في القرن الثامن وإلهام اليهودية في القرن السادس عشر — إلا إن الفكرتين لم تنفلا هجوماً إلى الميدان السياسي . بل أن المطالبين في الميدان الديني بمحاربة تقديس الأيقونات الأرثوذكسية ، قد قنعوا في نهاية الأمر بحل وسط غريب ؛ مداره تحريم تصوير المشاهد الدينية موضوع العبادة ، تصويراً ذا أبعاد ثلاثة ، مع الموافقة على السماح برسوم ذات بعدين فحسب (٢) .

(١) دفع تحريم نسخ الشخصيات وتصويرها ، الفنانين في الإسلام إلى الاكتفاء بإنشاء النماذج التي لا تمثل شخصيات بشرية . ومن هنا جاءت كلمتنا المعروفة بـ « الأرابيسك » .
(المؤلف)

(٩) التسامى الذاتى لزعة المستقبلية

قد تُحقق مناحى الزعة المستقبلية فى بعض الأحيان ، نجاحاً فى الميدان السياسى : إلا أن زعة المستقبلية ، كطريقة للحياة ؛ تقود أولئك أصحابها ، صوب هدف عقيم لا يتأتى بلوغه أصلاً . بيد أنه رغماً عن عقم الاستطلاع - وقد يودى إلى نتائج مفاجئة - فلا يعنى ذلك خلوه من فائدة . إذ لعله يرشد الباحث الضال نحو طريق السلام .

فإن زعة المستقبلية ؛ هى - فى حالتها البدائية - فكرة طابعها القنوط . بيد أنها وهى فى حالتها هذه ، تعتبر آخر مخرج ممكن من الضائقة التى يعانها الإنسان . ذلك لأن النفس التى أصابها القنوط من الحاضر ، دون أن تفقد اشتهاؤها للحياة الدنيا ، تستنجد أول ما تستنجد بمحاولة ، تعنى قفزة خافقة فوق تيار الزمن ، متجهة صوب الماضى . ولن تشجع النفس لتلتزم مسار زعة المستقبلية الأضعف فى منحاه الطبيعى ، إلا إن أخفقت تجربة خط الهروب ذى الزعة السلفية ، أو صرف النظر عنها لاستحالة تحقيقها أصلاً .

ويتأتى تفسير طبيعة هذه الزعة المستقبلية الخالصة من الشوائب - وهى دينوية الطابع كما يدل عن ذلك استخدام نفس الإثبات - بذكر بضعة من الأمثلة التقليدية :

ففى العالم الهلبنى - مثلاً - حدث أثناء القرن الثانى قبل الميلاد ، أن جرّد من حريتهم ، آلاف من السوريين وغيرهم من الشرقيين المثقفين ثقافة عالية ، وانتزعوا من دورهم وفرّقوا عن عائلاتهم ، ورحّلوا بجرّاً إلى صقلية وإيطاليا ؛ ليخدموا أرقاء فى المزارع ، وفى حظائر تربية المواشى فى المناطق التى دمرتها الحرب الهانيبالية . ولم يكن أمام أولئك الأرقاء المغتربين - الذين مست حاجتهم تماماً ، إلى سبيل للفرار من حاضرهم - أى احتمال لارتداد إلى

ماض « سلفى » الطابع . ولم يقتصر الأمر على استحالة قيامهم — من الوجهة المادية — بشق طريق عودتهم إلى أوطانهم . بل لقد أصاب الفناء ، كل ما كان يجعل هذه الأوطان حبيبة إليهم . إنهم لم يكونوا يستطيعوا العودة ، ولم يكن في وسعهم إلا السير قُدُماً .

وهكذا ، فإنهم عند ما ضعفوا عن احتمال ما يكابدونه من عسف ، تحركت فيهم نزعة التردد البدنى . وتمثل هدف انتفاضات العبيد الكبرى ، في إقامة نوع من المجتمع الرومانى المعكوس الآلة ، يغدو فيه الأرقاء الحاليون سادة ، وينقلب السادة الحاليون عبيدا .

ولقد أظهر اليهود رد فعل مماثل في فصل مبكر من التاريخ السورى . وجاء رد الفعل هذا رداً على تدمير مملكتهم — يهوذا — المستقلة ذات السيادة . فأنهم ، بعد ما ابتلعته الإمبراطوريتان البابلية الجديدة والأخيمينية وتفرقوا هباء بين الأممين ، ماكان في وسعهم أن يأملوا عن إقتناع في رجعة ذات طابع سلفى ، أى إلى الحالة التى كانوا عليها قبل تشتتهم ، وقتما كانت مملكة يهوذا تحيا حياة إقليمية مستقلة .

وكان يعتبر ضرباً من الخيال ، الجرى وراء أمل استعادة حالة انقضت وأصبحت فوق متناول الاسترجاع . ولما كان اليهود يعجزون عن الحياة دون أمل ييث فيهم قدرة انتشال أنفسهم من حاضر لا يرتضونه ، فقد وقع على من نشأ منهم بعد في فترة النقي ، عبء التطلع نحو إقامة مملكة داود في صورة لا نظير لها في ماضى مملكة يهوذا السياسى ، أى أنهم تطلّعوا إلى إقامة مملكة من ذلك النوع الذى عُرِف في عالم الإمبراطوريات الكبرى !! فإذا كان على داود المنتظر أن يوحد — في رأيهم — العالم تحت سلطانه ، أفلا يكون جتماع رسالته اغتصاب صولجان إمبراطوريته من يدي حامله السامى ، ويجعل أورشليم مركز العالم ؟ !!

وإلا فلماذا لا يكون لزروبَّابِل Zerubbabel متخذاً صورة دارا ، فرصة متاحة يغتنمها اليهود للسيطرة على العالم ؛ أو يصبح ليهوذا المكابي ، متخذاً صورة أنطوخيوس نفس الفرصة ؛ أو لباركوكابا^(١) ، متخذاً صورة هادريان^(٢) ؟ ! ! .

واستولى حلم للسيطرة مماثل على المؤمنين القدماء في روسيا : فإن فكرة بطرس الأكبر عن الأرثوذكسية ، لم يتقبلها الروس الانشقاقيون^(٣) بحال من الأحوال ، أرثوذكسية صحيحة . واستحال في نفس الوقت تصوّر النظام الكنسي القديم قادراً على الصمود لقوة نظام سياسي شيطاني . ومن ثم اندفع الانشقاقيون الروس إلى تصوّر حلّ فذ مداره تجلّى مسيح في صورة قيصر ، في مكنته استعادة العقيدة الأرثوذكسية في شكلها البدائي الخالص من الشوائب .

• • •

يتبين مما تقدم : أنه يجمع بين هذه الأمثلة المتصلة بنزعة المستقبلية الخالصة ، مظهر له دلالة خاصة ميناها أن الآمال التي ابتغى النجاة في رحابها أصحاب المستقبلية ، تقوم جميعها على أساس استنجاز أمر واقع ، باستخدام الطريق الدنيوي المؤلف :

ويتضح هذا المظهر في نزعة اليهود المستقبلية ، التي خلّفت لتاريخها مادة مكتوبة . إذ كان اليهود بعد تدمير نبوخذ نصر مملكتهم ، يعقدون الآمال

(١) باركوتشبا أو باركوكابا . زعيم الثورة اليهودية الأخيرة ضد روما (١٣٢ - ٣٥ ميلادية) وأمكن الرومان عام ١٣٥ قتله والاستيلاء على أورشليم . (المترجم)

(٢) بلغ الأستاذ المؤلف الذروة هنا في تحليل أطماع اليهود ، وردّها في صورة علمية جذابة إلى جذورها الأصلية . فإن الصهيونية لن تنجح بفلسطين وحدها ، بل إن هدفها النهائي تكوين إمبراطورية مركزها القدس وتتحكم في أقدار العالم الاقتصادية والسياسية بفضل سيطرتها على موارد الشرق الأوسط الفنية وتحكمها في موقفه الاستراتيجي الحيوي . (المترجم)

(٣) المعروفون باسم Raskolniki . وقد انشقوا على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إبان القرن السابع عشر الميلادي . (المترجم)

المرّة بعد الأخرى على إقامة دولة يهودية جديدة ، أمامهم كلما أتاح لهم
تطور مجريات السياسات العالمية ومهما تضاعفت فرص النجاح : ومصدقا
لذلك ؛ شاهدت دورة القوضى القصيرة الأمد التي مرت بها الإمبراطورية
الأكيمينية - وتقع بين وفاة قمبيز Cambyzes^(١) وقيام دارا - محاولة
زروباربل (حوالي ٥٢٢ ق . م) إعادة تشييد مملكة داود : كذلك ؛ خدع
اليهود بانتصار المكابيين في الفصل الأخير من التاريخ ، أى خلال فترة الفراغ
الطويلة الواقعة بين انحلال الدولة السلوقية ووصول الفيلالي الرومانية إلى
سوريا ؛ فكان أن طمس سراب هذا النجاح الدنيوى عقول اليهود ،
فانساقوا وراءه بحيث أنهم ارتضوا لأنفسهم - مصداقا لما ورد في الإصحاح
الثاني من سفر أشعيا قبل ذلك بأربعمئة سنة - أن يطرحوا جانباً ، التقليد
المقدس القديم الذى يحتّم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون من
ذرية داود .

ومهما يمكن أن يقال فى تداعى دولة السلوقيين ؛ فكيف تأتى لليهود أن
يأملوا فى مقارنة أنفسهم بقوة روما الجبارة وهى فى عنفوانها ؟

كانت الإجابة على هذا السؤال ، واضحة وضوح النهار لهيرود
الديكتاتور السدومى . فإنه لم ينس قط كونه حاكم فلسطين بفضل روما .
وظفق طوال سلطانه ، يتحایل على إنقاذ رعاياه من نقمه حماقتهم الذاتية .
بيد أن اليهود عوضاً عن إظهار امتنانهم لهيرود لتعليمه إياهم درساً سياسياً بلغ
درجة عالية من النفع ، لم يستطيعوا أن يغفروا له استقامة رأيه . فما أن
كفّت يده القويتان عن الحكم ، حتى أخذوا القرطمة^(٢) بين أسنانهم ، وتنحوا
عن سبيلهم ذى الطابع المستقبلى ، وانقادوا إلى الكارثة المحققة . ولم تكتف
عندئذ بإظهار قدرتها على كبح جماحهم . على أن تجربة ٦٦ - ٧٥ ميلادية

(١) قمبيز : (٥٢٩ - ٥٢١ ق . م) الملك الثالث فى تاريخ الميديين والفارس وهو
ابن قورش الأكبر . (المترجم)

(٢) القرطمة : حديدة توضع فى فم الجواد يقاد بها . وهى غير اللجام . (المترجم)

المفزعة لم تحل بينهم وبين غواية الكارثة لهم، وترديهم فيها مرة أخرى في ١١٥ - ١٧ ميلادية، ثم ترديهم فيها بعد ذلك خلال فترة ١٣٢ - ٥ ميلادية. فلقد كان الزعيم اليهودي كوكابا خلال فترة ١٣٢ - ٥ ميلادية، ينتهج نهج التأثير اليهودي زروبا بل عام ٥٢٢ ق : م . ولقد اقتضى اليهود فترة تجاوز الستة قرون، ليتعلموا أن نزعة مستقبلية من هذا النوع، لا فائدة ترجى منها، فإن كان هذا هو جماع القصة اليهودية، فإنها ليست بذات أهمية. إلا أن هذا هو نصف القصة وحده. ومناطق القصة بكاملها، أنه بينما أن بضعة نفوس يهودية قد « فعلت لا شيء وأغفلت لا شيء » - مثلها مثل أسرة بوربون الفرنسية^(١) - فإن نفوسا يهودية أخرى - أو حتى بضعة من ذات النفوس اليهودية وهي في مزاج آخر وبوساطة خاصية روحية مختلفة - قد علمتها التجربة المريرة تدريجيا، أن ثودع ركازها الروحي مكانا آخر. فلقد كشف اليهود بعد ما اسفرت الأحداث عن إفلاس المستقبلية، كشفا آخر مذهلا، تجلى في معرفتهم مملكة الرب. وبمرور العصور؛ استبان للعيان هذان الضربان من الوحي :

أحدهما سلبى والآخر إيجابى .

وكان أن تطورت شخصية المؤسس المنتظر للمجتمع اليهودي الجديد، تطورا يتلاءم بدرجة كافية مع كونه ملكا من لحم ودم؛ يتولى تأسيس أسرة مالكة وراثية. بيد أن لقب هذا المؤسس العتيد للإمبراطورية - والذي خلعه على نفسه كل مدع على التوالى من زروبابل إلى باركوكابا - ليس هو لقب ملك وإنماكن « المسيح »^(٢).

ومن ثم؛ فإذا ما توحد إله اليهود - حتى من ناحية الأساس - مع الأمل الذى طفق يساورهم منذ البداية، وإذا ما اضمحل أملهم الدنيوى

(١) الأسرة التى كانت تحكم فرنسا قبل ثورتها . (المترجم)

(٢) المسيح : كلمة تعنى حرفيا الذى مسحته الرب بالزيت . (المترجم)

اضمحلالا جامدا ؛ فإن الشخصية الإلهية تبليج ، وتعظم ثم تعظم ، حتى تملأ الكون بأسره .

وليس اللجوء إلى الله التماسا لمساعدته هو بالطبع إجراء غير عادى فى حد نفسه . فلهذه فعل قديم ، قدم الدين نفسه . فكان الشعب الذى يُقدم على مشروع رهيب ، يلوذ برحاب معبوده الحارس .

وليس مناط الفكرة اليهودية المستحدثة ، الافتراض الذى يظهره لقب المسيح ؛ بأن نصير الشعب البشرى يسنده تأييد إلهى . فإن الجديد فى الأمر — وله خطورته كذلك — يتمثل فى فكرة طبيعة المعبود النصير ووظيفته وقدرته . وتفسير ذلك أنه فى حين اتصلت على الدوام فكرة أن « ياهوى » معبود إقليمي يتعلق باليهودية وحدها ، بمعنى معين ؛ صور « ياهوى » فى محيط آخر أوسع نطاقا ، على أنه النصير الذى مسحه الرب . ولقد كان أصحاب النزعة المستقبلية من اليهود بعد الأسر البابلى ، مُقَدِّمين على مشروع سياسى غير عادى ، مداره تكريس قلوبهم لإنجاز رسالة كان تنفيذها — من ناحية الطاقة البشرية — مستحيلا . فأنهم وقد أخفقوا فى الاحتفاظ حتى باستقلالهم المحلى التافه ؛ فكيف يتأتى لهم الأمل فى تنصيب أنفسهم سادة على العالم ؟

إن توفيقهم فى هذا السبيل يقتضى أن لا يقتصر مجال معبودهم المحلى على نطاق محدود ، بل يجب أن يغدو إلهاً يتكافأ مجال نفوذه مع نظامهم المستقبلية .

وما إن أدرك اليهود ذلك ؛ حتى أخذوا يحورون مأساة كانت حتى هذه النقطة « شكلا مألوفاً » فى تاريخ الأديان ؛ إلى سعة روحية أسمى . ومناطق التغير : هبوط النصير البشرى إلى دور التابع ، على حين تسيطر الألوهية على المشهد . ولم يعد المسيح البشرى كافياً للقيام بالدور ، بل أصبح الأمر يقتضى تنازل الإله نفسه عن مقامه السامى ، وتوليده دور المخلص ، وجوب أن يغدو ابن الإله نفسه نصير شعب الإله على سطح الأرض .

عند هذه النقطة ؛ يُبدى تعجبه أى محل نفسانى غربى من أبناء اليوم يقرأ هذه السطور ويقول معترضاً : « إن ما أعلنته كشفاً روحياً مجيداً ، ما هو إلا الاستسلام للرغبة الصبيانية ، رغبة الفرار من الواقع . فرار هو أحد المغريات الماحقة للنفس الإنسانية : إنك قد وصفت كيف كرسّت طائفة تعسة من الناس الطائشين قلوبها لتحقيق هدف لا يُنال ؛ مداره محاولة إلقاء عبء تنفيذ عمل مستحيل من على كواهلها الذاتية ، وإلقائه على كواهل سلسلة من ابتكاراتها الفكرية : وتمثل أولاً فى إبراز فكرة النصير البشرى البحت . وعند ما لا يجدى ذلك نفعاً ، تبرز تلك الطائفة فكرة نصير آدمى تؤيده ربوبية تصورية . وأخيراً يستغيث الحمقى فى غمار يأسهم بكائن إلهى تصوورى يقوم شخصياً بأداء العمل » .

إن هذا التطور المبتدل فى نزعة الفرار ، يعتبره العالم النفسانى المحترف ، قصة مألوفة كثيرة .

ورداً على هذا الانتقاد ؛ نُبدى استعدادنا لتقبل أن فكرة استدعاء قوة قدسية لحمل عبء تنفيذ رسالة دنيوية اخترناها لأنفسنا وألفينا مشيئتنا عاجزة عن إنجازها ؛ فكرة غريبة . إن الصلاة القائلة « لتجعل مشيئتى تنفذ » تعنى الحكم على النفس بالتفاهة .

وبالنسبة للحالة اليهودية التى نحن بصدددها ؛ كانت ثمة مدارس لأصحاب النزعة المستقبلية اليهودية أقنعت نفسها بأن « ياهوى » يتولى بنفسه عبء تنفيذ العمل الدنيوى الذى يرتضيه عابده . وقد انتهى الأمر نهاية سيئة كما رأينا ، بهولاء اليهود أصحاب هذا الضرب من المستقبلية . إذ كان الانتحار المسرحى الطابع ؛ مصير اليهود المتعصبين الذين جابهوا حشوداً عسكرية رومانية ميثوس من مقاومتها ، متصورين وهم فى غمرة الوهم ، أن رب اليهود سيقاتل معهم يوم المعركة . وكان ثمة أصحاب الطريقة الاستسلامية الذين استخلصوا من نفس المقدمات المغلوطة نتيجة مخالفة المرة - وإن كانت لا تقل درجة من ناحية انعدام الرجاء فيها -

مدارها ضرورة امتناعهم عن إتخاذ أى إجراء فى موضوع دنيوى ،
اعتبروه من شئون الله :

يبد أن ثمة ردود فعل أخرى :

رد فعل مدرسة جوهان بن زكّاى ، ورد فعل الكنيسة المسيحية ،
وبينما أن ردّى الفعل هذين يشاهان الطريقة الاستسلامية فى مظهرها
السلبى المتصل بالامتناع عن العنف ، تختلف المذستان كليها عن نزعتى
الاستسلامية والتعصية ، فى نقطة إيجابية هامة مدارها صدوفهما عن
تكريس الجهود لتنفيذ الجانب الدنيوى من نزعة المستقبلية ؛ وتكريس
الركاز الروحى ، لتنفيذ غاية لا تتصل بالإنسان لكنها تتعلق بالله :
ومن ثم يتأتى تتبع النزعة المستقبلية فقط ، فى ميدان روحانى ،
يصبح الله فيه الهادى للأفعال .

ولهذه النقطة أهمية رئيسية . لأنها تتخلص هنا من أوجه النقد المرة
التي فى وسع محللنا النفسانى توجيهها ضد أصحاب مذهب التعصب ؟ والمذهب
الاستسلامى . فإن الالتجاء إلى الله ، حالة صدوف المثل البشرى عن
هدفه الدنيوى أمر لا يمكن نكرانه ، واعتباره فعلا صبيانيا .

وعلى العكس ؛ إن أنتج بالفعل رد فعل الاسترحام ، مثل هذا
التأثير الروحانى ، فى عظمتة وفضله على النفس البشرية التى تتولى إنجازة ؛
فهإنه ليتبين من النظرة الأولى ، أن التراجع أمام الاعتقاد بأن « القدرة » التى
استرحمتها النفس البشرية ؛ هذا التراجع ما هو إلا خرافة ابتدعتها الخيلة
البشرية . وسنسمح لأنفسنا بالاعتقاد بأن مدار التعرف الروحانى هذا ،
هو فى معرفة « الله الواحد الحق » . وأما الكلام عن مستقبل « هذه
الحياة الدنيا » فما هو إلا زعم أخلى مكانه لروحى إلهى عن « عالم الآخرة » .

« يتبقى أن ننعم النظر في المراحل الرئيسية في إنجاز هذه المأثرة الضخمة المتصلة بإعادة التوجيه الروحاني : ويتمثل جوهر هذه المأثرة في حقيقة مبناها أن المشهد الدنيوي الذي كان ينظر إليه في وقت ما منصة للمثلين البشريين - يشد أزرهم مناصرون قديسون (أو لا يحدث ذلك) - أصبح ينظر إليه الآن ميدانا تتحقق فيه بالتدريج مملكة الرب ، ويتم ذلك في مرحلتين : الأولى - وتلبس فيها الفكرة الجديدة نفسها - كما يتوقع - زداءً تصورياً يستخلص من فكرة المستقبلية القديمة . ومضاداً لذلك ، يرسم إشعيا الثاني^(١) صورة مملكة الرب التي تتسامى ، لكنها تتضمن كذلك فكرة مملكة دنيوية ، قوامها إمبراطورية شبيهة بالإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) . مع فارق أن يؤسس قورش هذه الإمبراطورية ، وتكون أورشليم قاعدة للملكة عوضاً عن سوسا ، ويجعل من اليهود - لا الفرس - الجنس الحاكم فيها . ذلك لأن « ياهوى » قد أوحى إليه بأنه هو (وليس آهورمازدا)^(٢) الذي بات يؤيد قورش لغزو العالم .

إن الإصحاح الثاني من سفر أشعيا وهو في غمرة هذا الوهم ، يعرض نفسه لانتقادات عالمنا النفساني ونقمته . فإن فكرة النبي هذه ، إنما تسمو على فكرة المستقبلية الدنيوية بالنسبة لنقطة مبناها أن الإنسان والطبيعة كليهما يصوران على أنهما يلاقيان تمجيذاً سماوياً معجزاً . وأن مملكة الرب التي

(١) إن السفر المعروف بأشعيا في العهد القديم (التوراة) ، جزء منسوب لأشعيا النبي ، وجزء آخر منسوب لشخص مجهول الاسم . وقد اصطلاحوا على تسميته بأشعيا الثاني أو Dentero - Isaiah . ويقال إنه كان في بابل حوالي ٤٤٠ ق . م ، والإصحاحات ٤٠ - ٥٥ من كلامه . (المترجم)

(٢) آهورمازدا : إله الخير في عقيدة زرادشت الفارسية . وعكسه آهريمان . (المترجم)

تصورها ، ليست في الحقيقة إلاجنة أرضية ؛ جنة عدن كيفت لتتفق مع العصر .

وتفد فكرة تالية - وقتما يُفكّر في هذه الجنة الأرضية على أنها حالة انتقالية فقط يمكن أن تستمر طوال ألف سنة^(١) لكن يقدّر لها الزوال في نهاية الفترة المقدّرة لبقائها ، فترة تنتهي بانتهاء العالم الحاضر نفسه . لكن إن كان الزوال مقدّراً على العالم الحاضر ليخلى مكانه لعالم الآخرة خلفه ، ينبئ على هذا وجود مملكة الرب الحقيقية في عالم الآخرة وحده . ذلك لأن الملك الذي يقدّر له الحكم خلال الفترة الإلهية ، ليس هو بعد ، الله نفسه ؛ لكنه نائبه ، أو المسيح .

وظاهر مع ذلك أن فكرة الألفية المعجزة في دنيا الحاضر - إبان إحلال دنيا الحاضر بعالم الآخرة - هي محاولة لايتأتى بلوغها بوساطة التوفيق بين الآراء التي لا يقتصر الأمر على كونها متميزة ، لكنها في نهاية المطاف يناقض بعضها بعضاً .

فإن ثمة :

أولاً - فكرة الإصحاح الثاني من سفر أشعيا ، ومبناها الأمل في مملكة دنيوية مستقبلية ، مع إجراء تحسينات تتسم بالإعجاز .

ثانياً - فكرة تتصل بمملكة لله ليس لها وقت معين ، لكنها تقع في سعة روحانية مختلفة . وبفضل اختلاف السعة بالذات ؛ يُصبح في مملكة الله ، النفوذ إلى حياتنا الدنيوية وتشكيلها . ولكي يتيسر الصعود الروحاني العويص : من سراب المستقبلية إلى إلهام التجلّي ، قد يدلّل الخط الأخرى للعهد الألى على ضرورته كسلّم عقلي . لكن عندما يتيسر تسلق السلّم ، يُترك ليسقط بعيداً :

(١) من هنا جاء الاستعمال المألوف لكلمة « الألى » للدلالة على عصر ذهبي قادم .

(المؤلف)

« لقد تعلم الفريسي الورع في ظل الهاسمونيين^(١) بالفعل ، التحول بعيداً عن « هذه الدنيا » إلى السماء ، أى إلى المستقبل . والآن وقد أصبح الأمر طرود ، فإن جماع الشعور الوطني المتصل الحلقات والذي اندفع خلال الأجيال الأخيرة بمثل هذه القوة ، قد اصطدم بحائط مسدود . ولم يجد هذا الشعور منفذاً ، إلا في المسالك التي افتتحها الفريسي . فكان أن ترعرعت في المدارس الفريسية (بين ظهراني شعب خضع لضغط تلك الضرورة الملحة) لمعتقدات استشرافية قوامها الأمل في ظهور المسيح المنتظر . وانتشرت تلك الآمال بفضل حيويتها الدافقة . وحقاُ تبدو لنا كتب الزهد الفريسية التي وصلت إلينا — أخنوخ ، مزابير سليمان ، فرائض موسى وغيرها — ماهية الآراء التي سيطرت على أذهان الكتاب . لكنها عجزت عن أن تبدو لنا حقيقة ما تلقيناها عن الأناجيل . إذ كيف أصبحت شخصية الملك القادم — المسيح الواحد ، ابن داود مع الآراء المتصلة بالبعث وبالأخرة — جزءاً من الجهاز العقلي المؤلف لعامة الشعب الذين تعلقوا بكلمات الرب . بيد أن المسيح الذي عبده المسيحي ، لم يكن تجسماً لأى شكل من الأشكال التي برزت نتيجة لفكرة النبوة . . فإن في شخصه تلتقي جميع آمال الماضي ومُثله ، وتمازج ،^(٢) .

(١٠) الاعتزال والتجلى

قادتنا أبحاثنا في طبيعة نزعتي المستقبلية والسلفية ، إلى إظهار إخفاقيهما كليهما . إخفاق يرد إلى تطلعهما إلى الفرار من الواقع ، دون أن ترتفعاً فوق مجرى الزمن الدنيوي . وشاهدنا كيف أن إفلاس المستقبلية ،

(١) الأسمونيون أو الهاسمونيون : هو الاسم الأصل للمكابيين . وهم جيل من قادة اليهود جاهدوا خلاص مملكة يهوذا من حكم أنطيوخوس ابينانيس ملك سوريا (١٧٥ — ١٦٤ ق م) . (المترجم)

(٢) صفحتا ١٥٨ و ١٦٢ . Bevan, E : Jerusalem under the High Priests.

قد يقود - وقد قاد بالفعل في مثال تاريخي قدسي - إلى إدراك الله الذي دعونا به « التجلى » .

بيد أن إفلاس السلفية قد يثمر كذلك في الاهتداء إلى كشف روحى :
فإن التسليم بالحقيقة القائلة بأن نزعة السلفية لا تكفى ، يعتبر تحدياً قد يبعث - كما رأينا - بصاحب السلفية الضال إلى الاتجاه المضاد ؛ صوب الردى فى هاوية المستقبلية ، مثلما اندفع قطع الخنازير - وقد تميمته الشياطين - من على الجرف إلى البحر فأت غرقاً^(١) . لكنه قد يستجيب من الناحية الأخرى للتحدى ، بسلوكة ضرباً من الارتحال الروحى . وتمثل خطته فى هذه الحالة ، فى بذل أقل مقاومة ، لتحويل القفزة الخافقة التى تقود إلى الكارثة ، إلى فرار يتنكب مشكلة الهبوط إلى الأرض ، بواسطة مغادرته إياها مغادرة أبدية .
تلك هى فلسفة الاعتزال التى قد طالعنا بالفعل مثال عنها - فى الاستسلاميين اليهود - لم نعلت عليه .

وأكثر تفسيرات هذه الفلسفة شيوعاً عند الباحث الغربى ، تلك « الأوراق التى تخلقت عن مفكرة فيلسوف رواقى » حفظها لنا إبيكتوتوس وماركوس أوريليوس . بيد أننا إذا ما تتبعنا طريق الاعتزال بعيداً بعداً كافياً ، سنجد أنفسنا عاجلاً أم آجلاً متحولين من مرشد هلىنى ، مقتفين أثر مرشد سندى . ولقد كان لمريدى جوتاما بوذا الشجاعة

(١) أصلها قصة فى حياة السيد المسيح عن وصوله إلى كورة الجرجيين the Gadarenes « فاستقبله هناك مجنونان هائجان جداً حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق . وإذا ما قد صرخا قائلين مالنا ولك يا يسوع . أجنث هنا قبل الوقت . لتذهبنا وكان بعيداً منهم قطع خنازير كثيرة ترعى . فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطع الخنازير . فقال لهم امضوا ، فخرجوا ومضوا إلى قطع الخنازير . وإذا القطيع كله قد اندفع من عل الجرف إلى البحر ومات فى المياه » . وارد الاصحاح الثامن من انجيل متى .
(المترجم)

الكافية لاعتناق الانعزالية طوال الطريق كله ، إلى أن بلغوا هدفه المنطقي
الخاص بانعدام الذات . ويعتبر هذا من الناحية العقلية شيئاً رائعاً ، ويعد
من الناحية المعنوية فيضاً غلاباً : إلا أنه يضم بين ثناياها نتائج مربكة ، مبناه
أن الاعتزال الكامل يطرح الشفقة جانباً ، وبالتالي ينبذ الحب ؛ باستصفائه
جميع الانفعالات الشريرة ، بصورة جامدة .

« إن الإنسان الذى تخلو كل حركة من حركاته من الحب والمهدف ،
وتحرق نيران المعرفة — أى النداء المستنير العالم — كل أعماله ؛ لا يحزن
المثقف لهؤلاء الذين تشرد حيواتهم ولا لهؤلاء الذين لا تشرد حيواتهم »^(١) .
ويعتبر هذا التحرر من الشعور لدى الذهن السندى الحكيم ، جوهر
الفلسفة الصلد . وقد توصل إلى نفس النتيجة ، الفلاسفة الهليونون ، كل
مستقل عن الآخر . من ذلك أن ابيكتوس يعظ تلامذته بقوله :

« إن كنت تقبل طفلك ... لا تمكن مخيلتك قط من إتيان الفعل صراحة ،
ولا تطلق لعاطفتك العنان وحقا ليس ثمة ضرر من أن يصحب فعل
تقبيل الطفل ، الهمس إليه بأنه سيموت غدا »^(٢) .

ولا يردد سنيكا فى التصريح بأن :

« الشفقة داء ذهنى يخضع لإغراء مشهد تعاسة الناس الآخرين وبؤسهم .
أو أنه يمكن تعريفها بأنها عدوى أرواح سفلية تلوث من متاعب أناس
آخرين ، عندما يعتقد المريض بأن هذه المتاعب لا تستحق العناية : إن الحكيم
لا يستسلم للمثل هذه الأمراض الذهنية »^(٣) .

وإن الفلسفة الانعزالية — وهى تشق طريقها إلى نتيجة لا مناص من

(١) Baghavadgita, IV, 19 and ii, 11, Barnett's translation

(٢) الفقرات ٨٥ - ٨ من الكتاب الثالث ، الفصل ٢٤ : Epictetus

(٣) الفقرتان ٤ - ٥ من الفصل الخامس لكتاب الثانى Seneca : De Clementia

حدوثها مع الوجهة المنطقية (كما تصبح غير قابلة للاحتمال معنويا) تهزم نفسها بنفسها ؛ لأن مشاورة الرأس وتجاهل القلب يعنى التعتت فيما جمعه الله ، بشطره شطرين .

ومن ثم كان على فلسفة الانعزال هذه ، أن تتوارى أمام سر « التجلى » .

وإذ نعدّ أنفسنا لمجهود بحث هذا التحول الرابع والأخير عن الطريق المكشوف لتحلل الحضارات ؛ يقتحم آذاننا لجب أصوات هازئة مستهجنة : لكن خرى بنا أن لا نفرع : إذ تصدر هذه الأصوات عن الفلاسفة ، وعن أصحاب نزعة المستقبلية — وهم مثقفو الانعزالية والمتعصبون للمادية السياسية والاقتصادية . فلقد سبق أن وجدنا أنه مهما يكن من أمر المصيب من الخطي ، فإنهم المخطئون على أية حال .

« اختار الله جهال أشياء العالم الحمقاء ليُخزى الحكماء ، واختار الله ضعفاء العالم الأشياء الضعيفة ليُخزى الأقوياء »^(١) .

إن هذه الحقيقة التى فى مكننتنا توكيدها بالتجربة ، معروفة لنا بداهة . وقد نجترئ فى ضوئها وقوتها ، على التصدى لاستهجان أصحاب المستقبلية والفلاسفة معاً . بأن نبرُز فى إثر مرشد ليس هو باركابا ولا جوتاما^(٢) ؟

« لأن اليهود يسألون آية . واليونانيون يطلبون حكمة . نحن نكرز بالمسيح مصلوباً . إنه لليهود عثرة ، ولدى اليونانيين جهالة »^(٣) .

(١) رسائل كورنث لبولس : القسم الأول - ٢٧ .

(٢) يمثل باروكابا نزعة المستقبلية . بينما يمثل الجوتاما بوذا فكرة الانعزالية .

(المترجم)

(٣) رسائل كورنث : القسم الأول - ٢٢ - ٢٣ .

فلماذا يعتبر المسيح المصلوب عقبة لأصحاب المستقبلية الذين لم يوفقوا
قط في الكشف عن آية التأييد الإلهي لمشروعاتهم الدنيوية ؟
ولماذا يُعتبر المسيح المصابو جهالة عند الفلاسفة الذين لم يهتدوا إلى
الحكمة المنشودة قط ؟

إن المسيح المصلوب حماقة عند الفيلسوف ؛ لأن الانعزالية هدفه .
ولا يتأتى له إدراك كيف يضل بهذه الكيفية متعمدا ، كائن أريب أحرز
ذات مرة ذلك الهدف المحرم ، ثم يعتزل جميع ما سبق أن فاز به بشق النفس .
فما هو مغزى الانسحاب ؛ لا لسبب ، إلا للعودة ؟
لا جرم أن الحيرة تصيب الفيلسوف - بالإضافة إلى السبب المتقدم -
تجاه فكرة إله لم يحشّم نفسه حتى مشقة الانسحاب من دنيا بغیضة ، هو
مستقل عنها تماما ؛ انسحاب توّهله له ربوبيته . لكنه عوضا عن ذلك ؛
يبقى فيها متعمدا ، ويعرض ذاته لأشدّ ضروب الألم التي يقاسمها إله أو
إنسان : ويفعل ذلك سبيل جنس من المخلوقات أدنى كثيرا من طبيعته
الإلهية .

لكننا نجد تفسير ذلك في قول الإنجيل :

« إن الرب يُحبّ العالم حبا جعله يهبه ولده المحضر الوحيد ؟ » .

وهاك الكلمة الأخيرة لصاحب فكرة الانعزالية :

« إذا كانت الطمأنينة هي أسمى الغايات ؛ فما هي المنفعة التي تعود من
تحرير قلب الإنسان الحكيم من الاضطراب ، عن طزيق بتر الخوف والرغبة
التي تجمعلانه معتمدا على الأشياء الخارجية : علما بأن الفرد إن افتتح مائة من
المسالك ، لتدق إلى قلبه الألم والقلق اللذين يضمهما العالم بين ظهرائيه ، عبر
الألياف التي أوجدها الحب والشفقة ، والتي تصل قلبه بقلوب الناس المحمومة
في كل مكان حوله ؟ مائة من الألياف ، يا للعجب ! إن نقبا واحدا

كاف ليُدخل قدرا كافيا من الموجة الطاغية المرة فتجعل قلبه مليئا كله .
دع ثقباً صغيراً واحداً في جانب من السفينة ، فتغرقها في البحر . إني أظن
بأن الرواقين قد علموا عن يقين تام ، بأنك إن اعتزمت السماح بدخول
أى قدر من الحب والشفقة إلى صدرك ، تكون قد سمحت بشئ .
لن تستطيع التحكم في طاقته . وقد يترك بالمثل فكرة السكينة الداخلية على
الفور . . . إن الشخصية المثالية المسيحية لا يمكن بحال أن يتقبلها
الرواق مثلاً لرجله الحكيم الأنموذجي (١) .

وبعد ؛ فإن الصّلب عائق هائل ينتصب قائماً في طريق المستقبلية . إذ
يؤكد الموت على الصليب . قول يسوع بأن في السماء مملكته ، وليست
على هذه الدنيا . وهذا يتناقض مع فكرة صاحب الزعة المستقبلية ؛ وقوامها
مملكة تتولد عن انتصار مادية دنوي . وهذا ما بينه أشعيا الثاني عند كلامه
عن قورش ، وهو مسيحه المنتظر . كما بينها فيما بعد ؛ أخبار اليهود أصحاب
الزعة المستقبلية (من طراز يهوذا أو ثيوداس) للزعماء من أمثال زروبابل
أو سيمون المكابي أو سيمون باركوبابا .

وفي هذا بقول أشعيا الثاني :

« وهكذا يقول الرب لمسيحه (قورش هذه الحالة) الذى استمسكت
بيده اليمنى . . . سأذهب قبلك وأجد الأماكن الملتوية مستقيمة . سأحطم
شذراً بوابات النحاس الأصفر وأقطع أجزاء قضبان الحديد ، وأمنحك
كنوز الظلام والثروات الخفية للأماكن السرية » (٢) .

وكيف انفقت هذه الفكرة المستقبلية الأصلية عن مسيح منتظر ، مع
كلمات السجين الذى أجاب بيلاطس بقوله : « أنت تقول أننى ملك »

(١) Bevan, E. R : Statics and Sceptics ٧٠ و ٦٩

(٢) أشعيا : الإصحاح الرابع عشر . آيات ١ - ٣ .

ثم مضى السجين يقدم حسابا تصوريا عن المهمة الملكية التي زعم بأن الله أرسله لأجلها ؟

« لهذه الغايات ، ولدت ولهذا القضية جئت إلى العالم : أن أكون للحقيقة حاملا » .

وقد يمكن تجاهل الكلمات المخيرة . بيد أن وفاة الجاني لا يتأتى تجاهلها أو التخلص منها .

وتبدى محنة بطرس^(١) مدى فظاعة هذه العقبة .

إن مملكة الله التي يكون المسيح فيها هو الملك ، لا يجوز تشبيهها بأية مملكة أخرى يمكن أن يُلشَّها مسيح منتظر ، يُتصور على غرار فاتح عالمي آخيميئي^(٢) يغدو يهوديا . وما دامت هذه الألوهية الكائنة ، تدخل مجال البعد الزمني جملة ؛ لن يتم ذلك كحكم من أحلام المستقبل ، ولكن كحقيقة روحية تتغلغل في الحاضر .

ولو ساءلنا أنفسنا عن الكيفية التي تستطيع إرادة الله بها فعلا أن تنفذ على الأرض ، مثلما تنفذ في السماء ؛ لكان مناظ الإجابة بلغة اللاهوت الفنية ، أن قدرة الله المطلقة تتضمن استقراره في هذه الدنيا وفي كل نفس فيها . وتتضمن بالمثل وجوده الاستشراقي على أسطح تسمو على السطح الدنيوي . ويتبدى المظهر الاستشراقي (أو الأفنوم) في الفكرة المسيحية عن الألوهية ، في الله الآب . ويتبدى المظهر المُستدنى^(٣) ، في الله الروح القدس : لكن السمة المميزة والبالغة منتهى الدقة للعقيدة المسيحية ، مبنها أن الله ليس

(١) تتمثل محنة بطرس كما ذكر المؤلف في موضع سابق في محاولته مقاومة الجود الذين أنوا لصلب السيد المسيح . (المترجم)

(٢) آخيميئي : ينتسب إلى الدولة الأخمينية الفارسية . وكان اليهود وقتا ما يعتقدون بأن ملكا من طراز قورش مؤسس الدولة الأخمينية سينشئ لهم إمبراطورية مركزها أورشليم . ويكونون هم سادتها . (المترجم)

(٣) المستدنى : أى داخل في الدنيا أو العالم ، وعكسه المستشرف أى الخارج عن الدنيا والعالم . (المترجم)

« ثنائياً » لكنه « ثالث » في اتحاد . ويتحد المظهران الآخران في أقنوم ، في مظهر الإله باعتباره ابنا . وبفضل هذا اللغز ، تنفذ دعوته إلى القلب البشرى ؛ وبدونه تعجز عن إدراكها الأفهام البشرية .

وبالأحرى ؛ ففي أقنوم يسوع المسيح - وهو إله لدى المسيحيين مؤكّد كما أنه كذلك إنسان مؤكّد - يجتمع المجتمع الإلهي والمجتمع الدنيوي في عنصر مشترك . وتولد طبيعته البشرية في هذه الدنيا في صفوف البروليتاريا ، ويموت ميتة الجاني ؛ في حين يصبح في العالم الآخر ، ملك مملكة الله ، ملك هو الإله نفسه .

ولكن كيف يتأتى لطبيعتين - واحدة إلهية والأخرى بشرية - أن تجتمعا كلاهما في وقت واحد في إنسان فرد ؟

عمل آباء الكنيسة المسيحية على صياغة الردود على هذه الأسئلة في شكل مذاهب استمدوا ذخيرتها اللفظية الفنية من الفلاسفة الهلنيين .

وليس هذا المنهج الفلسفي ، بالمدخل الوحيد المفتوح لنا . إذ عسانا أن نعرّ على نقطة بداية بديلة ، في القضية المسلّم بصحتها القائلة بأن ثمة شيئا مشتركا بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية . فإذا ما بحثنا عن خاصية روحية معينة تتوافر فينا و - وسعنا أن نعزوها كذلك إلى قدرة الله ؛ نجد أن الخاصية لا بد أن تتوافر في الله ، وإلا لكان من الناحية الروحية أدنى من الإنسان درجة ؛ إن لم تتوافر فيه هذه الخاصية ، واقتصر وجودها علينا . وهذه لعمرى فكرة سخيفة .

وبالأحرى ؛ فإن الخاصية التي نفكّر فيها قبل كل شيء باعتبارها مشتركة بين الإنسان والله ، هي الفكرة التي يتمنى الفلاسفة قمعها ؛ تلك هي خاصية الحب . هذه الصخرة التي نبذها بعناد ؛ الفيلسوف اليوناني زينون والمفكر السندي جوتاما بوذا والتي أصبحت رأس الزاوية في معبد العهد الجديد .

(١١) رُجعى الميلاد

استكملنا الآن فى استعراضنا ، أربع طرائق تجريبية للحياة ، تعتبر محاولات استقصائية متعددة غاية التعدد ، للعثور على بديل عملى لعادة مألوفة للحياة والحركة تتم بسهولة فى حضارة نامية .

يبد أنه عند ما سدت كارثة الانهيار الاجتماعى ، هذا الطريق المريح ؛ تبدت هذه الطرائق الأربع ممرات فرعية بديلة متاحة . ولقد تبين لنا أن ثلاثة منها أزقة مسدودة لا رجاء فيها ، وأن واحدا منها — وهو ما دعونا به بالتجلى وأوضحناه على ضوء المسيحية — يقود نوا إلى الأمام .

فإذا رجعنا الآن إلى الفكرة التى استخدمناها فى جانب مبكر من هذه الدراسة ؛ ففسانا أن نذكر أن التجلى والانعزالية كليهما — عكس المستقبلية والسلفية على السواء — أسلوبان بالمثل لنقل ميدان الفعل من الكون إلى الإنسان ؛ ولقد تبدى هذا النقل فى الظاهرة الاجتماعية المتصلة بـ « الأثرية » (١) .

فإذا كنا على حق فى الاعتقاد بأن النقل والأثرية مظهران للنمو ، وأن ثمة مظهرا اجتماعيا لكل مثال عن النمو البشرى ، كما أن له مظهرا فرديا ؛ وإذا كنا مقيدين بالافتراض القائل بأن المجتمع الذى يشهد نموه بوجود حركة الانعزالية والتجلى ، لن يكون مجتمعا من الأنواع التى دعوناها بالحضارات — معتبرين أن المجتمع المتحلل من تلك الأنواع بمثابة مدينة الدمار التى تسعى كل حركة فيها إلى الفرار منها — إن حدث هذا ؛ يصبح فى وسعنا أن نستنتج بأن حركتى الانعزال والتجلى قرينتان على نمو مجتمع ، أو مجتمعات ، من نوع آخر ، أو أنواع أخرى .

فهل المفرد أو الثنائى ؛ هو العدد الحزى باستخدامه عند الإشارة إلى

الواسطة الاجتماعية التى تتخذ فيها حركتنا مكانهما ؟

(١) الأثرية : جبل قوام الشئ. أثريا . (المترجم)

قد تكون خير طريقة لفهم هذا السؤال ، توجيه سؤال آخر إلى أنفسنا :

ما هو الفارق بين الانعزالية والتجلى في ناحية النمو الاجتماعى ؟
إن الرد واضح ؛ إذ بينما لا تخرج الانعزالية عن كونها حركة انسحاب بسيطة ، يعتبر التجلى حركة انسحاب مركبة تتبعها حركة عودة .

وتفسر هذه الحركة المركبة في حياة يسوع ، في ارتداده إلى الفلاة قبل تأدية واجبه التبشيري في الجليل ؛ وفي حياة القديس بولص في إقامته ثلاث سنوات في بلاد العرب ، قبل قيامه برحلاته التبشيرية الخطيرة التي حلت العقيدة الجديدة من موطنها المحلى السورى إلى قلب العالم الهلبنى .

ولو كان مؤسس العقيدة المسيحية ورسوله التبشيري قد انصرفا إلى فلسفة الانعزالية ، لظلا قائمين في فلاتيهما بقية عمرهما على الأرض . فإن ما يقيد حدود الفلسفة الانعزالية ، هو فشلها في إدراك أن التيرفانا الخاصة بها ، ليست هى نهاية المطاف لرحلة النفس ، بل إنها مجرد محطة في طريقها . إن نهاية السفر هى مملكة الله ، وتتطلب هذه المملكة الكلية الوجود ، عمل مواطنيها على الأرض في كل زمان ومكان .

وإذا ما استخدمنا هنا الاصطلاحين الصينيين اللذين سبق لنا استعمالهما في مستهل هذه الدراسة ؛ نجد أن تحليل الحضارة « يفرغ » نفسه بوساطة دورة كاملة من الإيقاع المتبادل للين واليانج . ففي خلال الخففة الأولى للإيقاع ؛ تجتاز حركة اليانج المخربة (وتمثل عملية التحلل) طريقا صوب حالة الين (وتمثل عملية الاعتزال) التي تعتبر كذلك طمأنينة ترتبت عن الإعياء . بيد أن دورة الإيقاع لا تُحجز عند نقطة التقاء الحركتين . فإنها تمضى سبلها قُدُما صوب حركة يانج مبدعة (وتمثل هنا حالة التجلى) .

وبعد ؛ فإن هذه الخففة المزدوجة للين واليانج ، هى ذلك الشكل الخاص للحركة العامة للانسحاب والعودة . حركة عثرنا عليها مصادفة قرب

بداية دراستنا للتحلل ، والتي دعوناها وقتذاك بـ « الإنشقاق ورُجعى الميلاد » .

إن المراد حرفياً بالكلمة اليونانية (Palingenesia) هو « رُجعى الميلاد » ويتضمن الاصطلاح عنصراً من الغموض :

فهل نعى به ميلاد شئ مرة ثانية ، سبق له أن ولد من قبل . ومن قبيل المثال استبدال حضارة معطلة لا بأخرى من نفس النوع ؟ هذا ما لا نعينه . ليس هذا هدف « التجلى » . لكنه غاية حركة فى نطاق مجرى الزمن . وليست هذه الحركة هى السلفية ولا المستقبلية وفقاً لهذه الأوضاع التى استخدمناها ، لكنها حركة من نفس الطراز . إن رُجعى الميلاد بهذا المعنى لا بد أنه « عجلة الوجود » التى تُسلم بها الفلسفة البوذية ، وتشد حطما بفضل الانسحاب إلى مرتبة النيرفانا . على أن رُجعى الميلاد لا يمكن أن يعنى بلوغ مرتبة النيرفانا ؛ ذلك لأن العملية التى تُدرك بها حالة السلبية هذه ، لا يمكن تصوُّرها « ميلادا » .

فإذا كان رُجعى الميلاد والحالة هذه ؛ لا يعنى بلوغ مرتبة النيرفانا ، فلعله يعنى بلوغ حالة تسمو على الدنيا ، تنطبق عليها صورة الميلاد بشكل مستنير . ويرد ذلك إلى أن هذه الحالة الأخرى ، هى حالة للحياة إيجابية ، مع فارق أنها حالة ذات سعة روحية أعلى من هذه الحياة الدنيا . ذلك هو رُجعى الميلاد الذى يتكلم عنه يسوع لنيكوديموس :

« ما خلا إنسان يولد ثانية ، لن يمكن لأحد مشاهدة مملكة الرب » .

وينادى به فى موضع آخر باعتباره الهدف الباذخ لميلاده نفسه بشراً
سويا :

« إلى آتى حتى تكون لهم الحياة ، وحتى يحصلوا عليها بوفرة » .

إن مبحث الآلهة ؛ قد سردته الموزيات (١) ذات مرة لهسيود راعي أغنام
 أسكرا ، في اللحظة التي كانت فيها الحضارة الهلينية النامية تندفع صوب مرحلة
 الازدهار ؛ إلا أن هسيود قد وجد ترنيمة المتداولة في مبحث آلهة أخرى كانت
 تترنم بها الملائكة في بيت لحم في لحظة كان فيها المجتمع الهليني يعاني آخر
 أوجاع عصر اضطراباته ، وأخذ يتردى صوب حالة الدولة العالمية ؛ إن
 الميلاد الذي كانت الملائكة تتغنى به ، لم يكن إعادة ميلاد هيلاس ولا ميلاد
 جديد لمجتمعات أخرى من الأنواع الهلينية : إنه كان الميلاد البدني للملك
 مملكة الرب » :

(١) الموزيات Muses : إلهات تسع في أساطير اليونان تتولى حماية الآداب
 والفنون والعلم . (المترجم)

الفصل العشرون

العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

(١) العبقرى المبدع مخلصاً

استرعت مشكلة العلاقة بين الحضارات والأفراد انتباهنا في قسم سابق من هذه الدراسة ؛ وانتهينا من دراستنا إياها إلى النتائج التالية :

أن النظام الذى ندعوه مجتمعاً قوامه ، من ناحية الأساس المشترك ، ميادين الفعل الخاصة لعدد من النفوس الفردية .

ليس المجتمع نفسه ، مصدر الفعل ؛ لكن مصدره الفرد دائماً .

وإن الفعل - الذى هو إبداعى - تنجزه دائماً نفس ، تعتبر ، بمعنى ما ، عبقرية تسمو قدرتها على القدرة البشرية المألوفة .

وتعبّر العبقرية عن نفسها - مثلما تفعل كل نفس حيّة - من خلال تأثيرها على رفاقها .

وأن الشخصيات المبدعة هى دائماً فى أى مجتمع ، أقلية صغيرة .

ويتم فعل العبقرية عرضياً على النفوس التى تشترك فى أصولها مع بعضها بعضاً ؛ من خلال الأسلوب الكامل للتجلى المباشر . لكنه يتم فى الغالب من خلال تطبيق نوع من التدريب الاجتماعى يقوم على حشد ملكة المحاكاة (أو التقليد) فى نفوس جمهرة الناس العاطلة عن الإبداع . فيعاونها - من ثم - « بصفة آلية » على استكمال تطور ، ما كانت لتستكمله يوحى ذاتها .

ولقد بلغنا تلك النتائج فى سياق تحليلنا للارتقاء . وواضح أنها يجب

أن تصدق بصفة عامة بالنسبة لتفاعل الأفراد والجماعات في جميع مراحل تاريخ الجماعة .

فما هو تفصيل الاختلافات التي تُستشف في هذه التفاعلات ؛ أى وقتما يكابد المجتمع الذى نبعث أمره ، مرحلة انهياره ، ويسلك طريق تحلله ؟ إن الأقلية المبدعة - التى منها ينبعث الأفراد المبدعون إبان مرحلة الارتقاء - قد انتهت أمر إبداعها وانحط شأنها ، فباتت مجرد أقلية مسيطرة . لكن انقسام الروليتياريا - وهو المظهر الجوهرى للانحلال - يستكمل عناصره تحت قيادة الشخصيات المبدعة التى يقتصر مجال نشاطها على تنظيم مناهضة كابوس « الطاقات الغير المبدعة التى تنبعث إبان الانحلال » .

وبالأحرى ؛ لا يصحب التغير من الارتقاء إلى الانحلال ، زوال قبس الإبداع . إذ يستمر ظهور الشخصيات المبدعة ، وتتواصل زعامتها بفضل طاقتها الإبداعية . على أنها تجد نفسها مكرهة على تقلد وظيفتها القديمة في ظل انحلال المجتمع . إذ يُستدعى المبدع في الحضارة النامية ليؤدى دور فاتح يجيب على التحدى باستجابة منتصرة ؛ ويُستدعى في الحضارة المتحللة ليؤدى دور مخلص يقد لاننشال مجتمع أخفق في الاستجابة ، لأن التحدى قد قهر أقلية توقفت عن مواصلة تأدية دورها الإبداعى .

ويتألف مثل هؤلاء المخلصين من أنماط تختلف وفقاً لطبيعة العلاج الذى ينشدون استخدامه في علاج المرض الاجتماعى . فثمة مخلصون يرتجيم مجتمع متحلل ، لا يملكهم اليأس من الحاضر ، فيكرسون جهودهم لتحقيق أمل ضائع ، آمليّن إحالة الانكسار إلى ارتقاء جديد . وينبعث هؤلاء المخلصون المرتجيمون ، من الأقلية المسيطرة . ولهم خاصية يشتركون فيها جميعاً ؛ مدارها إخفاقهم في عملية الخلاص في نهاية المطاف .

بيد أنه ينبعث كذلك من بين ثنايا المجتمع المتحلل ؛ مخلصون مرتجيمون ينشدون الخلاص وفقاً لطريقة من طرائق النجاة المتعاقبة التى سبق

لنا استطلاعها : لكن يفضل أن المخلصون ممن ينتسبون إلى هذه المدارس الأربع الأخرى ، استبعاد محاولة انتشارال الوضع الحاضر . فيعمدون إلى سلوك الوسائل التالية :

- ١ - يسعى المخلص ذو النزعة السلفية^(١) إلى محاولة إعادة تشييد ماضى تصورى .
- ٢ - يحاول المخلص ذو النزعة المستقبلية^(٢) أن يطفرف إلى مستقبل تخيلى .
- ٣ - يقدم المخلص الذى يوجه الأذهان إلى نزعة الاعتزال ، نفسه فيلسوفاً يستتر وراء قناع ملك .
- ٤ - يتبدى المخلص الذى يوجه الأذهان إلى أسلوب التشكىل ، إلهاً يتجسد فى إنسان .

(٢) المخلص المتقلد حساماً

إن المخلص المرتجى لمجتمع متحلل ؛ هو بالضرورة مخلص متقلد سيفاً ؛ بيد أن السيف قد يكون ممتشقاً أو مغمداً ؛ وربما يناضل وسلاحه مجرداً ؛ أو يقبع وسلاحه فى غمده بعيداً عن الأنظار ، مثل المنتصر الذى « ألقى بجميع أعدائه تحت قدميه » .

إن المخلص قد يكون على غرار هراكليس أو زيوس ؛ مثل داود أو سليمان . وعلى الرغم من أن داود أو هراكليس لم يكن ليركن للراحة من أعماله قط ، وكان دأبه الموت وهو فى عدة قتاله ، يحتمل أن يكون شخصية طابعها الخيال وأشد جنوحاً إليه من شخصية سليمان فى بهائها كله ، أو زيوس فى عظمتها جميعها . فإن أفاعيل هيراكليس وحروب

(١) السلفية كما ذكرنا فى موضع سابق ، هى النزوع إلى الماضى والانتفاء إلى استعادته .
(المترجم)

(٢) النزعة المستقبلية ، هى الرجاء فى مستقبل تتحقق فيه الهناء والمدالة .
(المترجم)

داود ؛ تصبح ضرباً من الكد لا طائل فيها ، إن لم تكن دمانة زيوس ورخاء سليمان ، هما أهدافهما . ذلك لأن الحسام لا يمتشق إلا تحقيقاً لغاية نافعة ، لن يصبح للحسام بعدها نفع .

يبد أن هذا الأمل ، سراب : فإن « جميع أولئك يتخذون السيف ، بالسيف يفنون » .

وما نادى به مخلص ليست مملكته في هذه الدنيا ؛ أقره آسفاً سياسى يعتبر من أكثر ساسة الغربيين في القرن التاسع عشر واقعية ، فلقد تجلّى في تعاليقه على عبارة المخلص^(١) بعبارة تترجم الإنجيل باصطلاح عصره ومكانه في قوله : « إن الشيء الوحيد الذى لا يمكنك فعله بالخراب ، أن تجلس على أسننها » . إن الإنسان العنيف لن يستطيع بصفة أصلية أن يندم على عنفه ، وأن يستفيد على السواء من وراء نزعته هذه ، على الدوام .

ويتمثل المخلصون التقليديون المتقلدون حساماً ، في القادة والأمراء الذين طفقوا يكافحون في سبيل العثور على دولة عالمية أو نجحوا في إعادة تشييدها : وعلى الرغم من أن الانتقال من عصر اضطرابات إلى دولة عالمية ، يعتبر نجدة عاجلة تبلغ من القوة بحيث يُتخذ في العالم من المشيدين الناجحين لمثل هذه الدول أرباباً يُعبدون ؛ فإن الدولة العالمية هي في أحسن حالاتها شيء فان . فإن حدث أن تثبتت دولة عالمية — بفضل عمل فاره — بأن تجاوز فترة حياتها الطبيعية ، يغدو عايتها أن تدفع تحللها ثمن بقائها المصطنع ، ويتخذ هذا التحلل شكل أعمال اجتماعية انحرافية ، لها من التأثير المهلك ، مثل تأثير أى من عصور الاضطرابات التي تتقدمها في الحدوث ، أو مراحل الهجرات التي تتلو تحطمها .

(١) أى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

ويبدو أن مناهج الحقيقة ، أن السيف الذى انغمس فى الدم ، لن يحال بينه دوماً وبين العودة إليه . مثلاً لا تمكن الحيلولة بين النمر الذى تذوق طعم اللحم الآدى وبين صبرورته آكل لإنسان . ولا شبهة فى أن الموت هو مصير النمر آكل الإنسان ؛ فإن تفادى الرصاصة ، يموت بالجرب . على أن النمر - بفرض تنبؤة بمصيره - لا يتمكن من كبح جماح شهيته المفترسة .

وهذا هو الحال بالنسبة للمجتمع الذى نشد ذات مرة الخلاص باستخدام السيف :

إذ يندم زعماءه على فعلهم الدموى ، بما يظهرونه من رحمة تجاه أعدائهم ، على غرار ما فعله قيصر . أو يسرّحون جيوشهم مثلاً تصرف أغسطس . فإذا أخفوا السيف أسفين ، فقد يبيتون النية عن عقيدة صادقة ؛ على الامتناع التام عن امتشاقه مرة أخرى ، إلا فى سبيل نفع مؤكّد . وهم يُحلتون بذلك أعمالهم الحربية بالقول بأن المحافظة على السلام ضد المجرمين الذين ما برحوا كثيرين فى نطاق حدود بلادهم ، أو ضد البرابرة الذين ما انفكوا يلجون فى ظلمتهم الخارجية . بيد أنه على الرغم مما قد يبدو من ثبات فكرتهم عن السلام العالمى وجمال مظهرها - باستنادها طوال مائة أو سائى عام على أسس كالحة قوامها انصال السيوف المغمدة - فإن الزمن سيحيل عملهم إلى عدم ، عاجلاً أو آجلاً .

فهل فى استطاعة حاكم دولة عالمية يشبه زيوس ، أن يوفق فى كبح جماح تلك النزوة العارمة التى تدفعه صوب تحقيق مزيد ثم مزيد من الفتوحات ، فتوحات مثل التى تسببت فى القضاء على قورش ؟

فإن عجز عن مقاومة الإغراء بتحطيم المتكبرين ، فهل فى مكنته

أن يلتزم بالسير على النهج الذى اختطه فرجيل ليحمى الضعفاء^(١) .

إننا إذ نطبق هذين الاختيارين على الأفعال التى ينجزها الحاكم ، سنجد أنه قلما يوفق طويلا فى الاستمسك بنياته الطيبة .

فإذا ما اخترنا أن نبحث فى بداية الأمر مسألة الصراع بين النزعتين السياسيتين التعاقبيتين — أى التوسع من جانب وعدم الاعتداء من جانب آخر — فى علاقات إحدى الدول العالمية بشعوب تقع خارج نطاق حدودها ؛ يطالعنا المثال الصينى . ذلك لأنه لا يوجد مثال أوضح مما فعله تسين شى هوانج ، من بناء السد العظيم على طول حدود السهب الأوراسى للدلالة على التصميم على إغمد السيف . بيد أن نيته الطيبة القائمة على البعد عن استفزاز عش الزنابير الأوراسى ، قد دمرتها — قبل انقضاء مائة عام على وفاته — سياسة « التقدم نحو الأمام » التى اعتنقها ورتى Writi من أسرة هان .

ونجد فى تاريخ الدولة العالمية الهيلينية ، أن سياسة الاعتدال التى وضعها أغسطس ؛ قد أنت عليها محاولة الإمبراطور تراجان غزو الإمبراطورية البارثية^(٢) . ولقد تطلب تقدم الرومانيين الموقت من الفراتين إلى مشارف جبال زاغروس ورأس الخليج الفارسى ، ثمنا قوامه فرض ضغط لا يطاق على الموارد الرومانية ، الأمر الذى اقتضى من هادريان بذل كافة حكيمته وكفائته لتصفية التركة المثقلة التى أورثه إياها سيف تراجان . فإن هادريان قد بادر

(١) نهج فرجيل عبارة عن كلمات أربع تتكون منها الشعار الذى وضعه فرجيل بروما وتسمى حطم المتكبرين وحماية الضعفاء . (المترجم)

(٢) بارثيا Parthia : هو الاسم القديم لقطر يقع جنوب شرق بحر قزوين ويمادل الآن القسم الشمالى من مقاطعة خراسان الإيرانية . (المترجم)

إلى الجلاء عن جميع فتوحات سلفه . على أنه كان في قدرته أن يستعيد الوضع الذي كان قائماً بالنسبة للمساحة ؛ لا بالنسبة للسياسة .

وفي الإمبراطورية العثمانية ؛ تعمّد محمد الفاتح (١٤٥١ - ٨١ ميلادية) أن يجعل نهاية أطاحه إقامة إمبراطورية عثمانية لا تتجاوز حدودها النطاق التاريخي للمسيحية الأرثوذكسية - خلا روسيا - وقاوم كافة المغريات للاعتداء على أملاك المسيحية الغربية وإيران . لكن خلفه سليم القاسى (باوز) (١٥١٢ - ٢٠)^(١) ، حطم سياسة محمد الفاتح المنكّرة للذات . كما ارتكب سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٦)^(٢) خليفة سليم ، خطأ أبعد من ذلك في خطورته ، بحطمه في أوروبا نفس السّنة المنكّرة للذات . ونتيجة لذلك ؛ أخذت الدولة العظيمة تبلى بفعل شحذ أسلحتها باستمرار للحرب على جبهتين ضد خصوم ، طفق العثمانيون يهزمونهم في الميدان المرة بعد الأخرى ، لكنهم لم يستطيعوا شل حركتهم قط . ولقد تغلغل هذا التشبث بتلك السياسة تغلغلا عميقا في سياسة الباب العالي ، إلى درجة أنه لم يترتب على الانهيار الذي أعقب موت سليمان ، العودة إلى نزعة الاعتدال التي اعتنقها محمد الفاتح . فإنه ما إن أستطاع الوزراء من آل كوبريللى تجميع قوى الإمبراطورية العثمانية المبددة ، حتى أسرف في تبذيرها ، قره مصطفى في حرب عدوان جديدة ضد الفرنجة قصد بها نقل الحدود العثمانية إلى الراين . وعلى الرغم من أن قره مصطفى ، لم يحظ أبدا بروية هذا الهدف ، إلا أنه نافس سليمان في عمله الفذ المتصل بفرض الحصار على فيينا . بيد أن المدرعة الدانوبية^(٣) للمسيحية الغربية دللت في ١٦٨٢ / ٣ مثلما تبدّت عام ١٥٢٩ ، على أن الحراب العثمانية لا تقوى على اختراقها . ولم يفلت

(١) سليم الأول الذي غزا مصر وسوريا عام ١٥١٧ . (المترجم)

(٢) السلطان سليمان القانونى . (المترجم)

(٣) المدرعة الدانوبية : أى دولة آل هابسبرج . (المترجم)

العثمانيون محاصرو فينا هذه المرة من القصاص . ذلك لأن الحصار العثماني الثاني قد استثار هجمة مضادة ، استمرت من غير أن يصدّها حائل جدّي ؛ من عام ١٦٨٣ حتى عام ١٩٢٢ . وقد تم في خلال هذه الفترة ، تجريد العثمانيين من إمبراطوريتهم بأسرها ، وانحصروا مرة أخرى في موطنهم في الأناضول . إن قره مصطفى - كسليمان من قبله - بمخاطرته باستثارة عش الزناير في أوروبا الغربية ، قد ارتكب خطأ خليفة داريوس (اجزر كسيس) التقليدي ، وقمنا شن حرب العداوية ضد الأرض اليونانية في القارة الأوروبية . فإنه قد استثار بذلك العمل ، الهجوم الهليني المضاد الذي ، سرعان ما انتزع من الإمبراطورية الأخمينية ، الحد اليوناني من أملاكها في آسيا ، والذي قاد في خاتمة المطاف إلى تحطيم الإمبراطورية ذاتها ؛ وقمنا استكمل الإسكندر المقدوني العمل الذي بدأه من قبل تيموستوكليس الأثيني .

ولقد أنجب تاريخ العالم الهندي نظيرا لاجزر كسيس في شخص أورنجزيب (١٦٥٩ - ١٧٠٧) الذي كانت جهوده لفرض سلطانه على بلاد المهراتا بقوة السلاح ، سببا في استثارة هجوم المهراتا المضاد الذي عمل في نهاية الأمر على حطم سلطان خلفاء أورنجزيب في أقاليمهم الأصلية في سهول هندستان .

وصفوة القول :

يتبين لنا من استقراء الأمثلة السالفة الذكر في أولى مجموعتنا ؛ أن حكام الدول العالمية النزاعين إلى امتشاق الحسام ، لا يبدون في هذا الشأن ما يلفت النظر كثيرا . فإذا ما انتقلنا من تجربة الامتناع عن الاعتداء على الشعب الواقع فيما وراء الحد ، إلى تجربتنا الثانية المتصلة بالتسامح مع الشعب داخل الحد ؛ سنجد مثل هؤلاء الحكام يوفقون بالكاد في هذا الاختبار الثاني .

فإن الحكومة الإمبراطورية الرومانية ، كانت قد أعملت فكرها - مثلا - للتسامح مع اليهودية ، وانتهت إلى هذا القرار بفعل الاستفزازات اليهودية

المتكررة . بيد أن برفق الحكومة الرومانية في المعاملة لم يقرن بعمل معنوى فذ أشد صعوبة ؛ يقوم على تعميم هذا التسامح إلى البدعة الدينية التي انبثقت عن اليهودية^(١) والتي رسمت لنفسها خطة تحويل العالم الهليني إلى عقيدتها . ولقد ضاقت الحكومة الإمبراطورية ذرعا بذلك العنصر في المسيحية الذى يدفع المسيحيين إلى الامتناع عن تقبل ادعاء الحكومة بأنها صاحبة الأمر على ضماير رعاياها . فكان أن نازع المسيحيون حق السيف ؛ فانتصرت في النهاية روح الاستشهاد المسيحية على سيف الحاكم الرومانى ، مما حمل ترتوليان^(٢) على التباهى متحديا تحدى المنتصر بقوله بأن الدم المسيحى كان البذرة المسيحية .

وآلت الحكومة الأخمينية على نفسها — مثل الرومانية — بأن تحكم على أساس رضا المحكومين . بيد أنها لم تنجح — مثلما نجح الحكومة الرومانية جزئيا — فى التزام هذه السياسة . فإذا كانت قد وفقت فى الفوز بولاء الفينيقيين واليهود ، إلا أنها أخفقت على طول المدى فى استمالة المصريين والبابليين على السواء .

ولم يكن حظ العثمانيين فى استمالة رعاياهم بأسعد من ذلك ، على الرغم من منحهم إياهم استقلالاً ذاتياً واسع النطاق فى شئونهم الثقافية بل المدنية على نحو ما يتبين فى منحهم النظام « الملى » . ذلك لأن التطبيق العملى ، قد شوه روح السباحة النظرية السائدة فى النظام . فانبثق على هذا ؛ إظهار الرعاية العثمانية عدم ولائها للإمبراطورية فى صورة خطيرة ، وقتما

(١) أى العقيدة المسيحية التى كان روادها الأوائل من اليهود والتي استمدت عناصرها الأولى من اليهودية قبل تأثيرها الشديد بالعناصر الهلينية . (المترجم)

(٢) ترتوليان Tertullianus : (١٦٠ - ٢٣٠) أحد علماء اللاهوت المسيحى الأوائل ولد على الأرجح فى قرطاجنة . وعمل محاميا فحقق لنفسه شيئا من الشهرة . ثم اعتنق المسيحية عام ١٩٠ ميلادية ، واستخدم مواهبه الكتابية والمخطابية فى الدفاع عنها . (المترجم)

سنحت لها فرصة الخيانة حينما ألت بها سلسلة الانكسارات المعروفة . الأمر الذى جعل خلفاء السلطان سليم القاسى ، يندمون على نزول هذا الرجل الحازم على إرادة الصبدر الأعظم وشيخ الإسلام ، اللذين بينه وبين تنفيذ مشروع يقضى باستئصال الأغلبية المسيحية الأرثوذكسية من رعايا الدولة العثمانية - إن كانت الرواية صادقة - مثلاً استأصل الأقلية الشيعية الإمامية .

ونجد أورنجزيب فى تاريخ الإمبراطورية المغولية فى الهند ، ينأى كذلك عن سياسة التسامح تجاه الهندوسية التى أورثها « أكبر » إلى خلفائه باعتبارها أهم أركان إمبراطوريتهم . ولقد عوقب هذا التغير فى السياسة ، بانهيار الإمبراطورية سريعاً .

ولعل هذه الأمثلة ، تكفى لإعادة تعزيز النتيجة القائلة بأن المخلص الممتشق حساماً ، يفشل فى عملية الخلاص .

(٣) المخلص صاحب آلة الزمن

آلة الزمن ؛ عنوان إحدى القصص الخيالية - الشبيهة بالعلمية - التى ألفها المستر ج . هـ . ولز فى مطلع عهده . وكان تصوّر الزمن بعداً رابعاً ، قد أصبح مألوفاً بالفعل وقتئذ .

ومدار قصة ولز الخيالية أن بطلها يخترع نوعاً من الأوتوموبيل - وكان العالم حديث العهد بها كذلك - فى مكتبته السفر بها ذهاباً وجيئة عبر الزمن الذى أخضعه لمشيئته . ويستخدم اختراعه للقيام بزيارات متتالية إلى مراحل بعيدة من تاريخ العالم ، يعود منها جميعها - عدا الرحلة الأخيرة - سائماً ليروى قصة سفره .

وتعتبر قصة ويلز الخيالية هذه ؛ رمزاً للعمل التاريخى الفريد لهؤلاء المخلصين من ذوى النزعة السلفية والمستقبلية الذين يحسبون حالة مجتمعاتهم الحاضرة .

والمتوقعة غير قابلة للإصلاح : وينشُدون الخلاص في ماضٍ يعدونه مثالياً . أو العكس ، المجازفة صوب مستقبل يجعلون منه شيئاً مثالياً : ولن نحتاج إلى البقاء طويلاً عند هذا المشهد ؛ ذلك لأننا بيّنا فعلاً تفاهة نزعتي السلفية والمستقبلية على السواء ، وعرضنا لمنحاهما الهدام .

وبكلمة جامعة ؛ لو اعتبرت آلات الزمن هذه (إن تصورناها بمعنى أكثر دقة من المعنى المألوف) ؛ حافلات^(١) لا أوتومبيلات يستخدمها الأفراد المنزليون — وفقاً لللدول السير ولز — في ارتياد المجتمعات بأسرها ، فإن هذه السيارات تقصر عن العمل بالتأكيد . ويحرّض قصورها المخلص المرتجى على طرح آلهة الزمنية جانباً ، والاقبال على امتشاق الحسام . ومن ثم يقضى على نفسه بالإفساد الذي يترصد المخلص الساخر « ذى السيف » الذى سبق لنا بحث حالته .

وهذا التحوّل المفجع من النزعة المثالية إلى الاتجاه صوب العنف ، يدهم المخلص ذا النزعة السلفية ، والمخلص ذا النزعة المستقبلية على السواء .

ففي العالم المسيحى إبان القرن الثامن عشر الميلادى أوجز روسو جوهر مبدأ السلفية ، فى عبارة وردت بافتتاحية مؤلفه (العقد الاجتماعى) « يولد الإنسان حراً ، لكنه يوجد مقيداً فى كل مكان » . ومن ثم يثير العجب أن يكون أشهر مريدى روسو هو روبسبير المعروف بأنه المسئول الرئيسى عن « الإرهاب الفرنسى » الذى اتخذ سبيله أثناء فترة ١٧٩٣ - ٩٤ . كذلك فإن مسئولية الإرهاب النازى المعاصر لا يمكن أن يُلقى فحسب على تلك التخرّصات التخيلية المسالمة التى دأبت طوال القرن التاسع عشر أن تجعل من العنصر النوردى الوثنى ، شيئاً مثالياً ؛

ولقد سبقنا لنا مشاهدة كيف أن المفسّر المسالم لحركة تنجّه إلى السلفية ،

(١) الحافلات : ترجمة كلمة Omnibuses . (المترجم)

قد يحيق الهزيمة بمقاصدها ذاتها ؛ بتهيئته الطريق لخليفة ينزع إلى العنف والعدوان — على غرار النذير الذى بيّنه تيرىوس جراكشوس لأخيه جايوس :
وبهذا الأسلوب يدخل العالم فى جيل من الثورات .

ولقد يتوقع أن يكون الاختلاف بين نزعتى السلفية والمستقبلية ، واضحاً ووضوح الاختلاف بين أمس والغد . بيد أنه كثيراً ما يصحب تحديد الفئة التى يجب أن توضع فيها حركة معينة أو مخلص معين ؛ مادام من خصائص نزعة السلفية إحاقاة الهزيمة بذاتها عند تردّيها فى غمار النزعة المقابلة لها ، أى « المستقبلية » ؛ ويتم ذلك تحت تأثير وهم متابعتها غلبة الماضى على التاريخ . وطبعى أن لا يكون هناك مثل هذا الشيء بسبب حقيقة مدارها أنك لو تقدمت ، فإن عودتك ستجعل من المكان الذى عدت إليه مكاناً مختلفاً ، مع فرض استطاعتك العودة .

وبالأحرى ؛ يقذف مريدو روسو ، بثورتهم من حائق بسبب جعلهم دولة الطبيعة « شيئاً مثالياً » ، وإعجابهم بـ « الوحش النبيل » فضلاً عن رثائهم للفنون والعلوم . بيد أن الثورين ذوى النزعة المستقبلية مثل كوندورسيت^(١) — الذى استمد إلهامه من عقيدة « الارتقاء » — كانوا بلا شك أوضح مبعداً .

والواقع ، ستسفر دائماً نتيجة حركة المخلص المرتجى ذى النزعة السلفية ،

(١) كوندورسيت Condorcet (١٧٤٣ - ٩٤) : فيلسوف وعالم رياضى وكاتب فرنسى . اشتهر بمؤلفاته الرياضية ، مما جعله عضواً بأكاديمية العلوم الفرنسية . ولما نشبت الثورة الفرنسية ، انضم إلى جانب الشعب (رغم أن أصله الميرق) ، فانتخبه الشعب عضواً بالجمعية التشريعية . وفى عام ١٧٩٢ انتخب رئيساً لها ، لكن سرعان ما أنهار حزب الجبروتيين الذى كان ينتمى إليه ، فحاول الفرار فقبض عليه وأودع السجن تمهيداً لمحاكمته . لكنه انتحر . ومن أشهر مؤلفاته الأخيرة (التى نشرت بعد وفاته) كتابه عن تطور ارتقاء الإنسانية وطريق هذا التطور ، الذى دافع فيه عن حريات الفرد ونادى بالمساواة التامة بين الجنسين وبين عناصر المجتمع ، واعتبرت تلك المساواة من أسباب ارتقاء المجتمع . (المترجم)

عن تنازل جديد عن خطته . ويعتبر العنصر السلفى فى جميع هذه الحركات ، مجرد مادة سكرية تمكن الإنسان من ابتلاع الحبّة المرّة . ذلك لأنّها فى حقيقة أمرها نزعة مستقبلية ؛ سواء فرضها — عن سذاجة — مفكرون متفائلون ، أو وضعها — عن دهاء — قوم برعو فى شئون الدعاية . على أنّ الحبّة المرّة تصبح — على أية حال — أكثر استساغة إن توافرت لها المادة السكرية . ذلك لأن المستقبل المجرد يبرر خشية المجهول بأسره ، فى حين يتأتى تمثيل الماضى بدار مريحة انتهى أمرها منذ زمن بعيد ، شرّد منها المجتمع المتحلل إلى تيه الحاضر .

ومصادقا لذلك ؛ برز خلال فترة ما بين الحربين ، المنافحون فى بريطانيا عن نوع من الاشتراكية ، معتنقين نزعة سلفية ، جاعلين من أنظمة القرون الوسطى أملا منشودا . وقدموا برنامجهم تحت عنوان « الاشتراكية النقاية » ، ذاكرين أن الأمر يقتضى اتباع نظام شبيه بنظام الطوائف الحرفية فى القرون الوسطى . بيد أنه لو فرض تطبيق البرنامج لأدهشت النتائج التى يسفر عنها — بكل تأكيد — أية رحالة يمتطى آلة الزمن من أبناء مسيحية القرن الثالث عشر الغربية .

يتضح مما تقدم أن المخلصين ذوى النزعة السلفية — المستقبلية ؛ يفسلون فشلا مطبقا مثلما يفسل « المخلصون أصحاب السيوف » فى تحقيق « الأعمال الحميدة » . إذ ليس ثمة خلاص كامن فى النظم الخيالية الثورية الدنيوية ، كما لا يتحقق الخلاص فى الدول العالمية .

(٤) الفيلسوف تحت قناع ملك

حدث إبان الجيل الأول لعصر الاضطرابات الهلنّية ، أن عرض أعظم المفكرين الهلنّيين وأسبقهم فى فن الانعزال ، وسيلة للخلاص ، لا تتوسل بمساعدة « آلة الزمن » أو « السيف » ؛ منهاها :

« ليس ثمة أمل لإزالة الشرور من دول هيلاس — وفى اعتقادى من

البشرية — إلا بإقامة اتحاد شخصي بين السلطة السياسية والفلسفية ، واستخدام القوة لشلّ حركة تلك الطبائع العامية التي تنبع سييلا من السيلين لتنبذ السبيل الآخر — وقد يتأتى تحقيق الاتحاد بأى من طريقتين : إما أن يغدو الفلاسفة ملوكا في دولنا ، أو أن يؤخذ إلى الفلسفة ، أولئك الناس الذين يطلق عليهم الآن لقب ملوك ، هم والمرشحون للملكية ^(١) .

وإن أفلاطون باقتراحه هذا العلاج ، إنما يجهد لتجريد الإنسان من حريته الفكرية في الانتقاد ، بالحيلولة بينه وبين ممارسة هذه الحرية . وإنه ليقدم اقتراحه في صورة طابعها التناقض تثير — على الأرجح — سخرية البعيد عن الفلسفة . على أنه إذا كانت وصفة أفلاطون ثقيلة الوقع على العوام ^(٢) — سواء أكانوا ملوكا أو أفرادا عاديين من الشعب — فإنها أثقل على الفلاسفة وقعا .

أليس تحقيق الانعزال عن الحياة ، هو غاية الغايات عند الفلاسفة ؟ أليست متابعة كل من الانعزال الفردى والخلاص الاجتماعى ، شيئا يتناقض مع خاصية التفرد الاجتماعى التي تتم بتبادل الإحساس ؟ كيف يستطيع أن يكرّس فرد نفسه لإنقاذ مدينة « الدمار » ^(٣) التي يجهد هو نفسه — بحق — لتحرير ذاتها منها ؟

وظاهر أن تجسّد تضحية المسيح الذاتية — عن طريق الدملب — تعتبر لدى الفيلسوف والحالة هذه ، تجسيدا لصفة الحماقة . بيد أن قليذين من الفلاسفة كانت لديهم الشجاعة للجهر بهذا الاقتناع ، وكانت لدى عدد أقل من ذلك ، الشجاعة للعمل به . ذلك لأن على الأريب في فن الانعزال ، أن يبدأ إنسانا مثقلا بالمشاعر البشرية الشائعة . فإنه لن يمكنه إغفال ما يعانيه حار من كرب يقدر قلبه نفسه مداه ، أو يدعى بأن طريقا للخلاص تسيّره — ثم ته — يكون نافعا لجاره بالمثل ؛ لو فرض اطلاعه عليه .

(١) صفحة ٣٧٢ من الجمهورية لأفلاطون . (المترجم)

(٢) وهم هنا البعيدون عن محيط الفلسفة . (المترجم)

(٣) أى الدنيا القانية . (المترجم)

فهل لفيلسوفنا إذاً أن يقيّد حريته في العمل بإسداء يد المعونة إلى جاره ؟

في هذا المأزق الأخلاقي ، من العبث اللجوء إلى المذهب السندي القائل بأن الشفقة والحب رذيلتان ؛ أو الركون إلى المذهب الأفلوطني^(١) القائل بأن « الفعل شكل واهن للتأمل » ؛ كما أنه لن يكون راضياً عن الوقوف موقف المدان بالتقلب الثقافي والخلقي . وهذا ما اتهم به بلوتارخ الآباء الرواقين ، باقتباسه نصوصاً يدين فيها كريسيبوس بالعيش في فراغ أكاديمي ، إلا أنه في عبارة أخرى في نفس الرسالة يوصي بهذا الضرب من الحياة^(٢) :

ولقد حكم أفلاطون ذاته بأن أولئك الذين برعوا في فن الانعزال ، يجب أن لا يسمح لهم بعد ذلك دواماً بأشعة الشمس التي ناضل آخرون في سبيل الوصول إليها ؛ ونعى على فلاسفته — بقلب كبير — التردّي مرة أخرى في « الكهف » لرغبتهم في معاونة رفاقهم السيئ الحظ الذين ما انفكوا جالسين مقيدين بأحكام البؤس والسلاسل .
وإنه لما بيعت على التأثير أن نجد أبيقور يتبع مدعنا تعاليم أفلاطون .

إن الفيلسوف الهليني الذي ارتسم مثاله الأعلى في حالة وقارهادي ، كان على ما يظهر ، الفرد — بل الفرد العادي الوحيد — الذي اكتسب لقب « المخلص » قبل ظهور مسيح الناصرة ؛ ذلك لأن هذا الشرف كان حكراً على الأمراء ، وعلى من يقومون بخدمات سياسية وحرية .

وتعتبر تفرقة أبيقور المدعومة المثال ؛ نتيجة عرضية لثلية الفيلسوف الهادي المرح ، نداء للقلب لا يمكن صدّه ؛ وإن حرارة الامتنان والإعجاب اللذين مجدّ بهما شعر لوكريتيوس عمل أبيقور المتصل بموضوع الخلاص ،

(١) الأفلاطون : نسبة إلى أفلوطين . (المترجم)

(٢) Phutarch : De Stoicorum Repugnatis, Ch. 2 and 20

يجعل من الواضح أن اللقب لم يكن في هذه الحالة مظهراً فارغاً ، لكنه تعبير عن شعور عميق يتسم بالحياة : شعور لا بد قد انتقل إلى الشاعر اللاتيني عبر سلسلة من التقاليد انحدرت من معاصري أبيقور الذين قدسوه وعرفوه معرفة شخصية .

ويكشف تاريخ أبيقور المتسم بالتناقض ، عن فظاعة العبء الذي بات على الفلاسفة حمله على أكتافهم : فهم إن اتجهوا إلى تنفيذ ما أشار به أفلاطون ، لأصبح عليهم سلوك أحد سيئين : إما صيرورتهم أنفسهم ملوكاً ، وإما إحالة الملوك إلى فلاسفة .

ولا نستغرب إذ يؤثر الفلاسفة سلوك الطريق الثاني لما تبين من سحر فتنته لكل فيلسوف يحمل بين جنبيه ضميراً اجتماعياً ؛ ابتداء من أفلاطون نفسه . وهذا ما دعا أفلاطون ثلاث مرات في حياته ، أن يبتذله عزله مختاراً - وإن كان على مضض - ليعبر البحر إلى سيراكوز بغية حل طاغية من طغاة صقلية على اعتناق فكرة فيلسوف أثيني عن واجبات حاكم الدولة . ولقد ألقت النتائج - وهذا ما يجب أن نسلم به آسفين - فصلاً تافهاً في التاريخ الهليني : فإن ثمة ضرباً من الحكام انهمكوا خلال وقت فراغهم - في صورة جدية في الكثير أو القليل - باستشارة الفلاسفة ، يطالعا منها الأمثلة الأكثر شيوعاً عند طالب التاريخ الغربي « أولئك الأمراء المطلعون » المستنيرين في القرن الثامن عشر ، الذين دأبوا على تسليية أنفسهم بصحبة الفلاسفة من فولتير فأقل . فأحياناً يدللونهم وأحياناً يتشاجرون معهم . بيد أنه يصعب علينا العثور في فردريك الثاني ملك بروسيا أو في كاترين الثانية ملكة روسيا على « مخلص » يبعث في النفس الرضا :

وثمة كذلك حالات من الحكام الأفذاذ الذين حصلوا على قسط من الفلسفة الأصيلة من أساتذة قضوا نحبهم قبلهم بأجيال ؛ ومن قبيل ذلك : نسبة ماركوس أوريليوس الفضل إلى مربييه ؛ روستيكوس وسكستوس .

بيد أنه لا يمكن الشك في أن دور هؤلاء المعلمين المجهولين نوعاً ما ، لم يتعد « الحامل » في فلسفة الماضي الرواقية الكبرى ، وبخاصة فلسفة بانايديوس الذى عاش في القرن الثانى قبل الميلاد ، وقبل ظهور ماركوس بثلاثمئة سنة . كما كان الإمبراطور السندى آسوكا مريداً للبوذا الذى كان قد توفى قبل توليه العرش بمائتى سنة .

ولعل وضع العالم السندى تحت حكم آسوكا ، والعالم الهلبنى تحت حكم ماركوس ؛ يضم بين طياته مناظرة أفلاطون القائلة بأن « الحياة الاجتماعية تصبح أسعد وأعظم توافقاً ، وقتما يزهد فى الحكم أولئك الذين يقتضى الأمر أن يحكموا » . بيد أن ما حققوه يفنى بفنائهم . فإن ماركوس نفسه قد قضى تماماً على اتجاهاته الفلسفية ؛ باختياره خليفة له ابن صلبه ، عوضاً عن الاختيار بالانتخاب الذى وضع دستوره أسلاف ماركوس واتبعوه بأمانة ؛ بنجاح لم يحب طوال قرن من الزمن تقريباً . أما بالنسبة لقداسة آسوكا الشخصية ، فإنها لم تُنتج الإمبراطورية المورية إبان الجيل التالى ، من التداعى أمام ضربة بوشيا ميترا Pushyamitra .

وبالأحرى ؛ يعجز الملك الفيلسوف عن إنقاذ رفاقه من حكام المجتمع المتحلل . وإذا كانت الوقائع تُعلن عن نفسها ، إلا أنه ما يزال علينا أن نبحث فيما كانت تتيح لنفسها تفسيراً . فإذا ما تطلعنا إلى أبعد من ذلك قليلاً ؛ سنجد أنها توفق فى ذلك حقاً .

فإن التفسير يكمن بالفعل فى العبارة الواردة فى « الجمهورية » التى يعرض فيها أفلاطون شخصية الأمير الذى ولد فيلسوفاً . فإنه بعد ما دفع إلى الأمام بقضيته القائمة على أنه إبان وقت من الأوقات وفى مكان ما ، سيعيش — على أية حال — مثل هذا الفيلسوف فى المجال السياسى ؛ طفر أفلاطون إلى النتيجة القائلة بأن « فرداً واحداً على غرار هذا الحاكم ،

قين - أن اعتمد على موافقة المحكومين - بأن ينفذ على الوجه الأكمل برنامجاً يبدو تنفيذه متعذراً في ظل تلك الظروف القائمة .

ويعضى من يدبر دفة النقاش^(١) في شرح أسس تفائله قائلاً :

« لنفترض أن حاكماً وقع عليه أمر سن شرائعنا المثالية وتقديم اتفاقيتنا الاجتماعية المثالية ؛ لن يكون رضا رعاياه بالتصرف وفقاً لرغبات الحاكم ، أمراً بعيداً عن التحقيق »^(٢) .

وظاهر أن هذه المقترحات الأخيرة ضرورية لنجاح خطة أفلاطون . بيد أنه مما لا يقل عن ذلك وضوحاً ، استنادها على تكرس ملكة المحاكاة . ولقد سبق لنا ملاحظة أن اللجوء إلى نوع من التدريب الاجتماعي ، يقود تَوَّأً إلى إحاقة الدمار بمن يسلكونه ، عوضاً عن تعجيله رحلتهم صوب هدفهم المنشود . ومن ثم ؛ ربما يكفى مجرد تضمين أى عنصر من عناصر الإكراه - العقلي أو البدني - في استراتيجية الملك الفيلسوف ، لإحاقة الفشل بهدف الخلاص الذي يسعى إلى تحقيقه . وإذا ما فحصنا استراتيجيته من زاوية أقرب مدى ؛ نجد أن استخدامه عنصر الإكراه ، أمر يتسم بالحماقة . ذلك لأنه وإن بات أفلاطون قلقاً على منح حكومة ملكه الفيلسوف ثمرة رضا المحكومين ؛ فواضح انتفاء الحكمة من اتحاد الفيلسوف اتحاداً شخصياً مع الحاكم الذي يُقدَّرُ صيرورته ملكاً مطلقاً : اللهم إلا إن جعلت قوة المستبد الإلزامية ، على قدم الاستعداد لتستخدم في حالة الاقتضاء . وتبرز الحالة المذكورة وقتها يتيسر التنبؤ بها :

« تتسم طبيعة الشعوب بالتقلب ، ومن اليسير إغراؤها بشيء ما ، لكن من الصعب إبقاؤها في نطاق هذا الإغراء . وينبغي على هذا ؛ ضرورة

(١) أى أفلاطون . (المترجم)

(٢) صفحة ١٥٠٢ - ب من الجمهورية لأفلاطون .

الوقوف على استعداد ، بحيث أنه عندما يذوى إيمانها ، يتوافر لدى الحاكم القوة التي تمكنه من إرغامها على الإيمان ^(١) .

وهذه الكلمات المنطقية ذات الطابع الوحشي ؛ يكشف ما كيافالى عن مظهر ينذر بالشؤم فى استراتيجية الملك الفيلسوف ؛ مظهر عمل أفلاطون بحكمة ، على حجبته . فإنه إذا ما استبان للملك الفيلسوف عجزه عن سلوك سبيله إن آثار استخدام « نزع الافتتان » ، سينبذ فلسفته عندئذ ويمتشق الحسام : ألم يلجأ ماركوس أوريليوس نفسه إلى سلاحه ضد المسيحيين ؟

وهكذا ؛ يطالعنا مرة أخرى المشهد المنقر لأورفوس : إذ يتحول هنا إلى جندى تدريب . وحقاً يقدر الفشل لمحاولة الملك الفيلسوف توحيد طبيعتين متعارضتين فى شخص واحد : فإن الفيلسوف يستحق نفسه باعتدائه على مجال فعل الملك القائم على عنصر الإلزام ، فى حين يستحق الملك نفسه - على النقيض - باعتدائه على مجال فعل الفيلسوف : على غرار ما جرى للمخلص صاحب « آلة الزمن » الذى يعتبر بالمثل فى شكله الصريح سياسياً مثالياً ؛ إلا أنه قد أعلن فشله بامتشاقه سلاح يدينه هو الآخر بأنه مخلص « يخفى السيف فى جرابه » .

(٥) الإله المتجسد فى إنسان

تم لنا الآن فحوص ثلاثة مجالات مختلفة للعبقريّة المبدعة التى تتولد فى مجتمع متحلل ، والتى تخضع قواها وأوجه نشاطها للعمل على التكافؤ مع تحدى التحلل الاجتماعى ؛ وألفينا طريق الخلاص المزعوم ، يقود فى كل حالة ، إلى كارثة ؛ عاجلاً أم آجلاً .

فما هى النتائج التى نستخلصها من عملية تبديد الأوهام هذه ؟

هل تعنى أن كل محاولة لكفالة الخلاص لمجتمع متحلل ، مقدّر لها
الانتهاء بكارثة ، إن كان المخلص المرتجى مجرد بشر ؟

فلنذكر أنفسنا بمغزى البيان التقليدى لحقيقة أثبتت التجربة صحتها إلى
مدى بعيد ؛ ألا وهى « أن جميع من يمتشقون السيف ، بالسيف يفنون »
هذه كلمات مخلص نطق بها تبريراً لكبحه جماح تابع من أتباعه أغمد مرة
أخرى سيفاً أو شك هذا التابع الأمين^(١) أن يسلمه ويستخدمه .

إن يسوع الناصرة بقوله هذا ، يداوى أولاً الجرح الذى أحدثه سيف
بطرس ، ثم يسلم شخصه مختاراً ليكابد أقصى حدود المهانة والتعذيب .
وفضلاً عن ذلك ؛ لا يحمل اتجاهه إلى رفض امتشاق الجسام شيئاً من
التقدير العلمى . إذ لا تقاس قوته فى ظل الظروف التى ألقى نفسه فيها ،
بقوة خصومه . على أنه يؤمن — كما أفضى إلى قضائه بعد ذلك — بأنه لو كان
قد انتضى الجسام ، لفاز فوزاً مبيناً بمعاونة « اثني عشر جيشاً من الملائكة » ،
وفى هذا يتمثل النصر بأسره الذى فى مكنة السيف تحقيقه . وعلى الرغم من
إيمان يسوع بتحقيق هذا النصر ، إلا أنه يرفض استخدام السلاح إثارةً
للموت على الصليب عن الفوز بالسيف .

إن يسوع بإثاره هذا الاختيار ساعة الأزمة ، ينفلت ترواً من خط
الفعل الاتفاقى الذى اتخذهُ المخلصون المرتجون الآخرون الذين سبقوا لنا
دراسة سيرهم .

تُرى ما الذى ألهم المخلص الناصرى اعتناق هذه الفكرة المذهلة القائمة
على العدول عن الطريق الذى سلكه غيره ؟

لعل فى مكنتنا الإجابة على هذا السؤال ، بالتساؤل بدورنا عما يميز
يسوع الناصرى عن أولئك المخلصين الآخرين الذين نقضوا دعاويهم ،
وقتها تحولوا إلى رجال سيف .

(١) هو بطرس أحد حوارى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

مناطق الإجابة فرضاً ، أن هؤلاء الآخرين قد أدركوا أنهم ليسوا
إلا رجالاً ، في حين آمن يسوع بأنه ابن الرب .

فهل نستنتج من ذلك - مصداقاً لقول صاحب المزامير^(١) - بأن
الخلاص مرده الرب وأنه بدون توافر نوع من الربوبية ، يغدو المخلص
المرتجى عاجزاً دائماً عن إنفاذ رسالته ؟

والآن ؛ وقد وازنا وافتقدنا أولئك المخلصين المزعمين الذين كانوا
صرحة مجرد بشر ، فلنحول وجوهنا - كإجراء أخير - شطر المخلصين
الذين أبرزوا أنفسهم كآلهة .

ولقد يبدو انتقالنا لاستعراض عملية المخلصين الآلهة - بنظرة تنحو إلى
امتداح ما يدعونه لأنفسهم من صفات والافتداء بما يعملون - بمثابة
تطبيق لم يسبق له نظير . ويتسم بالمجازفة ، بطريقتنا المعتادة القائمة على الدراسة
التجريبية . لأننا سنجد أنه مهما يكن من أمر دعاوى جميع الشخصيات
التي تزعم انتسابها إلى الألوهية ، فإن دعاويها - باستثناء شخصية
واحدة^(٢) - بالانتساب إلى الربوبية ، أمر يحوطه أعظم مظاهر الشك .
وبالأحرى ؛ سنتحرك وسط الأشباح والقضايا التجريدية ؛ من
قبيل تصور بركلي^(٣) أشخاصاً لا كينونة لهم ، فكان أن انحصرت كينونته
الفريدة في تقديس الأشخاص الموهوبين ، وهم أشخاص أخرى أن يقضى
عليهم^(٤) ما قضى به البحث الحديث على « ليكوجوس ملك اسبرطة » الذي
حسبه أجدادنا حقيقة تاريخية ثابتة ؛ مثله مثل صولون الأثيني .
ومع ذلك فلنستمر في بحثنا :

(١) أي داود عليه السلام . (المترجم)

(٢) هي السيد المسيح في رأى المؤلف . (المترجم)

(٣) نسبة إلى الأسقف بركلي الذي مات عام ١٧٥٣ . (المترجم)

(٤) أي أشخاص لا يكونون إلا عند ما يشاهدون مشاهدة مادية . (المترجم)

ولنبداً من الدرجة السفلى للسلم ، أى من فكرة استخدام الإله أداة^(١) وأن نرقى من هذا المستوى - الذى لعله دون المستوى البشرى - إلى القمة التى لا يمكن التعبير عنها ؛ فقه الإله المسيح مصلوباً^(٢) . فإذا كان الموت على الصليب هو غاية الغايات التى يتأقن لإنسان السعى إليها لتشهد على صدق دعواه بالربوبية ؛ فلقد يبدو ذلك للناظرين أقل ما يستطيع أن يبذله من جهد ، إله معترف به ، لإثبات دعواه بالمثل للقيام بدور « المخلص » .

وكانت فكرة استخدام الآلهة أدوات على المسرح الأتيكى^(٣) إبان القرن الذى شهد انهيار الحضارة الهلينية ؛ وسيلة أفادت المؤلفين المسرحيين في بداية الأمر لعرض أفكارهم على الجماهير . وظلوا حتى بعد استنارة العصر ، يقيدهم عُرْف يقضى بأن يستقوا موضوعات رواياتهم من مادة الأسطورة الهلينية التقليدية . فإن حدث - قبل انتهاء التمثيلية نهاية طبيعية - أن تأزّم سياق التمثيلية لوقوعها في مأزق ما غير قابل للحل لاتصاله بانحرافات خلقية أو مسائل غير محتملة الوقوع ؛ ينتشل المؤلف نفسه من الأحاييل التى تردى فيها بسبب ارتضائه أسلوباً فنياً معيناً ، باللجوء إلى استخدام أسلوب آخر ؛ يقوم على اصطناع قوة الآلهة تفد في الوقت المناسب ، إما عن طريق غير مباشر بأن تظل في مكانها المرموق ، أو تتحرك على المسرح حتى تنجز الغاية المرجاة .

ويتحامل النقاد المحدثون على خدعة المؤلف الدرامى الاتيكي هذه . فإن الحلول التى تهيئها الآلهة الأولمبية إلى الكتاب أصحاب فكرة استخدام الآلهة أدوات لحل مشكلات البشر ؛ حلول لن تقنع العقل البشرى ، ولن تجد صدقاً في قلب الإنسان .

(١) التعبير الأصلى Deus ex machina ويراد به استخدام الإله أداة لحل مشكلة .
(المترجم)

(٢) deus crucis fixus

(٣) نسبة إلى آتيكا وعاصمتها أثينا .
(المترجم)

ويعتبر أوربيديس Euripides أكثر المسرحيين إقداماً دون حياء على إثبات هذا العمل . على أن أحد الباحثين المحدثين يجد في استعانة أوربيديس في رواياته بالشخصيات الإلهية ، دليلاً على تشبثه بإظهار السخرية بها . إذ يرى فيرال Verral أن أوربيديس « المفكر العقلي » (كما يدعوه) ، قد أخضع طريقته التقليدية لخدمة أغراضه الخاصة باستخدامها ستاراً لنكاته الساخرة وكفره بالآلهة الأولمبية ؛ وهذا ما لا يجسر على إثباته جهاراً دون أن يصيبه القضاض .

وهذا القصص نسيج وحده . إذ بينما هو سميك أمام أعين أعدائه القصار النظر . إذا به شفاف لأعين شركائه الشاكين .

« لا نبالغ إذ نقرر بأنه مهما تقوله شخصيات الآلهة على مسرح أوربيديس ، ينظر إلى قولها بوجه الاجمال على أنه أمر مشين بالفعل . فإن مما يعترض عليه المؤلف في جميع الأحوال (وهو أكلوبة من الأكاذيب) إظهاره الكائنات الإلهية ، الأمر الذي يعتبر بمثابة إقناع للرجال بعدم وجودهم » (١) .

وأقل ابتعاد عن جلال الحشد البشرى ويؤمسه وأكثر منه استحقاقاً للإعجاب ؛ كان ثمة أنصاف الآلهة الذين تلدهم أمهات بشريات من فحول من الآلهة ، من أمثال : هرقل ، آسكليبيوس ، أورفوس ؛ عند اليونان . وتنشد هذه الكائنات نصف الإلهية وذات الشكل البشرى ؛ لإرشاد جمهرة الناس بأعمالها في شتى المناحي ، وهم يتعرضون للعقوبات التي يوقعها عليهم الآلهة الخاقدون . عقوبات مدارها مشاركة مصير البشر الفانين الذين يسعون لخدمتهم . ونصف الإله معرض للموت مثل الإنسان ، وهذا هو مبعث مجده . وتلوح فيما وراء شخصية نصف الإله — ساعة موته —

Verral, Euripides, the Rationalist Thesmophoriasusae (١)

والجملة الأخيرة واردة في آريستوفانيس .

الشخصية العظمى لإله أكيد ، ويموت في سبيل تحقيق الخلاص لعالم مختلفة تحت أسماء متباينة : فهو ؛ زاجروس Zagreus لعالم مينوى ، وهو تموز لعالم سومرى ، وهو آتيس لعالم حيثى ؛ وهو بالدر Balder لعالم اسكندنافى ، وهو آدونيس لعالم سورى ، وهو الحسين لعالم شيعى^(١) ، وهو المسيح لعالم مسيحى .

فما هو هذا الإله الذى يتجلى فى صور متعددة ، لكن آلامه واحدة ؟ إنه وإن تعددت الأشكال التى يظهر فيها هذا الإله على مسرحنا الأرضى ، تتكشف ذاتيته بشكل راسخ فى الفصل الأخير من المأساة ؛ بفعل مكابذته وموته . فإذا أمسكنا بعضا يستخدمها علماء الأصول البشرية فى الاستنباء ، يغدو فى وسعنا إرجاع هذه المأساة التى لا تتغير ، إلى أصولها التاريخية :

« إنه سينمو أمامه كنبات غضّ وكجذر ينبعث من الأرض الجافة »^(٢) .
فكأن أقدم أثر لفكرة الإله الميت ، هى فى دور روح الإنبات التى تولد فى الربيع لأجل الإنسان ، وتموت لأجله فى الخريف . ويستفيد الإنسان بموت إله الطبيعة : فإذا لم يموت هذا الإله المتصدق فى سبيل الإنسان ، لأصاب الإنسان الفناء^(٣) :
« لقد جرح بسبب تجاوزنا الحدود ، وأصابته الكدمات بسبب

(١) مهما يكن من أمر مغالاة الشيعة فى تقديس آل البيت والإكبار من شأنهم ، فإن الشيعة لا تعتبر الحسين إلهاً ، بل يعدونه بشراً سوياً . وهم يؤمنون بالقرآن الكريم ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إلا بعض الغلاة وهم أقلية ضئيلة من الشيعة . (المترجم)

Jsa. I. iii. 2. (٢)

(٣) يتأكد الإنسان فى الواقع بأن الإله سيموت بطرحه حياته لمل فى ذلك تتكون الحياة للإنسان نفسه . وتبين روح العقيدة البدائية لروح الإنبات فى شعر روبرت بيونز الواردة فى John Barleycorn (أى جون الشعير القمح) فى شعر ليله أفضل بما ورد فى آية قطلة أدبية إنجليزية . (المؤلف)

شروونا . على كاهله يقع الاقتصاص من سلامتنا ، ونتداوى مما يصيبه من جلدات » (١) .

يبد أن المأثرة الظاهرة للبيان ، لن تستطيع أن تفصح عن السر الكامن في أعماق المأساة ، مهما يكن من أمر جلالها ، وأيا ما يكون الثمن الذى دُفع في سبيلها . فإذا ما اعتزمنا الاطلاع على السر ، علينا التطلع إلى أبعد من الكسب الذى يجتنيه البشرى صاحب المنفعة ، والخسارة التى تحيق بالشخصية الإلهية بطله القصة . إذ ليس موت الإله . ومكسب الإنسان هما بيت القصيد في القصة . ولن نستطيع معرفة مغزى الرواية من غير معرفة الظروف التى يجتازها بطل الرواية ، وإدراك أحاسيسه ، والاطلاع على مقاصده :

هل يموت الإله الميت قسرا أو باختياره ؟

وعن سماحة أو بمرارة ؟

عن حب أو عن قنوط ؟

وإلى أن ندرك ردود هذه الأسئلة المتعلقة بروح الإله المخلص ، يصعب علينا الحكم عما إذا كان الخلاص مجرد منفعة للإنسان تتيحها خسارة مقابلة للإله ، أو عما إذا كان الخلاص يعتبر تعاملًا روحانياً ، يرد الإنسان بمقتضاه الدين باستحواذه على حب وحنان إلهيين : مثل الضياء الذى يشع عن اللهب الوثاب ، ويديه الإله للإنسان بعمل من أعمال التضحية الخالصة .

فبأى روح يتجه الإنسان الميت نحو حتفه ؟

إن وجهنا أنفسنا (وهذا السؤال يتردد على شفاهنا) مرة أخرى إلى عدتنا من أفتنة المأساة ، سنجد « التضحية الكاملة » : إذ نجد حتى في

(١) Jsa : I iii, 5

(٢) صفحة ٣٤١ جز ٧ من رسائل أفلاطون

رثاء كاليوب البديع لموت أورفوس ، نغمة خشنة تتمثل فيها لمرارة ،
تقرع الأذن المسيحية وتصددها .

« لماذا نندب نحن الفانين موت أبنائنا ، ونحن نشاهد الآلهة أنفسهم
لا يملكون الحيلولة بين وضع الموت يده على أبنائهم أنفسهم »^(١) .

فياله من مغزى يستيان من سرد قصة الإله الميت !

وهكذا ما كانت للإلهة التي هي أم أورفوس لتدع أورفوس يموت
قط لو استطاعت مساعدته . وعلى غرار السحابة التي تحجب السماء ، يحصل
الشاعر اليوناني — بفضل استسلامه — من موت أورفوس ، على الضياء .
بيد أن قطعة أدبية أخرى أعظم شأنًا تجيب على شعر أنتيباتير Antipater .
« لأن الإله يحب العالم الذي منحه ابنه المولود الوحيد ، فإن من يؤمن
به لن يفنى ، ولكن يحظى بحياة أبدية » .

ومن ثم كانت إجابة الإنجيل على النائحة بمثابة وحى يوحى :

« إن الواحد يبقى ، لكن الكثيرين يتغيرون ويتخفون »^(٢) .

* * *

وبعد ، فإن هذه ، هي في الحقيقة النتيجة النهائية لاستعراض فكرة
« المخلصين » . فإذا ما وضعنا حدا لهذا الاستطلاع ، ألفينا أنفسنا نتحرك
وسط حشد قوى من الجنود . بيد أنهم — مصداقا لمناقشتنا الأولى — قد
سقطوا ، بعيدا عن الحلبة ، الفرقة تلو الأخرى . فكانت حملة السيوف هي
أول فرقة تسقط ، وتلتها فرقة أصحاب مبدأ السلفية ومبدأ المستقبلية ،
وتلتها فرقة الفلاسفة . . . حتى لم يتبق في الميدان سوى الآلهة : بل إنه
حتى بالنسبة لهؤلاء الآلهة المخلصين المرتجين لم يتبق عند محنة الموت النهائية

Elegy on the Death of Orpheus by Antipater of sidon (trca (١)
90 B. C.)

Shelley : A donais (٢)

سوى القليلون ، أولئك الذين قدموا ٨ على وضع لقبهم موضع التجربة ،
بالوثب في النهر الثلجي . -

والآن ونحن نقف شاخصين بأبصارنا إلى الشاطئ الأقصى ، تنهض
للتو من طوفان الشخصيات الإلهية ، شخصية مفردة تملأ الأفق بأسره ،
إن ثمة « مخلصاً » ستسعد مسرة الرب في يده ، وسيرى عناء نفسه وسيكون
بذلك راضياً (١) :

الفصل الحادى والعشرون

إيقاع التحلل

ابتغينا فى الفصل السابق ، العثور على نظير يقع بين أدوار الشخصيات المبدعة فى المجتمعات النامية وبين المجتمعات المتحللة ؛ ويكون هذا النظر ، تقيضا لتلك الأدوار . وكان أن عثرنا عليه بالفعل .

وها نحن أولاء — نتتبع أسلوبا للبحث مشابها فى جزء مختلف من موضوعنا ؛ رانين إلى العثور عن نظير يتضمن مرة أخرى على سبيل الفرض ، تناقضا بين ما يمكن تسميته بإيقاع الارتقاء ، وما يمكن أن نطلق عليه إيقاع التحلل . وتمثل الصيغة القاعدية فى كل حالة ، فى صيغة معروفة لنا تماما ، لاصطحابها إيانا طوال هذه الدراسة : هذه الصيغة هى : التحدى والاستجابة .

ويلاقى التحدى استجابة ناجحة ، إن حدث فى حضارة فى طور النمو . وتمضى الاستجابة الناجحة قُدُما ، فتولد تحديا آخر مختلفا ، يُلاقى كذلك تحديا ناجحا : وليس ثمة أجل لعملية الارتقاء هذه ما لم يبرز — وإلى أن يبرز — تحدى ، تفشل الحضارة التى نحن بصدددها فى مجابهته : ويعتبر هذا حدثا مفجعا ؛ يعنى توقّف الارتقاء ، ويُندر بما أسمىناه بالانهيار : وهنا يبدأ الإيقاع المقابل :

ورغما عن عدم مواجهة التحدى ، إلا أنه يستمر مع ذلك فى تقديم نفسه . عندئذ يُبذل جهد عنيف مِثْل لمواجهة التحدى . فإن أصابه التوفيق ، تستأنف طبعاً عملية الارتقاء سيرها : على أننا لن نفترض — بعد حدوث نجاح جزئى وموقوت — أن هذه الاستجابة تفشل بالمثل : وسيكون

ثمة عندئذ انتكاس أشد وقعا . وربما تحدث بعد انقضاء فترة ما ، محاولة إضافية لإيجاد استجابة قد تُحقق في حينها نجاحا موقوتا وجزئيا ، لمواجهة التحدى الذى ما يزال على تزمته . وسيتلو هذا مرة أخرى إخفاق آخر قد يشهد - أو لا يشهد - على أنه إخفاق نهائى ، ويضم بين ثناياه تحليل المجتمع . وقد يُعبّر باللغة العسكرية عن الإيقاع بأنه : كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة ...

فإن عدنا أدرجنا إلى المصطلحات الفنية التى ابتكرناها فى مستهل هذه الدراسة والتى دأبنا على استخدامها ؛ يبدو للوهلة الأولى ، أن عصر الاضطرابات الذى يتلو انهيارا ، هو بمثابة « كسرة » ، ويتضح أن إنشاء الدولة العالمية بمثابة « نهضة » ، وأن فترة الفراغ التى تستتبع انقسام الدولة العالمية بمثابة « الكسرة النهائية » . بيد أنه قد سبق لنا ملاحظة - فى تاريخ دولة عالمية واحدة هى الهلينية - انتكاس نحو السقوط ، تلا وفاة ماركوس أوريليوس عام ١٨٠ ميلادية ، وانتعاش فى ظل حكم دقلديانوس . وقد تبدى أكثر من حالة انتكاس وانتعاش فى تاريخ أية دولة عالمية معينة . وهنا نتوقف ملاحظة مثل هذه الانتكاسات والانتعاشات على قوة العدسة التى تستعمل فى الموضوع الذى نجرى عليه الفحص . مثال ذلك ، كان ثمة انتكاس قصير الأمد - لكنه مفرع - حدث عام ٦١ ميلادية ، وهو العام الذى يدعى بعام « الأباطرة الأربعة » . على أننا نغنى هنا بالمظاهر البارزة وحدها . وقد تكون هناك كذلك ، فترة انتعاش جزئية تقع فى منتصف عصر الاضطرابات .

ولو سمحنا بإشارة واحدة للدلالة على الانتعاش خلال عصر الاضطرابات ، وبإشارة واحدة للدلالة على الانتكاس خلال عصر الدولة العالمية ، حصلنا على الصيغة التالية : كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة . وهى صيغة قد نصفها بأنها ثلاث « دقات » من إيقاعنا :

كسرة - نهضة . ولا يوجد هنا بالطبع تأثير خاص في عدد « ثلاث دقات ونصف دقة » وقد تبدى حالة معينة من التحلل ائنتين ونصف ضربة أو أربع ونصف أو خمس ونصف ؛ من غير أن تقصّر في المواءمة في المسائل الأساسية المتصلة بالإيقاع العام لعملية التحلل : ومع ذلك ؛ يبدو في حقيقة الأمر ، أن ثلاث ضربات ونصف ؛ هي النمط الذي يلائم تواريخ عدد من المجتمعات المنحلة :

وسنمر سراعاً باستعراض طائفة منها على سبيل الإيضاح :

١ - يتيسر تعيين تاريخ انهيار المجتمع الهليني بدقّة غريبة ؛ في عام ٤٣١ ق . م ، وتحديد ٣١ ق . م ، على أنه عام تولى أغسطس تشييد الدولة العالمية الهلينية ، أى بعد انقضاء أربعائة سنة على انهيار ذلك المجتمع . فهل في مكنتنا تمييز حركتي النهضة والكسرة في مكان يقع بين بداية ونهاية هذه القرون الأربعة ؟

في وسعنا ذلك بلا ريب . فإن إحدى علاماته ، مبدأ الوفاق الذي بشر به تيموليون Timoleon في سيراكوز ، وأذاعه الإسكندر الأكبر في مجال أوسع كثيراً ؛ وكلاهما قد ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . وكانت العلامة الثانية ، فكرة « العالمية » أو « المجتمع الدولي » التي روج لها الفيلسوفان زينون وايبكتوتوس وتلامذتهما . وكانت العلامة الثالثة نتاج تجارب دستورية : الإمبراطورية السلوقية والاتحاد الآخى والاتحاد الآيتولى والجمهورية الرومانية - كانت جميعها محاولات التماسى عن مبدأ سيادة المدينة التقليدى .

وفي المكنة لإيراد علامات أخرى . لكن يكفى ما تقدّم لإضفاء شيء من المادية على ظاهرة النهضة التصورية ؛ وتعيين موقع تقريبي لها في الوقت المناسب . لقد كانت نهضة أصابها الإخفاق ، لسبب يرد بصفة خاصة إلى أن الوحدات السياسية الموسّعة - وإن كانت قد تسامت بنجاح على حدود

المدينة - قد برهنت على تعصبها وعدم ميلها للتعاون ، في علاقاتها مع بعضها بعضا ؛ مثلما كانت الحال عليه بين المدن اليونانية وبعضها بعضا خلال القرن الخامس ، وقتما افتتحت مرحلة الانهيار الهليني بخوضها غمار الحرب الأثينية البلوبونيزية : ولقد تؤرخ هذه الكسرة الثانية أو (ويعنى نفس الشيء) فشل النهضة الثانية ، ببداية الحرب الهاننيالية عام ٢١٨ ق . م . ولقد حددنا قبل الآن موقع كسرة ظلت قرنا بالكامل ، تلتها نهضة على مدار تاريخ الإمبراطورية الرومانية .
وهكذا تبدى لنا الثلاث دقات ونصف دقة .

٢ - وإذا ما أولينا وجهنا شطر موضوع تحليل المجتمع الصيني سيمكننا التعرف على لحظة الانهيار ، بالاصطدام المحرّب بين الملكين : تشن وتشو عام ٦٣٤ قبل الميلاد . ونتعرف على لحظة تشييد الدولة العالمية الصينية بقيام الإمبراطور تسين Ts'in بخلع تسي Ts'i عام ٢٢١ ق . م .
فإن كان هذان التاريخان هما التاريخان الحديّان لعصر الاضطرابات الصيني ؛ فهل ثمة إشارة لحركة نهضة وكسرة خلال الفترة المتعارضة ؟

الرد بالإيجاب . ذلك لأن ثمة نهضة محسوسة خلال عصر الاضطرابات الصيني ، شاملة جيل كنفوشيوس (حوالى ٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) . نهضة كانت بداية عقد مؤتمر فاشل لنزع السلاح عام ٥٤٦ ق . م . يضاف إلى ذلك أننا لو تطلّعنا إلى تاريخ الدولة العالمية الصينية ، سنجد كسرة ونهضة - قبيحي الصيت خلال فترة الفراغ ؛ إبان السنوات الأولى من القرن الأول المسيحي . ويقع بين الأسرة المالكة التي سبقت أسرة هان في الحكم ، والأسرة التي تلتها .

وهكذا ؛ نعثر مرة أخرى على دقاتنا الثلاث ونصف . وتقع التواريخ الصينية قبل ما يوازيها من تواريخ هلينية بحوالى المائتي سنة .

٣ - سنسجل نفس الظاهرة في التاريخ السومري : ذلك لأن ثمة « دقة » من « النهضة والكسرة » محسوسة بشكل واضح في سياق عصر الاضطرابات السومري . في أنه يميّز أجل حياة الدولة العالمية السومرية ، ضربة مضادة قوامها : نهضة وكسرة ؛ وهي دقة لها صبغة التوكيد بشكل غير عادى .

فإذا ما أرتخنا بداية عصر الاضطرابات من سيرة القائد الحربى لوجالزيجسى من أرخ Lugalzaggisi of Erch (حوالى ٢٦٧٧ - ٢٦٥٣ ق . م) وتعادل في نهايته بقيام أور - أنجور Wr-Engur حوالى ٢٢٩٨ - ٢٢٨١ ق . م) بتشيد الدولة العالمية السومرية ؛ يمكن على الأقل العثور على ظاهرة « النهضة » متوسطة ، تتجلى في ارتاء واضح في فن بصرى تحقق في عصر نارامسين Noramisin (حوالى ٢٥٧٢-١٥١٧ ق.م) . وتمتد فترة حياة الإمبراطورية السومرية من تولى أور أنجور العرش حتى وفاة حمورابى (حوالى ١٩٠٥ ق . م) . بيد أن السلام الذى فرضته الإمبراطورية يتحوّل بالبحث ليصبح قشرة رقيقة تغلف حمأة عريضة من الفوضى . فلقد انهارت بعد جلوس أور أنجور على العرش « إمبراطورية النواحي الأربع » إلى شذرات . وظلت كذلك طوال أكثر من مائتى عام ؛ حتى أعاد حمورابى إقامة دولته العالمية عشيّة تحللها النهائى :

٤ - يعود إلى الظهور الآن النمط المؤلف في تاريخ تحلل المجتمع الأساسى للمسيحية الأرثوذكسية : فلقد سبق أن تعرّفنا على انهيار هذه الحضارة منذ نشوب الحرب الرومانية البلغارية الكبرى فترة ٩٧٧ - ١٠١٩ ميلادية . كما أنه قد يتيسر تأريخ إعادة إنشاء الإمبراطورية العالمية بصورة نهائية من الغزو العثمانى لمقدونية خلال الفترة ١٣٧١ - ٢ . وفى وسعنا أن نميّز بين هاتين الفترتين من عصر اضطرابات المسيحية الأرثوذكسية ؛ نهضة تزعمها ألكسيوس كومينوس Alexius Comnenus (١٠٨١ - ١١١٨

ميلادية) إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية . وهو عصر استمر طوال قرن من الزمان .

أما بالنسبة للإمبراطورية العثمانية التي تلت ذلك العصر ، فقد انهارت تحت صدمة هزيمة الحرب الروسية التركية أعوام ١٧٦٨ - ٧٤ . وعلى حين يشير هذا الانهيار إلى الانهيار الحاسم للنظام العثماني ؛ تعرض الحوليات العثمانية دليلاً واضحاً على وجود كسرة مبكرة ، قومتها نهضة تالية . أما عن الكسرة ، فيمكن تمييزها في الاضمحلال السريع لنظام رقيق الباديشاه بعد وفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦ . وأما النهضة ، فقد بشرت بها التجربة التالية المتصلة بمشاركة الرعايا المسيحيين الأرثوذكس للمسلمين الأحرار - الذين استولوا الآن على زمام السلطة - دون اعتبار قط لضرورة تحول هؤلاء الرعايا عن عقيدتهم ثمناً لمنحهم حصّة في حكومة الدولة . ولقد هيأت للإمبراطورية العثمانية هذه الخطوة التي ابتدعها الوزراء من آل كوبرولو ، فسحة للراحة ، طفق عثمانيو الجيل التالي يذكرونها في حسرة على أنها فترة « ازدهار الخزاي »^(١) :

٥ - ولم تستحق الوفاء بعد - في تاريخ المجتمع الهندي - نصف الكسرة النهائية . طالما أن القسط الثاني من الدولة العالمية الهندية - وفقاً لسيطرة السلطان البريطاني - لما ينته بعد ولما تنجز رسالته^(٢) .

ومن الناحية الأخرى خلّفت وراءها الدقات الثلاث جميعها المتصلة بالكسرة والنهضة ، سجلاً . وتتمثل حركة النهضة الثالثة في فترة المائة عام من الفوضى ، وتقع بين انهيار السلطان المغولي وإقامة خليفته البريطاني . وبالمثل تتمثل بشكل واضح فاصلة « النهضة » من الضربة الثانية ، تشييد

(١) الخزاي هي زهرة التوليب Tulip (المترجم)

(٢) لقد انتهى عهد الإمبراطورية البريطانية في الهند بتكوين دولتي الهند وباكستان

عام ١٩٤٧ . (المترجم)

السلطان المغولي إبان حكم أكبر (١٥٦٦-١٦٠٢) . وليست لمسة الضربة السالفة الذكر واضحة تماماً ، لكننا إذا ما أشرفنا على تاريخ عصر الاضطرابات الهندي الذي يبدأ في الجانب الأخير من القرن الثاني الميلادي ينشوب حرب الأخوة بين الدول الهندية الإقليمية ؛ سنلاحظ إبان القرن عشر بعض تفريغ ضائقها بصورة موقوتة ؛ إبان فترة حكم كل من علاء الدين وفيزوز . وحدثت هذه الفترة بين المحن التي ابتلي بها الهند ، للحكام الهنود والغزاة المسلمون خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؛ والمصائب التي جرت بها على الهند حشود الغزاة المسلمين بما فيهم أسلاف أكبر ذاته ، خلال القرنين الخامس والسادس عشر .

وفي وسعنا إخضاع حضارتنا الأخرى المتحللة إلى تحليل مشابه في جميع الأحوال ، حيث نستحوذ على دليل كاف يجعل مثل هذا البحث شيئاً مفيداً . فلقد لا تتوافر جميع عناصر الوقاية الكاملة في بعض الحالات . ذلك لأن الحضارات التي نحن بصدددها ، قد ابتلعتها - وهي حية - حضارة من الحضارات المجاورة لها قبل أن تشق لنفسها طريقاً إلى حى الموت الطبيعي .

على أننا قد أبرزنا - مع ذلك - دليلاً كافياً عن إيقاع التحلل ؛ بحيث يتأتى تطبيق هذا النمط الإيقاعي على تاريخ الحضارة الغربية ؛ ليُلْقَى ضوءاً على سؤال ألقيناه عدة مرات ، ولم نجد له حتى الآن جواباً شافياً . ومدار هذا السؤال فيما إذا كانت الحضارة الغربية تُعاني انهياراً . وإن كان الأمر كذلك ، ما هي المرحلة التي بلغت في تحللها حتى الآن .

إن ثمة حقيقتين واضحتي المعالم :

إن الغربيين ، لما يختبروا بعد مسألة إنشاء دولة عالمية . وذلك رغماً عن محاولتي ألمانيا الياستين لإقامتها خلال النصف الأول من القرن الحالي ؛

والمحاولة اليائسة الممائلة التي بذلتها فرنسا النابليونية قبل ذلك بمائة سنة .
 وإن ثمة حقيقة لا تقل عن الأولى وضوحا ؛ وهي صدوف الغربيين عن
 إنشاء دولة عالمية ؛ لكنهم يطمحون طموحا عميقا أكيدا لإقامة نوع من
 التنظيم الدولى ينتسب إلى فكرتى « الوفاق الإنسانى » أو « الاتفاق »^(١) اللتين
 بشرا بهما عبثا ، طائفة من الساسة والفلاسفة الهلينيين خلال عصر
 الاضطرابات الهلينية . وسيكفل هذا التنظيم الدولى مزايا الدولة العالمية
 ويتجنب شرها . وما شر الدولة العالمية ، إلا نتيجة نجاح ضربة قاضية يوجهها
 عضو مفرد ما يزال على قيد الحياة من جماعة من الدول العسكرية المتنازعة .
 إن ذلك الشر ، هو عاقبة « الخلاص باستخدام السيف » ، وهى نتيجة
 إدراكنا أنها ليست من « الخلاص فى شىء » .

إن جماع ما يتطلع إليه الأوروبيون ، قبول يصدر عن شعوب حرة ،
 لفكرة الإقامة معا فى اتحاد . وتنشئ تلك الشعوب - باختيارها - التعديلات
 وضروب التنسيق البعيدة المدى ، التى بدونها لا يتأتى عمليا تحقيق هذا الهدف المثالى .
 وليست ثمة حاجة للتوسع فى هذا المبحث الذى غدا تتناوله آلاف
 من الأبحاث الفنية المعاصرة . وإن حسن الصيت العجيب الذى اكتسبه
 الرئيس الأمريكى ويلسون فى أوروبا - وإن لم يكتسبه فى بلاده - إبان
 الأشهر القليلة القصيرة التى سبقت إعلان هدنة نوفمبر سنة ١٩١٨ وتلتها ؛
 لتعتبر مقياسا لمطامح العالم الغربى . وغالبا ما كان الرئيس ويلسون يخاطب
 بالنثر . أما خير ما وجهه إلى أغسطس من النظم فقد كتبه فرجيل وهوراس .
 وإن الروح التى بعثت الحياة - سواء أكان نثرا أو شعرا - فى هذين
 الانصبابين من الإيمان : الأمل والشكران ؛ واحدة كما هو واضح .
 بيد أن النتيجة مع ذلك قد اختلفت فى حالة ويلسون عن حالة

(١) الوفاق الإنسانى Homonoria والاتفاق Concord . (المترجم)

أغسطس : فلقد وفق أغسطس إلى تزويد عالمه بدولته العالمية ، على حين
أخفق ويلسون في تزويد عالمه بشيء أحسن مما هو فيه :
إن هذا الرجل في المكان الواطئ يدأب على إضافة واحد
إلى واحد .

فلا تلبث مثته أن تصيب

هذا الرجل في المكان العالى يرنو إلى المليون

فيقصر عن إدراك الواحد^(١)

وتوحى هذه الاعتبارات والمقارنات بأن الغربيين قد قطعوا بالفعل
شوطاً بعيداً في عصر اضطراباتهم . ولو سألنا أنفسنا عما يعتبر أشد حالات
الاضطراب ظهوراً وأكثر تفرّدا في الزمن القريب ، لكانت الإجابة
واضحة ؛ تدور حول الصراع العسكرى المهلك القومى الطابع الذى يعززه
— كما سبق أن أشرنا في جزء مبكر من هذه الدراسة — « الدافع » المشترك
للطاقات التى استولدتها قوى الديمقراطية والصناعية التى أطلقت أخيراً من عقلاها ،
وفى وسعنا أن نؤرخ هذه النقمة من اندلاع حروب الثورة
الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر . بيد أننا عند ما فحصنا هذا الموضوع ،
جابهتنا الحفيفة القائلة بأن هذه الدورة من الحروب العنيفة
لم تكن الأولى من نوعها ؛ بل هى الثانية : إذ تمثلت الدورة التى سبقتها
فيما يسمى بالحروب الدينية التى اجتاحت المسيحية الغربية خلال المائة سنة
الواقعة بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ،
وألقينا أنه قد تحلل هاتين الدورتين من الحروب العنيفة ، قرن كانت فيه
الحرب معتدلة نسبياً — كانت هو الملوك — لم يوجبها التعصب سواء
المتصل بالطائفة الدينية أو الديمقراطية الوطنية . ومن ثم نجد في التاريخ

الغربي كذلك ، ما قد توصلنا إلى التسليم بأنه نمط فريد لعصر اضطرابات :
كسرة ثانية .

وفي وسعنا أن نُدرك ، لماذا كانت نهضة القرن الثامن عشر - في سياق عصر اضطراباتنا - نهضة عقيمة فانية يعزى سببها إلى أن التسامح الذى حققه عصر « الاستنارة » لم يكن تسامحا قائماً على الفضائل المسيحية المتصلة بالعتيدة والأمل والإحسان ؛ لكنه قام على السقام المفيستوفيلية^(١) المتصلة باعتناق مبادئ* ؛ نبذ الأساطير - التصور الساذج - الاستخفاف . فلن يكن ذلك التسامح والحالة هذه مأثرة تحققت بفضل العمل الشاق في ميدان الحماس الدينى ؛ لكنها نتيجة فرعية للحط من شأن الدين .

فهل في مكنتنا جميعاً أن نتكهن بنتيجة الدورة الثانية من الحروب وهى أشد عنفاً من سابقتها ، دورة يتردى فيها العالم الغربى بفعل القصور الروحي الذى اتسمت به استنارة القرن الثامن عشر ؟

إن كان لنا أن نتطلع إلى معرفة مستقبل الحضارة الغربية ، فعسانا نبدأ بتذكير أنفسنا بأنه وإن كانت جميع الحضارات الأخرى التى نلّم بتاريخها ، هى إما ميتة أو أنها تموت . إلا أن الحضارة ليست مثل الكائن الحى مقدراً له أن يموت بفعل مصير جامد ، بعد عبوره منحنى الحياة المحتوم . ويصدق هذا الرأى ، حتى وإن سلكت الحضارات الأخرى التى ظهرت في الوجود هذا السبيل إلى أبعد مدى . إذ لا يُعرف قانون للحتمية التاريخية يضطرنا إلى القفز بعيداً عن لهيب عصر اضطراباتنا التى لا تحتمل ، متجهين صوب النار الخافتة الثابتة لدولة عالمية . حيث يهبط بنا الحال على

(١) المفيستولية : نسبة إلى مفيستوفيليس الشيطان المذكور في رواية فاوست لجوته . وقد أغرى بطل روايته بالتكر لمبادئه والخضوع لمشيئته في سبيل الاستمتاع بالذات المادية الفانية . (المترجم)

مر الزمن إلى التراب والرماد . وفي نفس الوقت ، تبدو مثل هذه السوابق التي تستخلص من تواريخ الحضارات الأخرى ومن سياق حياة الطبيعة ، رهبة المنظر ، في ظل ضياء موقفنا الحالي المشنوم .

لقد كتب هذا الفصل بالذات ، عشية نشوب حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ العامة ، لقراء عاشوا بالفعل في غمار حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ العامة ، واعد صف حروفه لإعادة طبعه غداة انتهاء ثمانية هاتين الحربين العالميتين - أى في نطاق فترة عمر واحد - بفعل اختراع قنبلة واستخدامها ، وجه فيها الإنسان طاقة ذرية أمكنه إطلاقها من عقلاها أخيراً ، لتدمير الحياة البشرية وأعمالها ، على نطاق لم يعرف من قبل . إن تنابع الكوارث بسرعة فائقة ، يوحى حتماً بشك قائم حول مستقبلنا . ويُندر هذا الشك بتقويض إيماننا وأملنا - في الساعة الحاسمة التي تتطلب بذل أقصى مجهود للاحتفاظ بهذه الطاقات الروحية . إن هنا تحدياً لن نستطيع اجتنابه ، ويتوقف مصيرنا على استجابتنا .

« لقد حلمت فتصورت أنني أرى إنساناً يرتدى الأسماك . يقف بعيداً في مكان ما ، ووجهه بمنأى عن منزله الخاص ، يمسك كتاباً في يده ، ويقع على ظهره عبء ثقل . تطلعت إليه ورأيتُه يفتح الكتاب ويقرأ في ذلك الشيء . وكلما أخذ في القراءة ، ينتحب ويرتعث . ولما إن عجز عن استيعاب ما يقرأ ، انفجر يصيح مولولاً : ما الذي سأفعله ؟ » . لم يكن كريستيان في قصة جون بونيان^(١) في حالة القنوط الشديد من غير سبب .

« لقد نما إليه بالتأكيد (قال هو) أن مدينتنا هذه ستحرق بنيران

(١) جون بونيان Gohn Bunyan (١٦٢٨ - ٨٨) مؤلف قصة « ارتقاء الحاج » ولد بمقاطعة بدفورد بإنجلترا . وقد نشرت قصته عام ١٦٦٧ . وقد صور فيها مالفية بطل روايته الذي دعاه بـ « كريستيان » في حجه من مدينة الدمار إلى المدينة السابوية .
(المترجم)

من السماء ، وأن تدميرا هائلا سيخيق بي وبك يا زوجتي وبكم يا أولادى
الأغزاء ، إلا إن وجد سبيل ما للفرار ، سبيل قد ننقذ بفضلته . وهذا
ما لا أتبينه بعد .

فما هى الاستجابة التى يرى كريستيان^(١) القيام بها فى وجه هذا
التحدى ؟

هل يعززم التلفت هنا وهناك كما لو أنه سيفر . إلا أنه يقف ساكنا ؛
إذ يتعذر عليه معرفة أى طريق يسلك ؟

أو أنه سيدأ فى الفرار صائحا أثناء فراره « الحياة ، الحياة ، الحياة
الخالدة » وعيناه معلقتان على ضوء يلمع ، وقدماه مقيدتان بباب بوابة
بعيدة ؟

إن كانت الإجابة على هذا السؤال لا تعتمد إلا على كريستيان نفسه ،
فإن معرفتنا بما جبلت عليه الطبيعة البشرية من تجانس ، قد يدعونا إلى
التنبؤ بأن « الموت فى مدينة الدمار »^(٢) هو المصير الوشيك لكريستيان . لكن
قد قيل لنا فى الصورة التقليدية للأسطورة ، أن بطل القصة البشرى ،
لم يُترك كلية إلى وسائله المحدودة فى الساعة الحاسمة . فإنه — حسبما أورده
جون بونيان — أنقذ كريستيان بفضل ملاقاته أحد الرُّسل . ونظرا
لاستحالة افتراض أن طبيعة الله أقل من طبيعة الإنسان رسوخاً ؛
فعسانا — بل يجب علينا — أن نتضرع إلى الله الذى منح مجتمعنا الخلاص
ذات مرة ، أن لا يرفض لنا رجاء . إن ناشدناه منحنا إياه بروح الخضوع
وبقلب منيب . . .

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بـ « كريستيان » هنا ، المسيحى الغربى . (المترجم)

(٢) يشبه الأستاذ المؤلف هنا موقف الإنسان المسيحى الغربى بموقف كريستيان بطل
رواية بونيان ، فى مدينة الدمار (أى الدنيا القانية) . (المترجم)

الفصل الثاني والعشرون

توحيد المقاييس خلال مرحلة التحلل

ها نحن الآن قد وصلنا إلى ختام بحثنا في عملية تحلل الحضارات ؛ وقبل أن نخلّف الموضوع ، ثمة موضوع آخر جدير بالبحث :

فلقد استبان لنا من أبحاثنا أن ثمة اتجاهًا صوب التجانس وتوحيد المقاييس ؛ وهو اتجاه يعتبر بديلا عن الاتجاه صوب التمايز والتنوع . كما أنه نقيضا له ؛ وهذا الاتجاه هو ما ألقيناه ، العلامة المميزة لمرحلة ارتقاء الحضارات ؛

وإن انشقاق المجتمع المتحلل انشقاقا منتظما إلى ثلاث طبقات اجتماعية منقسمة انقسامًا حادا ، وما تحقّقه كل طبقة على حدة من أعمال الإبداع المتسمة بالتجانس ؛ ليعتبر ظاهرة للتجانس أعظم في دلالتها كثيرا . ومصدقا لذلك :

شاهدنا أقليات مهيمنة تبرز - في صورة متجانسة - مذاهب فلسفية ، وتنتج دولا عالمية .

كما شاهدنا بروليتاريات داخلية تستكشف في صورة متجانسة ، أديانا عليا ، ترنو إلى تضمين نفسها في أديان عالمية .

ورأينا بروليتاريات خارجية تحشد - بصورة متجانسة - عصابات حربية تجد منفسا لها في « عصور البطولة » .

وحقا فإن التجانس الذي بوساطته استولدت هذه النظم المتعددة ، ليلغ تأثيره درجة من القوة ، بحيث يمكننا من عرض هذا المشهد من عملية التحلل في

شكله المبسط الذى يتبدى فى ختام هذا الفصل . بل وأكثر من ذلك لفتا للنظر ، تجانس طرائق السلوك والشعور والحياة التى تبديها دراسة الانشقاق فى النفس :

وإن هذا التعارض بين تنوع الارتقاء وتجانس التحلل ، هو ما يجب أن نتوقعه من وراء موازنة المطابقات المجردة ، كالمثل الذى يضربه نسيج بنيلوب فإن زوجة عوليس المخلصة ^(١) ، كانت قد وعدت خطابها اللحوحين بقبول أحدهم زوجاً عقب انتهائها من نسيج كفن تعدّه « لايرتيس العجوز Laertes » : فدأبت على أن تنسج على منسجها فى أوقات النهار ، يوماً بعد آخر ، ثم تنفق ساعات الليل — ليلة بعد ليلة — فى نقض عمل يومها الأخير . وعندما تنتهى النساجة ^(٢) من وضع سداة النسيج وتأخذ كل صباح فى نسج اللحمية ^(٣) ، يُصبح تحت إمرتها يوماً بجال لاحتد له لاختيار أنماط النسيج المتعددة . بيد أن عملها الليلي كان متجانساً رتيباً ؛ لأنها عندما تأخذ فى نقض اللحمية ، لا يتغير العمل مهما تغير النمط ؛ لأنه مجرد نقض لعملها . ومهما يكن من أمر الحركات المستخدمة طوال النهار ، لم يكن عمل الليل ليتعدى حركة نقض الخطوط .

وإن بنيلوب جديرة بالثناء بكل تأكيد ، بسبب عملها الرتيب المحتوم . ولو كانت بلادة عملها تتجه إلى غير مقصد ، لكان الكدح مما لا يمكن احتمالها ؛ إلا أن ما كان بلهمها ، تمثل فى أغنية كامنة فى نفسها هى : هل سأعود للاجتماع به ؟ فلقد كانت تعيش وتشتغل بالأمل . ولم يخب رجاؤها : فإن بطل القصة ، قد عاد ليجد البطلة ما تزال وفية له . وتنتهى قصة الأوديسية باجتماعهما .

(١) هو فى الأساطير اليونانية ملك أيثاكا Ithaca ووالد عوليس زوج بنيلوب .

(المترجم)

(٢) أى بنيلوب زوجة عوليس . (المترجم)

(٣) اللحمية فى النسيج . (المترجم)

وبتحولنا إلى السطح المادى ، نجد أنه إذا كانت بنيابوب تستل خيوطها
عبثاً ؛ فما هو القول بالنسبة للنساج الأعظم الذى يُعتبر عمله موضوع
دراستنا ، والذى وجدت أنشودته تعبيراً بشرياً فى شعر جوته ؟

فى تيارات الحياة ، فى أعاصير الحركة
فى حماس الفعل ، فى النار ، فى العاصفة

هنا وهناك

فوق وتحت

أجوب الآفاق وأهيم .

الميلاد والقبر

حيث الموجة المضطربة

تموج دواما

تحت وفوق

خصامها المهتاج

يتماثل ويزوغ^(١)

تلك تعبيرات الحياة

وعند أزيز منسج الزمن غير الرهيب

أضع الرداء الحى للإله^(٢) .

إن عمل « الروح الكامنة فى الأرض » - إذ تنسج وتستل خيوطها على
« منسج الزمان » - هو تاريخ الإنسان الدنيوى . تاريخ يتبدى فى أصول
المجتمعات البشرية ، وارتقاءاتها ، وتحولاتها . وفى وسعنا أن نستمع فى حمة الحياة .

(١) يزوغ : يتحرك يمينا ويسارا صعداً ونزولاً . (المترجم)

(٢) الجزء الثانى من فاوست لجوته . أبيات ٥٠١ - ٩ .

وعاصفة الفعل ، بأسرها ؛ إلى ضربة إيقاع أساسى ، أدركنا تغيراتها تحت أسماء : التحدى والاستجابة ، الانسحاب والعودة ، الكسرة والنهضة ، التبنى وثبوت النسب ، الانشقاق ورجعة المولد .

ويعتبر هذا الإيقاع الأساسى ، الضربة المتعاقبة للين واليانج^(١) . وقد ميزنا - بفضل استماعنا إليها - أنه وإن كان المقطع قد يُرد عليه بمقطع مضاد ، ويرد على الانتصار بالهزيمة ، والخلق بالدمار ، والميلاد بالموت ؛ إلا أن الحركة التى تنبعث عن هذا الإيقاع ، لا تتضمن تراوح معركة غير حاسمة ، أو أنها دورة « طاحونة السعى »^(٢) .

ولا يعتبر دوران العجلة الأبدى تكراراً لا طائل تحته ؛ إن كانت تحمل فى كل لفّة ، العربية الأكثر قرباً إلى غايتها . وإذا كان رُجعى الميلاد يعنى ميلاد شيء جديد وليس إعادة الحياة لشيء ولد ومات من قبل ، فإن عجلة الوجود ليست آلة شيطانية تبثلى الناس بتعذيب سرمدى مثل عجلة أكسيون^(٣) .

وعلى أساس هذا الإيضاح ؛ فإن الموسيقى التى تصدر عن ضربة إيقاع الين واليانج ، هى أنشودة الخلق . ولن يضلنا حسابان أنفسنا مخطئين . لأننا إذ نُلقي بسمعنا ، فى وسعنا تمييز نغمة الخلق تتعاقب مع نغمة التدمير . وإن هذه الثنائية لهى صك الإصالة ، وهى أبعد من أن تدين الأنشودة بالتزوير الشيطانى . فإذا ما أرهفنا بسمعنا جيداً ، سنستبين أنه

(١) الين واليانج : اصطلاحان صينيان يرمز بهما المؤلف - كما سبق القول - إلى عنصرى السكون والحركة فى الكون . (المترجم)

(٢) طاحونة السعى : أداة يديرها المسجونون عقاباً لهم . (المترجم)

(٣) كان أكسيون فى الأساطير اليونانية ملكاً على تساليا ، وكرهه الناس لقتله زوج أمه فأشفق عليه زيوس - الإله الأعظم فى الأساطير اليونانية - فحمله إلى جبال الأوليمب - مقر الآلهة . ألا أن أكسيون خان ضيافة زيوس فأغوى زوجته هيرا ، فجازاه زيوس بإبداءه الجحيم مربوطاً على عجلة نارية تدور إلى الأبد . (المترجم)

عندما تصطدم النغمتان ، لن ينتج عنهما تنافر ؛ بل يصدر عنهما توافق ؛
إذ لن يتأتى للخلق صيرورته عملاً خلافاً ، إلا أن استوعب بين طياته جميع
الأشياء ، بما في ذلك نقيضه نفسه .

لكن ماذا يقال عن الرداء الحسى الذى تنسجه الروح الكامنة فى
الأرض ؟

هل يصعد إلى السماء بالسرعة التى يحاك بها ، أو هل فى مكننتها
على أية حال أن نختلس ونحن هنا على الأرض ، لمحات من قطع نسيجه
الأثيرى ؟

ما الذى نظنه عن تلك الأنسجة التى ترقد تحت قدم المنسج وقتما يكون
النساج منهمكاً فى فكّ النسيج ؟

لقد وجدنا عند بحث موضوع التحلل الحضارى ، أن العرض
الروائى قد يتأى عن المادية ، إلا أنه لا يزول إلا بعد أن يخلف وراءه
حطاً . وبالأحرى ؛ عندما تتحول الحضارات إلى مرحلة التحلل ،
تخلف وراءها راسياً من الدول العالمية والأديان العالمية وعصابات
الحرب البربرية

فما الذى نفعله بهذه الأشياء ؟

هل هى مجرد فضلات ، أو هل ستبرهن هذه الأطلال – إن قننا
بتنسيقها – على أنها طرائف مستحدثة من فن النساج ، تولّى نسجها بحفة
يد غير ملحوظة – على آلة أكثر شفافية من المنسج الهادر الذى كان
يستأثر – بالتفاته ؟

فإذا اتجهنا بأفكارنا ، بهذا السؤال الجديد فى مخيلتنا ، القهقري
عبر نتائج أبحاثنا السابقة ؛ سنجد مبرراً للاعتقاد بأن موضوعات الدراسة
هذه ؛ هى شىء ما ، أكثر من مجرد نفايات التحلل الاجتماعى . ذلك لأننا
قد لاقيناها أول مرة شواهد للتبنى وثبوت النسب ؛ وهذه هى

علاقة بين حضارة وأخرى : وواضح أنه لا يتأتى تفسير هذه النظم الثلاثة تفسيراً تاماً ، إن اقتصر الأمر على استخدام مصطلحات تاريخ حضارة بمفردها ، إذ يتضمن وجودها ؛ توافر علاقة ما ، بين حضارة وأخرى . ومن ثم تقتضى دراستها ، اعتبار أن لكل ذاتية مستقلة .

ولكن إلى أى مدى يذهب بها استقلالها هذا ؟

وجدنا أثناء معالجتنا موضوع الدول العالمية ، أن السلام الذى توفره سريع الزوال ، مثلما هو مهيب : ووجدنا مرة أخرى أثناء بحثنا موضوع عصابات الحرب البربرية أن هذه الدويكات فى جيفة حضارة ميتة ، لا يمكن أن تأمل العيش زمناً أطول مما يستغرقه تعفن الجثة إلى أن تتحلل إلى عناصرها النقية : بيد أنه وإن أدرك الموت قبل الأوان عصابات الحرب البربرية - مثل ميتة آشيل - إلا أن حياة الممجي القصيرة ، تختلف وراءها على الأقل ، صدى فى شعر الملاحم الذى يشيد بذكر عصر بطولة ، فما هو مصير الدين العالمى الذى ينشد كل دين أعلى ، تضمن نفسه

فيه ؟

لسنا فى الوقت الحاضر ؛ فى مركز يتيح الإجابة بسهولة على سؤالاتنا الجديدة . وليس فى وسعنا كذلك تجاهله . إذ يحمل بين ثناياه المفتاح إلى مغزى عمل النساج الأعظم :
إن دراستنا لما تصل نهايتها بعد ؛ وإن كنا قد بلغنا حافة آخر ميادين بحثنا .

سياق الاستدلال

الفصل السادس عشر — إخفاق تقرير المصير

١ - آلية المحاكاة :

المحاكاة ، هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بفضلها الأغلبية العاطلة عن الإبداع ، اقتفاء أثر الزعماء المبدعين : والمحاكاة نوع من « التدريب » ، أى تقليد آلى وسطحي للأصالة الملهمة . ويجر هذا « الطريق الأقصر » إلى الارتقاء ، الذى لا مناص من سلوكه ، إلى أخطار واضحة : إذ قد يصبح القادة سائرين بالروح الآلية التى تأصلت فى رفاقهم . فتتولد عن ذلك حضارة متعطلة . أو قد يستبدل القادة - متبرمين - مزمار الزمار ذى الثوب المخطط الذى يستخدمه فى الاستهواء ، بسوط القسر والضغط .

هنا ، تتطور الأقلية المبدعة إلى أقلية « مسيطرة » ، ويغدو « المريدون » « بروليتاريا » نافرة مبعدة :

وعندما يقع هذا ؛ يلج المجتمع طريقا يقوده إلى التحلل . وعندئذ يفقد القدرة على تقرير المصير .

وتفسر الفقرات التالية الطرائق التى يتم بها ذلك .

٢ - نبذ جديد فى أوعية قديمة :

يجب - من الناحية المثالية - على كل طاقة اجتماعية جديدة 'تطلقها' الأقليات المبدعة ؛ أن ترجد نظما جديدة تستطيع بوساطتها أن تؤدى رسالتها . ولكنها تُنجز عملها فى الواقع ، باستخدام النظم القديمة فى غير ما خصصت له ؛ أكثر مما تنجزه باستخدام النظم الجديدة . بيد أنه كثيرا ما تدل النظم القديمة على عدم صلاحيتها وعلى عنادها . ويستتبع ذلك ظهور إحدى نتيجتين : إما تفكك النظم ، أى اندلاع ثورة ؛ وإما بقاء النظم ، وما يستتبع ذلك من انحراف القوى الجديدة التى عن طريقها تنجز عملها .

وقد تُعرَف الثورة بأنها فعل بطيء للمحاكاة يتحوّل بفعل ذلك إلى انفجار .
فهو إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق نزعة المحاكاة . ويستمر الارتقاء ؛ إذا
حدث وتحقق الاتفاق بين النظم والقوى . وإن لم يتم الاتفاق وحدثت
الثورة ، يُصبح الارتقاء مخموفاً بالخطر . وإن تولّد عنه الطابع المتسم
بالعنف والشذوذ ، تسهل ملاحظة وجود الانهيار .

ويُلحق المؤلف آراءه السالفة الذكر ، بسلسلة من أمثلة عن ضغط
القوى الجديدة على النظم القديمة . وتتألف المجموعة الأولى من ضغوط
القوتين الجديدتين الكبيرتين اللتين تسريان في المجتمع الغربي الحديث .
ضغط الصناعة (أى الاتجاه صوب الصناعة الآلية) على الحرب ، وبالأحرى
ازدياد حدة الحرب منذ الثورة الفرنسية . وضغط الديمقراطية والصناعية
على نظام الدولة الإقليمية ، ويوضح ذلك استفحال العصبية القومية ،
وإخفاق حركة التجارة الحرة .. وضغط الصناعة على نظام الملكية الخاصة ،
ويوضحه قيام الرأسمالية والشيوعية . وضغط الديمقراطية على التربة العلمية ،
ويصوره قيام الصحافة الصفراء والديكتاتوريات الفاشية . وضغط
الأهلية الإيطالية على حكومات البلاد الواقعة وراء جبال الألب ،
ويوضحه (فيما خلا إنجلترا) انبعاث ملكيات استبدادية . وضغط الثورة
الصولونية على المدن الهلينية ، ويوضحه ظواهر ؛ الطغيان والحرب بين
الطبقات وبسط السلطة على الغير . وضغط العصبية الإقليمية على الكنيسة المسيحية
الغربية ؛ وتوضحه الثورة البروتستانية وحق الماووك الإلهي وحجب الروح
الوطنية للمسيحية . وضغط الشعور بالوحدة على الدين ، ويوضحه انبعاث
التعصب الديني والاضطهاد . وضغط على النظام الطبقي ، ويوضحه مظهر
في الحضارة الهندية . وضغط الحضارة على مبدأ تقسيم العمل ؛ ويوضحه
تفشّي النزعة الباطنية في الزعماء الذين يُصبحون « إيثاريين » ، وتصيهم
الرخاوة ، وتصبح جماهيرهم مسترخية بالمثل . ويصور المؤلف التأثير الأخير

من حالات الأقليات التي أصابها النعمة ؛ مثال اليهود . كما تصوّرها انحرافات الروح الرياضية الحديثة .

ويُنْهِى المؤلف أخيراً إلى بحث ضغط الحضارة على نزعة المحاكاة . وهذا ما يبدو في توقّف المجتمعات البدائية عن التوجّه صوب تقاليد القبيلة ، وانصرافها إلى محاكاة الرواد . وغالباً ما لا يكون الرواد المختارين للمحاكاة ، زعماء مبدعين ، ولكن مستغلين تجاريين ، أو قادة جماهير .

٣ - آفة الإبداع : عبادة الذات الفانية .

يُظْهِر التاريخ ؛ أن الجماعة التي تستجيب بنجاح إلى تحدٍّ واحد ، نادراً ما تستجيب بنجاح إلى التحدّي التالي .

ويعرض المؤلف أمثلة مختلفة ، يظهر فيها اتفاق هذه الظاهرة مع قضايا أساسية مسلم بها في مُعطيات اليونانية والمصرية على السواء .

فإن أولئك الذين يُقَيِّضُ لهم التوفيق ذات مرة ، نزاعون في الفرصة التالية إلى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ومصادقاً لذلك ؛ نجد اليهود بعد ما استجابوا للتحدّيات الواردة في العهد القديم ، ينهزمون أمام التحدّي الذي أبرزه العهد الجديد . ونجد أثينا أيام بركليس ؛ تتضاءل إلى أثينا إبان عصر القديس بولص . ونجد في عصر الإحياء أن المراكز التي استجابت للنهضة ؛ تدلّ على قصورها ؛ فكان أن استأثرت بالزعامة بيد مونت التي لم يكن لها دور في أعجاد إيطاليا القديمة .

ولقد كانت كارولينا الجنوبية وفرجينيا ، ولايتين رئيسيتين للولايات المتحدة الأمريكية إبان الربعين الأول والثاني من القرن التاسع عشر ، لكنهما أخفقتا بعد الحرب الأهلية ، في استعادة مركزهما ، بالمقارنة بكارولينا الشمالية ، التي كانت مغمورة من قبل .

٤ - آفة الابداع : عبادة النظام الفانى :

دلت عبادة نظام المدينة فى المراحل الأخيرة للتاريخ الهلنى ، على أنه شرك تردى فيه اليونانيون ، بينما نجا منه الرومان .

ولقد تسبب قيام « شبح » للإمبراطورية الرومانية ، فى انهيار مجتمع المسيحية الأرثوذكسية .

ويسوق المؤلف كذلك تفسيرات للتأثيرات المعوقة لعبادة الملوك ، والمجالس النيابية والطوائف الحاكمة ، سواء أكانت بيروقراطية أو نظام قساوسة .

٥ - آفة الابداع : عبادة أسلوب فنى :

تبدى التفسيرات الخاصة بالتطور البيولوجى أن « الأسلوب الفنى » الكامل أو التكيف المكتمل لبيئة ما ؛ غالباً ما يدل على أنه طريق تطورى مغاى ، وأن الكائنات الأكثر « تجريبية » تبرز على طاقتها الحيوية . مثال ذلك أن البرمائيات ، إذا ما قورنت بالأسماك تعتبر أنجح ، وأن أسلاف الإنسان الشبيهة بالفأر إذا ما قورنت بمعاصرها ، الزواحف الهائلة ، تعتبر هى أيضاً أنجح .

ونجد فى المجال الصناعى ؛ أن نجاح جماعة معينة فى المراحل الأولى لأسلوب فنى جديد (مثال ذلك اختراع الدولاب البخارى) ، يجعل تلك الجماعة أبطأ من غيرها فى استخدام المراحل اللاحقة .

ويظهر استعراض قصير لتاريخ فن الحرب من أيام داود وجالوت حتى الوقت الحاضر ؛ أن المخترعين والمتفيعين من ابتكار واحد ، يشرعون فى كل مرحلة فى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ويدعون الابتكار التالى لأعدائهم .

٦ - انتحارية النزعة الحربية :

قدّمت الفقرات الثلاثة السابقة ، تفسيرات لعبارة « استلقاء المرء

على مجاذيفه » التي تعتبر الطريقة السلبية للاستسلام إلى آفة الابداع . وإننا ننقل الآن إلى الشكل الإيجابي للانحراف الذي عبرت عنه صيغة يونانية تعنى : التخمة ، السلوك الأحمق ، الدمار . وتعتبر النزعة الحربية مثالا واضحا . ولم يكن السبب الذي دعا الأشوريين إلى استجلاب الخراب على أنفسهم ، كونهم - مثل المنتصرين الذين استعرضناهم في نهاية الفصل السابق - قد تركوا حراهم يعلوها الصدا . فلأنهم من الوجهة العسكرية كانوا دائما أكفاء مبرزين في فهم : إن الدمار قد حل بهم ، لأن عدوانهم قد استنفد طاقتهم ؛ كما أن عدوانهم جعل حراهم لا يطبقون احتلالهم . ويعتبر الإشيوريون مثالا للمقاطعة الحربية على الحدود التي توجه سلاحها ضد المقاطعات الداخلية لمجتمعها .

ويبحث المؤلف كذلك ، الحالات المماثلة للفرنجة الاسراسيين ولتيمورلنك . كما يذكر غير ذلك من الأمثلة .

٧ - سكرة النصر :

يوضح المؤلف في المجال الغير الحربى ، مبحثا مشابها لذلك المبحث الوارد في الفقرة السابقة ؛ بإيراد مثال بابوبة هيلدبراند . وهى نظام فشل بعدما رفع مركزه ومركز المسيحية من الإعماق إلى القمم . ويعزى فشله إلى انتشائه بنجاحه الذاتى . فكان إن حاول استخدام الأسلحة السياسية في صورة غير شرعية جريا وراء غايات جاوزت الحد . ويبحث المؤلف من هذه الزاوية الخلاف الذى ثار حول تدخل الأمراء في إقامة رجال الدين في مناصبهم .

الكتاب الخامس

تحلل الحضارات

الفصل السابع عشر — طبيعة التحلل

١ — عرض عام :

هل التحلل ضرورى ، ونتيجة للانهار لاجبىص عنها ؟
 يظهر التاريخ المصرى وتاريخ الشرق الأقصى ، أن ثمة بديلا أطلقنا
 عليه اسم : التحجر . وإلى التحجر يعزى مآلت إليه الحضارة الهلينية ،
 وقد يكون التحجر عُقبى الحضارة الغربية .
 إن ميزان التحلل البارز ، هو انقسام الجسم الاجتماعى إلى كسور ثلاثة :
 أقلية مسيطرة .
 وبروليتاريا داخلية .
 وبروليتاريا خارجية .
 وهنا يلخص المؤلف ما سبق قوله بشأن هذه الكسور ، ويشير إلى
 منهاج الفصول التالية .

٢ — الانشقاق ورجعى الميلاد :

تجهز فلسفة كارل ماركس المهمة ، بأنه سيتلو الحرب الطبقة — بعد
 ديكتاتورية البروليتاريا — نظام للمجتمع جديد .
 وبصرف النظر عن التطبيق الخاص لفكرة كارل ماركس ؛ فإن هذا
 هو ما يحدث فعلا وقتما يتردى مجتمع ، فى انشقاق سبقت لنا ملاحظته
 ذى ثلاثة مظاهر . وينجز كل كسر عملا إبداعيا متميزا :

تنجز الأقلية المسيطرة ، دولة عالمية .
وتحقق البروليتاريا الداخلية ، عقيدة دينية عالمية .
و'نشئ' البروليتاريا الخارجية عضابات حربية بربرية .

الفصل الثامن عشر — الانشقاق في الجسم الاجتماعي

١ — الأقليات المسيطرة :

على الرغم من أن الحريين والمستغلين ، هم — كما هو معروف — من بين الأنواع المميزة في الأقليات المسيطرة ؛ فإن ثمة كذلك أنواعا أخرى أكثر نبلا : المشرعون ورجال الإدارة ، وهم يذودون عن الدولة العالمية . وثمة الباحثون الفلاسفة الذين يهبون المجتمعات إبان اضمحلالها ، المذاهب الفلسفية المميزة .

وتطالعنا في هذا الصدد ؛ السلسلة الطويلة من الفلاسفة الهلنيين من سقراط إلى أفلوطين .

ويورد المؤلف أمثلة من مختلف الحضارات الأخرى .

٢ — البروليتاريات الداخلية :

يبدى تاريخ المجتمع الهليني ، وجود بروليتاريا داخلية تكوّنت من ثلاثة مصادر :

مواطنو الدول الهلينية الذين حرمتهم من ميراثهم ؛ الفورات السياسية والاقتصادية ، وجلبت عليهم الحراب .

والشعوب التي أخضعت

وضحايا تجارة الرق

ويشارك جميعهم في كونهم بروليتاريين من ناحية شعورهم بأنهم « في » مجتمع ، لكنهم ليسوا من هذا المجتمع . وكان العنف هو أول ردود الفعل التي أظهروها .

لكن تلا ذلك انبعث ردود فعل « وديعة » توجت بكشف « العقائد الدينية العليا » مثل المسيحية . ولقد انبعثت المسيحية - مثلما انبعثت الميثرية وغيرها من العقائد المنافسة لها في العالم الهليني - في مجتمع أو آخر من المجتمعات « المتحضرة » الأخرى التي أخضعتها الجيوش الهلينية . ثم يبحث المؤلف البروليتاريات الداخلية للمجتمعات الأخرى ، ويلاحظ ظواهر مشابهة بمعنى . تشابه أصول اليهودية والزرادشتية في البروليتاريات الداخلية للمجتمع البابلي ، مع أصول المسيحية والميثرية في المجتمع الهليني ؛ وإن اختلف فيما بعد تطور تلك العقائد الدينية لأسباب يذكرها المؤلف . ولقد كان تحول الفلسفة البوذية البدائية إلى العقيدة الماهايانية ، مما زود البروليتاريا الداخلية الصينية بدين « أعلى » .

٣ - البروليتاريا الداخلية للعالم الغربي :

يتيسر إيراد شواهد وفيرة عن وجود بروليتاريا داخلية في المجتمع الغربي يدل عليها - إلى جانب أشياء أخرى - وجود طبقة مثقفة عُبئت من البروليتاريا ، وأصبحت وسيطا للأقلية المسيطرة . ويناقش المؤلف السمات الأساسية للطبقة المثقفة .

على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربي الحديث ، ما برحت - مع ذلك - تُبنى عن عقم ملحوظ بالنسبة لانجذاب « أديان عليا » جديدة . ويفسر سبب ذلك ، برده إلى الحيوية المستمرة للكنيسة المسيحية التي خرجت منها الحضارة المسيحية الغربية .

٤ - البروليتاريات الخارجية :

مادامت الحضارة في طور ارتقائها ، يتألق تأثيرها الثقافي صوب جيرانها البدائيين ، وتنفذ إلى مسافات شاسعة . ويغدو هؤلاء الجيران

البداثيون جزءا من « الأغلبية العاطلة عن الابداع » التي تتبع قيادة الأقلية المبدعة .

ولكن عندما تنهار الحضارة ، يبطل فعل فتونها ؛ فيصبح البرابرة معادين لها . ويقوم خط حدود قد ينتقل موعلا في الابتعاد ؛ ولكنه في النهاية يستقر في مكان واحد . فإذا ما وصلت الحال هذه المرحلة ، يغدو الوقت في جانب البرابرة .

ويستخدم المؤلف التاريخ الهليني لتعزيز رأيه : ويشير إلى ما ترتب عن ضغط حضارة معادية من تحول العقائد الدينية البدائية للبروليتاريا الخارجية — وهي عقائد تقوم في الأصل على فكرة الحصوبة — إلى أديان من نوع « عصابة الحرب الأوليمبية الإلهية » .

ويعتبر شعر الملاحم ، أبرز إنتاج البروليتاريات الخارجية :

٥ — البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي :

يستعرض المؤلف تواريخ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي ، ويوضح ردود فعلها العنيفة والوديعة . ويردّد إختفاء البربرية من النوع التاريخي من العالم الغربي تقريبا ، إلى الكفاية المادية الساحقة للمجتمع الغربي .

ومع ذلك فإن بربرية أفضع قسوة ، قد انتشرت في المراكز القديمة للمسيحية الغربية نفسها .

٦ — مصادر الإلهام الوطنية والأجنبية :

تواجه الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية عراقيل مختلفة عند استمدادها إلهامها من مصدر أجنبي عنها . مثال ذلك الدول العالمية التي

تؤسسها أقليات مسيطرة أجنبية (مثل الهند أيام خضوعها للبريطانيين ، أقل توفيقا في اجتذاب رعاياها . إليها ؛ عكس الدول العالمية الوطنية مثل الامبراطورية الرومانية . وتستثير عصابات الحرب البربرية مقاومة أشد عنادا وأعظم حماسا ، إن كانت نزعتها البربرية — مثل الهكسوس في مصر أو المغول في الصين — مصطبغة بتأثير حضارة أجنبية .

ومن الناحية الأخرى تدين بصفة عامة الأديان العليا التي تنجبها البروليتاريات الداخلية ، بجاذبيتها ، إلى إلهام أجنبي المصدر ، وتبرهن هذه الحقيقة ، جميع « الأديان العليا » تقريبا .

وتبدى الحقيقة القائلة بعدم إمكان استيعاب تاريخ « الدين الأعلى » إلا بدراسة حضارتين : الحضارة التي استمد منها إلهامه والحضارة التي تأصلت فيها جذوره ؛ تبدى أن الفرض الذي قامت على أساسه هذه الدراسة — (أى الفرض القائِل بأن الحضارات إن أخذت بمفردها هي ميادين واضحة للدراسة) — فرض ينهار عند هذه النقطة .

الفصل التاسع عشر — الانشقاق داخل الروح

١ — طرائق بديلة في السلوك والشعور والحياة :

عندما يبدأ مجتمع في التحلل ، يحل محل الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة — ويتميز بها الأفراد خلال مرحلة الارتقاء — مجالات اختيار أخرى ، إحداها (المذكور أولا في كل زوج) سلبى ، والآخر (الأخير) إيجابى .

ويعتبر « التراخي » و « ضبط النفس » مجالى الاختيار البديلين للابداعية . ويعتبر « الشرود » و « الاستشهاد » مجالى الاختيار البديلين لاتباع المحاكاة .

وإن الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة ، هما مجالالاختيار البديلين للابتداع الحيوى الذى يصاحب الارتقاء . وإن الشعور بالابتدال والشعور بالاتحاد ، هما مجالالاختيار البديلين للشعور بـ « أناقة الأسلوب » ؛ الذى يُعتبر بدوره الصفة الذاتية المقابلة للعملية الموضوعية للتمايز ؛ وهى عملية تصاحب الارتقاء .

ويوجد على سطح الحياة ، زوجان بديلان من التغيرات على الحركة المتجهة نحو تحويل ميدان الحركة من الكون إلى الإنسان . ويضم ذلك بين ثناياه ، عملية سبق أن وصفناها بأنها « الأثرة » .

وبعجز الزوج الأول من البديلين — أى السلفية والمستقبلية — عن إنجاز هذا التحويل ، ومن ثم يولدان العنف .

أما عن الزوج الثانى — أى الاعتزال والتجلى — فإنه يوفق فى إنجاز التحويل . ويتسم بالدعة .

وتسعى السلفية إلى « إرجاع الساعة إلى الوراء » . أما المستقبلية ، فإنها محاولة لسلوك طريق قصير لتحقيق عالم على الأرض يستحيل تحقيقه عملياً .

أما الاعتزال ، وهو الارتقاء الروحى للسلفية ، فإنه هجران لعالم الحياة .

أما التجلى — وهو الارتقاء الروحى للمستقبلية — فإنه فعل تقوم به النفس التى تُنجب « الأديان العليا » .

ويورد المؤلف أمثلة لجميع طرائق الحياة الأربع ويبين علاقاتها بعضها ببعض الآخر .

وأخيراً ؛ يُظهر المؤلف أن بعضاً من طرائق الشعور والحياة هذه ، هو أساساً مظهر مميز للنفوس فى الأقليات المسيطرة :

ويعرف المؤلف التراخي وضبط النفس ويورد الأمثلة .

ويعرف المؤلف الشرود والاستشهاد ويورد أمثلة .

٤ - الشعر بالانسياق والشعور بالخطيئة :

يُردّ الشعور بالانسياق إلى إحساس بأن العالم بأسره تحكمه « المصادفة أو الضرورة » ويدل المؤلف على تماثل الكلمتين : ويفسر مجال الإيمان المتسع الأرجاء ، ويبدأ أن طائفة من العقائد الدينية القائلة بالجبر - مثل مذهب كالفين - تنقسم بتوليدها طاقة وجراً أخذتين : ويبحث المؤلف تلك الحقيقة التي تبدو غريبة لأول وهلة ،

وبينا يعمل الشعور بالانسياق عادة مُسكّناً ، فإن الشعور بالخطيئة ينبغي أن يعمل حافظاً .

ويبحث المؤلف مذهبي « الكارما » و « الخطيئة الأصلية » (التي تجمع بين فكرتي الخطيئة والحتمية) . وفي المثال التقليدي للاعتقاد بأن الخطيئة هي العلة الحقيقية - وإن لم تكن الظاهرة - للكوارث القومية ؛ أخذت الكنيسة المسيحية بتعاليم أنبياء اليهود هذه ، وطفقت طوال قرون عدة تقدّمها للعالم الهليني الذي كان يُعدّ نفسه قروناً كثيرة لقبولها دون أن يشعر .

ولأنه وإن كان المجتمع الغربي قد ورث التقليد المسيحي ، لكن لعله أصبح ينزع إلى نبذ مسألة الشعور بالخطيئة ، وهو جانب جوهرى من هذا التقليد .

٥ - الشعور بالابتذال :

يعتبر هذا بديلاً للشعور بـ « أناقة الأسلوب » الذي هو سمة الحضارة في سياق ارتقائها . ويتبدّى في طرائق مختلفة :

(ا) السوقية والبربرية في طرائق السلوك — فإن الأقلية المسيطرة

تُظهر نفسها مكتبة على « الاتجاه البروليتارى » متخذة سوقية البروليتاريا الداخلية ، وبربرية البروليتاريا الخارجية ؛ إلى أن يحدث في المرحلة النهائية للتحلل ، أن تصبح طريقة حياة الأقلية المسيطرة ، لا يمكن تمييزها عن طريق حياة البروليتاريين .

(ب) السوقية والبربرية في الفن — هو الثمن الذى يؤدى في العادة للاستفادة الواسعة الحارقة للعادة ، لفن حضارة متحللة .

(ج) اللغات العامة — يقود امتزاج الشعوب إلى البلبلة والمنافسة المتبادلة بين اللغات . وينتشر كلغات . ويسبب انتشارها ، حدوث انحطاط يقابل درجة انتشارها . ويورد المؤلف أمثلة وتفسيرات عدة .

(د) التركيب في الأديان — يميّز في هذا الشأن ثلاث حركات هي :

اندماج المدارس الفلسفية — اندماج العقائد الدينية المنفصلة (مثال ذلك تخفيف مذاق دين إسرائيل بمزجه بالعقائد المجاورة . وهى حركة عارضها الأنبياء العبرانيون معارضة قبض لها النجاح في النهاية) — امتزاج أو التركيب بين المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية وبعضها بعضا .

ولما كانت المذاهب الفلسفية ، نتاج أقليات مسيطرة ، والأديان العليا هى نتاج البرولياريات الداخلية ؛ فإن التفاعل هنا شبيه بما ورد في الفقرة (ا) . ويظهر هنا مثلما ظهر هناك ، أنه رغما عن أن البروليتاريين يتحركون بعض الشيء نحو الأقلية المسيطرة ، تتحرك الأقلية المسيطرة مقداراً أكبر كثيراً نحو موقف البروليتاريا الداخلية . ومن قبيل المثال ؛ أن الدين المسيحى يستخدم أداة الفلسفة الهلينية في تأويلاته اللاهوتية . بيد أن هذا يعتبر ترخصاً صغيراً ، إن قورن بالتحول الذى طرأ على الفلسفة اليونانية في غضون الفترة بين عصرى أفلاطون وبولياني .

(هـ) الأمير يعين الدين — هذا البحث جاء استطراداً لبحث

موضوع الإمبراطور الفيلسوف يوليان الذى أشار إليه فى الموضوع السابق .
فهل فى وسع الأقليات المسيطرة أن تعالج ضعفها الروحاني باستخدام
السلطة السياسية لفرض الدين أو الفلسفة التى تختارها ؟

مناطق الإجابة ؛ أن الأقليات المسيطرة تفشل فى هذا السبيل ، ما خلا
حالات استثنائية فإن الدين الذى ينشد تأييد القوة ؛ يصيب نفسه بهذا
العمل بضرر بالغ . والاستثناء الوحيد الملفت للنظر ، انتشار الإسلام .
ولكن يدلّ تعمق البحث هنا أيضاً على معنى الاستثناء فى حالة انتشار
الإسلام من هذه القاعدة .

ولعل الصيغة المضادة وهى « دين الشعب دين الأمير » أقرب للحق .
فإن حدث أن اعتنق الحاكم — سواء بدافع الاستخفاف أو الإيمان — عقيدة
أتباعه الدينية ، فإن الإجراء يقود إلى توطيد ملكه .

٦ — الشعور بالاتحاد :

هذا هو « مضاد » إيجابى الطابع للشعور بالابتدال السلبي الطابع .
ويعبر الشعور بالاتحاد عن نفسه فى صورة مادية ، فى إيجاد الدول
العالمية ؛ ويلهم الشعور بالاتحاد ، إدراكاً يسود كل شئ وإدراكاً
بوجود إله حاضر فى كل مكان محيط بكل شئ متسلط على العالم .

ويبحث المؤلف هذه الآراء ويفسرها .

ويعرض المؤلف فى سياق موضوع الكائن الألهى الكلى الوجود ؛ إلى
سيرة « يا هوى^١ » إله العبرانيين « الغيور » ؛ منذ بداية ظهوره جنياً فى
بركان من براكين سيناء ، إلى ارتفاع شأنه فى نهاية المطاف ، واعتباره
الحامل التاريخى لفكرة صافية متدرجة عن « الإله الواحد الحق » الذى
تعبده الكنيسة المسيحية .

ويقدم المؤلف تفسيراً لانتصار ياهوى على جميع منافسيه .

٧ - السلفية :

هى محاولة للفرار من حاضر لا يمكن احتماله ، عن طريق إعادة تشييد مرحلة سابقة من تاريخ حياة مجتمع متحلل .
ويقدم المؤلف أمثلة قديمة وحديثة . وتشتمل الحديثة على إحياء النزعة القوطية ، والإحياء الاصطناعى للغات انقرضت كلياً أو جزئياً لأسباب الروح القومية .

وخلص المؤلف إلى القول بأن الحركات التى تنزع صوب السلفية .
هى فى الغالب إما عقيمة أو تستحيل إلى نقيضها ، أى إلى « مستقبلية » .

٨ - المستقبلية :

هى محاولة للفرار من الحاضر ، بالقفز إلى ظلمة مستقبل مجهول .
وتقتضى محو الروابط التقليدية مع الماضى ؛ فهى فى الواقع نزعة ثورية .
وتعبر عن نفسها فى الفن ، فى نزعة تحطيم المقدسات .

٩ - التسامى الذاتى للمستقبلية :

إذا كانت السلفية تتردى فى هوة المستقبلية ، فإن المستقبلية قد تصعد إلى قمم التجلى . وبعبارة أخرى ، تنبذ المستقبلية المحاولة البائسة للعثور على مجتمعها المثالى فى المجال الدنيوى ، وقد تنشده فى الحياة الروحية ، دون أن يعوقها الزمان والمكان .

ويبحث المؤلف فى هذا الشأن ، تاريخ اليهود بعد الأسر البابلى . وقد عثرت المستقبلية عن ذاتها فى سلسلة من المحاولات الانتحارية لإيجاد امبراطورية يهودية على الأرض . محاولات بدأت منذ أيام زروبابل حتى باركوباك ؛ وانتهت أخيراً باعتناق فكرة التجلى التى تقوم عليها العقيدة الدينية المسيحية .

١٠ - الاعتزال والتجلى :

يعنى الاعتزال ؛ اتخاذ موقف يجد أصلب وأسمى تعبير عنه ، فى تعاليم البوذا . إن نتيجتها المنطقية هى الانتحار . ذلك لأن الاعتزال العام ممكن للإله وحده . أما الدين المسيحى فإنه ينادى بإله نبذ مختاراً اعتزالاً كان من الواضح أنه يستطيع أن يستمتع به لو شاء . وهذا الإله « يحب العالم كثيراً » .

١١ - جدّة المولد :

إن التجلى - من طرائق الحياة الأربع التى بحثت هنا - يعتبر الطريقة الوحيدة التى تهمّ طريقاً موصلاً لسالكيه ؛ ويتم بفضل نقله ميدان الفعل من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر (أى الإنسان) .
ويصدق هذا بالمثل على الاعتزال . مع فارق أنه بينما الاعتزال لا يعتبر إلا حركة انسحاب فحسب ، فإن التجلى حركة انسحاب وعودة ؛ هى جدّة المولد .
لكن جدّة المولد هنا لا تعنى إعادة ميلاد مثال آخر لنوع قديم ، لكنه يعنى ميلاد مجتمع من نوع جديد .

الفصل العشرون - العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

١ - العبرى المبدع مخلصاً :

يتزعم أفراد مبدعون فى مرحلة الارتقاء ، استجابات ناجحة لتحديات متعاقبة . ويُظهرون فى المرحلة المتحللة مخلصين للمجتمع المتحلل ، أو مخلصين منه .

٢ - المخلص الممتشق حساما :

هم مؤسسو الدول العالمية ومعاضدوها . لكن جميع أعمال السيف فانية .

٣ - المخلص صاحب آلة الزمان :

هم أصحاب نزعى السلفية والمستقبلية . ويلجأون إلى السيف كذلك ،
ويُلاقون مصير ممتشق السيف :

٤ - الفيلسوف فى قناع ملك :

هو علاج أفلاطون المشهور : ويصبيه الاخفاق من جراء التناقض بين
اعتزال الفيلسوف ، وطرائق القهر التى يستخدمها الزعماء السياسيون .

٥ - الإله المتجسد فى إنسان :

يُبين المؤلف كيف تختنق المحاولات الناقصة ، وينتصر يسوع الناصرى
وحده على الموت :

الفصل الحادى والعشرون - إيقاع التحلل

يمضى التحلل قُدُماً ، لا بصورة متجانسة - ولكن بفعل تعاقب -
كسرات ونهضات .

ومن قبيل المثال :

يعتبر إنشاء الدولة العالمية ؛ نهضة بعد الكسرة التى حدثت فى عصر
اضطرابات : ويعتبر تفكك الدولة العالمية كسرة نهائية . ولما كان يوجد
عادة نهضة تعقبها كسرة فى سياق عصر اضطرابات ، كذلك توجد كسرة
تعقبها نهضة فى تاريخ دولة عالمية . فيبدو أن الإيقاع المألوف هو كسرة -
نهضة - كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة ؛ أى ثلاث
دقات ونصف دقة .

ويصور هذا النمط فى تواريخ مختلف المجتمعات المدرسة ، ثم يطبق

على تاريخ مجتمع المسيحية الغربية من زاوية تحقيق مرحلة النمو التي بلغها هذا المجتمع .

الفصل الثاني والعشرون — توحيد المقاييس

إذا كان التمايز هو سمة الارتقاء ؛ فإن توحيد المقاييس هو علامة التحلل .

ويختتم المؤلف بحثه بالإشارة إلى المشكلات التي يترك بحثها للأجزاء الآتية من الدراسة .

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	٨	ارتقاء	الارتقاء	١١١	١٨	العالية	العالية
١١	١١	لتجد	لتجد	١١٥	١٤	عام	عام
١٣	١٣	صاب	أصاب	١٢٧	١١	المعاملين	المعاملين
١٤	٢٣	الأمير	الأمر	١٣٥	١١	تمثله	تمثلها
١٧	٤	منه	من	١٤٦	٤	يحف	يحف بها
٢٠	١٨	للروح	لروح	١٤٨	٦	نستشهد	تستشهد
٢٣	١٠	عكسية	عكسها	١٥٢	١٢	ومرد	ويرد
٣٩	٢٣	للافاق	للافاق	١٥٢	١٤	السيطرة	السيطرة
٤٩	٣	سمح لهم	سمح لها	١٥٤	١٣	يتزايد	يتزايد
٤٩	١٦	هذه الأقليات	على هذه الأقليات	١٥٥	١١	تسلك	تسلك
٥٣	٢	تمثليات	تمثليات	١٥٧	٢	هادئة	بالهدوء
٥٦	١	حقة	حقه	١٥٨	١٤	الحديد	الحديد
٥٦	٢	حقه	حقها	١٦٣	٩	للتنمط	للتنمط
٥٦	٢	بدورهم بإنكارهم	بدورها بإنكارها	١٦٤	٢٠	الفرس	للفرس
٦٤	١٣	الذي يبتد مونت	الذي ألم يبيد مونت	١٦٦	٢١	في مجموعة	في مجموعه
٦٦	٢٠	لا تحتويان	تحتويان	١٦٧	١٧	الأسف	وقتنذ
٧٢	٢	هذا الكثير يمكن	لدينا الكثير ما	١٦٩	٢	تتصل	تتصل
		قوله	يمكن قوله	١٧٥	٨	تلقينهم	تلقينهم
٧٤	٢٣	لا بمكس	لا يمكس	١٧٧	٢٠	يمذب بالأمل	يفغذ الأمل
٧٦	١٢	أصببت إصابة	أصببت	١٨٤	١٧	اعتبارها	اعتبارها
٧٦	١٤	أنجزتها	أنجزتها	١٨٦	١٣	اللاذنيوية	اللاذنيوية
٨٦	٦	ففى التطور	فبالنسبة للتطور	١٨٦	٢٣	للمنفين	للمنفين
٨٧	١	تكيف	لتكيف	١٨٧	٥	الأيروانيون	الإيروانيون
٨٧	٩	والتباحث	والبطىء	١٨٧	٢٢	أيد	رب
٨٩	٨	وأم	وأم	١٩٠	٥	الشيظورية	النسظورية
٨٩	٢٤	cead'line	Outline			المينوفيشية	والمينوفيشية
٩٤	٤	الخان	الخان	١٩٤	١	وأصببت	وأصببت
٩٥	١٧	المقادير	المقادير	١٩٥	١	الذكرين	الذكرين
١١٠	٢٢	على به	على هذا	٢٢٥	١٨	السبب	السبب

صفحة	سطر	خطاً	صواب	صفحة	سطر	خطاً	صواب
٢٢٨	١	نظير	نظيراً	٢٢٢	١٩	أن فكرة	فكرة
٢٢٨	١١	لضمر	لشعر	٢٢٤	٢٤	Logas	Logos
٢٣٠	١٦	للمجتمعات	المجتمعات	٢٣٥	١	قنوم	أنوم
٢٣٤	٧	عالم عربي	عالم غربي	٢٣٦	٩	عنا غالباً	ثمناً غالباً
٢٤٣	١٤	تمهد	تميد	٢٤٠	٥	الفلسفة	الفلسفة
٢٦٣	٨	السلطة	السلفية	٢٤٠	٢١	تساوى	تساوى
٢٦٣	١٤	السلطة	السلفية	٢٤١	٤	المضطرة	المضطرة
٢٦٤	٧	القدمية	السلفية	٢٤٤	١٣	عصر	عصر
٢٦٦	٢١	دون كيروت	دون كيشوت	٢٤٤	٢٢	أعفت	أنهت
٢٦٧	٢١	فعل بارز عقيم	فعل بارزاً عقيماً	٢٥٢	٣	أعنى	أعنى
٢٦٧	٢٤	حلا على الأسلوب	حلا على الأسلوب الذي	٢٦١	٦	خلقت	خلقت
٢٧٤	١٢	بين تضاعف	بين تضاعيف	٢٦٧	٧	التتوق	التتوق
٢٧٧	٢٠	يدأ	بدأ	٢٦٨	٧	عطفى	عاطفى
٢٧٨	٢٠	الترع	الترع	٢٦٩	٣	يستق	يستقيم
٢٨٢	١٩	الفلسف	الفلسفى	٢٨٢	٦	الطبيع	الطابع
٢٨٣	٨	ويحتمل	يحتمل	٢٨٤	٩	نعتبر	نعتبر
٢٨٤	١١	الرنح	الربح	٤٠٢	٢	ذلك	كذلك
٢٨٦	١٤	هذا على	على هذا	٤٠٤	١٦	في إعادة	بإعادة
٢٨٨	٥	الاسمى	العليا	٤١٠	٣	تقود أولئك أصحابها	تقود أصحابها
٢٨٨	١٢	فكرة	فكرة	٤١٨	٣	للمثلين	للممثلين
٢٩١	١١	هى ت التى أد	هى التى أدت	٤١٨	١٦	ميناها	ميناها
٢٩٢	١٤	أو	إذ	٤٢٤	١٣	سبيل	في سبيل
٢٩٤	٢٢	المجومون	المجرمون	٤٢٩	٢٢	تمضى سبيلها	تمضى في سبيلها
٢٩٩	١	مخطط هؤلاء	مخطط هؤلاء العلماء	٤٣٠	٦	بأخرى	بأخرى
		التفكيرى العلماء	التفكيرى	٤٣٤	١	يفضل أن	يفضل
٢٥٣	٣	ساميا	سلميا	٤٣٥	٤	أولئك الذين	أولئك الذين
٢٥٣	١٧	مصدر	مصدره	٤٤٠	١	يرفق	رفق
٣٥٧	٤	بعيداً	بعيد	٤٤١	٣	الذين بينه	الذين حالا بينه
٣١٠	١٤	جوس	حرس	٤٤٨	٣	ظهور	ظهور
٣١٦	٦	أن نصرح بأن	(تشطب)	٤٥٤	٢	إثيان	إثيان
٣١٧	١٨	مستقى	مشفقى	٤٥٧	١	لمرارة	المرارة
٣٢٣	٢	الثورة	الثورة	٤٥٨	١	قدمرا	أقدموا
٣٢٥	٢١	الشعوت	الشعوب	٤٥٩	١٩	مشي	مشي
٢٣٦	١٥	الذى مجال	الذى كان مجال	٤٦٥	٦	فيزوز	فيزوز
٢٢٦	٢٧	الأمن	الأمر	٤٦٥	١٦	التحلل	التحلل
				٤٧١	٦	نقيضاً	نقيضى

فهرس

الجزء الثانى من « دراسة للتاريخ »

الموضوع	صفحة
تقديم	...
الفصل السادس عشر - إخفاق تقرير المصير	...
١ - آلية المحاكاة	...
٢ - خر جديدة فى زقاق عتيقة	...
(١) تمسيلات وثورات وانحرافات	...
(٢) ضغط الصناعية على الرق	...
(٣) ضغط الديمقراطية والصناعية على الحرب	...
(٤) ضغط الديمقراطية والصناعية على السيادة الإقليميه	...
(٥) ضغط الصناعية على الملكية الخاصة	...
(٦) ضغط الديمقراطية على التعليم	...
(٧) ضغط الفاعلية الإيطالية على حكومات ما وراء الألب	...
(٨) ضغط الثورة الصولونية على المدن الأهلية	...
(٩) ضغط الإقليميه على الكنيسة المسيحية الغربية	...
« (١٠) ضغط الإيمان بالوحدانية على الدين	...
(١١) ضغط الدين على الطبقة	...
(١٢) ضغط الحضارة على تقسيم العمل	...
(١٣) ضغط الحضارة على فزعة المحاكاة	...
٣ - آفة الإبداع - عادة ذات فانية	...
(١) عكس الأدوار	...
(٢) اليهودية	...
(٣) أثينا	...
(٤) إيطاليا	...
(٥) كارولينا الجديدة	...
(٦) ضوء جديد على المشكلات القديمة	...

الموضوع	صفحة
٤- آفة الإبداع - عبادة نظام فان	٦٩
(١) المدينة الهلينية	٦٩
(٢) الإمبراطورية الرومانية الشرطية	٧٣
(٣) الملوك والمجالس النيابية والبيروقراطيات	٧٤
٥- آفة الإبداع - عبادة أسلوب في فان	٨٥
(١) أسماك وزواحف وتدييات	٨٥
(٢) آفة الإبداع في الصناعة	٩١
(٣) آفة الحرب	٩٣
٦- انتحارية للنزعات الحربية...	١٠٢
(١) البطر - الحق - الخاتمة	١٠٢
(٢) آشور	١٠٤
(٣) شارلمان	١١٤
(٤) تيمورلنك	١١٥
(٥) حارس التحوم يتحول إلى قاطع طريق	١٢٠
٧- نشوة النصر	١٢٣

الباب الخامس

١٤١	تحلل الحضارات
١٤٣	الفصل السابع عشر - طبيعة التحلل
١٤٣	١- عرض عام
١٥٦	٢- الانشقاق ورجعة المولد
١٦٠	الفصل الثامن عشر - الانشقاق في الكيان الاجتماعي
١٦٠	١- الأقليات المسيطرة
١٦٨	٢- البروليتاريات الداخلية
١٦٨	(١) طراز هلينى
١٧٧	(٢) فجوة مبنوية وبضعة آثار حيثة
١٧٩	(٣) البروليتاريا الداخلية اليابانية
١٨٠	(٤) البروليتاريات الداخلية في ظل الدولة العالمية الدخيلة

الموضوع	صفحة
(٥) البرولارياتان البابلية والسورية	١٨٣
(٦) البرولارياتان السندية والصينية	١٩٠
(٧) تراث البرولاريات الداخلية السومرية	١٩٤
٣- البرولاريات الداخلية للعالم الغربي	١٩٦
٤- البرولاريات الخارجية	٢١٤
٥- البرولاريات الخارجية للعالم الغربي	٢٢٩
٦- مصادر الإلهام الأجنبية والوطنية	٢٤٢
(١) آفاق متسعة	٢٤٢
(٢) الأقليات المسيطرة والبرولاريات الخارجية	٢٤٤
(٣) البرولاريات الداخلية	٢٤٩
الفصل التاسع عشر - الانشقاق في النفس	٢٥٥
١- طرائق بديلة في السلوك والشعور والحياة	٢٥٥
(١) كانوا	٢٦٦
(٢) القديس بطرس	٢٦٨
٢- التراخي وضبط النفس	٢٧٤
٣- الشرود والاستشهاد	٢٧٧
٤- الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة	٢٨١
٥- الشعور بالابتذال	٢٩٩
(١) السوقية والبربرية في طرائق السلوك	٢٩٩
(٢) السوقية والبربرية في الفن	٣١٦
(٣) اللغات العامة	٣١٩
(٤) التركيب الديني	٣٢٩
(٥) الأخير يعين الدين	٣٤٤
٦- الشعور بالاتحاد	٣٦٦
٧- نزعة السلفية	٣٨٤
٨- المستقبلية	٤٠١
٩- التماهي الذاتي لنزعة المستقبلية	٤١٠
١٠- الاعتزال والتجلى	٤٢٠
١١- رجعي الميلاد	٤٢٨

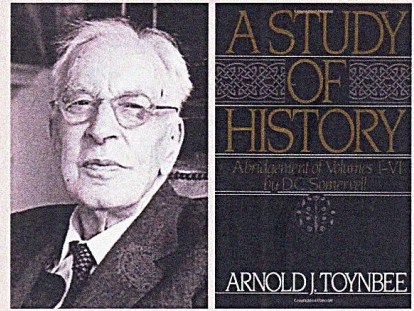
الموضوع	صفحة
الفصل العشرون - العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد	٤٣٢
١ - البقرى المبدع مخلصاً	٤٢٢
٢ - البقرى المنتشق حساماً	٤٣٤
٣ - المخلص صاحب آلة الزمان	٤٤١
٤ - الفيلسوف في قناع ملك	٤٤٤
٥ - الإله المتجسد في إنسان	٤٥٠
الفصل الحادى والعشرون - إيقاع التحلل	٤٥٩
الفصل الثانى والعشرون - توحيد المقاييس خلال التحلل	٤٧١
سياق الاستدلال	٤٧٧
الأخطاء المطبعية	٤٩٧
المهـرس	٤٩٩

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



يذهب توينبي في هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية. يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهايار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبي يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرد بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها - ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبي أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية - على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.